التَّدَبُّرُ وَالبَيَانُ

فِي

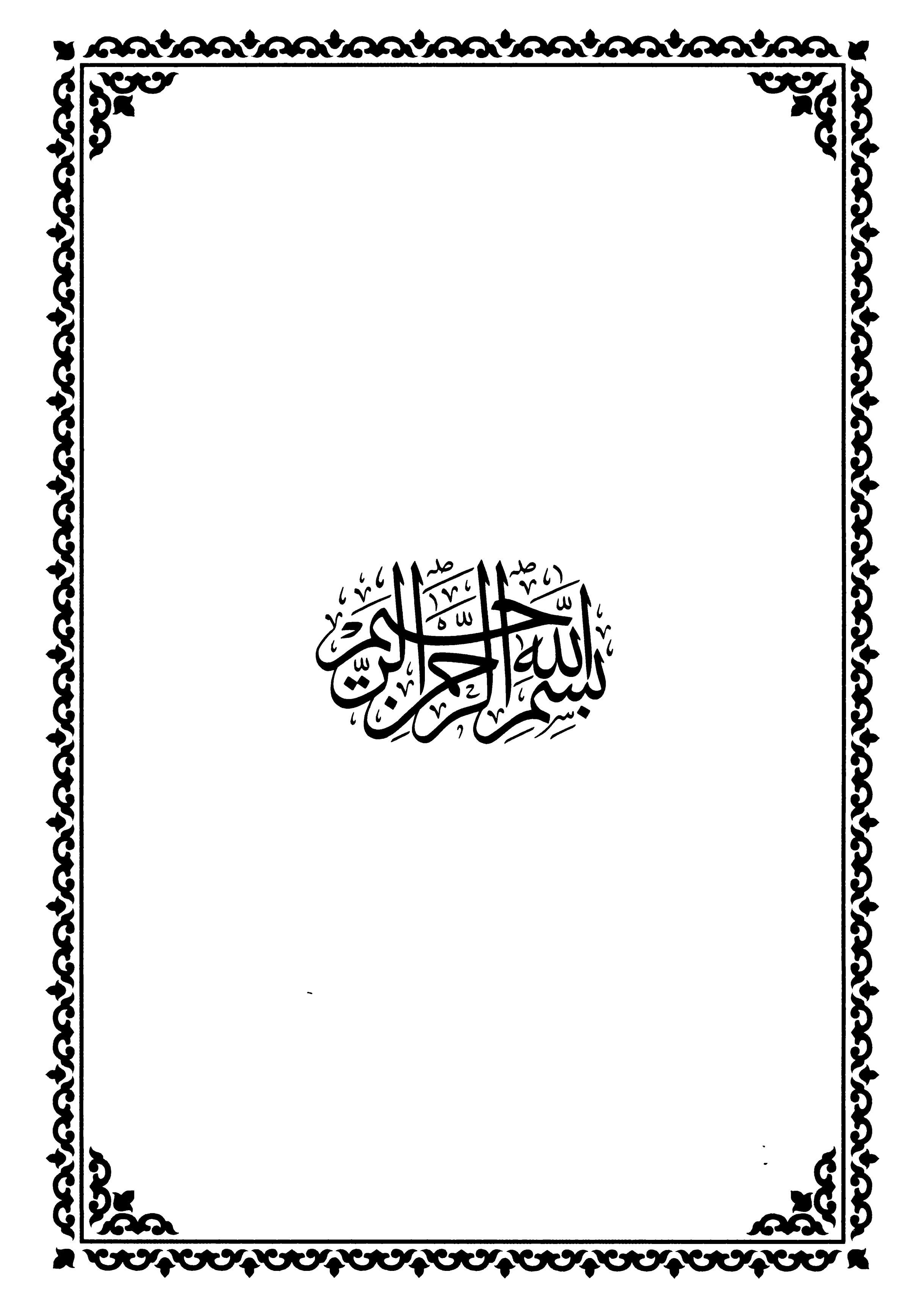
تَفْسِيرِ القُرْآنِ بِصَحِيحِ السُّنَنِ

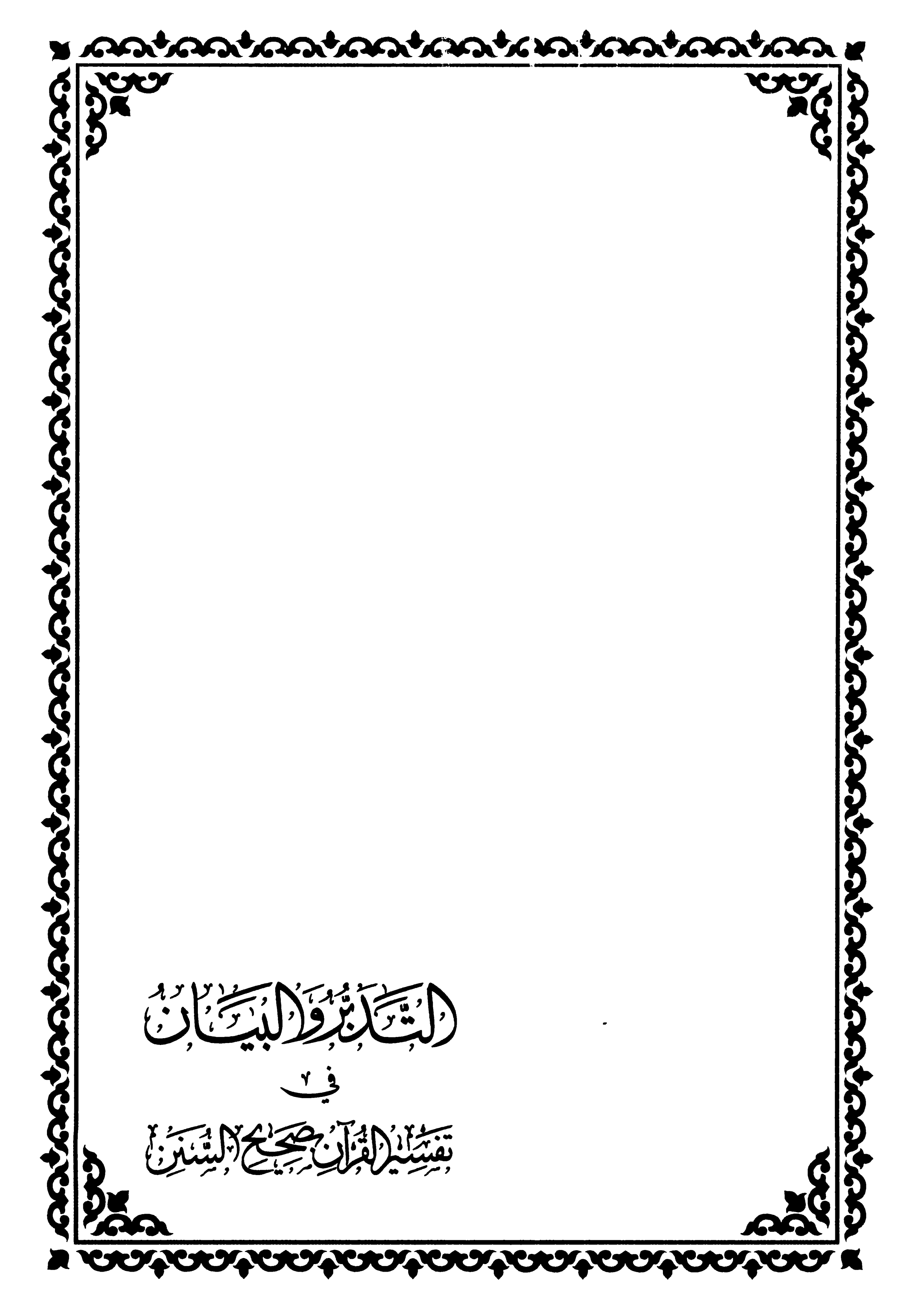
تأليفُ الأُستاذ الدّكتور

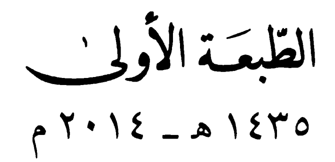
أبي سهل محمّد بن عبد الرّحمن المغراوي

المجلّدُ الثّالثُ والثّلاثون

الطُّور - الواقعة


بسم الله الرحمن الرحيم


التدبر والبيان
في
تفسير القرآن بصحيح السنن



١٤٣٥ هـ - ٢٠١٤ م

الكتاب : التدبر والبيان
في تفسير القرآن بصحيح السنن

Title : AT-TADABBUR WAL-BAYĀN
FĪ TAFSĪR AL-QUR'ĀN BI ṢAḤĪḤ AS-SUNAN

Classification: Exegesis — التصنيف : تفسير

المؤلف : أبو سهل محمد بن عبد الرحمن المغراوي

Author : Abu Sahl Muhammad ben Abdur-Rahman Al-Maghrawi.

Pages (40 Volumes) 22072 (40 مجلداً) عدد الصفحات

Size 17 x 24 cm قياس الصفحات

Year 2014 A.D - 1435 H. سنة الطباعة

Printed in : Lebanon بلد الطباعة : لبنـــان

Edition : 1st الطبعة : الأولى

رقم الإيداع القانوني : ٢٠١٤ MO ٠٤٢٨

ردمك : ٩٧٨ - ٩٩٥٤ - ٣٣ - ١٤٧ - ٧



سورة الطور

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في قراءة النبي ﷺ بالطور في المغرب

* عن جبير بن مطعم قال: «سمعت النبي ﷺ يقرأ في المغرب بـ(الطور)»(١).

★ **فوائد الحديث:**

قال ابن عبد البر: «في هذا الحديث دليل على أن في وقت المغرب سعة، وأنه ليس بضيق.. وقد روي عن النبي ﷺ أنه قرأ في المغرب ﴿الٓمٓصٓ ①﴾(٢) من حديث عروة بن الزبير عن مروان بن الحكم عن زيد بن ثابت.. وفي ذلك دليل على سعة وقت المغرب كما ذكرنا وروي عن النبي ﷺ أنه قرأ بـ: ﴿وَالصَّٰٓفَّٰتِ﴾ في المغرب، وأنه قرأ فيها بـ: ﴿حمٓ﴾ الدخان(٣) وأنه قرأ فيها بـ: ﴿سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى﴾(٤) وأنه قرأ فيها بـ: ﴿وَالتِّينِ وَالزَّيْتُونِ﴾(٥) وأنه قرأ فيها بـ(المعوذتين) وأنه قرأ فيها بـ(المرسلات)(٦) وأنه قرأ فيها بقصار المفصل(٧)، وهي آثار صحاح مشهورة، لم أر

---

(١) أخرجه: البخاري (٢/ ٣١٥/ ٧٦٥)، ومسلم (١/ ٣٣٨-٣٣٩/ ٤٦٣)، وأبو داود (١/ ٥٠٨-٥٠٩/ ٨١١)، والنسائي (٢/ ٥٠٩/ ٩٨٦)، وابن ماجه (١/ ٢٧٢/ ٨٣٢).

(٢) أخرجه: أحمد (٥/ ١٨٥)، والبخاري (٢/ ٣١٣/ ٧٦٤)، وأبو داود (١/ ٥٠٩/ ٨١٢)، والنسائي (٢/ ٥٠٩-٥١٠/ ٩٨٨).

(٣) أخرجه: النسائي (٢/ ٥٠٩/ ٩٨٧).

(٤) أخرجه: أحمد (٣/ ٢٩٩)، والبخاري (٢/ ٢٥٥/ ٧٠٥)، دون محل الشاهد والنسائي (٢/ ٥٠٨/ ٩٨٣)، كلهم من حديث جابر بن عبدالله رضي الله عنهما.

(٥) أخرجه: أحمد (٤/ ٢٨٦) الطيالسي رقم (٧٣٣)، من حديث البراء بن عازب رضي الله عنه، وأخرجه من حديث عبدالله بن زيد الطبراني في الكبير كما في المجمع (٢/ ١١٨)، وقال: فيه جابر الجعفي وثقه شعبة وسفيان وضعفه بقية الأئمة.

(٦) أخرجه: أحمد (٦/ ٣٣٨)، والبخاري (٢/ ٣١٣/ ٧٦٣)، ومسلم (١/ ٣٣٨/ ٤٦٢)، وأبو داود (١/ ٥٠٨/ ٨١٠)، والترمذي (٢/ ١١٢/ ٣٠٨)، والنسائي (٢/ ٥٠٨/ ٩٨٤-٩٨٥)، وابن ماجه (١/ ٢٧٢/ ٨٣١).

(٧) أخرجه: أحمد (٢/ ٢٢٩-٢٣٠)، والنسائي (٢/ ٥٠٧-٥٠٨/ ٩٨١-٩٨٢)، وابن ماجه (١/ ٢٧٠-٢٧١/ ٢٢٧)، مختصرا دون ذكر محل الشاهد وابن خزيمة (١/ ٢٦١/ ٥٢٠)، وابن حبان (٥/ ١٤٥-١٤٦/ ١٨٣٧).

لذكرها وجهًا خشية الإطالة، وفي ذلك كله دليل على أن لا توقيت في القراءة في صلاة المغرب، وكذلك غيرها بدلائل يطول ذكرها، وأهل العلم يستحبون فيها قراءة السور القصار، ولعل ذلك أن يكون آخر الأمرين من رسول الله ﷺ، أو يكون إباحة وتخييرًا منه ﷺ، فيكون دليل العلماء على استحباب ما استحبوا من ذلك قوله ﷺ: «**من أم الناس فليقصر وليخفف**»[١]، والحمد لله الذي جعل في ديننا سعة ويسرًا وتخفيفًا لا شريك له»[٢].

قال ابن الملقن: «قراءته -عليه الصلاة والسلام- في المغرب بـ(الطور)، معناه في الركعتين الأوليين التي يجهر فيهما بالقراءة لا في الثالثة منها، والذي استقر عليه العمل عند الفقهاء تقصير القراءة فيها، وهذا الحديث يخالفه، فإن (الطور) من أوساط سور القراءة في الصلاة ومثلها مشروع في العصر والعشاء لا في المغرب، وكذلك ما ثبت في قراءته ﷺ في المغرب بـ(الأعراف)، فإما أن يحمل الحديثان على رجحان قراءتهما في المغرب ويقتضيان الاستحباب أو على بيان جوازهما. والأفضل ما استقر عليه العمل من تقصير القراءة لكونهما غير متكرر قراءتهما، فيدلان على الجواز لا على رجحانها وفرق بين كون الشيء مستحبًا وبين كون تركه مكروهًا، كيف وقراءته -عليه الصلاة والسلام- بالطور متقدمة، فإنه عقب غزوة بدر، وهي متقدمة، فإن ذلك كان في آخر السنة الثانية من الهجرة. قال الشيخ تقي الدين: «والصحيح عندنا أن ما صح من ذلك عن النبي ﷺ مما لم يكثر مواظبته عليه فهو جائز من غير كراهة لحديث جبير هذا وكحديث قراءة (الأعراف) فيها، وما صحت المواظبة عليه فهو في درجة الرجحان في الاستحباب، لا أن غيره مما لم يقرأه -عليه الصلاة والسلام- مكروه»[٣].

قال ابن رجب: «وفيه دليل على أن النبي ﷺ كان يرفع صوته بالقراءة في صلاة الليل، والأحاديث المذكورة في الباب الماضي تدل على الجهر بالقراءة في المغرب، فإن عامة من روى عن النبي ﷺ القراءة في المغرب بسورة ذكر أنه سمعه

---

(١) أخرجه: أحمد (٤/ ١١٨)، والبخاري (١٠/ ٦٣٣/ ٦١١٠)، ومسلم (١/ ٣٤٠/ ٤٦٦)، والنسائي في الكبرى (٣/ ٤٤٩/ ٥٨٩١)، وابن ماجه (١/ ٣١٥/ ٩٨٤)، من حديث أبي سعيد الخدري ﷺ.

(٢) التمهيد [فتح البر (٤/ ٦٧٩-٦٨١)].

(٣) الإعلام بفوائد عمدة الأحكام (٣/ ٢٠٣-٢٠٤).

يقرأ بها، وفي ذلك دليل على الجهر، والجهر بالقراءة في المغرب إجماع من المسلمين رأيًا وعملًا به لم يزل المسلمون يتداولونه بينهم من عهد نبيهم ﷺ حتى الآن»[١].

* عن أم سلمة رضي الله عنها قالت: «شكوت إلى رسول الله ﷺ أني أشتكي، قال: طوفي من وراء الناس وأنت راكبة، فطفت ورسول الله ﷺ يصلي إلى جنب البيت يقرأ بـ: ﴿وَالطُّورِ ۝ وَكِتَابٍ مَّسْطُورٍ﴾»[٢].

★ فوائد الحديث:

«أخرج البخاري هذا الحديث في عدة مواطن من صحيحه مسندًا، وعلقه في كتاب (الأذان) في بابين، وترجم له بقوله: باب القراءة في الفجر، وبقوله: باب الجهر بقراءة صلاة الفجر»[٣].

قال الحافظ: «وليس فيه بيان أن الصلاة حينئذ كانت الصبح ولكن تبين ذلك من رواية أخرى أوردها بعد ستة أبواب من طريق يحيى بن أبي زكريا الغساني عن هشام ابن عروة عن أبيه ولفظه: «**فقال: إذا أقيمت الصلاة للصبح فطوفي**»»[٤].

قال الحافظ ابن رجب بعد ذكره لهذه الرواية: «وهذا يرد ما قاله ابن عبدالبر[٥] أن صلاة النبي ﷺ هذه كانت تطوعًا»، ثم تردد هل كانت ليلًا أو نهارًا، وقال: «فيه دليل على الجهر في تطوع النهار، وهذا كله ليس بشيء»[٦].

قال الحافظ: «وأما ما أخرجه ابن خزيمة من طريق ابن وهب عن مالك عن ابن لهيعة جميعًا عن أبي الأسود في هذا الحديث قال فيه: «**قالت: وهو يقرأ في العشاء الآخرة**» فشاذ، وأظن سياقه لفظ ابن لهيعة؛ لأن ابن وهب رواه في «الموطأ» عن مالك فلم يعين الصلاة كما رواه أصحاب مالك كلهم، أخرجه الدارقطني في

---

(١) فتح الباري (٧/ ٣٥).

(٢) أخرجه: أحمد (٦/ ٢٩٠و٣١٩)، والبخاري (١/ ٧٣٣/ ٤٦٤)، ومسلم (٢/ ٩٢٧/ ١٢٧٦)، وأبو داود (٢/ ٤٤٣/ ١٨٨٢)، والنسائي (٥/ ٢٤٥-٢٤٦/ ٢٩٢٥)، وابن ماجه (٢/ ٩٨٧/ ٢٩٦١).

(٣) فتح الباري (٢/ ٣٢٠-٣٢١).

(٤) فتح الباري (٢/ ٣٢٢)

(٥) وكلامه في التمهيد. انظر فتح البر (٨/ ٤٩٨).

(٦) فتح الباري (٧/ ٥١).

«الموطآت» له من طرق كثيرة عن مالك، منها رواية ابن وهب المذكورة، وإذا تقرر ذلك فابن لهيعة، لا يحتج به إذا انفرد فكيف إذا خالف، وعرف بهذا اندفاع الاعتراض الذي حكاه ابن التين عن بعض المالكية حيث أنكر أن تكون الصلاة المذكورة صلاة الصبح فقال: ليس في الحديث بيانها، والأولى أن تحمل على النافلة؛ لأن الطواف يمتنع إذا كان الإمام في صلاة الفريضة، انتهى. وهو رد للحديث الصحيح بغير حجة، بل يستفاد من هذا الحديث جواز ما منعه، بل يستفاد من الحديث التفصيل فنقول: إن كان الطائف بحيث يمر بين يدي المصلين فيمتنع كما قال، وإلا فيجوز، وحال أم سلمة هو الثاني؛ لأنها طافت من وراء الصفوف»[1].

* * *

(١) المصدر السابق (٢/ ٣٢٢-٣٢٣).

قوله تعالى: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ
وَالطُّورِ ﴿١﴾ وَكِتَابٍ مَّسْطُورٍ ﴿٢﴾ فِي رَقٍّ مَّنشُورٍ ﴿٣﴾ وَالْبَيْتِ الْمَعْمُورِ ﴿٤﴾
وَالسَّقْفِ الْمَرْفُوعِ ﴿٥﴾ وَالْبَحْرِ الْمَسْجُورِ ﴿٦﴾ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ ﴿٧﴾ مَّا لَهُ
مِن دَافِعٍ ﴿٨﴾﴾

★ **غريب الآية:**

الطور: الطور اسم للجبل الذي كلم اللَّه عليه موسى عليه السلام، وهو في الأصل: اسم لكل جبل بدليل تخصيصه في قوله تعالى: ﴿تَخْرُجُ مِن طُورِ سَيْنَاءَ﴾[1].

رق: الرَّقّ: ما يكتب فيه من كاغد أو جلد رقيق.

المسجور: الموقد نارًا، من سجرت النار، أي: أوقدتها.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن القيم: «تضمن هذا القسم خمسة أشياء، وهي مظاهر آياته وقدرته، وحكمته الدالة على ربوبيته ووحدانيته. فالطور هو الجبل الذي كلم اللَّه عليه نبيه وكليمه موسى بن عمران، عند جمهور المفسرين من السلف والخلف، وعرفه هاهنا باللام، وعرفه في موضع آخر بالإضافة. فقال: ﴿وَطُورِ سِينِينَ ﴿٢﴾﴾[2]، وهذا الجبل مظهر بركة الدنيا والآخرة، وهو الجبل الذي اختاره اللَّه لتكليم موسى عليه..

الثاني: الكتاب المسطور في الرق المنشور، واختلف في هذا الكتاب، فقيل: هو اللوح المحفوظ، وهذا غلط؛ فإنه ليس برقّ، وقيل: هو الكتاب الذي تضمن أعمال بني آدم، وقال مقاتل: تخرج إليهم أعمالهم يوم القيامة في رق منشور. وهذا وإن كان أقوى وأصح من القول الأول، واختاره جماعة من المفسرين، ومنهم من لم يزك غيره؛ فالظاهر أن المراد به الكتاب المنزل من عند اللَّه، وأقسم اللَّه به لعظمته وجلالته، وما تضمنه من آيات ربوبيته، وأدلة توحيده وهداية خلقه.

---

(١) المؤمنون: الآية (٢٠).

(٢) التين: الآية (٢).

ثم قيل: هو التوراة التي أنزل اللَّه على موسى، وكأن صاحب هذا القول رأى اقتران الكتاب بالطور، فقال: هو التوراة، ولكن التوراة إنما أنزلت في ألواح لا في رقّ، إلا أن يقال: هي في رق السماء وأنزلت في ألواح. وقيل: هو القرآن؛ ولعل هذا أرجح الأقوال؛ لأنه سبحانه وصف القرآن بأنه في صحف مطهرة، بأيدي سفرة كرام بررة، فالصحف هي الرق، وكونه بأيدي سفرة هو كونه منشورًا، وعلى هذا فيكون قد أقسم بسيد الجبال وسيد الكتب، ويكون ذلك متضمنًا للنبوتين المعظمتين: نبوة موسى، ونبوة محمد. وكثيرًا ما يقرن بينهما وبين محلهما؛ كما في سورة (التين والزيتون).

ثم أقسم بسيد البيوت، وهو البيت المعمور. وفي وصفه الكتاب بأنه مسطور تحقيق لكونه مكتوبًا مفروغًا منه. وفي وصفه بأنه منشور إيذان بالاعتناء به، وأنه بأيدي الملائكة منشور غير مهجور.

وأما البيت المعمور، فالمشهور أنه الضراح الذي في السماء، الذي رفع للنبي ﷺ ليلة الإسراء؛ يدخله كل يوم سبعون ألف ملك، ثم لا يعودون إليه آخر ما عليهم، وهو بحيال البيت المعمور في الأرض، وقيل: هو البيت الحرام. ولا ريب أن كلاًّ منهما معمور: فهذا معمور بالملائكة وعبادتهم، وهذا معمور بالطائفين والقائمين والركع والسجود، وعلى كلا القولين فكل منهما سيد البيوت.

ثم أقسم سبحانه بمخلوقين عظيمين من بعض مخلوقاته، وهما مظهر آياته، وعجائب صنعته، وهما: السقف المرفوع، وهو السماء؛ فإنها من أعظم آياته قدرًا، وارتفاعًا، وسعةً، وسمكًا، ولونًا، وإشراقًا، وهي محل ملائكته، وهي سقف العالم، وبها انتظامه، ومحل النيرين اللذين بهما قوام الليل والنهار، والسنين والشهور والأيام، والصيف والشتاء والربيع والخريف. ومنها تنزل البركات، وإليها تصعد الأرواح، وأعمالها، وكلماتها الطيبة.

والثاني: البحر المسجور، وهو آية عظيمة من آياته، وعجائبه لا يحصيها إلا اللَّه. واختلف في هذا البحر: هل هو الذي فوق السموات، أو البحر الذي نشاهده؟ على قولين؛ فقالت طائفة: هو البحر الذي عليه العرش، وبين أعلاه وأسفله مسيرة خمسمائة عام. . والثاني: أنه بحر الأرض. واختلف في المسجور، فقيل: المملوء، هذا قول جميع أهل اللغة، قال الفراء: المسجور في كلام العرب:

المملوء؛ يقال: سجرت الإناء: إذا ملأته، قال لبيد:

فتوسطا عرض السرى وصدعا مسجورة متجاور أقلامها

وقال المبرد: المسجور: المملوء عند العرب، وأنشد للنمر بن تولب:

إذا شاء طالع مسجورة

يريد عينًا مملوءة ماءً، وكذا قال ابن عباس: المسجور: الممتلئ، وقال مجاهد: المسجور: الموقد. قال الليث: السجر: إيقادك في التنور، تسجره سجرًا، والسجر اسم الحطب، وهذا قول الضحاك وكعب وغيرهما، قال: البحر يسجر فيزداد في جهنم، وحكي هذا القول عن علي بن أبي طالب ﵁، قال مسجور: قال الفراء: وهذا يرجع إلى القول الأول؛ لأنك تقول: سجرت التنور: إذا ملأته حطبًا. وروى ذو الرمة الشاعر عن ابن عباس: أن المسجور اليابس الذي قد نضب ماؤه وذهب، وليس لذي الرمة رواية عن ابن عباس غير هذا الحرف. وهذا القول اختيار أبي العالية، قال أبو زيد: المسجور: المملوء، والمسجور: الذي ليس فيه شيء؛ جعله من الأضداد. وقد روى عن ابن عباس أن المسجور: المحبوس، ومنه ساجور الكلب، وهو القلادة من عود أو حديد تمسكه. والمعنى على هذا أنه محبوس بقدرة اللَّه أن يفيض على الأرض فيغرقها؛ فإن ذلك مقتضى الطبيعة أن يكون الماء غامرًا للأرض فوقها؛ كما أن الهواء فوق الماء، ولكن أمسكه الذي يمسك السموات والأرض أن تزولا..

وهذا الموضع مما هدم أصول الملاحدة والدهرية؛ فإنه ليس في الطبيعة ما يقتضي حبس الماء عن بعض جوانب الأرض، مع كون كرة الماء عالية على كرة الأرض بالذات، ولو فرض أن في الطبيعة ما يقتضي بروز جوانبها لم يكن فيها ما يقتضي تخصيص هذا الجانب بالبروز دون غيره. وما ذكره الطبائعيون والمتفلسفة أن العناية الإلهية اقتضت ذلك لمصلحة العالم فنعم، هو كما ذكروا، ولكن عناية من يفعل بقدرته ومشيئته، وهو بكل شيء عليم، وعلى كل شيء قدير -وهو أحكم الحاكمين- غير معقولة؛ فإن العناية الإلهية تقضي حياته، وقدرته، ومشيئته، وعلمه، وحكمته، ورحمته، وإحسانه إلى خلقه، وقيام الأفعال به. فإثبات العناية الإلهية مع نفي هذه الأمور ممتنع، وباللَّه التوفيق.

وأقوى الأقوال في المسجور أنه الموقد، وهذا هو المعروف في اللغة من المسجور، ويدل عليه قوله تعالى: ﴿وَإِذَا ٱلْبِحَارُ سُجِّرَتْ ۝﴾[(١)]، قال علي وابن عباس: أوقدت فصارت نارًا، ومن قال: يبست وذهب ماؤها؛ فلا يناقض كونها نارًا موقدة، وكذا من قال: ملئت؛ فإنها تملأ نارًا.

وإذا اعتبرت أسلوب القرآن ونظمه ومفرداته، رأيت اللفظة تدل على ذلك كله؛ فإن البحر محبوس بقدرة اللَّه، ومملوء ماءً، ويذهب ماؤه يوم القيامة، ويصير نارًا، فكل من المفسرين أخذ معنى من هذه المعاني، واللَّه أعلم..

وأقسم سبحانه بهذه الأمور على المعاد والجزاء، فقال: ﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَٰقِعٌ ۝ مَّا لَهُۥ مِن دَافِعٍ ۝﴾، ولما كان الذي يقع قد يمكن دفعه أخبر سبحانه أنه لا دافع له. وهذا يتناول أمرين: أحدهما: أنه لا دافع لوقوعه، والثاني: أنه لا دافع له إذا وقع»[(٢)].

قال الشنقيطي: «هذه الأقسام التي أقسم اللَّه بها تعالى في أول هذه السورة الكريمة أقسم ببعضها بخصوصه، وأقسم بجميعها في آية عامة لها ولغيرها.

أما الذي أقسم به منها إقسامًا خاصًا فهو الطور، والكتاب المسطور، والسقف المرفوع، والأظهر أن الطور الجبل الذي كلم اللَّه عليه موسى، وقد أقسم اللَّه تعالى بالطور في قوله: ﴿وَٱلتِّينِ وَٱلزَّيْتُونِ ۝ وَطُورِ سِينِينَ ۝﴾[(٣)].

والأظهر أن الكتاب المسطور هو القرآن العظيم، وقد أكثر اللَّه من الإقسام به في كتابه كقوله تعالى: ﴿حمٓ ۝ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ۝﴾[(٤)]، وقوله تعالى: ﴿يسٓ ۝ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْحَكِيمِ ۝﴾[(٥)]، وقيل: هو كتاب الأعمال، وقيل غير ذلك، والسقف المرفوع: هو السماء، وقد أقسم اللَّه بها في كتابه في آيات متعددة؛ كقوله: ﴿وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلْحُبُكِ ۝﴾[(٦)]، وقوله: ﴿وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلْبُرُوجِ ۝﴾[(٧)]، وقوله تعالى: ﴿وَٱلسَّمَآءِ وَمَا

(١) التكوير: الآية (٦).
(٢) التبيان في أقسام القرآن (ص: ١٥٩-١٦٣).
(٣) التين: الآيتان (١و٢).
(٤) الزخرف: الآيتان (١و٢).
(٥) يس: الآيتان (١و٢).
(٦) الذاريات: الآية (٧).
(٧) البروج: الآية (١).

بَنَىٰهَا ۝٥﴾[١]، والرَّقّ، بفتح الراء: كل ما يكتب فيه من صحيفة وغيرها، وقيل: هو الجلد المرقق ليكتب فيه. وقوله: ﴿مَّنشُورٍ﴾، أي: مبسوط، ومنه قوله: ﴿كِتَٰبًا يَلْقَىٰهُ مَنشُورًا﴾[٢]، وقوله: ﴿بَلْ يُرِيدُ كُلُّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُمْ أَن يُؤْتَىٰ صُحُفًا مُّنَشَّرَةً ۝٥٢﴾[٣].

والبيت المعمور: هو البيت المعروف في السماء المسمى بالضراح، بضم الضاد، وقيل فيه: معمور؛ لكثرة ما يغشاه من الملائكة المتعبدين، فقد جاء الحديث أنه «**يزوره كل يوم سبعون ألف ملك، ولا يعودون إليه بعدها**»[٤].

وقوله: ﴿وَٱلْبَحْرِ ٱلْمَسْجُورِ ۝٦﴾ فيه وجهان من التفسير للعلماء. أحدهما: أن المسجور هو الموقد نارًا. قالوا: وسيضطرم البحر يوم القيامة نارًا، ومن هذا المعنى قوله تعالى: ﴿ثُمَّ فِى ٱلنَّارِ يُسْجَرُونَ﴾[٥].

الوجه الثاني: هو أن المسجور بمعنى المملوء؛ لأنه مملوء ماءً، ومن إطلاق المسجور على المملوء قول لبيد بن ربيعة في معلقته:

فتوسطا عرض السرى وصدعا   مسجورة متجاورًا أقلامها

فقوله: مسجورة، أي: عينًا مملوءة ماءً، وقول النمر بن تولب العكلي:

إذا شاء طالع مسجورة   ترى حولها النبع والساسما

وهذان الوجهان المذكوران في معنى المسجور هما أيضًا في قوله: ﴿وَإِذَا ٱلْبِحَارُ سُجِّرَتْ ۝٦﴾[٦]، وأما الآية العامة التي أقسم فيها تعالى بما يشمل جميع هذه الأقسام وغيرها؛ فهي قوله تعالى: ﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ ۝٣٨ وَمَا لَا تُبْصِرُونَ ۝٣٩﴾[٧]؛ لأن الإقسام في هذه الآية عامة في كل شيء»[٨].

قال السعدي: «هذه الأشياء التي أقسم اللَّه بها مما يدل على أنها من آيات اللَّه، وأدلة توحيده، وبراهين قدرته وبعثه الأموات»[٩].

---

(١) الشمس: الآية (٥).
(٢) الإسراء: الآية (١٣).
(٣) المدثر: الآية (٥٢).
(٤) سيأتي تخريجه قريبا.
(٥) غافر: الآية (٧٢).
(٦) التكوير: الآية (٦).
(٧) الحاقة: الآيتان (٣٨و٣٩).
(٨) أضواء البيان (٧/ ٦٨٣-٦٨٤).
(٩) تيسير الكريم الرحمن (٧/ ١٨٦).

قال الرازي: «قوله تعالى: ﴿عَذَابَ رَبِّكَ﴾ فيه لطيفة عزيزة، وهي أنه تعالى لو قال: إن عذاب اللَّه لواقع، و(الله) اسم منبئ عن العظمة والهيبة؛ كان يخاف المؤمن، بل النبي ﷺ من أن يلحقه ذلك؛ لكونه تعالى مستغنيًا عن العالم بأسره، فضلًا عن واحد فيه، فآمنه بقوله: ﴿رَبِّكَ﴾؛ فإنه حين يسمع لفظ (الرب) يأمن»[(١)].

وقال: «قوله: ﴿لَوَاقِعٌ﴾ فيه إشارة إلى الشدة؛ فإن الواقع والوقوع من باب واحد، فالواقع أدل على الشدة من الكائن. ثم قال تعالى: ﴿مَّا لَهُۥ مِن دَافِعٍ ۝٨﴾، والبحث فيه قد تقدم في قوله تعالى: ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾[(٢)]، وقد ذكرنا أن قوله: ﴿وَٱلطُّورِ ۝١﴾.. ﴿وَٱلْبَيْتِ ٱلْمَعْمُورِ ۝٤﴾.. ﴿وَٱلْبَحْرِ ٱلْمَسْجُورِ ۝٦﴾، فيه دلالة على عدم الدافع؛ فإن من يدفع عن نفسه عذابًا قد يدفع بالتحصن بقلل الجبال، ولجج البحار، ولا ينفع ذلك، بل الوصول إلى السقف المرفوع ودخول البيت المعمور لا يدفع»[(٣)].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة المبينة لمعنى كون القرآن كلام الله مكتوبًا في المصحف ومسطورًا فيه

* عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «**لما قضى اللَّه الخلق كتب كتابًا عنده: غلبت -أو قال- سبقت رحمتي غضبي، فهو عنده فوق العرش**»[(٤)].

★ **فوائد الحديث:**

ترجم البخاري -رحمه اللَّه تعالى- لهذا الحديث بقوله: «باب قول اللَّه تعالى: ﴿بَلْ هُوَ قُرْءَانٌ مَّجِيدٌ ۝٢١ فِى لَوْحٍ مَّحْفُوظٍ ۝٢٢﴾[(٥)] ﴿وَٱلطُّورِ ۝١ وَكِتَٰبٍ مَّسْطُورٍ ۝٢﴾ قال قتادة: مكتوب، يسطرون: يخطون في أم الكتاب، جملة الكتاب وأصله: ما يلفظ من قول، ما يتكلم من شيء إلا كتب عليه، وقال ابن عباس: يكتب الخير والشر،

(١) مفاتيح الغيب (٢٨/ ٢٤٣). (٢) فصلت: الآية (٤٦).
(٣) المصدر السابق.
(٤) أخرجه: أحمد (٢/ ٢٥٨-٣١٣-٣٥٨)، والبخاري (١٣/ ٦٣٩/ ٧٥٥٣-٧٥٥٤)، ومسلم (٤/ ٢١٠٧-٢١٠٨/ ٢٧٥١)، والترمذي (٥/ ٥١٣/ ٣٥٤٣)، وابن ماجه (١/ ٦٧/ ١٨٩).
(٥) البروج: الآيتان (٢١و٢٢).

يحرفون: يزيلون، وليس أحد يزيل لفظ كتاب من كتب اللّه عز وجل ولكنهم يحرفونه: يتأولونه عن غير تأويله، دراستهم: تلاوتهم، واعية: حافظة، وتعيها: تحفظها، وأوحي إلي هذا القرآن لأنذركم به: يعني أهل مكة، ومن بلغ هذا القرآن فهو له نذير»[١].

قال الغنيمان: «الكتابة هي إثبات الكلام المكتوب في محل الكتابة، واللّه سبحانه كتب ذلك الكتاب في شيء تثبت فيه الكتابة، ويثبت الكلام في ذلك الشيء بالكتابة، سواء كان اللوح المحفوظ أو غيره، فالمقصود إثبات الكتابة للكلام، وأن كون الكلام في الكتاب ليس ككون الماء في الإناء، والعرض بالجوهر، والرجل في البيت، بل هو قسم غير هذا، وهو معقول يدركه الناس ويفهمون معنى كون الكلام في الكتاب، وهذا الحديث تقدم شرحه، وغرضه من الطريق الأخرى تصريح أبي رافع وقتادة بالتحديث، فيزول احتمال التدليس. وقوله: «**قبل أن يخلق الخلق**» لا يعارض قوله في الرواية قبلها: «**لما قضى**»؛ لأنه يجوز أن يراد بالخلق التقدير والفراغ منه، وهو غير الإيجاد، ومعلوم أن خلق اللّه تعالى لا نهاية له. وتبين أن مقصود البخاري رحمه اللّه بهذا الباب أن يبين معنى كون القرآن في المصحف أنه مكتوب مسطور فيه، مثل ما أن اسم (الله) في المصحف، فإن القرآن كلام اللّه، والكلام يقوم بالمتكلم صفة له.

قال شيخ الإسلام: ليس معنى قول السلف: القرآن كلام اللّه منه بدأ ومنه خرج، أنه فارق ذاته وحل في غيره، فإن كلام المخلوق إذا تكلم به لا يفارق ذاته ويحل بغيره، فكيف كلام الله؟ قال تعالى: ﴿كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ إِن يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا﴾[٢]. فقد أخبر أن الكلمة تخرج من أفواههم، ومع هذا فلم تفارق ذاتهم[٣].

فالقرآن كلام اللّه، ويحفظ في القلوب كما يحفظ الكلام، ومذكور بالألسنة كما يذكر الكلام بالألسنة، وهو مكتوب في المصاحف والأوراق كما أن الكلام يكتب في الكتاب والورق. والكلام هو مجموع اللفظ والمعنى، فاللفظ يطابق المعنى ويدل عليه، ولا يجوز أن يقال: إن القرآن محفوظ كما أن اللّه معلوم، وهو متلو كما

---

(١) فتح الباري (١٣/ ٦٣٨-٦٣٩).

(٢) الكهف: الآية (٥).

(٣) الفتاوى (١٢/ ٥١٧-٥١٨).

أن الله مذكور، ومكتوب كما أن الرسول مكتوب، فهذا خطأ وضلال. فليس وجود الأعيان القائمة بأنفسها كوجود العبارة الدالة على المعنى المطابق لها، والفرق ظاهر بين قوله تعالى: ﴿بَلْ هُوَ قُرْءَانٌ مَّجِيدٌ ۝ فِي لَوْحٍ مَّحْفُوظٍ ۝﴾[1] وقوله: ﴿إِنَّهُۥ لَقُرْءَانٌ كَرِيمٌ ۝ فِي كِتَٰبٍ مَّكْنُونٍ ۝﴾[2] وبين قوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَفِي زُبُرِ ٱلْأَوَّلِينَ ۝﴾[3]؛ فإن القرآن لم ينزل على نبي قبل محمد ﷺ، وإنما الذي في زبر الأولين ذكره والخبر عنه، كما أن محمدًا ﷺ مكتوب عندهم في التوراة والإنجيل. فالله ورسوله معلوم بالقلوب مذكور بالألسنة مكتوب في المصحف، كما أن القرآن معلوم لأهل الكتاب قبلنا مكتوب عندهم وذلك ذكره والخبر عنه. ولكن الذي في المصحف عندنا هو نفس القرآن، ولهذا يجب أن يفرق بين قوله تعالى: ﴿وَكُلُّ شَيْءٍ فَعَلُوهُ فِي ٱلزُّبُرِ ۝﴾[4] وبين قوله تعالى: ﴿وَكِتَٰبٍ مَّسْطُورٍ ۝ فِي رَقٍّ مَّنشُورٍ ۝﴾ فإن كون الأعمال في الزبر مثل كون القرآن والرسول محمد ﷺ في زبر الأولين. وأما الكتاب المسطور في الرق المنشور فهو كما يكتب الكلام نفسه في الكتاب. فأين هذا من هذا؟

وذلك أن كل شيء له في الوجود أربع مراتب: وجود في الأعيان، ووجود في الأذهان، ووجود في اللسان، ووجود في الكتاب، والكلام وجود في اللسان وليس بينه وبين المحل المكتوب فيه مرتبة أخرى بل نفس الكلام يثبت في الكتاب، كما قال تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَقُرْءَانٌ كَرِيمٌ ۝ فِي كِتَٰبٍ مَّكْنُونٍ ۝﴾[5] وقال تعالى: ﴿بَلْ هُوَ قُرْءَانٌ مَّجِيدٌ ۝ فِي لَوْحٍ مَّحْفُوظٍ ۝﴾[6] وقال تعالى: ﴿يَتْلُوا۟ صُحُفًا مُّطَهَّرَةً ۝ فِيهَا كُتُبٌ قَيِّمَةٌ ۝﴾[7] وقال تعالى: ﴿كَلَّآ إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ ۝ فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ ۝ فِي صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ ۝ مَّرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍۭ ۝﴾[8] وقال تعالى: ﴿وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَٰبًا فِي قِرْطَاسٍ﴾[9]. وليس في المصحف من الأعيان إلا ذكرها ووصفها والخبر عنها، والكلام في الكتاب ليس هو فيه كما تكون الصفة بالموصوف والعرض بالجوهر والجسم بالمكان وما هو

---

(١) البروج: الآيتان (٢١و٢٢).
(٢) الواقعة: الآيتان (٧٧و٧٨).
(٣) الشعراء: الآية (١٩٦).
(٤) القمر: الآية (٥٢).
(٥) الواقعة: الآيتان (٧٧و٧٨).
(٦) البروج: الآيتان (٢١و٢٢).
(٧) البينة: الآيتان (٢و٣).
(٨) عبس: الآيات (١١-١٤).
(٩) الأنعام: الآية (٧).

بمنزلة الدليل على المدلول كالمخلوق الدال على الخالق، بل هو قسم آخر معقول بنفسه، والناس بفطرهم يفهمون معنى كون كلام اللَّه في المصحف، وأن كلامه الذي قام به لم يفارق ذاته ويحل في غيره، ويعلمون أن الذي في المصحف ليس مجرد دليل على معنى قائم في نفس اللَّه، بل الذي في المصحف كلام اللَّه مطابق للفظه، ولفظه مطابق لمعناه، ومعناه مطابق لما في الخارج، وهو كلام اللَّه حقيقة لا مجازًا. وهذه مسألة عظيمة ضل فيها طوائف من الناس، والبخاري رحمه اللَّه ممن ابتُلي فيها بمن لم يفهم الحق فيها، فارتكب شططًا، ونسب البخاري فيها إلى الباطل، ولهذا أكثر من البيان لها كما سبق، ومنشأ الاختلاف فيها يعود إلى أصلين:

أحدهما: مسألة تكلم اللَّه تعالى بالقرآن وغيره.

والثاني: تكلم العباد بكلام اللَّه.

وقد حاولت بيان الحق في كلا المسألتين فيما سبق، قدر ما أوتيت من بيان، واللَّه المستعان»[1].

وقوله: «**كتب كتابًا عنده**»: قال الغنيمان: «يجوز أن يكون المعنى: أمر القلم أن يكتب، كما قال الحافظ. ويجوز أن يكون على ظاهره بأن كتب تعالى بدون واسطة، ويجوز أن يكون قال: «**كن**» فكانت الكتابة، ولا محذور في ذلك كله. وقد ثبت في سنن الترمذي وابن ماجه في هذا الحديث: «**أن اللَّه عز وجل لما خلق الخلق كتب بيده على نفسه أن رحمتي تغلب غضبي**»[2]. ولا يصح أن يراد بالكتابة: الحكم الذي قضاه، نظير قوله تعالى: ﴿كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغۡلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِيٓۚ﴾[3] لقوله: «**فهو عنده فوق العرش**» وكتابته تعالى ذلك لتأكيد هذا الحكم، وإخبار عباده به حتى يؤمنوا به ويعملوا على مقتضاه، أو لحكمة اللَّه أعلم بها، وليس خوفًا من النسيان، تعالى الله»[4].

---

(١) شرح كتاب التوحيد من صحيح البخاري (٢/ ٥٤٥-٥٤٨).

(٢) أخرجه: أحمد (٢/ ٢٤٢)، والبخاري (٦/ ٣٥٢/ ٣١٩٤)، ومسلم (٤/ ٢١٠٧/ ٢٧٥١)، والترمذي (٥/ ٥١٣/ ٣٥٤٣)، والنسائي (٤/ ٤١٧/ ٤٧٥٠)، وابن ماجه (١/ ٦٧/ ١٨٧) من حديث أبي هريرة ﷺ.

(٣) المجادلة: الآية (٢١).

(٤) شرح كتاب التوحيد من صحيح البخاري (١/ ٢٥٦).

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في بيان موضع البيت المعمور، وأنه بيت للعبادة في السماء السابعة

* عن مالك بن صعصعة رضي الله عنه قال: قال النبي ﷺ: «. . **فأتينا السماء السابعة، قيل: من هذا؟ قيل: جبريل، قيل: من معك؟ قيل: محمد، قيل: وقد أرسل إليه؟ مرحبًا به ولنعم المجيء جاء، فأتيت على إبراهيم فسلمت عليه فقال: مرحبًا بك من ابن ونبي، فرفع لي البيت المعمور، فسألت جبريل فقال: هذا البيت المعمور، يصلي فيه كل يوم سبعون ألف ملك، إذا خرجوا لم يعودوا إليه آخر ما عليهم** . .»[1].

* عن أنس رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «. . **ثم عَرَج إلى السماء السابعة، فاستفتح جبريل، فقيل: من هذا؟ قال: جبريل، قيل: ومن معك؟ قال: محمد ﷺ، قيل: وقد بعث إليه؟ قال: قد بعث إليه، ففتح لنا، فإذا أنا بإبراهيم ﷺ مسندًا ظهره إلى البيت المعمور، وإذا هو يدخله كل يوم سبعون ألف ملك، لا يعودون إليه** . .»[2].

★ فوائد الحديثين:

في هذين الحديثين من الفوائد بيان موضع البيت المعمور، وأنه بيت للعبادة في السماء؛ قال السمعاني: «القول المعروف أنه بيت في السماء، قاله ابن عباس وعامة المفسرين، وهو مروي عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه»[3].

وفيها بيان أنه في السماء السابعة، وقد اختلف في ذلك أيضًا على أقوال، هذا أصحها وأسندها. قال السمعاني: «وعن علي رضي الله عنه أنه في السماء السادسة، وعن الربيع بن أنس وغيره أنه في السماء الدنيا بحيال الكعبة، لو سقط سقط عليه. . وعن بعضهم أنه في السماء الرابعة»[4].

---

(١) أخرجه: أحمد (٤/ ٢٠٧-٢٠٨-٢١٠)، والبخاري (٦/ ٣٧١/ ٣٢٠٧)، ومسلم (١/ ١٤٥-١٤٦/ ١٦٢) في حديث طويل، والترمذي (٥/ ٤١٢-٤١٣/ ٣٣٤٦) مختصراً ليس فيه ذكر محل الشاهد، وقال: «حديث حسن صحيح»، والنسائي (١/ ٢٣٧-٢٤٠/ ٤٤٧).

(٢) أخرجه: أحمد (٣/ ١٤٨-١٤٩)، ومسلم (١/ ١٤٥-١٤٧/ ٢٥٩[١٦٢]).

(٣) تفسير القرآن (٥/ ٢٦٧)

(٤) تفسير القرآن (٥/ ٢٦٧)

قال ابن أبي جمرة: «قوله ﷺ: «فرفع لي البيت المعمور» معناه: أنه أري له، وقد يحتمل أن يكون المراد المرفوع والرؤية معًا؛ لأنه قد يكون بينه وبين البيت عوالم حتى لا يقدر على إدراكه، فرفع إليه، وأمد في بصره وبصيرته حتى رآه، وقد يحتمل أن تكون تلك العوالم التي كانت بينه وبينه أزيلت حتى أدركه ببصره، وقد يحتمل أن يكون بقاء العالم على حاله والبيت على حاله وأحد في بصره وبصيرته حتى أدركه وعاينه، والقدرة صالحة للكل، يشهد لذلك قوله ﷺ: «رفع لي بيت المقدس» على ما سيأتي تأويله فيه كالتأويل في البيت المعمور»[١].

قال ابن كثير في قوله: «هذا البيت المعمور، يصلي فيه كل يوم سبعون ألف ملك، إذا خرجوا لم يعودوا آخر ما عليه» قال: «يعني: يتعبدون فيه ويطوفون به، كما يطوف أهل الأرض بكعبتهم. كذلك ذاك البيت، هو كعبة أهل السماء السابعة. ولهذا وجد إبراهيم الخليل -ﷺ- مسندًا ظهره إلى البيت المعمور؛ لأنه باني الكعبة الأرضية، والجزاء من جنس العمل، وهو بحيال الكعبة، وفي كل سماء بيت يتعبد فيه أهلها، ويصلون إليه، والذي في السماء الدنيا يقال له: بيت العزة، والله أعلم»[٢].

قال السهيلي: «ثم لقاؤه في السماء السابعة لإبراهيم -ﷺ- لحكمتين:

إحداهما: أنه رآه عند البيت المعمور مسندًا ظهره إليه، والبيت المعمور حيال مكة، وإليه تحج الملائكة، كما أن إبراهيم هو الذي بنى الكعبة، وأذن في الناس بالحج إليها.

والحكمة الثانية: أن آخر أحوال النبي ﷺ حجه إلى البيت الحرام، وحج معه نحو من سبعين ألفًا من المسلمين، ورؤية إبراهيم عند أهل التأويل تؤذن بالحج؛ لأنه الداعي إليه، والرافع لقواعد الكعبة المحجوجة»[٣].

قال الصالحي: «وقال ابن دحية: مناسبة لقائه لإبراهيم -ﷺ- في السماء السابعة: أن النبي ﷺ اعتمر عمرة القضاء في السنة السابعة من الهجرة، ودخل مكة

---

(١) بهجة النفوس (٣/ ١٩٦).

(٢) تفسير القرآن العظيم (٧/ ٤٠٣-٤٠٤).

(٣) الروض الأنف (٢/ ١٥٨).

وأصحابه ملبِّين معتمرين مُحْيِيًا لسنة إبراهيم، ومقيمًا لرسمه الذي كانت الجاهلية أماتت ذكره وبدّلت أمره.

وفي بعض الطرق أنه رأى إبراهيم مسندًا ظهره إلى البيت المعمور في السماء السابعة، وذلك -والله أعلم- إشارة إلى أنه يطوف بالكعبة في السنة السابعة، وهي أول دخلة دخل فيها مكة بعد الهجرة. والكعبة في الأرض قبالة البيت المعمور. وفي قوله ﷺ في وصف البيت المعمور: «**فإذا هو يدخله كل يوم سبعون ألفًا لا يرجعون إليه إلى آخر الدهر**» إشارة إلى أنه إذا دخل البيت الحرام لا يرجع إليه؛ لأنه لم يدخله بعد الهجرة إلا عام الفتح، ولم يعاوده في حجة الوداع»[١].

وقال ابن أبي جمرة: «قوله: «هذا البيت المعمور يصلي فيه كل يوم سبعون ألف ملك، إذا خرجوا لم يعودوا آخر ما عليه» فيه دليل على عظيم قدرة الله تعالى، وأنه لا يعجزها شيء؛ لأن هذا البيت المعمور يصلي فيه كل يوم هذا العدد العظيم منذ خلق الله تعالى الخلق إلى الأبد، ثم طائفة هذا اليوم لا ترجع إليه أبدًا، ومع أنه قد روي: «**أنه ليس في السماوات ولا في الأرض موضع شبر -وقيل: مرقد أربعة أصابع- إلا وملك واضع جبهته هناك ساجدًا**».[٢] فإذا كانت السماوات والأرض والبحار هكذا، فهؤلاء الملائكة الذين يدخلون أين يذهبون؟ هذا من عظيم القدرة التي لا يشبهها شيء، ولا تتوقف عن شيء»[٣].

وقال أيضًا: «فيه دليل على أن الملائكة أكثر المخلوقات؛ لأنه إذا كان سبعون ألف ملك كل يوم يصلون في البيت على ما تقدم ثم لا يعودون آخر ما عليهم، مع أن الملائكة في السماوات والأرض والبحار على ما تقدم ذكره، فهم على هذا الظاهر أكثر المخلوقات»[٤].

* * *

---

(١) سبل الهدى والرشاد (٣/ ١٣١).

(٢) يشير إلى حديث سبق تخريجه من حديث أبي ذر ﷺ في الصافات تحت الآيات: (١٦٤-١٦٦).

(٣) بهجة النفوس (٣/ ١٩٦-١٩٧).

(٤) المصدر نفسه (٣/ ١٩٧).

قوله تعالى: ﴿يَوْمَ تَمُورُ ٱلسَّمَآءُ مَوْرًا ۝٩ وَتَسِيرُ ٱلْجِبَالُ سَيْرًا ۝١٠ فَوَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ۝١١ ٱلَّذِينَ هُمْ فِى خَوْضٍ يَلْعَبُونَ ۝١٢ يَوْمَ يُدَعُّونَ إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا ۝١٣ هَٰذِهِ ٱلنَّارُ ٱلَّتِى كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ۝١٤ أَفَسِحْرٌ هَٰذَآ أَمْ أَنتُمْ لَا تُبْصِرُونَ ۝١٥ ٱصْلَوْهَا فَٱصْبِرُوٓا۟ أَوْ لَا تَصْبِرُوا۟ سَوَآءٌ عَلَيْكُمْ ۖ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ۝١٦﴾

★ **غريب الآية:**

تمور: يقال: مار الشيء يمور مورًا: إذا تحرك واضطرب. قال الأعشى:

كأن مشيتها من بيت جارتها ... مور السحابة لا ريث ولا عجل

خوض: أي: تردد في الباطل، وهو خوضهم في أمر محمد بالتكذيب، والخوض: الدخول في الحديث. وأصله: الدخول في الماء.

يدعون: يدفعون بشدة وعنف. والدَّعُّ: الدفع الشديد.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن القيم: «ثم ذكر سبحانه وقت وقوعه [أي: المعاد والجزاء] فقال: ﴿يَوْمَ تَمُورُ ٱلسَّمَآءُ مَوْرًا ۝٩ وَتَسِيرُ ٱلْجِبَالُ سَيْرًا ۝١٠﴾، والمور قد فسر بالحركة، وفسر بالدوران، وفسر بالتموج والاضطراب، والتحقيق أنه حركة في تموج وتكفؤ وذهاب ومجيء، ولهذا فرق بين حركة السماء وحركة الجبال. فقال: ﴿وَتَسِيرُ ٱلْجِبَالُ سَيْرًا ۝١٠﴾، وقال: ﴿وَإِذَا ٱلْجِبَالُ سُيِّرَتْ ۝٣﴾[1] من مكان إلى مكان. وأما السماء فإنها تتكفأ، وتموج، وتذهب، وتجيء..

ثم ذكر وعيد المكذبين بالمعاد والنبوة، وذكر أعمالهم وعلومهم التي كانوا عليها، وهي الخوض الذي هو كلام باطل، واللعب الذي هو سعي ضائع. فلا علم نافع ولا عمل صالح، بل علومهم خوض بالباطل، وأعمالهم لعب.

---

(١) التكوير: الآية (٣).

ولما كانت هذه العلوم والأعمال مستلزمة لدفع الحق بعنف وقهر؛ أدخلوا جهنم وهم يدعون إليها دعًّا، أي: يدفع في أقفيتهم وأكتافهم دفعًا بعد دفع. فإذا وقفوا عليها وعاينوها وقفوا، وقيل لهم: ﴿هَٰذِهِ ٱلنَّارُ ٱلَّتِي كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ۝١٤﴾، وتقولون: لا حقيقة لها ولا من أخبر بها صادق، ثم يقال: ﴿أَفَسِحْرٌ هَٰذَآ﴾؟ الآن كما كنتم تقولون للحق لما جاءتكم به الرسل: إنه سحر، وإنهم سحرة. فهذا الآن سحر لا حقيقة له كما قلتم، أم على أبصاركم غشاوة فلا تبصرونها، كما كان عليها غشاوة في الدنيا فلا تبصرون الحق؟ أفعميت أبصاركم اليوم عن رؤية هذا الحق، كما عميت في الدنيا فلا تبصرون الحق؟ ثم سلب عنهم نفع البصر الذي كانوا في الدنيا إذا دهمتهم الشدائد وأحاطت بهم لجأوا إليه، وتعللوا بانقضاء البلية لانقضاء أمدها. فقيل لهم يومئذ: ﴿فَٱصْبِرُوٓاْ أَوْ لَا تَصْبِرُواْ﴾، كلاهما سواء عليكم، لا يجدي عنكم الصبر ولا الجزع، فلا الصبر يخفف عنكم حمل هذا العذاب، ولا الجزع يعطف عليكم قلوب الخزنة، ولا يستنزل لكم الرحمة. ثم أعلموا بأن الرب تعالى لم يظلمهم بذلك، وإنما هو نفس أعمالهم صارت عذابًا، فلم يجدوا من اقترانهم به بدًّا، بل صارت عذابًا لازمًا لهم، كما كانت إرادتهم وعقائدهم الباطلة وأعمالهم القبيحة لازمة لهم.

ولزوم العذاب لأهله في النار بحسب لزوم تلك الإرادة الفاسدة، والعقائد الباطلة، وما يترتب عليها من الأعمال لهم في الدنيا. فإذا زال ذلك اللزوم في وقت ما بضده، وبالتوبة النصوح، زوالًا كليًّا؛ لم يعذبوا عليه في الآخرة؛ لأن أثره قد زال من قلوبهم وألسنتهم وجوارحهم، ولم يبق له أثر يترتب عليه، فالتائب من الذنب كمن لا ذنب له، والمادة الفاسدة إذا زالت من البدن بالكلية لم يبق هناك ألم ينشأ عنها، وإن لم تزل تلك الإرادة والأعمال، ولكن عارضها معارض أقوى منها؛ كان التأثير للمعارض، وغلب الأقوى الأضعف. وإن تساوى الأمران؛ تدافعا، وقاوم كل منهما الآخر، وكان محل صاحبه جبال الأعراف بين الجنة والنار. فهذا حكم الله وحكمته في خلقه وأمره ونهيه وعقابه، ولا يظلم ربك أحدًا»[(١)].

قال الشنقيطي في قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يُدَعُّونَ إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا ۝١٣ هَٰذِهِ ٱلنَّارُ ٱلَّتِي

---

(١) التبيان في أقسام القرآن (ص: ١٦٣-١٦٤).

كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴿١٤﴾ ﴾ قال: «قد تضمنت هذه الآية الكريمة أمرين: أحدهما أن الكفار يدفعون إلى النار بقوة وعنف يوم القيامة. والثاني: أنهم يقال لهم يوم القيامة توبيخًا وتقريعًا: ﴿هَٰذِهِ ٱلنَّارُ ٱلَّتِي كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴿١٤﴾ ﴾.

وهذان الأمران المذكوران في هذه الآية الكريمة جاءا موضحين في آيات أخر، أما الأخير منهما، وهو كونهم يقال لهم: ﴿هَٰذِهِ ٱلنَّارُ ٱلَّتِي كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴿١٤﴾ ﴾، وقد ذكره تعالى في آيات من كتابه كقوله في السجدة: ﴿كُلَّمَآ أَرَادُوٓاْ أَن يَخْرُجُواْ مِنْهَآ أُعِيدُواْ فِيهَا وَقِيلَ لَهُمْ ذُوقُواْ عَذَابَ ٱلنَّارِ ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ﴾[1] وقوله في سبأ: ﴿فَٱلْيَوْمَ لَا يَمْلِكُ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ نَّفْعًا وَلَا ضَرًّا وَنَقُولُ لِلَّذِينَ ظَلَمُواْ ذُوقُواْ عَذَابَ ٱلنَّارِ ٱلَّتِي كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴿٤٢﴾ ﴾[2] وقوله تعالى في المرسلات: ﴿ٱنطَلِقُوٓاْ إِلَىٰ مَا كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ ﴿٢٩﴾ ٱنطَلِقُوٓاْ إِلَىٰ ظِلٍّ ذِى ثَلَٰثِ شُعَبٍ ﴿٣٠﴾ لَّا ظَلِيلٍ وَلَا يُغْنِى مِنَ ٱللَّهَبِ ﴿٣١﴾ إِنَّهَا تَرْمِى بِشَرَرٍ كَٱلْقَصْرِ ﴿٣٢﴾ ﴾[3] الآية، إلى غير ذلك من الآيات.

وأما الأول منهما وهو كونهم يدفعون إلى النار بقوة فقد ذكره الله -جل وعلا- في آيات من كتابه كقوله تعالى: ﴿خُذُوهُ فَٱعْتِلُوهُ إِلَىٰ سَوَآءِ ٱلْجَحِيمِ ﴿٤٧﴾ ﴾[4] أي: جروه بقوة وعنف إلى وسط النار. والعتل في لغة العرب: الجر بعنف وقوة، ومنه قول الفرزدق:

ليس الكرام بناحليك أباهم حتى ترد إلى عطية تعتل

وقوله: ﴿يُعْرَفُ ٱلْمُجْرِمُونَ بِسِيمَٰهُمْ فَيُؤْخَذُ بِٱلنَّوَٰصِى وَٱلْأَقْدَامِ ﴿٤١﴾ ﴾[5] أي: تجمع الزبانية بين ناصية الواحد منهم، أي مقدم شعر رأسه وقدمه، ثم تدفعه في النار بقوة وشدة.

وقد بين -جل وعلا- أنهم أيضًا يسحبون في النار على وجوههم في آيات من كتابه كقوله تعالى: ﴿يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِى ٱلنَّارِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ ذُوقُواْ مَسَّ سَقَرَ ﴿٤٨﴾ ﴾[6]، وقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِٱلْكِتَٰبِ وَبِمَآ أَرْسَلْنَا بِهِۦ رُسُلَنَا فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٧٠﴾ إِذِ ٱلْأَغْلَٰلُ فِىٓ أَعْنَٰقِهِمْ وَٱلسَّلَٰسِلُ يُسْحَبُونَ ﴿٧١﴾ فِى ٱلْحَمِيمِ ثُمَّ فِى ٱلنَّارِ يُسْجَرُونَ ﴿٧٢﴾ ﴾[7] وقوله: في

---

(١) السجدة: الآية (٢٠).
(٢) سبأ: الآية (٤٢).
(٣) المرسلات: الآيات (٢٩-٣٢).
(٤) الدخان: الآية (٤٧).
(٥) الرحمن: الآية (٤٧).
(٦) القمر: الآية (٤٨).
(٧) غافر: الآيات (٧٠-٧٢).

هذه الآية الكريمة: ﴿يَوْمَ يُدَعُّونَ﴾، بدل من قوله: ﴿يَوْمَئِذٍ﴾، في قوله تعالى قبله: ﴿فَوَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿١١﴾﴾[1]»[2].

وقال في قوله: ﴿ٱصْلَوْهَا فَٱصْبِرُوٓا۟ أَوْ لَا تَصْبِرُوا۟ سَوَآءٌ عَلَيْكُمْ ۖ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾﴾ قال: «ذكر -جل وعلا- في هذه الآية الكريمة أن الكفار معذبون في النار لا محالة، سواء صبروا أو لم يصبروا، فلا ينفعهم في ذلك صبر ولا جزع، وقد أوضح هذا المعنى في قوله: ﴿قَالُوا۟ لَوْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ لَهَدَيْنَـٰكُمْ ۖ سَوَآءٌ عَلَيْنَآ أَجَزِعْنَآ أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِن مَّحِيصٍ﴾[3]»[4].

* * *

(١) الطور: الآية (١١).

(٢) أضواء البيان (٧/ ٦٨٤-٦٨٦).

(٣) إبراهيم: الآية (٢١).

(٤) أضواء البيان (٧/ ٦٨٦).

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَنَعِيمٍ ﴿١٧﴾ فَٰكِهِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمْ رَبُّهُمْ وَوَقَىٰهُمْ رَبُّهُمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ ﴿١٨﴾ كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ هَنِيٓـًٔۢا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٩﴾ مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ سُرُرٍ مَّصْفُوفَةٍ ۖ وَزَوَّجْنَٰهُم بِحُورٍ عِينٍ ﴿٢٠﴾﴾

★ غريب الآية:

فاكهين: أي: معجبين ناعمين، يقال فكه الرجل بالكسر فهو فكه إذا كان طيب النفس مزاحا.

مصفوفة: أي: موصولة بعضها إلى بعض حتى تصير صفًّا».

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن كثير: «يخبر تعالى عن حال السعداء فقال: ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَنَعِيمٍ ﴿١٧﴾﴾، وذلك بضد ما أولئك فيه من العذاب والنكال.

﴿فَٰكِهِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمْ رَبُّهُمْ﴾ أي: يتفكهون بما آتاهم الله من النعيم، من أصناف الملاذ، من مآكل ومشارب وملابس ومساكن ومراكب وغير ذلك، ﴿وَوَقَىٰهُمْ رَبُّهُمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ﴾ أي: وقد نجاهم من عذاب النار، وتلك نعمة مستقلة بذاتها على حدتها مع ما أضيف إليها من دخول الجنة، التي فيها من السرور ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر»[١].

قال ابن القيم: ثم ذكر سبحانه أرباب العلوم النافعة والأعمال الصالحة والاعتقادات الصحيحة، وهم المتقون، فذكر مساكنهم وهم في الجنان، وحالهم في المساكن وهو النعيم، وذكر نعيم قلوبهم وراحتهم بكونهم ﴿فَٰكِهِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمْ رَبُّهُمْ﴾ والفاكه: المعجب بالشيء المسرور المغتبط به، وفعله فكه -بالكسر- يفكه فهو فكه وفاكه إذا كان طيب النفس والفاكه: البال، ومنه الفاكهة وهي المرح الذي ينشأ عن طيب النفس، وتفكهت بالشي إذا تمتعت به، ومنه الفاكهة التي يتمتع بها،

---

(١) تفسير القرآن العظيم (٧/ ٤٠٧).

ومنه قوله: ﴿فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ﴾[1] قيل: معناه تندمون وهذا تفسير بلازم المعنى، وإنما الحقيقة تزيلون عنكم التفكه، وإذا زال التفكه خلفه ضده، يقال: تحنث إذا زال الحنث عنه، وتحرج وتحوب وتأثم ومنه تفكه، وهذا البناء يقال للداخل في الشيء: كتعلم وتحلم وللخارج منه: كتحرج وتأثم.

والمقصود أنه سبحانه جمع لهم بين النعيمين: نعيم القلب بالتفكه ونعيم البدن بالأكل والشرب والنكاح، ووقاهم عذاب الجحيم، فوقاهم مما يكرهون وأعطاهم ما يحبون جزاء وفاقا، لأنهم تركوا ما يكره وأتوا بما يحب: فكان جزاؤهم مطابقا لأعمالهم.

ثم أخبر عن دوام ذلك لهم بما أفهمه قوله: ﴿هَنِيٓـًٔا﴾ فإنهم لو علموا زواله وانقطاعه لنغص عليهم ذلك نعيمهم ولم يكن هناء لهم.

ثم ذكر مجالسهم وهيئاتهم فيها فقال: ﴿مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ سُرُرٍ مَّصْفُوفَةٍ﴾ وفي ذكر اصطفافها تنبيه على كمال النعمة عليهم بقرب بعضهم من بعض، ومقابلة بعضهم بعضا، كما قال تعالى: ﴿مُّتَّكِـِٔينَ عَلَيْهَا مُتَقَٰبِلِينَ﴾[2] فإن من تمام اللذة والنعيم أن يكون مع الإنسان في بستانه ومنزله من يحب معاشرته ويؤثر قربه، ولا يكون بعيدًا منه قد حيل بينه وبينه؛ بل سريره إلى جانب سرير من يحبه.

وذكر أزواجهم وأنهم الحور العين، وقد تكرر وصفهم في القرآن بهاتين الصفتين، قال أبو عبيدة: جعلناهم أزواجا كما يزوج البعل بالبعل جعلناهم اثنين اثنين، وقال يونس: قرناهم بهن وليس من عقد التزويج، واحتج على هذا بأن العرب لا تقول تزوجت بها وإنما تقول تزوجتها، قال تعالى: ﴿فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَٰكَهَا﴾[3] وفي الحديث: «**زوجتكها بما معك من القرآن**»[4] وقال غيره: العرب تقول تزوجت بامرأة. وقال الأزهري: العرب تقول: زوجته امرأة وتزوجت امرأة وليس في كلامهم تزوجت بامرأة، ومنه قوله تعالى: ﴿وَزَوَّجْنَٰهُم بِحُورٍ عِينٍ﴾ أي

---

(١) الواقعة: الآية (٦٥). (٢) الواقعة: الآية (١٦).

(٣) الأحزاب: الآية (٣٧).

(٤) أخرجه: أحمد (٥/ ٣٣٠). والبخاري (٤/ ٦١٢/ ٢٣١٠). ومسلم (٢/ ١٠٤٠-١٠٤١/ ١٤٢٥). وأبو داود (٢/ ٥٨٦-٥٨٧/ ٢١١١). والترمذي (٣/ ٤٢١-٤٢٢/ ١١١٤). والنسائي (٦/ ٤٢٢-٤٢٣/ ٣٣٣٩). وابن ماجه (١/ ٦٠٨/ ١٨٨٩) من طرق عن سهل بن سعد ﷺ.

قرناهم، وعلى هذا فزوجناهم عند هؤلاء من الاقتران والشفع. أي: شفعناهم وقرناهم بهن، وقالت طائفة منهم مجاهد: زوجناهم بهن أي: أنكحناهم إياهن.

قلت: وعلى هذا فتلويح فعل التزويج قد دل على النكاح، وتعديته بالباء المتضمنة معنى الاقتران والضم فالقولان واحد، والله أعلم.

وأما الحور العين فقال مجاهد: التي يحار فيها الطرف باديا مخ سوقهن من وراء ثيابهن، ويرى الناظر وجهه في كبد إحداهن كالمرآة من رقة الجلد وصفاء اللون، وقال قتادة: بحور أي بيض، وكذا قال ابن عباس. وقال مقاتل: الحور البيض الوجوه. العين: الحسان الأعين وعين حوراء: شديدة السواد نقية البياض، طويلة الأهداب مع سوادها، كاملة الحسن، ولا تسمى المرأة حوراء حتى يكون مع حور عينها بياض لون الجسد، فوصفهن بالبياض والحسن والملاحة كما قال: ﴿خَيْرَٰتٌ حِسَانٌ﴾[١] فالبياض في ألوانهن، والحسن في وجوههن، والملاحة في عيونهم، وقد وصف اللّٰه سبحانه نساء أهل الجنة بأحسن الصفات، ودل بما وصف بما سكت عنه.

فإن شئت التفصيل فالذي يحمد ويستحب من وجه المرأة وبدنها وأخلاقها البياض في أربعة أشياء: اللون وبياض العين والفرق والثغر. والسواد في أربعة: سواد العين، وسواد شعر الرأس والجفن، وسواد الحاجبين، والحمرة في أربعة: اللسان، والشفتين، والوجنتين، وحمرة تشوب البياض فتحسنه وتزينه. ومن التدوير أربعة أشياء: الوجه والرأس والكعب والمقعد، ومن الطول أربعة: القامة والعنق والشعر والحاجب، والسعة في أربعة: الجبهة والعين والوجه والصدر. ومن الصغر في أربعة: الثدي والفم والكف والقدم. ومن الطيب في أربعة: الفم والأنف والفرق والفرج. ومن الضيق في موضع واحد. ومن الأخلاق كما قال تعالى: ﴿عُرُبًا أَتْرَابًا ۝٣٧﴾[٢] إذ العرب جمع عروب وهي المرأة المتحببة إلى زوجها بأخلاقها، ولطافتها وشمائلها، قال ابن الأعرابي: العروب من النساء المطيعة لزوجها المتحببة إليه، وقال أبو عبيدة: هي الحسنة التبعل. قال المبرد: هي

---

(١) الرحمن: الآية (٧٢).

(٢) الواقعة: الآية (٣٧).

العاشقة لزوجها. وقال البخاري في صحيحه: هي الغنجة. ويقال: الشكلة. فهذا وصف أخلاقهن، وذلك وصف خلقهن، وأنت إذا تأملت الصفات التي وصفهن اللَّه بها رأيتها مستلزمة لهذه الصفات، ولما وراءها، واللَّه المستعان»[١].

قال السعدي: «وصف اللَّه السرر بأنها مصفوفة، ليدل ذلك على كثرتها، وحسن تنظيمها، واجتماع أهلها وسرورهم بحسن معاشرتهم، ولطف كلام بعضهم لبعض، فلما اجتمع لهم من نعيم القلب والروح والبدن ما لا يخطر بالبال، ولا يدور في الخيال، من المآكل والمشارب اللذيذة، والمجالس الحسنة الأنيقة، لم يبق إلا التمتع بالنساء اللاتي لا يتم سرور بدونهن، فذكر اللَّه أن لهم من الأزواج أكمل النساء أوصافا، وخلقا وأخلاقا، ولهذا قال: ﴿وَزَوَّجْنَٰهُم بِحُورٍ عِينٍ﴾ وهن النساء اللواتي قد جمعن من جمال الصورة الظاهرة وبهاءها، ومن الأخلاق الفاضلة ما يوجب أن يحيرن بحسنهن الناظرين، ويسلبن عقول العالمين، وتكاد الأفئدة أن تطيش شوقا إليهن، ورغبة في وصالهن، والعين: حسان الأعين مليحاتها، التي صفا بياضها وسوادها»[٢].

قال المراغي: «﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَنَعِيمٍ ۝١٧ فَٰكِهِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمْ رَبُّهُمْ﴾ أي: إن الذين خافوا ربهم وأخلصوا له العبادة في السر والعلن، وأدوا فرائضه، وتحلوا بآداب دينه، وانتهوا عن معاصيه، ولم يدنسوا أنفسهم بالآثام، ولم يدسوا أرواحهم بالذنوب، يجازيهم ربهم جزاء وفاقا، بجنات يتنعمون فيها، ويجدون ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر، كفاء ما قاموا به من جليل الأعمال في الدنيا، وما حرموا منه أنفسهم من لذاتها، وما صبروا عليه من مكارهها، ابتغاء رضوانه، وهم فيها قريرو الأعين طيبو النفوس، لا يشغلهم شاغل، ولا يجدون هما ولا نصبا، ولا يكدر صفو عيشهم مكدر»[٣].

* * *

---

(١) التبيان (ص: ١٦٤-١٦٦).
(٢) تيسير الكريم الرحمن (٧/ ١٩٠).
(٣) تفسير المراغي (٢٧/ ٢٢).

قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَٰنٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَآ أَلَتْنَٰهُم مِّنْ عَمَلِهِم مِّن شَيْءٍ كُلُّ ٱمْرِيٍٕ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ ﴿٢١﴾﴾

★ **غريب الآية:**

ألتناهم: أنقصناهم.

رهين: محبوس.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن كثير: «يخبر تعالى عن فضله وكرمه، وامتنانه ولطفه بخلقه وإحسانه؛ أن المؤمنين إذا اتبعتهم ذرياتهم في الإيمان يُلحقهم بآبائهم في المنزلة وإن لم يبلغوا عملهم، لتقر أعين الآباء بالأبناء عندهم في منازلهم، فيجمع بينهم على أحسن الوجوه، بأن يرفع الناقص العمل بكامل العمل، ولا ينقص ذلك من عمله ومنزلته، للتساوي بينه وبين ذاك؛ ولهذا قال: ﴿أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَآ أَلَتْنَٰهُم مِّنْ عَمَلِهِم مِّن شَيْءٍ﴾»(١).

قال ابن القيم: «أخبر سبحانه أنه لم ينقص الآباء من عملهم من شيء بهذا الإلحاق فينزلهم من الدرجة العليا إلى الدرجة السفلى؛ بل ألحق الأبناء بالآباء ووفر على الآباء أجورهم ودرجاتهم.

ثم أخبر سبحانه أن هذا إنما هو فعله في أهل الفضل، وأما أهل العدل فلا يفعل بهم ذلك؛ بل ﴿كُلُّ ٱمْرِيٍٕ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ﴾ ففي هذا دفع لتوهم التسوية بين الفريقين بهذا الإلحاق كما في قوله: ﴿وَمَآ أَلَتْنَٰهُم مِّنْ عَمَلِهِم مِّن شَيْءٍ﴾ دفع لتوهم حط الآباء إلى درجة الأبناء، وقسمة أجور الآباء بينهم وبين الأبناء، فينقص أجر أعمالهم فرفع هذا التوهم بقوله: ﴿وَمَآ أَلَتْنَٰهُم مِّنْ عَمَلِهِم مِّن شَيْءٍ﴾ أي ما نقصناهم»(٢).

---

(١) تفسير القرآن العظيم (٧/ ٤٠٧-٤٠٨).

(٢) التبيان (ص: ١٦٧).

وقال: ثم لما كان هذا الإلحاق في الثواب والدرجات فضلا من الله فربما وقع في الوهم أن إلحاق الذرية أيضا حاصل لهم في حكم العدل، فإذا اكتسبوا سيئات أوجبت عقوبة، كان كل عامل رهينا بكسبه، لا يتعلق بغيره منه شيء، فالإلحاق المذكور إنما هو في الفضل والثواب لا في العدل والعقاب، وهذا ونحوه نوع من أسرار القرآن وكنوزه التي يختص الله بفهمها من شاء، فقد تضمنت هذه الآية أقسام الخلائق كلهم: أشقيائهم وسعدائهم.

السعداء المتبوعين والأتباع، والأشقياء المتبوعين والأتباع، فعلى العاقل الناصح لنفسه أن ينظر في أي الأقسام هو، ولا يغتر بالعادة ويخلد إلى البطالة، فإن كان من قسم سعيد انتقل منه إلى ما هو فوقه وبذل جهده، والله ولي التوفيق والنجاح، وإن كان من قسم شقي انتقل منه إلى القسم السعيد في زمن الإمكان قبل أن يقول: ﴿يَٰلَيْتَنِى ٱتَّخَذْتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلًا﴾[١]»[٢].

قال ابن كثير في قوله: ﴿كُلُّ ٱمْرِئٍۭ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ﴾ قال: «أي: مرتهن بعمله لا يحمل عليه ذنب غيره من الناس سواء كان أبًا أو ابنا كما قال تعالى: ﴿كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ ﴿٣٨﴾ إِلَّآ أَصْحَٰبَ ٱلْيَمِينِ ﴿٣٩﴾ فِى جَنَّٰتٍ يَتَسَآءَلُونَ ﴿٤٠﴾ عَنِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٤١﴾﴾[٣]»[٤].

قال الشنقيطي في قوله: ﴿كُلُّ ٱمْرِئٍۭ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ﴾ قال: «ظاهر هذه الآية الكريمة العموم في جميع الناس، وقد بين تعالى في آيات أخر أن أصحاب اليمين خارجون من هذا العموم، وذلك في قوله تعالى: ﴿كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ ﴿٣٨﴾ إِلَّآ أَصْحَٰبَ ٱلْيَمِينِ ﴿٣٩﴾ فِى جَنَّٰتٍ يَتَسَآءَلُونَ ﴿٤٠﴾ عَنِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٤١﴾﴾[٥]. ومن المعلوم أن التخصيص بيان كما تقرر في الأصول»[٦].

قال ابن القيم: «وقد اختلف المفسرون في الذرية في هذه الآية هل المراد بها الصغار أو الكبار أو النوعان على ثلاثة أقوال، واختلافهم مبني على أن قوله: ﴿بِإِيمَٰنٍ﴾ حال من الذرية التابعين أو المؤمنين المتبوعين، فقالت طائفة: المعنى:

---

(١) الفرقان: الآية (٢٧).

(٢) الرسالة التبوكية (ص:١٨٦-١٨٧).

(٣) المدثر: الآيات (٣٨-٤١).

(٤) تفسير القرآن العظيم (٧/ ٤٠٩).

(٥) المدثر: الآيات (٣٨-٤١).

(٦) أضواء البيان (٧/ ٦٨٦).

والذين آمنوا وأتبعناهم ذرياتهم في إيمانهم فأتوا من الإيمان بمثل ما أتوا به، ألحقناهم بهم في الدرجات، قالوا: ويدل على هذا قراءة من قرأ: ﴿وَأَتْبَعْنَٰهُمْ ذُرِّيَّٰتِهِمْ﴾ فجعل الفعل في الاتباع لهم، قالوا: وقد أطلق اللَّه سبحانه الذرية على الكبار كما قال: ﴿وَمِن ذُرِّيَّتِهِۦ دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ﴾[(١)] وقال: ﴿ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ﴾[(٢)] وقال: ﴿وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّنۢ بَعْدِهِمْ ۖ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلْمُبْطِلُونَ﴾[(٣)] وهذا قول الكبار العقلاء، قالوا: ويدل على ذلك ما رواه سعيد بن جبير عن ابن عباس يرفعه: «**إن اللَّه يرفع ذرية المؤمن إلى درجته وإن كانوا دونه في العمل لتقر بهم عينه**»[(٤)] فهذا يدل على أنهم دخلوا بأعمالهم، ولكن لم يكن لهم أعمال يبلغوا بها درجة آبائهم فبلغهم إياها، وإن تقاصر عملهم عنها، قالوا: وأيضا: فالإيمان هو القول والعمل والنية، وهذا إنما يمكن من الكبار، وعلى هذا فيكون المعنى: أن اللَّه سبحانه يجمع ذرية المؤمن إليه إذا أتوا من الإيمان بمثل إيمانه، إذ هذا حقيقة التبعية، وإن كانوا دونه في الإيمان رفعهم اللَّه إلى درجته إقرارا لعينه وتكميلا لنعيمه، وهذا كما أن زوجات النبي ﷺ معه في الدرجة تبعا وإن لم يبلغوا تلك الدرجة بأعمالهن.

وقالت طائفة أخرى: الذرية هاهنا الصغار، والمعنى: والذين آمنوا وأتبعناهم ذرياتهم في إيمان الآباء، والذرية تتبع الآباء وإن كانوا صغارا في الإيمان وأحكامه من الميراث والدية والصلاة عليهم والدفن في قبور المسلمين وغير ذلك. إلا فيما كان من أحكام البالغين، ويكون قوله: ﴿بِإِيمَٰنٍ﴾ على هذا في موضع نصب على الحال من المفعولين، أي: وأتبعناهم ذرياتهم بإيمان الآباء، قالوا: ويدل على صحة هذا القول أن البالغين لهم حكم أنفسهم في الثواب والعقاب، فإنهم مستقلون بأنفسهم ليسوا تابعين الآباء في شيء من أحكام الدنيا، ولا أحكام الثواب والعقاب، لاستقلالهم بأنفسهم، ولو كان المراد بالذرية البالغين لكان أولاد الصحابة البالغون كلهم في درجة آبائهم، وتكون أولاد التابعين البالغون كلهم في درجة آبائهم وهلم جرا إلى يوم القيامة، فيكون الآخرون في درجة السابقين، قالوا:

---

(١) الأنعام: الآية (٨٤). (٢) الإسراء: الآية (٣).

(٣) الأعراف: الآية (١٧٣).

(٤) أخرجه: ابن جرير (٢٧/ ٢٤)، وصححه الحاكم (٢/ ٤٦٨)، وسكت عنه الذهبي، موقوفا عن ابن عباس رضي الله عنه.

ويدل عليه أيضا أنه سبحانه جعلهم معهم تبعا في الدرجة كما جعلهم تبعا معهم في الإيمان، ولو كانوا بالغين لم يكن إيمانهم تبعا؛ بل إيمان استقلال، قالوا: ويدل عليه أن اللّٰه ﷻ جعل المنازل في الجنة بحسب الأعمال في حق المستقلين، وأما الأتباع فإن اللّٰه ﷻ يرفعهم إلى درجة أهليهم، وإن لم يكن لهم أعمالهم كما تقدم، وأيضا: فالحور العين والخدم في درجة أهليهم وإن لم يكن لهم عمل، بخلاف المكلفين البالغين فإنهم يرفعون إلى حيث بلغتهم أعمالهم.

وقالت فرقة منهم الواحدي: الوجه أن تحمل الذرية الصغار والكبار؛ لأن الكبير يتبع الأب بإيمان نفسه، والصغير يتبع الأب بإيمان الأب، قالوا: والذرية تقع على الصغير والكبير، والواحد والكثير، والابن والأب، كما قال تعالى: ﴿وَءَايَةٌ لَّهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِي ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ ﴿٤١﴾﴾[1] أي: آباءهم، والإيمان يقع على التبعي وعلى الاختياري الكسبي، فمن وقوعه على التبعي قوله: ﴿فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ﴾[2] فلو أعتق صغيرا جاز، قالوا: وأقوال السلف تدل على هذا، قال سعيد ابن جبير عن ابن عباس، إن اللّٰه يرفع درجة المؤمن في درجته، وإن كانوا دونه في العمل لتقر بهم عيونهم، ثم قرأ هذه الآية، وقال ابن مسعود: في هذه الآية الرجل يكون له القدم ويكون له الذرية فيدخل الجنة فيرفعون إليه، لتقر بهم عينه وإن لم يبلغوا ذلك، وقال أبو مجلز، يجمعهم اللّٰه له، كما كان يحب أن يجتمعوا في الدنيا، وقال الشعبي: أدخل اللّٰه الذرية بعمل الآباء الجنة. وقال الكلبي عن ابن عباس: إن كان الآباء أرفع درجة من الأبناء رفع اللّٰه الأبناء إلى الآباء، وإن كان الأبناء أرفع درجة من الآباء رفع اللّٰه الآباء إلى الأبناء، وقال إبراهيم: أعطوا مثل أجور آبائهم ولم ينقص الآباء من أجورهم شيئا، قال: ويدل على صحة هذا القول أن القراءتين كالآيتين، فمن قرأ: واتبعتهم ذريتهم، فهذا من حق البالغين الذين تصح نسبة الفعل إليهم، كما قال تعالى: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ﴾[3] ومن قرأ: وأتبعناهم ذرياتهم، فهذا في حق الصغار الذين أتبعهم اللّٰه إياهم في الإيمان حكما، فدلت القراءتان على النوعين»[4].

---

(١) يس: الآية (٤١).
(٢) النساء: الآية (٩٢).
(٣) التوبة: الآية (١٠٠).
(٤) حادي الأرواح (ص: ٢٧٩-٢٨١).

قال ابن عطية: «وأرجح الأقوال في هذه الآية القول الأول؛ لأن الآيات كلها في صفة إحسان اللَّه تعالى إلى أهل الجنة، فذكر من جملة إحسانه أنه يرعى المحسن في المسيء، ولفظة ألحقنا تقتضي أن للملحق بعض التقصير في الأعمال، ومعنى هذه الآية: أن اللَّه يلحق المقصر بالمحسن، ولا ينقص المحسن من أجره شيئًا وهذا تأويل ابن عباس وابن جبير والجمهور»[1].

قال ابن كثير: «وهكذا يقول الشعبي وسعيد بن جبير وإبراهيم وقتادة وأبو صالح والربيع بن أنس والضحاك وابن زيد، وهو اختيار ابن جرير»[2].

قال ابن جرير بعد حكايته للاختلاف الواقع بين أهل التأويل في المعنى المقصود بهذه الآية قال: «وأولى هذه الأقوال بالصواب وأشبهها بما دل عليه ظاهر التنزيل: القول الذي ذكرنا عن سعيد بن جبير عن ابن عباس وهو: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم﴾ الذين أدركوا الإيمان ﴿بِإِيمَـٰنٍ﴾ وآمنوا باللَّه ورسوله، ألحقنا بالذين آمنوا ذريتهم الذين أدركوا الإيمان، فآمنوا في الجنة فجعلناهم معهم في درجاتهم، وإن قصرت أعمالهم عن أعمالهم، تكرمة منا لآبائهم، وما ألتناهم من أجور عملهم شيئًا. وإنما قلت: ذلك أولى التأويلات به لأن ذلك الأغلب من معانيه، وإن كان للأقوال الأخر وجوه»[3].

قال ابن القيم: «فهذه الآية تدل على أن اللَّه سبحانه يلحق ذرية المؤمنين بهم في الجنة، وأنهم يكونون معهم في درجتهم، ومع هذا فلا يتوهم نزول الآباء إلى درجة الذرية، فإن اللَّه لم يلتهم أي: لم ينقصهم من أعمالهم شيئا؛ بل رفع ذرياتهم إلى درجاتهم مع توفير أجور الآباء عليهم، ولما كان إلحاق الذرية بالآباء في الدرجة إنما هو بحكم التبعية لا بالأعمال، ربما توهم متوهم أن ذرية الكفار يلحقون بهم في العذاب تبعا، وإن لم يكن لهم أعمال الآباء، فقطع تعالى هذا التوهم بقوله تعالى: ﴿كُلُّ ٱمْرِئٍۭ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ﴾ وتأمل قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَـٰنٍ﴾ كيف أتى بالواو العاطفة في اتباع الذرية، وجعل الخبر عن المؤمنين الذين هذا شأنهم، فجعل الخبر مستحقا بأمرين: أحدهما: إيمان الآباء. والثاني: إتباع

---

(١) المحرر الوجيز (٥/ ١٨٩).

(٢) تفسير ابن كثير (٧/ ٤٠٨).

(٣) جامع البيان (٢٧/ ٢٦).

اللَّه ذريتهم إياهم، وذلك لا يقتضي أن كل مؤمن يتبعه كل ذرية له، ولو أريد هذا المعنى لقيل: والذين آمنوا تتبعهم ذرياتهم، فعطف الإتباع بالواو يقتضي أن يكون المعطوف بها قيدا وشرطا في ثبوت الخبر، لا حصوله لكل أفراد المبتدأ، وعلى هذا يخرج ما رواه مسلم في صحيحه عن عائشة قالت: أتي النبي بصبي من الأنصار يصلي عليه فقلت: يا رسول الله! طوبى لهذا لم يعمل شرا ولم يدره. قال: «**أو غير ذلك يا عائشة، إن اللَّه خلق الجنة وخلق لها أهلًا، وخلقها لهم وهم في أصلاب آبائهم، وخلق النار وخلق لها أهلًا، وخلقها لهم وهم في أصلاب آبائهم**»[1] فهذا الحديث يدل على أنه لا يشهد لكل طفل من أطفال المؤمنين بالجنة، وإن أطلق على أطفال المؤمنين في الجملة أنهم في الجنة، لكن الشهادة للمعين ممتنعة، كما يشهد للمؤمنين مطلقا أنهم في الجنة، ولا يشهد لمعين بذلك إلا من شهد له النبي ﷺ، فهذا وجه الحديث الذي يشكل على كثير من الناس، ورده الإمام أحمد وقال: لا يصح ومن يشك أن أولاد المسلمين في الجنة، وتأوله قوم تأويلات بعيدة»[2].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في بيان فضل اللَّه على الآباء ببركة دعاء الأبناء

* عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «**إن الرجل لترفع درجته في الجنة فيقول: أنى هذا؟! فيقال: باستغفار ولدك لك**»[3].

⋆ فوائد الحديث:

في هذا الحديث بيان «فضل اللَّه تعالى على الآباء ببركة دعاء الأبناء»[4].

---

(١) أخرجه: أحمد (٦/ ٤١ و٢٠٨)، ومسلم (٤/ ٢٠٥٠/ ٢٦٦٢[٣١])، وأبو داود (٥/ ٨٦/ ٤٧١١)، والنسائي (٤/ ٣٥٩/ ١٩٤٦)، وابن ماجه (١/ ٣٢/ ٨٢).

(٢) طريق الهجرتين (ص: ٣٩٦).

(٣) أخرجه: أحمد (٢/ ٥٠٩)، وابن ماجه (٢/ ١٢٠٧/ ٣٦٦٠)، قال البوصيري: «إسناده صحيح رجاله ثقات». وذكره الهيثمي في المجمع (١٠/ ٢١٣)، وقال: «رواه أحمد والطبراني في الأوسط ورجالهما رجال الصحيح غير عاصم بن بهدلة وقد وثق». وقال ابن كثير (٧/ ٤٠٩): «إسناده صحيح ولم يخرجوه من هذا الوجه، ولكن له شاهد في صحيح مسلم عن أبي هريرة عن رسول اللَّه ﷺ: «**وإذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث: صدقة جارية، أو علم ينتفع به، أو ولد صالح يدعو له**».

(٤) أفاده ابن كثير في تفسير (٧/ ٤٠٩).

قال الطيبي: «دل الحديث على أن الاستغفار يحط من الذنوب أعظمها، وهذا يدل على أنه يرفع درجة غير المستغفر إلى ما لم يبلغها بعمله فما ظنك بالعامل المستغفر؟ ولو لم يكن في النكاح فضيلة غير هذا لكفى به فضلًا»[1].

وقال الساعاتي: «فيه أن دعاء الولد لوالديه ينفعهما بعد موتهما، فمن لم يدرك والديه وأراد برهما أو أدركهما وقصر في برهما، فليكثر من الدعاء لهما بعد موتهما، فهو من أعظم أنواع البر بالوالدين، ويكون للولد أجر عظيم في ذلك»[2].

* * *

---

(١) شرح الطيبي (٦/ ١٨٥٥-١٨٥٦).

(٢) الفتح الرباني (٩/ ٢٠٥).

قوله تعالى: ﴿وَأَمْدَدْنَٰهُم بِفَٰكِهَةٍ وَلَحْمٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ ﴿٢٢﴾ يَتَنَٰزَعُونَ فِيهَا كَأْسًا لَّا لَغْوٌ فِيهَا وَلَا تَأْثِيمٌ ﴿٢٣﴾ ۞ وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ غِلْمَانٌ لَّهُمْ كَأَنَّهُمْ لُؤْلُؤٌ مَّكْنُونٌ ﴿٢٤﴾ وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَآءَلُونَ ﴿٢٥﴾ قَالُوٓا۟ إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِىٓ أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ ﴿٢٦﴾ فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقَىٰنَا عَذَابَ ٱلسَّمُومِ ﴿٢٧﴾ إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلُ نَدْعُوهُ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْبَرُّ ٱلرَّحِيمُ ﴿٢٨﴾﴾

★ غريب الآية:

يتنازعون: أي: يتعاطون، وتناقل بعضهم بعضا كأن كلا منهم ينزع الكأس عن صاحبه.

مكنون: مصون محفوظ. من كَنَنْتُ الشيءَ: جعلته في كِنٍّ، أي: ما يستره ويصونه.

مشفقين: أي: خائفين وجلين من عذاب اللَّه.

السموم: الريح الحارة، تؤنث، يقال منه: سم يومنا فهو مسموم، والجمع سمائم، قال أبو عبيدة: السموم بالنهار، وقد تكون بالليل، والحرور بالليل وقد تكون بالنهار، وقد تستعمل السموم في لفح البرد، وهو في لفح الحر والشمس أكثر.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن القيم: «ذكر إمدادهم باللحم والفاكهة والشرب، وأنهم يتعاطون كؤوس الشراب بينهم، يشرب أحدهم ويناول صاحبه ليتم بذلك فرحهم وسرورهم. ثم نزه ذلك الشراب عن الآفات من اللغو من أهله عليه، ولحوق الإثم لهم فقال: ﴿لَّا لَغْوٌ فِيهَا وَلَا تَأْثِيمٌ﴾ فنفى باللغو السباب والتخاصم والهجر والفحش في المقال والعربدة، ونفى بالتأثيم جميع الصفات المذمومة التي أثمت شارب الخمر، وقال سبحانه: ﴿وَلَا تَأْثِيمٌ﴾ ولم يقل: ولا إثم، أي: ليس فيها ما يحملهم على الإثم، ولا يؤثم بعضهم بعضا بشربها، ولا يؤثمهم اللَّه بذلك ولا الملائكة، فلا يلغون

ولا يأثمون. قال ابن قتيبة: لا يذهب بعقولهم فيلغوا ولم يقع منهم ما يؤثمهم»[١].

قال ابن كثير: «نزه اللَّه خمر الآخرة عن قاذورات خمر الدنيا وأذاها، فنفى عنها -كما تقدم- صداع الرأس، ووجع البطن، وإزالة العقل بالكلية، وأخبر أنها لا تحملهم على الكلام السيئ الفارغ عن الفائدة المتضمن هَذَيانا وفُحشا، وأخبر بحسن منظرها، وطيب طعمها ومخبرها فقال: ﴿بَيْضَآءَ لَذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ ﴿٤٦﴾ لَا فِيهَا غَوْلٌ وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنزَفُونَ ﴿٤٧﴾﴾[٢]، وقال: ﴿لَّا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلَا يُنزِفُونَ ﴿١٩﴾﴾[٣]، وقال هاهنا: ﴿يَتَنَٰزَعُونَ فِيهَا كَأْسًا لَّا لَغْوٌ فِيهَا وَلَا تَأْثِيمٌ ﴿٢٣﴾﴾»[٤].

قال الشنقيطي: «قوله: ﴿وَأَمْدَدْنَٰهُم بِفَٰكِهَةٍ وَلَحْمٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ ﴿٢٢﴾﴾ قال: لم يذكر هنا شيء من صفات هذه الفاكهة، ولا هذا اللحم إلا أنه مما يشتهون، وقد بين صفات هذه الفاكهة في مواضع أخر كقوله تعالى: ﴿وَفَٰكِهَةٍ كَثِيرَةٍ ﴿٣٢﴾ لَّا مَقْطُوعَةٍ وَلَا مَمْنُوعَةٍ ﴿٣٣﴾﴾[٥] وبين أنها أنواع في مواضع أخر كقوله تعالى: ﴿وَلَهُمْ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾[٦] الآية. وقوله تعالى: ﴿كُلَّمَا رُزِقُوا۟ مِنْهَا مِن ثَمَرَةٍ رِّزْقًا قَالُوا۟ هَٰذَا ٱلَّذِى رُزِقْنَا مِن قَبْلُ وَأُتُوا۟ بِهِۦ مُتَشَٰبِهًا﴾[٧] الآية. وقوله تعالى: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ رِزْقٌ مَّعْلُومٌ ﴿٤١﴾ فَوَٰكِهُ وَهُم مُّكْرَمُونَ ﴿٤٢﴾﴾[٨] إلى غير ذلك من الآيات. ووصف اللحم المذكور بأنه من الطير، والفاكهة بأنها مما يتخيرونه على غيره، وذلك في قوله: ﴿وَفَٰكِهَةٍ مِّمَّا يَتَخَيَّرُونَ ﴿٢٠﴾ وَلَحْمِ طَيْرٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ ﴿٢١﴾﴾[٩]»[١٠].

قال ابن القيم: «ثم وصف خدمهم الطائفين عليهم بأنهم كاللؤلؤ في بياضهم، والمكنون: المصون الذي لا تدنسه الأيدي، فلم تذهب الخدمة تلك المحاسن، وذلك اللون والصفاء والبهجة؛ بل مع انتصابهم لخدمتهم كأنهم لؤلؤ مكنون، ووصفهم في موضع آخر ﴿إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤًا مَّنثُورًا﴾[١١] ففي ذكره المنثور إشارة إلى تفرقهم في حوائج ساداتهم وخدمتهم وذهابهم ومجيئهم، وسعة المكان بحيث

---

(١) التبيان (ص: ١٦٧).
(٢) الصافات (٤٦-٤٧).
(٣) الواقعة: الآية (١٩).
(٤) تفسير القرآن العظيم (٧/ ٤١٠).
(٥) الواقعة: الآيتان (٣٢و٣٣).
(٦) محمد: الآية (١٥).
(٧) البقرة: الآية (٢٥).
(٨) الصافات: الآيتان (٤١و٤٢).
(٩) الواقعة: الآيتان (٢٠و٢١).
(١٠) أضواء البيان (٧/ ٦٨٦-٦٨٧).
(١١) الإنسان: الآية (١٩).

لا يحتاجون أن ينضم بعضهم إلى بعض فيه لضيقه»[١].

قال الشنقيطي في قوله: ﴿۞ وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ غِلْمَانٌ لَّهُمْ كَأَنَّهُمْ لُؤْلُؤٌ مَّكْنُونٌ ﴿٢٤﴾﴾ قال: «ذكر -جل وعلا- في هذه الآية الكريمة أن أهل الجنة يطوف عليهم غلمان، جمع غلام، أي: خدم لهم، وقد قدمنا إطلاقات الغلام وشواهدها العربية في سورة الحجر في الكلام على قوله تعالى: ﴿قَالُوا۟ لَا تَوْجَلْ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ عَلِيمٍ ﴿٥٣﴾﴾[٢]. ولم يبين هنا ما يطوفون عليهم به، وذكر هنا حسنهم بقوله: ﴿كَأَنَّهُمْ لُؤْلُؤٌ مَّكْنُونٌ﴾ في أصدافه؛ لأن ذلك أبلغ في صفائه وحسنه، وقيل: مكنون أي: مخزون لنفاسته، لأن النفيس هو الذي يخزن ويكن.

وبين تعالى في الواقعة بعض ما يطوفون عليهم به في قوله: ﴿يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَٰنٌ مُّخَلَّدُونَ ﴿١٧﴾ بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ وَكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ ﴿١٨﴾﴾[٣]. وزاد في هذه الآية كونهم مخلدين، وذكر بعض ما يطاف عليهم به في قوله: ﴿يُطَافُ عَلَيْهِم بِصِحَافٍ مِّن ذَهَبٍ وَأَكْوَابٍ﴾[٤]. وقوله تعالى: ﴿وَيُطَافُ عَلَيْهِم بِـَٔانِيَةٍ مِّن فِضَّةٍ وَأَكْوَابٍ كَانَتْ قَوَارِيرَا۠ ﴿١٥﴾ قَوَارِيرَا۟ مِن فِضَّةٍ قَدَّرُوهَا تَقْدِيرًا﴾[٥].

والظاهر أن الفاعل المحذوف في قوله: ﴿يُطَافُ عَلَيْهِم﴾ في آية الزخرف والإنسان المذكورتين هو الغلمان المذكورون في الطور والواقعة، وذكر بعض صفات هؤلاء الغلمان في الإنسان في قوله تعالى: ﴿۞ وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَٰنٌ مُّخَلَّدُونَ إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤًا مَّنثُورًا ﴿١٩﴾﴾[٦]»[٧].

قال ابن القيم: «ثم ذكر سبحانه ما يتحدثون به هناك وأنهم يقولون: ﴿إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِىٓ أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ﴾ أي: كنا خائفين في محل الأمن بين الأهل والأقارب والعشائر، فأوصلنا ذلك الخوف والإشفاق إلى أن من اللّه علينا فأمنا مما نخاف ﴿وَوَقَىٰنَا عَذَابَ ٱلسَّمُومِ﴾ وهذا ضد حال الشقي الذي كان في أهله مسرورا، فهذا كان مسرورا مع إساءته، وهؤلاء كانوا مشفقين مع إحسانهم، فبدل اللّه سبحانه إشفاقهم بأعظم الأمن، وبدل أمن أولئك بأعظم المخاوف، فباللّه سبحانه المستعان.

---

(١) التبيان (ص: ١٦٧).
(٢) الحجر: الآية (٥٣).
(٣) الواقعة: الآيتان (١٧و١٨).
(٤) الزخرف: الآية (٧١).
(٥) الإنسان: الآيتان (١٥و١٦).
(٦) الإنسان: الآية (١٩).
(٧) أضواء البيان (٧/ ٦٨٨-٦٨٩).

ثم أخبر عن حالهم في الدنيا وأنهم كانوا يعبدون اللَّه فيها، فأوصلتهم عبادته وحده إلى قربه وجواره ومحل كرامته، والذي جمع لهم ذلك كله بره ورحمته، فإنه هو البر الرحيم، فهذا هو المقسم عليه بتلك الأقسام الخمسة في أول السورة واللَّه أعلم»[١].

قال الشنقيطي: في قوله: ﴿قَالُوٓاْ إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِيٓ أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ ﴿٢٦﴾ فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقَىٰنَا عَذَابَ ٱلسَّمُومِ ﴿٢٧﴾﴾ قال: «وما تضمنته هذه الآية الكريمة من أن الإشفاق الذي هو الخوف الشديد من عذاب اللَّه في دار الدنيا سبب للسلامة في الآخرة، يفهم من دليل خطابه، أعني مفهوم مخالفته، أن من لم يخف من عذاب اللَّه في الدنيا لم ينج منه في الآخرة. وما تضمنته هذه الآية الكريمة بمنطوقها ومفهومها جاء موضحًا في غير هذا الموضع، فذكر تعالى أن السرور في الدنيا وعدم الخوف من اللَّه سبب العذاب يوم القيامة، وذلك في قوله: ﴿وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ وَرَآءَ ظَهْرِهِۦ ﴿١٠﴾ فَسَوْفَ يَدْعُواْ ثُبُورًا ﴿١١﴾ وَيَصْلَىٰ سَعِيرًا ﴿١٢﴾ إِنَّهُۥ كَانَ فِيٓ أَهْلِهِۦ مَسْرُورًا ﴿١٣﴾ إِنَّهُۥ ظَنَّ أَن لَّن يَحُورَ ﴿١٤﴾﴾[٢] الآية.

وقد تقرر في مسلك الإيماء والتنبيه أن إن المكسورة المشددة من حروف التعليل، فقوله: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ فِيٓ أَهْلِهِۦ مَسْرُورًا ﴿١٣﴾﴾ علة لقوله: ﴿فَسَوْفَ يَدْعُواْ ثُبُورًا ﴿١١﴾ وَيَصْلَىٰ سَعِيرًا ﴿١٢﴾﴾. والمسرور في أهله في دار الدنيا ليس بمشفق ولا خائف، ويؤيد ذلك قوله بعده: ﴿إِنَّهُۥ ظَنَّ أَن لَّن يَحُورَ ﴿١٤﴾﴾ لأن معناه، ظن ألن يرجع إلى اللَّه حيًّا يوم القيامة، ولا شك أن من ظن أنه لا يبعث بعد الموت لا يكون مشفقًا في أهله خوفًا من العذاب؛ لأنه لا يؤمن بالحساب والجزاء، وكون لن يحور، بمعنى لن يرجع معروف في كلام العرب، ومنه قول مهلهل بن ربيعة التغلبي:

أليلتنا بذي حسم أنيري إذا أنت انقضيت فلا تحوري

فقوله: فلا تحوري، أي: فلا ترجعي. وقول لبيد بن ربيعة العامري:

وما المرء إلا كالشهاب وضوئه يحور رمادًا بعد ما هو ساطع

أي: يرجع رمادًا، وقيل: يصير، والمعنى واحد.

---

(١) التبيان (١٦٧-١٦٨).

(٢) الانشقاق: الآيات (١٠-١٤).

وقوله تعالى: ﴿وَأَصْحَٰبُ ٱلشِّمَالِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلشِّمَالِ ﴿٤١﴾ فِى سَمُومٍ وَحَمِيمٍ ﴿٤٢﴾ وَظِلٍّ مِّن يَحْمُومٍ ﴿٤٣﴾ لَّا بَارِدٍ وَلَا كَرِيمٍ ﴿٤٤﴾ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَبْلَ ذَٰلِكَ مُتْرَفِينَ ﴿٤٥﴾ وَكَانُوا۟ يُصِرُّونَ عَلَى ٱلْحِنثِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٤٦﴾ وَكَانُوا۟ يَقُولُونَ أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴿٤٧﴾﴾[1] الآية؛ لأن تنعمهم في الدنيا المذكور في قوله: ﴿مُتْرَفِينَ﴾، وإنكارهم للبعث المذكور في قوله: ﴿أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا﴾ الآية. دليل على عدم إشفاقهم في الدنيا، وهو علة كونهم في سموم وحميم.

وقد قدمنا قريبًا أن إن المكسورة المشددة من حروف التعليل، فقوله تعالى: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَبْلَ ذَٰلِكَ مُتْرَفِينَ ﴿٤٥﴾﴾، الآية. علة لقوله: ﴿فِى سَمُومٍ وَحَمِيمٍ ﴿٤٢﴾﴾ الآية.

قد ذكر -جل وعلا- أن الإشفاق من عذاب الله من أسباب دخول الجنة والنجاة من العذاب يوم القيامة، كما دل عليه منطوق آية الطور هذه، قال تعالى في المعارج: ﴿وَٱلَّذِينَ هُم مِّنْ عَذَابِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ ﴿٢٧﴾ إِنَّ عَذَابَ رَبِّهِمْ غَيْرُ مَأْمُونٍ ﴿٢٨﴾﴾[2] إلى قوله: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ فِى جَنَّٰتٍ مُّكْرَمُونَ ﴿٣٥﴾﴾[3]، وذكر ذلك من صفات أهل الجنة في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ هُم مِّنْ خَشْيَةِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ ﴿٥٧﴾﴾[4] إلى قوله: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَهُمْ لَهَا سَٰبِقُونَ ﴿٦١﴾﴾[5]، وقد قال تعالى: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلسَّٰبِقُونَ ﴿١٠﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلْمُقَرَّبُونَ ﴿١١﴾ فِى جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ﴾[6].

وقوله في آية الواقعة المذكورة: ﴿وَكَانُوا۟ يُصِرُّونَ عَلَى ٱلْحِنثِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٤٦﴾﴾[7]، أي: يديمون ويعزمون على الذنب الكبير، كالشرك وإنكار البعث، وقيل المراد بالحنث: حنثهم في اليمين الفاجرة كما في قوله تعالى: ﴿وَأَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ ۙ لَا يَبْعَثُ ٱللَّهُ مَن يَمُوتُ﴾[8]»[9].

* * *

(١) الواقعة: الآيات (٤١-٤٧).
(٢) المعارج: الآيتان (٢٧و٢٨).
(٣) المعارج: الآية (٣٥).
(٤) المؤمنون: الآية (٥٧).
(٥) المؤمنون: الآية (٦١).
(٦) الواقعة: الآيات (١٠-١٢).
(٧) الواقعة: الآية (٤٦).
(٨) النحل: الآية (٣٨).
(٩) أضواء البيان (٧/ ٦٩٠-٦٩٢).

قوله تعالى: ﴿فَذَكِّرْ فَمَآ أَنتَ بِنِعْمَتِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلَا مَجْنُونٍ ﴿٢٩﴾ أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَّتَرَبَّصُ بِهِۦ رَيْبَ ٱلْمَنُونِ ﴿٣٠﴾ قُلْ تَرَبَّصُوا۟ فَإِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُتَرَبِّصِينَ ﴿٣١﴾﴾

★ **غريب الآية:**

بكاهن: الكاهن: الذي يُخْبرُ بالأخبار بضرب من الظن، من التكهن.

نتربص: ننتظر.

ريب المنون: حوادث الدهر وصروفه التي تريب عند مجيئها. قال الشاعر:

تربص بها ريب المنون لعلها ... سيهلك عنها بعلها أو سيجنح

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال أبو حيان: «لما تقدم إقسام اللَّه تعالى على وقوع العذاب، وذكر أشياء من أحوال المعذبين والناجين، أمره بالتذكير، إنذارًا للكافر، وتبشيرًا للمؤمن، ودعاء إلى اللَّه تعالى بنشر رسالته، ثم نفى عنه ما كان الكفار ينسبونه إليه من الكهانة والجنون، إذا كانا طريقين إلى الإخبار ببعض المغيبات، وكان للجن بهما ملابسة للإنس. وممن كان ينسبه إلى الكهانة شيبة بن ربيعة، وممن كان ينسبه إلى الجنون عقبة بن أبي معيط. وقال الزمخشري: ﴿فَذَكِّرْ﴾ فاثبت على تذكير الناس وموعظتهم، ولا يثبطنك قولهم كاهن أو مجنون، ولا تبال به، فإنه قول باطل متناقض. فإن الكاهن يحتاج في كهانته إلى فطنة ودقة نظر، والمجنون مغطى على عقله؛ وما أنت، بحمد اللَّه تعالى وإنعامه عليك بصدق النبوة ورصافة العقل»[(١)].

قال ابن كثير: «يقول تعالى آمرا رسوله -صلوات اللَّه وسلامه عليه-، بأن يبلغ رسالته إلى عباده، وأن يذكرهم بما أنزل اللَّه عليه. ثم نفى عنه ما يرميه به أهل

(١) البحر المحيط (٨/ ١٤٨).

البهتان والفجور فقال: ﴿فَذَكِّرْ فَمَآ أَنتَ بِنِعْمَتِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلَا مَجْنُونٍ ﴿٢٩﴾﴾ أي: لست بحمد اللَّه بكاهن كما تقوله الجهلة من كفار قريش. والكاهن: الذي يأتيه الرئي من الجان بالكلمة يتلقاها من خبر السماء، ﴿وَلَا مَجْنُونٍ﴾ : وهو الذي يتخبطه الشيطان من المس.

ثم قال تعالى منكرا عليهم في قولهم في الرسول -صلوات اللَّه وسلامه عليه-: ﴿أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَّتَرَبَّصُ بِهِۦ رَيْبَ ٱلْمَنُونِ ﴿٣٠﴾﴾ أي: قوارع الدهر. والمنون: الموت: يقولون: ننظره ونصبر عليه حتى يأتيه الموت فنستريح منه ومن شأنه، قال اللَّه تعالى: ﴿قُلْ تَرَبَّصُوا۟ فَإِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُتَرَبِّصِينَ ﴿٣١﴾﴾ أي: انتظروا فإني منتظر معكم، وستعلمون لمن تكون العاقبة والنّصرة في الدنيا والآخرة»[1].

قال الشنقيطي: «نفى اللَّه -جل وعلا- عن نبيه ﷺ في هاتين الآيتين الكريمتين ثلاث صفات قبيحة رماه بها الكفار، وهي الكهانة والجنون والشعر، أما دعواهم أنه كاهن أو مجنون، فقد نفاها صريحًا بحرف النفي الذي هو ما في قوله: ﴿فَمَآ أَنتَ﴾ وأكد النفي بالباء في قوله: ﴿بِكَاهِنٍ﴾ وأما كونه شاعرًا فقد نفاه ضمنًا بأم المنقطعة في قوله: ﴿أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ﴾، لأنها تدل على الإضراب والإنكار المتضمن معنى النفي.

وقد جاءت آيات أخر بنفي هذه الصفات عنه ﷺ كقوله تعالى في نفي الجنون عنه في أول القلم: ﴿مَآ أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ ﴿٢﴾﴾[2] وقوله في التكوير: ﴿وَمَا صَاحِبُكُم بِمَجْنُونٍ ﴿٢٢﴾﴾[3] وكقوله في نفي الصفتين الأخيرتين أعني الكهانة والشعر: ﴿وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ ۚ قَلِيلًا مَّا تُؤْمِنُونَ ﴿٤١﴾ وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ ۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٤٢﴾﴾[4]»[5].

قال المراغي: «بعد أن ذكر فيما سلف أن العذاب واقع بالكافر لا محالة، وأن الفريقين المصدقين والمكذبين مجزيون بأعمالهم، وأن الرسول على الحق المبين الذي من كذبه باء بغضب من اللَّه، ومن صدقه استحق رضوانه ومغفرة من لدنه، أمر رسوله هنا بالثبات على التذكر والموعظة، وعدم المبالاة بما يكيد به أولئك

---

(١) تفسير القرآن العظيم (٧/ ٤١١).
(٢) القلم: الآية (٢).
(٣) التكوير: الآية (٢٢).
(٤) الحاقة: الآيتان (٤١و٤٢).
(٥) أضواء البيان (٧/ ٦٩٢).

الكائدون، فإنه هو الغالب حجة وسيفا في هذه الدار، ومنزلة ورفعة في دار القرار، ثم ذكر تناقض أقوالهم لينبه على فساد آرائهم، وإلى أنهم ما أعرضوا عن الحق إلا اتباعا للهوى لا اتباعا للدليل والبرهان، وفي ذلك تسلية لرسوله ﷺ كما لا يخفى، إذ ما أبعد حال من كان أرجحهم عقلا، وأبينهم قولا، منذ ترعرع إلى أن بلغ الأشد، من الجنون والكهانة، إلى ما في هذا من التناقض والاضطراب، فإن الكهان كانوا من الكملة وكان قولهم مقنعا، فأين هذا من الجنون، ثم ترقوا في نسبته إلى الكذب، فقالوا إنه شاعر، وأعذب الشعر أكذبه، ثم قالوا فلنصبر عليه، ولنتربص به صروف الدهر وأحداثه، فسيكون حاله حال زهير والنابغة وأضرابهم ممن انقرضوا وساروا كأمس الدابر، ثم أمره بتهديدهم بمثل صنيعهم بقوله: ﴿قُلْ تَرَبَّصُوا۟ فَإِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُتَرَبِّصِينَ ﴿٣١﴾﴾»[1].

* * *

---

(١) تفسير المراغي (٢٧/ ٣٠).

قوله تعالى: ﴿أَمْ تَأْمُرُهُمْ أَحْلَامُهُم بِهَٰذَا ۚ أَمْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ ﴿٣٢﴾ أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُ ۚ بَل لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٣﴾ فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِ إِن كَانُوا صَادِقِينَ ﴿٣٤﴾﴾

★ **غريب الآية:**

أحلامهم: عقولهم، جمع حلم، وهو العقل.

تقوله: أي: افتعله وافتراه، يعني القرآن، والتقول تكلف القول، وإنما يستعمل في الكذب في غالب الأمر.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن كثير: «أي: عقولهم تأمرهم بهذا الذي يقولونه فيك من الأقوال الباطلة التي يعلمون في أنفسهم أنها كذب وزور؟ ﴿أَمْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ﴾ أي: ولكن هم قوم ضلال معاندون، فهذا هو الذي يحملهم على ما قالوه فيك.

وقوله: ﴿أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُ ۚ﴾ أي: اختلقه وافتراه من عند نفسه، يعنون القرآن: قال الله: ﴿بَل لَّا يُؤْمِنُونَ﴾ أي: كفرهم هو الذي يحملهم على هذه المقالة. ﴿فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِ إِن كَانُوا صَادِقِينَ ﴿٣٤﴾﴾ أي: إن كانوا صادقين في قولهم: تَقوَّله وافتراه فليأتوا بمثل ما جاء به محمد ﷺ من هذا القرآن، فإنهم لو اجتمعوا هم وجميع أهل الأرض من الجن والإنس ما جاءوا بمثله، ولا بعشر سور مثله، ولا بسورة من مثله»[(١)].

قال الشنقيطي: «قد قدمنا أن الله تحداهم بسورة واحدة من هذا القرآن في سورة البقرة في قوله تعالى: ﴿فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ﴾[(٢)] الآية. وفي سورة يونس في قوله تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ ۖ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّثْلِهِ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ﴾[(٣)] الآية. وتحداهم في سورة هود بعشر سور منه في قوله: ﴿أَمْ

(١) تفسير القرآن العظيم (٧/ ٤١١-٤١٢). (٢) البقرة: الآية (٢٣).
(٣) يونس: الآية (٣٨).

يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ قُلْ فَأْتُوا۟ بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِۦ مُفْتَرَيَٰتٍ وَٱدْعُوا۟ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾[١] الآية. وتحداهم في سورة الطور هذه به كله في قوله: ﴿فَلْيَأْتُوا۟ بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِۦٓ﴾ الآية. وبين في سورة بني إسرائيل أنهم لا يقدرون على شيء من ذلك في قوله: ﴿قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ﴾[٢] الآية.

وقد أطلق -جل وعلا- اسم الحديث على القرآن في قوله هنا: ﴿فَلْيَأْتُوا۟ بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِۦٓ﴾ كما أطلق عليه ذلك في قوله: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا﴾[٣] الآية، وقوله تعالى: ﴿مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ﴾[٤]»[٥].

قال البقاعي: «ولما كان المقصود هنا مطلق التعجيز للمكذبين لا بقيد الاجتماع كما في (سبحان) لأن نزول هذه أوائل ما نزل، تحداهم بالإتيان بالمثل في التنجيم والتطبيق على الوقائع سورًا أو آيات أو دون ذلك، تحدث وتتجدد شيئًا في أثر شيء بما أشار إليه التعبير بالحدوث، ولذلك أعراه عن تظاهرهم بالاجتماع ودعاء المستطاع، ولكونهم كاذبين في جزمهم بنسبته إلى التقول وغيره، أشار إلى ذلك بقوله مقرعًا لهم إلهابًا إلى الخوض في المعارضة: ﴿إِن كَانُوا۟﴾ أي: كونًا هم راسخون فيه: ﴿صَٰدِقِينَ﴾ أي: في أنه تقوله من عند نفسه شيئًا فشيئًا، كونًا هم عريقون فيه كما يزعمون سواء ادعوا أنه شاعر أو كاهن أو مجنون أو غير ذلك؛ لأن العادة تحيل أن يأتي واحد من قوم وهو مساوٍ لهم بما لا يقدرون كلهم على مثله، والعاقل لا يجزم بشيء إلا وهو عالم به، ويلزم من علمهم بذلك قدرتهم على مثل ما يأتي به، فإنه ﷺ مثلهم في الفصاحة والبلد والنسب، وبعضهم يزيد عليه بالكتابة وقول الشعر ومخالطة العلماء، ومزاولة الخطب والرسائل وغير ذلك، فلا يقدر على ما يعجزون عنه إلا بتأييد إلهي، وهو المراد من تكذيبهم، وقد علم من هذا ومما تقدم من نحوه مفرقًا في السور التي فيها مثله أن المتحدى به في كل سورة غير المتحدى به في الأخرى، والله الهادي»[٦].

---

(١) هود: الآية (١٣).
(٢) الإسراء: الآية (٨٨).
(٣) الزمر: الآية (٢٣).
(٤) يوسف: الآية (١١١).
(٥) أضواء البيان (٧/ ٦٩٣-٦٩٤).
(٦) نظم الدرر (١٩/ ٢٥-٢٦).

قال المراغي: «ثم زاد في تسفيه أحلامهم بأن مصدر هذا التكذيب إما كتاب أنزل عليهم بذلك، وإما أن عقولهم تأمرهم بما يقولون، لا بل الحق أنهم قوم طاغون يفترون ويقولون ما لا دليل عليه من كتاب، ولا مقتضى له من عقل، ثم زادوا في الإنكار ونسبوه إلى التقول والافتراء، فإن صح ما يقولون فليأتوا بمثل أقصر سورة من مثل هذا المفترى إن كانوا صادقين، لا بل هم قوم جاحدون لا يؤمنون فليقولوا ما تسوله لهم أنفسهم فإن اللَّه قد أعمى بصائرهم، فهم لا أحلام لهم تميز الحق من الباطل، والغث من السمين، فامض لشأنك، ولا تأبه لمقالهم فاللَّه معك ولن يَتِرَكَ شيئًا من أعمالك»[1].

* * *

(١) تفسير المراغي (٢٧/ ٣٠).

قوله تعالى: ﴿أَمْ خُلِقُوا۟ مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخَٰلِقُونَ ﴿٣٥﴾ أَمْ خَلَقُوا۟ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ۚ بَل لَّا يُوقِنُونَ ﴿٣٦﴾﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن كثير: «هذا المقام في إثبات الربوبية وتوحيد الألوهية، فقال تعالى: ﴿أَمْ خُلِقُوا۟ مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخَٰلِقُونَ ﴿٣٥﴾﴾ أي: أوجدوا من غير موجد؟ أم هم أوجدوا أنفسهم؟ أي: لا هذا ولا هذا، بل اللَّه هو الذي خلقهم وأنشأهم بعد أن لم يكونوا شيئا مذكورا»[1].

قال السعدي: «وهذا استدلال عليهم بأمر لا يمكنهم فيه إلا التسليم للحق، أو الخروج عن موجب العقل والدين، وبيان ذلك: أنهم منكرون لتوحيد اللَّه، مكذبون لرسوله، وذلك مستلزم لإنكار أن اللَّه خلقهم. وقد تقرر في العقل مع الشرع أن الأمر لا يخلو من أحد ثلاثة أمور:

إما أنهم خلقوا من غير شيء أي: لا خالق خلقهم، بل وجدوا من غير إيجاد ولا موجد، وهذا عين المحال. أم هم الخالقون لأنفسهم، وهذا أيضا محال، فإنه لا يتصور أن يوجدوا أنفسهم. فإذا بطل هذان الأمران، وبان استحالتهما، تعين القسم الثالث أن اللَّه الذي خلقهم، وإذا تعين ذلك، علم أن اللَّه تعالى هو المعبود وحده، الذي لا تنبغي العبادة ولا تصلح إلا له تعالى.

وقوله: ﴿أَمْ خَلَقُوا۟ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ۚ﴾ وهذا استفهام يدل على تقرير النفي أي: ما خلقوا السماوات والأرض، فيكونوا شركاء لله، وهذا أمر واضح جدا. ولكن المكذبين ﴿لَّا يُوقِنُونَ﴾ أي: ليس عندهم علم تام، ويقين يوجب لهم الانتفاع بالأدلة الشرعية والعقلية»[2].

---

(١) تفسير القرآن العظيم (٧/ ٤١٢).

(٢) تيسير الكريم الرحمن (٧/ ١٩٥-١٩٦).

قال ابن القيم: «فتأمل هذا الترديد والحصر المتضمن لإقامة الحجة بأقرب طريق وأفصح عبارة، يقول تعالى هؤلاء مخلوقون بعد أن لم يكونوا، فهل خلقوا من غير خالق خلقهم، فهذا من المحال الممتنع عند كل من له فهم وعقل، أن يكون مصنوع من غير صانع، ومخلوق من غير خالق.

ولو مر رجل بأرض قفر لا بناء فيها ثم مر بها فرأى فيها بنيانا وقصورا وعمارات محكمة لم يتخالجه شك ولا ريب أن صانعا صنعها وبانيا بناها.

ثم قال: ﴿أَمْ هُمُ ٱلْخَٰلِقُونَ﴾ وهذا أيضا من المستحيل أن يكون العبد موجدا خالقا لنفسه، فإن من لا يقدر أن يزيد في حياته بعد وجوده وتعاطيه أسباب الحياة ساعة واحدة ولا أصبعا ولا ظفرا ولا شعرة كيف يكون خالقا لنفسه في حال عدمه، وإذا بطل القسمان تعين أن لهم خالقا خلقهم، وفاطرا فطرهم، فهو الإله الحق الذي استحق عليهم العبادة والشكر، فكيف يشركون به إلها غيره، وهو وحده الخالق لهم.

فإن قيل: فما موقع قوله: ﴿أَمْ خَلَقُوا۟ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ من هذه الحجة قيل: أحسن موقع، فإنه بين بالقسمين الأولين أن لهم خالقا وفاطرا، وأنهم مخلوقون، وبين بالقسم الثالث أنهم بعد أن وجدوا وخلقوا فهم عاجزون غير خالقين، فإنهم لم يخلقوا نفوسهم ولم يخلقوا السموات والأرض، وأن الواحد القهار الذي لا إله غيره ولا رب سواه هو الذي خلقهم وخلق السموات والأرض، فهو المتفرد بخلق المسكن والساكن وبخلق العالم العلوي والسفلي»[(١)].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في منقبة جبير بن مطعم رضي الله عنه

* عن جبير بن مطعم رضي الله عنه قال: «سمعت النبي ﷺ يقرأ في المغرب بـ(الطور)، فلما بلغ هذه الآية: ﴿أَمْ خُلِقُوا۟ مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخَٰلِقُونَ ﴿٣٥﴾ أَمْ خَلَقُوا۟ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بَل لَّا يُوقِنُونَ ﴿٣٦﴾ أَمْ عِندَهُمْ خَزَآئِنُ رَبِّكَ أَمْ هُمُ ٱلْمُصَيْطِرُونَ ﴿٣٧﴾﴾، كاد قلبي أن يطير»[(٢)].

---

(١) الصواعق (٢/ ٤٩٣-٤٩٤).

(٢) أخرجه: أحمد (٤/ ٨٥)، والبخاري (٨/ ٧٧٦/ ٤٨٥٤)، وبنحوه: مسلم (١/ ٣٣٨/ ٤٦٣)، وأبو داود (١/ ٥٠٨/ ٨١١)، والنسائي (٢/ ٥٠٩/ ٩٨٦)، وابن ماجه (١/ ٢٧٢/ ٨٣٢).

★ **فوائد الحديث:**

قال ابن كثير: «**جبير بن مطعم كان قد قدم على النبي ﷺ بعد وقعة بدر في فداء الأسارى، وكان إذ ذاك مشركا، وكان سماعه هذه الآية من هذه السورة من جملة ما حمله على الدخول في الإسلام في ذلك**»[1].

قال الخطابي: «**إنما كان انزعاجه عند سماع هذه الآية لحسن تلقيه معنى الآية ومعرفته بما تضمنته من بليغ الحجة، فاستدركها، واستشف معناها بذكي فهمه، وهذه الآية مشكلة جدًّا.**

قال أبو سحاق الزجاج في هذه الآية: «هي أصعب ما في هذه السورة. قال بعض أهل اللغة: ليس هم بأشد خلقًا من خلق السماوات والأرض؛ لأن السماوات والأرض خلقتا من غير شيء، وهم خلقوا من آدم، وآدم خلق من تراب. قال: وقيل فيها قول آخر: ﴿أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ ﴿٣٥﴾﴾ أم خلقوا لغير شيء، أي: خلقوا باطلًا لا يحاسبون ولا يؤمرون ولا ينهون. قلت: وهاهنا قول ثالث هو أجود من القولين اللذين ذكرهما أبو إسحاق، وهو الذي يليق بنظم الكلام، وهو أن يكون المعنى: أم خلقوا من غير شيء، فوجدوا بلا خالق، وذلك ما لا يجوز أن يكون؛ لأن تعلق الخلق بالخالق من ضرورة الاسم، فلا بد له من خالق، فإذ قد أنكروا الإله الخالق، ولم يجز أن يوجدوا بلا خالق خلقهم، أفهم الخالقون لأنفسهم؟ وذلك في الفساد أكثر، وفي البطلان أشد؛ لأن ما لا وجود له فيجوز أن يكون موصوفًا بالقدرة، كيف يخلق وكيف يتأتى منه الفعل؟! وإذا بطل الوجهان معًا قامت الحجة عليهم بأن لهم خالقًا، فليؤمنوا به إذًا.

ثم قال: ﴿أَمْ خَلَقُوا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بَل لَّا يُوقِنُونَ ﴿٣٦﴾﴾ أي: إن جاز لهم أن يدعوا خلق أنفسهم في تلك الحال، فليدعوا خلق السموات والأرض، وذلك شيء لا يمكنهم أن يدعوه بوجه فهم منقطعون، والحجة لازمة لهم من الوجهين معًا، ثم قال: ﴿بَل لَّا يُوقِنُونَ﴾ فذكر العلة التي عاقتهم عن الإيمان، وهي عدم اليقين الذي هو موهبة من اللَّه عز وجل، ولا ينال إلا بتوفيقه، ولهذا كان انزعاج جبير بن مطعم حتى قال: «**كاد قلبي أن يطير**»، واللَّه أعلم. وهذا باب لا يفهمه إلا أرباب

(١) تفسير القرآن العظيم (٧/ ٤١٢).

القلوب»[١].

قال الحافظ: «ويستفاد من قوله: «**فلما بلغ هذه الآية**» أنه استفتح من أول السورة، وظاهر السياق أنه قرأ إلى آخرها»[٢].

وفي الحديث صحة التحمل قبل وجود الأهلية، فتقبل رواية من تحمل قبل الإسلام وروى بعده، وكذا رواية من سمع قبل البلوغ وروى بعده، قلت: والفاسق أولى من الكافر ومما علم أن الصحابي تحمله في حال الكفر ثم رواه بعد إسلامه[٣].

* * *

(١) أعلام الحديث (٣/ ١٩١٣-١٩١٤).

(٢) فتح الباري (٨/ ٧٧٧).

(٣) انظر نشر البنود لعبد الله الشنقيطي (٢/ ٤١).

قوله تعالى: ﴿أَمْ عِندَهُمْ خَزَآئِنُ رَبِّكَ أَمْ هُمُ ٱلْمُصَيْطِرُونَ ۝٣٧ أَمْ لَهُمْ سُلَّمٌ يَسْتَمِعُونَ فِيهِ فَلْيَأْتِ مُسْتَمِعُهُم بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ۝٣٨﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره-: أعند هؤلاء المكذّبين بآيات اللّه خزائن ربك يا محمد، فهم لاستغنائهم بذلك عن آيات ربهم معرضون، أم هم المسيطرون.

اختلف أهل التأويل في تأويل ذلك، فقال بعضهم: معناه: أم هم المسلَّطون. . وقال آخرون: بل معنى ذلك: أم هم المنزلون. . وقال آخرون: بل معنى ذلك: أم هم الأرباب، وممن قال ذلك معمر بن المثنى، قال: يقال: سيطرتَ عليّ: أي اتخذتني خولا لك.

وأولى الأقوال في ذلك بالصواب قول من قال: معنى ذلك: أم هم الجبَّارون المتسلطون المستكبرون على اللّه، وذلك أن المسيطر في كلام العرب الجبار المتسلط، ومنه قول الله: ﴿لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ ۝٢٢﴾[1]. يقول: لست عليهم بجبار مسلط.

وقوله: ﴿أَمْ لَهُمْ سُلَّمٌ يَسْتَمِعُونَ فِيهِ﴾ يقول: أم لهم سلم يرتقون فيه إلى السماء يستمعون عليه الوحي، فيدعون أنهم سمعوا هنالك من اللّه أن الذي هم عليه حقّ، فهم بذلك متمسكون بما هم عليه.

وقوله: ﴿فَلْيَأْتِ مُسْتَمِعُهُم بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ﴾ يقول: فإن كانوا يدّعون ذلك فليأت من يزعم أنه استمع ذلك، فسمعه بسلطان مبين، يعني: بحجة تبين أنها حقّ، كما أتى محمد ﷺ بها على حقيقة قوله، وصدقه فيما جاءهم به من عند الله»[2].

قال السعدي: «﴿أَمْ عِندَهُمْ خَزَآئِنُ رَبِّكَ أَمْ هُمُ ٱلْمُصَيْطِرُونَ ۝٣٧﴾ أي: أعند هؤلاء

---

(١) الغاشية: الآية (٢٢).

(٢) جامع البيان (٢٧/ ٣٣-٣٤).

المكذبين خزائن رحمة ربك، فيعطون من يشاءون ويمنعون من يريدون؟ أي: فلذلك حجروا على اللَّه أن يعطي النبوة عبده ورسوله محمدا ﷺ، وكأنهم الوكلاء المفوضون على خزائن رحمة اللَّه، وهم أحقر وأذل من ذلك، فليس في أيديهم لأنفسهم نفع ولا ضر، ولا موت ولا حياة ولا نشور. ﴿أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا﴾[١]

﴿أَمْ هُمُ الْمُصَيْطِرُونَ﴾ أي: المتسلطون على خلق اللَّه وملكه، بالقهر والغلبة؟ ليس الأمر كذلك، بل هم العاجزون الفقراء ﴿أَمْ لَهُمْ سُلَّمٌ يَسْتَمِعُونَ فِيهِ﴾ أي: ألهم اطلاع على الغيب، واستماع له بين الملأ الأعلى، فيخبرون عن أمور لا يعلمها غيرهم؟

﴿فَلْيَأْتِ مُسْتَمِعُهُم﴾ المدعي لذلك ﴿بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ﴾ وأنى له ذلك؟ واللَّه تعالى عالم الغيب والشهادة، فلا يظهر على غيبه أحدا إلا من ارتضى من رسول يخبره بما أراد من علمه.

وإذا كان محمد ﷺ أفضل الرسل وأعلمهم وإمامهم، وهو المخبر بما أخبر به، من توحيد اللَّه، ووعده، ووعيده، وغير ذلك من أخباره الصادقة، والمكذبون هم أهل الجهل والضلال والغي والعناد، فأي المخبرين أحق بقبول خبره؟ خصوصا والرسول ﷺ قد أقام من الأدلة والبراهين على ما أخبر به، ما يوجب أن يكون خبره عين اليقين وأكمل الصدق، وهم لم يقيموا على ما ادعوه شبهة، فضلا عن إقامة حجة»[٢].

* * *

(١) الزخرف: الآية (٣٢).

(٢) تفسير السعدي (٧/ ١٩٦-١٩٨).

قوله تعالى: ﴿أَمْ لَهُ ٱلْبَنَٰتُ وَلَكُمُ ٱلْبَنُونَ ۝٣٩﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال الشوكاني: «﴿أَمْ لَهُ ٱلْبَنَٰتُ وَلَكُمُ ٱلْبَنُونَ ۝٣٩﴾ أي: بل أتقولون لله البنات ولكم البنون، سفه سبحانه أحلامهم، وضلل عقولهم ووبخهم، أي: أيضيفون إلى اللَّه البنات وهي أضعف الصنفين، ويجعلون لأنفسهم البنين وهم أعلاهما، وفيه إشعار بأن من كان هذا رأيه، فهو بمحلّ سافل في الفهم والعقل، فلا يستبعد منه إنكار البعث وجحد التوحيد»[1].

قال الرازي: «قوله تعالى: ﴿أَمْ لَهُ ٱلْبَنَٰتُ وَلَكُمُ ٱلْبَنُونَ ۝٣٩﴾ إشارة إلى نفي الشرك، وفساد ما يقولون بطريق آخر، وهو أن المتصرف إنما يحتاج إلى الشريك لعجزه، واللَّه قادر فلا شريك له، فإنهم قالوا: نحن لا نجعل هذه الأصنام وغيرها شركاء، وإنما نعظمها لأنها بنات اللَّه، فقال تعالى: كيف تجعلون لله البنات، وخلق البنات والبنين إنما كان لجواز الفناء على الشخص، ولولا التوالد لانقطع النسل وارتفع الأصل، من غير أن يقوم مقامه الفصل، فقدر اللَّه التوالد، ولهذا لا يكون في الجنة ولادة[2]، لأن الدار دار البقاء، لا موت فيها للآباء، حتى تقام العمارة بحدوث الأبناء. إذا ثبت هذا فالولد إنما يكون في صورة إمكان فناء الأب، ولهذا قال تعالى في أوائل سورة آل عمران ﴿ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ﴾[3] أي: حي لا يموت فيحتاج إلى ولد يرثه، وهو قيوم لا يتغير ولا يضعف، فيفتقر إلى ولد ليقوم مقامه، لأنه ورد في نصارى نجران. ثم إن اللَّه تعالى بيّن هذا بأبلغ الوجوه، وقال: إنهم يجعلون له بنات، ويجعلون لأنفسهم بنين، مع أن جعل البنات لهم أولى، وذلك

---

(١) فتح القدير (٥/ ١٤٤).

(٢) وهذه المسألة قد اختلف فيها السلف والخلف على قولين ما بين ناف ومثبت للولادة، وقد تقدم بسط الخلاف في ذلك في سورة الزخرف عند قوله تعالى: ﴿يُطَافُ عَلَيْهِم بِصِحَافٍ مِّن ذَهَبٍ وَأَكْوَابٍ ۖ وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ ٱلْأَنفُسُ وَتَلَذُّ ٱلْأَعْيُنُ ۖ وَأَنتُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ۝٧١﴾: الآية (٧١).

(٣) آل عمران: الآية (٢).

لأن كثرة البنات تعين عل كثرة الأولاد، لأن الإناث الكثيرة يمكن منهن الولادة بأولاد كثيرة من واحد. وأما الذكور الكثيرة لا يمكن منهم إحبال أنثى واحدة بأولاد، ألا ترى أن الغنم لا يذبح منها الإناث إلا نادرًا، وذلك لما ثبت أن إبقاء النوع بالأنثى أنفع نظرًا إلى التكثير، فقال تعالى: أنا القيوم الذي لا فناء لي، ولا حاجة لي في بقاء النوع في حدوث الشخص، وأنتم معرضون للموت العاجل، وبقاء العالم بالإناث أكثر، وتتبرءون منهن واللّٰه تعالى مستغن عن ذلك وتجعلون له البنات، وعلى هذا فما تقدم كان إشارة إلى نفي الشريك نظرًا إلى أنه لا ابتداء لله، وهذا إشارة إلى نفي الشريك نظرًا إلى أنه لا فناء له.

فإن قيل كيف وقع لهم نسبة البنات إلى اللّٰه تعالى مع أن هذا أمر في غاية القبح لا يخفى على عاقل، والقوم كان لهم العقول التي هي مناط التكليف، وذلك القدر كاف في العلم بفساد هذا القول؟ نقول: ذلك القول دعاهم إليه اتباع العقل، وعدم اعتبار النقل، ومذهبهم في ذلك مذهب الفلاسفة حيث يقولون: يجب اتباع العقل الصريح، ويقولون: النقل بمعزل لا يتبع إلا إذا وافق العقل، وإذا وافق فلا اعتبار للنقل؛ لأن العقل هناك كاف، ثم قالوا الوالد يسمى والدًا، لأنه سبب وجود الولد، ولهذا يقال: إذا ظهر شيء من شيء هذا تولد من ذلك، فيقولون: الحمى تتولد من عفونة الخلط، فقالوا اللّٰه تعالى سبب وجود الملائكة سببًا واجبًا لا اختيار له فسموه بالوالد، ولم يلتفتوا إلى وجوب تنزيه اللّٰه في تسميته بذلك عن التسمية بما يوهم النقص، ووجوب الاقتصار في أسمائه على الأسماء الحسنى التي ورد بها الشرع لعدم اعتبارهم النقل، فقالوا يجوز إطلاق الأسماء المجازية والحقيقية على اللّٰه تعالى وصفاته، فسموه عاشقًا ومعشوقًا، وسموه أبًا ووالدًا، ولم يسموه ابنًا ولا مولودًا باتفاقهم، وذلك ضلالة»[1].

* * *

(١) التفسير الكبير (٢٨/ ٢٦٣-٢٦٤).

قوله تعالى: ﴿أَمْ تَسْأَلُهُمْ أَجْرًا فَهُم مِّن مَّغْرَمٍ مُّثْقَلُونَ ۝٤٠﴾

★ **غريب الآية:**

مغرم: من الغُرْمُ: وهو أداة شيء لازم.

مثقلون: أي: مجهودون لما كلفتهم به.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره- لنبيه محمد ﷺ: أتسأل هؤلاء المشركين الذين أرسلناك إليهم يا محمد على ما تدعوهم إليه من توحيد اللّٰه وطاعته ثوابا وعوضا من أموالهم، فهم من ثقل ما حملتهم من الغرم لا يقدرون على إجابتك إلى ما تدعوهم إليه»[1].

قال الرازي: «قوله تعالى: ﴿أَمْ تَسْأَلُهُمْ أَجْرًا﴾ وجه التعلق هو أن المشركين لما اطرحوا الشرع واتبعوا ما ظنوه عقلًا، وسموا الموجود بعد العدم مولودًا ومتولدًا والموجد والدًا، لزمهم الكفر بسببه والإشراك، فقال لهم ما الذي يحملكم على اطراح الشرع، وترك اتباع الرسول ﷺ؟ هل ذلك لطلبه منكم شيئًا فما كان يسعهم أن يقولوا نعم، فلم يبق لهم إلا أن يقولوا: لا، فنقول لهم: كيف اتبعتم قول الفلسفي الذي يسوغ لكم الزور وما يوجب الاستخفاف بجانب اللّٰه تعالى لفظًا إن لم يكن معنى كما تقولون، ولا تتبعون الذي يأمركم بالعدل في المعنى والإحسان في اللفظ، ويقول لكم اتبعوا المعنى الحق الواضح واستعملوا اللفظ الحسن المؤدب؟ وهذا في غاية الحسن من التفسير ففيه مسائل:

المسألة الأولى: ما الفائدة في سؤال النبي ﷺ حيث قال: ﴿أَمْ تَسْأَلُهُمْ﴾ ولم يقل أم يسألون أجرًا كما قال تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ﴾[2] وقال تعالى: ﴿أَمْ يُرِيدُونَ

---

(١) جامع البيان (٢٧/ ٣٤).

(٢) يونس: الآية (٣٨).

كَيۡدٗاۖ﴾(١) إلى غير ذلك؟ نقول فيه فائدتان:

إحداهما: تسلية قلب النبي ﷺ، وذلك لأنهم لما امتنعوا من الاستماع واستنكفوا من الاتباع صعب على النبي ﷺ، فقال له ربه: أنت أتيت بما عليك فلا يضيق صدرك حيث لم يؤمنوا فأنت غير ملوم، وإنما كنت تلام لو كنت طلبت منهم أجرًا فهل طلبت ذلك فأثقلهم؟ لا، فلا حرج عليك إذًا.

ثانيهما: أنه لو قال: أم يسألون لزم نفي أجر مطلقًا، وليس كذلك، وذلك لأنهم كانوا يشركون ويطالبون بالأجر من رؤسائهم، وأما النبي ﷺ فقال له أنت لا تسألهم أجرًا فهم لا يتبعونك، وغيرك يسألهم وهم يسألون، ويتبعون السائلين، وهذا غاية الضلال . . .

المسألة الثالثة: هل في خصوص قوله تعالى: ﴿أَجۡرٗا﴾ فائدة لا توجد في غيره لو قال: أم تسألهم شيئًا أو مالًا أو غير ذلك؟ نقول نعم، وقد تقدم القول مني أن كل لفظ في القرآن فيه فائدة وإن كنا لا نعلمها، والذي يظهر هاهنا أن ذلك إشارة إلى أن ما يأتي به النبي ﷺ فيه مصلحتهم، وذلك لأن الأجر لا يطلب إلا عند فعل شيء يفيد المطلوب منه الأجر فقال: أنت أتيتهم بما لو طلبت عليه أجرًا وعلموا كمال ما في دعوتك من المنفعة لهم وبهم، لأتوك بجميع أموالهم، ولفدوك بأنفسهم، ومع هذا لا تطلب منهم أجرًا، ولو قال شيئًا أو مالًا لما حصلت هذه الفائدة، والله أعلم.

المسألة الرابعة: هذا يدل على أنه لم يطلب منهم أجرًا ما. وقوله تعالى: ﴿قُل لَّآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ أَجۡرًا إِلَّا ٱلۡمَوَدَّةَ فِي ٱلۡقُرۡبَىٰۗ﴾(٢) يدل على أنه طلب أجرًا ما، فكيف الجمع بينهما؟ نقول لا تفرقة بينهما؛ بل الكل حق وكلاهما ككلام واحد، وبيانه هو أن المراد من قوله: ﴿إِلَّا ٱلۡمَوَدَّةَ فِي ٱلۡقُرۡبَىٰۗ﴾ هو أني لا أسألكم عليه أجرًا يعود إلى الدنيا، وإنما أجري المحبة في الزلفى إلى الله تعالى، وأن عباد الله الكاملين أقرب إلى الله تعالى من عباده الناقصين، وعباد الله الذين كلمهم الله وكلموه وأرسلهم لتكميل عباده فكملوا أقرب إلى الله من الذين لم يكلمهم ولم يرسلهم الله ولم يكملوا، وعلى هذا فهو في معنى قوله: ﴿إِنۡ أَجۡرِيَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِۖ﴾(٣) وإليه أنتمي وقوله ﷺ:

---

(١) الطور: الآية (٤٢).
(٢) الشورى: الآية (٢٣).
(٣) يونس: الآية (٧٢).

«**فإني أباهي بكم الأمم يوم القيامة**»[1]، وقوله: ﴿فَهُم مِّن مَّغْرَمٍ مُّثْقَلُونَ﴾ وبين ما ذكرنا أن قوله: ﴿أَمْ تَسْأَلُهُمْ أَجْرًا﴾ المراد أجر الدنيا، وقوله: ﴿قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا﴾ المراد العموم ثم استثنى، ولا حاجة إلى ما قاله الواحدي أن ذلك منقطع معناه: لكن المودة في القربى»[2].

* * *

(١) أخرجه: أحمد (٣/ ١٥٨)، وابن حبان (الإحسان ٩/ ٣٣٨/ ٤٠٢٨)، وذكره الهيثمي في المجمع (٤/ ٢٥٨)، وقال: «رواه أحمد والطبراني في الأوسط وإسناده حسن».

(٢) التفسير الكبير (٢٨/ ٢٦٤-٢٦٦).

قوله تعالى: ﴿أَمْ عِندَهُمُ ٱلْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ ﴿٤١﴾﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره- أم عندهم علم الغيب فهم يكتبون ذلك للناس فينبؤونهم بما شاءوا، ويخبرونهم بما أرادوا»[(١)].

قال الرازي: «قوله: ﴿أَمْ عِندَهُمُ ٱلْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ ﴿٤١﴾﴾ إشارة إلى أن ما عند النبي ﷺ من علم الغيب علم بالوحي أمورًا وأسرارًا وأحكامًا وأخبارًا كثيرة كلها هو جازم بها، وليس كما يقول المتفرس، الأمر كذا وكذا، فإن قيل: اكتب به خطك أنه يكون يمتنع ويقول: أنا لا أدعي فيه الجزم والقطع ولكن أذكره كذا وكذا على سبيل الظن والاستنباط، وإن كان قاطعًا يقول: اكتبوا هذا عني، وأثبتوا في الدواوين أن في اليوم الفلاني يقع كذا وكذا، فقوله: ﴿أَمْ عِندَهُمُ ٱلْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ ﴿٤١﴾﴾ يعني هل صاروا في درجة محمد ﷺ حتى استغنوا عنه وأعرضوا، ونقل عن ابن قتيبة أن المراد من الكتابة الحكم، معناه: يحكمون، وتمسك بقوله ﷺ: «**اقض بيننا بكتاب الله**»[(٢)] أي: حكم اللَّه، وليس المراد ذلك، بل هو من باب الإضمار معناه، بما في كتاب اللَّه تعالى يقال فلان يقضي بمذهب الشافعي أي: بما فيه، ويقول الرسول الذي معه كتاب الملك للرعية اعملوا بكتاب الملك»[(٣)].

* * *

---

(١) جامع البيان (٢٧/ ٣٥).

(٢) أخرجه: أحمد (٤/ ١١٥)، والبخاري (١٣/ ٢٨٩-٢٩٠/ ٧٢٦٠)، ومسلم (٣/ ١٣٢٤/ ١٦٩٧)، وأبو داود (٤/ ٥٩١/ ٤٤٤٥)، والترمذي (٤/ ٣٠/ ١٤٣٣)، والنسائي (٨/ ٦٣٢/ ٥٤٨٥)، وابن ماجه (٢/ ٨٥٢/ ٢٥٤٩) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٣) التفسير الكبير (٢٨/ ٢٦٦-٢٦٧).

قوله تعالى: ﴿أَمْ يُرِيدُونَ كَيْدًا فَالَّذِينَ كَفَرُوا هُمُ الْمَكِيدُونَ ﴿٤٢﴾﴾

★ **غريب الآية:**

كيدًا: مكرًا، وهو استعمال الحيلة للإضرار بالغير.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره-: بل يريد هؤلاء المشركون يا محمد بك، وبدين اللَّه كيدا ﴿فَالَّذِينَ كَفَرُوا هُمُ الْمَكِيدُونَ﴾ يقول: فهم المكيدون الممكورُ بهم دونك، فثق باللَّه، وامض لما أمرك به»[1].

قال الشوكاني: «﴿فَالَّذِينَ كَفَرُوا هُمُ الْمَكِيدُونَ﴾ أي: الممكور بهم المجزيون بكيدهم، فضرر كيدهم يعود عليهم ﴿وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ﴾[2] وقد قتلهم اللَّه في يوم بدر، وأذلهم في غير موطن، ومكر سبحانه بهم ﴿وَمَكَرُوا وَمَكَرَ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ ﴿٥٤﴾﴾[3]»[4].

قال الرازي: «ما الفائدة في تنكير الكيد حيث لم يقل: أم يريدون كيدك أو الكيد أو غير ذلك ليزول الإبهام؟ نقول فيه فائدة، وهي الإشارة إلى وقوع العذاب من حيث لا يشعرون، فكأنه قال: يأتيهم بغتة ولا يكون لهم به علم، أو يكون إيرادًا لعظمته كما ذكرنا مرارًا»[5].

* * *

---

(١) جامع البيان (٢٧/ ٣٥).

(٢) فاطر: الآية (٤٣).

(٣) آل عمران: الآية (٥٤).

(٤) فتح القدير (٥/ ١٤٤-١٤٥).

(٥) التفسير الكبير (٢٨/ ٢٦٨).

قوله تعالى: ﴿أَمْ لَهُمْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٤٣﴾﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول -جلّ ثناؤه-: أم لهم معبود يستحق عليهم العبادة غير اللَّه، فيجوز لهم عبادته، يقول: ليس لهم إله غير اللَّه الذي له العبادة من جميع خلقه ﴿سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ يقول: تنزيها لله عن شركهم وعبادتهم معه غيره»(١).

قال السعدي: «وهذا هو المقصود من الكلام الذي سيق لأجله، وهو بطلان عبادة ما سوى اللَّه، وبيان فسادها بتلك الأدلة القاطعة، وأن ما عليه المشركون هو الباطل، وأن الذي ينبغي أن يعبد ويصلى له ويسجد ويخلص له دعاء العبادة ودعاء المسألة هو اللَّه المألوه المعبود، كامل الأسماء والصفات، كثير النعوت الحسنة، والأفعال الجميلة، ذو الجلال والإكرام، والعز الذي لا يرام، الواحد الأحد، الفرد الصمد، الكبير الحميد المجيد»(٢).

قال البقاعي: «وأخر سبحانه هذا القسم وهو من الشركة لكن بالغير لأنه آت على تقدير التصديق للرسول ﷺ، ولأنه دينهم الذي أوقفهم عن الهدى، فأوقعهم في الردى، ليختم بنفسه والتنزيه عن الإقسام فيحصل به غاية القصد والمرام. والحاصل أنه قسم به سبحانه حالهم في ردهم القرآن إلى التكذيب وغيره، ولما كان التكذيب -وهو النسبة إلى الكذب وهو عدم المطابقة للواقع- إما في الإرسال، وإما في المعاني، وما وقع به الإرسال إما لنقص في الرسول وإما النقص في المرسل، والذي في الرسول إما أن يكون لأمر خارج عنه أو لأمر داخل فيه، ولما كان الخارج قد يكون معه نقص دخل بذاته، ولما كان ذلك قد يكون فيه ما يمدح به ولو من وجه، وهو الكهانة بدأ بها، وأتبعه الداخل لذلك بادئًا بما قد يمدح به وهو الشعر.

---

(١) جامع البيان (٢٧/ ٣٥).

(٢) تيسير الكريم الرحمن (٧/ ١٩٩-٢٠٠).

ولما كان القول بجمع الكهانة والشعر والجنون في شخص واحد على غاية من ظهور التناقص لا يخفى، أتبعها الرمي بالتهكم على عقولهم. ولما كان الكذب في الرمي بالتقول قد يخفى، أتبعه دليله بالعجز عن المعارضة. ولما قسم ما رموا به الرسول، أتبعهم ما ألزمهم به في المرسل، ولما كان ذلك إما أن يكون بالتعطيل أو لا، وكان التعطيل أشد، بدأ به وهو الخلق من غير شيء، ولما كان النقص مع الإقرار بالوجود إما أن يكون بالشركة أو لا، وكان بالشركة إما أن يكون المكذب هو المشارك أو لا، وكانت الشركة المكذب أقعد في التكذيب بدأ بها، ولما كانت شركة المكذب إما أن تكون في الخلق أو لا، وكان الأول إما أن يكون بخلق النفس أو الغير، وكانت الشركة بخلق النفس ألصق، بدأ بها في قوله: ﴿أَمْ هُمُ ٱلْخَٰلِقُونَ﴾ .

ولما كانت الشركة بغير الخلق إما أن يكون بضبط الحواس أو لا، وكان الثاني إما أن يكون بضبط الكتاب فيها وإليه الإشارة بالمسيطر، أو بضبط ما يؤمر به فيها، وإليه الإشارة بالسلم أو بسفه صاحب الخزائن لرضاه بالبنات، وكان كل قسم أشد مما بعده رتبه هكذا.

ولما انتهى ما يرجع إلى التكذيب، أتبعه الرد لا للتكذيب بل لأمر آخر، ولما كان ذلك الأمر إما من الآتي أو من المأتي إليه أو من غيرهما، كان ما من الآتي ألصق بدأ به وهو المغرم، ولما كان ما من المأتي إليه إما لحسد أو غيره، وكان أمر الحسد أشد، بدأ به وهو المشاركة في الأبناء بما يكون به الفخر والرئاسة وهو علم الغيب، الناظر بوجه للكهانة المبدوء بها في قسم التكذيب، وأخر ما من الغير وهو الشريك المانع لهم من القبول، وخلطه بهذا القسم مع كونه قسيمًا لما فرض فيه المكذب مشاركًا لخلوه عما قارن تلك الأقسام من التكذيب.

هذا تمام القول في إبطال ما لزمهم فيما تقولوه في أمر القرآن، وقد تضمن ما ترى من تأصيله وتقسيمه وتفصيله من بيان مقدورات اللَّه وعجائب مصنوعاته ما ألزمهم حتمًا التوحيد الملزم بتصديق الرسالة، والإذعان للحق مع ما له من الإعجاز في ترتيبه ونظمه وتهذيبه وتسهيله وتقريبه، مجلوا أسلوبه العظيم بألفاظ هي الدر النظيم، ومعان علت عن لاحق بغريزة أو تعليم، يكاد لها أثبت القلوب يهيم فيطير، وأبلغ البلغاء في أفنان روحها يتبلد ويحير، فكان ذلك كما قال جبير بن مطعم ﷺ كما روى البخاري ومسلم وأبو داود والنسائي وابن ماجه ﷺ أن رسول اللَّه ﷺ قرأ

في المغرب بالطور، وقال البخاري في التفسير: فلما بلغ هذه الآية: ﴿أَمْ خُلِقُوا۟ مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخَٰلِقُونَ ۝٣٥ أَمْ خَلَقُوا۟ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ۚ بَل لَّا يُوقِنُونَ ۝٣٦ أَمْ عِندَهُمْ خَزَآئِنُ رَبِّكَ أَمْ هُمُ ٱلْمُصَيْطِرُونَ ۝٣٧﴾[1] كاد قلبي يطير، وقال ابن ماجه: فلما سمعته يقرأ ﴿أَمْ خُلِقُوا۟ مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخَٰلِقُونَ ۝٣٥﴾ إلى قوله: ﴿فَلْيَأْتِ مُسْتَمِعُهُم بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ﴾[2] كاد قلبي يطير.. ولما كان التقدير تسكينًا لقلب من يريد إجابتهم إلى الآيات المقترحات طمعًا في إيمانهم: فلقد تلونا عليهم في هذه السورة وغيرها من الآيات، وخلونا من المعجزات البينات، وأتينا من تناقضهم في هذه التقسيمات، بما يهد الجبال الشامخات، وبينا من فضائحهم بحسن سوقها وحلاوة ذوقها، وصحة معانيها وإحكام مبانيها، ما يزلزل الراسيات، ويحل العزمات، ويفرج الأزمات، ويصد ذوي المروات عن أمثال هذه النقائص الفاضحات، لما لها من الأدلة الواضحات، ولكنهم لما ألزمناهم به من العكس لا يؤمنون، وكدناهم بما أعمينا من بصائرهم فهم لا يعلمون أنهم المكيدون»[3].

قال ابن عطية: «وهذه الأشياء التي وقفهم تعالى عليها حصرت جميع المعاني التي توجب الانتخاء والتكبر والبعد من الائتمار، فوقفهم تعالى عليها أي ليست لهم ولا بقي شيء يوجب ذلك إلا أنهم قوم طاغون، وهذه صفة فيها تكسبهم وإيثارهم فيتعلق بذلك عقابهم»[4].

* * *

---

(١) الطور: الآيات (٣٥-٣٧).

(٢) الطور: الآية (٣٨).

(٣) نظم الدرر (٢٩/ ٣١-٣٤).

(٤) المحرر الوجيز (٥/ ١٩٣).

قوله تعالى: ﴿وَإِن يَرَوْاْ كِسْفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ سَاقِطًا يَقُولُواْ سَحَابٌ مَّرْكُومٌ ﴿٤٤﴾﴾

★غريب الآية:

كسفًا: جمع كسفة، وهي القطعة من السحاب والقطن ونحوهما من الأجسام المتخلخلة.

مركوم: أي: متراكب بعضه فوق بعض.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «وإنما عنى بذلك جلّ ثناؤه المشركين من قريش الذين سألوا رسول اللَّه ﷺ الآيات، فقالوا له: ﴿لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ ٱلْأَرْضِ يَنۢبُوعًا﴾. إلى قوله: ﴿عَلَيْنَا كِسَفًا﴾[1] فقال اللَّه لنبيه محمد ﷺ: وإن ير هؤلاء المشركون ما سألوا من الآيات، فعاينوا كِسَفا من السماء ساقطا، لم ينتقلوا عما هم عليه من التكذيب، ولقالوا: إنما هذا سحاب بعضه فوق بعض، لأن اللَّه قد حتم عليهم أنهم لا يؤمنون»[2].

قال ابن عطية: «وصفهم تعالى بأنهم على الغاية من العتو والتمسك بالأقوال الباطلة في قوله: ﴿وَإِن يَرَوْاْ كِسْفًا﴾ الآية، وذلك أن قريشًا كان في جملة ما اقترحت به أن تنزل من السماء عليها كسف وهي القطع، واحدها كسفة، وتجمع أيضًا على كسف كثمرة وتمر، قال الرماني: هي التي تكون بقدر ما يكسف ضوء الشمس. فأخبر اللَّه عنهم في هذه الآية أنهم لو رأوا كسفًا ساقطًا حسب اقتراحهم لبلغ بهم العتو والجهل والبعد عن الحق أن يغالطوا أنفسهم وغيرهم ويقولوا هذا ﴿سَحَابٌ مَّرْكُومٌ﴾، أي: كثيف قد تراكم بعضه فوق بعض، ولهذه الآية نظائر في آيات أخر»[3].

---

(١) الإسراء: الآيات (٩٠-٩٢).

(٢) جامع البيان (٢٧-٣٦).

(٣) المحرر الوجيز (٥/ ١٩٥).

قال ابن كثير: «وهذه كقوله تعالى: ﴿وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَظَلُّوا۟ فِيهِ يَعْرُجُونَ ﴿١٤﴾﴾[(١)]»[(٢)].

* * *

(١) الحجر: الآية (١٤).

(٢) تفسير القرآن العظيم (٧/ ٤١٣).

قوله تعالى: ﴿فَذَرْهُمْ حَتَّىٰ يُلَٰقُوا۟ يَوْمَهُمُ ٱلَّذِى فِيهِ يُصْعَقُونَ ﴿٤٥﴾﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن عطية: «قوله: ﴿فَذَرْهُمْ﴾ وما جرى مجراه من الموادعة منسوخ بآية السيف واختلف الناس في اليوم الذي توعدوا به، فقال بعض المتأولين: هو موتهم واحدًا واحدًا وهذا على تجوز، والصعق: التعذيب في الجملة، وإن كان الاستعمال قد كثر فيه فيما يصيب الإنسان من الصيحة المفرطة ونحوه. ويحتمل أن يكون اليوم الذي توعدوا به يوم بدر، لأنهم عذبوا فيه، وقال الجمهور: التوعد بيوم القيامة، لأن فيه صعقة تعم جميع الخلائق، لكن لا محالة أن بين صعقة المؤمن وصعقة الكافر فرقًا»[1].

قال السعدي: «وهؤلاء [المكذبون] لا دواء لهم إلا العذاب والنكال، ولهذا قال: ﴿فَذَرْهُمْ حَتَّىٰ يُلَٰقُوا۟ يَوْمَهُمُ ٱلَّذِى فِيهِ يُصْعَقُونَ ﴿٤٥﴾﴾ وهو يوم القيامة الذي يصيبهم [فيه] من العذاب والنكال، ما لا يقادر قدره، ولا يوصف أمره»[2].

* * *

---

(١) المحرر الوجيز (٥/ ١٩٣-١٩٤).

(٢) تيسير الكريم الرحمن (٧/ ٢٠١).

قوله تعالى: ﴿يَوْمَ لَا يُغْنِي عَنْهُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٤٦﴾﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يعني -جلّ ثناؤه- بقوله: ﴿يَوْمَ لَا يُغْنِي عَنْهُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا﴾ ﴿لَا يُغْنِي عَنْهُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا﴾ يوم القيامة، حتى يلاقوا يومهم الذي فيه يصعقون، ثم بين عن ذلك اليوم أيّ يوم هو، فقال: يوم لا يغني عنهم كيدهم شيئًا، يعني: مَكرهم أنه لا يدفع عنهم من عذاب اللَّه شيئا، فاليوم الثاني ترجمة عن الأوّل.

وقوله: ﴿وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾ يقول: ولا هم ينصرهم ناصر، فيستقيد لهم ممن عذّبهم وعاقبهم»[1].

قال الشنقيطي: «بين -جل وعلا- في هذه الآية أن كيد الكفار لا يغني عنهم شيئًا في الآخرة في غير هذا الموضع، كقوله تعالى: ﴿هَٰذَا يَوْمُ الْفَصْلِ جَمَعْنَاكُمْ وَالْأَوَّلِينَ ﴿٣٨﴾ فَإِن كَانَ لَكُمْ كَيْدٌ فَكِيدُونِ ﴿٣٩﴾﴾[2].

وبين أنه لا ينفعهم في الدنيا أيضًا كقوله تعالى في هذه السورة الكريمة: ﴿أَمْ يُرِيدُونَ كَيْدًا فَالَّذِينَ كَفَرُوا هُمُ الْمَكِيدُونَ ﴿٤٢﴾﴾[3] وقوله: ﴿إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا ﴿١٥﴾ وَأَكِيدُ كَيْدًا ﴿١٦﴾﴾[4]، وقوله: ﴿سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٤﴾ وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ ﴿٤٥﴾﴾[5] إلى غير ذلك من الآيات»[6].

* * *

(١) جامع البيان (٢٧/ ٣٦).
(٢) المرسلات: الآيتان (٣٨و٣٩).
(٣) الطور: الآية (٤٢).
(٤) الطارق: الآيتان (١٥و١٦).
(٥) القلم: الآيتان (٤٤و٤٥).
(٦) أضواء البيان (٧/ ٦٩٥).

قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ عَذَابًا دُونَ ذَٰلِكَ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٧﴾﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «اختلف أهل التأويل في العذاب الذي توعدَ اللَّه به هؤلاء الظلمة من دون يوم الصعقة، فقال بعضهم: هو عذاب القبر.. وقال آخرون: عني بذلك الجوع.. وقال آخرون عني به المصائب التي تصيبهم في الدنيا من ذهاب الأموال والأولاد.. والصواب من القول في ذلك عندي أن يقال: إن اللَّه -تعالى ذكره- أخبر أن للذين ظلموا أنفسهم بكفرهم به عذابا دون يومهم الذي فيه يصعقون، وذلك يوم القيامة، فعذاب القبر دون يوم القيامة، لأنه في البرزخ، والجوع الذي أصاب كفار قريش، والمصائب التي تصيبهم في أنفسهم وأموالهم وأولادهم دون يوم القيامة، ولم يخصص اللَّه نوعا من ذلك أنه لهم دون يوم القيامة دون نوع؛ بل عمّ فقال: ﴿وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ عَذَابًا دُونَ ذَٰلِكَ﴾ فكلّ ذلك لهم عذاب، وذلك لهم دون يوم القيامة، فتأويل الكلام: وإن للذين كفروا باللَّه عذابا من اللَّه دون يوم القيامة ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ بأنهم ذائقو ذلك العذاب»[1].

قال الشنقيطي: «الظاهر أن قوله: ﴿عَذَابًا دُونَ ذَٰلِكَ﴾ هو ما عذبوا به في دار الدنيا من القتل وغيره، لما دل على ذلك قوله: ﴿وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَدْنَىٰ دُونَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَكْبَرِ﴾[2] الآية. وقوله تعالى: ﴿قَٰتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ﴾[3] إلى غير ذلك من الآيات، ولا مانع من دخول عذاب القبر في ذلك، لأنه قد يدخل في ظاهر الآية، وما قيل في معنى الآية غير هذا لا يتجه عندي. والعلم عند اللَّه تعالى»[4].

قال أبو السعود في قوله: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ قال: «فيه إشارة إلى أن فيهم من يعلم ذلك وإنما يصر عنادا أو لا يعلمون شيئا أصلا»[5].

---

(١) جامع البيان (٢٧/ ٣٦-٣٧).

(٢) السجدة: الآية (٢١).

(٣) التوبة: الآية (١٤).

(٤) أضواء البيان (٧/ ٦٩٥).

(٥) تفسير أبي السعود (٩/ ١٥٣).

قوله تعالى : ﴿وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ ﴿٤٨﴾﴾

★ غريب الآية:

بأعيننا : أي : بمرأى ومنظر منا نرى ونسمع ما تقول وتفعل .

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير : « يقول -تعالى ذكره- لنبيه محمد ﷺ : ﴿وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ﴾ يا محمد الذي حكم به عليك ، وامض لأمره ونهيه ، وبلغ رسالاته ﴿فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا﴾ يقول جلّ ثناؤه : فإنك بمرأى منا نراك ونرى عملك ، ونحن نحوطك ونحفظك ، فلا يصل إليك من أرادك بسوء من المشركين »[١] .

قال القرطبي : «قوله تعالى : ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ﴾ اختلف في تأويل قوله : ﴿حِينَ تَقُومُ﴾ فقال عون بن مالك وابن مسعود وعطاء وسعيد بن جبير وسفيان الثوري وأبو الأحوص : يسبح اللَّه حين يقوم من مجلسه ، فيقول : سبحان اللَّه وبحمده ، أو سبحانك اللهم وبحمدك ، فإن كان المجلس خيرا ازددت ثناء حسنا ، وإن كان غير ذلك كان كفارة له . . وقال محمد بن كعب والضحاك والربيع : المعنى حين تقوم إلى الصلاة . قال الضحاك يقول : اللَّه أكبر كبيرا ، والحمد لله كثيرا ، وسبحان اللَّه بكرة وأصيلا .

قال الكيا الطبري : وهذا فيه بعد ، فإن قوله : ﴿حِينَ تَقُومُ﴾ لا يدل على التسبيح بعد التكبير ، فإن التكبير هو الذي يكون بعد القيام ، والتسبيح يكون وراء ذلك ، فدل على أن المراد فيه حين تقوم من كل مكان كما قال ابن مسعود رضي الله عنه .

وقال أبو الجوزاء وحسان بن عطية : المعنى حين تقوم من منامك . قال حسان : ليكون مفتتحا لعمله بذكر اللَّه . وقال الكلبي : واذكر اللَّه باللسان حين تقوم من فراشك إلى أن تدخل الصلاة وهي صلاة الفجر . وفى هذا روايات مختلفات

---

(١) جامع البيان (٢٧/ ٣٧).

صحاح. . وقال زيد بن أسلم: المعنى حين تقوم من نوم القائلة لصلاة الظهر.

قال ابن العربي: أما نوم القائلة فليس فيه أثر وهو ملحق بنوم الليل. وقال الضحاك: إنه التسبيح في الصلاة إذا قام إليها. قال الماوردي: وفي هذا التسبيح قولان: أحدهما وهو قوله سبحان ربي العظيم في الركوع وسبحان ربي الأعلى في السجود. الثاني أنه التوجه في الصلاة يقول: سبحانك اللهم وبحمدك وتبارك اسمك وتعالى جدك ولا إله غيرك. قال ابن العربي: من قال إنه التسبيح للصلاة فهذا أفضله، والآثار في ذلك كثيرة»(١).

قال القاسمي: «ولا يخفى أن لفظ الآية يصدق بالمواضع المذكورة كلها وتدل الأحاديث المذكورة على الأخذ بعمومها فإن السنة بيان للكتاب الكريم»(٢).

وقال: «قال الشهاب: . . ونكتة جمع العين هنا وإفرادها في قصة الكليم عدا عن أنه جمع هنا لما أضيف لضمير الجمع، ووحد ثمة لإضافته لضمير الواحد، وهو المبالغة في الحفظ، حتى كأن معه جماعة حفظة له بأعينهم، لأن المقصود تصبير حبيبه على المكايد، ومشاق التكاليف والطاعة، فناسب الجمع، لأنها أفعال كثيرة، يحتاج كل منها إلى حارس بل حراس. بخلاف ما ذكر هناك من كلاءة موسى عليه السلام»(٣).

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في الحث على التسبيح

* عن أبي برزة الأسلمي قال: «كان رسول اللّه ﷺ يقول بأَخَرة إذا أراد أن يقوم من المجلس: **سبحانك اللهم وبحمدك، أشهد أن لا إله إلا أنت، أستغفرك وأتوب إليك**، فقال رجل: إنك لتقول قولًا ما كنت تقوله فيما مضى يا رسول اللّه، فقال: **كفارة لما يكون في المجلس**»(٤).

---

(١) الجامع لأحكام القرآن (١٧/ ٧٨-٨٠)، وانظر أحكام القرآن للكيا الطبري (٤/ ٣٩١)، وأحكام القرآن أيضا لابن العربي (٤/ ١٧٣٣)، والنكت والعيون للماوردي (٥/ ٣٨٧).

(٢) محاسن التأويل (١٥/ ٢١٩).

(٣) محاسن التأويل (١٥/ ٢١٨).

(٤) أخرجه: أبو داود (٥/ ١٨٢-١٨٣/ ٤٨٥٩)، والنسائي في الكبرى (٦/ ١١٢-١١٣/ ١٠٢٥٩)، وصححه الحاكم (١/ ٥٣٧).

★ غريب الحديث:

بأَخَرة: هو بهمزة مقصورة مفتوحة وبفتح الخاء، ومعناه: في آخر الأمر. أي آخر شؤونه وأحواله في مجلسه هذا الذكر، واللَّه أعلم.

سبحانك اللهم: سبحان اللَّه، تنزيه لله عن كل ما لا ينبغي له أن يوصف به، ونصب على المصدر، وتقول: سبحت اللَّه تسبيحًا، أي: نزهته تنزيهًا، ومعنى تنزيه اللَّه من السوء: تبعيده منه، وكذلك تسبيحه تبعيده، من قولك: سبحت في الأرض: إذا أبعدت فيها، وجماع معناه: بعده -تبارك وتعالى- عن أن يكون له مثل أو شريك أو ضد أو ند.

* عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال: **«من جلس في مجلس فكثر فيه لغطه، فقال قبل أن يقوم من مجلسه ذلك: سبحانك اللهم وبحمدك، أشهد أن لا إله إلا أنت، أستغفرك وأتوب إليك، إلا غفر له ما كان في مجلسه ذلك»**[1].

★ غريب الحديث:

لغطه: اللغط، بالتحرك: الصوت. وأراد به الهراء من القول، وما لا طائل تحته من الكلام، فأحل ذلك محل الصوت العري عن المعنى.

★ فوائد الحديثين:

احتج بهذين الحديثين من ذهب من المفسرين إلى القول بأن المراد بقوله في هذه الآية ﴿حِينَ تَقُومُ﴾ القيام من المجلس، وقد تقدم ذكر من قال بذلك وبيان أن ذلك من جملة ما يدخل في عموم الآية، واللَّه تعالى أعلم.

قوله: «**سبحانك اللهم وبحمدك**»: قال القاري: «لعله مقتبس من قوله تعالى:

---

(١) أخرجه الترمذي (٥/ ٤٦٠-٤٦١/ ٣٤٣٣) وقال: «حديث حسن غريب صحيح»، وأبو داود (٥/ ١٨٢/ ٤٨٥٨)، والنسائي في الكبرى (٦/ ١٠٥/ ١٠٢٣٠)، والحاكم (١/ ٥٣٦-٥٣٧) وقال: «هذا الإسناد صحيح على شرط مسلم، إلا أن البخاري قد علله بحديث وهيب عن موسى بن عقبة عن سهيل عن أبيه عن كعب الأحبار من قوله، ووافقه الذهبي وقال: وله شواهد. وأخرجه: ابن حبان (الإحسان ٢/ ٣٥٤-٣٥٥/ ٥٩٤)، والبغوي (٥/ ١٣٤-١٣٥/ ١٣٤٠)، وللحديث شواهد كثيرة عن جمع من الصحابة منها:
- حديث أبي برزة الأسلمي أخرجه أبو داود (٥/ ١٨٢/ ٤٨٥٩)، والدارمي (٢/ ٢٨٣)، والحاكم (١/ ٥٣٧).
- رافع بن خديج أخرجه الحاكم (١/ ٥٣٧)، والطبراني في «الكبير» (٤/ ٢٨٧/ ٤٤٤٥)، وقال الهيثمي في «المجمع» (١٠/ ١٤١): «رجاله ثقات وغيرهم».

﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ﴾ و«اللهم» معترض؛ لأن قوله: «وبحمدك» متصل بقوله: «سبحانك»، إما بالعطف، أي: أسبح وأحمد، أو بالحال، أي: أسبح حامدًا لك»(١).

قال ابن علان: «وإنما ترتب على هذا الذكر غفر ما كسب في ذلك المجلس؛ لما فيه من تنزيه المولى سبحانه، والثناء عليه بإحسانه، والشهادة بتوحيده، ثم سؤال المغفرة من جنابه، وهو الذي لا يخيب قاصد بابه»(٢).

* عن عبادة بن الصامت عن النبي ﷺ قال: «**من تعارّ من الليل فقال: لا إله إلا اللَّه وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد، وهو على كل شيء قدير، الحمد لله، وسبحان اللَّه، ولا إله إلا اللَّه، واللَّه أكبر، ولا حول ولا قوة إلا باللَّه. ثم قال: اللهم اغفر لي -أو دعا- استجيب له. فإن توضأ قبلت صلاته**»(٣).

⋆ غريب الحديث:

تعارّ: التعارّ: السهر والتقلب على الفراش ليلًا مع كلام، أخذه من عرار الظير، وهو صوته.

⋆ فوائد الحديث:

احتج بهذا الحديث وشبهه من الأحاديث من ذهب من المفسرين إلى أن المراد بقوله: ﴿حِينَ تَقُومُ﴾ القيام من النوم، وقد تقدم ذكر من قال بذلك وبيان أن ذلك من جملة ما يدخل في عموم الآية، واللَّه تعالى أعلم.

قال ابن بطال: «حديث عبادة شريف عظيم القدر، وفيه ما وعد اللَّه عباده على التيقظ من نومهم لهجة ألسنتهم بشهادة التوحيد له والربوبية، والإذعان له بالملك، والاعتراف له بالحمد على جزيل نعمه التي لا تحصى، رطبة أفواههم بالإقرار له بالقدرة التي لا تتناهى، مطمئنة قلوبهم بحمده وتسبيحه وتنزيهه عما لا يليق بالإلهية

---

(١) المرقاة (٥/ ٢٨٨).

(٢) دليل الفالحين (٣/ ٣١٥).

(٣) أخرجه: أحمد (٥/ ٣١٣)، والبخاري (٣/ ٤٩/ ١١٥٤)، وأبو داود (٥/ ٣٠٥/ ٥٠٦٠)، والترمذي (٥/ ٤٤٧/ ٣٤١٤)، والنسائي في الكبرى (٦/ ٢١٥/ ١٠٦٩٧)، وابن ماجه (٢/ ١٢٧٦/ ٣٨٧٨).

من صفات النقص، والتسليم له بالعجز عن القدرة عن نيل شيء إلا به تعالى، فإنه وعد بإجابة دعاء من بهذا دعاه، وقبول صلاة من بعد ذلك صلى، وهو تعالى لا يخلف الميعاد، وهو الكريم الوهاب. فينبغي لكل مؤمن بلغه هذا الحديث أن يغتنم العمل به، ويخلص نيته لربه العظيم أن يرزقه حظًّا من قيام الليل، فلا عون إلا به، ويسأله فكاك رقبته من النار، وأن يوفقه لعمل الأبرار، وأن يتوفاه على الإسلام. قد سأل ذلك الأنبياء الذين هم خيرة اللَّه وصفوه من خلقه. فمن رزقه اللَّه حظًّا من قيام الليل فليكثر شكره على ذلك، ويسأله أن يديم له ما رزقه، وأن يختم له بفوز العاقبة وجميل الخاتمة»[١].

* عن أبي سعيد الخدري قال: «كان رسول اللَّه ﷺ إذا قام من الليل كبر ثم يقول: **سبحانك اللهم وبحمدك، وتبارك اسمك، وتعالى جدك، ولا إله غيرك**، ثم يقول: **لا إله إلا اللَّه** -ثلاثًا-، ثم يقول: **اللَّه أكبر كبيرًا** -ثلاثًا-، **أعوذ باللَّه السميع العليم من الشيطان الرجيم، من همزه ونفخه ونفثه، ثم يقرأ**»[٢].

⋆ غريب الحديث:

تبارك اسمك: «هو (تَفَاعَلَ) من البركة، وهي الكثرة والاتساع، وتبارك، أي: بارك، مثل قاتل، إلا أن (فاعَلَ) يتعدى، و(تَفَاعَلَ) لا يتعدى، ومعناه: تعالى وتعاظم وكثرت بركاته في السموات والأرض؛ إذ به تقوم، وبه تستنزل الخيرات. وفي كتاب اللَّه تعالى: ﴿فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ﴾[٣] ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ﴾[٤] ﴿تَبَٰرَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ﴾[٥] وكل ذلك تنبيه على اختصاصه سبحانه بالخيرات الإبداعية والبركات المتوالية»[٦].

وتعالى جدك: «أي: عظمتك، ومنه قول أنس ﷺ: «**كان الرجل منا إذا قرأ**

---

(١) شرح ابن بطال (٣/ ١٤٧-١٤٨).

(٢) أخرجه: أحمد (٣/ ٥٠)، وأبو داود (١/ ٤٩٠/ ٧٧٥) واللفظ له، والترمذي (٢/ ٩-١٠/ ٢٤٢)، والنسائي (٢/ ٤٦٩/ ٨٩٨-٨٩٩)، وبن ماجه (١/ ٢٦٤/ ٨٠٤).

(٣) المؤمنون: الآية (١٤).

(٤) الفرقان: الآية (١).

(٥) الملك: الآية (١).

(٦) شرح الطيبي (٣/ ٩٩٢).

(البقرة) و(آل عمران) جد فينا» أي: عظم»[١].

همزه: «الهمز: النخس والغمز، وكل شيء دفعته فقد همزته. «وقد فسر عمر رضي الله عنه الهمز بالمُؤتة، وهي بالضم وفتح التاء المنقوطة: ضرب من الجنون، والصرع يعتري الإنسان، فإذا أفاق عاد إليه كمال عقله، كالنائم والسكران»[٢].

نفخه: كبره؛ لأن المتكبر يتعاظم، ويجمع نفْسه ونَفَسه، فيحتاج أن ينفخ.

نفثه: «قال في «النهاية»: جاء تفسيره في الحديث أنه الشعر؛ لأنه ينفث من الفم»[٣].

★ **فوائد الحديث:**

قال شيخ الإسلام في معرض ذكره لأنواع الاستفتاح في الصلاة وأنواع الأذكار وذكره لأوجه تفضيل بعضها على بعض، قال: «إذا تبين هذا الأصل، فأفضل أنواع الاستفتاح ما كان ثناءً محضًا، مثل: «**سبحانك اللهم وبحمدك، وتبارك اسمك وتعالى جدك، ولا إله غيرك**» وقوله: «**اللَّه أكبر كبيرًا، والحمد لله كثيرًا، وسبحان اللَّه بكرة وأصيلًا**»، ولكن ذاك فيه من الثناء ما ليس في هذا؛ فإنه تضمن ذكر الباقيات الصالحات التي هي أفضل الكلام بعد القرآن، وتضمن قوله: «**تبارك اسمك وتعالى جدك**» وهما من القرآن أيضًا، ولهذا كان أكثر السلف يستفتحون به، وكان عمر بن الخطاب يجهر به يعلمه الناس.. وأيضًا فإن قوله: «**سبحانك اللهم..**» يتضمن الباقيات الصالحات التي هي أفضل الكلام بعد القرآن كما في صحيح مسلم عن النبي ﷺ أنه قال: «**أفضل الكلام بعد القرآن أربع، وهن من القرآن: سبحان اللَّه، والحمد لله، ولا إله إلا اللَّه، واللَّه أكبر**»، وأيضًا ففي صحيح مسلم أن رسول اللَّه ﷺ سئل: أي الكلام أفضل؟ قال: «**ما اصطفى اللَّه لملائكته: سبحان اللَّه وبحمده**»[٤] فهذه الكلمة هي أول ما في الاستفتاح، وهي أفضل الكلام. وأيضًا فاللَّه قد أمر بالتسبيح بحمده، وعبر بذلك عن الصلاة بقوله:

---

(١) المصدر نفسه.

(٢) شرح الطيبي (٣/ ٩٩٤).

(٣) النهاية (٥/ ٨٨).

(٤) أخرجه: أحمد (٥/ ١٧٦) ومسلم (٤/ ٢٠٩٣/ ٢٧٣١) والترمذي (٥/ ٥٣٧-٥٣٨/ ٣٥٩٣) والنسائي في الكبرى (٦/ ٢٠٦/ ١٠٦٦٠).

﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ﴾[(١)]، فكان ابتداء الامتثال بهذا الذكر أولى، وقد قال طائفة من المفسرين كالضحاك في تفسير هذه الآية: هو قول المصلي: (سبحانك اللهم وبحمدك، وتبارك اسمك، وتعالى جدك، ولا إله غيرك)، وقد بسطت الكلام على معنى هذه الكلمة في غير هذا الموضع، وبينت أنها تشتمل على التنزيه والتحميد والتعظيم بصفات البقاء والإثبات وأفعاله كلها سبحانه وبحمده»[(٢)].

قال ابن القيم مبينًا أوجه تفضيل هذه الصيغة في الاستفتاح على غيرها من الصيغ الأخرى، قال: «.. ومنها اشتماله على أفضل الكلام بعد القرآن فإن أفضل الكلام بعد القرآن: سبحان اللَّه، والحمد لله، ولا إله إلا اللَّه، واللَّه أكبر، وقد تضمنها هذا الاستفتاح مع تكبيرة الإحرام، ومنها أنه استفتاح أخلص للثناء على اللَّه، وغيره متضمن للدعاء والثناء أفضل من الدعاء، ولهذا كانت سورة (الإخلاص) ثلث القرآن؛ لأنها أخلصت لوصف الرحمن تبارك وتعالى، والثناء عليه، ولهذا كان «**سبحان اللَّه، والحمد لله، ولا إله إلا اللَّه، واللَّه أكبر**» أفضل من غيره من الاستفتاح، .. ومنها أن هذا الاستفتاح إنشاء للثناء على الرب تعالى، متضمن للإخبار عن صفات كماله ونعوت جلاله. والاستفتاح بـ: «**وجهت وجهي**» إخبار عن عبودية العبد، وبينهما من الفرق ما بينهما»[(٣)].

فائدة هامة:

قال ابن بطال: «قال بعض الناس: وهذه الفضائل التي جاءت عن النبي ﷺ: «**من قال سبحان اللَّه وبحمده مائة مرة غفر له..**» وما شاكلها، إنما هي لأهل الشرف في الدين والكمال والطهارة من الجرائم العظام، ولا يظن أن من فعل هذا وأصر على ما شاء من شهواته وانتهك دين اللَّه وحرماته أنه يلحق بالسابقين المطهرين وينال منزلتهم في ذلك بحكاية أحرف ليس معها تقىً ولا إخلاص ولا عمل، ما أظلمه لنفسه من يتأول دين اللَّه على هواه»[(٤)].

قال الحافظ: «ويشهد له قول اللَّه تعالى: ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ ۚ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٢١﴾﴾[(٥)]»[(٦)].

---

(١) الطور: الآية (٤٨).
(٢) مجموع الفتاوى (٢٢/ ٣٩٤-٣٩٧).
(٣) زاد المعاد (١/ ٢٠٥-٢٠٦).
(٤) شرح صحيح البخاري (١٠/ ١٣٤).
(٥) الجاثية: الآية (٢١).
(٦) فتح الباري (١١/ ٢٤٨-٢٤٩).

قوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلَّيۡلِ فَسَبِّحۡهُ وَإِدۡبَٰرَ ٱلنُّجُومِ ۝٤٩﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول: ومن الليل فعظم ربك يا محمد بالصلاة والعبادة، وذلك صلاة المغرب والعشاء . . . ﴿وَإِدۡبَٰرَ ٱلنُّجُومِ﴾ يعني حين تدبر النجوم للأفول عند إقبال النهار»(١).

قال البقاعي: «فصارت عبادة الصبح محثوثًا عليها مرتين تشريفًا لها وتعظيمًا لقدرها، فإن ذلك ينجي من العذاب الواقع، وينصر على العدو الدارع، من المجاهر المدافع، والمنافق المخادع، وقد رجع آخرها على أولها، ومقطعها على موصلها، بحلول العذاب على الظالم، وبعده عن الطائع السالم، والله الموفق»(٢).

قال القاسمي: «قال في الإكليل عن الكرماني: إن بعض الفقهاء استدل به على أن الإسفار بصلاة الصبح أفضل؛ لأن النجوم لا إدبار لها، وإنما ذلك بالاستتار عن العيون. انتهى وهو استدلال متين»(٣).

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة التي احتج بها من ذهب من المفسرين إلى أن المراد بالتسبيح في الآية الركعتان اللتان قبل صلاة الصبح

* عن عائشة رضي الله عنها قالت: «لم يكن النبي ﷺ على شيء من النوافل، أشد منه تعاهدًا على ركعتي الفجر»(٤).

* عن عائشة رضي الله عنها عن النبي ﷺ قال: «ركعتا الفجر خير من الدنيا وما فيها»(٥).

---

(١) جامع البيان (٢٧/ ٣٩-٤٠). (٢) نظم الدرر (١٩/ ٣٩).

(٣) محاسن التاويل (١٥/ ٢٢٠) وانظر الإكليل (ص: ٢٤٩).

(٤) أخرجه: أحمد (٦/ ٤٣)، والبخاري (٣/ ٧٥-٨٥/ ١١٦٩)، ومسلم (١/ ٥٠١/ ٧٢٤[٩٤])، وأبو داود (٢/ ٤٤/ ١٢٥٤).

(٥) أخرجه: أحمد (٦/ ٢٦٥)، ومسلم (١/ ٥٠١/ ٧٢٥)، والترمذي (٢/ ٢٧٥/ ٤١٦) وقال: «حديث حسن صحيح»، والنسائي (٣/ ٢٧٩-٢٨٠/ ١٧٥٨).

★ **فوائد الحديثين:**

احتج بهذين الحديثين من ذهب من المفسرين إلى القول بأن المراد بالتسبيح أدبار النجوم المأمور به في هذه الآية هو الركعتان اللتان قبل صلاة الصبح، وممن قال بهذا القول ابن عباس وعمر وعلي وقتادة ﷺ، قال ابن جرير: وقال آخرون عني بالتسبيح إدبار النجوم صلاة الصبح الفريضة.. وأولى القولين في ذلك عندي بالصواب قول من قال: عنى بها: الصلاة المكتوبة صلاة الفجر، وذلك أن اللّه أمر فقال: ﴿وَمِنَ ٱلَّيۡلِ فَسَبِّحۡهُ وَإِدۡبَٰرَ ٱلنُّجُومِ ﴿٤٩﴾﴾ والركعتان قبل الفريضة غير واجبتين، ولم تقم حجة يجب التسليم لها، أن قوله: ﴿فَسَبِّحۡهُ﴾ على الندب، وقد دللنا في غير موضع من كتابنا على أن أمر اللّه على الفرض حتى تقوم حجة بأنه مراد به الندب، أو غير الفرض بما أغنى عن إعادته في هذا الموضع»[1].

* * *

(١) جامع البيان (٢٧/ ٣٩-٤٠).



سورة النجم

أغراض السورة

قال البقاعي: «مقصودها ذم الهوى؛ لإنتاجه الضلال بالإخلاد إلى الدنيا التي هي دار الكدر والبلاء والتصرم والفناء. ومدح العلم؛ لإثماره الهدى في الإقبال على الأخرى؛ لأنها دار البقاء في السعادة أو الشقاء. والحث على اتباع النبي ﷺ في نذارته التي بينتها (ق)، وصدقتها (الذاريات)، وأوقعتها (الطور).

كما يتبع في بشارته؛ لأن علمه هو العلم؛ لأنه لا ينطق عن الهوى، لا في صريح كتابه، ولا في بيانه له؛ لأن الكل عن اللّٰه الذي له صفات الكمال، فلا بد من بعث الخلق إليه، وحشرهم لديه، لتظهر حكمته غاية الظهور، فيرفع أهل التزكي والطهور، ويضع أهل التدسي والفجور، ويفضح كل متحلّ بالزور، منتحل للشرور»[1].

* * *

---

(١) مصاعد النظر (٣/ ٣٥).

قوله تعالى: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ (١) مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ (٢) وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ (٣) إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ (٤)﴾

★ **غريب الآية:**

هوى: سقط من أعلى إلى أسفل.

غوى: الغيّ: الضلال والخيبة. خلافه: الرشد والهدى.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن القيم: «أقسم سبحانه بالنجم عند هويه على تنزيه رسوله وبراءته مما نسبه إليه أعداؤه من الضلال والغي.

واختلف الناس في المراد بالنجم: فقال الكلبي عن ابن عباس: أقسم بالقرآن إذا نزل منجمًا على رسوله: أربع آيات، وثلاثًا، والسورة. وكان بين أوله وآخره عشرون سنة. وكذلك روى عطاء عنه، وهو قول مقاتل والضحاك، ومجاهد. واختاره الفراء. وعلى هذا فسمي القرآن نجمًا؛ لتفرقه في النزول. والعرب تسمي التفرق تنجمًا، والمفرق نجمًا، ونجوم الكتاب: أقساطها، ويقول: جعلت مالي على فلان نجومًا منجمة كل نجم كذا وكذا، وأصل هذا أن العرب كانت تجعل مطالع منازل القمر ومساقطها مواقيت لحلول ديونها وآجالها، فيقولون: إذا طلع النجم يريدون الثريا- حل عليك الدين. ومنه قول زهير في دية جعلت نجومًا على العاقل:

ينجمها قوم لقوم غرامة ولم يهرقوا ما بينهم ملء مجحم

ثم جعل كل تنجم تفريقًا وإن لم يكن موقتًا بطلوع نجم.

وقوله: ﴿هَوَىٰ﴾ على هذا القول، أي: نزل من علٍ إلى سفل. قال أبو زيد: هوت العقاب تهوي هويًا -بفتح الهاء- إذا انقضت على صيد أو غيره. وكذلك قال

ابن الأعرابي. وفرق بين الهوى لقوله:

والدلو في إصعادها عجل الهوى

وقال الليث: العامة تقول: الهوى -بالضم- في مصدر هوى يهوي وكذلك قال الأصمعي: هوى يهوي هو بفتح الهاء: إذا سقط إلى أسفل. قال وكذلك الهوى في السهر إذا مضى.

وهاهنا أمر يجب التنبيه عليه غلط فيه أبو محمد بن حزم أقبح غلط فذكر في أسماء الرب تعالى الهوى -بفتح الهاء- واحتج بما في الصحيح، من حديث عائشة أن رسول اللَّه ﷺ كان يقول في سجوده: «**سبحان ربي الأعلى الهوى**»[1]. فظن أبو محمد: أن الهوى صفة للرب وهذا من غلطه رَحِمَهُ اللَّهُ. وإنما الهوى على وزن (فعيل) اسم لقطعة من الليل. يقال: مضى هوى من الليل، على وزن (فعيل). ومضى هزيع منه، أي: طرف وجانب، وكان يقول: «**سبحان ربي الأعلى**» في قطعة من الليل وجانب منه. وقد صرحت بذلك في اللفظ الآخر. فقالت: كان يقول: «**سبحان ربي الأعلى**» الهوى من الليل.

عدنا إلى قوله: ﴿وَٱلنَّجۡمِ إِذَا هَوَىٰ ۝١﴾ وقال ابن عباس، في رواية علي ابن أبي طلحة، وعطية: يعني الثريا إذا سقطت وغابت، وهو الرواية الأخرى عن مجاهد، والعرب إذا أطلقت النجم تعني به الثريا. قال: فباتت تعد النجم، وقال أبو حمزة اليماني: يعني النجوم إذا انتشرت يوم القيامة. وقال ابن عباس في رواية عكرمة: يعني النجوم التي ترمى بها الشياطين إذا سقطت في آثارها عند استراق السمع. وهذا قول الحسن. وهو أظهر الأقوال. ويكون سبحانه قد أقسم بهذه الآية الظاهرة المشاهدة التي نصبها اللَّه سبحانه آية وحفظًا للوحي من استراق الشياطين له على أن ما أتى به رسوله حق وصدق، لا سبيل للشيطان ولا طريق له إليه، بل قد أحرس بالنجم إذ هوى رصدًا بين يدي الوحي، وحرسًا له. وعلى هذا فالارتباط بين

---

(١) لم نقف عليه بهذا اللفظ من حديث عائشة ﵂ وأخرجه بنحوه من حديث ربيعة بن كعب الأسلمي أحمد (٤/ ٥٧)، والنسائي (٣/ ٢٣٠-٢٣١/ ١٦١٧)، وابن ماجه (٢/ ١٢٧٦-١٢٧٧/ ٣٨٧٩)، وصححه ابن حبان (٦/ ٣٢٨-٣٢٩/ ٢٥٩٦ الإحسان)، ولفظه: عن ربيعة بن كعب الأسلمي، قال: كنت أبيت مع رسول اللَّه ﷺ، فأتيته بوضوئه وحاجته، وكان يقوم من الليل يقول: «**سبحان ربي وبحمده، سبحان ربي وبحمده**» الهوي، ثم يقول: «**سبحان رب العالمين، سبحان رب العالمين**» الهوي.

المقسم به والمقسم عليه في غاية الظهور. وفي المقسم به دليل على المقسم عليه.

وليس بالبين تسمية القرآن عند نزوله بـ(النجم إذا هوى)، ولا تسمية نزوله هويًا. ولا عهد في القرآن ذلك فيحمل هذا اللفظ عليه. وليس بالبين تخصيص هذا القسم بالثريا وحدها إذا غابت. وليس بالبين أيضًا القسم بالنجوم عند انتثارها يوم القيامة. بل هذا مما يقسم الرب عليه ويدل عليه بآياته، فلا يجعله نفسه دليلًا، لعدم ظهوره للمخاطبين، ولا سيما منكرو البعث، فإنه سبحانه إنما استدل بما لا يمكن جحده ولا المكابرة فيه. فأظهر الأقوال قول الحسن. والله أعلم.

وبين المقسم به والمقسم عليه من التناسب ما لا يخفى؛ فإن النجوم التي ترمي الشياطين آيات من آيات الله، يحفظ بها دينه ووحيه وآياته المنزلة على رسوله، بها ظهر دينه وشرعه وأسماؤه وصفاته، وجعلت هذه النجوم المشاهدة خدمًا وحرسًا لهذه النجوم الهاوية. ونفى سبحانه عن رسوله الضلال المنافي للهدى، والغي المنافي للرشاد. ففي ضمن هذا النفي الشهادة له بأنه على الهدى والرشاد. فالهدى في علمه والرشاد في عمله. وهذان الأصلان هما غاية كمال العبد، وبهما سعادته وفلاحه. وبهما وصف النبي ﷺ خلفاءه فقال: «**عليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين من بعدي**»[1] فالراشد ضد الغاوي، والمهدي ضد الضال، وهو الذي زكت نفسه بالعلم النافع والعمل الصالح، وهو صاحب الهدى ودين الحق، ولا يشتبه الراشد المهدي بالضال الغاوي إلا على أجهل خلق الله، وأعماهم قلبًا، وأبعدهم من حقيقة الإنسانية. ولله در القائل:

وما انتفاع أخي الدنيا بناظره   إذا استوت عنده الأنوار والظلم

فالناس أربعة أقسام: ضال في علمه غاوٍ في قصده وعمله. وهؤلاء شرار الخلق وهم مخالفو الرسل.

الثاني: مهتد في علمه غاوٍ في قصده وعمله، وهؤلاء هم الأمة الغضبية ومن تشبه بهم، وهو حال كل من عرف الحق ولم يعمل به.

---

(١) أخرجه: أحمد (٤/ ١٢٦-١٢٧)، وأبو داود (٥/ ١٣-١٥/ ٤٦٠٧)، والترمذي (٥/ ٤٣/ ٢٦٧٦) وقال: «هذا حديث حسن صحيح»، وابن ماجه (١/ ١٦-١٧/ ٤٣-٤٤)، والحاكم (١/ ٩٥-٩٧) وصححه ووافقه الذهبي، وصححه ابن حبان (١/ ١٧٨-١٧٩/ ٥ الإحسان) كلهم من حديث العرباض بن سارية رضي الله عنه.

الثالث: ضال في علمه، ولكن قصده الخير وهو لا يشعر.

الرابع: مهتد في علمه راشد في قصده. وهؤلاء ورثة الأنبياء. وهم وإن كانوا الأقلين عددًا فهم الأكثرون عند الله قدرًا، وهم صفوة الله من عباده وحزبه من خلقه.

وتأمل كيف قال سبحانه: ﴿مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ﴾ ولم يقل: ما ضل محمد؛ تأكيدًا لإقامة الحجة عليهم، بأنه صاحبهم، وهم أعلم الخلق به وبحاله وأقواله وأعماله، وأنهم لا يعرفونه بكذب ولا غي ولا ضلال، ولا ينقمون عليه أمرًا واحدًا قط. وقد نبه على هذا المعنى بقوله: ﴿أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا رَسُولَهُمْ﴾[(١)] وبقوله: ﴿وَمَا صَاحِبُكُم بِمَجْنُونٍ ﴿٢٢﴾﴾[(٢)].

ثم قال سبحانه: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ﴿٣﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ﴿٤﴾﴾ ينزه نطق رسوله أن يصدر عن هوى. وبهذا الكمال هداه ورشده وقال: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ﴿٣﴾﴾ ولم يقل: وما ينطق بالهوى؛ لأن نطقه عن الهوى أبلغ، فإنه يتضمن أن نطقه لا يصدر عن هوى، وإذا لم يصدر عن هوى فكيف ينطق به. فتضمن نفي الأمرين: نفي الهوى عن مصدر النطق، ونفيه عن نفسه، فنطقه بالحق، ومصدره الهدى والرشاد لا الغي والضلال.

ثم قال: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ﴿٤﴾﴾ فأعاد الضمير على المصدر المفهوم من الفعل، أي: ما نطقه إلا وحي يوحى. وهذا أحسن من قول من جعل الضمير عائدًا إلى القرآن؛ فإنه يعم نطقه بالقرآن والسنة، وإن كليهما وحي يوحى. وقد احتج الشافعي لذلك فقال: لعل من حجة من قال بهذا قوله: ﴿وَأَنزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ﴾[(٣)] قال: ولعل من حجته أن يقول: قال رسول الله ﷺ لأبي الزاني بامرأة الرجل الذي صالحه على الغنم والخادم: «**والذي نفسي بيده لأقضين بينكما بكتاب الله: الغنم والخادم رد عليك**»[(٤)] الحديث. وفي الصحيحين أن يعلى بن أمية كان يقول لعمر: ليتني أرى رسول الله ﷺ حين ينزل عليه الوحي، فلما كان بالجعرانة

---

(١) المؤمنون: الآية (٦٩). (٢) التكوير: الآية (٢٢).

(٣) النساء: الآية (١١٣).

(٤) أخرجه: أحمد (٤/ ١١٥-١١٦)، والبخاري (٥/ ٣٧٧/ ٢٦٩٥-٢٦٩٦)، ومسلم (٣/ ١٣٢٤-١٣٢٥/ ١٦٩٧-١٦٩٨)، وأبو داود (٤/ ٥٩١-٥٩٣/ ٤٤٤٥)، والترمذي (٤/ ٣٠-٣١/ ١٤٣٣)، والنسائي (٨/ ٦٣٢-٦٣٣/ ٥٤٢٥)، وابن ماجه (٢/ ٨٥٢/ ٢٥٤٩) كلهم من حديث أبي هريرة وزيد بن خالد رضي الله عنهما.

سأله رجل، فقال: كيف ترى في رجل أحرم بعمرة في جبته بعدما تضمخ بالخلوق؟ فنظر إليه النبي ﷺ ساعة ثم سكت، فجاء الوحي، فأشار عمر بيده إلى يعلى، فجاء، فأدخل رأسه، فإذا النبي ﷺ محرم يغط، ثم سري عنه، فقال: «**أين السائل آنفًا؟**» فجيء به، فقال: «**انزع عنك الجبة، واغسل أثر الطيب، واصنع في عمرتك ما تصنع في حجك**»[١] وقال الشافعي: أخبرنا مسلم عن ابن جريج عن أبي طاووس عن أبيه أن عنده كتابًا نزل به الوحي، وما فرض رسول اللّه ﷺ من صدقة وعقول فإنما نزل به الوحي. وذكر الأوزاعي عن حسان بن عطية قال: كان جبريل ينزل على رسول اللّه ﷺ بالسنة كما ينزل عليه بالقرآن يعلمه إياه. وذكر الأوزاعي أيضًا عن أبي عبيد، صاحب سليمان، أخبرني القاسم بن مخيمرة حدثني ابن فضيلة قال: قيل لرسول اللّه ﷺ: سعر لنا. قال: «**لا تسألني عن سنة أحدثها فيكم، لم يأمرني بها ولكن سلوا اللّه من فضله**»[٢] وابن فضيلة هذا يسمى طلحة، وقد صح عنه أنه قال: «**ألا إني أوتيت الكتاب ومثله معه**» وهذا هو السنة بلا شك، وقد قال تعالى: ﴿وَأَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ﴾[٣] وهما القرآن والسنة، وباللّه التوفيق»[٤].

قال السعدي في قوله: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلۡهَوَىٰٓ ۝٣ إِنۡ هُوَ إِلَّا وَحۡيٞ يُوحَىٰ ۝٤﴾ قال: «دل هذا على أن السنة وحي من اللّه لرسوله ﷺ، كما قال تعالى: ﴿وَأَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ﴾ وأنه معصوم فيما يخبر به عن اللّه تعالى وعن شرعه؛ لأن كلامه لا يصدر عن هوى، وإنما يصدر عن وحي يوحى»[٥].

قال القرطبي: «قد يحتج بهذه الآية من لا يجوز لرسول اللّه ﷺ الاجتهاد في الحوادث»[٦].

قال الألوسي بعد ذكره لبعض من يذهب هذا المذهب كأبي علي الجبائي وابنه

---

(١) أخرجه: أحمد (٤/ ٢٢٢-٢٢٤)، والبخاري (٣/ ٧٨٣/ ١٧٨٩)، ومسلم (٢/ ٨٣٦/ ١١٨٠)، وأبو داود (٢/ ٤٠٧/ ١٨١٩)، والترمذي (٣/ ١٩٦/ ٨٣٥-٨٣٦)، والنسائي (٥/ ١٣٩/ ٢٦٦٧). كلهم من حديث يعلى بن أمية.

(٢) ذكره الهيثمي في المجمع وعزاه للطبراني في الكبير وقال: «فيه بكر بن سهل الدمياطي ضعفه النسائي، ووثقه غيره، وبقية رجاله ثقات».

(٣) النساء: الآية (١١٣).

(٤) التبيان في أقسام القرآن (ص: ١٤٥-١٥٠).

(٥) تيسير الكريم الرحمن (٧/ ٢٠٤).

(٦) الجامع لأحكام القرآن (١٧/ ٨٥).

أبي هاشم، قال: «ووجه الاحتجاج أن اللَّه تعالى أخبر بأن جميع ما ينطق به وحي، وما كان عن اجتهاد ليس بوحي، فليس مما ينطق، وأجيب بأن اللَّه تعالى إذا سوغ له عليه الصلاة والسلام الاجتهاد كان الاجتهاد وما يسند إليه وحيًا لا نطقًا عن الهوى، وحاصله منع كبر القياس، واعترض عليه بأنه يلزم أن تكون الأحكام التي تستنبطها المجتهدون بالقياس وحيًا، وأجيب بأن النبي عليه الصلاة والسلام أوحي إليه أن يجتهد بخلاف غيره من المجتهدين، وقال القاضي البيضاوي: إنه حينئذ بالوحي لا وحي، وتعقبه صاحب «الكشف» بأنه غير قادح؛ لأنه بمنزلة أن يقول اللَّه تعالى لنبيه عليه الصلاة والسلام: متى ما ظننت بكذا فهو حكمي، أي: كل ما ألقيته في قلبك فهو مرادي، فيكون وحيًا حقيقة، والظاهر أن الآية واردة في أمر التنزيل بخصوصه، وإن كان مثله الأحاديث القدسية والاستدلال بها على أنه عليه الصلاة والسلام غير متعبد بالوحي محوج لارتكاب خلاف الظاهر، وتكلف في دفع نظر البيضاوي عليه الرحمة كما لا يخفى على المنصف، ولا يبعد عندي أن يحمل قوله تعالى: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝٣﴾ على العموم؛ فإن من يرى الاجتهاد له عليه الصلاة والسلام كالإمام أحمد وأبي يوسف عليهما الرحمة- لا يقول بأن ما ينطق به صلى اللَّه تعالى عليه وسلم مما أدى إليه اجتهاده صادر عن هوى النفس وشهوتها حاشا حضرة الرسالة عن ذلك، وإنما يقول: هو واسطة بين ذلك وبين الوحي، ويجعل الضمير في قوله سبحانه: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ﴾ للقرآن على أن الكلام جواب سؤال مقدر، كأنه قيل: إذا كان شأنه عليه الصلاة والسلام أنه ما ينطق عن الهوى، فما هذا القرآن الذي جاء به وخالف فيه ما عليه قومه، واستمال به قلوب كثير من الناس، وكثرت فيه الأقاويل؟ فقيل: ما هو إلا وحي يوحيه اللَّه عز وجل إليه صلى اللَّه تعالى عليه وسلم، فتأمل. وفي «الكشف» أن في قوله تعالى: ﴿وَمَا يَنطِقُ﴾ مضارعًا مع قوله سبحانه: ﴿مَا ضَلَّ﴾ ﴿وَمَا غَوَىٰ﴾ ما يدل على أنه عليه الصلاة والسلام حيث لم يكن له سابقة غواية وضلال منذ تميز وقبل تحنكه واستنبائه لم يكن له نطق عن الهوى، كيف وقد تحنك ونبئ! وفيه حث لهم على أن يشاهدوا منطقه الحكيم»[1].

---

(١) روح المعاني (٢٧/ ٤٦-٤٧).

قال القرطبي: «وفيها أيضًا دلالة على أن السنة كالوحي المنزل في العمل»[١].

قال صديق حسن خان: «وفي قوله: ﴿صَاحِبُكُمْ﴾ إشارة بأنهم المطلعون على حقيقة حاله، وعبر بالصحبة لأنها مع كونها أدل على القصد مرغبة لهم فيه، ومقبلة بهم ومقبحة عليهم اتهامه في إنذاره، وهم يعرفون طهارة شمائله»[٢].

قال الشنقيطي: «وما تضمنته هذه الآية الكريمة من كونه ﷺ على هدى مستقيم، جاء موضحًا في آيات كثيرة من كتاب الله، كقوله تعالى: ﴿فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ إِنَّكَ عَلَى ٱلْحَقِّ ٱلْمُبِينِ ۝٧٩﴾[٣]، وقوله تعالى: ﴿فَلَا يُنَٰزِعُنَّكَ فِى ٱلْأَمْرِ وَٱدْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ إِنَّكَ لَعَلَىٰ هُدًى مُّسْتَقِيمٍ﴾[٤]، وقوله تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾[٥].

وقد قدمنا الآيات الموضحة لهذا في سورة (الزخرف) في الكلام على قوله تعالى: ﴿فَٱسْتَمْسِكْ بِٱلَّذِىٓ أُوحِىَ إِلَيْكَ إِنَّكَ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ۝٤٣﴾[٦]، وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ ۝٤﴾ استدل به علماء الأصول على أن النبي ﷺ لم يكن يجتهد، والذين قالوا: إنه قد يقع منه الاجتهاد، استدلوا بقوله تعالى: ﴿عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ﴾[٧] الآية، وقوله تعالى: ﴿مَا كَانَ لِنَبِىٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾[٨] الآية، وقوله تعالى: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِىِّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن يَسْتَغْفِرُوا۟ لِلْمُشْرِكِينَ﴾[٩] الآية.

قالوا: فلو لم يكن هذا عن اجتهاد لما قال: ﴿عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ﴾ الآية، ولما قال: ﴿مَا كَانَ لِنَبِىٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ﴾، ولا منافاة بين الآيات؛ لأن قوله: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ ۝٤﴾ معناه أن النبي ﷺ لا يبلغ عن الله إلا شيئًا أوحى الله إليه أن يبلغه، فمن يقول: إنه شعر أو سحر أو كهانة، أو أساطير الأولين هو أكذب خلق الله وأكفرهم، ولا ينافي ذلك أنه أذن للمتخلفين عن غزوة تبوك، وأسر الأسارى يوم بدر، واستغفر لعمه أبي طالب من غير أن ينزل عليه وحي خاص في ذلك، وقد أوضحنا هذا في غير هذا الموضع»[١٠].

---

(١) الجامع لأحكام القرآن (١٧/ ٨٥).
(٢) فتح البيان (١٣/ ٢٤٤).
(٣) النمل: الآية (٧٩).
(٤) الحج: الآية (٦٧).
(٥) الشورى: الآية (٥٢).
(٦) الزخرف: الآية (٤٣).
(٧) التوبة: الآية (٤٣).
(٨) الأنفال: الآية (٦٧).
(٩) التوبة: الآية (١١٣).
(١٠) أضواء البيان (٧/ ٧٠٢).

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في بيان عصمة اللَّه لرسوله ﷺ عن الزلل في القول والعمل

* عن أبي هريرة رضي الله عنه قالوا: يا رسول الله! إنك تداعبنا، قال: «**إني لا أقول إلا حقًّا**»[١].

★ **غريب الحديث:**

تداعبنا: من الدعابة، أي: تمازحنا.

* عن عبداللَّه بن عمرو قال: «كنت أكتب كل شيء أسمعه من رسول اللَّه ﷺ أريد حفظه، فنهتني قريش، وقالوا: أتكتب كل شيء تسمعه، ورسول اللَّه ﷺ بشر يتكلم في الغضب والرضا؟ قال: فأمسكت عن الكتاب، فذكرت ذلك لرسول اللَّه ﷺ، فأومأ بأصبعه إلى فيه فقال: **اكتب فوالذي نفسي بيده ما خرج منه إلا حق**»[٢].

★ **فوائد الحديثين:**

في هذين الحديثين من الفوائد بيان عصمته ﷺ عن الزلل في القول والعمل[٣].

قال القاضي عياض: «فصل في عصمة النبي ﷺ في أقواله وأفعاله: وأما أقواله ﷺ فقامت الدلائل الواضحة بصحة المعجزة على صدقه، وأجمعت الأمة فيما كان طريقه البلاغ أنه معصوم فيه من الإخبار عن شيء منها بخلاف ما هو به، لا قصدًا وعمدًا، ولا سهوًا وغلطًا.

أما تعمد الخلف في ذلك فمنتف، بدليل المعجزة القائمة مقام قول اللَّه فيما قال اتفاقًا وبإطباق أهل الملة إجماعًا.

وأما وقوعه على جهة الغلط في ذلك فبهذه السبيل عند الأستاذ أبي إسحاق الإسفراييني ومن قال بقوله، ومن جهة الإجماع فقط، وورود الشرع بانتفاء ذلك،

---

(١) أخرجه: أحمد (٢/ ٣٤٠و٣٦٠)، والبخاري في «الأدب المفرد» (٢٦٥)، والترمذي (٤/ ٣١٤/ ١٩٩٠) وقال: «هذا حديث حسن صحيح».

(٢) أخرجه: أحمد (٢/ ١٦٢و١٩٢)، وأبو داود (٤/ ٦٠/ ٣٦٤٦)، والدارمي في سننه (١/ ١٢٥)، وصححه الحاكم (١/ ١٠٥ -١٠٦).

(٣) أفاده المناوي في «فيض القدير» (٣/ ١٣).

وعصمة النبي ﷺ لا من مقتضى المعجزة نفسها عند القاضي أبي بكر الباقلاني ومن وافقه لاختلاف بينهم في مقتضى دليل المعجزة لا نطول بذكره فنخرج عن غرض الكتاب، فلنعتمد على ما وقع عليه إجماع المسلمين أنه لا يجوز عليه خلف في القول في إبلاغ الشريعة، والإعلام بما أخبر به عن ربه، وما أوحاه إليه من وحيه، لا على وجه العمد، ولا على غير عمد، ولا في حالي الرضا والسخط، والصحة والمرض.

وفي حديث عبداللَّه بن عمرو: «**قلت: يا رسول الله! أكتب كل ما أسمع منك؟ قال: نعم. قلت: في الرضا والغضب؟ قال: نعم. فإني لا أقول في ذلك كله إلا حقًا**».

ولنرد ما أشرنا إليه من دليل المعجزة عليه بيانا فنقول: إذا قامت المعجزة على صدقه وأنه لا يقول إلا حقًا، ولا يبلغ عن اللَّه إلا صدقًا، وأن المعجزة قائمة مقام قول اللَّه له: صدقت فيما تذكره عني، وهو يقول: إني رسول اللَّه إليكم لأبلغكم ما أرسلت به إليكم، وأبين لكم ما نزل عليكم، ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ۝ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ۝﴾ و﴿قَدْ جَاءَكُمُ الرَّسُولُ بِالْحَقِّ مِن رَّبِّكُمْ﴾[1] و﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا﴾[2]، فلا يصح أن يوجد منه في هذا الباب خبر بخلاف مخبره على أي وجه كان.

ولو جوزنا عليه الغلط والسهو لما تميز لنا من غيره، ولا اختلط الحق بالباطل؛ فالمعجزة مشتملة على تصديقه جملة واحدة من غير خصوص، فتنزيه النبي عن ذلك كله واجب برهانًا وإجماعًا كما قاله ابن إسحاق»[3].

ثم أجاب رَحِمَهُ اللَّهُ تعالى بأجوبة شافية كافية عن سؤالات توجهت في هذا المقام لبعض الطاعنين على الإسلام. ثم ذكر -رحمه اللَّه تعالى- فصلًا في عصمته ﷺ وغيره من الأنبياء عليهم السلام من الفواحش والكبائر والموبقات والصغائر، وأشار إلى الخلاف الواقع في ذلك فقال: «قد علم من دين الصحابة قطعًا الاقتداء

---

(١) النساء: الآية (١٧٠).

(٢) الحشر: الآية (٧).

(٣) الشفا (٢/ ٧٤٥-٧٤٨).

بأفعال النبي ﷺ كيف توجهت ومن كل فن كالاقتداء بأقواله فقد نبذوا خواتيمهم حين نبذ خاتمه، وخلعوا نعالهم حين خلع، واحتجاجهم برؤية ابن عمر إياه جالسًا لقضاء حاجته مستقبلًا بيت المقدس.

واحتج غير واحد منهم في شيء مما بابه العبادة أو العادة بقوله: رأيت رسول اللَّه ﷺ يفعله، وقال: «**هلا خبرتيها أني أقبل وأنا صائم**»، وقالت عائشة محتجة: «**كنت أفعله أنا ورسول اللَّه ﷺ**». وغضب رسول اللَّه ﷺ على الذي أخبر بمثل هذا عنه، وقال: «**يحل اللَّه لرسوله ما يشاء، إني لأخشاكم لله وأعلمكم بحدوده**».

والآثار في هذا أكثر من أن نحيط عليها، لكنه يعلم من مجموعها على القطع اتباعهم أفعاله واقتداؤهم بها. ولو جوزوا عليه المخالفة في شيء منها لما اتسق هذا، ولنقل عنهم وظهر بحثهم عن ذلك، ولما أنكر ﷺ على الآخر قوله واعتذاره بما ذكرناه.

وأما المباحات فجائز وقوعها منهم، إذ ليس فيها قدح، بل هي مأذون فيها وأيديهم كأيدي غيرهم مسلطة عليها إلا أنهم بما خصوا به من رفيع المنزلة، وشرحت له صدورهم من أنوار المعرفة، واصطفوا به من تعلق هممهم باللَّه والدار الآخرة لا يأخذون من المباحات إلا الضرورات مما يتقوون به على سلوك طريقهم، وصلاح دينهم وضرورة دنياهم وما أخذ على هذه السبيل الْتَحَقَ طاعة، وصار قربة كما بينا منه أول الكتاب طرفا في خصال نبينا ﷺ فبان لك عظيم فضل اللَّه على نبينا وعلى سائر أنبيائه عليهم السلام بأن جعل أفعالهم قربات وطاعات بعيدة عن وجه المخالفة ورسم المعصية»[1].

قلت: ومن هذا الباب مزاحه ﷺ.

قال المناوي: «قيل لابن عيينة: المزاح سبة، فقال: بل سنة، ولكن من يحسنه، وإنما كان يمزح لأن الناس مأمورون بالتأسي به، والاقتداء بهديه، فلو ترك اللطافة والبشاشة، ولزم العبوس والقطوب، لأخذ الناس من أنفسهم بذلك على ما في

(١) الشفا (٢/ ٧٩٠-٧٩٢).

مخالفة الغريزة من الشفقة والعناء، فمزح ليمزحوا، ولا يناقض ذلك خبر: «**ما أنا من دد، ولا الدد مني**»[١]؛ فإن الدد: اللهو والباطل، وهو كان إذا مزح لا يقول إلا حقًّا، فمن زعم تناقض الحديثين من الفرق الزائغة فقد افترى»[٢].

* * *

---

(١) أخرجه: البخاري في الأدب المفرد (٧٨٥)، وذكره الهيثمي في المجمع (٨/ ٢٢٦)، وقال عنه: «رواه الطبراني عن محمد بن أحمد بن نصر الترمذي عن محمد بن عبدالوهاب الأزهري ولم أعرفهما، وبقية رجاله ثقات».

(٢) الفيض (٣/ ١٣). وانظر الكاشف (١٠/ ٣١٤٠).

قوله تعالى: ﴿عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلۡقُوَىٰ ۝٥ ذُو مِرَّةٖ فَٱسۡتَوَىٰ ۝٦ وَهُوَ بِٱلۡأُفُقِ ٱلۡأَعۡلَىٰ ۝٧ ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ ۝٨ فَكَانَ قَابَ قَوۡسَيۡنِ أَوۡ أَدۡنَىٰ ۝٩ فَأَوۡحَىٰٓ إِلَىٰ عَبۡدِهِۦ مَآ أَوۡحَىٰ ۝١٠﴾

★ **غريب الآية:**

مِرَّة: المِرَّةُ: القوة وشدة العقل.

الأفق: ناحية السماء. جمعه آفاق. وتسمى نواحي الأرض: آفاقًا. قال امرؤ القيس:

لقد طوفت في الآفاق حتى رضيت من الغنيمة بالإياب

تدلى: التدلي: الامتداد إلى جهة الأسفل.

قاب: قدر. والقاب والقاد والقيد: عبارة عن مقدار الشيء.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن القيم: «أخبر تعالى عن وصف من علمه الوحي والقرآن، مما يعلم أنه مضاد لأوصاف الشيطان معلم الضلال والغواية. فقال: ﴿عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلۡقُوَىٰ ۝٥﴾ وهذا نظير قوله: ﴿ذِي قُوَّةٍ عِندَ ذِي ٱلۡعَرۡشِ﴾[1] وذكرنا هناك السر في وصفه بالقوة.

وقوله: ﴿ذُو مِرَّةٖ﴾ أي: جميل المنظر حسن الصورة ذو جلالة، ليس شيطانًا أقبح خلق اللَّه وأشوههم صورة، بل هو من أجمل الخلق وأقواهم وأعظمهم أمانة ومكانة عند اللَّه. وهذا تعديل لسند الوحي والنبوة، وتزكية له. كما تقدم نظيره في سورة (التكوير). فوصفه بالعلم والقوة، وجمال المنظر وجلالته. وهذه كانت أوصاف الرسول البشري والملكي؛ فكان رسول اللَّه ﷺ أشجع الناس، وأعلمهم، وأجملهم، وأجلهم. والشياطين وتلامذتهم بضد من ذلك، فهم أقبح الخلق صورة

(١) التكوير: الآية (٢٠).

ومعنى، وأجهل الخلق، وأضعفهم هممًا ونفوسًا.

ثم ذكر استواء هذا المعلم بالأفق الأعلى، ودنوه وتدليه وقربه من رسول اللَّه ﷺ، وإيحاء اللَّه ما أوحى. فصور سبحانه لأهل الإيمان صورة الحال من نزول جبريل من عنده إلى أن استوى بالأفق، ثم دنا وتدلى، وقرب من رسوله، فأوحى إليه ما أمره اللَّه بإيحائه، حتى كأنهم يشاهدون صورة الحال ويعاينونها هابطًا من السماء إلى أن صار بالأفق الأعلى، مستويًا عليه، ثم نزل وقرب من محمد ﷺ وخاطبه بما أمره اللَّه به قائلًا: ربك يقول لك كذا وكذا. وأخبر سبحانه عن مسافة هذا القرب، بأنه قدر قوسين أو أدنى من ذلك، وليس هذا على وجه الشك، بل تحقيق لقدر المسافة، وأنها لا تزيد عن قوسين البتة، كما قال تعالى: ﴿وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَىٰ مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ ۝١٤٧﴾[1] تحقيق لهذا العدد، وأنهم لا ينقصون عن مائة ألف رجل واحدًا ونظيره قوله: ﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً﴾[2] أي: لا تنقص قسوتها عن قسوة الحجارة، بل إن لم تزد على قسوة الحجارة لم تكن دونها. وهذا المعنى أحسن وألطف وأدق من قول من جعل (أو) في هذه المواضع بمعنى (بل)، ومن قول من جعلها للشك بالنسبة إلى الرأي، وقول من جعلها بمعنى (الواو) فتأمله. انتهى»[3].

قال الشنقيطي في قوله: ﴿عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ الْقُوَىٰ ۝٥﴾: «هذه الآية الكريمة قد تضمنت أمرين:

أحدهما: أن هذا الوحي الذي من أعظمه هذا القرآن العظيم، علمه جبريل النبي ﷺ بأمر من اللَّه.

والثاني: أن جبريل شديد القوة. وهذان الأمران جاءا موضحين في غير هذا الموضع.

أما الأول منهما وهو كون جبريل نزل عليه بهذا الوحي وعلمه إياه، فقد جاء موضحًا في آيات من كتاب اللَّه كقوله تعالى: ﴿قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُۥ نَزَّلَهُۥ

---

(١) الصافات: الآية (١٤٧).

(٢) البقرة: الآية (٧٤).

(٣) التبيان في أقسام القرآن (ص: ١٥٠-١٥١).

عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾[١] الآية، وقوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٩٢﴾ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾﴾[٢]، وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَعْجَلْ بِٱلْقُرْءَانِ مِن قَبْلِ أَن يُقْضَىٰٓ إِلَيْكَ وَحْيُهُۥ﴾[٣]، وقوله تعالى: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ ﴿١٦﴾ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ ﴿١٧﴾ فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ ﴿١٨﴾﴾[٤] أي: إذا قرأه عليك الملك المرسل به إليك منّا مبلغًا له عنّا فاتبع قرآنه، أي: اقرأ كما سمعته يقرأ.

وأما الأمر الثاني؛ وهو شدة قوة جبريل النازل بهذا الوحي، فقد ذكره في قوله: ﴿إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿١٩﴾ ذِى قُوَّةٍ عِندَ ذِى ٱلْعَرْشِ مَكِينٍ ﴿٢٠﴾﴾[٥]، وقوله في آية (التكوير) هذه: ﴿لَقَوْلُ رَسُولٍ﴾ أي: لقوله المبلغ له عن اللَّه، فقرينة ذكر الرسول تدل على أنه إنما يبلغ شيئًا أرسل به، فالكلام كلام اللَّه بألفاظه ومعانيه، وجبريل مبلغ عن اللَّه، وبهذا الاعتبار نسب القول له؛ لأن النبي ﷺ ما سمعه إلا منه، فهو القول الذي أرسله اللَّه، وأمره بتبليغه، كما تدل عليه قرينة ذكر الرسول، وسيأتي إيضاح هذه المسألة إن شاء اللَّه في سورة (التكوير)، والعلم عند اللَّه تعالى»[٦].

قال ابن كثير: «وقوله: ﴿أَوْ أَدْنَىٰ﴾: قد تقدم أن هذه الصيغة تستعمل في اللغة لإثبات المخبر عنه ونفي ما زاد عليه، كقوله: ﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَهِىَ كَٱلْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً﴾[٧]، أي: ما هي بألين من الحجارة، بل هي مثلها أو تزيد عليها في الشدة والقسوة. وكذا قوله: ﴿يَخْشَوْنَ ٱلنَّاسَ كَخَشْيَةِ ٱللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً﴾[٨]، وقوله: ﴿وَأَرْسَلْنَٰهُ إِلَىٰ مِا۟ئَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ ﴿١٤٧﴾﴾[٩]، أي: ليسوا أقل منها، بل هم مائة ألف حقيقة، أو يزيدون عليها. فهذا تحقيق للمخبر به لا شك ولا تردد، فإن هذا ممتنع هاهنا، وهكذا هذه الآية: ﴿فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ ﴿٩﴾﴾»[١٠].

قال الرازي: «وقوله: ﴿شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ﴾ فيه فوائد:

الأولى: أن مدح المعلم مدح المتعلم، فلو قال: علمه جبريل ولم يصفه ما كان يحصل للنبي ﷺ فضيلة ظاهرة.

---

(١) البقرة: الآية (٩٧).
(٢) الشعراء: الآيات (١٩٢-١٩٤).
(٣) طه: الآية (١١٤).
(٤) القيامة: الآيات (١٦-١٨).
(٥) التكوير: الآيتان (١٩و٢٠).
(٦) أضواء البيان (٧/ ٧٠٣).
(٧) البقرة: الآية (٧٤).
(٨) النساء: الآية (٧٧).
(٩) الصافات: الآية (١٤٧).
(١٠) تفسير القرآن العظيم (٧/ ٤٢٢).

الثانية: هي أن فيه ردًا عليهم حيث قالوا: أساطير الأولين سمعها وقت سفره إلى الشام، فقال: لم يعلمه أحد من الناس، بل معلمه شديد القوى، والإنسان خلق ضعيفًا، وما أوتي من العلم إلا قليلًا.

الثالثة: فيه وثوق بقول جبريل عليه السلام، فقوله تعالى: ﴿عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ ۝٥﴾ جمع ما يوجب الوثوق؛ لأن قوة الإدراك شرط الوثوق بقول القائل؛ لأنا إن ظننا بواحد فساد ذهن، ثم نقل إلينا عن بعض الأكابر مسألة مشكلة لا نثق بقوله ونقول: هو ما فهم ما قال، وكذلك قوة الحفظ حتى لا نقول: أدركها لكن نسيها، وكذلك قوة الأمانة حتى لا نقول: حرفها وغيّرها، فقال: ﴿شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ﴾ ليجمع هذه الشرائط فيصير كقوله تعالى: ﴿ذِى قُوَّةٍ عِندَ ذِى ٱلْعَرْشِ مَكِينٍ ۝٢٠﴾ إلى أن قال: ﴿أَمِينٍ﴾[1]»[2].

استشهد أبو إسماعيل الهروي في منازل السائرين بقوله تعالى: ﴿ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ ۝٨ فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ ۝٩﴾ في باب الاتصال من منزلة السر.

قال ابن القيم رحمه الله: «كأن الشيخ فهم من الآية: أن الذي دنا فتدلى، فكان من محمد ﷺ قاب قوسين أو أدنى هو اللَّه عز وجل. وهذا -وإن قاله جماعة من المفسرين- فالصحيح أن ذلك هو جبريل عليه الصلاة والسلام، فهو الموصوف بما ذكر من أول السورة إلى قوله: ﴿وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ۝١٣ عِندَ سِدْرَةِ ٱلْمُنتَهَىٰ ۝١٤﴾[3] هكذا فسره النبي ﷺ في الحديث الصحيح، قالت عائشة رضي الله عنها: سألت رسول اللَّه ﷺ عن هذه الآية؟ فقال: «**جبريل، لم أره في صورته التي خُلق عليها إلا مرتين**»، ولفظ القرآن لا يدل على غير ذلك من وجوه:

أحدها: أنه قال: ﴿عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ ۝٥﴾ وهذا جبريل الذي وصفه اللَّه بالقوة في سورة (التكوير)، فقال: ﴿إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ۝١٩ ذِى قُوَّةٍ عِندَ ذِى ٱلْعَرْشِ مَكِينٍ ۝٢٠﴾.

الثاني: أنه قال: ﴿ذُو مِرَّةٍ﴾ أي: حسن الخلق، وهو الكريم المذكور في (التكوير).

الثالث: أنه قال: ﴿فَٱسْتَوَىٰ ۝٦ وَهُوَ بِٱلْأُفُقِ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ وهو ناحية السماء العليا،

---

(١) التكوير: الآيتان (٢٠و٢١).

(٢) مفاتيح الغيب (٢٨/ ٢٨٥).

(٣) النجم: الآيتان (١٣و١٤).

وهذا استواء جبريل بالأفق الأعلى، وأما استواء الرب جل جلاله فعلى عرشه.

الرابع: أنه قال: ﴿ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ ۝٨ فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ ۝٩﴾ فهذا دنو جبريل وتدليه إلى الأرض، حيث كان رسول اللَّه ﷺ. وأما الدنو والتدلي في حديث المعراج، فرسول اللَّه ﷺ كان فوق السموات. فهناك دنا الجبار جل جلاله منه وتدلى. فالدنو والتدلي في الحديث: غير الدنو والتدلي في الآية، وإن اتفقا في اللفظ.

الخامس: أنه قال: ﴿وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ۝١٣ عِندَ سِدْرَةِ ٱلْمُنتَهَىٰ ۝١٤﴾ والمرئي عند السدرة: هو جبريل قطعًا. وبهذا فسره النبي ﷺ، فقال لعائشة: **«ذاكِ جبريل»**.

السادس: أن مفسر الضمير في قوله: ﴿وَلَقَدْ رَءَاهُ﴾ وفي قوله: ﴿ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ ۝٨﴾ وفي قوله: ﴿فَٱسْتَوَىٰ﴾ وفي قوله: ﴿وَهُوَ بِٱلْأُفُقِ ٱلْأَعْلَىٰ ۝٧﴾ واحد. فلا يجوز أن يخالف بين المفسر والمفسَّر من غير دليل.

السابع: أنه سبحانه ذكر في هذه السورة الرسولين الكريمين: الملكي والبشري. ونزه البشرى عن الضلال والغواية، ونزه الملكي عن أن يكون شيطانًا قبيحًا ضعيفًا؛ بل هو قوي كريم حسن الخلق. وهذا نظير الوصف المذكور في سورة (التكوير) سواء.

الثامن: أنه أخبر هناك: أنه ﴿رَءَاهُ بِٱلْأُفُقِ ٱلْمُبِينِ﴾[1] وهاهنا أخبر: أنه رآه ﴿بِٱلْأُفُقِ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ وهو واحد، وُصف بصفتين. فهو (مبين) وهو (أعلى) فإن الشيء كلما علا، بان [و]ظهر.

التاسع: أنه قال: ﴿ذُو مِرَّةٍ﴾ والمرّة: الخلق الحسن المحكم. فأخبر عن حسن خلق الذي علّم النبي ﷺ. ثم ساق الخبر كله عنه نسقًا واحدًا.

العاشر: أنه لو كان خبرًا عن الرب تعالى لكان القرآن قد دل على أن رسول اللَّه ﷺ رأى ربه سبحانه مرتين: مرة بالأفق، ومرة عند السدرة. ومعلوم أن الأمر لو كان كذلك لم يقل النبي ﷺ لأبي ذر -وقد سأله: هل رأيت ربك؟- فقال: **«نور، أنّى أراه؟»** فكيف يخبر القرآن أنه رآه مرتين، ثم يقول رسول اللَّه ﷺ: **«أنّى أراه؟»** وهذا

(١) التكوير: الآية (٢٣).

أبلغ من قوله: لم أره؛ لأنه -مع النفي- يقتضي الإخبار عن عدم الرؤية فقط، وهذا يتضمن النفي وطرفًا من الإنكار على السائل. كما إذا قال لرجل: هل كان كيت وكيت؟ فيقول: كيف يكون ذلك؟

الحادي عشر: أنه لم يتقدم للرب ﷻ ذكر يعود الضمير عليه في قوله: ﴿ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ ۝٨﴾ والذي يعود الضمير عليه: لا يصلح له؛ وإنما هو لعبده.

الثاني عشر: أنه كيف يعود الضمير إلى ما لم يذكر، ويترك عوده إلى المذكور مع كونه أولى به؟.

الثالث عشر: أنه قد تقدم ذكر (صاحبكم) وأعاد عليه الضمائر التي تليق به. ثم ذكر بعده شديد القوى ذا المِرّة، وأعاد عليه الضمائر التي تليق به. والخبر كله عن هذين المفسرين، وهما الرسول الملكي، والرسول البشري.

الرابع عشر: أنه سبحانه أخبر أن هذا الذي دنا فتدلى كان بالأفق الأعلى، وهو أفق السماء؛ بل هو تحتها قد دنا من رسول رب العالمين ﷺ، ودنوّ الرب تعالى وتدلّيه على ما في حديث شريك- كان من فوق العرش لا إلى الأرض.

الخامس عشر: أنهم لم يماروه صلوات اللَّه وسلامه عليه- على رؤية ربه، ولا أخبرهم بها، لتقع مماراتهم له عليها. وإنما ماروه على رؤية ما أخبرهم من الآيات التي أراه اللَّه إياها. ولو أخبرهم [أنه رأى] الرب تعالى لكانت مماراتهم له عليها أعظم من مماراتهم على رؤية المخلوقات.

السادس عشر: أنه سبحانه قرر صحة ما رآه الرسول ﷺ، وأن مماراتهم له على ذلك باطلة بقوله: ﴿لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِ ٱلْكُبْرَىٰٓ ۝١٨﴾[1]، فلو كان المرئي هو الرب ﷻ، والمماراة على ذلك منهم: لكان تقرير تلك الرؤية أولى، والمقام إليها أحوج، واللَّه أعلم»[2].

وقال رَحِمَهُ اللَّهُ: «قوله: ﴿مَآ أَوْحَىٰ﴾ أبهمه لعظمه؛ فإن الإبهام قد يقع للتعظيم؛ ونظيره قوله تعالى: ﴿فَغَشِيَهُم مِّنَ ٱلْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ﴾[3] أي: أمر عظيم فوق الصفة»[4].

---

(١) النجم: الآية (١٨).

(٢) مدارج السالكين (٣/ ٣١٩-٣٢٢).

(٣) طه: الآية (٧٨).

(٤) المصدر السابق (٣/ ٢٢١).

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في صفة جبريل عليه السلام

* عن عبدالله عن النبي ﴿وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ۝١٣﴾ قال: «**رأيت جبريل عليه السلام عند السدرة له ستمائة جناح يتناثر منها تهاويل الدر**»(١).

★ غريب الحديث:

تهاويل الدر: أي: الأشياء المختلفة الألوان، ومنه يقال لما يخرج في الرياض من ألوان الزَّهر: التهاويل، وكذلك لما يعلق على الهوادج من ألوان العِهْن والزينة، وكأن واحدها: تَهوال، وأصلها مما يهول الإنسان ويحيره(٢).

★ فوائد الحديث:

أورد الحافظ ابن كثير هذا الحديث في معرض الانتصار والاحتجاج للقول بأن المقصود بقوله تعالى: ﴿وَهُوَ بِٱلْأُفُقِ ٱلْأَعْلَىٰ ۝٧﴾ جبريل عليه السلام.

قال ابن كثير: «وقوله تعالى: ﴿فَٱسْتَوَىٰ﴾ يعني جبريل عليه السلام، قال الحسن ومجاهد وقتادة والربيع بن أنس: ﴿وَهُوَ بِٱلْأُفُقِ ٱلْأَعْلَىٰ ۝٧﴾ يعني جبريل استوى في الأفق الأعلى، قاله عكرمة وغير واحد، قال عكرمة: والأفق الأعلى يأتي منه الصبح، وقال مجاهد: هو مطلع الشمس، وقال قتادة: هو الذي يأتي منه النهار، وكذا قال ابن زيد وغيرهم..

وقد قال ابن جرير هاهنا قولًا لم أره لغيره، ولا حكاه هو عن أحد، وحاصله أنه ذهب إلى أن المعنى ﴿فَٱسْتَوَىٰ﴾ أي: هذا الشديد القوي ذو المرة هو ومحمد ﷺ بالأفق الأعلى، أي استويا جميعًا بالأفق الأعلى، وذلك ليلة الإسراء، كذا قال، ولم يوافقه أحد على ذلك، ثم شرع يوجه ما قاله من حيث العربية فقال: وهو كقوله: ﴿أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبًا وَءَابَآؤُنَآ﴾(٣)، فعطف بالآباء على المكنى في (كنا) إظهار نحن، فكذلك قوله: ﴿فَٱسْتَوَىٰ ۝٦ وَهُوَ بِٱلْأُفُقِ ٱلْأَعْلَىٰ﴾، قال: وذكر الفراء عن بعض العرب أنه أنشده:

---

(١) أخرجه: أحمد (١/ ٣٩٥و٤١٢و٤٦٠)، وأبو يعلى (٨/ ٤٠٩-٤١٠/ ٤٩٩٣)، والنسائي في الكبرى (٦/ ٤٧٣/ ١١٥٤٢)، وصححه ابن حبان (الإحسان ١٤/ ٣٣٧/ ٦٤٢٨).

(٢) النهاية (٥/ ٢٨٣).

(٣) النمل: الآية (٦٧).

ألم تر أن النبع يصلب عوده ولا يستوي والخروع المتقصف

وهذا الذي قاله من جهة العربية، ولكن لا يساعده المعنى على ذلك؛ فإن هذه الرؤية لجبريل لم تكن ليلة الإسراء، بل قبلها، ورسول الله ﷺ في الأرض، فهبط عليه جبريل عليه السلام، وتدلى إليه، فاقترب منه وهو على الصورة التي خلقه الله عليها، له ستمائة جناح، ثم رآه بعد ذلك نزلة أخرى، عند سدرة المنتهى، يعني ليلة الإسراء، وكانت هذه الرؤية الأولى في أوائل البعثة بعدما جاءه جبريل عليه السلام أول مرة، فأوحى الله إليه صدر سورة ﴿ٱقۡرَأۡ﴾، ثم فتر الوحي فترة ذهب النبي ﷺ فيها مرارًا ليتردى من رؤوس الجبال، فكلما هم بذلك ناداه جبريل من الهواء: يا محمد! أنت رسول الله حقًّا، وأنا جبريل، فيسكن لذلك جأشه، وتقر عينه، وكلما طال عليه الأمر عاد لمثلها، حتى تبدى له جبريل، ورسول الله ﷺ بالأبطح في صورته التي خلقه الله عليها له ستمائة جناح قد سد عظم خلقه الأفق، فاقترب منه وأوحى إليه عن الله ﷻ ما أمره به، فعرف عند ذلك عظمة الملك الذي جاءه بالرسالة، وجلالة قدره، وعلو مكانته عند خالقه الذي بعثه إليه»[1].

* عن الشيباني قال: سألت زر بن حبيش عن قول الله عز وجل: ﴿فَكَانَ قَابَ قَوۡسَيۡنِ أَوۡ أَدۡنَىٰ ۝٩﴾ قال: «أخبرني ابن مسعود أن النبي ﷺ رأى جبريل له ستمائة جناح»[2].

★ **فوائد الحديث:**

قال ابن هبيرة بعد ذكره للألفاظ المروية عن ابن مسعود في هذا الحديث داخل الصحيحين: «مجموع هذا الحديث أنه حكاية عما كان يراه عبدالله بن مسعود في هذه الآيات، وإلا ففي أحاديث أخر أن محمدًا ﷺ رأى ربه عز وجل، ونص القرآن على ذلك»[3].

قال الحافظ: «والحاصل أن ابن مسعود كان يذهب في ذلك إلى أن الذي رآه

---

(١) التفسير (٧/ ٤١٩-٤٢٠).

(٢) أخرجه: البخاري (٦/ ٣٨٥/ ٣٢٣٢)، ومسلم (١/ ١٥٨/ ١٧٤)، والترمذي (٥/ ٣٦٧/ ٣٢٧٧)، وقال: «حسن غريب صحيح»، النسائي في الكبرى (٦/ ٤٧٢/ ١١٥٣٤).

(٣) الإفصاح (٢/ ٤٦).

النبي ﷺ هو جبريل، كما ذهبت إلى ذلك عائشة، والتقدير على رأيه: ﴿فَأَوْحَىٰ﴾ أي: جبريل ﴿إِلَىٰ عَبْدِهِۦ﴾ أي: عبدالله محمد؛ لأنه يرى أن الذي ﴿دَنَا فَتَدَلَّىٰ﴾ هو جبريل، وأنه هو الذي أوحى إلى محمد، وكلام أكثر المفسرين من السلف يدل على أن الذي أوحى هو الله، أوحى إلى عبده محمد، ومنهم من قال: إلى جبريل»[1].

* * *

(١) فتح الباري (٨/ ٧٨٦).

قوله تعالى: ﴿مَا كَذَبَ ٱلْفُؤَادُ مَا رَأَىٰٓ ﴿١١﴾﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن القيم: «ثم أخبر تعالى عن تصديق فؤاده لما رأته عيناه، وأن القلب صدق العين، وليس كمن رأى شيئًا على خلاف ما هو به، فكذب فؤاده وبصره، بل ما رآه ببصره صدقه الفؤاد وعلم أنه كذلك. وفيها قراءتان: إحداهما بتخفيف كذب، والثانية بتشديدها، يقال: كذبته عينه وكذبه قلبه وكذبه جسده: إذا أخلف ما ظنه وحدسه؛ قال الشاعر:

كذبتك عينك، أم رأيت بواسط غلس الظلام من الرباب خيالا

أي: أرتك ما لا حقيقة له. فنفى هذا عن رسوله، وأخبره أن فؤاده لم يكذب ما رآه، و(ما) إما أن تكون مصدرية، فيكون المعنى: ما كذب فؤاده رؤيته، وإما أن تكون موصولة، فيكون المعنى: ما كذب الفؤاد الذي رآه بعينه. وعلى التقديرين فهو إخبار عن تطابق رؤية القلب لرؤية البصر، وتوافقهما، وتصديق كل منهما لصاحبه. وهذا ظاهر جدًّا في قراءة التشديد. وقد استشكلها طائفة منهم المبرد، وقال: في هذه القراءة بعد. قال: لأنه إذا رأى بقلبه فقد علمه أيضًا بقلبه، وإذا وقع العلم فلا كذب معه؛ فإنه إذا كان الشيء في القلب معلومًا، فكيف يكون معه تكذيب؟

قلت: وجواب هذا من وجهين: أحدهما: أن الرجل قد يتخيل الشيء على خلاف ما هو به فيكذبه قلبه، إذ يريه صورة المعلوم على خلاف ما هي عليه، كما تكذبه عينه، فيقال: كذبه قلبه، وكذبه ظنه، وكذبته عينه. فنفى سبحانه ذلك عن رسوله، وأخبر أن ما رآه الفؤاد فهو كما رآه، كمن رأى الشيء على حقيقة ما هو به؛ فإنه يصح أن يقال: لم تكذبه عينه.

الثاني: أن يكون الضمير في ﴿رَءَا﴾ عائدًا إلى الرأي لا إلى الفؤاد، ويكون المعنى: ما كذب الفؤاد ما رآه البصر. وهذا بحمد الله لا إشكال فيه. والمعنى ما

كذب الفؤاد ما رآه بالبصر، بل صدقه. وعلى القراءتين فالمعنى: ما أوهمه الفؤاد أنه رأى ولم ير، ولا اتهم بصره»[١].

فصل في بيان اختلاف الصحابة ﷺ ومن جاء بعدهم من أهل التأويل في المراد بالذي لم يكذب فؤاد النبي ﷺ رؤيته

* عن ابن مسعود ﷺ في قوله: ﴿مَا كَذَبَ ٱلْفُؤَادُ مَا رَأَىٰٓ ۝١١﴾ قال: «رأى ﷺ جبريل في حلة من رفرف أخضر، قد ملأ ما بين السماء والأرض»[٢].

★ غريب الحديث:

رفرف: أي: بساطًا، وقيل: فراشًا، أراد شيئًا كان يحجب بينه وبين الأفق[٣].

* عن ابن عباس في قوله: ﴿مَا كَذَبَ ٱلْفُؤَادُ مَا رَأَىٰٓ ۝١١﴾ ﴿وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ۝١٣﴾[٤] قال: «رآه بفؤاده مرتين»[٥].

★ فوائد الحديثين:

في هذين الأثرين من الفوائد: اختلاف الصحابة ﷺ في الذي لم يكذب فؤاد النبي ﷺ رؤيته في هذه الآية. قال ابن جرير: «اختلف أهل التأويل في الذي رآه فؤاده فلم يكذبه، فقال بعضهم: الذي رآه فؤاده رب العالمين، وقالوا: جعل بصره في فؤاده، فرآه بفؤاده ولم يره بعينه»[٦].

قلت: وهو قول ابن عباس وأبي صالح والسدي وغيرهما.

قال ابن كثير: «وفي رواية عنه أنه أطلق الرؤية وهي محمولة على المقيدة

---

(١) التبيان في أقسام القرآن (ص: ١٥١).

(٢) أخرجه: أحمد (١/ ٣٩٤و٤١٨)، والترمذي (٥/ ٣٦٩/ ٣٧٠٢)، وقال: «حديث حسن صحيح»، والنسائي في الكبرى (٦/ ٤٧٣/ ١١٥٤١)، وصححه ابن حبان (الإحسان ١/ ٣٥٥-٣٥٦/ ٥٩)، والحاكم (٢/ ٤٦٨-٤٦٩) على شرط الشيخين ووافقه الذهبي. وهو عند البخاري مختصراً (٨/ ٧٨٦/ ٤٨٥٨) عن عبدالله بن مسعود ﷺ: ﴿لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِ ٱلْكُبْرَىٰٓ ۝١٨﴾ قال: «رأى رفرفاً أخضر قد سد الأفق».

(٣) النهاية (٢/ ٢٤٣).

(٤) النجم: الآية (١٣).

(٥) أخرجه: أحمد (١/ ٢٢٣)، ومسلم (١/ ١٥٨/ ١٧٦[٢٨٥])، والنسائي في الكبرى (٦/ ٤٧٢/ ١١٥٣٥).

(٦) جامع البيان (٢٧/ ٤٧).

بالفؤاد، ومن روى عنه بالبصر فقد أغرب؛ فإنه لا يصح في ذلك شيء عن الصحابة ﷺ، وقول البغوي في تفسيره: وذهب جماعة إلى أنه رآه بعينه وهو قول أنس والحسن وعكرمة، فيه نظر، والله أعلم»[١].

قال ابن جرير: «وقال آخرون: بل الذي رآه فؤاده فلم يكذبه جبريل عليه السلام»[٢]. ثم رواه عن ابن مسعود وقتادة.

قال السعدي: «ولكن الصحيح.. أن المراد به جبريل عليه السلام، كما يدل عليه السياق، وأن محمدًا ﷺ رأى جبريل في صورته الأصلية التي هو عليها مرتين: مرة في الأفق الأعلى، تحت السماء الدنيا كما تقدم، والمرة الثانية فوق السماء السابعة ليلة أسري برسول الله ﷺ، ولهذا قال: ﴿وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ﴿١٣﴾﴾[٣] أي: رأى محمد جبريل مرة أخرى نازلًا إليه»[٤].

وإلى هذا المعنى ذهب الإمام ابن خزيمة، فقال بعد ذكره أثر ابن عباس: «احتج بعض أصحابنا بهذا الخبر أن ابن عباس رضي الله عنهما وأبا ذر كانا يتأولان هذه الآية أن النبي ﷺ رأى ربه بفؤاده؛ لقوله بعد ذكر ما بينا: ﴿فَأَوْحَىٰٓ إِلَىٰ عَبْدِهِۦ مَآ أَوْحَىٰ ﴿١٠﴾ مَا كَذَبَ ٱلْفُؤَادُ مَا رَأَىٰٓ ﴿١١﴾﴾. وتأول أن قوله: ﴿ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ ﴿٨﴾﴾ إلى قوله: ﴿فَأَوْحَىٰٓ إِلَىٰ عَبْدِهِۦ مَآ أَوْحَىٰ ﴿١٠﴾﴾ أن النبي ﷺ دنا من خالقه عز وجل قاب قوسين أو أدنى، وأن الله عز وجل أوحى إلى النبي ﷺ ما أوحى، وأن فؤاد النبي ﷺ لم يكذب ما رأى يعنون رؤيته خالقه -جل وعلا-.

وليس هذا التأويل الذي تأولوه لهذه الآية بالبين، وفيه نظر؛ لأن الله إنما أخبر في هذه الآية أنه رأى من آيات ربه الكبرى، ولم يعلم الله في هذه الآية أنه رأى ربه -جل وعلا-، وآيات ربنا ليس هو ربنا -جل وعلا-، فتفهموا لا تغالطوا في تأويل هذه الآية»[٥].

---

(١) التفسير (٧/ ٤٢٣-٤٢٤).
(٢) جامع البيان (٢٧/ ٤٩).
(٣) النجم: الآية (١٣).
(٤) تيسير الكريم الرحمن (٧/ ٢٠٦).
(٥) كتاب التوحيد (٢/ ٤٩٢).

ثم قال: «والدليل على صحة ما ذكرت أن آيات ربنا الكبرى غير جائز أن يتأول أن آيات ربنا هي ربنا . . فأخبار ابن مسعود دالة على أن قوله: ﴿لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِ ٱلْكُبْرَىٰٓ ۝١٨﴾[1] تأويله: أي: رأى جبريل على الصفة التي ذكرت في هذه الأخبار»[2].

* * *

(١) النجم: الآية (١٨).

(٢) كتاب التوحيد (٢/ ٥٠٨).

قوله تعالى: ﴿أَفَتُمَٰرُونَهُۥ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ ۝١٢﴾

★ غريب الآية:

أفتمارونه: أي: أفتجادلونه. والمراء: الجدال. قال الشاعر:

وإياك إياك المراء فإنه ... إلى الشر دَعَّاءٌ وللشر جَالِبُ

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن القيم: «ثم أنكر سبحانه عليهم مكابرتهم وجحدهم له على ما رآه، كما ينكر على الجاهل مكابرته للعالم ومماراته له على ما علمه. وفيها قراءتان: (أفتمارونه) و(أفتمرونه) وهذه المماراة أصلها من الجحد والدفع، يقول: مريت الرجل حقه: إذا جحدته، كما قال الشاعر:

لئن هجرت أخا صدق ومكرمة ... لقد مريت أخا ما كان يمريكا

ومنه المماراة، وهي المجادلة والمكابرة. ولهذا عدى هذا الفعل بـ(على) وهي على بابها، وليست بمعنى (عن) كما قاله المبرد، بل الفعل متضمن معنى المكابرة. وهذا في قراءة الألف أظهر، ورجح أبو عبيدة قراءة من قرأ: ﴿أَفَتُمَٰرُونَهُۥ﴾ قال: وذلك أن المشركين إنما شأنهم الجحود لما كان يأتيهم من الوحي، وهذا كان أكثر من المماراة منهم، يعني أن من قرأ: ﴿أَفَتُمَٰرُونَهُۥ﴾ فمعناه: أفتجادلونه؟ ومن قرأ: أفتمرونه معناه أفتجحدونه، وجحودهم لما كان هو جحدهم، وكان أكثر من مجادلتهم له، وخالفه أبو علي وغيره واختاروا قراءة: أفتمرونه، قال أبو علي: من قرأ أفتمارونه، فمعناه: أفتجادلونه جدالا ترومون به دفعه عما علمه وشاهده، ويقوي هذا الوجه قوله تعالى: ﴿يُجَٰدِلُونَكَ فِي ٱلْحَقِّ بَعْدَمَا تَبَيَّنَ﴾[1] ومن قرأ: أفتمرونه كان المعنى: أفتجحدونه؟ قال: والمجادلة كأنها أشبه في هذا؛ لأن الجحود كان منهم في هذا وغيره. وقد جادله المشركون في الإسراء.

(١) الأنفال: الآية (٦).

قلت: القوم جمعوا بين الجدال والدفع والإنكار. فكان جدالهم جدال جحود ودفع لا جدال استرشاد وتبين الحق، وإثبات الألف يدل على المجادلة، والإتيان بـ(على) يدل على المكابرة، فكانت قراءة الألف منتظمة للمعنيين جميعًا، فهي أولى، وبالله التوفيق»[1].

قال القاسمي: «أي: أفتجادلونه وتلاحونه على ما يراه معاينة من رؤية الملك المنزل عليه.

قال القاشاني: أي: أفتخاصمونه على شيء لا تفهمونه ولا يمكنكم معرفته وتصوره، فكيف يمكنكم إقامة الحجة عليه؟ وإنما المخاصمة حيث يمكن تصور الأمر المختلف فيه، ثم الاحتجاج عليه بالنفي والإثبات، فحيث لا تصور، فلا مخاصمة حقيقة. انتهى. وذلك لأن رؤية الملك وتنزله حالة خاصة بالنبي ﷺ وإخوانه الأنبياء عليهم السلام، لا يمكن لغيرهم اكتناهها، وإنما عليهم الإيمان بها، والإذعان لها، لقيام الدليل عليها. وبالجملة، فالمراد أنه لا يصح المجادلة في المرئي؛ لأنه لا يجوز الجدال في المحسوسات، لا سيما إذا تعددت المشاهدة لها»[2].

* * *

(١) التبيان في أقسام القرآن (ص: ١٥١-١٥٢).
(٢) محاسن التأويل (١٥/ ٢٣٠).

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ﴿١٣﴾ عِندَ سِدْرَةِ ٱلْمُنتَهَىٰ ﴿١٤﴾ عِندَهَا جَنَّةُ ٱلْمَأْوَىٰٓ ﴿١٥﴾﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن كثير: «هذه هي المرة الثانية التي رأى رسول اللَّه ﷺ فيها جبريل على صورته التي خلقه اللَّه عليها، وكانت ليلة الإسراء. وقد قدمنا الأحاديث الواردة في الإسراء بطرقها وألفاظها في أول سورة (سبحان) بما أغنى عن إعادته هاهنا، وتقدم أن ابن عباس رضي الله عنهما، كان يثبت الرؤية ليلة الإسراء، ويستشهد بهذه الآية. وتابعه جماعة من السلف والخلف، وقد خالفه جماعات من الصحابة رضي الله عنهم والتابعين وغيرهم»[١].

قال السعدي: «﴿وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ﴿١٣﴾﴾ أي: رأى محمد جبريل مرة أخرى، نازلًا إليه. ﴿عِندَ سِدْرَةِ ٱلْمُنتَهَىٰ ﴿١٤﴾﴾ وهي شجرة عظيمة جدًّا فوق السماء السابعة، سميت سدرة المنتهى؛ لأنه ينتهي إليها ما يعرج من الأرض، وينزل إليها ما ينزل من اللَّه، من الوحي وغيره، أو لانتهاء علم الخلق إليها، أي: لكونها فوق السموات والأرض، فهي المنتهى في علوها، أو لغير ذلك، واللَّه أعلم.

فرأى محمد ﷺ جبريل في ذلك المكان، الذي هو محل الأرواح العلوية الزاكية الجميلة، التي لا يقربها شيطان ولا غيره من الأرواح الخبيثة. عند تلك الشجرة ﴿جَنَّةُ ٱلْمَأْوَىٰٓ﴾ أي: الجنة الجامعة لكل نعيم، بحيث كانت محلاً تنتهي إليه الأماني، وترغب فيه الإرادات، وتأوي إليها الرغبات، وهذا دليل على أن الجنة في أعلى الأماكن، وفوق السماء السابعة»[٢].

قال ابن القيم: «ولما ذكر رؤيته لجبريل عند سدرة المنتهى استطرد منها، وذكر أن جنة المأوى عندها، وأنه يغشاها من أمره وخلقه ما يغشى، وهذا من أحسن

---

(١) تفسير القرآن العظيم (٧/ ٤٥١).

(٢) تيسير الكريم الرحمن (٧/ ٢٠٦-٢٠٧).

الاستطراد، وهو أسلوب لطيف جدًّا في القرآن، وهو نوعان: أحدهما: أن يستطرد من الشيء إلى لازمه، مثل هذا ومثل قوله: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ ﴿٩﴾﴾[1]، ثم استطرد من جوابهم إلى قوله: ﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا وَجَعَلَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٠﴾ وَالَّذِي نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَنشَرْنَا بِهِ بَلْدَةً مَّيْتًا ۚ كَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ ﴿١١﴾ وَالَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ الْفُلْكِ وَالْأَنْعَامِ مَا تَرْكَبُونَ ﴿١٢﴾ لِتَسْتَوُوا عَلَىٰ ظُهُورِهِ﴾[2]، وهذا ليس من جوابهم ولكن تقرير له، وإقامة الحجة عليهم. ومثله قوله تعالى: ﴿فَمَن رَّبُّكُمَا يَا مُوسَىٰ﴾؟ قال: ﴿رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَىٰ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَىٰ﴾ قال: ﴿قَالَ فَمَا بَالُ الْقُرُونِ الْأُولَىٰ ﴿٥١﴾﴾ قال: ﴿قَالَ عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي فِي كِتَابٍ ۖ لَّا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَى ﴿٥٢﴾﴾[3]، فهذا جواب موسى، ثم استطرد سبحانه منه إلى قوله: ﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِّن نَّبَاتٍ شَتَّىٰ ﴿٥٣﴾ كُلُوا وَارْعَوْا أَنْعَامَكُمْ ۗ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّأُولِي النُّهَىٰ ﴿٥٤﴾ ۞ مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ ﴿٥٥﴾﴾[4]، ثم عاد إلى الكلام الذي استطرد منه.

والنوع الثاني: أن يستطرد من الشخص إلى النوع، كقوله: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ مِن سُلَالَةٍ مِّن طِينٍ ﴿١٢﴾ ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿١٣﴾﴾[5] إلى آخره، فالأول آدم، والثاني بنوه ومثله قوله: ﴿۞ هُوَ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا ۖ فَلَمَّا تَغَشَّاهَا حَمَلَتْ حَمْلًا خَفِيفًا فَمَرَّتْ بِهِ ۖ فَلَمَّا أَثْقَلَت دَّعَوَا اللَّهَ رَبَّهُمَا لَئِنْ آتَيْتَنَا صَالِحًا لَّنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ ﴿١٨٩﴾ فَلَمَّا آتَاهُمَا صَالِحًا جَعَلَا لَهُ شُرَكَاءَ فِيمَا آتَاهُمَا ۚ﴾[6] إلى آخر الآيات، فاستطرد من ذكر الأبوين إلى ذكر المشركين من أولادهما. والله أعلم»[7].

وقال: «والمأوى (مفعَل) من أوى يأوي: إذا انضم إلى المكان وصار إليه واستقر به. وقال عطاء عن ابن عباس: هي الجنة التي يأوي إليها جبريل

---

(١) الزخرف: الآية (٩).

(٢) الزخرف: الآيات (١٠-١٣).

(٣) طه: الآيات (٤٩-٥٢).

(٤) طه: الآيات (٥٣-٥٥).

(٥) المؤمنون: الآيتان (١٢و١٣).

(٦) الأعراف: الآيتان (١٨٩و١٩٠).

(٧) التبيان في أقسام القرآن (ص: ١٥٨-١٥٩).

والملائكة. وقال مقاتل والكلبي: هي جنة تأوي إليها أرواح الشهداء. وقال كعب: جنة المأوى: جنة فيها طير خضر ترتع فيها أرواح الشهداء. وقالت عائشة رضي الله عنها وزر ابن حبيش: هي جنة من الجنان، والصحيح أنه اسم من أسماء الجنة، كما قال تعالى: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ﴿٤٠﴾ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴿٤١﴾﴾[١]، وقال في النار: ﴿فَإِنَّ ٱلْجَحِيمَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴿٣٩﴾﴾[٢] وقال: ﴿وَمَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ﴾[٣]»[٤].

قال السمعاني في قوله: ﴿عِندَهَا جَنَّةُ ٱلْمَأْوَىٰٓ ﴿١٥﴾﴾: في الآية دليل على أن الجنة في السماء، وأنها مخلوقة. ومن زعم أنها غير مخلوقة فهو كافر بهذه الآية»[٥].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في رؤية النبي ﷺ ربه في الدنيا

* عن ابن عباس في قول الله: ﴿وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ﴿١٣﴾﴾ قال ابن عباس: «**قد رآه النبي ﷺ**»[٦].

* عن عبدالله عن النبي ﴿وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ﴿١٣﴾﴾ قال: «**رأيت جبريل** عليه السلام **عند السدرة له ستمائة جناح يتناثر منها تهاويل الدر**»[٧].

* عن مسروق قال: «كنت متكئًا عند عائشة، فقالت: يا أبا عائشة! ثلاث من تكلم بواحدة منهن، فقد أعظم على الله الفرية، قلت: ما هن؟ قالت: من زعم أن محمدًا ﷺ رأى ربه فقد أعظم على الله الفرية، قال: وكنت متكئًا فجلست، فقلت: يا أم المؤمنين! أنظريني ولا تعجليني، ألم يقل الله عز وجل: ﴿وَلَقَدْ رَءَاهُ بِٱلْأُفُقِ ٱلْمُبِينِ ﴿٢٣﴾﴾[٨] ﴿وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ﴿١٣﴾﴾ فقالت: أنا أول هذه الأمة سأل عن ذلك رسول الله ﷺ، فقال: «**إنما هو جبريل، لم أره على صورته التي خلق عليها غير**

---

(١) النازعات: الآيتان (٤٠و٤١).
(٢) النازعات: الآية (٣٩).
(٣) العنكبوت: الآية (٢٥).
(٤) حادي الأرواح (ص: ٦٧).
(٥) تفسير القرآن (٥/ ٢٩١).
(٦) أخرجه: الترمذي (٥/ ٣٦٩/ ٣٢٨٠)، وقال: «حديث حسن»، والنسائي في الكبرى (٦/ ٤٧٢/ ١١٥٣٧)، وصححه ابن حبان (الإحسان ١/ ٢٥٣-٢٥٤/ ٥٧).
(٧) أخرجه: أحمد (١/ ٣٩٥و٤١٢و٤٦٠)، وأبو يعلى (٨/ ٤٠٩-٤١٠/ ٤٩٩٣)، والنسائي في الكبرى (٦/ ٤٧٣/ ١١٥٤٢)، وصححه ابن حبان (الإحسان ١٤/ ٣٣٧/ ٦٤٢٨) وقد تقدم قريبا.
(٨) التكوير: الآية (٢٣).

هاتين المرتين، رأيته منهبطًا من السماء، سادًّا عظم خلقه ما بين السماء إلى الأرض»، فقالت: أو لم تسمع أن اللَّه يقول: ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَٰرَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١٠٣﴾﴾[1]، أو لم تسمع أن اللَّه يقول: ﴿۞ وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَآئِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِىَ بِإِذْنِهِۦ مَا يَشَآءُ ۚ إِنَّهُۥ عَلِىٌّ حَكِيمٌ ﴿٥١﴾﴾[2] قالت: ومن زعم أن رسول اللَّه ﷺ كتم شيئًا من كتاب اللَّه فقد أعظم على اللَّه الفرية، واللَّه يقول: «﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۖ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥ ۚ﴾[3] قالت: ومن زعم أنه يخبر بما يكون في غد فقد أعظم على اللَّه الفرية، واللَّه يقول: ﴿قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلْغَيْبَ إِلَّا ٱللَّهُ ۚ﴾[4]»[5].

* عن ابن عباس قال: «أتعجبون أن تكون الخلة لإبراهيم والكلام لموسى والرؤية لمحمد ﷺ»[6].

* عن أبي هريرة: ﴿وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ﴿١٣﴾﴾ الآية، قال: «رأى جبريل»[7].

* عن أبي ذر قال: سألت رسول اللَّه ﷺ: هل رأيت ربك؟ فقال: «نور أنى أراه»[8].

★ فوائد الأحاديث:

في هذه الأحاديث من الفوائد:

بيان اختلاف الصحابة ﷺ «في الذي رآه محمد نزلة أخرى أي مرة أخرى وذلك ليلة الإسراء نحو اختلافهم في قوله: ﴿مَا كَذَبَ ٱلْفُؤَادُ مَا رَأَىٰٓ ﴿١١﴾﴾»[9].

---

(١) الأنعام: الآية (١٠٣).　(٢) الشورى: الآية (٥١).

(٣) المائدة: الآية (٦٧).　(٤) النمل: الآية (٦٥).

(٥) أخرجه: أحمد (١/ ٦/ ٤٩-٥٠)، والبخاري (٦/ ٣٨٥/ ٣٢٣٤)، ومسلم (١/ ١٥٩/ ١٧٧) واللفظ له، والترمذي (٥/ ٢٤٥/ ٣٠٦٨)، والنسائي في الكبرى (٦/ ٣٣٥-٣٣٦/ ١١١٤٧).

(٦) أخرجه: النسائي في الكبرى (٦/ ٤٧٢/ ١١٥٣٩)، وصححه الحاكم (٢/ ٤٦٩) على شرط البخاري ووافقه الذهبي.

(٧) مسلم (١/ ١٥٨/ ١٧٥).

(٨) أخرجه أحمد (٥/ ١٥٧و١٧١و١٧٥)، ومسلم (١/ ١٦١/ ١٧٨)، والترمذي (٥/ ٣٦٩/ ٣٢٨٢).

(٩) من كلام ابن جرير في تفسيره (٢٧/ ٥٠) بتصرف.

قال البيهقي: «فاتفقت رواية عبد اللَّه بن مسعود وعائشة بنت الصديق وأبي هريرة ﷺ على أن هذه الآيات أنزلت في رؤية النبي ﷺ جبريل عليه الصلاة والسلام، وفي بعضها أسند الخبر إلى النبي ﷺ، وهو أعلم بمعنى ما أنزل إليه»[١].

قال ابن عطية: «وحديث عائشة عن النبي ﷺ قاطع بكل تأويل في اللفظ؛ لأن قول غيرها إنما هو منتزع من ألفاظ القرآن»[٢].

وذهب ابن عباس وتبعه جماعة من السلف والخلف إلى أن الذي رآه محمد ﷺ ليلة الإسراء نزلة أخرى هو اللَّه عز وجل، وإليه مال النووي في شرحه على مسلم تبعًا للقاضي عياض وصاحب «التحرير»، فقال بعد حكاية مذاهب العلماء في رؤية النبي ﷺ ربه ليلة الإسراء: «فالحاصل أن الراجح عند أكثر العلماء أن رسول اللَّه ﷺ رأى ربه بعيني رأسه ليلة الإسراء؛ لحديث ابن عباس وغيره مما تقدم، وإثبات هذا لا يأخذونه إلا بالسماع من رسول اللَّه، هذا لا ينبغي أن يتشكك فيه، ثم إن عائشة ﵂ لم تنف الرؤية بحديث عن رسول اللَّه ﷺ، ولو كان معها فيه حديث لذكرته، وإنما اعتمدت الاستنباط من الآيات»[٣].

قال الحافظ: «وجزمه بأن عائشة لم تنف الرؤية بحديث مرفوع تبع فيه ابن خزيمة؛ فإنه قال في كتاب «التوحيد» من صحيحه: النفي لا يوجب علمًا، ولم تحك عائشة أن النبي ﷺ أخبرها أنه لم ير ربه، وإنما تأولت الآية، انتهى. وهو عجيب، فقد ثبت ذلك عنها في صحيح مسلم الذي شرحه الشيخ، فعنده من طريق داود بن أبي هند عن الشعبي عن مسروق في الطريق المذكورة: «**قال مسروق: وكنت متكئًا فجلست، فقلت: ألم يقل الله**: ﴿وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ﴿١٣﴾﴾؟ فقالت: أنا أول هذه الأمة سأل رسول اللَّه ﷺ عن ذلك فقال: إنما هو جبريل»، وأخرجه ابن مردويه من طريق أخرى عن داود بهذا الإسناد: «فقالت: أنا أول من سأل رسول اللَّه ﷺ عن هذا، فقلت: يا رسول الله! هل رأيت ربك؟ فقال: **لا، إنما رأيت جبريل منهبطًا**»»[٤].

---

(١) الأسماء والصفات (٢/ ٣٥١-٣٥٢).
(٢) المحرر الوجيز (٥/ ١٩٨).
(٣) شرح مسلم (٣/ ٦).
(٤) فتح الباري (٨/ ٧٨١-٧٨٢).

قال أبو شهبة: «فالسيدة عائشة اعتمدت في إنكارها على أن آية (التكوير) وآية (النجم) المراد بهما أن المرئي جبريل، لا اللَّه سبحانه، اعتمادًا على إخبار رسول اللَّه ﷺ لها بذلك. وكذلك كان ابن مسعود يرى أن المرئي هو جبريل عليه السلام.

واعتمدت أيضًا على فهمها واجتهادها في الآيتين الأخريين. أما ما ذهبت إليه من أن آية (التكوير) و(النجم) في رؤية النبي لجبريل فهذا ما لا ننازعها فيه؛ لأن عائشة اعتمدت في ذلك على ما سمعته من رسول اللَّه ﷺ، وما دامت الرواية صحت عن المعصوم ﷺ فلا كلام لأحد مع كلامه.

وليس الأمر كما زعم بعض العلماء من أن عائشة اعتمدت على فهمها واجتهادها في الآيتين؛ لأن رواية مسروق التي سقناها صريحة كل الصراحة في سماعها ذلك من رسول اللَّه. وأما استدلالها بآية (الأنعام): ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ﴾[1] وآية (الشورى): ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ﴾[2] السابقتين، فالظاهر أن هذا باجتهاد منها على حسب ما فهمته، والحق أن الآيتين لا تدلان على نفي الرؤية»[3].

قلت: وقد تقدم بيان وجه عدم دلالة هذه الآية التي استدلت بها عائشة رضي الله عنها على نفي الرؤية في موضعها من سورة (الأنعام) و(الشورى) فلا معنى لإعادة ذلك هنا، وباللَّه التوفيق.

«على أنه يمكن الجمع -كما قال الحافظ- بين إثبات ابن عباس ونفي عائشة بأن يحمل نفيها على رؤية البصر، وإثباته على رؤية القلب، ثم المراد برؤية الفؤاد رؤية القلب، لا مجرد حصول العلم؛ لأنه ﷺ كان عالمًا باللَّه على الدوام، بل مراد من أثبت له أنه رآه بقلبه أن الرؤية التي حصلت له خلقت في قلبه كما يخلق الرؤية بالعين لغيره، والرؤية لا يشترط لها شيء مخصوص عقلًا، ولو جرت العادة بخلقها في العين، وروى ابن خزيمة بإسناد قوي عن أنس قال: «رأى محمد ربه»، وعند مسلم من حديث أبي ذر أنه سأل النبي ﷺ عن ذلك فقال: «**نور**»، ولأحمد عنه قال: «**رأيت نورًا**»، ولابن خزيمة عنه قال: «رآه بقلبه، ولم يره بعينه»، وبهذا يتبين مراد

---

(١) الأنعام: الآية (١٠٣).

(٢) الشورى: الآية (٥١).

(٣) الإسراء والمعراج (ص: ١١٢-١١٣).

أبي ذر بذكره النور، أي: النور حال بين رؤيته له ببصره»[١].

قال ابن القيم: «قال شيخ الإسلام ابن تيمية قدس الله روحه: وليس قول ابن عباس: «**إنه رآه**» مناقضًا لهذا، ولا قوله: «**رآه بفؤاده**»، وقد صح عنه أنه قال: «**رأيت ربي تبارك وتعالى**»[٢] ولكن لم يكن هذا في الإسراء، ولكن كان في المدينة لما احتبس عنهم في صلاة الصبح، ثم أخبرهم عن رؤية ربه تبارك وتعالى تلك الليلة في منامه، وعلى هذا بنى الإمام أحمد رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى وقال: نعم رآه حقًّا؛ فإن رؤيا الأنبياء حق ولا بد، ولكن لم يقل أحمد -رحمه الله تعالى-: إنه رآه بعيني رأسه يقظة، ومن حكى عنه ذلك فقد وهم عليه، ولكن قال مرة: رآه، ومرة قال: رآه بفؤاده، فحكيت عنه روايتان، وحكيت عنه الثالثة من تصرف بعض أصحابه أنه رآه بعيني رأسه، وهذه نصوص أحمد موجودة ليس فيها ذلك، وأما قول ابن عباس أنه رآه بفؤاده مرتين، فإن كان استناده إلى قوله تعالى: ﴿مَا كَذَبَ ٱلْفُؤَادُ مَا رَأَىٰ ۝١١﴾ ثم قال: ﴿وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ۝١٣﴾، والظاهر أنه مستنده، فقد صح عنه أن هذا المرئي جبريل رآه مرتين في صورته التي خلق عليها، وقول ابن عباس هذا هو مستند الإمام أحمد في قوله: رآه بفؤاده، والله أعلم»[٣].

قلت: وجملة القول في هذه الآيات: ﴿ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ ۝٨﴾ أن الضمائر فيها كلها راجعة إلى جبريل عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، كما قال ابن القيم فيما تقدم من كلامه في أولى هذه الآيات، وهو الذي رجحه ابن كثير، وعوّل عليه عامة المفسرين[٤].

قال ابن عطية: «والصحيح عندي أن جميع ما في هذه الآيات هو مع جبريل بدليل قوله: ﴿وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ۝١٣﴾، فإن ذلك يقضي بمنزلة متقدمة، وما روي قط أن محمدًا رأى ربه قبل ليلة الإسراء»[٥].

قال البيهقي: «وقول عائشة وابن مسعود وأبي هريرة في حملهم هذه الآيات على رؤيته جبريل عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ أصح»[٦].

قال ابن كثير: «وهذا الذي قاله البيهقي رَحِمَهُ ٱللَّهُ في هذه المسألة هو الحق؛ فإن أبا

---

(١) فتح الباري (٨/ ٧٨٣).
(٢) سيأتي تخريجه قريبا.
(٣) زاد المعاد (٣/ ٣٧-٣٨).
(٤) أفاده القاسمي في محاسن التأويل (١٥/ ٢٣٣).
(٥) المحرر الوجيز (٥/ ١٩٧).
(٦) دلائل النبوة (٢/ ٣٨٥).

ذر قال: يا رسول الله! هل رأيت ربك؟ قال: «**نور**»، وفي رواية: «**رأيت نورًا**»، أخرجه مسلم، وقوله: ﴿ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ ۝٨﴾ إنما هو جبريل عليه السلام، كما ثبت ذلك في الصحيحين عن عائشة أم المؤمنين وعن ابن مسعود وكذلك هو في صحيح مسلم عن أبي هريرة، ولا يعرف لهم مخالف من الصحابة في تفسير هذه الآية»[1].

قلت: وعلى هذا فلا يصح الاحتجاج بهذه الآيات على إثبات رؤية النبي ﷺ لربه ليلة الإسراء، وإن كانت رؤيته ﷺ ثابتة من جهة أخرى في حديث المنام، كما تقدم من كلام شيخ الإسلام.

* عن أبي موسى قال: «قام فينا رسول اللَّه ﷺ بخمس كلمات فقال: **إن اللَّه عز وجل لا ينام، ولا ينبغي له أن ينام، يخفض القسط ويرفعه، يُرفع إليه عمل الليل قبل عمل النهار، وعمل النهار قبل عمل الليل، حجابه النور** -وفي رواية أبي بكر: **النار- لو كشفه لأحرقت سُبُحات وجهه ما انتهى إليه بصره من خلقه**»[2].

★ **غريب الحديث:**

سُبُحات: جمع سبحة، ومعنى سبحات وجهه نوره وجلاله وبهاؤه.

★ **فوائد الحديث:**

قال ابن القيم: «هذا الحديث ساقه مسلم بعد حديث أبي ذر المقدم وهو كالتفسير له. ولا ينافي هذا قوله في الحديث الصحيح حديث الرؤية يوم القيامة: «**فيكشف الحجاب فينظرون إليه**»؛ فإن النور الذي هو حجاب الرب تعالى يراد به الحجاب الأدنى إليه، وهو لو كشف لم يقم له شيء، كما قال ابن عباس في قوله عز وجل: ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَـٰرُ﴾ قال: ذاك نوره الذي هو نوره، إذا تجلى به لم يقم له شيء، وهذا الذي ذكره ابن عباس يقتضي أنه قوله: ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَـٰرُ﴾ على عمومه وإطلاقه في الدنيا والآخرة، ولا يلزم من ذلك أن لا يرى؛ بل يرى في الآخرة بالأبصار من غير إدراك. وإذا كانت أبصارنا لا تقوم لإدراك الشمس على ما هي عليه، وإن رأتها مع القرب الذي بين المخلوق والمخلوق، فالتفاوت الذي بين

---

(١) تفسير القرآن العظيم (٥/ ٦).

(٢) أخرجه: أحمد (٤/ ٤٠٥)، ومسلم (١/ ١٦١-١٦٢/ ١٧٩)، وابن ماجه (١/ ٧٠/ ١٩٥).

أبصار الخلائق وذات الرب جل جلاله أعظم وأعظم. ولهذا لما حصل للجبل أدنى شيء من تجلي الرب تسافى الجبل واندكّ لسبحات ذلك القدر من التجلي.

وفي الحديث الصحيح المرفوع: «**جنتان من ذهب آنيتهما وحليتهما وما فيهما، وجنتان من فضة آنيتهما وحليتهما وما فيهما، وما بين القوم وبين أن ينظروا إلى ربهم إلا رداء الكبرياء على وجهه في جنة عدن**»(١). فهذا يدل أن رداء الكبرياء على وجهه تبارك وتعالى هو المانع من رؤية الذات. ولا يمنع من أصل الرؤية، فإن الكبرياء والعظمة أمر لازم لذاته تعالى. فإذا تجلى سبحانه لعباده يوم القيامة، وكشف الحجاب بينهم وبينه فهو الحجاب المخلوق. وأما أنوار الذات الذي يحجب عن إدراكها فذاك صفة للذات، لا تفارق ذات الرب جل جلاله. ولو كشف ذلك الحجاب لأحرقت سبحات وجهه ما أدركه بصره من خلقه. وتكفي هذه الإشارة في هذا المقام للمصدق الموقن. وأما المعطل الجهمي فكل هذا عنده باطل ومحال.

والمقصود أن المخبر عنه بالرؤية في سورة (النجم) هو جبريل.

وأما قول ابن عباس: «**رأى محمد ربه بفؤاده مرتين**»، فالظاهر أن مستنده هذه الآية. وقد تبين أن المرئي فيها جبريل فلا دلالة فيها على ما قاله ابن عباس. وقد حكى عثمان بن سعيد الدارمي الإجماع على ما قالته عائشة. فقال -في نقضه على بشر المريسي، في الكلام على حديث ثوبان ومعاذ أن رسول اللَّه ﷺ قال: «**رأيت ربي البارحة في أحسن صورة**»(٢) فحكى تأويل المريسي الباطل- ثم قال: ويلك إن تأويل هذا الحديث على غير ما ذهبت إليه؛ أما إن رسول اللَّه ﷺ قال في حديث أبي ذر: «**إنه لم ير ربه**» وقال رسول اللَّه ﷺ: «**لن تروا ربكم حتى تموتوا**»(٣)، وقالت عائشة ﵂: من زعم أن محمدًا رأى ربه فقد أعظم على اللَّه الفرية. وأجمع

---

(١) أخرجه: أحمد (٤/ ٤١١)، والبخاري (٨/ ٨٠٣/ ٤٨٧٨)، ومسلم (١/ ١٦٣/ ١٨٠)، والترمذي (٤/ ٥٨١/ ٢٥٢٨)، والنسائي في الكبرى (٤/ ٤١٩-٤٢٠/ ٧٧٦٥)، وابن ماجه (١/ ٦٦/ ١٨٦).

(٢) أخرجه من حديث معاذ بن جبل: أحمد (٥/ ٢٤٣)، والترمذي (٥/ ٣٤٣-٣٤٤/ ٣٢٣٥)، وقال: حسن صحيح سألت محمد بن إسماعيل عن هذا فقال: «حسن صحيح»، وصححه الحاكم (١/ ٥٢١)، ووافقه الذهبي، دون زيادة: «**لما كان ليلة أسري بي**».

(٣) أخرجه: أحمد (٥/ ٣٢٤)، وأبو داود (٤/ ٤٩٥/ ٤٣٢٠)، والنسائي (٤/ ٤١٩/ ٧٧٦٤)، وقال الألباني: «إسناده جيد»، ظلال الجنة رقم (٤٢٨) من حديث عبادة بن الصامت ﵁.

المسلمون على ذلك، مع قول الله: ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ﴾[1] يعنون أبصار أهل الدنيا، وإنما هذه الرؤية كانت في المنام، يمكن رؤية اللَّه على كل حال كذلك، وروى معاذ بن جبل عن النبي ﷺ أنه قال: «**صليت ما شاء اللَّه من الليل، ثم وضعت جنبي، فأتاني ربي في أحسن صورة**»[2] فهذا تأويل هذا الحديث عند أهل العلم. وقد ظن القاضي أبو يعلى أن الرواية اختلفت عن الإمام أحمد: هل رأى رسول اللَّه ﷺ ربه ليلة الإسراء أم لا؟ على ثلاث روايات:

إحداها: أنه رآه، قال المروزي: قلت لأبي عبدالله: يقولون: إن عائشة قالت: من زعم أن محمدًا رأى ربه فقد أعظم على اللَّه الفرية، فبأي شيء يدفع قول عائشة؟ فقال: بقول النبي ﷺ: «**رأيت ربي**» وقول النبي ﷺ أكبر من قولها. قال: وذكر المروزي في موضع آخر أنه قال لأبي عبدالله: هاهنا رجل يقول: إن اللَّه يرى في الآخرة، ولا أقول: إن محمدًا رأى ربه في الدنيا، فغضب، وقال: هذا أهل أن يخفى، يسلم الخبر كما جاء. قال: فظاهر هذا أنه أثبت رؤية عين. ونقل حنبل قال: قلت لأبي عبدالله: النبي ﷺ رأى ربه رؤيا حلم بقلبه؟ قال: فظاهر هذا نفي الرؤية. وكذلك نقل الأثرم وقد سأله عن حديث عبدالرحمن بن عائش عن النبي ﷺ: «**رأيت ربي في أحسن صورة**» فقال: معمر مضطرب؛ لأن معمرًا رواه عن أيوب عن معبد عن عبدالرحمن بن عائش عن النبي ﷺ، ورواه حماد عن قتادة عن عكرمة عن ابن عباس، ورواه يوسف بن عطية عن قتادة عن أنس، ورواه عبدالرحمن بن يزيد عن جابر عن خالد بن اللجلاج عن عبدالرحمن بن عائش عن رجل من أصحاب النبي ﷺ، ورواه يحيى بن أبي كثير فقال: عن ابن عائش عن معاذ عن النبي ﷺ. وأصل الحديث واحد، قال الأثرم: فقلت لأبي عبدالله: فإلى أي شيء تذهب؟ فقال: قال الأعمش عن زياد بن الحصين عن أبي العالية عن ابن عباس قال: (رأى محمد ربه بقلبه). ونقل الأثرم أن رجلًا قال لأحمد عن الحسين الأشيب أنه قال: لم ير النبي ﷺ ربه تعالى، فأنكره عليه إنسان وقال: لم تقول: رآه، ولا تقول بعينه ولا بقلبه؟ كما جاء الحديث. فاستحسن ذلك الأشيب. فقال أبو عبدالله: حسن. قال: وظاهر هذا إثبات رؤية لا يعقل معناها، هل كانت بعينه أم بقلبه؟.

---

(١) الأنعام: الآية (١٠٣).

(٢) تقدم تخريجه.

قوله تعالى: ﴿أَمْ لِلْإِنسَٰنِ مَا تَمَنَّىٰ ﴿٢٤﴾ فَلِلَّهِ ٱلْآخِرَةُ وَٱلْأُولَىٰ ﴿٢٥﴾﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن عطية: «﴿أَمْ لِلْإِنسَٰنِ مَا تَمَنَّىٰ ﴿٢٤﴾﴾ وقف على جهة التوبيخ والإنكار لحالهم ورأيهم. . و(الإنسان) في قوله: ﴿أَمْ لِلْإِنسَٰنِ﴾ اسم الجنس، كأنه يقول: ليست الأشياء بالتمني والشهوات، إنما الأمر كله لله، والأعمال جارية على قانون أمره ونهيه، فليس لكم أيها الكفرة مرادكم في قولكم: هذه آلهتنا وهي تنفعنا وتقربنا زلفى ونحو هذا. وقال ابن زيد والطبري: (الإنسان) هنا: محمد، بمعنى أنه لم ينل كرامتنا بتأميل؛ بل بفضل اللّه، أو بمعنى: بل إنه تمنى كرامتنا فنالها؛ إذ الكل لله يهب ما شاء، وهذا لا تقتضيه الآيات، وإن كان اللفظ يعمّه»[١].

قال ابن كثير: «وقوله: ﴿فَلِلَّهِ ٱلْآخِرَةُ وَٱلْأُولَىٰ ﴿٢٥﴾﴾ أي: إنما الأمر كله لله، مالك الدنيا والآخرة، والمتصرف في الدنيا والآخرة، فهو الذي ما شاء كان، وما لم يشأ لم يكن»[٢].

قال الشنقيطي: «بيّن -جل وعلا- في هذه الكريمة أن له الآخرة والأولى وهي الدنيا، وبيّن هذا في غير هذا الموضع كقوله: ﴿إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَىٰ ﴿١٢﴾ وَإِنَّ لَنَا لَلْآخِرَةَ وَٱلْأُولَىٰ ﴿١٣﴾﴾[٣] وبيّن في موضع آخر أن له كل شيء، وذلك في قوله: ﴿إِنَّمَآ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَٰذِهِ ٱلْبَلْدَةِ ٱلَّذِى حَرَّمَهَا وَلَهُۥ كُلُّ شَىْءٍ﴾[٤]، وهذا من المعلوم من الدين بالضرورة»[٥].

* * *

---

(١) المحرر الوجيز (٥/ ٢٠٢).

(٢) تفسير القرآن العظيم (٧/ ٤٣٤).

(٣) الليل: الآيتان (١٢و١٣).

(٤) النمل: الآية (٩١).

(٥) أضواء البيان (٧/ ٧٠٤).

قوله تعالى: ﴿إِذْ يَغْشَى ٱلسِّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ ۝١٦﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال السعدي: «﴿إِذْ يَغْشَى ٱلسِّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ ۝١٦﴾ أي: يغشاها من أمر اللَّه شيء عظيم لا يعلم من وصفه إلا اللَّه عز وجل»[١].

قال صديق حسن خان: «وفي إبهام الموصول وصلته من التفخيم والتكثير للغواشي ما لا يخفى، فقد علم بهذه العبارة أن ما يغشاها من الخلائق الدالة على عظمة اللَّه تعالى وجلالته، أشياء لا يحيط بها الوصف، ولا يكتنهها نعت، ولا يحصيها عدد»[٢].

قال أبو السعود: «وفي إبهام ما يغشى من التفخيم ما لا يخفى، وتأخيره عن المفعول للتشويق إليه، أي: ولقد رآه عند السدرة وقتَ [غشيها] ما غشِيَها مما لا يكتنهه الوصف ولا يفي به البيان كيفًا ولا كمًّا. وصيغة المضارع لحكاية الحال الماضية استحضارًا لصورتها البديعة، وللإيذان باستمرار الغشيان بطريق التجدد»[٣].

وقال القرطبي في هذه الآية: «قيل: هو تعظيم الأمر؛ كأنه قال: إذ يغشى السدرة ما أعلم اللَّه به من دلائل ملكوته. وهكذا قوله تعالى: ﴿فَأَوْحَىٰٓ إِلَىٰ عَبْدِهِۦ مَآ أَوْحَىٰ ۝١٠﴾[٤]، ﴿وَٱلْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوَىٰ ۝٥٣ فَغَشَّىٰهَا مَا غَشَّىٰ ۝٥٤﴾[٥]، ومثله: ﴿ٱلْحَآقَّةُ ۝١ مَا ٱلْحَآقَّةُ ۝٢﴾[٦].

وقال الماوردي في «معاني القرآن» له[٧]: فإن قيل: لم اختيرت السدرة لهذا

---

(١) تيسير الكريم الرحمن (٧/ ٢٠٧).
(٢) فتح البيان (١٣/ ٢٥٤).
(٣) إرشاد العقل السليم (٨/ ١٥٧).
(٤) النجم: الآية (١٠).
(٥) النجم: الآيتان (٥٣و٥٤).
(٦) الحاقة: الآيتان (١و٢).
(٧) وانظر كلامه في (٥/ ٣٩٦) تفسيره الموسوم بـ«النكت والعيون».

الأمر دون غيرها من الشجر؟ قيل: لأن السدرة تختص بثلاثة أوصاف: ظل مديد، وطعم لذيذ، ورائحة ذكية، فشابهت الإيمان الذي يجمع قولًا وعملًا ونية، فظلها من الإيمان بمنزلة العمل لتجاوزه، وطعمها بمنزلة النية لكمونه، ورائحتها بمنزلة القول لظهوره»[١].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة فيما أعطيه الرسول ﷺ عند سدرة المنتهى

* عن ابن مسعود قال: «**لما أسري برسول اللَّه ﷺ** انتهي به إلى سدرة المنتهى، وهي في السماء السادسة، إليها ينتهي ما يعرج من الأرض فيقبض منها، وإليها ينتهي ما يهبط به من فوقها فيقبض منها، قال: ﴿إِذْ يَغْشَى ٱلسِّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ ۝١٦﴾ قال: فَراش من ذهب، قال: فأعطي رسول اللَّه ﷺ ثلاثًا: أعطي الصلوات الخمس، وأعطي خواتيم سورة (البقرة)، وغفر لمن لم يشرك باللَّه من أمته شيئًا المقحمات»[٢].

⋆ غريب الحديث:

فراش من ذهب: الفراش: كل ما يضر من الحشرات والديدان[٣].

المقحمات: بضم الميم وإسكان القاف وكسر الحاء، ومعناه: الذنوب العظام الكبائر التي تهلك أصحابها، وتوردهم النار، وتقحمهم إياها، والتقحم: الوقوع في المهالك[٤].

⋆ فوائد الحديث:

قال النووي: «قوله: «**انتهي به إلى سدرة المنتهى، وهي في السماء السادسة**» كذا هو في جميع الأصول: السادسة، وقد تقدم في الروايات الأخر من حديث أنس أنها فوق السماء السابعة، قال القاضي: كونها في السابعة هو الأصح وقول

---

(١) الجامع لأحكام القرآن (١٧/ ٩٧).

(٢) أخرجه أحمد (١/ ٣٨٧و٤٢٢)، ومسلم (١/ ١٥٧/ ١٧٣)، والترمذي (٥/ ٣٦٦/ ٣٢٩٦) وقال: «حسن صحيح»، والنسائي (١/ ٢٤٣/ ٤٥٠).

(٣) المفهم (١/ ٣٩٥).

(٤) شرح مسلم للنووي (٣/ ٣).

الأكثرين وهو الذي يقتضيه المعنى. . قلت: ويمكن أن يجمع بينهما فيكون أصلها في السادسة ومعظمها في السابعة فقد علم أنها في نهاية من العظم. وقد قال الخليل رحمه الله: هي سدرة في السماء السابعة قد أظلت السموات والجنة»[١].

قال ابن أبي جمرة: «وإنما سمّيت بهذا الاسم لأن إليها تنتهي الأعمال، ومن هناك ينزل الأمر وتتلقى الأحكام، وعندها تقف الحفظة وغيرهم ولا يتعدونها، فكانت منتهى؛ لأن إليها ينتهي ما يصعد من السفل، وما ينزل من العالم العلوي من أمر العلي»[٢].

وقال القاضي عياض: «وتسميتها بالمنتهى قال كعب: هي في أصل العرش، إليها ينتهي علم كل ملك مقرب أو نبي مرسل، وما خلفها غيب لا يعلمه إلا اللَّه، وقيل: إليه تنتهي أرواح الشهداء، وقال ابن عباس: «**هي عن يمين العرش**»، وقيل: إليها ينتهي كل من كان على سنة محمد ﷺ، وقال الخليل: هي سدرة في السماء السابعة لا يجاوزها ملك ولا نبي، قد أظلت السموات والجنة»[٣].

قلت: وفي حديث أنس الطويل مزيد بيان لصفة نبقها وورقها وفيه: «**نبقها مثل قلال هاجر، وورقها كأذان الفيلة**»[٤].

قال ابن أبي جمرة: «النبق هو الطعم الذي تطعم هذه الشجرة، وقدره قدر قلة هجر، وقلة هجر أكبر أواني أهل الأرض من جنسها على ما كان أهل الحجاز يعهدون، وإنما شبه ﷺ نبقها بالقلال وورقها بآذان الفيلة؛ لأنه ليس في الدنيا ما يشبههما من جنسها، فأشار إلى ذلك ليعلم قدرها، وأما جنسها فلا يتوصل إليه إلا من أطلعه اللَّه عز وجل عليها، أو يراها في الآخرة إن شاء اللَّه تعالى»[٥].

قوله: «﴿إِذْ يَغْشَى ٱلسِّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ ۝١٦﴾ قال: فراش من ذهب».

قال الحافظ: «قال اللَّه تعالى: ﴿إِذْ يَغْشَى ٱلسِّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ ۝١٦﴾ قال: «**فراش من ذهب**» كذا فسر المبهم في قوله: ﴿مَا يَغْشَىٰ﴾ بالفراش، ووقع في رواية يزيد بن أبي

---

(١) شرح مسلم للنووي (٣/ ٣).
(٢) بهجة النفوس (٣/ ١٩٨).
(٣) الإكمال (١/ ٥٩٥).
(٤) أخرجه: أحمد (٤/ ٢٠٧-٢٠٨)، والبخاري (٦/ ٢٥٥-٢٥٦/ ٣٨٨٧)، والنسائي (١/ ٢٣٧-٢٤١/ ٤٤٧) من حديث مالك بن صعصعة ﷺ.
(٥) بهجة النفوس (٣/ ١٩٨).

مالك عن أنس: «**جراد من ذهب**»، قال البيضاوي: «وذكر الفراش وقع على سبيل التمثيل؛ لأن من شأن الشجر أن يسقط عليها الجراد وشبهه، وجعلها من الذهب لصفاء لونها وإضاءتها في نفسها» انتهى. ويجوز أن يكون من الذهب حقيقة، ويخلق فيه الطيران، والقدرة صالحة لذلك. وفي حديث أبي سعيد وابن عباس: «**يغشاها الملائكة**»، وفي حديث أبي سعيد عند البيهقي: «**على كل ورقة منها ملك**»، ووقع في رواية ثابت عن أنس عند مسلم: «**فلما غشيها من أمر اللَّه ما غشيها تغيرت فما أحد من خلق اللَّه يستطيع أن ينعتها من حسنها**»، وفي رواية حميد عن أنس عند ابن مردويه نحوه، لكن قال: تحولت ياقوتًا ونحو ذلك»[١].

قال القاضي عياض: «وفي رواية ابن جريج: «**غشيها فراش من ذهب، وأرخيت عليها ستور من لؤلؤ وياقوت وزبرجد**»، وزاد بعضهم في روايته: فلما غشيها من أمر اللَّه ما غشيها تحولت ياقوتًا أو نحو هذا»[٢].

وقال ابن هبيرة: «وقوله: «**غشيها فراش من ذهب**» فالذي أراه أن أنوارًا تلألأت فيها لورود رسول اللَّه ﷺ فبلغ ذلك إلى أن غشيها فراش؛ لأن الفراش من شأنه موافقة الأضواء، وهذا مما أخبر اللَّه تعالى به من كثرة الأنوار تلك الليلة، وكونه فراشًا من ذهب لكون الذهب مناسبًا لون الأنوار، فلو كان من فضة لأثر لمخالفته في لون الأنوار، وهذا مما يدل على شرف مقام النبي ﷺ، وأن الفرق ما بين سدرة المنتهى وشجرة موسى عليه السلام فرق ما بين المنزلتين»[٣].

قال الطيبي: «فإن قلت: كيف التوفيق بين هذا وبين قوله في غير هذا الحديث: «**فغشيها ألوان لا أدري ما هي؟**».

قلت: قوله: «**غشيها ألوان لا أدري ما هي؟**» في موقع قوله: «﴿إِذْ يَغْشَى ٱلسِّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ ١٦﴾ في إرادة الإبهام للتفخيم والتهويل، وإن كان معلومًا، كما في قوله تعالى: ﴿فَغَشِيَهُم مِّنَ ٱلْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ﴾[٤] في حق فرعون ثم قوله: «**فراش من ذهب**»

---

(١) فتح الباري (٧/ ٢٧٠).

(٢) الإكمال (١/ ٥٢٥).

(٣) الإفصاح (٢/ ١١٨-١١٩).

(٤) طه: الآية (٧٨).

بيان له»[١].

قال ابن هبيرة: «وقوله: «**وأعطي الصلوات الخمس**» وهذا مختصر، وسيأتي في حديث المعراج مشروحًا، وأنها كانت خمسين، وإنما ردت إلى خمس وجعل لها ثواب الخمسين»[٢].

قال الحافظ: «والحكمة في تخصيص فرض الصلاة بليلة الإسراء أنه ﷺ لما عرج به رأى في تلك الليلة تعبد الملائكة، وأن منهم القائم فلا يقعد والراكع فلا يسجد والساجد فلا يقعد، فجمع اللّٰه له ولأمته تلك العبادات كلها في كل ركعة يصليها العبد بشرائطها من الطمأنينة والإخلاص، أشار إلى ذلك ابن أبي جمرة، وقال: وفي اختصاص فرضيتها بليلة الإسراء إشارة إلى عظيم بيانها، ولذلك اختص فرضها بكونه بغير واسطة، بل بمراجعات تعددت على ما سبق بيانه»[٣].

قال السهيلي: «وأما فرض الصلاة عليه هنالك، ففيه التنبيه على فضلها، حيث لم تفرض إلا في الحضرة المقدسة، ولذلك كانت الطهارة من شأنها، ومن شرائط أدائها، والتنبيه على أنها مناجاة الرب، وأن الرب تعالى مقبل بوجهه على المصلي يناجيه، يقول: حمدني عبدي، أثنى عليّ عبدي إلى آخر السورة، وهذا مشاكل لفرضها عليه في السماء السابعة حيث سمع كلام الرب، وناجاه، ولم يعرج به حتى طهر ظاهره وباطنه بماء زمزم كما يتطهر المصلي للصلاة، وأخرج عن الدنيا بجسمه، كما يخرج المصلي عن الدنيا بقلبه، ويحرم عليه كل شيء إلا مناجاة ربه وتوجهه إلى قبلته في ذلك الحين، وهو بيت المقدس، ورفع إلى السماء كما يرفع المصلي يديه إلى جهة السماء إشارة إلى القبلة العليا فهي البيت المعمور، وإلى جهة عرش من يناجيه ويصلي له سبحانه»[٤].

قوله: «**وأعطي خواتيم سورة (البقرة)**»: قال ابن هبيرة: «وأما خواتيم سورة (البقرة) فإنها من عتيد النعم؛ لأنها ليست في القرآن ما اتصلت فيه الأدعية أكثر

---

(١) الكاشف (١٢/ ٣٧٥٢).

(٢) الإفصاح (٢/ ١١٩).

(٣) فتح الباري (٧/ ٢٧٤).

(٤) الروض الأنف (٢/ ١٥٩).

منها؛ لأنه قال سبحانه فيها: ﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَا رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَآ إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦ﴾[1] إلى آخر الآية، فجمعت الاستعاذة من النسيان والخطأ وحمل الإصر وإن كان حمله من كان قبلنا، والاستعاذة من تحمل ما لا طاقة لنا به، ثم طلب العفو، وإرداف ذلك بطلب المغفرة، ثم بسؤال الرحمة، ثم ختم ذلك كله بسؤال النصر على القوم الكافرين، وكأن اللّٰه تعالى بإنزال هذا علمهم أن ادعوني بكذا وكذا، أفيظن ظان أن اللّٰه تعالى لقننا هذا الدعاء لندعوه به إلا وهو سبحانه يجيب حتمًا، إن اللّٰه على ما يشاء قدير»[2].

قال الطيبي: «قوله: «**خواتيم سورة (البقرة)**» قال التوربشتي: ليس معنى قوله: «**أعطي**» أنها نزلت عليه، بل المعنى أنه استجيب له فيما لقن في الآيتين من قوله سبحانه: ﴿غُفْرَانَكَ رَبَّنَا﴾ إلى قوله: ﴿أَنتَ مَوْلَىٰنَا فَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾[3] ولمن يقوم بحقها من السائلين.

أقول: في كلامه إشعار بأن الإعطاء بعد الإنزال؛ لأن المراد منه الاستجابة، والاستجابة مسبوقة بالطلب، والسورة مدنية، والمعراج في مكة، ويمكن أن يقال: إن هذا من قبيل ﴿فَأَوْحَىٰٓ إِلَىٰ عَبْدِهِۦ مَآ أَوْحَىٰ ﴿١٠﴾﴾[4] والنزول بالمدينة من قبيل: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ﴿٣﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ ﴿٤﴾ عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ ﴿٥﴾﴾[5]»[6].

قال القاري: «وحاصله أنه وقع تكرار الوحي فيه تعظيمًا له، واهتمامًا بشأنه، فأوحى إليه في تلك الليلة بلا واسطة، ثم أوحى إليه في المدينة بواسطة جبريل، وبهذا يتم أن جميع القرآن نزل بواسطة جبريل، كما أشار إليه سبحانه بقوله: ﴿نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾﴾[7] ويمكن أن يحمل كلام الشيخ على أن المراد هنا بالإعطاء استجابة الدعاء مما اشتمل الإتيان عليه، وهو لا ينافي نزولها بعد الإسراء إليه»[8].

---

(١) البقرة: الآية (٢٨٦).
(٢) الإفصاح (٢/ ١١٩).
(٣) البقرة: الآيتان (٢٨٥و٢٨٦).
(٤) النجم: الآية (١٠).
(٥) النجم: الآيات (٣-٥).
(٦) الكاشف (١٢/ ٣٧٥٢).
(٧) الشعراء: الآيتان (١٩٣و١٩٤).
(٨) المرقاة (١٠/ ١٧٨).

قال الطيبي: «وإنما أوثر الإعطاء لما عبر عنهما بكنز تحت العرش، وروينا عن أحمد بن حنبل عن أبي ذر قال: قال رسول اللَّه ﷺ: **«أعطيت خواتيم سورة (البقرة) من كنز تحت العرش لم يعطهن نبي قبلي»**[١] وكان لنبينا ﷺ مع اللَّه تعالى مقامان يغبطهما الأولون والآخرون، أحدهما في الدنيا ليلة المعراج، وثانيهما في العقبى، وهو المقام المحمود، ولا اهتم فيهما بشأن إلا بشأن هذه الأمة المرحومة»[٢].

قوله: **«وغفر لمن لم يشرك باللَّه من أمتي شيئًا المقحمات»**: **قال القاري**: «المعنى أنه ﷺ وعد تلك الليلة الكاملة بهذه المغفرة الشاملة، وإن نزل قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾[٣] بعد ذلك، فإنه من سورة (النساء) وهي مدنية، ولعل عدم ذكر المشيئة في الحديث لظهور القضية في حكم القديم والحديث»[٤].

قال النووي: «ومعنى الكلام: من مات من هذه الأمة غير مشرك باللَّه غفر له المقحمات. واللَّه أعلم.

والمراد بغفرانها أنه لا يخلد في النار بخلاف المشركين، وليس المراد أنه لا يعذب أصلا، فقد تقررت نصوص الشرع وإجماع أهل السنة على إثبات عذاب بعض العصاة من الموحدين. ويحتمل أن يكون المراد بهذا خصوصا من الأمة أي: يغفر لبعض الأمة المقحمات، وهذا يظهر على مذهب من يقول: إن لفظة (من) لا تقتضي العموم مطلقا، وعلى مذهب من يقول: لا تقتضيه في الإخبار وإن اقتضته في الأمر والنهي، ويمكن تصحيحه على المذهب المختار وهو كونها للعموم مطلقا لأنه قد قام دليل على إرادة الخصوص وهو ما ذكرناه من النصوص والإجماع. واللَّه أعلم»[٥].

---

(١) أخرجه: أحمد (٥/ ١٥٠)، والحاكم (١/ ٥٦٢)، وقال: «هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه» وتعقبه الذهبي بقوله: ومعاوية لم يحتج به البخاري ورواه ابن وهب عن معاوية مرسلًا. وجود إسناده الألباني في الصحيحة رقم (١٤٨٢).

(٢) الكاشف (١٢/ ٣٧٥٣).

(٣) النساء: الآية (٤٨).

(٤) المرقاة (١٠/ ١٧٩).

(٥) شرح مسلم (٣/ ٣-٤).

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة
في الوعيد الشديد والتهديد الأكيد لقاطع السدر

* عن عبدالله بن حبشي قال: قال رسول الله ﷺ: «**من قطع سدرة صوّب الله رأسه في النار**»[(١)].

★ **غريب الحديث:**

صوب الله رأسه: أي: نكّسه.

★ **فوائد الحديث:**

قال البيهقي: «قال أبو داود: يعني: من قطع السدر في فلاة يستظل بها ابن السبيل والبهائم عبثا وظلما بغير حق يكون له فيها.

قال الإمام أحمد رحمه الله: وقد قرأت في كتاب أبي الحسن العاصمي روايته عن أبي عبدالله محمد بن يوسف عن محمد بن يعقوب بن الفرجي عن أبي ثور أنه قال: سألت أبا عبدالله الشافعي رحمه الله عن قطع السدر فقال: لا بأس به؛ قد روي عن النبي ﷺ أنه قال: «**اغسله بماء وسدر**»[(٢)].

قلت: فالحديث الذي روي في قاطع السدر يكون محمولا على ما حمله عليه أبو داود السجستاني رحمه الله إن صح طريقه، ففيه من الاختلاف ما قدمنا ذكره. وروينا عن عروة بن الزبير أنه كان يقطعه من أرضه، وهو أحد رواة النهي فيشبه أن يكون النهي خاصا كما قال أبو داود رحمه الله، والله أعلم.

وقرأت في كتاب أبي سليمان الخطابي رحمه الله أن إسماعيل بن يحيى المزني رحمه الله سئل عن هذا، فقال: وجهه أن يكون ﷺ سئل عمن هجم على قطع سدر لقوم أو ليتيم أو لمن حرم الله أن يقطع عليه فتحامل عليه بقطعه، فاستحق ما قاله، فتكون

---

(١) أخرجه: أبو داود (٥/ ٤٠٤/ ٥٢٣٩)، والنسائي في الكبرى (١٨٥/ ٨٦١١)، وصححه العلامة الألباني (انظر السلسلة الصحيحة (٢/ ١٧٣/ ٦١٤).

(٢) أخرجه: أحمد (١/ ٢١٥)، والبخاري (٣/ ١٧٥/ ١٢٦٥)، ومسلم (٢/ ٨٦٥/ ١٢٠٦)، وأبو داود (٣/ ٥٦٠/ ٣٢٣٨) (٣/ ٢٨٦/ ٩٥١)، والنسائي (٤/ ٣٣٩-٣٤٠/ ١٩٠٣)، وابن ماجه (٢/ ١٠٣٠/ ٣٠٨٤) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

المسألة سبقت السامع فسمع الجواب ولم يسمع المسألة وجعل نظيره حديث أسامة ابن زيد أن رسول اللَّه ﷺ قال: «**إنما الربا في النسيئة**»[١] فسمع الجواب ولم يسمع المسألة، وقد قال: «**لا تبيعوا الذهب بالذهب إلا مثلا بمثل يدا بيد**» واحتج المزني بما احتج به الشافعي رحمهما اللَّه من إجازة النبي ﷺ أن يغسل الميت بالسدر ولو كان حراما لم يجز الانتفاع به، قال: والورق من السدر كالغصن، وقد سوى رسول اللَّه ﷺ فيما حرم قطعه من شجر الحرم بين ورقه وبين غيره، فلما لم أر أحدا يمنع من ورق السدر دل على جواز قطع السدر»[٢].

قال السيوطي: «والأولى عندي في تأويل الحديث أنه محمول على سدر الحرم كما وقع في رواية الطبراني»[٣].

* * *

---

(١) أخرجه: أحمد (٥/ ٢٠٠)، ومسلم (٣/ ١٢١٧/ ١٥٩٦)، والنسائي (٧/ ٣٢٤/ ٤٥٩٥)، وابن ماجه (٢/ ٧٥٨-٧٥٩/ ٢٢٥٧).

(٢) السنن الكبرى (٦/ ١٤١).

(٣) رفع العذر عن قطع السدر. انظر الحاوي (٢/ ٥٧)، وانظر السلسلة الصحيحة (٢/ ١٧٧).

قوله تعالى: ﴿مَا زَاغَ ٱلْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ ﴿١٧﴾﴾

★ **غريب الآية:**

ما زاغ: أي: ما عدل يمينا ولا شمالا، ولا مال.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن القيم: «قال ابن عباس: ما زاغ البصر يمينا ولا شمالا، ولا جاوز ما أمر به، وعلى هذا المفسرون، فنفى عن نبيه ما يعرض للرائي الذي لا أدب له بين يدي الملوك والعظماء من التفاتة يمينا وشمالا، ومجاوزة بصره لما بين يديه، وأخبر عنه بكمال الأدب في ذلك المقام وفي تلك الحضرة إذ لم يلتفت جانبا، ولم يمد بصره إلى غير ما أرى من الآيات وما هناك من العجائب؛ بل قام مقام العبد الذي أوجب أدبه إطراقه وإقباله على ما رأى دون التفاته إلى غيره، ودون تطلعه إلى ما لم يره مع ما في ذلك من ثبات الجأش، وسكون القلب وطمأنينته. وهذا غاية الكمال، وزيغ البصر التفاته جانبا، وطغيانه مده أمامه إلى حيث ينتهي، فنزه في هذه السورة علمه من الضلال، وقصده وعمله عن الغي، ونطقه عن الهوى، وفؤاده عن تكذيب بصره، وبصره عن الزيغ والطغيان، وهكذا يكون المدح:

تلك المكارم لا قعبان من لبن شِيبا بماءٍ فعادا بعدُ أبوالا»[1].

وقال: «وفي هذه الآية أسرار عجيبة، وهي من غوامض الآداب اللائقة بأكمل البشر: تواطأ هناك بصره وبصيرته، وتوافقا وتصادقا فيما شاهده بصره، فالبصيرة مواطئة له، وما شاهدته بصيرته فهو أيضا حق مشهود بالبصر، فتواطأ في حقه مشهد البصر والبصيرة، ولهذا قال ﷺ: ﴿مَا كَذَبَ ٱلْفُؤَادُ مَا رَأَىٰ ﴿١١﴾ أَفَتُمَٰرُونَهُۥ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ ﴿١٢﴾﴾[2] أي: ما كذب الفؤاد ما رآه ببصره.

---

(١) التبيان (١٥٨).

(٢) النجم: الآيتان (١١و١٢).

ولهذا قرأها أبو جعفر: (مَا كَذَّبَ الفُؤَادُ مَا رَأَى) بتشديد الذال، أي: لم يكذّب الفؤادُ البصرَ؛ بل صدّقه وواطأه؛ لصحة الفؤاد والبصر، أو استقامة البصيرة والبصر، وكون المرئي المشاهد بالبصر والبصيرة حقا. وقرأ الجمهور: ﴿مَا كَذَبَ ٱلْفُؤَادُ مَا رَأَىٰٓ ⑪﴾ بالتخفيف، وهو متعدّ. و﴿مَا رَأَىٰٓ﴾ مفعوله أي: ما كذب قلبه ما رأته عيناه؛ بل واطأه ووافقه. فلمواطأة قلبه لقالبه، وظاهره لباطنه، وبصره لبصيرته: لم يكذب الفؤاد البصر، ولم يتجاوز البصر حده فيطغى، ولم يمل عن المرئي فيزيغ بل اعتدل البصر نحو المرئي ما جاوزه ولا مال عنه، كما اعتدل القلب في الإقبال على اللّه والإعراض عما سواه؛ فإنه أقبل على اللّه بكليته. وللقلب زيغ وطغيان كما للبصر زيغ وطغيان. وكلاهما منتف عن قلبه وبصره، فلم يزغ قلبه التفاتا عن اللّه إلى غيره، ولم يطغ بمجاوزته مقامه الذي أقيم فيه. وهذا غاية الكمال والأدب مع اللّه الذي لا يلحقه فيه سواه.

فإن عادة النفوس إذا أقيمت في مقام عال رفيع أن تتطلع إلى ما هو أعلى منه وفوقه؛ ألا ترى إلى موسى ﷺ لما أقيم في مقام التكليم والمناجاة: طلبت نفسه الرؤية؟ ونبينا ﷺ لما أقيم في ذلك المقام وفاه حقه، فلم يلتفت بصره ولا قلبه إلى غير ما أقيم فيه ألبتة.

ولأجل هذا ما عاقه عائق، ولا وقف به مراد حتى جاوز السموات السبع حتى عاتب موسى ربه فيه. وقال: **«يقول بنو إسرائيل: إني كريم الخلق على اللّه. وهذا قد جاوزني وخلّفني علوّا. فلو أنه وحده ولكن معه كل أمته»**. وفي رواية للبخاري: **«فلما جاوزته بكى. قيل: ما يبكيك؟ قال: أبكي أن غلاما بعث بعدي يدخل الجنة من أمته أكثر ممن يدخلها من أمتي»**[1] ثم جاوزه علوا فلم تعقه إرادة، ولم تقف به دون كمال العبودية همة.

ولهذا كان مركوبه في مسراه يسبق خطوه الطرف، فيضع قدمه عند منتهى طرفه، مشاكلا لحال راكبه، وبعد شأوه الذي سبق به العالم أجمع في سيره، فكان قدم البراق لا يختلف عن موضع نظره كما كان قدمه ﷺ لا يتأخر عن محل معرفته.

---

(١) أخرجه: أحمد (٤/ ٢٠٧-٢٠٨)، والبخاري (٧/ ٢٥٥-٢٥٧/ ٣٨٨٧)، ومسلم (١/ ١٤٩-١٥١/ ١٦٤)، والترمذي (٥/ ٤١٢-٤١٣/ ٣٣٤٦)، والنسائي (١/ ٢٣٧-٢٤٠/ ٤٤٧) من حديث مالك بن صعصعة رضي الله عنه.

فلم يزل في خفارة كمال أدبه مع اللَّه سبحانه، وتكميل مراتب عبوديته له، حتى خرق حجب السموات، وجاوز السبع الطباق، وجاور سدرة المنتهى، ووصل إلى محل من القرب سبق به الأولين والآخرين، فانصبت إليه هناك أقسام القرب انصبابا، وانقشعت عنه سحائب الحجب ظاهرا وباطنا حجابا حجابا، وأقيم مقاما غبطه به الأنبياء والمرسلون. فإذا كان في المعاد أقيم مقاما من القرب ثانيا يغبطه به الأولون والآخرون، واستقام هناك على صراط مستقيم من كمال أدبه مع اللَّه، ما زاغ البصر عنه وما طغى. فأقامه في هذا العالم على أقوم صراط من الحق والهدى. وأقسم بكلامه على ذلك في الذكر الحكيم، فقال تعالى: ﴿يسٓ ۝١ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْحَكِيمِ ۝٢ إِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ۝٣ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾[1] فإذا كان يوم المعاد أقامه على الصراط يسأله السلامة لأتباعه وأهل سنته، حتى يجوزونه إلى جنات النعيم. وذلك فضل اللَّه يؤتيه من يشاء، واللَّه ذو الفضل العظيم»[2].

قال ابن كثير: «وهذه صفة عظيمة في الثبات والطاعة؛ فإنه ما فعل إلا ما أمر به، ولا سأل فوق ما أعطى. وما أحسن ما قال الناظم:

رأى جنة المأوى ومافوقها، ولو   رأى غيرُه ما قد رآه لتاها»[3].

* * *

(١) يس: الآيات (١-٤).

(٢) مدارج السالكين (٢/ ٣٨٢-٣٨٤).

(٣) تفسير القرآن العظيم (٧/ ٤٢٩).

قوله تعالى: ﴿لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِ ٱلْكُبْرَىٰٓ ﴿١٨﴾﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن كثير: «وقوله: ﴿لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِ ٱلْكُبْرَىٰٓ ﴿١٨﴾﴾، كقوله: ﴿لِنُرِيَكَ مِنْ ءَايَٰتِنَا﴾[1] أي: الدالة على قدرتنا وعظمتنا. وبهاتين الآيتين استدل من ذهب من أهل السنة أن الرؤية تلك الليلة لم تقع؛ لأنه قال: ﴿لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِ ٱلْكُبْرَىٰٓ ﴿١٨﴾﴾، ولو كان رأى ربه لأخبر بذلك ولقال ذلك للناس، وقد تقدم تقرير ذلك في سورة (سبحان)»[2].

* * *

(١) طه: الآية (٢٣).

(٢) تفسير القرآن العظيم (٧/ ٤٣٠).

قوله تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ ۝١٩ وَمَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلْأُخْرَىٰ ۝٢٠﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال السعدي: «لما زكّى تعالى ما جاء به محمد ﷺ من الهدى ودين الحق، والأمر بعبادة اللَّه وتوحيده، ذكر بطلان ما عليه المشركون من عبادة من ليس له من أوصاف الكمال شيء، ولا تنفع ولا تضر، وإنما هي أسماء فارغة عن المعنى، سماها المشركون هم وآباؤهم الجهّال الضلاّل، ابتدعوا لها من الأسماء الباطلة التي لا تستحقها، فخدعوا بها أنفسهم وغيرهم من الضلاّل، فالآلهة التي بهذه الحال لا تستحق مثقال ذرة من العبادة، وهذه الأنداد التي سموها بهذه الأسماء زعموا أنها مشتقة من أوصاف هي متصفة بها، فسموا (اللات) من (الإله) المستحق للعبادة، و(العزى) من (العزيز) و(مناة) من (المنان)، إلحادًا في أسماء اللَّه، وتجريًا على الشرك به، وهذه أسماء متجردة من المعاني، فكل من له أدنى مسكة من عقل يعلم بطلان هذه الأوصاف فيها»[1].

قال صديق حسن خان: «﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ ۝١٩﴾ أي: أخبروني عن هذه الآلهة التي تعبدونها من دون الله: هل لها قدرة توصف بها؟ وهل أوحت إليكم شيئًا كما أوحى اللَّه إلى محمد ﷺ؟ أم هي جمادات لا تعقل ولا تنفع؟ وقال أبو السعود: الهمزة للإنكار، والفاء لتوجيهه إلى ترتيب الرؤية على ما ذكر من شؤونه تعالى المنافية لها غاية المنافاة، والمعنى: أعقيب ما سمعتم من آثار كمال عظمته، وإحكام قدرته، ونفاذ أمره في الملأ الأعلى، وما تحت الثرى، وما بينهما، رأيتم هذه الأصنام مع غاية حقارتها وذلتها شركاء لله؟ على ما تقدم من عظمته»[2].

قال الفوزان: «الآية تدل على منع التبرك بالأحجار، ومنع التبرّك بالقبور، وما زال هذا الصنم يُعبد من دون اللَّه إلى أن فتح النبي ﷺ مكة في السنة الثامنة من

---

(١) تيسير الكريم الرحمن (٧/ ٢٠٨-٢٠٩).

(٢) فتح البيان (١٣/ ٢٥٥).

الهجرة، وأمر بهدم هذا الصنم كغيره من الأصنام التي هدمت»[١].

أورد شيخ الإسلام محمد بن عبدالوهاب رَحِمَهُ ٱللَّهُ هذه الآيات في كتاب التوحيد له تحت ترجمة بعنوان: «باب من تبرك بشجر أو حجر ونحوهما».

قال الشيخ عبدالرحمن بن حسن آل الشيخ: «ومطابقة الآيات للترجمة: من جهة أن عبّاد هذه الأوثان أنهم كانوا يعتقدون حصول البركة منها بتعظيمها، ودعائها، والاستعانة بها، والاعتماد عليها في حصول ما يرجونه منها، ويؤملونه ببركاتها، وشفاعتها وغير ذلك، فالتبرك بقبور الصالحين كاللات، وبالأشجار، كالعزى ومناة من ضمن فعل أولئك المشركين مع تلك الأوثان، فمن فعل مثل ذلك واعتقد في قبر أو حجر أو شجر فقد ضاهى عبّاد هذه الأوثان فيما كانوا يفعلونه معها من هذا الشرك، على أن الواقع من هؤلاء المشركين مع معبوديهم أعظم مما وقع من أولئك. فاللَّه المستعان»[٢].

قال الفوزان: «والشاهد من الآية الكريمة: بطلان التبرّك بالأشجار والأحجار؛ لأن هذه أشجار وأحجار، ولم تدفع عن نفسها فضلًا عن أن تدفع عن غيرها.

ففي هذا: بطلان التبرّك بالأحجار والأشجار، وفيه: أن من تبرّك بحجر أو شجر يعتقد فيه أنه ينفع ويضر من دون اللَّه، أو تقرب إليه بشيء من العبادة؛ فهو مثل من عبد اللات والعزّى سواء، ولا فرق، بل من غلا في قبر من القبور فهو كمن عبد اللات؛ لأن اللات -على التفسير الثاني- هو رجل صالح، غلوا فيه بعد موته، فالذين يعبدون القبور اليوم مثل الذين يعبدون اللاتّ سواء بسواء، والقرآن واضح في هذا، لكن يحتاج إلى التدبر، ونبذ التقاليد والعادات والبيئات الفاسدة، والتحرر من الخرافات والأباطيل، ورجوع إلى كتاب اللَّه وسنة رسوله، ففيهما الشفاء للقلوب»[٣].

قال سليمان آل الشيخ: «ذكر صفة هذه الأوثان ليعرف المؤمن كيفية الأوثان،

---

(١) إعانة المستفيد (١/ ٢١٦).

(٢) فتح المجيد (ص: ١٦٣).

(٣) إعانة المستفيد (١/ ٢١٧).

وكيفية عبادتها، وما هو شرك العرب الذين كانوا يفعلونه حتى يفرق بين التوحيد والإخلاص وبين الشرك والكفر، فأما (اللات) فقرأ الجمهور بتخفيف التاء، وقرأ ابن عباس وابن الزبير ومجاهد وحميد وأبو صالح ورويس عن يعقوب: (اللاتّ) بتشديد التاء، فعلى الأولى قال الأعمش: سموا (اللات) من (الإله) و(العزى) من (العزيز)، قال ابن جرير: وكانوا قد اشتقوا اسمها من اللَّه تعالى، فقالوا: اللات مؤنثة منه، تعالى اللَّه عن قولهم علوًا كبيرًا. وكذا العزى من العزيز، قال ابن كثير: وكانت صخرة بيضاء منقوشة عليها بيت بالطائف له أستار وسدنة، وحوله فناء معظم عند أهل الطائف، وهم ثقيف ومن تابعها يفتخرون به على من عداهم من أحياء العرب بعد قريش.

قال ابن هشام: وكانت في موضع منارة مسجد الطائف اليسرى فلم يزل كذلك إلى أن أسلمت ثقيف، فبعث رسول اللَّه ﷺ المغيرة بن شعبة فهدمها وحرقها بالنار.

وعلى الثانية قال ابن عباس: «كان رجلًا يلتّ السويق للحاج، فلما مات عكفوا على قبره»[1] ذكره البخاري، وقال ابن عباس: «كان يبيع السويق والسمن عند صخرة ويلته عليها، فلما مات ذلك الرجل عبدت ثقيف تلك الصخرة إعظامًا لصاحب السويق»، وعن مجاهد نحوه، وقال: «فلما مات عبدوه»، رواه سعيد بن منصور والفاكهي، وكذا روى ابن أبي حاتم عن ابن عباس أنهم عبدوه، وقال ابن جريج: كان رجل من ثقيف يلت السويق بالزيت، فلما توفي جعلوا إلى قبره وثنًا. وبنحو ذلك قال جماعة من أهل العلم، ولا تخالف بين القولين؛ فإن من قال: إنها صخرة، لم ينف أن تكون صخرة على القبر أو حواليه، فعظمت وعبدت تبعًا لا قصدًا، فالعبادة إنما أرادوا بها صاحب القبر، فهو الذي عبدوه بالأصالة، يدل على ذلك ما روى الفاكهي عن ابن عباس: «أن اللات لما مات قال لهم عمرو بن لحي: إنه لم يمت، ولكنه دخل الصخرة، فعبدوها، وبنوا عليها بيتًا». فتأمل فعل المشركين مع هذا الوثن، ووازن بينه وبين بناء القباب على القبور، والعكوف عندها، ودعائها، وجعلها ملاذًا عند الشدائد.

وأما العزى فقال ابن جرير: كانت شجرة عليها بناء وأستار بنخلة بين مكة

---

(١) سيأتي تخريجه.

والطائف، كانت قريش يعظمونها كما قال أبو سفيان يوم أحد: «**لنا العزى ولا عزى لكم**» فقال رسول اللَّه ﷺ: «**قولوا: اللَّه مولانا ولا مولى لكم**»[1] وروى النسائي وابن مردويه عن أبي الطفيل قال لما فتح رسول اللَّه ﷺ مكة بعث خالد بن الوليد إلى نخلة، وكانت بها العزى، فأتاها خالد وكانت على ثلاث سمرات، فقطع السمرات وهدم البيت الذي كان عليها، ثم أتى النبي ﷺ فأخبره فقال: «**ارجع فإنك لم تصنع شيئا**» فرجع خالد فلما أبصرته السدنة وهم حجبتها امتنعوا في الجبل وهم يقولون: يا عزى يا عزى فأتاها خالد، فإذا امرأة عريانة ناشرة شعرها، تحفن التراب على رأسها، فعلاها بالسيف حتى قتلها ثم رجع إلى رسول اللَّه ﷺ فأخبره فقال: «**تلك العزى**»[2].

قال ابن هشام: وكانوا يسمعون منها الصوت، وقال أبو صالح: العزى نخلة كانوا يعلقون عليها السيور والعهن، رواه عبد بن حميد وابن جرير، فتأمل فعل المشركين مع هذا الوثن ووازن بينه وبين ما يفعله عباد القبور من دعائها والذبح عندها، وتعليق الخيوط وإلقاء الخرق في ضرائح الأموات ونحو ذلك، فاللَّه المستعان.

وأما مناة فكانت بالمشلل عند قديد بين مكة والمدينة. وكانت خزاعة والأوس والخزرج يعظمونها ويهلون منها للحج إلى الكعبة، وأصل اشتقاقها من اسم اللَّه المنان، وقيل من منى اللَّه الشيء إذا قدره، وقيل سميت مناة لكثرة ما يمنى أي يراق عندها من الدماء للتبرك بها. قال ابن هشام فبعث رسول اللَّه ﷺ عليا فهدمها عام الفتح. قال ابن اسحق في السيرة: وقد كانت العرب اتخذت مع الكعبة طواغيت وهي بيوت تعظمها كتعظيم الكعبة، لها سدنة وحجاب، وتهدي لها كما يهدى للكعبة، وتطوف بها وتنحر عندها، وهي تعرف فضل الكعبة عليها؛ لأنها كانت قد عرفت أنها بيت إبراهيم عليه السلام ومسجده. قلت: هذا الذي ذكره ابن إسحاق من شرك

---

(١) أخرجه: أحمد (٤/ ٢٩٣)، والبخاري (٦/ ١٩٩-٢٠٠/ ٣٠٣٩)، وأبو داود (٣/ ١١٧-١١٨/ ٢٦٦٢)، والنسائي في الكبرى (٥/ ١٨٩-١٩٠/ ٨٦٣٥).

(٢) أخرجه: أبو يعلى (٢/ ١٩٦/ ٩٠٢)، والنسائي في الكبرى (٦/ ٤٧٤/ ١١٥٤٧)، وذكره الهيثمي في المجمع (٦/ ١٧٦)، وقال: «رواه الطبراني وفيه يحي بن المنذر وهو ضعيف»، وصحح محقق أبي يعلى إسناده.

العرب هو بعينه الذي يفعله عباد القبور؛ بل زادوا على الأولين إذا تبين هذا فمعنى الآية -كما قال القرطبي- إن فيها حذفا تقديره: أفرأيتم هذه الآلهة هل نفعت أو ضرت حتى تكون شركاء لله. وقال غيره: ومناة الثالثة الأخرى ذم، وهي المتأخرة الوضيعة المقدار كقوله وقالت أولاهم لأخراهم أي: وضعاؤهم لرؤسائهم»[١].

وقال أيضًا: «فقد رأيت أن سبب عبادة اللات هو الغلو في قبره، حتى صار وثنًا يعبد، كما كان ذلك هو السبب في عبادة الصالحين ود وسواع ويغوث ويعوق ونسر وغيرهم، وكما كان ذلك هو السبب في عبادة الصالحين من الأموات وغيرهم اليوم، فإنهم غلوا فيهم، وبنوا على قبورهم القباب والمشاهد، وجعلوها ملاذًا لقضاء المآرب، وبالجملة فالغلو أصل الشرك في الأولين والآخرين إلى يوم القيامة. وقد أمرنا اللَّه تعالى بمحبة أوليائه، وإنزالهم منازلهم من العبودية، وسلب خصائص الإلهية عنهم، وهذا غاية تعظيمهم وطاعتهم، ونهانا عن الغلو فيهم، فلا نرفعهم فوق منزلتهم، ولا نحطهم منها؛ لما يعلمه تعالى في ذلك من الفساد العظيم، فما وقع الشرك إلا بسبب الغلو فيهم، فإن الشرك بهم غلو فيهم وأنزلوهم منازل الإلهية، وعصوا أمرهم، وتنقصوهم في صورة التعظيم لهم، فتجد أكثر هؤلاء الغالين فيهم العاكفين على قبورهم معرضين عن طريقة من فيها وهديه وسنته، عائبين لها، مشتغلين بقبورهم عما أمروا به ودعوا إليه. وتعظيم الأنبياء والصالحين ومحبتهم إنما هي باتباع ما دعوا إليه من العلم النافع والعمل الصالح، واقتفاء آثارهم، وسلوك طريقتهم، دون عبادتهم وعبادة قبورهم والعكوف عليها كالذين يعكفون على الأصنام واتخاذها أعيادًا ومجامع للزيارات والفواحش وترك الصلوات، فإن من اقتفى آثارهم كان متسببًا في تكثير أجورهم باتباعه لهم، ودعوته الناس إلى اتباعهم، فإذا أعرض عما دعوا إليه واشتغل بضده حرم نفسه وحرمهم ذلك الأجر، فأي تعظيم لهم واحترام في هذا؟!»[٢].

قال ابن القيم: «ومن أسباب عبادة الأصنام الغلو في المخلوق، وإعطاؤه فوق منزلته حتى جعل فيه حظ من الإلهية، وشبهوه باللَّه سبحانه، وهذا هو التشبيه الواقع

---

(١) تيسير العزيز الحميد (ص: ١٦٩-١٧٠).

(٢) تيسير العزيز الحميد (ص: ٣٤٤-٣٤٥).

في الأمم الذي أبطله اللَّه سبحانه وبعث رسله وأنزل كتبه بإنكاره والرد على أهله، فهو سبحانه ينفي وينهى أن يجعل غيره مثلًا له وندًّا له، وشبهًا له، لا أن يشبه هو بغيره، إذ ليس في الأمم المعروفة أمة جعلته سبحانه مثلًا لشيء من مخلوقاته، فجعلت المخلوق أصلًا وشبهت به الخالق، فهذا لا يعرف في طائفة من طوائف بني آدم، وإنما الأول هو المعروف في طوائف أهل الشرك، غلوا فيمن يعظمونه ويحبونه حتى شبهوه بالخالق، وأعطوه خصائص الإلهية، بل صرحوا أنه إله، وأنكروا جعل الآلهة إلهًا واحدًا وقالوا: ﴿وَٱصْبِرُوا۟ عَلَىٰٓ ءَالِهَتِكُمْ﴾[1]، وصرحوا بأنه إله معبود يرجى ويخاف ويعظم ويسجد له ويحلف باسمه وتقرب له القرابين، إلى غير ذلك من خصائص العبادة التي لا تنبغي إلا لله تعالى، فكل مشرك فهو مشبه لإلهه ومعبوده باللَّه سبحانه، وإن لم يشبهه به من كل وجه، حتى إن الذين كفروا وصفوه سبحانه بالنقائص والعيوب كقولهم: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٌ﴾[2] وإن ﴿يَدُ ٱللَّهِ مَغْلُولَةٌ﴾[3]، وإنه استراح لما فرغ من خلق العالم، والذين جعلوا له ولدًا وصاحبة - تعالى اللَّه عن ذلك علوًّا كبيرًا- لم يكن قصدهم أن يجعلوا المخلوق أصلًا ثم يشبهون به الخالق، بل وصفوه بهذه الأشياء استقلالًا لا قصدًا أن يكون غيره أصلًا فيها وهو مشبه به، ولهذا كان وصفه سبحانه بهذه الأمور من أبطل الباطل»[4].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في تفسير اللات

* عن ابن عباس رضي الله عنهما: قوله: ﴿ٱللَّٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ﴾ : **«كان اللات رجلًا يلتّ سويق الحاج»**[5].

★ **غريب الحديث:**

يلتّ السويق: هو خلطه بالسمن ونحوه.

---

(١) ص: الآية (٦).

(٢) آل عمران: الآية (١٨١).

(٣) المائدة: الآية (٦٤).

(٤) إغاثة اللهفان (٢/ ٣٢٢-٣٢٣).

(٥) أخرجه: البخاري (٨/ ٧٨٧/ ٤٨٥٩).

السويق: هو ما يتخذ من الحنطة والشعير.

⋆ فوائد الحديث:

أفاد الحديث تفسير اللات، وأنه رجل كان يلت السويق للحاج، وقد تقدم الكلام عليه في توضيح الآية بما أغنى عن إعادته هنا.

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في الزجر عن الحلف بالأوثان والتحذير من تعظيمها

* عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**من حلف فقال في حلفه: واللات والعزى، فليقل: لا إله إلا الله، ومن قال لصاحبه: تعال أقامرك، فليتصدق**»[١].

⋆ فوائد الحديث:

قال ابن كثير: «وهذا محمول على من سبق لسانه في ذلك كما كانت ألسنتهم قد اعتادته في زمن الجاهلية»[٢].

قال القرطبي: «ولما نشأ القوم على تعظيم تلك الأصنام، وعلى الحلف بها، وأنعم الله عليهم بالإسلام بقيت تلك الأسماء تجري على ألسنتهم من غير قصد للحلف بها، فأمر النبي ﷺ بذلك أن يقول بعده: لا إله إلا الله، تكفيرًا لتلك اللفظة، وتذكيرًا من الغفلة، وإتمامًا للنعمة، وخص اللات بالذكر في هذا الحديث لأنها كانت أكثر ما كانت تجري على ألسنتهم، وحكم غيرها من أسماء آلهتهم حكمها؛ إذ لا فرق بينها»[٣].

قال الخطابي: «إنما أوجب قول (لا إله إلا الله) على من حلف باللات والعزى شفقًا من الكفر أن يكون قد لزمه؛ لأن اليمين إنما تكون بالمعبود الذي يعظم، فإذا

---

(١) أخرجه: أحمد (٢/ ٣٠٩)، والبخاري (٨/ ٧٨٧/ ٤٨٦٠)، ومسلم (٣/ ١٢٦٧/ ١٦٤٧)، وأبو داود (٣/ ٥٦٨-٥٦٩/ ٣٢٤٧)، والترمذي (٤/ ٩٩/ ١٥٤٥) وقال: «حسن صحيح»، والنسائي (٧/ ١١/ ٣٧٨٤)، وابن ماجه (١/ ٦٧٨/ ٢٠٩٦).

(٢) تفسير ابن كثير (٧/ ٤٣١).

(٣) المفهم (٤/ ٦٢٥-٦٢٦).

حلف بهما فقد ضاهى الكفار في ذلك، وأمر أن يتداركه بكلمة التوحيد المبرئة من الشرك»[١].

* عن عائشة رضي الله عنها قالت: إنما كان من أهل لمناة الطاغية التي بالمشلل لا يطوفون بين الصفا والمروة، فأنزل اللّه تعالى: ﴿إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلْمَرْوَةَ مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِ﴾[٢] فطاف رسول اللّه ﷺ والمسلمون، قال سفيان: مناة بالمُشَلل من قديد، وقال عبدالرحمن بن خالد عن ابن شهاب: قال عروة: قالت عائشة: نزلت في الأنصار، كانوا هم وغسان -قبل أن يسلموا- يهلون لمناة مثله، وقال معمر عن الزهري عن عروة عن عائشة: كان رجال من الأنصار ممن كان يهل لمناة -ومناة صنم بين مكة والمدينة- قالوا: يا نبي الله! كنا لا نطوف بين الصفا والمروة تعظيمًا لمناة نحوه[٣].

★ غريب الحديث:

الطاغية: مفرد الطواغي، وهي ما كانوا يعبدونه من الأصنام وغيرها.

المشلل: بضم أوله وفتح المعجمة هي الثنية المشرفة على قديد، وقديد بقاف مصغر قرية جامعة بين مكة والمدينة كثيرة المياه.

★ فوائد الحديث:

قال ابن القيم: «واتخذت العرب الأصنام، فكان أقدمها مناة، وقد كانت العرب تسمى «عبد مناة» و»زيد مناة»، وكان منصوبًا على ساحل البحر من ناحية المشلل بقديد بين مكة والمدينة، وكانت العرب جميعها تعظمه، وكانت الأوس والخزرج ومن ينزل المدينة ومكة وما قارب من المواضع يعظمونه ويذبحون له ويهدون له، وكان أولاد معد على بقية من دين إسماعيل، وكانت ربيعة ومضر على بقية من دينه، ولم يكن أحد أشد إعظامًا له من الأوس والخزرج»[٤].

---

(١) أعلام الحديث (٣/ ١٩١٨). (٢) البقرة: الآية (١٥٨).

(٣) أخرجه: أحمد (٦/ ١٦٢)، والبخاري (٨/ ٧٨٨-٧٨٩/ ٤٨٦١)، ومسلم (٢/ ٩٢٨/ ١٢٧٧)، والترمذي (٥/ ١٩٢-١٩٣/ ٢٩٦٥) وقال: «حسن صحيح»، والنسائي (٥/ ٢٦٣-٢٦٤/ ٢٩٦٧-٢٩٦٨).

(٤) إغاثة اللهفان (٢/ ٣٠٤).

قلت: وقول عائشة ﵂: «إنما كان من أهل لمناة الطاغية التي بالمشلل لا يطوفون بين الصفا والمروة. . » الحديث، ظاهره صريح في أنهم كانوا في الجاهلية لا يطوفون بين الصفا والمروة، ويقتصرون على الطواف بمناة، فسألوا عن حكم الإسلام في ذلك. وفي لفظ لمسلم: «إنما كان ذلك لأن الأنصار كانوا يهلون في الجاهلية لصنمين على شط البحر، يقال لهما: إساف ونائلة، فيطوفون بين الصفا والمروة، ثم يحلون، فلما جاء الإسلام كرهوا أن يطوفوا بينهما؛ للذي كانوا يصنعون في الجاهلية» فهذه الرواية تقتضي أن تحرجهم إنما كان لئلا يفعلوا في الإسلام شيئًا كانوا يفعلونه في الجاهلية؛ لأن الإسلام أبطل أفعال الجاهلية إلا ما أذن فيه الشارع، فهذه الرواية توجيهها ظاهر بخلاف الرواية الأولى، فإنها تقتضي أن التحرج عن الطواف بين الصفا والمروة لكونهم كانوا لا يفعلونه في الجاهلية، ولا يلزم من تركهم فعل شيء في الجاهلية أن يتحرجوا من فعله في الإسلام.

ويحتمل أن يكون الأنصار في الجاهلية كانوا فريقين: منهم من كان يطوف بينهما على ما اقتضته الرواية الثانية، ومنهم من كان لا يقربهما على ما اقتضته الرواية الأولى، واشترك الفريقان في الإسلام على التوقف عن الطواف بينهما لكونه كان عندهم جميعًا من أفعال الجاهلية، فيجمع بين الروايتين بهذا، وقد أشار إلى نحو هذا الجمع البيهقي، والله أعلم[1].

قال الكاندهلاوي: «قلت: وهذا الجمع أولى مما ذكره الحافظ من الاحتمال الثاني من الحذف واختصار في الروايات، ويؤيده أيضا ما في رواية البخاري وغيره من الزيادة في حديث الباب، قال الزهري: فأخبرت أبا بكر بن عبدالرحمن فقال: إن هذا لعلم ما كنت سمعته، ولقد سمعت رجالا من أهل العلم يذكرون أن الناس إلا من ذكرت عائشة ﵂ ممن كان يهل لمناة كانوا يطوفون كلهم بالصفا والمروة.

قال الجصاص في أحكام القرآن: كان السبب في نزول هذه الآية عند عائشة سؤال من كان لا يطوف بهما في الجاهلية لأجل إهلاله لمناة، وعلى ما ذكره ابن عباس وأبو بكر بن عبدالرحمن أن ذلك كان لسؤال من كان يطوف بين الصفا والمروة، وقد كان عليهما الأصنام، فتجنب الطواف بهما بعد الإسلام، وجائز أن

---

(١) أفاده الحافظ في الفتح (٣/ ٦٣٧-٦٣٨) بتصرف.

يكون سبب نزولها سؤال الفريقين انتهى، «فلما جاء الإسلام سألوا رسول اللَّه ﷺ عن ذلك» أي: عن السعي بين الصفا والمروة فأنزل اللَّه -تبارك اللَّه وتعالى-: ﴿إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلْمَرْوَةَ مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِ فَمَنْ حَجَّ ٱلْبَيْتَ أَوِ ٱعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَا﴾[١] والحكمة في التعبير بهذا السياق مطابقة جواب السائلين؛ لأنهم توهموا من كونهم كانوا يفعلونه في الجاهلية أنه لا يستمروا في الإسلام فخرج الجواب مطابق لسؤالهم»[٢].

* عن أبي واقد الليثي: «أن رسول اللَّه ﷺ لما خرج إلى حنين مر بشجرة للمشركين يقال لها: ذات أنواط، يعلقون عليها أسلحتهم، فقالوا: يا رسول الله! اجعل لنا ذات أنواط كما لهم ذات أنواط، فقال النبي ﷺ: **سبحان الله! هذا كما قال قوم موسى: ﴿ٱجْعَل لَّنَآ إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ﴾[٣]، والذي نفسي بيده لتركبن سنة من كان قبلكم**»[٤].

★ غريب الحديث:

حُنين: موضع بين الطائف ومكة[٥].

ذات أنواط: شجرة للمشركين ينوطون بها سلاحهم، أي: يعلقونه بها، ويعكفون حولها، فسألوه أن يجعل لهم مثلها، فنهاهم عن ذلك[٦].

★ فوائد الحديث:

قال سليمان آل الشيخ: «قوله: «**قلتم والذي نفسي بيده كما قالت بنو إسرائيل لموسى: ﴿ٱجْعَل لَّنَآ إِلَٰهًا﴾** » إلخ، أخبر ﷺ أن هذا الأمر الذي طلبوه منه وهو اتخاذ شجرة للعكوف عندها وتعليق الأسلحة بها تبركًا كالأمر الذي طلبه بنو إسرائيل من موسى عليه السلام حيث قالوا: ﴿ٱجْعَل لَّنَآ إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ﴾[٧]، فإذا كان

---

(١) البقرة: الآية (١٥٨).
(٢) أوجز المسالك (٧/ ١٦٠-١٦١).
(٣) الأعراف: الآية (١٣٨).
(٤) أخرجه: أحمد (٥/ ٢١٨)، والترمذي (٤/ ٤١٢/ ٢١٨٠) واللفظ له وقال: «حسن صحيح»، والنسائي في الكبرى (٦/ ٣٤٦/ ١١١٨٥)، وصححه ابن حبان (الإحسان ١٥/ ٩٤/ ٦٧٠٢).
(٥) تحفة الأحوذي (٦/ ٣٣٩).
(٦) النهاية (٥/ ١٢٨).
(٧) الأعراف: الآية (١٣٨).

اتخاذ شجرة لتعليق الأسلحة والعكوف عندها اتخاذ إله مع اللَّه مع أنهم لا يعبدونها ولا يسألونها، فما الظن بما حدث من عباد القبور من دعاء الأموات، والاستغاثة بهم، والذبح، والنذر لهم، والطواف بقبورهم، وتقبيلها وتقبيل أعتابها وجدرانها، والتمسح بها، والعكوف عندها، وجعل السدنة والحجاب لها، وأي نسبة بين هذا وبين تعليق الأسلحة على شجرة تبركًا.

قال الإمام أبو بكر الطرطوشي من أئمة المالكية: فانظروا رحمكم اللَّه أينما وجدتم سدرة أو شجرة يقصدها الناس ويعظمونها ويرجون البرء والشفاء من قبلها ويضربون بها المسامير والخرق فهي ذات أنواط فاقطعوها[١].

وقال الحافظ أبو محمد عبدالرحمن بن إسماعيل الشافعي المعروف بأبي شامة في «كتاب البدع والحوادث»[٢]: ومن هذا القسم أيضًا ما قد عم الابتلاء به من تزيين الشيطان للعامة تخليق الحيطان والعمد وسرج مواضع مخصوصة في كل بلد يحكي لهم حاك أنه رأى في منامه بها أحدًا ممن شهر بالصلاح والولاية، فيفعلون ذلك، ويحافظون عليه مع تضييعهم فرائض اللَّه تعالى وسننه، ويظنون أنهم متقربون بذلك، ثم يتجاوزون هذا إلى أن يعظم وقع تلك الأماكن في قلوبهم، فيعظمونها، ويرجون الشفاء لمرضاهم، وقضاء حوائجهم بالنذر لهم، وهي من بين عيون وشجر وحائط وحجر. وفي مدينة دمشق صانها اللَّه من ذلك مواضع متعددة كعونية الحما خارج باب توما، والعمود المخلق داخل باب الصغير، والشجرة الملعونة اليابسة خارج باب النصر في نفس قارعة الطريق، سهل اللَّه قطعها واجتثاثها من أصلها، فما أشبهها بذات أنواط الواردة في الحديث. ثم ذكر الحديث المتقدم وكلام الطرطوشي الذي ذكرنا.

ثم قال[٣]: ولقد أعجبني ما صنعه الشيخ أبو اسحق الجبنياني -رحمه اللَّه تعالى- أحد الصالحين ببلاد إفريقية في المائة الرابعة حكى عنه صاحبه الصالح أبو عبداللَّه محمد بن أبي العباس المؤدب أنه كان إلى جانبه عين تسمى عين العافية، كان العامة قد افتتنوا بها يأتونها من الآفاق، من تعذر عليها نكاح أو ولد قالت:

---

(١) انظر كلامه في كتابه الحوادث والبدع (ص: ٣٨-٣٩).

(٢) انظر كلامه في كتابه الباعث على إنكار البدع والحوادث (ص: ١٠١-١٠٢).

(٣) الباعث على إنكار البدع والحوادث (١٠٣-١٠٤).

امضوا بي إلى العافية، فتعرف بها الفتنة، قال أبو عبدالله: فأنا في السحر ذات ليلة إذ سمعت أذان أبي إسحق نحوها، فخرجت فوجدته قد هدمها، وأذن الصبح عليها، ثم قال: اللهم إني هدمتها لك، فلا ترفع لها رأسًا. قال: فما رفع لها رأس إلى الآن. قلت: أبو إسحاق الذي هدمها إمام مشهور من أئمة المالكية زاهد اسمه إبراهيم بن أحمد بن علي بن أسلم، وكان الإمام أبو محمد بن أبي زيد يعظم شأنه ويقول: طريق أبي إسحاق خالية لا يسلكها أحد في الوقت، وكان القابسي يقول: الجبنياني إمام يقتدى به. مات سنة تسع وستين وثلاثمائة.

وذكر ابن القيم نحو ما ذكره أبو شامة ثم قال[1]: فما أسرع أهل الشرك إلى اتخاذ الأوثان من دون اللَّه ولو كانت ما كانت، ويقولون: إن هذا الحجر وهذه الشجرة وهذه العين تقبل النذر، أي: تقبل العبادة من دون الله؛ فإن النذر عبادة وقربة يتقرب بها الناذر إلى المنذور له، وفي هذه الجملة من الفوائد أن ما يفعله من يعتقد في الأشجار والقبور والأحجار من التبرك بها والعكوف عندها والذبح لها هو الشرك، ولا يغتر بالعوام والطغام، ولا يستبعد كون هذا شركًا ويقع في هذه الأمة؛ فإذا كان بعض الصحابة ظنوا ذلك حسنًا وطلبوه من النبي ﷺ حتى بين لهم أن ذلك كقول بني إسرائيل: ﴿ٱجۡعَل لَّنَآ إِلَٰهٗا﴾ فكيف بغيرهم مع غلبة الجهل وبعد العهد بآثار النبوة. وفيها أن الاعتبار في الأحكام بالمعاني لا بالأسماء، ولهذا جعل النبي ﷺ طلبتهم كطلبة بني إسرائيل ولم يلتفت إلى كونهم سموها ذات أنواط، فالمشرك وإن سمى شركه ما سماه كمن يسمي دعاء الأموات والذبح لهم والنذر ونحو ذلك تعظيمًا ومحبة، فإن ذلك هو الشرك وإن سماه ما سماه، وقس على ذلك. وفيها أن من عُبد فهو إله؛ لأن بني إسرائيل والذين سألوا النبي ﷺ لم يريدوا من الأصنام والشجرة الخلق والرزق، وإنما أرادوا البركة والعكوف عندها، فكان ذلك اتخاذًا له مع اللَّه تعالى. وفيها أن معنى الإله هو المعبود، وأن من أراد أن يفعل الشرك جهلًا، فنهي عن ذلك فانتهى، لا يكفر، وأن (لا إله إلا الله) تنفي هذا الفعل مع دقته وخفائه على أولئك الصحابة، ذكره المصنف، فكيف بما هو أعظم منه، ففيه رد على الجهال الذين يظنون أن معناها الإقرار بأن اللَّه خالق كل شيء وأن ما سواه

---

(١) انظر كلامه في إغاثة اللهفان (١/ ٣٢٩).

مخلوق، ونحو ذلك من العبارات، والإغلاظ على من وقع منه ذلك جهل»[١].

قوله: «لتركبن..»: قال سليمان آل الشيخ: «وهذا خبر صحيح وجد كما أخبر ﷺ، ففيه دليل على شهادة أن محمدًا رسول اللَّه. وفي الحديث من الفوائد غير ما تقدم: النهي عن التشبه بأهل الجاهلية من أهل الكتاب والمشركين، وأنه متقرر عندهم أن العبادات مبناها على الأمر، فصار فيها التنبيه على مسائل القبر: أما من ربك؟ فواضح، وأما من نبيك؟ فمن إخباره بأنباء الغيب، وأما ما دينك؟ فمن قولهم: ﴿ٱجۡعَل لَّنَآ إِلَٰهٗا﴾ إلى آخره، قاله المصنف. وفيه أن الشرك لا بد أن يقع في هذه الأمة، كما وقع فيمن قبلها، ففيه رد على من قال: إن الشرك لا يقع في هذه الأمة. وفيه سد الذرائع، والغضب عند التعليم، وأن ما ذم اللَّه به اليهود والنصارى فإنه لنا لنحذره، ذكر ذلك المصنف»[٢].

* * *

(١) تيسير العزيز الحميد (١٧٦-١٧٨).

(٢) تيسير العزيز الحميد (ص: ١٧٨).

قوله تعالى: ﴿أَلَكُمُ ٱلذَّكَرُ وَلَهُ ٱلْأُنثَىٰ ۝٢١ تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰ ۝٢٢﴾

★ **غريب الآية:**

ضيزى: جائرة مائلة عن الحق، من ضاز في الحكم: جَارَ، وضَازَهُ حَقَّهُ: نَقَصَهُ وبَخَسَهُ. قال الشاعر:

ضازت بنو أسد بحكمهم إذ يجعلون الرأس كالذنب

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن عثيمين: «قوله: ﴿أَلَكُمُ ٱلذَّكَرُ وَلَهُ ٱلْأُنثَىٰ ۝٢١﴾ هذا أيضًا استفهام إنكاري على المشركين الذين يجعلون لله البنات ولهم البنين، فإذا وُلد لهم الذكر فرحوا واستبشروا به، وإذا وُلدت الأنثى ظل وجه الإنسان منهم مسودًّا، وهو كظيم، ومع ذلك يقولون: الملائكة بنات اللَّه، فيجعلون البنات لله -والعياذ بالله- ولهم ما يشتهون»[1].

قال ابن جرير: «﴿تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰ ۝٢٢﴾ يقول جل ثناؤه: قسمتكم هذه قسمة جائرة غير مستوية، ناقصة غير تامة؛ لأنكم جعلتم لربكم من الولد ما تكرهون لأنفسكم، وآثرتم أنفسكم بما ترضونه..

وبنحو الذي قلنا في تأويل قوله: ﴿قِسْمَةٌ ضِيزَىٰٓ﴾ قال أهل التأويل، وإن اختلفت ألفاظهم بالعبارة عنها، فقال بعضهم: قسمة عوجاء.. وقال آخرون: قسمة جائرة.. وقال آخرون: قسمة منقوصة.. وقال آخرون: قسمة مخالفة»[2].

* * *

---

(١) القول المفيد (١/ ١٨٩).

(٢) جامع البيان (٢٧/ ٦٠-٦١).

قوله تعالى: ﴿إِنْ هِيَ إِلَّآ أَسْمَآءٌ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَمَا تَهْوَى ٱلْأَنفُسُۖ وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ ٱلْهُدَىٰٓ ﴿٢٣﴾﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره-: ما هذه الأسماء التي سميتموها وهي اللات والعزّى ومناة الثالثة الأخرى، إلا أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم أيها المشركون بالله، وآباؤكم من قبلكم، ما أنزل الله بها، يعني بهذه الأسماء، يقول: لم يبح الله ذلك لكم، ولا أذن لكم به»[١].

قال السعدي: «وقوله: ﴿إِنْ هِيَ إِلَّآ أَسْمَآءٌ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍۚ﴾ أي: من حجة وبرهان على صحة مذهبكم، وكل أمر ما أنزل الله به من سلطان، فهو باطل فاسد، لا يتخذ دينًا، وهم -في أنفسهم- ليسوا بمتبعين لبرهان يتيقنون به ما ذهبوا إليه، وإنما دلهم على قولهم الظنُّ الفاسد، والجهل الكاسد، وما تهواه أنفسهم من الشرك، والبدع الموافقة لأهويتهم، والحال أنه لا موجب لهم يقتضي ذلك إلا اتباعهم الظن، من فقد العلم والهدى، ولهذا قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ ٱلْهُدَىٰٓ﴾ أي: الذي يرشدهم في باب التوحيد والنبوة، وجميع المطالب التي يحتاج إليها العباد، فكلها قد بينها الله أكمل بيان وأوضحه، وأدله على المقصود، وأقام عليه من الأدلة والبراهين، ما يوجب لهم ولغيرهم اتباعه، فلم يبق لأحد عذر ولا حجة من بعد البيان والبرهان، وإذا كان ما هم عليه غايته اتباع الظن، ونهايته الشقاء الأبدي والعذاب السرمدي، فالبقاء على هذه الحال، من أسفه السفه، وأظلم الظلم، ومع ذلك يتمنون الأماني، ويغترون بأنفسهم»[٢].

---

(١) جامع البيان (٢٧/ ٦١).

(٢) تيسير الكريم الرحمن (٧/ ٢٠٩-٢١٠).

قال السيوطي: «قوله تعالى: ﴿إِنْ هِىَ إِلَّآ أَسْمَآءٌ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ﴾ استدل بها على أن اللغات توقيفية، ووجهه أن اللّٰه تعالى ذمهم على تسمية بعض الأشياء بما سموها به، ولولا أن تسمية غيرها من اللّٰه توقيف لما صح هذا الذم؛ لكون الكل اصطلاحًا منهم»[1].

قال الشيخ سليمان آل الشيخ: «في هذه الآيات من الدلائل القطعية على بطلان عبادة هذه الطواغيت وأشباهها ما لا مزيد عليه، فسبحان من جعل كلامه شفاءً وهدىً ورحمةً وبشرى للمسلمين، منها أنها أسماء مؤنثة دالة على اللين والرخاوة، وما كان كذلك فليس بإله، ومنها أنكم قاسمتم اللّٰه بزعمكم فجعلتم له هذه الأسماء المؤنثة شركاء، ودعوتم له الأولاد، ثم جعلتموهم بنات، واختصصتم بالذكور، فجعلتم له المكروه الناقص، ولكم المحبوب الكامل، ﴿لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ مَثَلُ ٱلسَّوْءِ ۖ وَلِلَّهِ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٦٠﴾﴾[2]، ومنها أنها أسماءٌ سميتموها أنتم وآباؤكم وابتدعتموها، ومنها أنها ما أنزل اللّٰه بها من سلطان، أي: حجة وبرهان، ومنها أنكم لم تستندوا في تسميتها إلى علم ويقين، وإنما استندتم في ذلك إلى الظن والهوى اللذين هما أصلا الهلاك دنيا وأخرى، ومنها: ﴿وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ ٱلْهُدَىٰٓ﴾[3] أي: بإبطال عبادتها، وما كان كذلك فهو عين المحال البين البطلان، وكل واحد من هذه الأدلة كاف شاف في بطلان عبادتها»[4].

* * *

(١) الإكليل (ص: ٢٥٠).
(٢) النحل: الآية (٦٠).
(٣) النجم: الآية (٢٣).
(٤) تيسير العزيز الحميد (ص: ١٧٣).

قوله تعالى : ﴿أَمْ لِلْإِنسَٰنِ مَا تَمَنَّىٰ ﴿٢٤﴾ فَلِلَّهِ ٱلْـَٔاخِرَةُ وَٱلْأُولَىٰ ﴿٢٥﴾﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن عطية : «﴿أَمْ لِلْإِنسَٰنِ مَا تَمَنَّىٰ ﴿٢٤﴾﴾ وقف على جهة التوبيخ والإنكار لحالهم ورأيهم . . و(الإنسان) في قوله : ﴿أَمْ لِلْإِنسَٰنِ﴾ اسم الجنس، كأنه يقول : ليست الأشياء بالتمني والشهوات، إنما الأمر كله لله، والأعمال جارية على قانون أمره ونهيه، فليس لكم أيها الكفرة مرادكم في قولكم : هذه آلهتنا وهي تنفعنا وتقربنا زلفى ونحو هذا . وقال ابن زيد والطبري : (الإنسان) هنا : محمد، بمعنى أنه لم ينل كرامتنا بتأميل ؛ بل بفضل اللّه، أو بمعنى : بل إنه تمنى كرامتنا فنالها ؛ إذ الكل لله يهب ما شاء، وهذا لا تقتضيه الآيات، وإن كان اللفظ يعمّه»[(١)] .

قال ابن كثير : «وقوله : ﴿فَلِلَّهِ ٱلْـَٔاخِرَةُ وَٱلْأُولَىٰ ﴿٢٥﴾﴾ أي : إنما الأمر كله لله، مالك الدنيا والآخرة، والمتصرف في الدنيا والآخرة، فهو الذي ما شاء كان، وما لم يشأ لم يكن»[(٢)] .

قال الشنقيطي : «بيّن -جل وعلا- في هذه الكريمة أن له الآخرة والأولى وهي الدنيا، وبيّن هذا في غير هذا الموضع كقوله : ﴿إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَىٰ ﴿١٢﴾ وَإِنَّ لَنَا لَلْـَٔاخِرَةَ وَٱلْأُولَىٰ ﴿١٣﴾﴾[(٣)] وبيّن في موضع آخر أن له كل شيء، وذلك في قوله : ﴿إِنَّمَآ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَٰذِهِ ٱلْبَلْدَةِ ٱلَّذِى حَرَّمَهَا وَلَهُۥ كُلُّ شَىْءٍ﴾[(٤)]، وهذا من المعلوم من الدين بالضرورة»[(٥)] .

* * *

---

(١) المحرر الوجيز (٥/ ٢٠٢).

(٢) تفسير القرآن العظيم (٧/ ٤٣٤).

(٣) الليل : الآيتان (١٢و١٣).

(٤) النمل: الآية (٩١).

(٥) أضواء البيان (٧/ ٧٠٤).

قوله تعالى: ﴿۞ وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ لَا تُغۡنِي شَفَٰعَتُهُمۡ شَيۡـًٔا إِلَّا مِنۢ بَعۡدِ أَن يَأۡذَنَ ٱللَّهُ لِمَن يَشَآءُ وَيَرۡضَىٰٓ ۝٢٦﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره-: ﴿وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ لَا تُغۡنِي﴾: كثير من ملائكة اللَّه، لا تنفع شفاعتهم عند اللَّه لمن شفعوا له شيئًا، إلا أن يشفعوا له من بعد أن يأذن اللَّه لهم بالشفاعة لمن يشاء منهم أن يشفعوا له ويرضى، يقول: ومن بعد أن يرضى لملائكته الذين يشفعون له أن يشفعوا له، فتنفعه حينئذ شفاعتهم، وإنما هذا توبيخ من اللَّه -تعالى ذكره- لعبدة الأوثان والملإ من قريش وغيرهم الذين كانوا يقولون: ﴿مَا نَعۡبُدُهُمۡ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلۡفَىٰٓ﴾[١] فقال اللَّه جلّ ذكره لهم: ما تنفع شفاعة ملائكتي الذين هم عندي لمن شفعوا له، إلا من بعد إذني لهم بالشفاعة له ورضاي، فكيف بشفاعة من دونهم، فأعلمهم أن شفاعة ما يعبدون من دونه غير نافعتهم»[٢].

يقول ابن كثير: «وهذه الآية كقوله: ﴿مَن ذَا ٱلَّذِي يَشۡفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذۡنِهِۦ﴾[٣]، ﴿وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنۡ أَذِنَ لَهُۥ﴾[٤]، فإذا كان هذا في حق الملائكة المقربين، فكيف ترجون أيها الجاهلون شفاعة هذه الأصنام والأنداد عند اللَّه، وهو لم يشرع عبادتها ولا أذن فيها، بل قد نهى عنها على ألسنة جميع رسله، وأنزل بالنهي عن ذلك جميع كتبه»[٥].

قال سليمان آل الشيخ: «في هذه الآيات من الرد على من عبد الملائكة والصالحين لشفاعة أو غيرها ما لا يخفى؛ لأنهم إذا كانوا لا يشفعون إلا بإذن من اللَّه ابتداءً، فلأي معنىً يُدعون ويُعبدون؟ وأيضًا فإن اللَّه لا يأذن إلا لمن ارتضى

---

(١) الزمر: الآية (٣).
(٢) جامع البيان (٢٧/ ٦٢).
(٣) البقرة: الآية (٢٥٥).
(٤) سبأ: الآية (٢٣).
(٥) تفسير القرآن العظيم (٧/ ٤٥٨).

قوله وعمله، وهو الموحد لا المشرك، كما قال: ﴿يَوْمَئِذٍ لَّا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ وَرَضِىَ لَهُۥ قَوْلًا ﴿١٠٩﴾﴾[١]، والله لا يرتضي إلا التوحيد، كما قال: ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٨٥﴾﴾[٢]، وقال النبي ﷺ: «**أسعد الناس بشفاعتي من قال: (لا إله إلا الله) خالصًا من قلبه**»[٣]. فلم يقل: أسعد الناس بشفاعتي من دعاني. فإن قال المشرك: أنا أعلم أنهم لا يشفعون إلا بإذنه، لكن أدعوهم ليأذن الله لهم في الشفاعة لي. قيل: فإن الله لم يجعل الشرك به ودعاء غيره سببًا لإذنه ورضاه، بل ذلك سبب لغضبه، ولهذا نهى عن دعاء غيره في غير آية، كقوله: ﴿وَلَا تَدْعُ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ فَإِن فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذًا مِّنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٠٦﴾﴾[٤].

فتبيّن أن دعاء الصالحين من الملائكة والأنبياء وغيرهم شرك، كما كان المشركون الأولون يدعونهم ليشفعوا لهم عند الله، فأنكر الله عليهم ذلك، وأخبر أنه لا يرضاه، ولا يأمر به، كما قال تعالى: ﴿وَلَا يَأْمُرَكُمْ أَن تَتَّخِذُوا۟ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ وَٱلنَّبِيِّۦنَ أَرْبَابًا ۗ أَيَأْمُرُكُم بِٱلْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿٨٠﴾﴾[٥]، وقال تعالى: ﴿إِذْ تَبَرَّأَ ٱلَّذِينَ ٱتُّبِعُوا۟ مِنَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوا۟ وَرَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ ٱلْأَسْبَابُ ﴿١٦٦﴾﴾[٦]»[٧].

قال الرازي: «ما الفائدة في قوله تعالى: ﴿وَكَم مِّن مَّلَكٍ﴾ بمعنى كثير من الملائكة، مع أن كل من في السموات منهم لا يملك الشفاعة؟ نقول: المقصود الرد عليهم في قولهم: هذه الأصنام تشفع، وذلك لا يحصل ببيان أن ملكًا من الملائكة لا تقبل شفاعته، فاكتفى بذكر الكثيرة، ولم يقل: ما منهم أحد يملك الشفاعة؛ لأنه أقرب إلى المنازعة فيه من قوله: (كثير)، مع أن المقصود حاصل به. ثم هاهنا بحث؛ وهو أن في بعض السور يستعمل صيغة العموم والمراد الكثير، وفي البعض يستعمل الكثير والمراد الكل، وكلاهما على طريقة واحدة، وهو استقلال الباقي وعدم الاعتداد، ففي قوله تعالى: ﴿تُدَمِّرُ كُلَّ شَىْءٍ﴾[٨] كأنه يجعل الخارج عن الحكم غير ملتفت إليه، وفي قوله تعالى: ﴿وَكَم مِّن مَّلَكٍ﴾ وقوله: ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا

---

(١) طه: الآية (١٠٩).
(٢) آل عمران: الآية (٨٥).
(٣) سيأتي تخريجه قريبا.
(٤) يونس: الآية (١٠٦).
(٥) آل عمران: الآية (٨٠).
(٦) البقرة: الآية (١٦٦).
(٧) تيسير العزيز الحميد (ص: ٢٨١-٢٨٢).
(٨) الأحقاف: الآية (٢٥).

﴿يَعْلَمُونَ﴾[١] وقوله: ﴿أَكْثَرُهُم بِهِم مُّؤْمِنُونَ﴾[٢] يجعل المخرج غير ملتفت إليه، فيجعل كأنه ما أخرجه كالأمر الخارج عن الحكم كأنه ما خرج، وذلك يختلف باختلاف المقصود من الكلام، فإن كان الكلام مذكورًا لأمر فيه يبالغ يستعمل الكل؛ مثاله: يقال للملك: كل الناس يدعون لك، إذا كان الغرض بيان كثرة الدعاء له لا غير، وإن كان الكلام مذكورًا لأمر خارج عنه لا يبالغ فيه؛ لأن المقصود غيره، فلا يستعمل الكل؛ مثاله: إذا قال الملك لمن قال له اغتنم دعائي كثير من الناس يدعون لي؛ إشارة إلى عدم احتياجه إلى دعائه، لا لبيان كثرة الدعاء له، فكذلك هاهنا.

قال: ﴿لَا تُغْنِي شَفَاعَتُهُمْ﴾، ولم يقل: لا يشفعون مع أن دعواهم أن هؤلاء شفعاؤنا، لا أن شفاعتهم تنفع أو تغني، وقال تعالى في مواضع أخرى: ﴿مَن ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِندَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾[٣] فنفى الشفاعة بدون الإذن وقال: ﴿مَا لَكُم مِّن دُونِهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا شَفِيعٍ﴾[٤] نفى الشفيع، وهاهنا نفى الإغناء؟ نقول: هم كانوا يقولون: هؤلاء شفعاؤنا، وكانوا يعتقدون نفع شفاعتهم، كما قال تعالى: ﴿لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ﴾[٥]، ثم نقول: نفي دعواهم يشتمل على فائدة عظيمة، أما نفي دعواهم لأنهم قالوا: الأصنام تشفع لنا شفاعة مقربة مغنية، فقال: ﴿لَا تُغْنِي شَفَاعَتُهُمْ﴾ بدليل أن شفاعة الملائكة لا تغني، وأما الفائدة فلأنه لما استثنى بقوله: ﴿إِلَّا مِن بَعْدِ أَن يَأْذَنَ اللَّهُ﴾ أي: فيشفع، ولكن لا يكون فيه بيان أنها تقبل وتغني أو لا تقبل، فإذا قال: ﴿لَا تُغْنِي شَفَاعَتُهُمْ﴾ ثم قال: ﴿إِلَّا مِن بَعْدِ أَن يَأْذَنَ اللَّهُ﴾ فيكون معناه: تغني فيحصل البشارة؛ لأنه تعالى قال: ﴿الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا﴾[٦] وقال تعالى: ﴿وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَن فِي الْأَرْضِ﴾[٧] والاستغفار شفاعة.

وأما قوله: ﴿مَن ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِندَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾ فليس المراد نفي الشفاعة وقبولها كما في هذه الآية حيث رد عليهم قولهم، وإنما المراد عظمة الله تعالى،

---

(١) النحل: الآية (٧٥).
(٢) سبأ: الآية (٤١).
(٣) البقرة: الآية (٢٥٥).
(٤) السجدة: الآية (٤).
(٥) الزمر: الآية (٣).
(٦) غافر: الآية (٧).
(٧) الشورى: الآية (٥).

وأنه لا ينطق في حضرته أحد ولا يتكلم، كما في قوله تعالى: ﴿لَّا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ﴾[١]»[٢].

وقال: «ما الفائدة في قوله تعالى: ﴿وَيَرْضَىٰٓ﴾؟ نقول: فيه فائدة الإرشاد، وذلك لأنه لما قال: ﴿لِمَن يَشَآءُ﴾ كان المكلف مترددًا لا يعلم مشيئته فقال: ﴿وَيَرْضَىٰٓ﴾ ليعلم أنه العابد الشاكر لا المعاند الكافر؛ فإنه تعالى قال: ﴿إِن تَكْفُرُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ عَنكُمْ ۖ وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ ٱلْكُفْرَ ۖ وَإِن تَشْكُرُوا۟ يَرْضَهُ لَكُمْ﴾[٣]، فكأنه قال: ﴿لِمَن يَشَآءُ﴾ ثم قال: ﴿وَيَرْضَىٰٓ﴾ بيانًا لمن يشاء، وجواب آخر على قولنا: لا تغني شفاعتهم شيئًا ممن يشاء، هو أن فاعل (يرضى) المدلول عليه لمن يشاء، كأنه قال: ويرضى هو، أي: تغنيه الشفاعة شيئًا صالحًا فيحصل به رضاه، كما قال: ﴿وَيَرْضَىٰٓ﴾ هو أي: تغنيه الشفاعة، وحينئذ يكون (يرضى) للبيان؛ لأنه لما قال: ﴿لَا تُغْنِى شَفَٰعَتُهُمْ﴾ إشارة إلى نفي كل قليل وكثير، كان اللازم عنده بالاستثناء أن شفاعتهم تغني شيئًا ولو كان قليلًا، ويرضى المشفوع له ليعلم أنها تغني أكثر من اللازم بالاستثناء، ويمكن أن يقال: ﴿وَيَرْضَىٰٓ﴾ لتبيين أن قوله: ﴿يَشَآءُ﴾ ليس المراد المشيئة التي هي الرضا؛ فإن اللَّه تعالى إذا شاء الضلالة بعبد لم يرض به، وإذا شاء الهداية رضي فقال: ﴿لِمَن يَشَآءُ وَيَرْضَىٰٓ﴾ ليعلم أن المشيئة ليست هي المشيئة العامة، إنما هي الخاصة»[٤].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في صفة الشفاعة المنفية وصفة الشفاعة المثبتة

* عن أنس في حديث الشفاعة الطويل وفيه: «**ثم يقال: ارفع محمد، قل يسمع، وسل تُعْطَه، واشفع تُشَفَّع**»[٥].

* عن أبي هريرة أنه قال: «قيل: يا رسول الله! من أسعد الناس بشفاعتك يوم القيامة؟ قال رسول اللَّه ﷺ: **لقد ظننت يا أبا هريرة أن لا يسألني عن هذا الحديث**

---

(١) النبأ: الآية (٣٨).
(٢) مفاتيح الغيب (٢٨/ ٣٠٧-٣٠٨).
(٣) الزمر: الآية (٧).
(٤) المصدر السابق (٢٨/ ٣٠٨).
(٥) أخرجه: أحمد (٣/ ١١٦)، والبخاري (١٣/ ٤٨٣/ ٧٤١٠)، ومسلم (١/ ١٨٠-١٨١/ ١٩٣)، وابن ماجه (٢/ ١٤٤٢-١٤٤٣/ ٤٣١٢)، والنسائي في الكبرى (٦/ ٣٦٤-٣٦٥/ ١١٢٤٣).

أحد أول منك، لما رأيت من حرصك على الحديث، أسعد الناس بشفاعتي يوم القيامة من قال: لا إله إلا اللَّه، خالصًا من قلبه، أو نفسه»[(١)].

★ **فوائد الحديثين:**

قال ابن القيم: «تأمل قول النبي ﷺ لأبي هريرة وقد سأله: «من أسعد الناس بشفاعتك يا رسول الله؟ قال: «أسعد الناس بشفاعتي من قال: (لا إله إلا الله) خالصًا من قلبه» كيف جعل أعظم الأسباب التي تنال بها شفاعته: تجريد التوحيد، عكس ما عند المشركين: أن الشفاعة تنال باتخاذهم أولياءهم شفعاء، وعبادتهم وموالاتهم من دون اللَّه. فقلب النبي ﷺ ما في زعمهم الكاذب، وأخبر أن سبب الشفاعة هو تجريد التوحيد، فحينئذ يأذن اللَّه للشافع أن يشفع.

ومِن جهل المشرك: اعتقاده أن من اتخذه وليًا أو شفيعًا: أنه يشفع له، وينفعه عند اللَّه، كما يكون خواص الملوك والولاة تنفع شفاعتهم من والاهم. ولم يعلموا أن اللَّه لا يشفع عنده أحد إلا بإذنه، ولا يأذن في الشفاعة إلا لمن رضي قوله وعمله. كما قال تعالى في الفصل الأول: ﴿مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ﴾[(٢)]، وفي الفصل الثاني: ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ﴾[(٣)]، وبقي فصل ثالث، وهو أنه لا يرضى من القول والعمل إلا التوحيد، واتباع الرسول. وعن هاتين الكلمتين يسأل الأولين والآخرين. كما قال أبو العالية: (كلمتان يسأل عنهما الأولون والآخرون: ماذا كنتم تعبدون؟ وماذا أجبتم المرسلين؟).

فهذه ثلاثة أصول تقطع شجرة الشرك من قلب من وعاها وعقلها: لا شفاعة إلا بإذنه، ولا يأذن إلا لمن رضي قوله وعمله، ولا يرضى من القول والعمل إلا توحيده، واتباع رسوله. فاللَّه تعالى لا يغفر شرك العادلين به غيره، كما قال تعالى: ﴿ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾[(٤)]، وأصح القولين: أنهم يعدلون به غيره في العبادة والموالاة والمحبة، كما في الآية الأخرى: ﴿تَٱللَّهِ إِن كُنَّا لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٩٧﴾ إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٨﴾﴾[(٥)]، وكما في آية (البقرة): ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ

---

(١) أخرجه: أحمد (٢/ ٣٧٣)، والبخاري (١/ ٢٩٧/ ٩٩)، والنسائي في الكبرى (٣/ ٤٢٦-٤٢٧/ ٥٨٤٢)..
(٢) البقرة: الآية (٢٥٥).
(٣) الأنبياء: الآية (٢٨).
(٤) الأنعام: الآية (١).
(٥) الشعراء: الآيتان (٩٧و٩٨).

مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ﴾[١].

وترى المشرك يكذب حالُه وعملُه قولَه؛ فإنه يقول: لا نحبهم كحب اللّه، ولا نسوّيهم باللّه، ثم يغضب لهم ولحرماتهم -إذا انتهكت- أعظم مما يغضب لله، ويستبشر بذكرهم، ويتبشبش به؛ سيما إذا ذكر عنهم ما ليس فيهم: من إغاثة اللهفات، وكشف الكربات، وقضاء الحاجات، وأنهم الباب بين اللّه وبين عباده؛ فإنك ترى المشرك يفرح ويُسرّ ويحِنّ قلبه، وتهيج منه لواعج التعظيم والخضوع لهم والموالاة، وإذا ذكرت له اللّه وحده، وجرّدت توحيده لحقته وحشة، وضيق، وحرج، ورماك بنقص الإلهية التي له، وربما عاداك.

رأينا واللّه منهم هذا عيانًا، ورمونا بعداوتهم، وبغوا لنا الغوائل، واللّه مخزيهم في الدنيا والآخرة. ولم تكن حجتهم إلا أن قالوا، كما قال إخوانهم: عاب آلهتنا، فقال هؤلاء: تنقصتم مشايخنا، وأبواب حوائجنا إلى اللّه. وهكذا قال النصارى للنبي ﷺ لما قال لهم: «**إن المسيح عبدالله**» قالوا: تنقصت المسيح وعِبته. وهكذا قال أشباه المشركين لمن منع اتخاذ القبور أوثانًا تعبد، ومساجد تقصد، وأمر بزيارتها على الوجه الذي أذن اللّه فيه ورسوله، قالوا: تنقصت أصحابها.

فانظر إلى هذا التشابه بين قلوبهم، حتى كأنهم قد تواصوا به ﴿مَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِ ۖ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ وَلِيًّا مُّرْشِدًا﴾[٢].

وقد قطع اللّه تعالى كل الأسباب التي تعلّق بها المشركون جميعًا، قطعًا يعلم من تأمله وعرفه: أن من اتخذ من دون اللّه وليًا، أو شفيعًا، فهو ﴿كَمَثَلِ ٱلْعَنكَبُوتِ ٱتَّخَذَتْ بَيْتًا ۖ وَإِنَّ أَوْهَنَ ٱلْبُيُوتِ لَبَيْتُ ٱلْعَنكَبُوتِ﴾[٣] فقال تعالى: ﴿قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۖ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ وَمَا لَهُۥ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ ﴿٢٢﴾ وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُۥ﴾[٤].

فالمشرك إنما يتخذ معبوده لما يعتقد أنه يحصل له به من النفع. والنفع لا يكون إلا ممن فيه خصلة من هذه الأربع: إما مالك لما يريده عابده منه، فإن لم يكن مالكًا

---

(١) البقرة: الآية (١٦٥).

(٢) الكهف: الآية (١٧). (٣) العنكبوت: الآية (٤١).

(٤) سبأ: الآيتان (٢٢و٢٣).

كان شريكًا للمالك، فإن لم يكن شريكًا له كان معينًا له وظهيرًا، فإن لم يكن معينًا ولا ظهيرًا كان شفيعًا عنده.

فنفى سبحانه المراتب الأربع نفيًا مترتبًا، متنقلًا من الأعلى إلى ما دونه، فنفى المِلك، والشركة، والمظاهرة، والشفاعة، التي يظنها المشرك. وأثبت شفاعة لا نصيب فيها لمشرك، وهي الشفاعة بإذنه.

فكفى بهذه الآية نورًا، وبرهانًا ونجاة، وتجريدًا للتوحيد، وقطعًا لأصول الشرك وموادّه لمن عقلها. والقرآن مملوء من أمثالهما ونظائرها. ولكن أكثر الناس لا يشعرون بدخول الواقع تحته، وتضمنه له، ويظنونه في نوع وفي قوم قد خلوا من قبل ولم يُعقِبوا وارثًا. وهذا هو الذي يحول بين القلب وبين فهم القرآن.

ولعمر اللَّه إن كان أولئك قد خلوا، فقد ورثهم من هو مثلهم أو شر منهم أو دونهم. وتناول القرآن لهم كتناوله لأولئك. ولكن الأمر كما قال عمر بن الخطاب ﷺ: «**إنما تنقض عُرى الإسلام عروة عروة، إذا نشأ في الإسلام من لا يعرف الجاهلية**».

وهذا لأنه إذا لم يعرف الجاهلية والشرك، وما عابه القرآن وذمه، وقع فيه وأقره، ودعا إليه وصوّبه وحسّنه. وهو لا يعرف أنه هو الذي كان عليه أهل الجاهلية أو نظيره أو شر منه أو دونه. فينقض بذلك عرى الإسلام عن قلبه. ويعود المعروف منكرًا، والمنكر معروفًا، والبدعة سنة، والسنة بدعة. ويكفَّر الرجل بمحض الإيمان وتجريد التوحيد. ويبدَّع بتجريد متابعة الرسول ﷺ ومفارقة الأهواء والبدع. ومن له بصيرة وقلب حي يرى ذلك عيانًا، واللَّه المستعان»[1].



(١) مدارج السالكين (١/ ٣٤١-٣٤٤).

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ لَيُسَمُّونَ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةَ تَسْمِيَةَ ٱلْأُنثَىٰ ﴿٢٧﴾ وَمَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ ۖ وَإِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغْنِى مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْـًٔا ﴿٢٨﴾﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال السعدي: «يعني: أن المشركين باللَّه المكذبين لرسله، الذين لا يؤمنون بالآخرة، وبسبب عدم إيمانهم بالآخرة تجرؤوا على ما تجرؤوا عليه من الأقوال والأفعال المحادة لله ولرسوله، من قولهم: (الملائكة بنات الله)، فلم ينزهوا ربهم عن الولادة، ولم يكرموا الملائكة ويجلوهم عن تسميتهم إياهم إناثًا، والحال أنه ليس لهم بذلك علم، لا عن اللَّه، ولا عن رسوله، ولا دلت على ذلك الفطر والعقول، بل العلم كله دال على نقيض قولهم، وأن اللَّه منزه عن الأولاد والصاحبة؛ لأنه الواحد الأحد، الفرد الصمد، الذي لم يلد ولم يولد، ولم يكن له كفوًا أحد، وأن الملائكة كرام مقربون إلى اللَّه، قائمون بخدمته ﴿لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾[1] والمشركون إنما يتبعون في ذلك القول القبيح، وهو الظن الذي لا يغني من الحق شيئًا، فإن الحق لا بد فيه من اليقين المستفاد من الأدلة القاطعة والبراهين الساطعة»[2].

قال أبو السعود: «وفي تعليقها [أي: تسميتهم الملائكة بالأنثى] بعدم الإيمان بالآخرة إشعار بأنها في الشناعة والفظاعة واستتباع العقوبة في الآخرة بحيث لا يجترئ عليها إلا من لا يؤمن بها رأسًا»[3].

قال الألوسي في قوله: ﴿وَإِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغْنِى مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْـًٔا﴾: «استدل بالآية من لم يعتبر التقليد في الاعتقاديات -وفيه بحث- والظاهرية على إبطاله مطلقًا، وإبطال القياس ورده على أتم وجه في الأصول، وما أخرج ابن أبي حاتم عن أيوب قال:

(١) التحريم: الآية (٦).

(٢) تيسير الكريم الرحمن (٧/ ٢١٢).

(٣) إرشاد العقل السليم (٨/ ١٦٠).

قال عمر بن الخطاب: «احذروا هذا الرأي على الدين؛ فإنما كان الرأي من رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم مصيبًا لأن الله تعالى كان يريه، وإنما هو منا تكلف وظن، ﴿وَإِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْـًٔا﴾ » هو أحد أدلتهم على إبطال القياس أيضًا، وقد حكى الآمدي في «الأحكام» نحوه عن ابن عمر رضي الله تعالى عنهما فقال: قال ابن عمر: «اتهموا الرأي عن الدين؛ فإن الرأي منا تكلف وظن، ﴿وَإِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْـًٔا﴾ »، وأجاب عنه بأن غايته الدلالة على احتمال الخطأ فيه وليس فيه ما يدل على إبطاله، وأن المراد بقوله: ﴿وَإِنَّ ٱلظَّنَّ﴾ إلخ، استعمال الظن في مواضع اليقين، وليس المراد به إبطال الظن بدليل صحة العمل بظواهر الكتاب والسنة، ويقال نحو هذا في كلام عمر رضي الله تعالى عنه، وقد ذكر جملة من الآثار استدل بها المبطل على ما زعمه، وردها كلها. فمن أراد ذلك فليراجعه»[1].

وقال الشوكاني: «فيه دليل على أن مجرد الظن لا يقوم قيام العلم، وأن الظانّ غير عالم، وهذا في الأمور التي يحتاج فيها إلى العلم، وهي المسائل العلمية، لا فيما يكتفى فيه بالظنّ، وهي الحقائق العملية، وقد قدّمنا تحقيق هذا. ولا بد من التخصيص؛ فإن دلالة العموم والقياس وخبر الواحد ونحو ذلك ظنية، فالعمل بها عمل بالظن، وقد وجب علينا العمل به في مثل هذه الأمور، فكانت أدلة وجوبه العمل بما فيها مخصصة لهذا العموم، وما ورد في معناه من الذم لمن عمل بالظن والنهي عن اتباعه»[2].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في التحذير من اتباع الظن

*** عن أبي هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «إياكم والظن، فإن الظن أكذب الحديث، ولا تحسسوا، ولا تجسسوا، ولا تناجشوا، ولا تحاسدوا، ولا تباغضوا، ولا تدابروا، وكونوا عباد الله إخوانًا»[3].**

---

(١) روح المعاني (٢٧/ ٥٩-٦٠).

(٢) فتح القدير (٥/ ١٥٩).

(٣) أخرجه: أحمد (٢/ ٢٤٥)، والبخاري (١٠/ ٥٩٣/ ٦٠٦٦)، ومسلم (٤/ ١٩٨٥/ ٢٥٦٣)، وأبو داود (٥/ ٢١٦-٢١٧/ ٤٩١٧)، والترمذي (٤/ ٣١٣/ ١٩٨٨) مختصراً، وقال: «حسن صحيح».

★ **فوائد الحديث:**

قال القاري: «**«إياكم والظن»** أي: احذروا اتباع الظن في أمر الدين الذي مبناه على اليقين؛ قال تعالى: ﴿وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا إِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا﴾[(١)]، قال القاضي: التحذير عن الظن فيما يجب فيه القطع أو التحدث به عند الاستغناء عنه أو عما يظن كذبه، اهـ. أو اجتنبوا الظن في التحديث والإخبار، ويؤيده قوله: **«فإن الظن»**: في موضع الظاهر زيادة تمكين في ذهن السامع حثًّا على الاجتناب **«أكذب الحديث»**: ويقويه حديث: **«كفى بالمرء كذبًا أن يحدث بكل ما سمع»**[(٢)] وقيل: أي: أكذب حديث حديث النفس؛ لأنه يكون بإلقاء الشيطان أو اتقوا سوء الظن بالمسلمين، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِنَ الظَّنِّ﴾[(٣)] وهو ما يستقر عليه صاحبه دون ما يخطر بقلبه أن بعض الظن وهو أن يظن ويتكلم إثم فلا تجسسوا، وهو الملائم لقوله: **«ولا تحسسوا ولا تجسسوا»**»[(٤)].

وقال الباجي: «وقوله ﷺ: **«إياكم والظن؛ فإن الظن أكذب الحديث»** قال عيسى بن دينار في المزنية: يريد ظن السوء، ومعناه أن تعادي أهلك وصديقك على ظن تظنه به دون تحقيق أو تحدث بأمر على ما تظنه فتنقله على أنك قد علمته. ويحتمل أن يريد به -والله أعلم- أن يحكم في دين الله بمجرد الظن دون إعمال نظر ولا استدلال بدليل، وقد قال عز وجل: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا ﴿٣٦﴾﴾[(٥)] وقد قال تعالى: ﴿إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ﴾[(٦)]، وهذا يقتضي أن منه ما ليس بإثم، وهو ما يوصل إلى الحكم فيه بالنظر والاجتهاد من كان من أهل النظر والاجتهاد، والله أعلم وأحكم»[(٧)].

وقال الحافظ: «قال الخطابي وغيره: ليس المراد ترك العمل بالظن الذي تناط به الأحكام غالبًا، بل المراد ترك تحقيق الظن الذي يضر بالمظنون به، وكذا ما يقع في القلب بغير دليل، وذلك أن أوائل الظنون إنما هي خواطر لا يمكن دفعها، وما

---

(١) يونس: الآية (٣٦).

(٢) أخرجه: مسلم في المقدمة (١/ ١٠/ ٥)، وأبو داود (٥/ ٢٦٥-٢٦٦/ ٤٩٩٢) من طريق حفص بن عاصم عن أبي هريرة ﷺ.

(٣) الحجرات: الآية (١٢).

(٤) المرقاة (٨/ ٧٦٠).

(٥) الإسراء: الآية (٣٦).

(٦) الحجرات: الآية (١٢).

(٧) المنتقى (٧/ ٢١٦).

لا يقدر عليه لا يكلف به، ويؤيده حديث: «**تجاوز اللَّه للأمة عما حدثت به أنفسها**»[(١)] وقد تقدم شرحه. وقال القرطبي: المراد بالظن هنا التهمة التي لا سبب لها، كمن يتهم رجلًا بالفاحشة من غير أن يظهر عليه ما يقتضيها، ولذلك عطف عليه قوله: «ولا تجسسوا» وذلك أن الشخص يقع له خاطر التهمة فيريد أن يتحقق فيتجسس ويبحث ويستمع، فنهي عن ذلك، وهذا الحديث يوافق قوله تعالى: ﴿ٱجْتَنِبُوا۟ كَثِيرًا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ ٱلظَّنِّ إِثْمٌ ۖ وَلَا تَجَسَّسُوا۟ وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا ۚ﴾[(٢)] فدل سياق الآية على الأمر بصون عرض المسلم غاية الصيانة لتقدم النهي عن الخوض فيه بالظن، فإن قال الظان: أبحث لأتحقق، قيل له: ﴿وَلَا تَجَسَّسُوا۟﴾، فإن قال: تحققت من غير تجسس، قيل له: ﴿وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا ۚ﴾. وقال عياض: استدل بالحديث قوم على منع العمل في الأحكام بالاجتهاد والرأي، وحمله المحققون على ظن مجرد عن الدليل ليس مبنيًا على أصل ولا تحقيق نظر. وقال النووي: ليس المراد في الحديث بالظن ما يتعلق بالاجتهاد الذي يتعلق بالأحكام أصلًا، بل الاستدلال به لذلك ضعيف أو باطل. وتعقب بأن ضعفه ظاهر وأما بطلانه فلا؛ فإن اللفظ صالح لذلك، ولا سيما إن حمل على ما ذكره القاضي عياض، وقد قربه في «المفهم» وقال: الظن الشرعي الذي هو تغليب أحد الجانبين أو هو بمعنى اليقين ليس مرادًا من الحديث ولا من الآية. فلا يلتفت لمن استدل بذلك على إنكار الظن الشرعي. وقال ابن عبدالبر: احتج به بعض الشافعية على من قال بسد الذريعة في البيع فأبطل بيع العينة، ووجه الاستدلال النهي عن الظن بالمسلم شرًا، فإذا باع شيئًا حمل على ظاهره الذي وقع العقد به، ولم يبطل بمجرد توهم أنه سلك به مسلك الحيلة، ولا يخفى ما فيه. وأما وصف الظن بكونه أكذب الحديث، مع أن تعمد الكذب الذي لا يستند إلى ظن أصلًا أشد من الأمر الذي يستند إلى الظن، فللإشارة إلى أن الظن المنهي عنه هو الذي لا يستند إلى شيء يجوز الاعتماد عليه، فيعتمد عليه ويجعل أصلًا ويجزم به، فيكون الجازم به كاذبًا؛ وإنما صار أشد من

---

(١) أخرجه: أحمد (٢/ ٣٩٣). والبخاري (٩/ ٤٨٥/ ٥٢٦٩). ومسلم (١/ ١١٦/ ١٢٧ [٢٠١]). وأبو داود (٢/ ٦٥٧-٦٥٨/ ٢٢٠٩). والترمذي (٣/ ٤٨٩/ ١١٨٣). والنسائي (٦/ ٤٦٩/ ٣٤٣٥). وابن ماجه (١/ ٦٥٨/ ٢٠٤٠) من حديث أبي هريرة ﷺ.

(٢) الحجرات: الآية (١٢).

الكاذب؛ لأن الكذب في أصله مستقبح مستغنى عن ذمه، بخلاف هذا فإن صاحبه بزعمه مستند إلى شيء، فوصف بكونه أشد الكذب مبالغة في ذمه والتنفير منه، وإشارة إلى أن الاغترار به أكثر من الكذب المحض لخفائه غالبًا ووضوح الكذب المحض»[١].

* * *

(١) فتح الباري (١٠/ ٥٩٠).

قوله تعالى: ﴿فَأَعْرِضْ عَن مَّن تَوَلَّىٰ عَن ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿٢٩﴾ ذَٰلِكَ مَبْلَغُهُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ ۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ ٱهْتَدَىٰ ﴿٣٠﴾﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال السعدي: «لما كان هذا دأب هؤلاء المذكورين أنهم لا غرض لهم في اتباع الحق، وإنما غرضهم ومقصودهم ما تهواه نفوسهم، أمر اللَّه رسوله بالإعراض عمن تولى عن ذكره، الذي هو الذكر الحكيم، والقرآن العظيم، والنبأ الكريم، فأعرض عن العلوم النافعة، ولم يرد إلا الحياة الدنيا، فهذا منتهى إرادته، ومن المعلوم أن العبد لا يعمل إلا للشيء الذي يريده، فسعيهم مقصور على الدنيا ولذاتها وشهواتها، كيف حصلت حصّلوها، وبأي طريق سنحت ابتدروها، ﴿ذَٰلِكَ مَبْلَغُهُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ﴾ أي: هذا منتهى علمهم وغايته، وأما المؤمنون بالآخرة، المصدقون بها، أولو الألباب والعقول، فهمتهم وإرادتهم للدار الآخرة، وعلومهم أفضل العلوم وأجلها، وهو العلم المأخوذ من كتاب اللَّه وسنة رسوله ﷺ، واللَّه تعالى أعلم بمن يستحق الهداية فيهديه، ممن لا يستحق ذلك فيكله إلى نفسه ويخذله، فيضل عن سبيل اللَّه، ولهذا قال تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ ٱهْتَدَىٰ﴾ فيضع فضله حيث يعلم المحل اللائق به»[١].

قال الرازي: «أكثر المفسرين يقولون: بأن كل ما في القرآن من قوله تعالى: ﴿فَأَعْرِضْ﴾ منسوخ بآية القتل، وهو باطل؛ فإن الأمر بالإعراض موافق لآية القتال، فكيف ينسخ به؟ وذلك لأن النبي ﷺ كان مأمورًا بالدعاء بالحكمة والموعظة الحسنة، فلما عارضوه بأباطيلهم قيل له: ﴿وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾[٢] ثم لما لم ينفع، قال له ربه: فأعرض عنهم ولا تقابلهم بالدليل والبرهان؛ فإنهم

---

(١) تيسير الكريم الرحمن (٧/ ٢١٢-٢١٣).

(٢) النحل: الآية (١٢٥).

لا يتبعون إلا الظن، ولا يتبعون الحق، وقابلهم بالإعراض عن المناظرة بشرط جواز المقابلة، فكيف يكون منسوخًا؟ والإعراض من باب (أشكاه) والهمزة فيه للسلب، كأنه قال: أزل العرض، ولا تعرض عليهم بعد هذا أمرًا، وقوله تعالى: ﴿عَن مَّن تَوَلَّىٰ عَن ذِكْرِنَا﴾ لبيان تقديم فائدة العرض والمناظرة؛ لأن من لا يصغي إلى القول كيف يفهم معناه؟..

وقوله تعالى: ﴿وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا﴾ إشارة إلى إنكارهم الحشر، كما قالوا: ﴿إِنْ هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا﴾[1] وقال تعالى: ﴿أَرَضِيتُم بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا مِنَ ٱلْءَاخِرَةِ﴾[2] يعني لم يثبتوا وراءها شيئًا آخر يعملون له، فقوله: ﴿عَن مَّن تَوَلَّىٰ عَن ذِكْرِنَا﴾ إشارة إلى إنكارهم الحشر؛ لأنه إذا ترك النظر في آلاء اللَّه تعالى لا يعرفه فلا يتبع رسوله فلا ينفعه كلامه. وإذا لم يقل بالحشر والحساب لا يخاف فلا يرجع عما هو عليه، فلا يبقى إذن فائدة في الدعاء، واعلم أن النبي ﷺ كان طبيب القلوب، فأتى على ترتيب الأطباء، وترتيبهم أن الحال إذا أمكن إصلاحه بالغذاء لا يستعملون الدواء، وما أمكن إصلاحه بالدواء الضعيف لا يستعملون الدواء القوي، ثم إذا عجزوا عن المداواة بالمشروبات وغيرها عدلوا إلى الحديد والكي، وقيل: آخر الدواء الكي، فالنبي ﷺ أولًا أمر القلوب بذكر اللَّه فحسب؛ فإن بذكر اللَّه تطمئن القلوب، كما أن بالغذاء تطمئن النفوس، فالذكر غذاء القلب، ولهذا قال أولًا: «**قولوا: لا إله إلا الله**» أمر بالذكر لمن انتفع مثل أبي بكر وغيره ممن انتفع، ومن لم ينتفع ذكر لهم الدليل، وقال: ﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا۟﴾[3]، ﴿قُلِ ٱنظُرُوا۟﴾[4] ﴿أَفَلَا يَنظُرُونَ﴾[5] إلى غير ذلك، ثم أتى بالوعيد والتهديد، فلما لم ينفعهم قال: أعرض عن المعالجة، واقطع الفاسد لئلا يفسد الصالح»[6].

قال القاسمي: «المراد من الإعراض هجرهم هجرًا جميلًا، وترك إيذائهم. وقول الزمخشري: أي: أعرض عن دعوة من رأيته معرضًا عن ذكر اللَّه.. إلخ لا يصح؛ لأن الصدع بالحق لا تسامح فيه، لا سيما والدعوة للمعرضين، وهي

---

(١) المؤمنون: الآية (٣٧). (٢) التوبة: الآية (٣٨).
(٣) الأعراف: الآية (١٨٤). (٤) يونس: الآية (١٠١).
(٥) الغاشية: الآية (١٧).
(٦) مفاتيح الغيب (٢٨/ ٣١٢-٣١٣).

تستلزم أن يحاجوا به بمنتهى الطاقة لقوله تعالى: ﴿وَجَٰهِدْهُم بِهِۦ جِهَادًا كَبِيرًا﴾[١]، وإنما معنى الآية: فاصفح عنهم ودع أذاهم في مقابلة ما يجهلون به عليك، كما بين ذلك في مواضع من التنزيل، والقرآن يفسر بعضه بعضًا»[٢].

قال الشوكاني في قوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ ٱهْتَدَىٰ﴾: «فيه تسلية لرسول الله ﷺ وإرشاد له بأنه لا يتعب نفسه في دعوة من أصرّ على الضلالة وسبقت له الشقاوة، فإن الله قد علم حال هذا الفريق الضال كما علم حال الفريق الراشد»[٣].

قال أبو السعود: «وتكرير قوله: ﴿هُوَ أَعْلَمُ﴾ لزيادة التقرير، وللإيذان بكمال تباين المعلومين»[٤].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في التعوذ من التعلق بالدنيا

* عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: «قلما كان رسول الله ﷺ يقوم من مجلس حتى يدعو بهؤلاء الدعوات لأصحابه: **اللهم اقسم لنا من خشيتك ما يحول بيننا وبين معاصيك، ومن طاعتك ما تبلغنا به جنتك، ومن اليقين ما تهون به علينا مصيبات الدنيا، ومتعنا بأسماعنا وأبصارنا وقوتنا ما أحييتنا، واجعله الوارث منا، واجعل ثأرنا على من ظلمنا، وانصرنا على من عادانا، ولا تجعل مصيبتنا في ديننا، ولا تجعل الدنيا أكبر همنا، ولا مبلغ علمنا، ولا تسلط علينا من لا يرحمنا**»[٥].

★ **غريب الحديث:**

ثأرنا: أصل الثأر: الحقد والغضب، من الثوران، يقال: ثار ثائره: إذا هاج غضبه.

---

(١) الفرقان: الآية (٥٢).

(٢) محاسن التأويل (١٥/ ٢٤٧).

(٣) فتح القدير (٥/ ١٦٠).

(٤) إرشاد العقل السليم (٨/ ١٦١).

(٥) أخرجه: الترمذي (٥/ ٤٩٣-٤٩٤/ ٣٥٠٢) وقال: «حديث حسن غريب»، والنسائي في الكبرى (٦/ ١٠٦-١٠٧/ ١٠٢٣٤)، والحاكم (١/ ٥٢٨) وقال: «صحيح على شرط البخاري» ووافقه الذهبي.

★ **فوائد الحديث:**

قوله: «**ومن اليقين ما تهون به علينا مصيبات الدنيا**». **قال القاري**: «وفي رواية: «**مصائب الدنيا**» فإن من علم يقينًا أن مصيبات الدنيا مثوبات الأخرى، لا يغتم بما أصابه، ولا يحزن بما نابه»(١).

قوله: «**ولا تجعل مصيبتنا في ديننا**» **قال ابن علان**: «أي: ما يكرهه في ديننا بأن نخل بأدنى شيء مما أمرنا بأدائه، أو نقع في شيء مما نهينا عن مداخلته، وذلك لأن مصيبة الدين هي المصيبة العظمى؛ لما قد يترتب عليها من الشقاوة الكبرى، أعاذنا اللَّه من ذلك، ولا كذلك مصايب الدنيا؛ فإن ما فيها آئل إلى الذهاب، فما أصيب به المرء فذلك من عناية اللَّه به إن ألهمه الصبر، فإنه جعل له في ذلك الثواب، ولو ذهب من غير مصيبة، لما أثيب عليه»(٢).

قوله: «**ولا تجعل الدنيا أكبر همنا**» **قال القاري**: «أي: لا تجعل طلب المال والجاه أكبر قصدنا أو حزننا، بل اجعل أكبر قصدنا أو حزننا مصروفًا في عمل الآخرة»(٣).

قال الطيبي: «**أكبر همنا فيه أن قليلًا من الهم مما لا بد منه في أمر المعاش مرخص بل مستحب**»(٤).

قوله: «**ولا مبلغ علمنا**» **قال ابن علان**: «**ولا مبلغ علمنا**» بأن نقف عند ما يصلحها، ولا نجاوز لما يصلحها في آخرتنا؛ فإن الكافر لما لم يؤمن بدار القرار، وكان مبلغ علمه هذه الدار، استغرق بلذاتها، وسبح في بحار شهواتها، وقال: ﴿إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا﴾(٥)، فمن استغرق من أرباب الإيمان أوقاته في عمارة دنياه، وغفل عن عمارة أخراه، صار شبيهًا بأولئك الخاسرين»(٦).

وقال القاري: «أي: لا تجعلنا حيث لا نعلم ولا نتفكر إلا في أمور الدنيا، بل اجعلنا متفكرين في أحوال الآخرة، متفحصين من العلوم التي تتعلق باللَّه تعالى

---

(١) المرقاة (٥/ ٣٥٣).
(٢) دليل الفالحين (٣/ ٣١٨).
(٣) المرقاة (٥/ ٣٥٥).
(٤) الكاشف (٦/ ١٩٢٨).
(٥) الأنعام: الآية (٢٩).
(٦) دليل الفالحين (٣/ ٣١٨).

وبالدار الآخرة، والمبلغ الغاية التي يبلغه الماشي والمحاسب، فيقف عنده قال تعالى: ﴿فَأَعْرِضْ عَن مَّن تَوَلَّىٰ عَن ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿٢٩﴾ ذَٰلِكَ مَبْلَغُهُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ﴾ وقال عز وجل: ﴿يَعْلَمُونَ ظَٰهِرًا مِّنَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ ٱلْآخِرَةِ هُمْ غَٰفِلُونَ ﴿٧﴾﴾[1]»[2].

* * *

(١) الروم: الآية (٧).

(٢) المرقاة (٥/ ٣٥٥).

قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ لِيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔواْ بِمَا عَمِلُواْ وَيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ أَحْسَنُواْ بِٱلْحُسْنَى ﴿٣١﴾﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال السعدي: «يخبر تعالى أنه مالك الملك، المتفرد بملك الدنيا والآخرة، وأن جميع من في السموات والأرض ملك لله، يتصرف فيهم تصرف الملك العظيم، في عبيده ومماليكه، ينفذ فيهم قدره، ويجري عليهم شرعه، ويأمرهم وينهاهم، ويجزيهم على ما أمرهم به ونهاهم عنه، فيثيب المطيع، ويعاقب العاصي، ﴿لِيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔواْ﴾ العمل السيئات من الكفر فما دونه من المعاصي، وبما عملوا من أعمال الشر بالعقوبة الفظيعة. ﴿وَيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ أَحْسَنُواْ بِٱلْحُسْنَى﴾ في عبادة اللَّه تعالى، وأحسنوا إلى خلق اللَّه، بأنواع المنافع ﴿بِٱلْحُسْنَى﴾ أي: بالحالة الحسنة في الدنيا والآخرة، وأكبر ذلك وأجله رضا ربهم، والفوز بالجنة وما فيها من النعيم»[(١)].

قال الألوسي: «في العدول عن ضمير ربك إلى الاسم الجامع ما ينبئ عن زيادة القدرة، وأن الكلام مسوق لوعيد المعرضين، وأن تسوية هذا الملك العظيم لهذه الحكمة فلا بدّ من ضال ومهتد، ومن أن يلقى كل ما يستحقه، وفيه أنه ﷺ يلقى الحسنى جزاءً لتبليغه، وهم يلقون السوءى جزاءً لتكذيبهم، وكرر فعل الجزاء لإبراز كمال الاعتناء به، والتنبيه على تباين الجزاءين»[(٢)].

قال الرازي: «وقوله تعالى في حق المسيء: ﴿بِمَا عَمِلُواْ﴾ وفي حق المحسن ﴿بِٱلْحُسْنَى﴾ فيه لطيفة؛ لأن جزاء المسيء عذاب، فنبه على ما يدفع الظلم فقال: لا يعذب إلا عن ذنب، وأما في الحسنى فلم يقل: بما عملوا؛ لأن الثواب إن كان

---

(١) تيسير الكريم الرحمن (٧/ ٢١٤).

(٢) روح المعاني (٢٧/ ٦١).

لا على حسنة يكون في غاية الفضل، فلا يخل بالمعنى هذا إذا قلنا: الحسنى هي المثوبة بالحسنى، وأما إذا قلنا: الأعمال الحسنى، ففيه لطيفة غير ذلك، وهي أن أعمالهم لم يذكر فيها التساوي، وقال في أعمال المحسنين: (الحسنى) إشارة إلى الكرم والصفح حيث ذكر أحسن الاسمين. و(الحسنى) صفة أقيمت مقام الموصوف كأنه تعالى قال: بالأعمال الحسنى، كقوله تعالى: ﴿ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾[1]، وحينئذ هو كقوله تعالى: ﴿لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَحْسَنَ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾[2] أي: يأخذ أحسن أعمالهم ويجعل ثواب كل ما وجد منهم لجزاء ذلك الأحسن أو هي صفة المثوبة، كأنه قال: ويجزي الذين أحسنوا بالمثوبة الحسنى أو بالعاقبة الحسنى، أي: جزاؤهم حسن العاقبة وهذا جزاء فحسب، وأما الزيادة التي هي الفضل بعد الفضل فغير داخلة فيه»[3].

* * *

---

(١) الأعراف: الآية (١٨٠).

(٢) العنكبوت: الآية (٧).

(٣) مفاتيح الغيب (٢٩/ ٧).

قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَجۡتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلۡإِثۡمِ وَٱلۡفَوَٰحِشَ إِلَّا ٱللَّمَمَۚ﴾

★ **غريب الآية:**

اللمم: صغائر الذنوب. وأصله: ما يكون فعله على وجه القلة. قال أمية:

إن تغفر اللهم تغفر جمّا   وأيّ عبد لك ما ألمّا

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن كثير: «فسر المحسنين بأنهم الذين يجتنبون كبائر الإثم والفواحش، أي: لا يتعاطون المحرمات والكبائر، وإن وقع منهم بعض الصغائر؛ فإنه يغفر لهم ويستر عليهم، كما قال في الآية الأخرى: ﴿إِن تَجۡتَنِبُواْ كَبَآئِرَ مَا تُنۡهَوۡنَ عَنۡهُ نُكَفِّرۡ عَنكُمۡ سَيِّـَٔاتِكُمۡ وَنُدۡخِلۡكُم مُّدۡخَلٗا كَرِيمٗا ٣١﴾[١]، وقال هاهنا: ﴿ٱلَّذِينَ يَجۡتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلۡإِثۡمِ وَٱلۡفَوَٰحِشَ إِلَّا ٱللَّمَمَۚ﴾. وهذا استثناء منقطع؛ لأن اللمم من صغائر الذنوب ومحقرات الأعمال»[٢].

قال ابن جرير: «قوله: ﴿ٱلَّذِينَ يَجۡتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلۡإِثۡمِ﴾ يقول: الذين يبتعدون عن كبائر الإثم التي نهى اللّه عنها وحرمها عليهم فلا يقربونها، وذلك الشرك باللّه، وما قد بيّنّاه في قوله: ﴿إِن تَجۡتَنِبُواْ كَبَآئِرَ مَا تُنۡهَوۡنَ عَنۡهُ نُكَفِّرۡ عَنكُمۡ سَيِّـَٔاتِكُمۡ﴾. وقوله: ﴿وَٱلۡفَوَٰحِشَ﴾ وهي الزنا وما أشبهه، مما أوجب اللّه فيه حدًّا.

وقوله: ﴿إِلَّا ٱللَّمَمَۚ﴾ اختلف أهل التأويل في معنى (إلا) في هذا الموضع، فقال بعضهم: هي بمعنى الاستثناء المنقطع، وقالوا: معنى الكلام: الذين يجتنبون كبائر الإثم والفواحش، إلا اللمم الذي ألمّوا به من الإثم والفواحش في الجاهلية قبل الإسلام، فإن اللّه قد عفا لهم عنه، فلا يؤاخذهم به..

وكان بعض أهل العلم بكلام العرب ممن يوجه تأويل (إلا) في هذا الموضع إلى

---

(١) النساء: الآية (٣١).

(٢) تفسير القرآن العظيم (٧/ ٤٣٥).

هذا الوجه الذي ذكرته عن ابن عباس يقول في تأويل ذلك: لم يؤذن لهم في اللمم، وليس هو من الفواحش، ولا من كبائر الإثم، وقد يُستثنى الشيء من الشيء، وليس منه على ضمير قد كفّ عنه فمجازه: إلا أن يلمّ بشيء ليس من الفواحش ولا من الكبائر، قال الشاعر:

وبلدةٍ ليس بها أنيسُ　　إلا اليعافير وإلا العيسُ

واليعافير: الظباء، والعيس: الإبل وليسا من الناس، فكأنه قال: ليس به أنيس، غير أن به ظباءً وإبلًا. وقال بعضهم: اليعفور من الظباء الأحمر، والأعيس: الأبيض. وقال بنحو هذا القول جماعة من أهل التأويل..

وقال آخرون: بل ذلك استثناء صحيح، ومعنى الكلام: الذين يجتنبون كبائر الإثم والفواحش إلا اللمم إلا أن يلمّ بها ثم يتوب..

وقال آخرون ممن وجه معنى (إلا) إلى الاستثناء المنقطع: اللمم: هو دون حد الدنيا وحد الآخرة، قد تجاوز اللَّه عنه..

وأولى الأقوال في ذلك عندي بالصواب قول من قال: (إلا) بمعنى الاستثناء المنقطع، ووجّه معنى الكلام إلى ﴿ٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ وَٱلْفَوَٰحِشَ إِلَّا ٱللَّمَمَ﴾ بما دون كبائر الإثم، ودون الفواحش الموجبة للحدود في الدنيا، والعذاب في الآخرة، فإن ذلك معفوّ لهم عنه، وذلك عندي نظير قوله جلّ ثناؤه: ﴿إِن تَجْتَنِبُوا۟ كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُم مُّدْخَلًا كَرِيمًا ﴿٣١﴾﴾ فوعد جلّ ثناؤه باجتناب الكبائر العفو عما دونها من السيئات، وهو اللمم الذي قال النبي ﷺ: «**العينان تزنيان، واليدان تزنيان، والرجلان تزنيان، ويصدّق ذلك الفرج أو يكذّبه**»(١)، وذلك أنه لا حد فيما دون ولوج الفرج في الفرج، وذلك هو العفو من اللَّه في الدنيا عن عقوبة العبد عليه، واللَّه -جلّ ثناؤه- أكرم من أن يعود فيما قد عفا عنه، كما رُوي عن النبي ﷺ، واللمم في كلام العرب: المقاربة للشيء، ذكر الفرّاء أنه سمع العرب تقول: ضربه ما لمم القتل، يريدون: ضربًا مقاربًا للقتل. قال: وسمعت من آخر: ألمّ يفعل في معنى: (كاد يفعل)(٢).

---

(١) أخرجه بنحوه: أحمد (٢/ ٢٧٦)، البخاري (١١/ ٣٠/ ٦٢٤٣)، مسلم (٤/ ٢٠٤٦/ ٢٦٥٧)، أبو داود (٢/ ٦١٢/ ٢١٥٣).

(٢) جامع البيان (٢٧/ ٦٤-٦٩).

قال الألوسي: «الآية عند الأكثرين دليل على أن المعاصي منها كبائر ومنها صغائر؛ وأنكر جماعة من الأئمة هذا الانقسام وقالوا: سائر المعاصي كبائر، منهم الأستاذ أبو إسحاق الإسفرايني، والقاضي أبو بكر الباقلاني، وإمام الحرمين في «الإرشاد»، وتقي الدين السبكي، وابن القشيري في «المرشد»، بل حكاه ابن فورك عن الأشاعرة، واختاره في تفسيره فقال: معاصي اللَّه تعالى كلها عندنا كبائر؛ وإنما يقال لبعضها صغيرة وكبيرة بالإضافة، وحكى الانقسام عند المعتزلة، وقال: إنه ليس بصحيح، وقال القاضي عبدالوهاب: لا يمكن أن يقال في معصية: إنها صغيرة، إلا على معنى أنها تصغر باجتناب الكبائر، ويوافق ذلك ما رواه الطبراني عن ابن عباس، لكنه منقطع، أنه ذكر عنده الكبائر فقال: «**كل ما نهى اللَّه تعالى عنه فهو كبيرة**»، وفي رواية: «**كل شيء عُصي اللَّه تعالى فيه فهو كبيرة**»، والجمهور على الانقسام، قيل: ولا خلاف في المعنى، وإنما الخلاف في التسمية، والإطلاق لإجماع الكل على أن من المعاصي ما يقدح في العدالة، ومنها ما لا يقدح فيها، وإنما الأولون فرّوا من التسمية، فكرهوا تسمية معصية اللَّه تعالى صغيرة؛ نظرًا إلى عظمة اللَّه عز وجل وشدة عقابه سبحانه، وإجلالًا له جل شأنه عن تسمية معصيته صغيرة؛ لأنها بالنظر إلى باهر عظمته كبيرة أيّ كبيرة، ولم ينظر الجمهور إلى ذلك لأنه معلوم؛ وقسّموها إلى ما ذكر لظواهر الآيات والأحاديث؛ ولذلك قال الغزالي: لا يليق إنكار الفرق بين الكبائر والصغائر وقد عرفنا من مدارك الشرع.

ثم القائلون بالفرق اختلفوا في حد الكبيرة، فقيل: هي ما لحق صاحبها عليها بخصوصها وعيد شديد بنص كتاب أو سنة، وهي عبارة كثير من الفقهاء. وقيل: كل معصية أوجبت الحدّ، وبه قال البغوي وغيره. والأول أوفق لما ذكروه في تفصيل الكبائر؛ إذ عدّوا الغيبة والنميمة والعقوق وغير ذلك منها، ولا حدّ فيه؛ فهو أصح من الثاني، وإن قال الرافعي: إنهم إلى ترجيحه أميل، وقد يقال: يرد على الأول أيضًا أنهم عدّوا من الكبائر ما لم يرد فيه بخصوصه وعيد شديد. وقيل: هي كل ما نص الكتاب على تحريمه أو وجب في جنسه حدّ وترك فريضة تجب فورًا والكذب في الشهادة والرواية واليمين، زاد الهروي وشريح: وكل قول خالف الإجماع العام. وقيل: كل جريمة تؤذن بقلة اكتراث مرتكبها بالدين ورقة الديانة، وهو المحكي عن إمام الحرمين، ورجحه جمع لما فيه من حسن الضبط، وتعقب بأنه

بظاهره يتناول صغيرة الخسة، والإمام -كما قال الأذرعي- إنما ضبط به ما يبطل العدالة من المعاصي الشاملة لذلك لا الكبيرة فقط، نعم هو أشمل من التعريفين الأولين. وقيل: هي ما أوجب الحدّ أو توجه إليه الوعيد، ذكره الماوردي في فتاويه. وقيل: كل محرم لعينه منهي عنه لمعنى في نفسه، فإن فعله على وجه يجمع وجهين أو وجوهًا من التحريم كان فاحشة، فالزنا كبيرة، وبحليلة الجار فاحشة، والصغيرة: تعاطي ما تنقص رتبته عن رتبته المنصوص عليه، أو تعاطيه على وجه دون المنصوص عليه، فإن تعاطاه على وجه يجمع وجهين أو أكثر من التحريم كان كبيرة، فالقبلة واللمس والمفاخذة صغيرة، ومع حليلة الجار كبيرة. كذا نقله ابن الرفعة وغيره عن القاضي حسين عن الحليمي. وقيل: هي كل فعل نص الكتاب على تحريمه، أي: بلفظ التحريم، وهو أربعة أشياء: أكل الميتة، ولحم الخنزير، ومال اليتيم، والفرار من الزحف، ورد بمنع الحصر، وقيل: إنها كل ذنب قرن به حدّ، أو وعيد، أو لعن بنص كتاب أو سنة، أو علم أن مفسدته كمفسدة ما قرن به ذلك أو أكثر، أو أشعر بتهاون مرتكبه في دينه إشعارًا صغر الكبائر المنصوص عليها بذلك كما لو قتل من يعتقده معصومًا فظهر أنه مستحق لدمه أو وطئ امرأة ظانًا أنه زان بها فإذا هي زوجته أو أمته، وإليه ذهب شيخ الإسلام البارزي وقال: هو التحقيق؛ وقيل: غير ذلك، واعتمد الواحدي أنها لا حدّ لها يحصرها فقال: الصحيح أن الكبيرة ليس لها حدّ يعرفها العباد به، وإلا لاقتحم الناس الصغائر واستباحوها؛ ولكن اللَّه تعالى أخفى ذلك عنهم ليجتهدوا في اجتناب المنهي عنه رجاء أن تجتنب الكبائر؛ ونظير ذلك إخفاء الاسم الأعظم، والصلاة الوسطى، وليلة القدر، وساعة الإجابة. وقال العلامة ابن حجر الهيتمي: كل ما ذكر من الحدود إنما قصد به التقريب فقط، وإلا فهي ليست بحدود جامعة، وكيف يمكن ضبط ما لا مطمع في ضبطه؟

وذهب جمع إلى تعريفها بالعدّ، فعن ابن عباس أنها ما ذكره اللَّه تعالى في أول سورة (النساء) إلى قوله سبحانه: ﴿إِن تَجْتَنِبُوا۟ كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ﴾[1]. وقيل: هي سبع. وروي ذلك عن علي كرم اللَّه تعالى وجهه، وعطاء، وعبيد بن عمير، واستدل

(١) النساء: الآية (٣١).

له بما في الصحيحين: «**اجتنبوا السبع الموبقات: الإشراك بالله تعالى، والسحر، وقتل النفس التي حرم الله تعالى إلا بالحق، وأكل مال اليتيم، وأكل الربا، والتولي يوم الزحف، وقذف المحصنات الغافلات المؤمنات**»(١). وقيل: خمس عشرة. وقيل: أربع عشرة. وقيل: أربع. وعن ابن مسعود: ثلاث، وفي رواية أخرى: عشرة. وقال شيخ الإسلام العلائي: المنصوص عليه في الأحاديث أنه كبيرة خمس وعشرون، وتعقبه ابن حجر بزيادة على ذلك. وقال أبو طالب المكي: هي سبع عشرة: أربع في القلب: الشرك، والإصرار على المعصية، والقنوط، والأمن من المكر. وأربع في اللسان: القذف، وشهادة الزور، والسحر، وهو كل كلام يغير الإنسان أو شيئًا من أعضائه، واليمين الغموس، وهي التي تبطل بها حقًا أو تثبت بها باطلًا. وثلاث في البطن: أكل مال اليتيم ظلمًا، وأكل الربا، وشرب كل مسكر. واثنان في الفرج: الزنا، واللواط. واثنتان في اليد: القتل، والسرقة. وواحدة في الرجل: الفرار من الزحف. وواحدة في جميع الجسد: عقوق الوالدين. وفيه ما فيه. وروى الطبراني عن سعيد بن جبير عن ابن عباس أن رجلًا قال له: كم الكبائر، سبع هي؟ فقال: «**هي إلى سبعمائة أقرب منها إلى سبع، غير أنه لا كبيرة مع الاستغفار، ولا صغيرة مع الإصرار**».

وقد ألف فيها غير واحد من العلماء، وفي كتاب «الزواجر» -تأليف العلامة ابن حجر- ما فيه كفاية، فليراجع، والله تعالى الموفق، وإنا لنستغفره ونتوب إليه»(٢).

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في تفسير ﴿ٱللَّمَمَ﴾

* عن ابن عباس قال: **ما رأيت شيئًا أشبه باللمم مما قال أبو هريرة عن النبي ﷺ قال: «إن الله كتب على ابن آدم حظه من الزنا أدرك ذلك لا محالة، فزنا العين النظر، وزنا اللسان المنطق، والنفس تتمنى وتشتهي، والفرج يصدق ذلك كله ويكذبه»**(٣).

---

(١) أخرجه: البخاري (٥/ ٤٩٤/ ٢٧٦٦)، ومسلم (١/ ٩٢/ ٨٩)، وأبو داود (٣/ ٢٩٤-٢٩٥/ ٢٨٧٤)، والنسائي (٦/ ٥٦٨/ ٣٦٧٣).

(٢) روح المعاني (٢٧/ ٦٢-٦٣).

(٣) أخرجه: أحمد (٢/ ٢٧٦و٣٤٣و٤٣١و٥٣٦)، والبخاري (١١/ ٣٠/ ٦٢٤٣)، ومسلم (٤/ ٢٠٤٦/ ٢٦٥٧)، وأبو داود (٢/ ٦١١-٦١٢/ ٢١٥٢)، والنسائي في الكبرى (٦/ ٤٧٣-٤٧٤/ ١١٥٤٤).

★ **فوائد الحديث:**

قال الخطابي: «قوله: «**أشبه باللمم**» يريد بذلك ما عفا اللَّه عنه من صغائر الذنوب وهو معنى قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَجۡتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلۡإِثۡمِ وَٱلۡفَوَٰحِشَ إِلَّا ٱللَّمَمَۚ﴾ وهو ما يلم به الإنسان من صغائر الذنوب التي لا يكاد يسلم منها إلا من عصمه اللَّه تعالى وحفظه. وإنما سمي النظر زنا والقول زنا لأنهما مقدمتان للزنا؛ فإن البصر رائد، واللسان خاطب، والفرج مصدق ومحقق له بالفعل»[(١)].

قال ابن بطال: «وزنا العين فيما زاد على النظرة الأولى التي لا تملك مما يديم النظر إليه على سبيل الشره والشهوة، وكذلك زنا المنطق فيما يلتذ به من محادثة من لا يحل له ذلك منه، وزنا النفس تمنى ذلك وتشتهيه فذلك كله سمي زنا، لأنه من دواعي زنا الفرج ودل قوله: «**إن اللَّه كتب على ابن آدم حظه من الزنا أدرك ذلك لا محالة**» أن ابن آدم لا يخلص من ذلك»[(٢)].

" قال المهلب: وكل ما كتبه اللَّه على ابن آدم فهو سابق في علم اللَّه، لا بد أن يدركه المكتوب عليه، وأن الإنسان لا يملك دفع ذلك عن نفسه غير أن اللَّه تعالى تفضل على عباده وجعل ذلك لمما وصغائر لا يطالب بها عباده إذا لم يكن للفرج تصديق لها، فإذا دقها الفرج كان ذلك من الكبائر رفقًا من اللَّه بعباده ورحمة لهم، لما جبلهم عليه من ضعف الخلقة، ولو آخذ عباده باللمم أو ما دونه من حديث النفس لكان ذلك عدلا منه في عباده وحكمة، ولا يسأل عما يفعل وله الحجة البالغة، لكن قبل منهم اليسير وعفا لهم عن الكثير تفضلًا منه وإحسانًا»[(٣)].

قال ابن بطال: ««**أدرك ذلك لا محالة**» إدراكه له من أجل أن اللَّه كتبه عليه، وإنما سمى النظر والمنطق ومنى النفس وشهوتها زنا لما كانت دواعي إلى الزنا، والسبب قد يسمى باسم المسبب مجازًا واتساعًا لما بينهما من التعلق، غير أن زنا العين وزنا اللسان وتمني النفس غير مؤاخذ به من اجتنب الزنا بفرجه؛ لأنه كذب زنا جوارحه بترك الزنا بفرجه، فاستحق زنا عينه ولسانه وقلبه؛ لأن ذلك من اللمم الذي

---

(١) معالم السنن (٣/ ٧١-٧٢).

(٢) شرح ابن بطال (٩/ ٢٣).

(٣) شرح ابن بطال (٩/ ٢٣-٢٤).

يغفر باجتناب الكبائر، وزنا الفرج من أكبر الكبائر، فمن فعله فقد صدق زنا عينه ولسانه وقلبه، فيؤاخذ بإثم ذلك كله.

وفي قوله: «**النفس تتمنى وتشتهي**» دليل على أن فعل العبد ما نهاه اللَّه عنه، مع تقدم تقديره تعالى وسابق علمه بفعله له باختيار منه وإيثار، وليس بمجبر عليه ولا مضطر إلى فعله، وعلى هذا علق الثواب والعقاب، فسقط قول جهم بالإجبار بنص قوله ﷺ: «**والنفس تتمنى وتشتهي**»؛ لأن المجبر مكره مضطر، وهو بخلاف المتمني والمشتهي، واللمم صغار الذنوب، وهي مغفورة باجتناب الكبائر»[1].

* عن ابن عباس: ﴿ٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ وَٱلْفَوَٰحِشَ إِلَّا ٱللَّمَمَ﴾ قال: قال النبي ﷺ:

«**إن تغفر اللهم تغفر جمّا وأيُّ عبد لك لا أَلَمّا**»[2].

★ **غريب الحديث:**

جمًّا: بألف بعد ميم مشددة، أي: كثيرًا كبيرًا.

أَلَمّا: ألمّ: فعل ماض مفرد والألف للإطلاق، أي: لم يلمّ بمعصيته، يقال: لَمَّ، أي: نزل، وأَلَمَّ: إذا فعل اللمم.

★ **فوائد الحديث:**

"هذا البيت لأمية بن الصلت أنشده رسول اللَّه ﷺ"[3]. "استشهادًا بأن المؤمن لا يخلو من اللمم"[4].

قال القاري: «ومعنى بيت أمية: إن تغفر ذنوب عبادك، فقد غفرت ذنوبًا كثيرة، فإن عبادك كلهم خطاؤون، وأشار تعالى إليه في الآية بقوله: ﴿إِنَّ رَبَّكَ وَٰسِعُ ٱلْمَغْفِرَةِ﴾»[5].

---

(١) شرح ابن بطال (١٠/ ٣١٢).

(٢) أخرجه: الترمذي (٥/ ٣٧٠/ ٣٢٨٤) وقال: «حديث حسن صحيح غريب لا نعرفه إلا من حديث زكريا بن إسحاق»، والحاكم وقال: «حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه»، ووافقه الذهبي.

(٣) من كلام البيضاوي (الكاشف ٦/ ١٨٥٢).

(٤) من كلام القاري في المرقاة (٥/ ١٨١).

(٥) المرقاة (٥/ ١٨١).

قال الطيبي: «وجه مطابقة الآية وتفسيرها للبيت، هو أن يقال: إن الشرط والجزاء في البيت متحدان، فيدل على كمال الغفران ونهايته، ومجيئهما مضارعين للدلالة على الاستمرار وأن هذا من شأنه تعالى وكذا الاعتراض بـ(اللهم) يدل على فخامة الشأن، أي: من شأنك اللهم أن تغفر غفرانًا كبيرًا للذنوب العظيمة، وأما الجرائم الصغائر فلا تنسب إليك؛ لأن أحدًا لا يخلو عنها، وأنها مكفرة باجتناب الكبائر.

فإن قلت: فعلى هذا كان الواجب أن يجاء بـ(إذا) المقتضية للقطع، لا (إنْ) لاقتضائها الشك.

قلت: (إنْ) هاهنا بمعنى التعليل، كما في قوله تعالى للنبي وأصحابه: ﴿وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ۝١٣٩﴾[1]، أي: لأجل أنكم مؤمنون لا تهنوا ولا تحزنوا، وقولك للسلطان: إن كنت سلطانًا فأعط الجزيل من النوال»[2].

قال القاري: «وقال ابن حجر: (إنْ) بمعنى (إذ) كما في قوله تعالى: ﴿وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾[3] فسقط ما قاله الطيبي، وفيه أن المؤدى واحد، فإن (إذ) للتعليل أيضًا، كما في قوله تعالى: ﴿وَلَن يَنفَعَكُمُ الْيَوْمَ إِذ ظَّلَمْتُمْ﴾[4] فلكل ساقط لاقط، انتهى. وعلى تقدير تقرير صحة الظرفية في ﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ لا يمتنع إرادة التعليل أيضًا فلا وجه للسقوط مع أن الظرفية غير مستقيمة في البيت لعدم تقييد غفاريته بوقت دون وقت، ولذا قال بنفسه ناقضًا لكلامه تابعًا للطيبي في مرامه فالمعنى: لأجل أنك غفار، إلخ»[5].

* * *

(١) آل عمران: الآية (١٣٩).

(٢) الكاشف (٦/ ١٨٥٢).

(٣) آل عمران: الآية (١٧٥).

(٤) الزخرف: الآية (٣٩).

(٥) المرقاة (٥/ ١٨٢).

قوله تعالى : ﴿إِنَّ رَبَّكَ وَاسِعُ الْمَغْفِرَةِ﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير : «يقول -تعالى ذكره- لنبيه محمد ﷺ : ﴿إِنَّ رَبَّكَ﴾ يا محمد ﴿وَاسِعُ الْمَغْفِرَةِ﴾ : واسع عفوه للمذنبين الذين لم تبلغ ذنوبهم الفواحش وكبائر الإثم . وإنما أعلم جل ثناؤه بقوله هذا عباده أنه يغفر اللمم بما وصفنا من الذنوب لمن اجتنب كبائر الإثم والفواحش»(١) .

قال ابن كثير : «قوله : ﴿إِنَّ رَبَّكَ وَاسِعُ الْمَغْفِرَةِ﴾ ، أي : رحمته وسعت كل شيء ، ومغفرته تسع الذنوب كلها لمن تاب منها ، كقوله : ﴿۞ قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ ۚ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴿٥٣﴾﴾(٢)»(٣) .

* * *

---

(١) جامع البيان (٢٧/ ٦٩) .

(٢) الزمر : الآية (٥٣) .

(٣) تفسير القرآن العظيم (٧/ ٤٦٢) .

قوله تعالى: ﴿هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنشَأَكُم مِّنَ الْأَرْضِ وَإِذْ أَنتُمْ أَجِنَّةٌ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ﴾

★ **غريب الآية:**

أجنة: جمع جنين، وهو الولد في بطن أمه؛ سمي بذلك لاستتاره في الرحم.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره-: ربكم أعلم بالمؤمن منكم من الكافر، والمحسن منكم من المسيء، والمطيع من العاصي، حين ابتدعكم من الأرض، فأحدثكم منها بخلق أبيكم آدم منها، وحين ﴿أَنتُمْ أَجِنَّةٌ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ﴾، يقول: وحين أنتم حمل لم تولدوا منكم، وأنفسكم بعدما صرتم رجالًا ونساءً»[١].

قال السعدي: «أي: هو تعالى أعلم بأحوالكم كلها، وما جبلكم عليه من الضعف والخور عن كثير مما أمركم اللَّه به، ومن كثرة الدواعي إلى بعض المحرمات، وكثرة الجواذب إليها، وعدم الموانع القوية، والضعف موجود مشاهد منكم حين أنشاكم اللَّه من الأرض، وإذ كنتم في بطون أمهاتكم، ولم يزل موجودًا فيكم، وإن كان اللَّه تعالى قد أوجد فيكم قوة على ما أمركم به، ولكن الضعف لم يزل، فلعلمه تعالى بأحوالكم هذه ناسبت الحكمة الإلهية والجود الرباني أن يتغمدكم برحمته ومغفرته وعفوه، ويغمركم بإحسانه، ويزيل عنكم الجرائم والمآثم، خصوصًا إذا كان العبد مقصوده مرضاة ربه في جميع الأوقات، وسعيه فيما يقرب إليه في أكثر الآنات، وفراره من الذنوب التي يتمقت بها عند مولاه، ثم تقع منه الفلتة بعد الفلتة، فإن اللَّه تعالى أكرم الأكرمين، وأرحم الراحمين، أرحم بعباده من الوالدة بولدها، فلا بد لمثل هذا أن يكون من مغفرة ربه قريبًا، وأن يكون اللَّه له في جميع أحواله مجيبًا»[٢].

---

(١) جامع البيان (٢٧/ ٦٩).

(٢) تيسير الكريم الرحمن (٧/ ٢١٥-٢١٦).

قال الرازي: «ما فائدة قوله تعالى: ﴿فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ﴾؟ نقول: التنبيه على كمال العلم والقدرة؛ فإن بطن الأم في غاية الظلمة، ومن علم بحال الجنين فيها، لا يخفى عليه ما ظهر من حال العباد»[1].

* * *

(١) مفاتيح الغيب (٢٩/ ١١).

قوله تعالى: ﴿فَلَا تُزَكُّوٓا۟ أَنفُسَكُمْ ۖ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ ٱتَّقَىٰٓ﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال البقاعي: «لما كان من عادة من سلم من الذنوب أن يفتخر على من قارفها؛ لما بني الإنسان عليه من محبة الفخر لما جبل عليه من النقصان، وكان حاله قد يتبدل فيسبق عليه الكتاب فيشقى، سبب عن ذلك قوله: ﴿فَلَا تُزَكُّوٓا۟﴾ أي: تمدحوا بالزكاة وهو البركة والطهارة عن الدناءة ﴿أَنفُسَكُمْ﴾ أي: حقيقة بأن يثني على نفسه؛ فإن تزكيته لنفسه من علامات كونه محجوبًا عن الله -قاله القشيري-، أو مجازًا بأن يثني على غيره من إخوانه؛ فإنه كثيرًا ما يثني بشيء فيظهر خلافه، وربما حصل له الأذى بسببه، «**وإن العبد ليعمل بعمل أهل الجنة حتى ما يكون بينه وبينها إلا باع أو ذراع**»[1] الحديث، ولذلك علل بقوله: ﴿هُوَ أَعْلَمُ﴾ أي: منكم ومن جميع الخلق ﴿بِمَنِ ٱتَّقَىٰٓ﴾ أي: جاهد نفسه حتى حصل فيه تقوى، فهو يوصله فوق ما يؤمل من الثواب في الدارين، فكيف بمن صارت له التقوى وصفًا ثابتًا»[2].

قال ابن كثير: «وقوله: ﴿فَلَا تُزَكُّوٓا۟ أَنفُسَكُمْ﴾ أي: تمدحوها وتشكروها وتمنوا بأعمالكم، ﴿هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ ٱتَّقَىٰٓ﴾، كما قال: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنفُسَهُم ۚ بَلِ ٱللَّهُ يُزَكِّى مَن يَشَآءُ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴿٤٩﴾﴾ [3]»[4].

قال ابن عطية: «وقوله: ﴿فَلَا تُزَكُّوٓا۟ أَنفُسَكُمْ﴾ ظاهره النهي عن أن يزكي نفسه، ويحتمل أن يكون نهيًا عن أن يزكي بعض الناس بعضًا، وإذا كان هذا فإنما ينهى عن تزكية السمعة والمدح للدنيا والقطع بالتزكية، ومن ذلك الحديث في عثمان بن

---

(١) أخرجه: أحمد (١/ ٣٨٢ و٤٣٠). والبخاري (٦/ ٣٧٣/ ٣٢٠٨). ومسلم (٤/ ٢٠٣٦/ ٢٦٤٣). وأبو داود (٥/ ٨٢-٨٣/ ٤٧٠٨). والترمذي (٤/ ٣٨٨-٣٨٩/ ٢١٣٧)، والنسائي في الكبرى (٦/ ٣٦٦/ ١١٢٤٦)، وابن ماجه (١/ ٢٩/ ٧٦) من حديث ابن مسعود ﷺ.

(٢) نظم الدرر (١٩/ ٦٩).

(٣) النساء: الآية (٤٩).

(٤) تفسير القرآن العظيم (٧/ ٤٦٢).

مظعون عند موته. وأما تزكية الإمام والقدوة أحدًا ليؤتم به أو ليهتم الناس بالخير فجائز، وقد زكى رسول اللَّه ﷺ بعض أصحابه أبا بكر وغيره، وكذلك تزكية الشهود في الحقوق جائزة للضرورة إليها. وأصل التزكية إنما هو التقوى، واللَّه تعالى هو أعلم بتقوى الناس منكم»[١].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في النهي عن تزكية الإنسان نفسه إلا لموجب وآداب تزكية غيره

* عن زينب بنت أبي سلمة: «أنها سميت (بَرّة)، فقال رسول اللَّه ﷺ: **لا تزكوا أنفسكم، اللَّه أعلم بأهل البِرّ منكم**، فقالوا: بم نسميها؟ قال: **سموها (زينب)**»[٢].

★ **فوائد الحديث:**

وفي الحديث النهي عن التسمي بما فيه تزكية من الأسماء[٣].

قال القرطبي: «وأما تغييره (بَرّة) فلوجهين:

أحدهما: أنه كان يكره أن يقال: خرج من عند (برّة) إذ كانت المسماة بهذا الاسم زوجته وهي التي سماها (جويرية).

والثاني: لما فيه من تزكية الإنسان نفسه فهو مخالف لقوله تعالى: ﴿فَلَا تُزَكُّوٓاْ أَنفُسَكُمْۖ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ ٱتَّقَىٰٓ﴾ ويجري هذا المجرى في المنع ما قد كثر في هذه الديار من نعتهم أنفسهم بالنعوت التي تقتضي التزكية، كزكي الدين، ومحيي الدين وما أشبه ذلك من الأسماء الجارية في هذه الأزمان التي يقصد بها المدح والتزكية، لكن لما كثرت قبائح المسمين بهذه الأسماء في هذا الزمان ظهر تخلف هذه النعوت عن أصلها، فصارت لا تفيد شيئًا من أصل موضوعاتها، بل ربما ليسبق منها في بعض المواضع، أو في بعض الأشخاص نقيض موضوعها، فيصير الحال فيها كالحال في تسمية العرب المهلكة بالمفازة والحقير بالجليل تجملًا بإطلاق الاسم مع القطع باستقباح المسمى»[٤].

---

(١) المحرر الوجيز (٥/ ٢٠٥).

(٢) أخرجه: مسلم (٣/ ١٦٨٧/ ٢١٤٢)، وأبو داود (٥/ ٢٣٩/ ٤٩٥٣).

(٣) الإكمال (٧/ ١٦). (٤) المفهم (٥/ ٤٦٤-٤٦٥).

وقال: «وقولها: «سميت بَرّة» إنما كان هذا الاسم يدل على التزكية؛ **لأنه في** أصله اسم علم لجميع خصال البرّ، كما أن (فجار) اسم علم للفجور»[1].

* عن أبي بكرة قال: أثنى رجل على رجل عند النبي ﷺ فقال: «**ويلك! قطعت عنق صاحبك، قطعت عنق صاحبك**» (مرارًا) ثم قال: «**من كان منكم مادحًا أخاه لا محالة فليقل: أحسب فلانًا، والله حسيبه، ولا أزكي على الله أحدًا، أحسبه كذا وكذا، إن كان يعلم ذلك منه**»[2].

★ غريب الحديث:

ويلك: وأكثر أهل اللغة على أن (ويل) كلمة عذاب، و(ويح) كلمة رحمة، وعن اليزيدي: هما بمعنى واحد، تقول: ويح لزيد، وويل لزيد، ولك أن تنصبهما بإضمار فعل، كأنك قلت: ألزمه الله ويلًا أو ويحًا[3].

قطعت عنق صاحبك: معناه: أهلكته.

لا محالة: أي: لا حيلة له في ترك ذلك، وهي بمعنى: لا بد، والميم زائدة، ويحتمل أن يكون من الحول، أي: القوة والحركة.

والله حسيبه: أي: كافيه، ويحتمل أن يكون هنا (فعيل) من الحساب، أي: محاسبه على عمله الذي يعلم حقيقته.

★ فوائد الحديث:

قال ابن بطال: «معنى هذا الحديث -والله أعلم-: النهي عن أن يفرط في مدح الرجل بما ليس فيه، فيدخله من ذلك الإعجاب، ويظن أنه في الحقيقة بتلك المنزلة، ولذلك قال: قطعتم ظهر الرجل، حين وصفتموه بما ليس فيه. فربما حمله ذلك على العجب والكبر، وعلى تضييع العمل، وترك الازدياد من الفضل، واقتصر على حاله من حصل موصوفًا بما وصف به»[4].

---

(١) المفهم (٥/ ٤٦٦).

(٢) أخرجه: أحمد (٥/ ٤٦و٤٧)، والبخاري (٥/ ٣٤٣/ ٢٦٦٢)، ومسلم (٤/ ٢٢٩٦/ ٣٠٠٠)، وأبو داود (٥/ ١٥٤/ ٤٨٠٥)، وابن ماجه (٢/ ١٢٣٢/ ٣٧٤٤).

(٣) الفتح (١٠/ ٦٧٧).

(٤) الكاشف (٩/ ٢٥٣-٢٥٤).

"ورد هذا الحديث في النهي عن المدح، وقد جاءت أحاديث كثيرة في الصحيحين بالمدح في الوجه، قال العلماء: وطريق الجمع بينها أن النهي محمول على المجازفة في المدح والزيادة في الأوصاف، أو على من يخاف عليه فتنة من إعجاب ونحوه إذا سمع المدح، وأما من لا يخاف عليه ذلك لكمال تقواه ورسوخ عقله ومعرفته فلا نهي في مدحه في وجهه إذا لم يكن فيه مجازفة، بل إن كان يحصل بذلك مصلحة كنشطه للخير، والازدياد منه، أو الدوام عليه، أو الاقتداء به، كان مستحبًا، والله أعلم»[١].

وقال القرطبي: «وقد مدح النبي ﷺ مشافهة نظمًا ونثرًا، ومدح هو أيضًا جماعة من أعيان أصحابه مشافهة، لكن ذلك كله إنما جاز لما صحت المقاصد، وأمنت الآفات المذكورة»[٢].

* عن أبي معمر قال: قام رجل يثني على أمير من الأمراء فجعل المقداد يحثي عليه التراب، وقال: «أمرنا رسول الله ﷺ أن نحثي في وجوه المداحين التراب»[٣].

★ **غريب الحديث:**

أن نحثي: أي: أن نرمي، يقال: حَثَا يحثو حَثْوًا، ويحثي حَثْيًا.

★ **فوائد الحديث:**

قال الخطابي: «المداحون هم الذين اتخذوا مدح الناس عادة، وجعلوه بضاعة يستأكلون به الممدوح ويفتنونه، فأما من مدح الرجل على الفعل الحسن والأمر المحمود يكون منه، ترغيبًا له في أمثاله وتحريضًا للناس على الاقتداء به في أشباهه، فليس بمداح، وإن كان قد صار مادحًا بما تكلم به من جميل القول فيه. وقد استعمل المقداد الحديث على ظاهره، وحمله على وجهه في تناول عين التراب بيده وحثيه في وجه المادح. وقد يتأول أيضًا على وجه آخر وهو أن يكون معناه

---

(١) شرح مسلم للنووي (١٨/ ٩٩).

(٢) المفهم (٦/ ٦٢٧).

(٣) أخرجه: أحمد (٦/ ٥)، والبخاري في الأدب المفرد (٣٣٩)، ومسلم (٤/ ٢٢٩٧/ ٣٠٠٢)، وأبو داود (٥/ ١٥٣/ ٤٨٠٤)، والترمذي (٤/ ٥١٨/ ٢٣٩٣)، وابن ماجه (٢/ ١٢٣٢/ ٣٧٤٢).

الخيبة والحرمان، أي: من تعرض لكم بالثناء والمدح فلا تعطوه واحرموه. كني بالتراب عن الحرمان كقولهم: ما له غير التراب، وما في يده غير التراب، وكقوله ﷺ: «**إذا جاءك يطلب ثمن الكلب فاملأ كفه ترابًا**»[1]، وكقوله: «**وللعاهر الحجر**»[2] ومثله كثير في الكلام»[3].

وقد ذكر القرطبي هذين الوجهين في تأويل الحديث، وزاد وجهين فقال: «وقيل: معناه التنبيه للمدوح على أن يتذكر أن المبدأ والمنتهى التراب، فليعرضه على نفسه لئلا يعجب بالمدح، وعلى المداح لئلا يفرط ويطري بالمدح، وأشبه المحامل بعد المحمل الظاهر الوجه الأول، وما بعده ليس عليه معول»[4].

قال الغزالي: «والمدح يدخله ست آفات: أربع في المادح، واثنتان في الممدوح.

فأما المادح فالأولى: أنه قد يفرط فينتهي إلى الكذب..

والثانية: أنه قد يدخله الرياء فإنه بالمدح مظهر للحب، وقد لا يكون مضمرًا له ولا معتقدًا لجميع ما يقوله، فيصير به مرائيًا منافقًا.

الثالثة: أنه قد يقول ما لا يتحققه ولا سبيل له إلى الاطلاع عليه، وروي أن رجلًا مدح رجلًا عند النبي ﷺ فقال له ﷺ: «**ويحك! قطعت عنق صاحبك لو سمعها ما أفلح**» ثم قال: «**إن كان أحدكم لا بد مادحًا أخاه، فليقل: أحسب فلانًا، ولا أزكي على الله أحدًا، حسيبه الله، إن كان يرى أنه كذلك**». وهذه الآفة تتطرق إلى المدح بالأوصاف المطلقة التي تعرف بالأدلة كقوله: إنه من متق وورع وزاهد وخير ما يجري مجراه، فأما إذا قال: رأيته يصلي بالليل ويتصدق ويحج، فهذه أمور مستيقنة. ومن ذلك قوله: إنه عدل رضا، فإن ذلك خفي، فلا ينبغي أن يجزم القول فيه إلا بعد خبرة باطنه..

---

(١) أخرجه: أحمد (١/ ٢٧٨-٢٥٠)، وأبو داود (٣/ ٧٥٤/ ٣٤٨٢)، من حديث ابن عباس رضي الله عنهما وصححه الألباني في صحيح الجامع رقم (٤٦٥).

(٢) أخرجه: أحمد (٢/ ٣٨٦)، والبخاري (١٢/ ١٥٣/ ٦٨١٨)، مسلم (٢/ ١٠٨١/ ١٤٥٨) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٣) معالم السنن (٤/ ١٠٣-١٠٤).

(٤) المفهم (٦/ ٦٢٩).

الرابعة : أنه قد يفرح الممدوح وهو ظالم أو فاسق، وذلك غير جائز . . والظالم الفاسق ينبغي أن يذم ليغتم، ولا يمدح ليفرح .

وأما الممدوح فيضره من وجهين : أحدهما : بأنه يحدث فيه كبرًا وإعجابًا، وهما مهلكان .

الثاني : هو أنه إذا أثنى عليه بالخير، فرح به وفتر ورضي عن نفسه، ومن أعجب بنفسه قل تشمره، وإنما يتشمر للعمل من يرى نفسه مقصرًا، فأما إذا انطلقت الألسن بالثناء عليه ظن أنه قد أدرك، ولهذا قال ﷺ : «**قطعت عنق صاحبك**»»[١] .

* * *

(١) الإحياء (٣/ ١٥٩-١٦٠).

قوله تعالى : ﴿أَفَرَءَيْتَ ٱلَّذِى تَوَلَّىٰ ﴿٣٣﴾ وَأَعْطَىٰ قَلِيلًا وَأَكْدَىٰٓ ﴿٣٤﴾ أَعِندَهُۥ عِلْمُ ٱلْغَيْبِ فَهُوَ يَرَىٰٓ ﴿٣٥﴾ أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِمَا فِى صُحُفِ مُوسَىٰ ﴿٣٦﴾ وَإِبْرَٰهِيمَ ٱلَّذِى وَفَّىٰٓ ﴿٣٧﴾ أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ﴿٣٨﴾ وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴿٣٩﴾ وَأَنَّ سَعْيَهُۥ سَوْفَ يُرَىٰ ﴿٤٠﴾ ثُمَّ يُجْزَىٰهُ ٱلْجَزَآءَ ٱلْأَوْفَىٰ ﴿٤١﴾﴾

★ **غريب الآية:**

أكدى: قطع العطاء، كما تقطع البئر الماء. مأخوذ من الكدية، وهي الأرض الصلبة تمنع الحافر من إتمام الحفر. قال الحطيئة:

فأعطى قليلًا ثم أكدى عطاءه ... ومن يبذل المعروف في الناس يحمد

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن كثير: «يقول تعالى ذامًّا لمن تولّى عن طاعة الله: ﴿فَلَا صَدَّقَ وَلَا صَلَّىٰ ﴿٣١﴾ وَلَٰكِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴿٣٢﴾﴾[1]، ﴿وَأَعْطَىٰ قَلِيلًا وَأَكْدَىٰٓ ﴿٣٤﴾﴾ قال ابن عباس: أطاع قليلًا ثم قطعه. وكذا قال مجاهد وسعيد بن جبير وعكرمة وقتادة وغير واحد. قال عكرمة وسعيد: كمثل القوم إذا كانوا يحفرون بئرًا، فيجدون في أثناء الحفر صخرة تمنعهم من تمام العمل، فيقولون: أكدينا، ويتركون العمل.

وقوله: ﴿أَعِندَهُۥ عِلْمُ ٱلْغَيْبِ فَهُوَ يَرَىٰٓ ﴿٣٥﴾﴾ أي: أعند هذا الذي قد أمسك يده خشية الإنفاق، وقطع معروفه، أعنده علم الغيب أنه سينفد ما في يده، حتى قد أمسك عن معروفه، فهو يرى ذلك عيانًا؟! أي: ليس الأمر كذلك، وإنما أمسك عن الصدقة والمعروف والبر والصلة بخلًا وشحًّا وهلعًا؛ ولهذا جاء في الحديث: «**أنفق بلالًا، ولا تخش من ذي العرش إقلالًا**»[2]، وقد قال الله تعالى: ﴿وَمَآ

---

(١) القيامة: الآيتان (٣١و٣٢).

(٢) أخرجه: من حديث ابن مسعود الطبراني في الكبير (١/ ٢٤٠/ ١٠٢٠)، والبزار (٥/ ٤٤٨-١٩٧٨-٤٤٩١)، وذكره الهيثمي في المجمع (٣/ ١٢٦) وقال: «فيه قيس بن الربيع وثقه شعبة والثوري وفيه كلام، وبقية رجاله ثقات». والحديث صححه الشيخ الألباني في الصحيحة (٢٦٦١).

أَنفَقْتُم مِّن شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُۥ وَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ﴾[١].

وقوله: ﴿أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِمَا فِى صُحُفِ مُوسَىٰ ﴿٣٦﴾ وَإِبْرَٰهِيمَ ٱلَّذِى وَفَّىٰٓ ﴿٣٧﴾﴾ قال سعيد بن جبير والثوري: أي: بلّغ جميع ما أمر به.

وقال ابن عباس: ﴿وَفَّىٰٓ﴾ لله بالبلاغ. وقال سعيد بن جبير: ﴿وَفَّىٰٓ﴾ ما أُمر به. وقال قتادة: ﴿وَفَّىٰٓ﴾ طاعة اللَّه، وأدى رسالته إلى خلقه. وهذا القول هو اختيار ابن جرير، وهو يشمل الذي قبله، ويشهد له قوله تعالى: ﴿وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَٰتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّى جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا﴾[٢] فقام بجميع الأوامر، وترك جميع النواهي، وبلغ الرسالة على التمام والكمال، فاستحق بهذا أن يكون للناس إمامًا يقتدى به في جميع أحواله وأفعاله وأقواله، قال اللَّه تعالى: ﴿ثُمَّ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ أَنِ ٱتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٣﴾﴾[٣]..

ثم شرع تعالى يبيّن ما كان أوحاه في صحف إبراهيم وموسى فقال: ﴿أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ﴿٣٨﴾﴾ أي: كل نفس ظلمت نفسها بكفر أو شيء من الذنوب فإنما عليها وزرها، لا يحمله عنها أحد، كما قال: ﴿وَإِن تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَىٰ حِمْلِهَا لَا يُحْمَلْ مِنْهُ شَىْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰٓ﴾[٤]، ﴿وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴿٣٩﴾﴾ أي: كما لا يحمل عليه وزر غيره، كذلك لا يحصل من الأجر إلا ما كسب هو لنفسه. ومن هذه الآية الكريمة استنبط الشافعي رَحِمَهُ ٱللَّهُ ومن اتبعه أن القراءة لا يصل إهداء ثوابها إلى الموتى؛ لأنه ليس من عملهم ولا كسبهم؛ ولهذا لم يندب إليه رسول اللَّه ﷺ أمته ولا حثهم عليه، ولا أرشدهم إليه بنص ولا إيماء، ولم ينقل ذلك عن أحد من الصحابة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ، ولو كان خيرًا لسبقونا إليه، وباب القربات يقتصر فيه على النصوص، ولا يتصرف فيه بأنواع الأقيسة والآراء، فأما الدعاء والصدقة فذاك مجمع على وصولهما، ومنصوص من الشارع عليهما.

وأما الحديث الذي رواه مسلم في صحيحه، عن أبي هريرة قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «**إذا مات الإنسان انقطع عمله إلا من ثلاث: من ولد صالح يدعو له، أو صدقة جارية من بعده، أو علم ينتفع به**»[٥]، فهذه الثلاثة في الحقيقة هي من سعيه وكده

---

(١) سبأ: الآية (٣٩).
(٢) البقرة: الآية (١٢٤).
(٣) النحل: الآية (١٢٣).
(٤) فاطر: الآية (١٨).
(٥) سيأتي تخريجه.

وعمله، كما جاء في الحديث: «**إن أطيب ما أكل الرجل من كسبه، وإن ولده من كسبه**»[١]. والصدقة الجارية كالوقف ونحوه هي من آثار عمله ووقفه، وقد قال تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نُحْيِ الْمَوْتَىٰ وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآثَارَهُمْ﴾[٢] الآية. والعلم الذي نشره في الناس فاقتدى به الناس بعده هو أيضًا من سعيه وعمله، وثبت في الصحيح: «**من دعا إلى هدىً كان له من الأجر مثل أجور من اتبعه، من غير أن ينقص من أجورهم شيئًا**»[٣].

وقوله: ﴿وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَىٰ ۝٤٠﴾ أي: يوم القيامة، كما قال تعالى: ﴿وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ وَسَتُرَدُّونَ إِلَىٰ عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ۝١٠٥﴾[٤]، أي: فيخبركم به، ويجزيكم عليه أتم الجزاء، إن خيرًا فخير، وإن شرًّا فشر. وهكذا قال هاهنا: ﴿ثُمَّ يُجْزَاهُ الْجَزَاءَ الْأَوْفَىٰ ۝٤١﴾ أي: الأوفر»[٥].

قال الشنقيطي: «قد تضمنت هذه الآيات الكريمة سبعة أمور:

الأول: إنكار علم الغيب المدلول عليه بالهمزة في قوله: ﴿أَعِندَهُ عِلْمُ الْغَيْبِ﴾، والمراد نفي علمه للغيب.

الثاني: أن لكل من إبراهيم وموسى صحفًا لم ينبأ بما فيها هذا الكافر.

الثالث: أن إبراهيم وفّى، أي: أتم القيام بالتكاليف التي كلفه ربه بها.

الرابع: أن في تلك الصحف أنه لا تزر وازرة وزر أخرى.

الخامس: أن فيها أيضًا أنه ليس للإنسان إلا ما سعى.

السادس: أن سعيه سوف يُرى.

السابع: أنه يجزاه جزاء الأوفى، أي الأكمل الأتم. وهذه الأمور السبعة قد جاءت كلها موضحة في غير هذا الموضع.

أما الأول منها: وهو عدم علمهم الغيب، فقد ذكره تعالى في مواضع كثيرة كقوله تعالى: ﴿أَمْ عِندَهُمُ الْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ﴾[٦]، وقوله: ﴿أَطَّلَعَ الْغَيْبَ أَمِ اتَّخَذَ عِندَ الرَّحْمَٰنِ

---

(١) سيأتي تخريجه.
(٢) يس: الآية (١٢).
(٣) سيأتي تخريجه.
(٤) التوبة: الآية (١٠٥).
(٥) تفسير القرآن العظيم (٧/ ٤٦٣-٤٦٥).
(٦) الطور: الآية (٤١)، القلم: الآية (٤٧).

عَهْدًا ﴿٧٨﴾﴾[١]، وقوله: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى ٱلْغَيْبِ﴾[٢]، وقوله تعالى: ﴿عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٦﴾ إِلَّا مَنِ ٱرْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ﴾[٣] الآية، وقوله تعالى: ﴿قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلْغَيْبَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾[٤]، والآيات بمثل هذا كثيرة معلومة، وقد قدمناها مرارًا.

والثاني: الذي هو أن لإبراهيم وموسى صحفًا لم يكن هذا المتولي المعطي قليلًا المكدي عالمًا بها، ذكره تعالى في قوله: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَفِي ٱلصُّحُفِ ٱلْأُولَىٰ ﴿١٨﴾ صُحُفِ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ ﴿١٩﴾﴾[٥].

والثالث منها: وهو إبراهيم وفى تكاليفه، فقد ذكره تعالى في قوله: ﴿وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِۦمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَٰتٍ فَأَتَمَّهُنَّ﴾[٦]، وقد قدمنا أن الأصح في الكلمات التي ابتلى بها أنها التكاليف.

وأما الرابع منها: وهو أنه لا تزر وازرة وزر أخرى، فقد ذكره تعالى في آيات من كتابه كقوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّبِعُوا۟ سَبِيلَنَا وَلْنَحْمِلْ خَطَٰيَٰكُمْ وَمَا هُم بِحَٰمِلِينَ مِنْ خَطَٰيَٰهُم مِّن شَىْءٍ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿١٢﴾﴾[٧]، وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ وَإِن تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَىٰ حِمْلِهَا لَا يُحْمَلْ مِنْهُ شَىْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰٓ﴾[٨].

وقد قدمنا الآيات الموضحة لهذا، والجواب عما يرد عليها من الإشكال، في سورة (بني إسرائيل) في الكلام على قوله تعالى: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾[٩]، وذكرنا وجه الجمع بين الآيات الواردة في ذلك في سورة (النحل) في الكلام على قوله تعالى: ﴿وَمِنْ أَوْزَارِ ٱلَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ أَلَا سَآءَ مَا يَزِرُونَ﴾[١٠].

وأما الخامس منها: وهو أنه ليس للإنسان إلا ما سعى، فقد جاء موضحًا في آيات من كتاب اللّه، كقوله تعالى: ﴿إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ

---

(١) مريم: الآية (٧٨).
(٢) آل عمران: الآية (١٧٩).
(٣) الجن: الآيتان (٢٦و٢٧).
(٤) النمل: الآية (٦٥).
(٥) الأعلى: الآيتان (١٨و١٩).
(٦) البقرة: الآية (١٢٤).
(٧) العنكبوت: الآية (١٢).
(٨) فاطر: الآية (١٨).
(٩) الإسراء: الآية (١٥).
(١٠) النحل: الآية (٢٥).

فَلَهَاۚ﴾[1] الآية، وقوله: ﴿مَّنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦۖ وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَاۗ﴾[2] الآية، وقوله: ﴿وَمَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِأَنفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ﴾[3]، والآيات بمثل هذا كثيرة معلومة. وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة: ﴿وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴿٣٩﴾﴾ يدل على أن الإنسان لا يستحق أجرًا إلا على سعيه بنفسه، ولم تتعرض هذه الآية لانتفاعه بسعي غيره بنفي ولا إثبات؛ لأن قوله: ﴿وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴿٣٩﴾﴾ قد دلت (اللام) فيه على أنه لا يستحق ولا يملك شيئًا إلا بسعيه، ولم تتعرض لنفي الانتفاع بما ليس ملكًا له ولا مستحقًا له. وقد جاءت آية من كتاب اللَّه تدل على أن الإنسان قد ينتفع بسعي غيره وهي قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَٰنٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَآ أَلَتْنَٰهُم مِّنْ عَمَلِهِم مِّن شَيْءٍۚ﴾[4]. وقد أوضحنا وجه الجمع بين قوله تعالى: ﴿وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴿٣٩﴾﴾ وبين قوله: ﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَٰنٍ﴾ الآية، في كتابنا «دفع إيهام الاضطراب عن آيات الكتاب» في سورة (النجم)، وقلنا فيه ما نصه والجواب من ثلاثة أوجه:

الأول: أن الآية إنما دلت على نفي ملك الإنسان لغير سعيه، ولم تدل على نفي انتفاعه بسعي غيره؛ لأنه لم يقل: وأن لن ينتفع الإنسان إلا بما سعى، وإنما قال: ﴿وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ﴾، وبين الأمرين فرق ظاهر؛ لأن سعي الغير ملك لساعيه إن شاء بذله لغيره فانتفع به ذلك الغير، وإن شاء أبقاه لنفسه. وقد أجمع العلماء على انتفاع الميت بالصلاة عليه والدعاء له والحج عنه ونحو ذلك مما ثبت الانتفاع بعمل الغير فيه.

الثاني: أن إيمان الذرية هو السبب الأكبر في رفع درجاتهم؛ إذ لو كانوا كفارًا لما حصل لهم ذلك؛ فإيمان العبد وطاعته سعي منه في انتفاعه بعمل غيره من المسلمين، كما وقع في الصلاة في الجماعة، فإن صلاة بعضهم مع بعض يتضاعف بها الأجر زيادة على صلاته منفردًا، وتلك المضاعفة انتفاع بعمل الغير سعى فيه المصلي بإيمانه وصلاته في الجماعة، وهذا الوجه يشير إليه قوله تعالى: ﴿وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَٰنٍ﴾.

---

(١) الإسراء: الآية (٧).

(٢) فصلت: الآية (٤٦).

(٣) الروم: الآية (٤٤).

(٤) الطور: الآية (٢١).

الثالث: أن السعي الذي حصل به رفع درجات الأولاد ليس للأولاد كما هو نص قوله تعالى: ﴿وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ۝٣٩﴾، ولكن من سعي الآباء، فهو سعي للآباء أقر اللَّه عيونهم بسببه بأن رفع إليهم أولادهم ليتمتعوا في الجنة برؤيتهم.

فالآية تصدق الأخرى ولا تنافيها؛ لأن المقصود بالرفع إكرام الآباء لا الأولاد، فانتفاع الأولاد تبع، فهو بالنسبة إليهم تفضل من اللَّه عليهم بما ليس لهم، كما تفضل بذلك على الولدان والحور العين والخلق الذين ينشئهم للجنة، والعلم عند اللَّه تعالى. اهـ منه.

والأمر السادس والسابع: وهما أن عمله سوف يرى، ثم يجزاه الجزاء الأوفى، فقد جاءا موضحين في آيات كثيرة كقوله تعالى: ﴿وَٱلْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ ۚ فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ۝٨ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُم﴾[(١)] الآية، وقوله تعالى: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ۝٨﴾[(٢)]، وقوله تعالى: ﴿وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا ۖ وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا ۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ ۝٤٧﴾[(٣)]، وقوله تعالى: ﴿وَنُخْرِجُ لَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ كِتَٰبًا يَلْقَىٰهُ مَنشُورًا ۝١٣ ٱقْرَأْ كِتَٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا﴾[(٤)] والآيات بمثل ذلك كثيرة معلومة.

وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة: ﴿فَهُوَ يَرَىٰٓ﴾ أي: يعلم ذلك الغيب، والآية تدل على أن سبب النزول لا يخلو من إعطاء شيء في مقابلة تحمل الذنوب عمن أعطى؛ لأن فاعل ذلك ليس عنده علم الغيب، فيعلم به أن الذي ضمن له تحمل ذنوبه بفعل ذلك، ولم ينبأ بما في الصحف الأولى، من أنه لا تزر وازرة وزر أخرى، أي: لا تتحمل نفس ذنب نفس أخرى.

وقد قدمنا تفسيره موضحًا في سورة (بني إسرائيل)، وأنه لا يملك الإنسان ولا يستحق إلا سعي نفسه، وقد اتضح بذلك أنه لا يمكن أن يتحمل إنسان ذنوب

---

(١) الأعراف: الآيتان (٨و٩).

(٢) الزلزلة: الآيتان (٧و٨).

(٣) الأنبياء: الآية (٤٧).

(٤) الإسراء: الآيتان (١٣و١٤).

غيره، وقد دلت على ذلك آيات كثيرة معلومة.

وقال أبو حيان في «البحر»: ﴿أَفَرَءَيْتَ﴾ بمعنى: أخبرني، والمفعول الأول هو الموصول وصلته، والمفعول الثاني هو جملة: ﴿أَعِندَهُۥ عِلْمُ ٱلْغَيْبِ فَهُوَ يَرَىٰٓ ٣٥﴾»[١].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في بيان ما ينتفع به ابن آدم من الأعمال بعد موته

* عن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: **«إذا مات الإنسان انقطع عنه عمله إلا من ثلاثة: إلا من صدقة جارية، أو علم ينتفع به، أو ولد صالح يدعو له»**[٢].

* عن عمارة بن عمير عن عمته أنها سألت عائشة رضي الله عنها: في حجري يتيم أفآكل من ماله؟ فقالت: قال رسول اللَّه ﷺ: **«إن من أطيب ما أكل الرجل من كسبه، وولده من كسبه»**[٣].

فصل مهم في بيان حكم إهداء ثواب الأعمال إلى الأموات

قال محمد رشيد رضا: «اعلم أيها المسلم الحريص على دينه أن أهل الحق من سلف الأمة إنما سموا بأهل السنة والجماعة لأنهم ساروا في الاهتداء بالإسلام على السنة، وهي الطريقة العملية التي جرى عليها النبي ﷺ في بيان القرآن كما أمره اللَّه تعالى بقوله: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾[٤] وتلقاها عنه بالعمل جماعة الصحابة، وقد أصاب الإمام أحمد بن حنبل رحمه الله في حصره حجية الإجماع الديني بإجماع الصحابة رضي الله عنهم، وما روي من الآثار في شذوذ أفراد عما ثبت عمل الجمهور به فلا يعتد به، فعمل الجمهور هو السنة وهم الجماعة.

---

(١) أضواء البيان (٧/ ٧٠٩-٧١١).

(٢) أخرجه: أحمد (٢/ ٣٧٢)، ومسلم (٣/ ١٢٥٥/ ١٦٣١)، وأبو داود (٣/ ٣٠٠/ ٢٨٨٠)، والترمذي (٣/ ٦٦٠/ ١٣٧٦) وقال: «حسن صحيح»، والنسائي (٦/ ٥٦١-٥٦٢/ ٣٦٥٣).

(٣) أخرجه: أحمد (٦/ ٣١و١٢٧و١٩٣)، وأبو داود (٣/ ٨٠٠/ ٣٥٢٨) واللفظ له، والنسائي (٧/ ٢٧٦/ ٤٤٦١)، والترمذي (٣/ ٦٣٩/ ١٣٥٨) وقال: «حديث حسن صحيح»، وابن ماجه (٢/ ٧٦٨-٧٦٩/ ٢٢٩٠)، والحاكم (٢/ ٤٦) وقال: «صحيح على شرط الشيخين» ووافقه الذهبي، وابن حبان (الإحسان ١٠/ ٧٢/ ٤٢٥٩).

(٤) النحل: الآية (٤٤).

والأقوال وحدها لا يتبين بها المراد بيانًا قطعيًا لا يحتمل التأويل كالأفعال وإن كانت في غاية الجلاء والوضوح، ولذلك قال علي . . لابن عباس رضي اللَّه تعالى عنهما عندما أرسله لمحاجة الخوارج: احملهم على السنة، فإن القرآن ذو وجوه.

فمراده بالسنة ما ذكرناه من معناها الموافق للغة لا المعنى الاصطلاحي للمحدثين وسائر علماء الشرع الذي يشمل الأخبار القولية وغيرها فإن هذه الأخبار ذات وجوه أيضًا وربما كانت وجوهها التي يتوجه إليها أهل التأويل أكثر من وجوه القرآن؛ لأنها دونه في الفصاحة والبلاغة والبيان، ولذلك أوجز القرآن في بيان أحكام الدين العملية، ووكل بيانها لعمل الرسول ﷺ، وهو أحال في بيانها على العمل فقال: «**صلوا كما رأيتموني أصلي**»[1].

أقول هذا تمهيدا لتذكيرك بعدم الاغترار بما لعلك اطلعت أو تطلع عليه من الوجوه التي حمل عليها بعض المتفقهة والمصنفين في التفسير قوله تعالى في سورة النجم: ﴿أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۝٣٨ وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ۝٣٩﴾ فحرفوا الكلم عن مواضعه تارة بالتأويلات السخيفة، وتارة بدعوى النسخ الباطلة، وتارة بدعوى أن هاتين الآيتين من شريعة إبراهيم وموسى لا من شرعنا، وتارة بتخصيصهما بالكفار دون المسلمين.

وقد غفل هؤلاء عن كون مضمون الآيتين من قواعد الدين وأصول الإسلام الثابتة على ألسنة جميع الرسل ومؤيدا بآيات كثيرة بلفظها ومعناها كآية الأنعام، وآية سورة فاطر: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۚ وَإِن تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَىٰ حِمْلِهَا لَا يُحْمَلْ مِنْهُ شَيْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰٓ ۗ إِنَّمَا تُنذِرُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ وَأَقَامُوا الصَّلَوٰةَ ۚ وَمَن تَزَكَّىٰ فَإِنَّمَا يَتَزَكَّىٰ لِنَفْسِهِۦ ۚ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ﴾[2] والآيات الكثيرة المعلقة للفلاح والخسر ودخول الجنة والنار بالأعمال، والآيات الناطقة بأن الناس لا يجزون إلا بأعمالهم، وإنما يجزون بأعمالهم، هكذا بصيغتي الحصر الذي تعد دلالته أقوى الدلالات في بيان المراد -ولذلك عبر به عن التوحيد الذي هو أساس أركان الدين كلها، وهذه

---

(١) أخرجه: أحمد (٥/ ٥٣)، والبخاري (٢/ ١٤٢/ ٦٣١)، ومسلم (١/ ٤٦٥-٤٦٦/ ٦٧٤)، وأبو داود (١/ ٣٩٥-٣٩٦/ ٥٨٩)، والترمذي (١/ ٣٩٩/ ٢٠٥) وقال: «هذا حديث حسن صحيح»، والنسائي (٢/ ٣٣٦/ ٦٣٤)، وابن ماجه (١/ ٣١٣/ ٩٧٩) من حديث مالك بن الحويرث ﷺ.

(٢) فاطر: الآية (١٨).

القاعدة في الجزاء من أصول الدين وهي مقررة للتوحيد أيضًا كما بيناه في تفسيرها مفصلًا وأشرنا فيه إلى بعض تلك الآيات.

أما هؤلاء المقلدون من المتأخرين فسبب غفلتهم وتأويلهم أنهم يحاولون تصحيح كل ما فشا من البدع بين أقوامهم والمنسوبين إلى مذاهبهم وليسوا من أهل الدليل، ولكنهم لا يتركون ضلالة التأويل، وأما أهل النظر في أدلة المذاهب منهم فلا هم لهم من النظر في الكتاب والسنة إلا أخذ ما يرونه مؤيدًا لمذاهبهم وترك ما سواه بضرب من التأويل، أو دعوى النسخ أو احتماله بغير دليل.

ولو كان هؤلاء المقلدون العميان هم الذين جوزوا وحدهم للناس إهداء عباداتهم للموتى.. ولكن تابعهم على ذلك بعض علماء السنة من أهل الأثر والنظر إذ ظنوا أن الأحاديث التي أشرنا إليها في الدعاء للموتى والإذن للأولاد بأن يقضوا ما على والديهم من صيام أو صدقة أو نسك تدل على انتفاع الموتى بعبادات الأحياء مطلقًا غافلين عن حصر ما ورد من ذلك في الصحيح في الأولاد الذين خص الشارع المؤمنين منهم بذلك في الوقائع التي سئل عنها، وحديث «صام عنه وليه»[1] يتعين أن يراد بالولي منه الولد ليوافقها مع سائر الآيات إذ لا يمكن تأويلها كلها وهي من الأصول الصريحة القطعية لأجل حمله على عموم الأولياء، وهو غير متعين على أن عائشة الراوية له كانت تصرح بعدم جواز صيام أحد عن أحد عملًا بالنصوص العامة كما تقدم، وقد قال الطحاوي من علماء الأثر إنه منسوخ. وما قلناه أولى لجمعه بين الروايات وموافقته للآيات ولعمل أهل المدينة الذي هو حجة مالك وهو هنا مؤيد لعمل الصحابة عمومًا وخصوصًا لا حجة مستقلة. وقد سقط بهذا الجمع كل ما يتعلق بإطلاق الجواز من الأقوال.

وأما الدعاء لأموات المسلمين ولأحيائهم فهو عبادة لا ينتقل ثوابها من الداعي إلى المدعو له ولم يرو في إهداء ثواب الدعاء شيء، بل ثوابه للداعي وحده سواء استجابه اللَّه أم لا! وإنما ينتفع المدعو له بالاستجابة، واستجابة الدعاء للأحياء

---

(١) أخرجه: أحمد (٦/ ٦٩)، والبخاري (٤/ ٢٤١/ ١٩٥٢)، ومسلم (٢/ ٨٠٣/ ١١٤٧)، وأبو داود (٢/ ٧٩١-٧٩٢/ ٢٤٠٠)، والنسائي في الكبرى (٢/ ١٥٧/ ٢٩١٩) من حديث عائشة. وفي الباب عن ابن عباس رضي الله عنهما.

والأموات لا يمكن أن تكون بما ينقض قواعد الشرع، ولا بما يبطل سنن اللَّه تعالى في الكون، فنفوض الأمر في صفته إلى اللَّه تعالى ونكتفي من العلم بفائدة الدعاء لإخواننا الذين سبقونا بالإيمان وغيرهم أنه عبادة مشتملة على تحاب المؤمنين وتكافلهم واهتمامهم بأمر سعادتهم في الدنيا والآخرة.

وما عدا الدعاء من العبادات فإنما ورد الإذن فيه للأولاد، وولد المرء من عمله فانتفاعه بعمله يدخل في القاعدة لا أنه يعارضها، ولو كان الإذن عامًّا لكثر عمل الصحابة به، ورُوي مستفيضًا أو متواترًا عنهم لتوفر الدواعي على نقله؛ فإن من دأب البشر وطباعهم الراسخة الاهتمام بكل ما يتعلق بأمر موتاهم، وقد نقل الرواة من التابعين كل ما رأوه وعلموا به من أعمال الصحابة ﷺ.

كتبت هذا لأنني بعد كتابة ما تقدم من تفسير الآية وطبعه راجعت ما كتبه العلامة المحقق ابن القيم في هذه المسألة في كتاب «الروح»[1]، فوجدته قد أطنب فيها وأطال كعادته بما لم يطل به غيره ولا قارب، وأورد كل ما قيل وما تصور أن يقال في إثبات وصول ثواب أعمال الأحياء إلى الأموات مطلقًا ونفيه مطلقًا أو مقيدًا بما تسبب إليه الميت في حياته أو بالعبادات التي تدخلها النيابة كالصدقة والحج دون غيرها كالتلاوة والصلاة، وكذا ما وقع فيه الخلاف من فروع المسألة، وذكر حجج كل فريق ورد المخالفين لهم عليها وأكثرها نظريات باطلة، ولكنه على سعة اطلاعه ودقة فهمه قد غفل عن كون الأحاديث التي جعلها حجة المثبتين الوحيدة على انتفاع أموات المسلمين بأي عمل يهدى إليهم ثوابه من عمل أحيائهم قد وردت في أعمال خاصة ورخص للأولاد وحدهم أن يقوموا بها عن والديهم.

وهو لم ينس من حجج المانعين لوصول ثواب قراءة القرآن ونحوها عدم نقل شيء من ذلك عن السلف، ولكنه وهو من أكبر أنصار اتباع السلف قد أجاب عن هذه الحجة بجواب ضعيف جدًّا فقال: فإن قيل: فهذا لم يكن معروفًا في السلف، ولا يمكن نقله عن واحد منهم مع شدة حرصهم على الخير ولا أرشدهم النبي ﷺ إليه، وقد أرشدهم إلى الدعاء والاستغفار والصدقة والحج والصيام. فلو كان ثواب القراءة يصل لأرشدهم إليه ولكانوا يفعلونه.

---

(١) انظر كلامه في (ص: ١١٧) فما بعدها.

فالجواب: أن مورد هذا السؤال إن كان معترفًا بوصول ثواب الحج والصيام والدعاء والاستغفار قيل له ما هذه الخاصية التي منعت وصول ثواب القرآن واقتضت وصول ثواب هذه الأعمال؟ وهل هذا إلا تفريق بين المتماثلات؟ وإن لم يعترف بوصول تلك الأشياء إلى الميت فهو محجوج بالكتاب والسنة والإجماع وقواعد الشرع.

وأما السبب الذي لأجله لم يظهر ذلك في السلف فهو أنهم لم يكن لهم أوقاف على من يقرأ ويهدي إلى الموتى، ولا كانوا يعرفون ذلك البتة، ولا كانوا يقصدون القبر للقراءة عنده كما يفعله الناس اليوم، ولا كان أحدهم يشهد من حضره من الناس على أن ثواب هذه القراءة لفلان الميت ولا ثواب هذه الصدقة والصوم.

ثم يقال لهذا القائل: لو كلفت أن تنقل عن واحد من السلف أنه قال: اللهم اجعل ثواب هذا الصوم لفلان لعجزت، فإن القوم كانوا أحرص شيء على كتمان أعمال البر، فلم يكونوا ليشهدوا على اللَّه بإيصال ثوابها إلى أمواتهم.

فإن قيل: فرسول اللَّه ﷺ أرشدهم إلى الصوم والصدقة دون القراءة.

قيل: هو ﷺ لم يبتدئهم بذلك؛ بل خرج ذلك منه مخرج الجواب لهم، فهذا سأله عن الحج عن ميته فأذن له، وهذا سأله عن الصدقة فأذن له، ولم يمنعهم مما سوى ذلك، وأي فرق بين وصول ثواب الصيام الذي هو مجرد نية وإمساك وبين وصول ثواب القراءة والذكر؟ والقائل: إن أحدًا من السلف لم يفعل ذلك، قائل ما لا علم له به؛ فإن هذه شهادة على نفي ما لم يعلمه، فما يدريه أن السلف كانوا يفعلون ذلك ولا يشهدون من حضرهم عليه؟ بل يكفي اطلاع علام الغيوب على نياتهم ومقاصدهم لا سيما والتلفظ بنية الإهداء لا يشترط كما تقدم.

وسر المسألة: أن الثواب ملك للعامل فإذا تبرع به وأهداه إلى أخيه المسلم أوصله اللَّه إليه، فما الذي خص من هذا ثواب قراءة القرآن، وحجر على المرء أن يوصله إلى أخيه وهذا عمل الناس حتى المنكرين في سائر الأعصار والأمصار من غير نكير من العلماء، اهـ.

أقول وباللَّه التوفيق والهداية: عفا اللَّه عن شيخنا وأستاذنا المحقق فلولا الغفلة عن تلك المسألة الواضحة لما وقع في هذه الأغلاط التي نردها عليه ببعض ما كان

يردها هو في غير هذه الحالة، وسبحان من لا يغفل ولا يعزب عن علمه شيء.

أما قوله لمورد السؤال إذا كان معترفًا بوصول ثواب الحج والصيام: ما هذه الخاصية التي منعت وصول ثواب القرآن.. إلخ؟

فنجيب عنه على طريقتنا بأن المانع لذلك نصوص القرآن التي تقدمت في أن عمل كل عامل له دون غيره، والسائل إنما يعترف بأن النبي ﷺ أذن لمن سأله عن قضاء صيام وحج ثبتا على أحد والديه وكذا عن الصدقة ولا سيما عمن لم يوص بها من الوالدين: هل يفعلون ذلك عن والديهم؟ فأذن لهم بأن يقضوا دين اللَّه عنهم كما يقضون ديون الناس وأن يتصدقوا عنهم، فهذه حقوق ثبتت على الوالدين أو صدقة كان المتوقع من أحدهم الوصية بها فقام مقامهم أولادهم فيها، أو تبرعوا عنهم فهي ليست كقراءة القرآن التي ليست مفروضة على الأعيان في غير الصلاة كالحج والصيام ولا من الأعيان المملوكة كالمال الذي كان ملك الميت وانتقل إلى ولده أو من كسب الولد الذي عد في الحديث الصحيح من كسب الوالد كما يأتي قريبًا وقد ألحقه اللَّه تعالى به في قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱتَّبَعَتۡهُمۡ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَٰنٍ أَلۡحَقۡنَا بِهِمۡ ذُرِّيَّتَهُمۡ وَمَآ أَلَتۡنَٰهُم مِّنۡ عَمَلِهِم مِّن شَيۡءٖ﴾[1]، وبهذا كانت غير معارضة لتلك الآيات، ولو عارضتها لكانت هي المرجوحة الساقطة بها فبطل قوله: وهل هذا إلا تفريق بين المتماثلات، إذ العمل مختلف والعامل المأذون له به له خصوصية ليست لغيره فلا تماثل.

وأما تعليله عدم نقل شيء من هذه الأعمال عن السلف الذي اعترف به وأيده بأنهم كانوا يكتمون أعمال البر.

فجوابه: أنه ما من نوع من أنواع البر المشروعة إلا وقد نقل عنهم فيه الكثير الطيب حتى الصدقات التي صرح القرآن بتفضيل إخفائها على الإبداء تكريمًا للفقراء وسترا عليهم ولما قد يعرض فيها من المن والأذى والرياء المبطلة لها.

وقراءة القرآن للموتى ليست كذلك حتى إن المراءاة بها مما لا يكاد يقع؛ لأن الذي يقرأ لغيره لا يعد من العباد الممتارين على غيرهم فيكتمه خوف الرياء.

ثم أين الذين نصبوا أنفسهم للإرشاد والقدوة والدعوة إلى الخير من الصحابة

---

(١) سورة الطور: الآية (٢١).

والتابعين لم يؤثر عنهم قول ولا فعل في هذا النوع من البر الذي عم بلاد الإسلام بعد خير العصور لو كان مشروعًا؟ فهل يمكن أن يقال إنهم كانوا يتركون الأمر بالبر كما قيل جدلًا إنهم أخفوا هذا النوع منه وحده؟ كلا إنهم كانوا هداة بأقوالهم وأعمالهم، وتأثير الأعمال في الهداية أقوى.

وأما تعليله تخصيص الإذن في الأحاديث بالصوم والصدقة والحج دون القراءة بقوله: إن النبي ﷺ لم يبتدئهم بذلك؛ بل خرج مخرج الجواب ولم يمنعهم مما سوى ذلك ولا فرق بين الصوم والقراءة؛ فجوابه: أن عدم ابتداء الرسول ﷺ إياهم بذلك على إطلاقه دليل على أنه ليس من دينه، وإلا لم يكن مبينا لما أنزل إليه كما أمر به وهذا محال. وسؤال أولئك الأفراد إياه دليل على أنهم لم يكونوا يعلمون من نصوص الدين ولا من السنة العملية ما يدل على شرعيته فلذلك استفتوه فيه، ولم يستفتوه في العمل عن غير الوالدين لنص القرآن في منعه.

وأما الفرق بين وصول ثواب الصيام ووصول ثواب الذكر فقد بينا آنفًا أنه لا دليل على وصول ثواب الصيام مطلقا من كل من يصوم عن ميت حتى يقاس عليه غيره؛ لأن ما ذكر من أحاديث الصيام خاص بالقضاء من الولد نيابة عن الوالد، وليس فيه أنه عمله لنفسه وأهدى ثوابه لغيره كما تقدم على أن هذا مما ورد على خلاف القياس فلا يقاس عليه.

وأما قوله: إن القائل بأن أحدًا من السلف لم يفعل ذلك قائل ما لا علم له به، إلخ.

فجوابه: أن الذي يثبت ما ذكر للسلف أجدر بقول ما لا علم له به، وناهيك به إذا كان معترفًا بأنه لم ينقل ذلك عن أحد منهم، والنفي هو الأصل، وحسب النافي نفيه للنقل عنهم في أمر تدل الآيات الصريحة على عدم شرعيته ويدل العقل وما علم بالضرورة من سيرتهم أنه لو كان مشروعًا لتواتر عنهم أو استفاض.

وأما قوله: وسر المسألة أن الثواب ملك للعامل، إلخ. فلم نكن ننتظره من أستاذنا ومرشدنا إلى اتباع النقل في أمور الدين دون النظريات والآراء، على أن هذه القاعدة النظرية غير مسلمة؛ فإن الثواب أمر مجهول بيد اللّٰه تعالى وحده كأمور الآخرة كلها، فإنها من عالم الغيب التي لا مجال للعقل فيها، وما وعد اللّٰه تعالى به

المؤمنين الصالحين المخلصين له الدين من الثواب على الإيمان والأعمال بشروطها لا يعرفون كنهه ولا مستحقه على سبيل القطع، ولذلك أمروا بأن يكونوا بين الخوف والرجاء.

ولا يوجد في الآيات ولا الأخبار الصحيحة ما يدل على أن العامل يملك ثواب عمله وهو في الدنيا كما يملك الذهب والفضة أو القمح والتمر فيتصرف فيه كما يتصرف فيها بالهبة والبيع، بل ذلك جزاء بيد اللّه تعالى أعده للذين آمنوا وعملوا الصالحات بحسب تأثير الإيمان والعمل في إعداد أنفسهم له بتزكيتها وجعلها أهلا لجواره ورضوانه كما قال: ﴿وَمَن يَأْتِهِۦ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلدَّرَجَٰتُ ٱلْعُلَىٰ ﴿٧٥﴾ جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ مَن تَزَكَّىٰ ﴿٧٦﴾﴾[(١)].

﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ ﴿١٤﴾﴾[(٢)] ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ﴿٩﴾﴾[(٣)] ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا﴾[(٤)] وقال: ﴿سَيَجْزِيهِمْ وَصْفَهُمْ ۚ﴾[(٥)] فذكر الوصف على إطلاقه وتقدم تفسيره، وذكر في آيات أخرى الصفات العامة التي هي مصدر جميع الأعمال وهي الصبر والشكر والصدق، ومنها ما ذكر بصيغة الحصر، فهذه الآيات الكثيرة الصريحة المعنى، المعقولة الحكمة وسائر آيات الجزاء، والآيات النافية للعدل والفداء، والآيات النافية لملك نفس لنفس شيئًا من الأشياء في الآخرة، تؤيد كلها آية (الأنعام) التي نحن بصدد تفسيرها وآيات (النجم) وغيرها، وتبطل دعوى ملك الإنسان لثواب عباداته وتصرفه بها، ولو كان الثواب كالمال يوهب لكان يباع ويشترى، ولو كان كذلك لكان كثير من الفقراء يبيعون ثواب كثير من أعمالهم للأغنياء، وحاش لله ولحكمة دينه من ذلك، وعمل الخلف وحده في أمر تعبدي كهذا لا حجة فيه، على أنهم لم يجمعوا عليه.

فإن قيل: إن انتفاع الميت بعمل أولاده ينافي القاعدة التي ذكرتها في الجزاء أيضًا فإن من لم يزك نفسه في الدنيا بالإيمان والأعمال الصالحة وما تطبعه في النفس من الصفات والأخلاق الحسنة لا يزكيها عمل أولاده من بعده قلنا: نعم، إن

---

(١) سورة طه: الآيتان (٧٥و٧٦).
(٢) سورة الأعلى: الآية (١٤).
(٣) سورة الشمس: الآية (٩).
(٤) سورة التوبة: الآية (١٠٣).
(٥) سورة الأنعام: الآية (١٣٩).

هذا هو الأصل، ولكن من بيده أمر الثواب والعقاب استثنى من عموم هذا الأصل، لا بل ألحق به شيئًا لا ينقضه ولا يذهب بحكمته وهو انتفاع بعض الوالدين المؤمنين ببعض عمل أولادهم أو جعله منه بالتبع والسببية، كما أدخل في عمومه انتفاع من سن سنة خير من علم أو عمل بعمل من استن بسنته وعمل بعلمه أو اقتدى بعمله من غير أن ينقص من ثواب هؤلاء وأولئك شيء، كما ثبت في حديث الصحيحين. وروى أصحاب السنن وغيرهم بأسانيد يحتج بها أنه ﷺ قال: «**أطيب ما يأكل الرجل من كسبه، وولده من كسبه**»[١]، وفي رواية: «**ولد الرجل من أطيب كسبه فكلوا من أموالهم**»[٢]، وقال ﷺ لمن ذكر له أن والده يحتاج إلى ماله: «**أنت ومالك لأبيك**» رواه ابن ماجه بسند صحيح[٣].

وجملة القول: أن ثواب الأعمال ليس أعيانًا مملوكة للعامل يتصرف فيها كما يشاء؛ بل هو جزاء من فضل اللَّه تعالى، وهو نوعان:

أحدهما: ما يكون مرتبًا على تأثير الأعمال في تزكية النفس مباشرة وهو ما بيناه آنفًا.

وثانيهما: ما يترتب على الأعمال التي يتعدى فيها نفع العامل إلى غيره كالسنة الحسنة، والصدقة الجارية، والعلم الذي ينتفع به، والولد الصالح الذي يدعو له، أو يقضي دين اللَّه أو الناس أو يتصدق عنه، وتقدمت الأحاديث الصحيحة في ذلك. وهذه تكون بقدر انتفاع الناس من هذه الأعمال لا بحسب تأثير العامل في السببية لها عند مباشرته للسبب، كتأليف الكتاب وتربية الولد، وفوق ذلك كله مضاعفة اللَّه لمن يشاء بفضله.

خلاف العلماء في المسألة:

الخلاف بين العلماء في المسألة مشهور، وقد ذكره ابن القيم في أول المسألة

---

(١) تقدم تخريجه في أحاديث الباب.

(٢) أخرجه: أحمد (٦/ ١٢٧)، وأبو داود (٣/ ٨٠٠-٨٠١/ ٣٥٢٩)، وابن ماجه (٢/ ٧٦٩/ ٢٢٩٢)، والحاكم (٢/ ٤٦) وقال: «هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه» ووافقه الذهبي.

(٣) أخرجه: أحمد (٢/ ٢٠٤)، وأبو داود (٣/ ٨٠١-٨٠٢/ ٣٥٣٠)، وابن ماجه (٢/ ٧٦٩/ ٢٢٩٢) من حديث عبداللَّه بن عمرو، وسنده حسن.

السادسة عشرة وهي: هل تنتفع أرواح الموتى بشيء من سعي الأحياء أم لا؟ وذكر في الجواب أنها تنتفع من سعي الأحياء بأمرين مجمع عليهما بين أهل السنة من الفقهاء وأهل الحديث والتفسير:

أحدهما: ما تسبب إليه الميت في حياته.

والثاني: دعاء المسلمين له واستغفارهم له، قال والصدقة والحج على نزاع: ما الذي يصل من ثوابه؟ هل هو ثواب الإنفاق أو ثواب العمل؟ فعند الجمهور يصل ثواب العمل نفسه، وعند بعض الحنفية إنما يصل ثواب الإنفاق. ثم ذكر اختلافهم في العبادة البدنية كالصوم والصلاة وقراءة القرآن والذكر؛ وزعم أن مذهب أحمد وجمهور السلف وصولها، واستدل على مذهب أحمد بأنه قيل له: الرجل يعمل الشيء من الخير من صلاة أو صدقة أو غير ذلك فيجعل نصفه لأبيه أو لأمه؟ قال: أرجو.

وأنت ترى أن الإمام أحمد رَحِمَهُ اللَّهُ لم يجزم بالجواب، وأن موضوع السؤال انتفاع الوالدين بعمل الولد خاصة، وليس في رجائه خروج عن النص إلا في مسألة الصلاة ثم قال: والمشهور من مذهب الشافعي ومالك أن ذلك لا يصل. وذكر أن بعض أهل البدع من المتكلمين على أنه لا يصل إلى الميت شيء لا دعاء ولا غيره؟

أقول: راجعت بعد كتابة ما تقدم كتاب «الفروع» من كتب الحنابلة فرأيت فيه خلافًا كثيرًا في هذه المسألة عن علماء الحنابلة وغيرهم، أحسنه وأولاه باتباع السنة قول شيخ الإسلام قدس اللَّه روحه في بحث إهداء الثواب. وقد ذكر قبله كلامًا في عدم جواز الإيثار بالفضائل والدين للوالدين، وقول بعضهم بجواز بعضه في حال الحياة كتقديم والده في الصف الأول، وكلامًا في الفرق بين الإيثار بما أحرزه وما لم يحرزه.

ثم قال: وقال شيخنا: لم يكن من عادة السلف إهداء ذلك إلى موتى المسلمين؛ بل كانوا يدعون لهم، فلا ينبغي الخروج عنهم، ولهذا لم يره شيخنا كمن له أجر العامل كالنبي ﷺ معلم الخير بخلاف الوالد؛ لأن له أجرًا لا كأجر الولد؛ لأن العامل يثاب على إهدائه فيكون له مثله أيضًا، فإن جاز إهداؤه فهلم جرًا، ويتسلسل ثواب العامل الواحد، وإن لم يجز فما الفرق بين عمل وعمل، وإن قيل: يحصل

ثوابه مرتين للمهدى إليه ولا يبقى للعامل ثواب فلم يشرع اللَّه لأحد أن ينفع غيره في الآخرة ولا منفعة له في الدارين فيتضرر (كذا)، ولا يلزم دعاؤه له ونحوه لأنه مكافأة له كمكافأته لغيره ينتفع به المدعو له وللعامل أجر المكافأة وللمدعو له مثله فلم يتضرر ولم يتسلسل ولا يقصد أجره إلا من اللَّه. اهـ.

وذكر أيضًا أن أقدم من بلغه أنه أهدى للنبي ﷺ علي بن الموفق أحد الشيوخ المشهورين من طبقة أحمد وشيوخ الجنيد، ثم نقل صاحب الفروع عن تاريخ الحاكم مثل ذلك عن أبي العباس محمد بن إسحاق السراج النيسابوري، وقد بينا أن الصحابي إذا انفرد بقول أو عمل لا يعد أحد من المسلمين قوله أو عمله حجة أو يتخذه قدوة فيه فكيف بمن بعد تابع التابعين، فكيف إذا كان ذلك مخالفًا للنصوص الصريحة في الكتاب والسنة.

وقد ذكر ابن عابدين محرر مذاهب الحنفية هذه المسألة في أواخر تنقيح الفتاوى الحامدية، فذكر إجماع العلماء على نفع الدعاء، وخلافهم في وصول ثواب القراءة، واختيار الوصول والاستدلال عليه بحديث: «**إذا مات العبد انقطع عمله**»[1] إلخ. وهو لا يدل عليه بإطلاق؛ بل على عدمه كما علمت.

ثم ذكر أن الحافظ ابن حجر سئل عمن قرأ شيئًا من القرآن وقال في دعائه: اللهم اجعل ثواب ما قرأته أو مثل ثواب ما قرأته زيادة في شرف سيدنا رسول اللَّه ﷺ فما معنى الزيادة مع كماله ﷺ؟ قال فأجاب بقوله: هذا مخترع من متأخري القراء لا أعرف لهم سلفًا ولكنه ليس بمحال كما تخيله السائل، فقد ذكر في رؤية الكعبة: اللهم زد هذا البيت تشريفًا وتعظيمًا، إلخ.

فلعل المخترع المذكور قاسه على ذلك، وكأنه لحظ أن معنى طلب الزيادة أن تتقبل قراءته فيثيبه عليها، وإذا أثيب أحد من الأمة على فعل طاعة من الطاعات كان للذي علمه نظير أجره، وللمعلم الأول وهو الشارع ﷺ جميع ذلك، فهذا معنى الزيادة في شرفه وإن كان شرفه مستقرًا حاصلًا. اهـ.

ونقول: حسبنا من الحافظ أثابه اللَّه أن هذا مخترع من بعض المتأخرين لم يرد

---

(١) تقدم تخريجه.

عن أحد من سلف الأمة، فهو إمام النقل وحافظ السنة بلا نزاع.

وأما قياس هذا الدعاء على الدعاء بزيادة شرف البيت فهو قياس في أمر تعبدي لا محل له، وقد يفرق بينهما فإن معنى زيادة شرف البيت وتعظيمه حقيقة واقعة بكثرة من يحجه ويعبد اللَّه فيه، وزيادة ثواب المعلم المرشد بعمل من أخذ بعلمه وهديه لا يسمى شرفًا في اللغة إلا بضرب من التجوز، على أنه ليس مما نحن بصدده.

ثم قال ابن عابدين: وقد أجاز بعض المتأخرين كالسبكي والبارزي وبعض المتقدمين من الحنابلة كابن عقيل تبعًا لعلي بن الموفق وكان في طبقة الجنيد ولأبي العباس محمد بن إسحاق السراج النيسابوري من المتقدمين إهداء ثواب القرآن له عليه الصلاة والسلام الذي هو تحصيل الحاصل، والعز بن عبدالسلام من المجيزين.

وقال ابن تيمية: لا يستحب، بل هو بدعة. وقال ابن قاضي شهبة: يمنع، وابن العطار ينبغي أن يمنع.

وقال ابن الجزري: لا يروى عن السلف، ونحن بهم نقتدي، ثم قال بعضهم بجوازه؛ بل باستحبابه قياسًا على ما كان يهدى إليه في حال حياته من الدنيا، ولما طلب الدعاء من عمر رضي الله عنه وحث الأمة على الدعاء له بالوسيلة عند الآذان، ثم قال: فإن لم تفعل ذلك فقد اتبعت، وإن فعلت فقد قيل به، انتهى كلام ابن الجزري.

وقال الكمال بن حمزة الحسيني: الأحوط الترك. (من «كنز الراغبين» للبرهان التاجي ملخصًا). فهذا ملخص ما ذكره ابن عابدين وحيًّا اللَّهُ مرجحي اتباع السلف من هؤلاء العلماء كلهم وليس هو الأحوط فقط، بل المتعين الذي يرد كل ما خالفه ويضرب بأقيسة المخالفين عرض الحائط لا لمخالفتها هدي سلف الأمة فقط، بل لظهور بطلانها ومصادمتها للنصوص أيضًا، فإن قياس إهداء العبادات أو ثوابها في الآخرة على إهداء متاع الدنيا قياس مع الفارق، والفرق بينهما كالفرق بين العبادة والعادة، وبين الدنيا والآخرة، فكيف وهو مصادم للنص؟، وحسبنا اتباع السلف في فهم القرآن والعمل به.

فكل خير في اتباع من سلف وكل شر في ابتداع من خلف

ثم أقول: وقد اضطرب كلام الشوكاني من أئمة فقه الحديث عند الكلام على

أحاديث المسألة في مواضع، فاغتر بالإطلاق ولكنه اهتدى إلى الصواب فيما كتبه على أحاديث المنتقى في باب ما يهدى من القرب إلى الموتى، وكلها واردة في تصدق الأولاد عن الوالدين كما تقدم في الصيام والحج، قال: «وأحاديث الباب تدل على أن الصدقة من الولد تلحق الوالدين بعد موتهما بدون وصية منهما، ويصل إليهما ثوابها، فيخصص بهذه الأحاديث عموم قوله تعالى: ﴿وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَانِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ۝٣٩﴾ ولكن ليس في أحاديث الباب إلا لحوق الصدقة من الولد، وقد ثبت أن ولد الإنسان من سعيه فلا حاجة إلى التخصيص، وأما من غير الولد فالظاهر من العمومات القرآنية أنه لا يصل ثوابه إلى الميت فيوقف عليها حتى يأتي دليل يقتضي تخصيصها" ثم ذكر خلاف العلماء في المسألة.

هذا وإننا نختم هذا البحث بأحاديث اغتر بها بعض القائلين بانتفاع الموتى بكل ما يعمل لأجلهم أو يهدى إليهم من ثواب غيرهم:

١- حديث وضع النبي ﷺ الجريدتين على القبرين اللذين أوحي إليه أن أصحابهما يعذبان[1]. قال بعضهم: إنه يستأنس به لانتفاع الموتى بعمل الأحياء، ولم يقل إنه يدل على ذلك، ونحن نقول: إنه لا يقوم دليلا ولا استئناسًا، فإنه واقعة حال في أمر غيبي غير معقول المعنى، والظاهر فيه أنه من خصائص النبي ﷺ.

٢- حديث ابن عباس عند أبي داود وابن ماجه: «أن النبي ﷺ سمع رجلًا يقول: لبيك عن شبرمة. قال: **من شبرمة؟** قال أخ لي أو قريب لي، قال: **حججت عن نفسك؟** قال: لا، قال: **حج عن نفسك ثم حج عن شبرمة**»[2]. قال الحافظ في «بلوغ المرام»: صححه ابن حبان والراجح عند أحمد وقفه.

وفي «عون المعبود»[3]: رجح الطحاوي وقفه، وقال أحمد: رفعه خطأ، وقال ابن المنذر: لا يثبت رفعه. وأقول: إن في سنده قتادة عن عزرة ولم ينسب عزرة إلى

---

(١) أخرجه: أحمد (١/ ٢٢٥)، والبخاري (١/ ٤٢٧/ ٢١٨)، ومسلم (١/ ٢٤٠-٢٤١/ ٢٩٢) وأبو داود (١/ ٢٥-٢٦/ ٢٠)، والترمذي (١/ ١٠٢/ ٧٠) وقال: «هذا حديث حسن صحيح»، والنسائي (٤/ ٤١٢/ ٢٠٦٨)، وابن ماجه (١/ ١٢٥/ ٣٤٧).

(٢) أخرجه: أبو داود (٢/ ٤٠٣/ ١٨١١)، وابن ماجه (٢/ ٩٦٩/ ٢٩٠٣)، وابن حبان (٩/ ٢٩٩/ ٣٩٨٨) (الإحسان)، وابن خزيمة (٤/ ٣٤٥/ ٣٠٣٩).

(٣) (٥/ ٢٥١).

والد ولا بلد. وقد قال النسائي: إن عزرة الذي روى عنه قتادة ليس بالقوي، فترجح بهذا أنه عزرة بن تميم؛ لأن قتادة قد انفرد بالرواية عنه كما قال الخطيب. ذكر ذلك في التهذيب.

وقال الحافظ في «تهذيب التهذيب»[(١)] في ترجمة عزرة بن عبدالرحمن: «وأما الحديث الذي رواه أبو داود وابن ماجه من طريق عبدة بن سليمان عن سعيد بن أبي عروبة عن قتادة عن عزرة عن سعيد بن جبير عن ابن عباس في قصة شبرمة فوقع عندهما عزرة غير منسوب، وجزم البيهقي بأنه عزرة بن يحيى، ونقل عن أبي علي النيسابوري أنه قال: روى قتادة أيضًا عن عزرة بن ثابت وعن عزرة بن عبدالرحمن وعن هذا، فقتادة قد روى عن ثلاثة كل منهم اسمه عزرة، فقول النسائي في التمييز: «عزرة الذي روى عنه قتادة ليس بذلك القوي" لم يتعين في عزرة بن تميم كما ساقه فيه المؤلف فليتفطن لذلك. قلت: وعزرة بن يحيى لم أر له ذكرًا في تاريخ البخاري». اهـ

ونقول قد تفطنا لما ذكره الحافظ فوجدنا لجرح النسائي له مخرجًا وهو أن كلاًّ من عزرة بن ثابت وعزرة بن عبدالرحمن قد وثّقا، والنسائي ممن وثق الأول فتعين أن يكون المجروح غيرهما، فهو إما ابن تميم وإما ابن يحيى المجهول، فكيف نأخذ بحديث موقوف انفرد به مثل هذين الراويين في مسألة مخالفة لنصوص القرآن الكثيرة.

٣- حديث معقل بن يسار: «**اقرؤوا (يس) على موتاكم**»[(٢)] قال في المنتقى رواه أبو داود وابن ماجه وأحمد، ولفظه: «**يس قلب القرآن، لا يقرأها رجل يريد اللَّه والدار الآخرة إلا غفر له، واقرؤوها على موتاكم**» قال الشوكاني في شرحه له: الحديث أخرجه النسائي وابن حبان وصححه، وأعله ابن القطان بالاضطراب

---

(١) (٧/ ١٩٣).

(٢) أخرجه: أحمد (٥/ ٢٦)، وأبو داود (٣/ ٤٨٩/ ٣١٢١)، والنسائي في عمل اليوم والليلة (٦/ ٢٦٥/ ١٠٩١٣- ١٠٩١٤)، وابن ماجه (١/ ٤٦٦/ ١٤٤٨)، وابن حبان (٧/ ٢٦٩/ ٣٠٠٢) (الإحسان)، والحاكم (١/ ٥٦٥)، وذكره الحافظ في التلخيص الحبير (٢/ ١٠٤) وقال بعد تخريجه: «وأعلّه ابن القطان بالاضطراب وبالوقف، وبجهالة حال أبي عثمان وأبيه، ونقل أبو بكر بن العربي عن الدارقطني أنه قال: «هذا حديث ضعيف الإسناد، مجهول المتن، ولا يصح في الباب حديث».

وبالوقف وبجهالة حال أبي عثمان وأبيه في السند، وقال الدارقطني: هذا حديث ضعيف الإسناد مجهول المتن، ولا يصح في الباب حديث، انتهى.

أقول: إن اللفظ الأول للحديث لأبي داود، والأخير لأحمد فيما يظهر، فإن لفظ ابن ماجه «**اقرؤوها عند موتاكم**» يعني: يس، والنسائي لم يخرجها في سننه؛ بل في عمل اليوم والليلة، وابن حبان يتساهل في التصحيح فيتثبت في تصحيحه، وإن لم يوجد نص للنقاد في معارضته فيه، فكيف إذا صرح جهابذة النقاد بمعارضته، والجرح مقدم على التعديل، فكيف إذا كان الحديث الذي صرحوا بعدم صحته مخالفا للآيات الصريحة، وما في معناها من الأحاديث الصحيحة، ولكن الذين أخذوا قول بعض العلماء بجواز العمل بالحديث الضعيف في فضائل الأعمال لا يميزون بين فضائل الأعمال التي تشملها النصوص العامة، وبين ما تدل هذه النصوص على عدم جوازه، بل على حظره وكونه بدعة مخالفة لأصول الشريعة، ولذلك تجد قراء سورة يس على القبور قد عم المشارق والمغارب، وصار كالسنن الصحيحة المتبعة لما للأنفس من الهوى في ذلك، ثم إن معنى الحديث -على عدم صحته متنا وسندا- القراءة عند الميت أي: الذي حضره الموت كما صرح به رواة الحديث ابن حبان وغيره، وصرحوا بأن حكمته سماع ما في السورة من ذكر البعث ولقاء الله تعالى ليكون آخر ما تشتغل به نفس الميت، وقد أورده أبو داود في باب القراءة عند الميت،.وابن ماجه في باب ما جاء فيما يقال عند المريض إذا احتضر.

وقال صاحب عون المعبود شرح سنن أبي داود عند عبارة: «**على موتاكم**» أي: الذين حضرهم الموت، ولعل الحكمة في قراءتها أن يستأنس المحتضر بما فيها، من ذكر الله، وأحوال القيامة والبعث. قال الإمام الرازي في التفسير الكبير: الأمر بقراءة يس على من شارف الموت مع ورود قوله ﷺ: «**لكل شيء قلب، وقلب القرآن يس**» إيذان بأن اللسان حينئذ ضعيف القوة، ساقط المنة، لكن القلب أقبل على الله بكليته، فيقرأ عليه ما يزاد به قوة قلبه، ويشتد تصديقه بالأصول، فهو إذا عمله ومهمه قاله القاري اهـ.

وأقول: إن ابن القيم ذكر هذا الحديث في أول كتاب الروح، وحقق هذا المعنى الذي قاله علماء المنقول وعلماء المعقول، بما أربى به على الفريقين، قال نفعنا الله

بعلومه: وفي النسائي وغيره من حديث معقل بن يسار المزني عن النبي ﷺ أنه قال: «**اقرأوا يس عند موتاكم**» وهذا يحتمل أن يراد به قراءتها على المحتضر عند موته مثل قوله: «**لقنوا موتاكم لا إله إلا الله**»[١]، ويحتمل أن يراد به القراءة عند القبر، والأول أظهر لوجوه:

أحدها: أنه نظير قوله: «**لقنوا موتاكم لا إله إلا الله**».

الثاني: انتفاع المحتضر بهذه السورة لما فيها من التوحيد والمعاد والبشرى بالجنة لأهل التوحيد وغبطة من مات عليه بقوله: ﴿قَالَ يَٰلَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ ﴿٢٦﴾ بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ ٱلْمُكْرَمِينَ ﴿٢٧﴾﴾[٢] فيستبشر الروح بذلك فيحب لقاء الله، فيحب الله لقاءه، فإن هذه السورة قلب القرآن، ولها خاصية عجيبة في قراءتها عند المحتضر.

وقد ذكر أبو الفرج بن الجوزي قال: كنا عند شيخنا أبي الوقت عبدالأول وهو في السياق، وكان آخر عهدنا به أنه نظر إلى السماء وضحك وقال: ﴿قَالَ يَٰلَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ ﴿٢٦﴾ بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ ٱلْمُكْرَمِينَ ﴿٢٧﴾﴾ وقضى.

الثالث: إن هذا عمل الناس وعادتهم قديما وحديثا يقرأون يس عند المحتضر.

الرابع: أن الصحابة لو فهموا من قوله ﷺ: «**اقرأوا يس عند موتاكم**» قراءتها عند القبر لما أخلوا به، وكان ذلك أمرا معتادا مشهورا بينهم.

الخامس: أن انتفاعه باستماعها وحضور قلبه وذهنه عند قراءتها في آخر عهده بالدنيا هو المقصود، وأما قراءتها عند قبره فإنه لا يثاب على ذلك؛ لأن الثواب إما بالقراءة أو بالاستماع وهو عمل وقد انقطع من الميت اهـ.

أقول: هذا التحقيق كاف في بابه ولا ينافيه ما ذكره قبله في قراءة فاتحة البقرة وخاتمتها عند رأس الميت عند دفنه، وهو أثر مروي عن ابن عمر رضي الله عنه أنه أوصى به، فإنه في معنى تلقين التوحيد قبل الموت، وهو صحيح والتلقين بعد الدفن والحديث فيه ضعيف، وإلا فهو باطل، فقد انفرد بروايته مبشر الحلبي عن عبدالرحمن بن العلاء اللجلاج، ولم يرو عن عبدالرحمن أحد غير مبشر هذا،

---

(١) أخرجه: أحمد (٣/ ٣)، ومسلم (٢/ ٦٣١/ ٩١٦)، وأبو داود (٣/ ٤٨٧/ ٣١١٧)، والترمذي (٣/ ٣٠٦/ ٩٧٦)، والنسائي (٤/ ٣٠٢-٣٠٣/ ١٨٢٥)، وابن ماجه (١/ ٤٦٤/ ١٤٤٥)، من حديث ابن مسعود رضي الله عنه.

(٢) يس: الآيتان (٢٦-٢٧).

وغاية ما قالوا فيه: إنه مقبول وليس له في دواوين السنة غير حديث واحد عند الترمذي، والصواب أنه لا ينقض قول الإمام أحمد أن القراءة عند القبر بدعة، وإنما يخصص عمومه بورود القراءة عن بعضهم عند دفن الميت فقط على ما فيه من الشذوذ، ومما ذكرناه يعلم سبب اختلاف الحنابلة في المسألة، قال ابن مفلح في كتاب الفروع: فصل: لا تكره القراءة على القبر وفي المقبرة، نص عليه واختاره أبو بكر والقاضي وجماعة، وهو المذهب خلافا للشافعي، وعليه العمل عند مشايخ الحنفية، فقيل: تباح، وقيل: تستحب، قال ابن تميم: نص عليه كالسلام والذكر والدعاء والاستغفار، وعنه: لا يكره وقت دفنه، وعنه: يكره، اختاره عبدالوهاب الوراق وأبو حفص وفاقا لأبي حنيفة ومالك، قال شيخنا: نقلها الجماعة، وهو قول جمهور السلف، وعليها قدماء أصحابه، أي: أصحاب أحمد. قال ابن عقيل: أبو حفص يغلب الحظر، أي: كونها حراما ثم هاهنا ذكر وصية ابن عمر بقراءة فاتحة البقرة وخاتمتها على رأسه عند دفنه التي هي سبب رجوع أحمد عن حظر القراءة مطلقا، والخلاف في نذر القراءة بناء على هذا الخلاف. وقول المروذي بناء على الحظر فيمن نذر أن يقرأ عند قبر أبيه يكفر عن يمينه ولا يقرأ، ثم قال: وعنه أي: الإمام أحمد بدعة، لأنه ليس من فعله ﷺ وفعل أصحابه، فعلم أنه محدث، وسأله عبدالله أي: ابنه: يحمل مصحفا إلى المقبرة؟ فيقرأ فيه عليه قال: بدعة. قال شيخنا: ولم يقل أحد من العلماء المعتبرين: إن القراءة عند القبر أفضل، ولا رخص في اتخاذه عيدا كاعتياد القراءة عنده في وقت معلوم، أو الذكر أو الصيام، قال: واتخاذ المصاحف عندها ولو للقراءة فيها بدعة، ولو نفع الميت لفعله السلف» انتهى.

ولهؤلاء العلماء الأعلام نصوص في بطلان الوقف على قراءة القرآن عند القبور كبطلانه على ما نهى عنه الشرع من تشييدها، والبناء، وإيقاد السرج عليها، ونحو ذلك من البدع التي صارت عند الجماهير في عداد السنن؛ بل يهتمون لها ما لا يهتمون للفرائض للأهواء الموروثة في ذلك، وإذ قد علمت أن حديث قراءة سورة يس على الموتى غير صحيح، وإن أريد به من حضرهم الموت، وأنه لم يصح في هذا الباب حديث قط كما قال المحقق الدارقطني، فاعلم أن ما اشتهر وعم البدو والحضر من قراءة الفاتحة للموتى لم يرد فيه حديث صحيح ولا ضعيف، فهو

من البدع المخالفة لم تقدم من النصوص القطعية، ولكنه صار بسكوت اللابسين لباس العلماء، وبإقرارهم له، ثم بمجاراة العامة عليه من قبيل السنن المؤكدة، أو الفرائض المحتمة.

وخلاصة القول: أن المسألة[١] من الأمور التعبدية التي يجب فيها الوقوف عند نصوص الكتاب والسنة وعمل الصدر الأول من السلف الصالح. وقد علمنا أن القاعدة المقررة في نصوص القرآن الصريحة والأحاديث الصحيحة أن الناس لا يجزون في الآخرة إلا بأعمالهم ﴿يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِّنَفْسٍ شَيْـًٔا﴾[٢]، ﴿وَٱخْشَوْا۟ يَوْمًا لَّا يَجْزِى وَالِدٌ عَن وَلَدِهِۦ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِۦ شَيْـًٔا﴾[٣] وأن النبي ﷺ بلغ أقرب أهل عشيرته إليه بأمر ربه أن «**اعملوا لا أغني عنكم من الله شيئًا**»[٤]، فقال ذلك لعمه وعمته ولابنته سيدة النساء[٥]. وأن مدار النجاة في الآخرة على تزكية النفس بالإيمان والعمل الصالح، والثواب ما يثوب ويرجع إلى العامل من تأثير عمله في نفسه، إلخ ما تقدم شرحه مع التذكير بالآيات الكثيرة والأحاديث فيه، وكل ذلك من الأخبار وقواعد العقائد فلا يدخلها النسخ.

وورد مع ذلك الأمر بالدعاء لأحياء المؤمنين وأمواتهم في صلاة الجنازة وفي غيرها فالدعاء عبادة ثوابها لفاعلها سواء استجيب أم لا، ويستحيل شرعًا وعقلًا استجابة كل دعاء لتناقض الأدعية، ولاقتضاء الاستجابة ألا يعاقب فاسق ولا مجرم إلا إذا اتفق وجود أحد لا يدعو له أحد برحمة ولا مغفرة في صلاة ولا غيرها، ولما يترتب على ذلك من تعطيل كثير من النصوص أو عدم صدقها.

وورد في الأخبار جواز صدقة الأولاد عن الوالدين ودعائهم لهما وقضاء ما وجب عليهما من صيام أو صدقة أو نسك، وقد بينا حكمته مع النصوص فيه، والظاهر من هذا أن الوالدين ينتفعان ببعض عمل أولادهما؛ لأن الشارع ألحقهم

---

(١) أي: إهداء ثواب القراءة للأموات.

(٢) سورة الانفطار: الآية (١٩).

(٣) سورة لقمان: الآية (٣٣).

(٤) أخرجه: من حديث أبي هريرة: أحمد (٢/ ٣٣٣)، والبخاري (٥/ ٤٨٠/ ٢٧٥٣)، ومسلم (١/ ١٩٢/ ٢٠٤)، والترمذي (٥/ ٣١٦/ ٣١٨٥) وقال: «هذا حديث حسن صحيح غريب»، والنسائي (٦/ ٥٥٨-٥٥٩/ ٣٦٤٦)، وفي الباب غيره من الصحابة.

(٥) أخرجه: البخاري (٨/ ٦٤٣/ ٤٧٧١)، ومسلم (١/ ١٩٢-١٩٣/ ٢٠٦) من حديث أبي هريرة.

بهما فيسقط عنهما ما ينوبان عنهما فيه من أداء دين اللَّه تعالى كديون الناس، وينالهما من دعائهم لهما خير ليس هو ثواب الدعاء نفسه. ولكن مدار الجزاء والنجاة على عمل المرء لنفسه لا على عمل أولاده جمعا بين النصوص.

فمن أراد أن يتبع الهدى، ويتقي جَعْلَ الدين تابعًا للهوى، فليقف عند النصوص الصحيحة ويتبع فيها سيرة السلف الصالح، ويعرض عن أقيسة بعض الخلف المروجة للبدع.

وإذا زين لك الشيطان أنه يمكنك أن تكون أهدى وأكمل عملًا بالدين من الصحابة والتابعين فحاسب نفسك على الفرائض والفضائل المجمع عليها والصحيحة التي يضعف الخلاف فيها، وانظر أين مكانك منها، فإن رأيت ولو بعيني العجب والغرور أنك بلغت مد أحدهم أو نصيفه من الكمال فيها، فعند ذلك تعذر في الزيادة عليها، وهيهات هيهات لا يدعي ذلك إلا جهول مفتون، أو من به مس من الجنون.

وأن أكثر المتعبدين بالبدع مقصرون في أداء الفرائض أو في المواظبة على السنن، ومنهم المصرون على الفواحش والمنكرات، كإصرارهم على ما التزموا في المقابر من العادات، كاتخاذها أعيادًا تشد إليها الرحال، ويجتمع لديها النساء والرجال والأطفال، ولا سيما في ليلتي العيدين وأول جمعة من رجب، وتذبح عندها الذبائح، وتطبخ أنواع المآكل، فيأكلون ثم يشربون، ويبولون ويغوطون، ويلغون ويصخبون، ويقرأ لهم القرآن، من يستأجرون لذلك من العميان، ولهم أعمال من دون ذلك هم لها عاملون، وإذا كان ما يأتون من القراءة والذكر هناك من البدع المنكرة، وكان بعض المباحات يعد هناك من الأمور المكروهة أو المحرمة، فما القول في سائر أفعالهم الظاهرة والباطنة؟

ولو لم يرد في حظر هذه الاجتماعات في المقابر إلا حديث ابن عباس في السنن الثلاث مرفوعًا بسند صحيح: **«لعن اللَّه زائرات القبور، والمتخذين عليها المساجد والسرج»**[1] لكفى، ولكن ذلك كله قد صار من قبيل شعائر الدين، وآيات اليقين،

---

(١) أخرجه: أحمد (١/ ٢٢٩)، وأبو داود (٣/ ٥٥٨/ ٣٢٣٦)، والترمذي (٢/ ١٣٦/ ٣٢٠) وقال: «حديث ابن عباس حديث حسن»، والنسائي (٤/ ٤٠٠/ ٢٠٤٢)، وابن ماجه (١/ ٥٠٢/ ١٥٧٥) مختصراً، وابن حبان (٧/ ٤٥٢-٤٥٣/ ٣١٧٩) (الإحسان)، والحاكم (١/ ٣٧٤).

توقف له الأوقاف التي يسجلها، ويحكم بصحتها قضاة الشرع الجاهلون، ويأكل منها أدعياء العلم والعرفان الضالون المضلون، ولقد كان بعض الصحابة وغيرهم من علماء السلف يتركون بعض السنن أحيانًا حتى لا يظن العوام أنها مفروضة بالتزامها تأسيًا بالرسول ﷺ في ترك المواظبة على بعض الفضائل خشية أن تصير من الفرائض، فخلف من بعدهم خلف قصروا في الفرائض، وتركوا السنن والشعائر، وواظبوا على هذه البدع، حتى إنهم ليتركون لأجلها الأعياد والجمع، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم»[١].

قلت: ما ذكره الشيخ محمد رشيد رضا رحمه الله في هذا البحث هو جيد؛ فكله دفاع عن السنة، ورد للبدعة التي انتشرت بين كثير من الأنام وصارت عندهم أوكد من المفروضات؛ بل من الجمع والجماعات؛ حيث ترصد لها الأموال عند الأكابر وتخصص لها ميزانيات. ومن لم يفعل ذلك اتهم في دينه وخروجه عن الإسلام! وصارت المقابر تعج بذلك عند الدفن وعند تغسيل الميت، وفي اليوم الثاني والثالث من الوفاة يستدعى هؤلاء المرتزقة الذين غالبهم لا دين لهم ولا دنيا، وبعضهم من تاركي الصلاة فينهق كما تنهق الحمير، وينتظرون أجورهم ومقابلهم بالأموال. وإلا لعنوا الميت وأبناءه وأقاربه، فأمثال هؤلاء المنافقين لو كان أهل الميت على الأقل من العقلاء ما أدخلوهم لبيوتهم ولا طلبوا منهم القراءة؛ فإن حالهم يغني عن مقالهم. وترى معهم من ينسب إلى العلم والعلماء! وأحيانًا يأخذون نصيبهم من الأجرة وهي إثم وعدوان، وأما الأضرحة وسدنتها فلا تسأل عن الشرك وأصنافه وتلاعب سدنتها من أمثال هؤلاء المنافقين بالليل والنهار، وهي أيضا رغم تجمع الشرك والمشركين فيها تخصص لها ميزانيات من المنافقين الذين يحادون الله ورسوله في توحيده وإقراره بالعبودية التي لا تجوز إلا له. فما ذكره الشيخ محمد رشيد رضا رحمه الله نزر يسير، وقطرة من بحر. وقد تكالب الرسميون الذين يريدون بالأمة الانغماس في واقع كله شرك وضلال، ولا يرقبون في ذلك إلًّا ولا ذمةً، ويحاربون كل من دعا إلى التوحيد والسنة بزعم أن هذا من مقومات البلد، ومن خصوصيات الوطن، ومن ميراث الأجداد، وهي دعاوى كلها موروثة عن

---

(١) تفسير المنار (٨/ ٢٥٤-٢٧٠).

المشركين من عهد نوح عليه السلام حتى عهد قريش وإلى يومنا هذا، فهل من معتبر بهذا الواقع السيئ الذي من عرضه على الكتاب والسنة وعقله وفطرته السليمة؛ اشمأز وتفطر قلبه واحترقت أعصابه لما يرى ويسمع من المنكرات التي ضاهوا فيها أصحاب اللات والعزى ومناة الثالثة الأخرى! وكأن الأمة لم ينزل فيها قرآن، ولا بعث فيها رسول، ولاترك الصحابة، ولا التابعون، ولا علماء الحديث والسنة المصنفات الطافحة بالترهيب من الشرك والمشركين والبدع والمبتدعين، واللَّه المستعان.

قال القرطبي: «وقوله: «**إذا مات الإنسان انقطع عمله إلا من ثلاثة. .**» الحديث، هذه الثلاث الخصال إنما جرى عملها بعد الموت على من نسبت إليه؛ لأنه تسبب في ذلك، وحرص عليه، ونواه. ثم إن فوائدها متجددة بعد دائمة فصار كأنه باشرها بالفعل، وكذلك حكم كل ما سنه الإنسان من الخير، فتكرر بعده، بدليل قوله ﷺ: «**من سن في الإسلام سنة حسنة كان له أجرها وأجر من عمل بها إلى يوم القيامة**». . وإنما خص هذه الثلاثة بالذكر في هذا الحديث، لأنها أصول الخير، وأغلب ما يقصد أهل الفضل بقاءه بعدهم. والصدقة الجارية بعد الموت هي الحبس فكان حجة على من ينكر الحبس. وفيه ما يدل على الحض على تخليد العلوم الدينية بالتعليم والتصنيف، وعلى الاجتهاد في حمل الأولاد على طريق الخير والصلاح، ووصيتهم بالدعاء عند موته وبعد الموت»[1].

* عن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «**من دعا إلى هدىً كان له من الأجر مثل أجور من تبعه، لا ينقص ذلك من أجورهم شيئًا. ومن دعا إلى ضلالة كان عليه من الإثم مثل آثام من تبعه لا ينقص ذلك من آثامهم شيئًا**»[2].

★ فوائد الحديث:

قال ابن عبدالبر: «هذا الباب أبلغ شيء في فضائل تعليم العلم اليوم والدعاء إليه وإلى جميع سبل البر والخير؛ لأن الميت منها كثير جدًا، ومثل هذا الحديث في

---

(١) المفهم (٤/ ٥٥٤-٥٥٥).

(٢) أخرجه: أحمد (٢/ ٣٩٧)، ومسلم (٤/ ٢٠٦٠/ ٢٦٧٤)، وأبو داود (٥/ ١٥-١٦/ ٤٦٠٩)، والترمذي (٥/ ٤٢/ ٢٦٧٤) وقال: «حسن صحيح»، وابن ماجه (١/ ٧٥/ ٢٠٦).

المعنى قوله ﷺ: «**ينقطع عمل المرء بعده إلا من ثلاث: علم علمه فعمل به بعده، وصدقة موقوفة يجري عليه أجرها، وولد صالح يدعو له**» . . وعلى قدر فضل معلم الخير وأجره يكون وزر من علم الشر ودعا إلى الضلال؛ لأنه يكون عليه وزر من تعلمه منه ودعا إليه وعمل به، عصمنا اللَّه برحمته»(١) .

قال الطيبي: «**«هدى»** وهو إما الدلالة الموصلة إلى البغية، أو مطلق الإرشاد، وهو في الحديث ما يهتدى به من الأعمال الصالحة، وهو بحسب التنكير مطلق شائع في جنس ما يقال له: هدى، يطلق على القليل والكثير والعظيم والحقير، فأعظمه هدى من دعا إلى اللَّه وعمل صالحًا وقال: إنني من المسلمين، وأدناه هدى من دعا إلى إماطة الأذى عن طريق المؤمنين، ومن ثم عظم شأن الفقيه الداعي المنذر، حتى فضل واحد منهم على ألف عابد؛ لأن نفعه يعم الأشخاص والأعصار إلى يوم الدين»(٢) .

قال المناوي: «**«فإن عليه من الإثم مثل آثام من تبعه»** لتولده عن فعله الذي هو من خصال الشيطان، والعبد يستحق العقوبة على السبب وما تولد منه، كما يعاقب السكران على جنايته حال سكره، وإذا كان السبب محظورًا لم يكن السكران معذورًا فاللَّه يعاقب على الأسباب المحرمة وما تولد منها كما يثيب على الأسباب المأمور بها وما تولد منها، ولهذا كان على قابيل القاتل لأخيه كفل من ذنب كل قاتل»(٣) .

قلت: وكل ما ورد عن الرسول ﷺ في ذم البدع صادق على جميع المبتدعة بأصولهم وفروعهم في كل أزمنتهم وأمكنتهم، فالإثم يتراكم ويتعاظم منذ إحداث البدعة وإلى أن تقوم الساعة حسب العمل بتلك البدعة؛ فأول من أحدث تشييد الأضرحة في أمة محمد ﷺ -التي كانت في عافية من ذلك- فهو آثم بإثمه وإثم من بنى ضريحًا بعده في مشارق الأرض ومغاربها، في المدن وفي القرى، وفي السهل وفي الجبل، كل ذلك يرجع الإثم إليه .

---

(١) فتح البر (١/ ١٥٢).

(٢) الكاشف (٢/ ٦٢٥-٦٢٦).

(٣) فيض القدير (٦/ ١٢٥).

وكل من أحدث علم الكلام فعليه إثمه وإثم من تبعه إلى أن تقوم الساعة، وكل من أحدث بدعة التصوف البغيض الممقوت؛ فإثمه عليه وعلى من بعده إلى أن تقوم الساعة، وكل من أحدث بدعة الرفض فإثمه عليه إلى يوم القيامة، وكل من أحدث بدعة التجهم فإثمه عليه وعلى من تبعه إلى يوم القيامة، فليحذر المسلمون من البدع والمبتدعة حتى لا يقعوا في الأوزار ويحملوا وزرهم ووزر من تبعهم إلى يوم القيامة.

قال المناوي: «أخذ المقريزي من هذا الخبر أن كل أجر حصل للشهيد حصل للنبي ﷺ بسببه مثله، والحياة أجر فيحصل للنبي ﷺ مثلها زيادة على ما له من الأجر الخاص من نفسه على هذا المهتدي وعلى ما له من الأجور على حسناته الخاصة من الأعمال والمعارف والأحوال التي لا تصل جميع الأمة إلى عرف نشرها، ولا يبلغون معاشر عشرها، فجميع حسنات المسلمين وأعمالهم الصالحة في صحائف نبينا ﷺ، زيادة على ما له من الأجر مع مضاعفة لا يحصيها إلا الله»[١].

قال القاري: «وبهذا يعلم أن له ﷺ من مضاعفة الثواب بحسب تضاعف أعمال أمته معا لا يعد ولا يحد، وكذا السابقون الأولون من المهاجرين والأنصار، وكذا بقية السلف بالنسبة إلى الخلف، وكذا العلماء المجتهدون بالنسبة إلى أتباعهم، وبه يعرف فضل المتقدمين على المتأخرين في كل طبقة وحين»[٢].

* * *

---

(١) فيض القدير (٦/ ١٢٥).

(٢) المرقاة (١/ ٣٩٥).

قوله تعالى: ﴿وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلْمُنتَهَىٰ ﴿٤٢﴾﴾

★ غريب الآية:

المنتهى: أي: المرجع، والمردّ، والمصير.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره- لنبيه ﷺ: وأن إلى ربك -يا محمد- انتهاء جميع خلقه ومرجعهم، وهو المجازي جميعهم بأعمالهم، صالحهم وطالحهم، ومحسنهم ومسيئهم»[١].

قال ابن القيم: «قوله تعالى: ﴿وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلْمُنتَهَىٰ ﴿٤٢﴾﴾ متضمن لكنز عظيم، وهو أن كل مراد إن لم يرد لأجله ويتصل به فهو مضمحلّ منقطع؛ فإنه ليس إليه المنتهى، وليس المنتهى إلا إلى الذي انتهت إليه الأمور كلها، فانتهت إلى خلقه ومشيئته وحكمته وعلمه، فهو غاية كل مطلوب، وكل محبوب لا يحب لأجله فمحبته عناء وعذاب. وكل عمل لا يراد لأجله فهو ضائع وباطل. وكل قلب لا يصل إليه فهو شقي محجوب عن سعادته وفلاحه، فاجتمع ما يراد منه كله في قوله: ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَآئِنُهُۥ﴾[٢]، واجتمع ما يراد له كله في قوله: ﴿وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلْمُنتَهَىٰ ﴿٤٢﴾﴾، فليس وراءه سبحانه غاية تُطلب وليس دونه غاية إليها المنتهى.

وتحت هذا سر عظيم من أسرار التوحيد، وهو أن القلب لا يستقر ولا يطمئن ويسكن إلا بالوصول إليه، وكل ما سواه مما يُحَبّ ويُراد فمراد لغيره. وليس المراد المحبوب لذاته إلا واحد إليه المنتهى. ويستحيل أن يكون المنتهى إلى اثنين كما يستحيل أن يكون ابتداءَ المخلوقات من اثنين، فمن كان انتهاء محبته ورغبته وإرادته وطاعته إلى غيره بطل عليه ذلك، وزال عنه وفارقه أحوجَ ما كان إليه. ومن كان انتهاء محبته ورغبته ورهبته وطلبه هو سبحانه ظفر بنعيمه ولذته وبهجته وسعادته أبد الآباد»[٣].

---

(١) جامع البيان (٢٧/ ٧٤).

(٢) الحجر: الآية (٢١).

(٣) الفوائد (ص: ٢٦٠).

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة التي احتج بها من ذهب إلى أن المراد بالآية أن اللَّه ﷻ هو منتهى الأفكار

* عن أبي هريرة قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «**يأتي الشيطان أحدكم فيقول: من خلق كذا من خلق كذا؟ حتى يقول: من خلق ربك؟ فإذا بلغه فليستعذ باللَّه ولينته**»[(١)].

★ **فوائد الحديث:**

احتج بهذا الحديث من ذهب من المفسرين إلى أن المعنى المراد من هذه الآية هو «أنه عز وجل منتهى الأفكار فلا تزال الأفكار تسير في بيداء حقائق الأشياء وماهيتها وللإحاطة بها فيها حتى إذا وجهت إلى ذات اللَّه عز وجل وحقائق صفاته سبحانه وقفت وحرنت وانتهى سيرها»[(٢)].

قال الخطابي: «وجه هذا الحديث ومعناه: ترك الفكر فيما يخطر بالقلب من وساوس الشيطان، والامتناع من قبولها، واللياذ باللَّه عز وجل في الاستعاذة منه، والكف عن مجاراته في حديث النفس، ومطاولته في المحاجة والمناظرة، والاشتغال بالجواب على ما يوجبه حق النظر في مثله لو كان المناظر عليه بشرًا وكلمك في مثل هذا، فإن من ناظرك وتسمع كلامه ويسمع كلامك لا يمكنه أن يغالطك فيما يجري بينكما من الكلام حتى يخرجك من حدود النظر ورسوم الجدل، فإن باب السؤال والجواب وما يجري فيه من المعارضة والمناقضة معلوم، والأمر فيه محدود محصور، فإذا رعيت الطريقة، وأصبت الحجة، وألزمتها خصمك انقطع، وكفيت مؤنته، وحسمت شغبه، وباب ما يوسوس به الشيطان إليك غير محدود ولا متناه، لأنك كلما ألزمته حجة، وأفسدت عليه مذهبًا راغ إلى نوع آخر من الوساوس التي أعطي التسليط فيها عليك، فهو لا يزال يوسوس إليك حتى يؤديك إلى الحيرة والضلال فأرشد النبي ﷺ عندما يعرض من وساوسه في هذا الباب إلى الاستعاذة بذكر اللَّه والاشتغال بأمر سواه، وهذا حيلة بليغة، وجنة

---

(١) أخرجه: أحمد (٢/ ٣٣١)، والبخاري (٦/ ٤١٣-٤١٤/ ٣٢٧٦)، ومسلم (١/ ١٢٠/ ١٣٤[٢١٤])، وأبو داود (٥/ ٩١-٩٢/ ٤٧٢١)، والنسائي في الكبرى (٦/ ١٧٠/ ١٠٤٩٩).

(٢) أفاده الألوسي في روح المعاني (٢٧/ ٦٨).

حصينة يخزى معها الشيطان ويبطل كيده.

قلت: ولو أراد النبي ﷺ محاجته، وأذن في مراجعته والرد عليه فيما يوسوس به لكان الأمر على كل موحد سهلًا في قمعه وإبطال قوله، فإنه لو يقدر أن يكون السائل عن مثل هذا واحدًا من البشر لكان جوابه والنقض عليه متلقى من سؤاله، ومأخوذًا من فحوى كلامه، وذلك أنه إذا قال: هذا اللَّه خلق فمن خلقه؟ فقد نقض بأول كلامه آخره، وأعطى أن لا شيء يتوهم دخوله تحت هذه الصفة من ملك، وإنس، وجن، ونوع من أنواع الحيوان الذي يتأتى منه فعل؛ لأن جميع ذلك واقع تحت اسم الخلق، فلم يبق للمطالبة مع هذا محل ولا قرار.

وأيضًا فلو جاز على هذه المقدمة أن يسأل فيقال: من خلق الله؟ فيسمى شيء من الأشياء يدعى له هذا الوصف للزم أن يقال: ومن خلق ذلك الشيء؟ ولامتد القول في ذلك إلا ما لا يتناهى، والقول بما لا يتناهى فاسد، فسقط السؤال من أصله.

ومما كان يقال: لمن يسأل هذا السؤال إنما وجب إثبات الصانع الواحد لما اقتضاه أوصاف الخليقة من سمات الحدث الموجبة أن لها محدثا فقلنا: إن لها خالقًا، ونحن لم نشاهد الخالق عيانًا فنحيط بكنهه، ولم يصح لنا أن نصفه بصفات الخلق فيلزمنا أن نقول: إن له خالقًا، والشاهد لا يدل على مثله في الغائب، إنما يدل على فعله، والاستدلال إنما يكون بين المختلفات دون المشتبهات، والمفعول لا يشبه فاعله في شيء من نعوته الخاصة، فبطل ما يقع في الوهم لدخلنا في نوع ما نهينا عنه فيما رويناه من الحديث فإذن ننتهي إلى ما أمرنا به من حسم هذا الباب في مناظرة الشيطان لجهله وقلة إنصافه وكثرة شغبه.

وقد تواصى الحكماء فيما دونوه ورسموه من حدود الجدل وآداب النظر بترك مناظرة من هذا صفته، وأمروا بالسكوت والإعراض عنه»[(١)].

قال الحافظ معلقًا على كلام الخطابي: «والذي نحا إليه من التفرقة بين وسوسة الشيطان ومخاطبة البشر فيه نظر؛ لأنه ثبت في مسلم من طريق هشام بن عروة عن

---

(١) أعلام الحديث (٣/ ١٥١١-١٥١٤).

أبيه في هذا الحديث: «**لا يزال الناس يتساءلون حتى يقال هذا: خلق الله الخلق، فمن خلق الله؟ فمن وجد من ذلك شيئًا، فليقل: آمنت بالله**»، فسوى في الكف عن الخوض في ذلك بين كل سائل عن ذلك من بشر وغيره. . أو الكف عن ذلك نظير الأمر بالكف عن الخوض في الصفات والذات»[١].

وقوله: «**فليستعذ بالله ولينته**» قال القرطبي: «لما كانت هذه الوساوس من إلقاء الشيطان، ولا قوة لأحد بدفعه إلا بمعونة الله وكفايته أمر بالالتجاء إليه، والتعويل في دفع ضرره عليه، وذلك معنى الاستعاذة على ما يأتي، ثم عقب ذلك بالأمر بالانتهاء عن تلك الوساوس والخواطر، أي: عن الالتفات إليها والإصغاء نحوها، بل يعرض عنها ولا يبالي بها، وليس ذلك نهيًا عن إيقاع ما وقع منها، ولا عن ألا يقع منه؛ لأن ذلك ليس داخلًا تحت الاختيار ولا الكسب، فلا يكلف بها، والله أعلم»[٢].

قال الطيبي: «وإنما أمر بالاستعاذة والانتهاء عنه، والإعراض عن مقابلته، لا بالتأمل والاحتجاج بوجهين:

الأول: أن العلم باستغنائه تعالى عن المؤثر والموجد أمر ضروري لا يقبل الاحتجاج والمناظرة له وعليه، فإن وقع من ذلك شيء كان من وسوسة الشيطان؛ لأنه مسلط في باب الوسوسة، ووساوسه غير متناهية، فمهما عارضته فيما يوسوس بحجة يجد مسلكًا آخر إلى ما ينفيه من المغالطة والتشكيك، وأدنى ما يفيده من الاسترسال في ذلك إضاعة الوقت، فلا تدبير في دفع ذلك أقوى وأحسن من الاستعاذة بالله تعالى قال الله تعالى: ﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ﴾[٣].

وثانيهما: أن السبب في اعتوار أمثال ذلك احتباس المرء في عالم الحس، وما دام هو كذلك لا يزيد فكره إلا انهماكًا في الباطل وزيغًا عن الحق، ومن كان هذا حاله فلا علاج له إلا الالتجاء إلى الله تعالى للاعتصام بحوله وقوته»[٤].

* * *

---

(١) فتح الباري (٦/ ٤٢٠).

(٢) المفهم (١/ ٣٤٥).

(٣) الأعراف: الآية (٢٠٠).

(٤) الكاشف (٢/ ٥١٨-٥١٩).

قوله تعالى: ﴿وَأَنَّهُۥ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَىٰ ﴿٤٣﴾﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن كثير: «أي: خلق في عباده الضحك والبكاء، وسببهما، وهما مختلفان»[(١)].

قال البغوي: «هذا يدل على أن كل ما يعمله الإنسان فبقضائه وخلقه حتى الضحك والبكاء»[(٢)].

قال ابن عطية: «ذكر الضحك والبكاء لأنهما صفتان تجمعان أصنافًا كثيرة من الناس؛ إذ الواحدة دليل السرور، والأخرى دليل الحزن في الدنيا والآخرة، فنبه تعالى على هاتين الخاصتين اللتين هما للإنسان وحده»[(٣)].

وقال الرازي: «اختار هذين الوصفين للذكر والأنثى؛ لأنهما أمران لا يعللان، فلا يقدر أحد من الطبيعيين أن يبدي في اختصاص الإنسان بالضحك والبكاء وجهًا وسببًا، وإذا لم يعلل بأمر ولا بد له من موجد فهو اللَّه تعالى، بخلاف الصحة والسقم فإنهم يقولون: سببهما اختلال المزاج وخروجه عن الاعتدال، ويدلك على هذا أنهم إذا ذكروا في الضحك أمرًا له الضحك قالوا: قوة التعجب، وهو في غاية البطلان؛ لأن الإنسان ربما يبهت عند رؤية الأمور العجيبة ولا يضحك، وقيل: قوة الفرح، وليس كذلك؛ لأن الإنسان يفرح كثيرًا ولا يضحك، والحزين الذي عند غاية الحزن يضحكه المضحك، وكذلك الأمر في البكاء، وإن قيل لأكثرهم علمًا بالأمور التي يدعيها الطبيعيون: إن خروج الدمع من العين عند أمور مخصوصة لماذا؟ لا يقدر على تعليل صحيح، وعند الخواص كالتي في المغناطيس وغيرها ينقطع الطبيعي، كما أن عند أوضاع الكواكب ينقطع هو والمهندس الذي لا يفوض

---

(١) تفسير القرآن العظيم (٧/ ٤٤٢).

(٢) معالم التنزيل (٤/ ٢٣٢).

(٣) المحرر الوجيز (٥/ ٢٠٧).

أمره إلى قدرة اللَّه تعالى وإرادته»[١].

قال الألوسي: «وتقديم الضمير وتكرير الإسناد للحصر، أي: أنه تعالى فعل ذلك لا غيره سبحانه»[٢].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة الدالة على أن أفعال العباد خلق لله وكسب من العباد

* عن عائشة رضي الله عنها قالت: «رحم اللَّه عمر، واللَّه ما حدث رسول اللَّه ﷺ أن اللَّه ليعذب المؤمن ببكاء أهله عليه، ولكن رسول اللَّه ﷺ قال: **إن اللَّه ليزيد الكافر عذابًا ببكاء أهله عليه**، وقالت: حسبكم القرآن ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾[٣]»، قال ابن عباس رضي الله عنهما عند ذلك: «واللَّه ﴿هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَىٰ﴾». قال ابن أبي مليكة: واللَّه ما قال ابن عمر رضي الله عنهما شيئًا[٤].

★ فوائد الحديث:

تقدم شرح الحديث، وبيان فوائده، وذكر الخلاف الواقع في معنى تعذيب الميت ببكاء أهله عليه عند قوله تعالى: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ﴾ من سورة (الأنعام)، وفي سورة فاطر عند قوله تعالى: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾[٥] والغرض من الحديث هنا قول ابن عباس رضي الله عنهما: «واللَّه ﴿هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَىٰ﴾».

قال الحافظ: «قوله: «**قال ابن عباس عند ذلك**» أي: عند انتهاء حديثه عن عائشة: «واللَّه ﴿هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَىٰ﴾» أي: أن العبرة لا يملكها ابن آدم، ولا تسبب له فيها، فكيف يعاقب عليها فضلًا عن الميت، وقال الداودي: معناه أن اللَّه تعالى أذن في الجميل من البكاء، فلا يعذب على ما أذن فيه»[٦].

قال الطيبي: «قوله: «**واللَّه أضحك وأبكى**» تقرير لنفي ما ذهب إليه ابن عمر من

---

(١) مفاتيح الغيب (٢٩/ ٢٠).
(٢) روح المعاني (٢٧/ ٦٨).
(٣) الأنعام: الآية (١٦٤).
(٤) أخرجه: البخاري (٣/ ١٩٥/ ٨٨٢١)، ومسلم (٢/ ٦٤٢/ ٩٢٩)، والنسائي (٤/ ٣١٧/ ١٨٥٦)، وابن ماجه (١/ ٥٠٨-٥٠٩/ ١٥٩٥).
(٥) فاطر: الآية (١٨).
(٦) فتح الباري (٣/ ٢٠٥).

أن الميت يعذب ببكاء الأهل، وذلك بكاء الإنسان وضحكه وحزنه وسروره من اللَّه يظهرها فيه فلا أثر له في ذلك»[١].

قال القاري: «فيه أن الكل من عند اللَّه خلقًا، ومن العبد كسبًا كما هو مقرر، والشرع قد اعتبر ما يترتب عليه من الأثر كسائر أفعال البشر. ألا ترى أن الضحك والتبسم في وجه المؤمن من الحسنات، وعلى المؤمن على وجه السخرية من السيئات، وكذلك الحزن والسرور تارة يكونان من الأحوال السنية يثاب الشخص بهما، وتارة من الأفعال الدنية يعاقب عليهما، كما هو مقرر في علم الأخلاق»[٢].

قال الحافظ: «**«ما قال ابن عمر شيئًا»** قال الطيبي وغيره: ظهرت لابن عمر الحجة فسكت مذعنًا. وقال الزين بن المنير: سكوته لا يدل على الإذعان، فلعله كره المجادلة في ذلك المقام، وقال القرطبي: ليس سكوته لشك طرأ له بعدما صرح برفع الحديث، ولكن احتمل عنده أن يكون الحديث قابلًا للتأويل ولم يتعين له محمل يحمله عليه إذ ذاك، أو كان المجلس لا يقبل المماراة ولم تتعين الحاجة إلى ذلك حينئذ»[٣].

* * *

---

(١) الكاشف (٤/ ١٤٢٥).

(٢) المرقاة (٤/ ٢٢٨).

(٣) فتح الباري (٣/ ٢٠٥).

قوله تعالى: ﴿وَأَنَّهُۥ هُوَ أَمَاتَ وَأَحْيَا ۝٤٤﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال القرطبي: «أي: قضى أسباب الموت والحياة. وقيل: خلق الموت والحياة، كما قال: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ﴾[1]، قاله ابن بحر. وقيل: أمات الكافر بالكفر وأحيا المؤمن بالإيمان، قال الله تعالى: ﴿أَوَ مَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ﴾[2] الآية، وقال: ﴿إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ ٱلَّذِينَ يَسْمَعُونَ وَٱلْمَوْتَىٰ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ﴾[3] على ما تقدم، وإليه يرجع قول عطاء: أمات بعدله وأحيا بفضله. وقول من قال: أمات بالمنع والبخل، وأحيا بالجود والبذل. وقيل: أمات النطفة، وأحيا النسمة. وقيل: أمات الآباء، وأحيا الأبناء. وقيل: يريد بالحياة الخصب، وبالموت الجدب. وقيل: أنام وأيقظ. وقيل: أمات في الدنيا وأحيى للبعث»[4].

قال السمعاني: «والأصح أنه أمات الخلق وأحياهم»[5].

* * *

(١) الملك: الآية (٢).

(٢) الأنعام: الآية (١٢٢).

(٣) الأنعام: الآية (٣٦).

(٤) الجامع لأحكام القرآن (١٧/ ١١٧).

(٥) تفسير القرآن (٥/ ٣٠١).

قوله تعالى: ﴿وَأَنَّهُۥ خَلَقَ ٱلزَّوۡجَيۡنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلۡأُنثَىٰ ۝٤٥ مِن نُّطۡفَةٍ إِذَا تُمۡنَىٰ ۝٤٦﴾

★ **غريب الآية:**

تُمنى: أي: تصبّ في الرحم وتراق؛ يقال: مَنَى الرجل وأمنى، من المنيّ؛ وسمّيت منىً بهذا الاسم لما يُمنى فيها من الدماء، أي: يراق. وقيل: تمنى: تقدر؛ يقال: منيت الشيء: إذا قدرته، ومُنِيَ له، أي: قُدِّر له.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال الشنقيطي: «ذكر -جل وعلا- في هذه الآية الكريمة أنه خلق الزوجين، أي: النوعين الذكر والأنثى، من نطفة، وهي نطفة المني ﴿إِذَا تُمۡنَىٰ﴾ أي: تصبّ وتراق في الرحم، على أصح القولين. ويدل عليه قوله تعالى: ﴿أَفَرَءَيۡتُم مَّا تُمۡنُونَ ۝٥٨ ءَأَنتُمۡ تَخۡلُقُونَهُۥٓ أَمۡ نَحۡنُ ٱلۡخَٰلِقُونَ ۝٥٩﴾[1]، وقوله تعالى: ﴿أَلَمۡ يَكُ نُطۡفَةً مِّن مَّنِيّٖ يُمۡنَىٰ ۝٣٧﴾[2]. والعرب تقول: أمنى الرجل ومنى: إذا أراق المني وصبّه.

وقال بعض العلماء: ﴿مِن نُّطۡفَةٍ إِذَا تُمۡنَىٰ ۝٤٦﴾ أي: تقدر بأن يكون اللَّه قدر أن ينشأ منها حمل، من قول العرب: منى الماني: إذا قدر. ومن هذا المعنى قول أبي قلابة الهذلي -وقيل: سويد بن عامر المصطلقي-:

لا تأمن الموت في حل وفي حرم ... واسلك سبيلك فيها غير محتشم

إن المنايا توافي كل إنسان ... حتى تلاقي ما يمني لك الماني

.. وما تضمنته هذه الآية الكريمة من الاستدلال بخلق النوعين، أعني: الذكر والأنثى، من النطفة جاء موضحًا في غير هذا الموضع، وأنه يستدل به على أمرين: هما قدرة اللَّه على البعث، وأنه ما خلق الإنسان إلا ليكلفه ويجازيه، وقد جمع الأمرين قوله تعالى: ﴿أَيَحۡسَبُ ٱلۡإِنسَٰنُ أَن يُتۡرَكَ سُدًى ۝٣٦ أَلَمۡ يَكُ نُطۡفَةً مِّن مَّنِيّٖ يُمۡنَىٰ ۝٣٧ ثُمَّ كَانَ

---

(١) الواقعة: الآيتان (٥٨و٥٩).

(٢) القيامة: الآية (٣٧).

عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ ﴿٣٨﴾ فَجَعَلَ مِنْهُ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰٓ ﴿٣٩﴾ أَلَيْسَ ذَٰلِكَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْـِۧيَ ٱلْمَوْتَىٰ ﴿٤٠﴾ ﴾[١]، فذكر دلالة ذلك على البعث في قوله: ﴿أَلَيْسَ ذَٰلِكَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْـِۧيَ ٱلْمَوْتَىٰ ﴿٤٠﴾ ﴾، وذكر أنه ما خلقه ليهمله من التكليف والجزاء، منكرًا على من ظن ذلك بقوله: ﴿أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَن يُتْرَكَ سُدًى ﴿٣٦﴾ ﴾ أي: مهملًا من التكليف والجزاء.

وقد قدمنا بعض الكلام على هذا في سورة (الفرقان) في الكلام على قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ مِنَ ٱلْمَآءِ بَشَرًا فَجَعَلَهُۥ نَسَبًا وَصِهْرًا ۗ وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا ﴿٥٤﴾ ﴾[٢]»[٣].

قال السعدي: «وهذا من أعظم الأدلة على كمال قدرته، وانفراده بالعزة العظيمة، حيث أوجد تلك الحيوانات، صغيرها وكبيرها من نطفة ضعيفة من ماء مهين، ثم نماها وكملها، حتى بلغت ما بلغت، ثم صار الآدمي منها إما إلى أرفع المقامات في أعلى عليين، وإما إلى أدنى الحالات في أسفل سافلين»[٤].

* * *

---

(١) القيامة: الآيات (٣٦-٤٠).

(٢) الفرقان: الآية (٥٤).

(٣) أضواء البيان (٧/ ٧١١-٧١٢).

(٤) تيسير الكريم الرحمن (٧/ ٢٢٠).

قوله تعالى: ﴿وَأَنَّ عَلَيْهِ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْأُخْرَىٰ ۝٤٧﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال الرازي: «ثم قال تعالى: ﴿وَأَنَّ عَلَيْهِ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْأُخْرَىٰ ۝٤٧﴾ وهي في قول أكثر المفسرين إشارة إلى الحشر، والذي ظهر لي بعد طول التفكر والسؤال من فضل اللَّه تعالى الهداية فيه إلى الحق، أنه يحتمل أن يكون المراد نفخ الروح الإنسانية فيه، وذلك لأن النفس الشريفة لا الأمارة تخالط الأجسام الكثيفة المظلمة، وبها كرم اللَّه بني آدم، وإليه الإشارة في قوله تعالى: ﴿فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَٰمَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ﴾[1] غير خلق النطفة علقة، والعلقة مضغة، والمضغة عظامًا، وبهذا الخلق الآخر تميز الإنسان عن أنواع الحيوانات، وشارك الملك في الإدراكات فكما قال هنالك: ﴿أَنشَأْنَٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ﴾ بعد خلق النطفة قال هاهنا: ﴿وَأَنَّ عَلَيْهِ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْأُخْرَىٰ ۝٤٧﴾، فجعل نفخ الروح نشأة أخرى كما جعله هنالك إنشاءً آخر، والذي أوجب القول بهذا هو أن قوله تعالى: ﴿وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلْمُنتَهَىٰ ۝٤٢﴾[2] عند الأكثرين لبيان الإعادة، وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ يُجْزَىٰهُ ٱلْجَزَآءَ ٱلْأَوْفَىٰ ۝٤١﴾[3]، كذلك؛ فيكون ذكر النشأة الأخرى إعادة، ولأنه تعالى قال بعد هذا: ﴿وَأَنَّهُۥ هُوَ أَغْنَىٰ وَأَقْنَىٰ ۝٤٨﴾[4]، وهذا من أحوال الدنيا، وعلى ما ذكرنا يكون الترتيب في غاية الحسن؛ فإنه تعالى يقول: خلق الذكر والأنثى، ونفخ فيهما الروح الإنسانية الشريفة، ثم أغناه بلبن الأم وبنفقة الأب في صغره، ثم أقناه بالكسب بعد كبره. فإن قيل: فقد وردت النشأة الأخرى للحشر في قوله تعالى: ﴿فَٱنظُرُواْ كَيْفَ بَدَأَ ٱلْخَلْقَ ۚ ثُمَّ ٱللَّهُ يُنشِئُ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْءَاخِرَةَ﴾[5]، نقول: الآخرة من الآخِر، لا من الآخَر؛ لأن الآخَر (أفعَل)، وقد تقدم على أن

---

(١) المؤمنون: الآية (١٤).

(٢) النجم: الآية (٤٢).

(٣) النجم: الآية (٤١).

(٤) النجم: الآية (٤٨).

(٥) العنكبوت: الآية (٢٠).

هناك لما ذكر البدء حمل على الإعادة وهاهنا ذكر خلقه من نطفة، كما في قوله: ﴿ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً﴾ ثم قال: ﴿أَنشَأْنَٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ﴾[1]»[2].

قال الزمخشري: «قال: ﴿عَلَيْهِ﴾ لأنها واجبة عليه في الحكمة ليجازي على الإحسان والإساءة»[3].

قال ابن المنير تعليقا على قول الزمخشري: «هذا من فساد اعتقاد المعتزلة الذي يسمونه مراعاة الصلاح والحكمة، وأيّ فساد أعظم مما يؤدي إلى اعتقاد الإيجاب على رب الأرباب تعالى اللّٰه عن ذلك. ومثل هذه القاعدة التي عفت البراهين القاطعة رسمها، وأبطلت حكمها، لا يكفي فيها كلمة محتملة هي لو كانت ظاهرة لوجب تنزيلها على ما يوفق بينها وبين القواطع، والذي حملت عليه لفظة (عليه) غير هذا المعنى، وهو أن المراد أن أمر النشأة الأخرى يدور على قدرته عز وجل وإرادته، كما يقال: دارت قضية فلان على يدي، وقول المحدثين: على يدي دار الحديث، أي: الأصل فيه والسند، واللّٰه أعلم»[4].

* * *

---

(١) المؤمنون: الآية (١٤).

(٢) مفاتيح الغيب (٢٩/ ٢٢).

(٣) الكشاف (٤/ ٣٤).

(٤) الإنصاف (حاشية الكشاف ٤/ ٣٤).

قوله تعالى: ﴿وَأَنَّهُۥ هُوَ أَغْنَىٰ وَأَقْنَىٰ ﴿٤٨﴾﴾

★ **غريب الآية:**

أَقْنَى: أي: أعطاه من المال ما فيه كفايته ورضاه.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن كثير: «أي: مَلَّك عباده المال، وجعله لهم قُنْية مقيمًا عندهم، لا يحتاجون إلى بيعه، فهذا تمام النعمة عليهم. وعلى هذا يدور كلام كثير من المفسرين، منهم أبو صالح، وابن جرير، وغيرهما. وعن مجاهد: ﴿أَغْنَىٰ﴾: مَوَّل، ﴿وَأَقْنَىٰ﴾: أخدم. وكذا قال قتادة.

وقال ابن عباس ومجاهد أيضًا: ﴿أَغْنَىٰ﴾: أعطى، ﴿وَأَقْنَىٰ﴾: رَضّى. وقيل: معناه: أغنى نفسه وأفقر الخلائق إليه، قاله الحضرمي بن لاحق. وقيل: ﴿أَغْنَىٰ﴾ من شاء من خلقه و﴿وَأَقْنَىٰ﴾: أفقر من شاء منهم، قاله ابن زيد. حكاهما ابن جرير، وهما بعيدان من حيث اللفظ»[١].

* * *

(١) تفسير القرآن العظيم (٧/ ٤٤٢).

قوله تعالى: ﴿وَأَنَّهُۥ هُوَ رَبُّ ٱلشِّعۡرَىٰ ۝٤٩﴾

★ **غريب الآية:**

الشعرى: كوكب معروف كانت تعبده العرب في الجاهلية.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: يقول -تعالى ذكره-: وأن ربك -يا محمد- هو رب الشِّعرى، يعني بالشِّعرى: النجم الذي يسمى هذا الاسم، وهو نجم كان بعض أهل الجاهلية يعبده من دون الله»[١].

قال القرطبي: «وإنما ذكر أنه رب الشِّعرى وإن كان ربًّا لغيره؛ لأن العرب كانت تعبده، فأعلمهم اللَّه جل وعز أن الشِّعرى مربوب وليس بربّ. واختلف فيمن كان يعبده، فقال السدي: كانت تعبده حمير وخزاعة. وقال غيره: أول من عبده أبو كبشة أحد أجداد النبي ﷺ من قبل أمهاته، ولذلك كان مشركو قريش يسمون النبي ﷺ ابن أبي كبشة حين دعا إلى اللَّه وخالف أديانهم، وقالوا: ما لقينا من ابن أبي كبشة! وقال أبو سفيان يوم الفتح وقد وقف في بعض المضايق وعساكر رسول اللَّه ﷺ تمرّ عليه: (لقد أَمِرَ أمرُ ابن أبي كبشة)[٢]. وقد كان من لا يعبد الشِّعرى من العرب يعظّمها ويعتقد تأثيرها في العالم، قال الشاعر:

مضى أيلولُ وارتفع الحَرورُ ... وأَخْبَتْ نارَها الشِّعرى العَبورُ»[٣].

---

(١) جامع البيان (٢٧/ ٧٦).

(٢) هذا جزء من حديث هرقل الطويل أخرجه: أحمد (١/ ٢٦٢)، والبخاري (٨/ ٢٧٠-٢٧٢/ ٤٥٥٣)، ومسلم (٣/ ١٣٩٣/ ١٧٧٣)، وأبو داود (٥/ ٣٤٨/ ٥١٣٦)، والترمذي (٥/ ٦٥/ ٢٧١٧)، والنسائي في الكبرى (٦/ ٣٠٩/ ١١٠٦٤).

تنبيه: وهذا الكلام إنما قاله أبو سفيان لأصحابه لما خرجوا من عند هرقل عظيم الروم، وليس كما قال القرطبي أنه قاله عنه عند مرور العساكر عليه يوم الفتح.

(٣) الجامع لأحكام القرآن (١٧/ ١١٩).

قوله تعالى: ﴿وَأَنَّهُۥٓ أَهۡلَكَ عَادًا ٱلۡأُولَىٰ ۝٥٠﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن كثير: «﴿وَأَنَّهُۥٓ أَهۡلَكَ عَادًا ٱلۡأُولَىٰ ۝٥٠﴾ وهم قوم هود. ويقال لهم: عاد بن إرم بن سام بن نوح، كما قال تعالى: ﴿أَلَمۡ تَرَ كَيۡفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ۝٦ إِرَمَ ذَاتِ ٱلۡعِمَادِ ۝٧ ٱلَّتِي لَمۡ يُخۡلَقۡ مِثۡلُهَا فِي ٱلۡبِلَٰدِ ۝٨﴾[1]، فكانوا من أشد الناس وأقواهم وأعتاهم على الله وعلى رسوله، فأهلكهم الله ﴿بِرِيحٖ صَرۡصَرٍ عَاتِيَةٖ ۝٦ سَخَّرَهَا عَلَيۡهِمۡ سَبۡعَ لَيَالٖ وَثَمَٰنِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومٗا﴾[2]»[3].

قال ابن عطية: «واختلف في معنى وصفها بـ﴿ٱلۡأُولَىٰ﴾، فقال ابن زيد والجمهور: ذلك لأنها في وجه الدهر وقديمه، فهي أولى بالإضافة إلى الأمم المتأخرة، وقال الطبري: سميت (أولى)؛ لأن ثم عادًا أخيرة، وهي قبيلة كانت بمكة مع العماليق، وهم بنو لقيم بن هزال.

قال القاضي أبو محمد: والقول الأول أبين؛ لأن هذا الأخير لم يصح. وقال المبرد: عادًا الأخيرة هي ثمود؛ والدليل قول زهير:

كأحمر عاد ثم ترضع فتفطم»[4].

* * *

(١) الفجر: الآيات (٦-٨).

(٢) الحاقة: الآيتان (٦و٧).

(٣) تفسير القرآن العظيم (٧/ ٤٦٧).

(٤) المحرر الوجيز (٥/ ٢٠٨).

قوله تعالى: ﴿وَثَمُودَاْ فَمَآ أَبْقَىٰ ۝٥١﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره-: ولم يبق اللَّه ثمود فيتركها على طغيانها وتمردها على ربها مقيمة، ولكنه عاقبها بكفرها وعتوها فأهلكها»[1].

قال الرازي: «وقوله: ﴿فَمَآ أَبْقَىٰ﴾ عائد إلى عاد وثمود أي: فما أبقى عليهم، ومن المفسرين من قال: فما أبقاهم، أي: فما أبقى منهم أحدًا، ويؤيد هذا قوله تعالى: ﴿فَهَلْ تَرَىٰ لَهُم مِّنۢ بَاقِيَةٍ ۝٨﴾[2] وتمسك الحجاج على من قال: إن ثقيفًا من ثمود، بقوله تعالى: ﴿فَمَآ أَبْقَىٰ﴾»[3].

* * *

(١) جامع البيان (٢٧/ ٧٨).

(٢) الحاقة: الآية (٨).

(٣) مفاتيح الغيب (٢٩/ ٢٤).

قوله تعالى: ﴿وَقَوْمَ نُوحٍ مِّن قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا هُمْ أَظْلَمَ وَأَطْغَىٰ ۝٥٢﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره-: وأنه أهلك قوم نوح من قبل عاد وثمود، إنهم كانوا هم أشد ظلمًا لأنفسهم، وأعظم كفرًا بربهم، وأشد طغيانًا وتمرّدًا على اللَّه من الذين أهلكهم من بعد من الأمم، وكان طغيانهم الذي وصفهم اللَّه به، وأنهم كانوا بذلك أكثر طغيانًا من غيرهم من الأمم»[1].

قال الشنقيطي: «قوله: ﴿وَقَوْمَ نُوحٍ﴾ معطوف على قوله: ﴿وَأَنَّهُۥٓ أَهْلَكَ عَادًا ٱلْأُولَىٰ ۝٥٠﴾[2] أي: وأهلك قوم نوح، ولم يبين هنا كيفية إهلاكهم، ولكنه بين ذلك في مواضع أخر من كتابه كقوله تعالى: ﴿وَقَوْمَ نُوحٍ لَّمَّا كَذَّبُوا۟ ٱلرُّسُلَ أَغْرَقْنَٰهُمْ﴾[3] الآية، وقوله تعالى: ﴿فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا فَأَخَذَهُمُ ٱلطُّوفَانُ وَهُمْ ظَٰلِمُونَ﴾[4]، وقوله تعالى: ﴿وَنَصَرْنَٰهُ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمَ سَوْءٍ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ أَجْمَعِينَ ۝٧٧﴾[5]، وقوله تعالى: ﴿مِّمَّا خَطِيٓـَٰٔتِهِمْ أُغْرِقُوا۟ فَأُدْخِلُوا۟ نَارًا﴾[6]، وقوله تعالى: ﴿وَلَا تُخَٰطِبْنِى فِى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ ۚ إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ﴾[7]، والآيات بمثل ذلك كثيرة معلومة.

وما تضمنته هذه الآية الكريمة من كون قوم نوح أظلم وأطغى، أي: أشد ظلمًا وطغيانًا من غيرهم، قد بيّنه تعالى في آيات أخر كقوله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّى دَعَوْتُ قَوْمِى لَيْلًا وَنَهَارًا ۝٥ فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَآءِىٓ إِلَّا فِرَارًا ۝٦ وَإِنِّى كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوٓا۟ أَصَٰبِعَهُمْ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَٱسْتَغْشَوْا۟ ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّوا۟ وَٱسْتَكْبَرُوا۟ ٱسْتِكْبَارًا ۝٧﴾[8]، وقوله تعالى: ﴿قَالَ نُوحٌ رَّبِّ

---

(١) جامع البيان (٢٧/ ٧٨).
(٢) النجم: الآية (٥٠).
(٣) الفرقان: الآية (٣٧).
(٤) العنكبوت: الآية (١٤).
(٥) الأنبياء: الآية (٧٧).
(٦) نوح: الآية (٢٥).
(٧) هود: الآية (٣٧)، المؤمنون: الآية (٢٧).
(٨) نوح: الآيات (٥-٧).

إِنَّهُمْ عَصَوْنِي وَاتَّبَعُوا مَن لَّمْ يَزِدْهُ مَالُهُ وَوَلَدُهُ إِلَّا خَسَارًا ﴿٢١﴾ وَمَكَرُوا مَكْرًا كُبَّارًا ﴿٢٢﴾﴾ إلى قوله: ﴿وَقَدْ أَضَلُّوا كَثِيرًا﴾[(١)]، وقوله تعالى: ﴿إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا ﴿٢٧﴾﴾[(٢)]، وقوله: ﴿وَيَصْنَعُ الْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِّن قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ﴾[(٣)]. ومن أعظم الأدلة على ذلك قوله تعالى: ﴿فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا﴾[(٤)]؛ لأن قومًا لم يتأثروا بدعوة نبي كريم ناصح في هذا الزمن الطويل، لا شك أنهم أظلم الناس وأطغاهم»[(٥)].

قال الرازي: «وقوله تعالى: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا هُمْ أَظْلَمَ وَأَطْغَىٰ﴾ أما الظلم فلأنهم هم البادئون به المتقدمون فيه «**ومن سن سنة سيئة فعليه وزرها ووزر من عمل بها**» والبادئ أظلم، وأما (أطغى) فلأنهم سمعوا المواعظ وطال عليهم الأمد ولم يرتدعوا حتى دعا عليهم نبيهم، ولا يدعو نبي على قومه إلا بعد الإصرار العظيم، والظالم واضع الشيء في غير موضعه، والطاغي المجاوز الحد. فالطاغي أدخل في الظلم فهو كالمغاير والمخالف؛ فإن المخالف مغاير مع وصف آخر زائد، وكذا المغاير والمضاد، وكل ضد غير، وليس كل غير ضدًّا، وعليه سؤال وهو أن قوله: ﴿وَقَوْمَ نُوحٍ﴾ المقصود منه تخويف الظالم بالهلاك، فإذا قال: هم كانوا في غاية الظلم والطغيان فأهلكوا يقول الظالم هم كانوا أظلم فأهلكوا لمبالغتهم في الظلم، ونحن ما بالغنا فلا نهلك، وأما لو قال: أهلكوا لأنهم ظلمة، لخاف كل ظالم، فما الفائدة في قوله: ﴿أَظْلَمَ﴾؟ نقول: المقصود بيان شدتهم وقوة أجسامهم؛ فإنهم لم يقدموا على الظلم والطغيان الشديد إلا بتماديهم وطول أعمارهم، ومع ذلك ما نجا أحد منهم، فما حال من هو دونهم من العمر والقوة، فهو كقوله تعالى: ﴿أَشَدَّ مِنْهُم بَطْشًا﴾[(٦)]»[(٧)].

* * *

(١) نوح: الآيات (٢١-٢٤).
(٢) نوح: الآية (٢٧).
(٣) هود: الآية (٣٨).
(٤) العنكبوت: الآية (١٤).
(٥) أضواء البيان (٧/ ٧١٣).
(٦) الزخرف: الآية (٨).
(٧) مفاتيح الغيب (٢٩/ ٢٤-٢٥).

قوله تعالى : ﴿وَٱلْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوَىٰ ۝٥٣﴾

★ **غريب الآية:**

المؤتفكة: يعني مدائن قوم لوط عليه السلام، ائتفكت بهم، أي: انقلبت وصار عاليها سافلها؛ يقال: أفكته، أي: قلبته وصرفته.

أهوى: خسف بهم بعد رفعها إلى السماء.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال الشنقيطي: «المؤتفكة.. المراد بها قرى قوم لوط؛ بدليل قوله في غير هذا الموضع: ﴿وَٱلْمُؤْتَفِكَٰتِ﴾[1] بالجمع. فهو من إطلاق المفرد وإرادة الجمع كما أوضحناه مرارًا، وأكثرنا من أمثلته في القرآن وفي كلام العرب وأحلنا عليه مرارًا، وإنما قيل لها: مؤتفكة؛ لأن جبريل أفكها فائتفكت، ومعنى (أفكها): أنه رفعها نحو السماء ثم قلبها جاعلًا أعلاها أسفلها، وجعل عاليها أسفلها هو ائتفاكها وأفكها.

وقد أوضح تعالى هذا المعنى في سورة (هود) في قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً﴾[2] الآية، وقوله تعالى في سورة (الحجر): ﴿فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ مُشْرِقِينَ ۝٧٣ فَجَعَلْنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ ۝٧٤﴾[3].

وقد بينا قصة قوم لوط في (هود) و(الحجر)، وقوله في هذه الآية الكريمة: ﴿أَهْوَىٰ﴾ تقول العرب: هوى الشيءُ: إذا انحدر من عال إلى أسفل. وأهواه غيره: إذا ألقاه من العلو إلى السفل؛ لأن الملك رفع قراهم ثم أهواها، أي: ألقاها تهوي

---

(١) التوبة: الآية (٧٠)، الحاقة: الآية (٩).

(٢) هود: الآية (٨٢).

(٣) الحجر: الآيتان (٧٣و٧٤).

إلى الأرض، منقلبة أعلاها أسفلها»[1].

قال الرازي: «ما الحكمة في اختصاص المؤتفكة باسم الموضع في الذكر، وقال في عاد وثمود، وقوم نوح اسم القوم؟

نقول: الجواب عنه من وجهين: أحدهما: أن ثمود اسم الموضع فذكر عادًا باسم القوم، وثمود باسم الموضع، وقوم نوح باسم القوم، والمؤتفكة باسم الموضع؛ ليعلم أن القوم لا يمكنهم صون أماكنهم عن عذاب اللَّه تعالى، ولا الموضع يحصن القوم عنه، فإن في العادة تارة يقوي الساكن فيذب عن مسكنه، وأخرى يقوي المسكن فيرد عن ساكنه، وعذاب اللَّه لا يمنعه مانع، وهذا المعنى حصل للمؤمنين في آيتين: أحدهما قوله تعالى: ﴿وَكَفَّ أَيْدِيَ ٱلنَّاسِ عَنكُمْ﴾[2]، وقوله تعالى: ﴿وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمْ حُصُونُهُم مِّنَ ٱللَّهِ﴾[3]، ففي الأول لم يقدر الساكن على حفظ مسكنه، وفي الثاني لم يقو الحصن على حفظ الساكن.

والوجه الثاني: هو أن عادًا وثمود وقوم نوح كان أمرهم متقدمًا، وأماكنهم كانت قد دثرت، ولكن أمرهم كان مشهورًا متواترًا، وقوم لوط كانت مساكنهم وآثار الانقلاب فيها ظاهرة، فذكر الأظهر من الأمرين في كل قوم»[4].

* * *

---

(١) أضواء البيان (٧/ ٧١٤).

(٢) الفتح: الآية (٢٠).

(٣) الحشر: الآية (٢).

(٤) مفاتيح الغيب (٢٩/ ٢٥).

قوله تعالى: ﴿فَغَشَّىٰهَا مَا غَشَّىٰ ۝٥٤﴾

★ **غريب الآية:**

فغشاها ما غشّى: أي: ألبسها من الحجارة ما ألبسها.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال الشوكاني: «أي: ألبسها ما ألبسها من الحجارة التي وقعت عليها، كما في قوله: ﴿فَجَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ ۝٧٤﴾[1]، وفي هذه العبارة تهويل للأمر الذي غشاها به، وتعظيم له»[2].

* * *

(١) الحجر: الآية (٧٤).

(٢) فتح القدير (٥/ ١٦٧).

قوله تعالى: ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكَ تَتَمَارَىٰ ۝٥٥﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال الشوكاني: «هذا خطاب للإنسان المكذب، أي: فبأي نعم ربك أيها الإنسان المكذب تشكك وتمتري، وقيل: الخطاب لرسول الله ﷺ تعريضًا لغيره، وقيل: لكل من يصلح له»[١].

قال الرازي: «والعموم هو الصحيح، كأنه يقول: بأي آلاء ربك تتمارى أيها الإنسان، كما قال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡإِنسَٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلۡكَرِيمِ ۝٦﴾[٢]، وقال تعالى: ﴿وَكَانَ ٱلۡإِنسَٰنُ أَكۡثَرَ شَيۡءٖ جَدَلٗا﴾[٣]»[٤].

قال الشوكاني: «وإسناد فعل التماري إلى الواحد باعتبار تعدّده بحسب تعدد متعلقه، وسمى هذه الأمور المذكورة آلاءً، أي: نعمًا، مع كون بعضها نقمًا لا نعمًا؛ لأنها مشتملة على العبر والمواعظ، ولكون فيها انتقام من العصاة، وفي ذلك نصرة للأنبياء والصالحين»[٥].

* * *

---

(١) فتح القدير (٥/ ١٦٧).
(٢) الانفطار: الآية (٦).
(٣) الكهف: الآية (٥٤).
(٤) مفاتيح الغيب (٢٩/ ٢٦).
(٥) فتح القدير (٥/ ١٦٧).

قوله تعالى: ﴿هَٰذَا نَذِيرٌ مِّنَ ٱلنُّذُرِ ٱلْأُولَىٰٓ ۝٥٦﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن كثير: «﴿هَٰذَا نَذِيرٌ﴾ يعني: محمدا ﴿مِّنَ ٱلنُّذُرِ ٱلْأُولَىٰٓ﴾ أي: من جنسهم، أرسل كما أرسلوا، كما قال تعالى: ﴿قُلْ مَا كُنتُ بِدْعًا مِّنَ ٱلرُّسُلِ﴾[1]»[2].

قال السعدي: «أي: هذا الرسول القرشي الهاشمي محمد بن عبدالله، ليس ببدع من الرسل، بل قد تقدمه من الرسل السابقين، ودعوا إلى ما دعا إليه، فلأي شيء تنكر رسالته؟ وبأي حجة تبطل دعوته؟

أليست أخلاقه أعلى أخلاق الرسل الكرام؟ أليست دعوته إلى كل خير والنهي عن كل شر؟ ألم يأت بالقرآن الكريم الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، تنزيل من حكيم حميد؟ ألم يهلك الله من كذب من قبله من الرسل الكرام؟ فما الذي يمنع العذاب عن المكذبين لمحمد سيد المرسلين، وإمام المتقين، وقائد الغرّ المحجّلين؟»[3].

* * *

(١) الأحقاف: الآية (٩).
(٢) تفسير القرآن العظيم (٧/ ٤٤٣).
(٣) تيسير الكريم الرحمن (٧/ ٢٢٢).

قوله تعالى : ﴿أَزِفَتِ ٱلْآزِفَةُ ۝٥٧﴾

★ **غريب الآية:**

أزفت: قربت ودنت. قال كعب بن زهير:

بان الشباب وأمسى الشيب قد أزفا ... ولا أرى لشبابٍ بائنٍ خلفا

الآزفة: القيامة؛ سميت بذلك لقربها ودنوها.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال القرطبي: «أي: قربت الساعة ودنت القيامة. وسماها آزفة لقرب قيامها عنده، كما قال: ﴿إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُۥ بَعِيدًا ۝٦ وَنَرَىٰهُ قَرِيبًا ۝٧﴾[1]. وقيل: سماها آزفة لدنوّها من الناس، وقربها منهم ليستعدّوا لها؛ لأن كل ما هو آتٍ قريب. قال:

أَزِفَ الترحّل غيرَ أنّ رِكابَنا ... لمّا تَزَلْ برحالنا وكأنْ قَدِ»[2].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في قرب الساعة ودنو القيامة

* قال أبو حازم: قال رسول الله ﷺ: «قال أبو ضمرة: لا أعلمه إلا عن سهل ابن سعد قال: «**مثلي ومثل الساعة كهاتين -وفرق بين أصبعيه الوسطى والتي تلي الإبهام- ثم قال**: «**مثلي ومثل الساعة كمثل فرسي رهان**». . ثم قال: «**مثلي ومثل الساعة كمثل رجل بعثه قومه طليعة، فلما خشي أن يسبق ألاح بثوبه: أُتيتم**»، ثم يقول رسول الله ﷺ: «**أنا ذلك**»[3].

★ **فوائد الحديث:**

أورد الحافظ ابن كثير هذا الحديث في تفسيره بهذا السياق والتمام تحت قوله

---

(١) المعارج: الآيتان (٦و٧).
(٢) الجامع لأحكام القرآن (١٧/ ١٢٢).
(٣) أخرجه: أحمد (٥/ ٣٣١) بهذا السياق، وصحّحه الشيخ الألباني رحمه الله في السلسلة الصحيحة (٧/ ٦٧١/ ٣٢٢٠).

تعالى: ﴿هَٰذَا نَذِيرٌ مِّنَ ٱلنُّذُرِ ٱلْأُولَىٰٓ ۝٥٦ أَزِفَتِ ٱلْـَٔازِفَةُ ۝٥٧﴾ مبيّنًا وجه مناسبته للآيتين بقوله: «إن النذير هو الحذر لما يعاين من الشر الذي يخشى وقوعه فيمن أنذرهم، كما قال: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَّكُم بَيْنَ يَدَىْ عَذَابٍ شَدِيدٍ﴾[1]. وفي الحديث: «**أنا النذير العُريان**»[2] أي: الذي أعجله شدة ما عاين من الشر عن أن يلبس عليه شيئًا، بل بادر إلى إنذار قومه قبل ذلك، فجاءهم عُريانًا مسرعًا، مناسب لقوله: ﴿أَزِفَتِ ٱلْـَٔازِفَةُ ۝٥٧﴾ أي: اقتربت القريبة، يعني يوم القيامة، كما قال في أول السورة التي بعدها: ﴿ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ﴾[3]»[4].

* * *

(١) سبأ: الآية (٤٦).

(٢) أخرجه: البخاري (١٣/ ٣١١/ ٧٢٨٣)، ومسلم (٤/ ١٧٨٨-١٧٨٩/ ٢٢٨٣) من حديث أبي موسى الأشعري ﷺ.

(٣) القمر: الآية (١).

(٤) تفسير القرآن العظيم (٧/ ٤٦٩).

قوله تعالى: ﴿لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ ٱللَّهِ كَاشِفَةٌ ۝٥٨﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال الرازي: «قوله تعالى: ﴿لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ ٱللَّهِ كَاشِفَةٌ ۝٥٨﴾ فيه وجوه: أحدها: لا مظهر لها إلا اللَّه، فمن يعلمها لا يعلم إلا بإعلام اللَّه تعالى إياه وإظهاره إياها له، فهو كقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ﴾[1]، وقوله تعالى: ﴿لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَآ إِلَّا هُوَ﴾[2].

ثانيها: لا يأتي بها إلا اللَّه، كقوله تعالى: ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ﴾[3]»[4].

قال البغوي: «الهاء فيه للمبالغة، أو على تقدير: نفس كاشفة. ويجوز أن تكون الكاشفة مصدرًا كالخافية والعافية، والمعنى: ليس لها من دون اللَّه كاشف، أي: لا يكشف عنها ولا يظهرها غيره.

وقيل: معناه: ليس لها رادّ، يعني: إذا غشيت الخلق أهوالها وشدائدها لم يكشفها ولم يردّها عنهم أحد، وهذا قول عطاء وقتادة والضحاك»[5].

* * *

(١) لقمان: الآية (٣٤).

(٢) الأعراف: الآية (١٨٧).

(٣) الأنعام: الآية (١٧)، يونس: الآية (١٠٧).

(٤) مفاتيح الغيب (٢٩/ ٢٧).

(٥) معالم التنزيل (٧/ ٤٢٠).

قوله تعالى: ﴿أَفَمِنْ هَٰذَا ٱلْحَدِيثِ تَعْجَبُونَ ۝٥٩ وَتَضْحَكُونَ وَلَا تَبْكُونَ ۝٦٠ وَأَنتُمْ سَٰمِدُونَ ۝٦١ فَٱسْجُدُوا۟ لِلَّهِ وَٱعْبُدُوا۟ ۩ ۝٦٢﴾

★ **غريب الآية:**

سامدون: لاهون لاعبون. والسمود: اللهو. قال الشاعر:

رمى الحدثان نسوة آل حرب فرد شعورهن السود بيضا

بمقدار سَمَدْنَ له سمودا ورَدَّ وجوههن البيض سودا

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال السعدي: «توعد المنكرين لرسالة الرسول محمد ﷺ، المكذبين لما جاء به من القرآن الكريم، فقال: ﴿أَفَمِنْ هَٰذَا ٱلْحَدِيثِ تَعْجَبُونَ ۝٥٩﴾؟ أي: أفمن هذا الحديث الذي هو خير الكلام وأفضله وأشرفه تتعجبون منه، وتجعلونه من الأمور المخالفة للعادة الخارقة للأمور والحقائق المعروفة؟ هذا من جهلهم وضلالهم وعنادهم، وإلا فهو الحديث الذي إذا حدث صدق، وإذا قال قولًا فهو القول الفصل الذي ليس بالهزل، وهو القرآن العظيم، الذي لو أنزل على جبل لرأيته خاشعًا متصدعًا من خشية اللَّه، الذي يزيد ذوي الأحلام رأيًا وعقلًا، وتسديدًا وثباتًا، وإيمانًا ويقينًا، والذي ينبغي العجب من عقل من تعجب منه، وسفهه وضلاله.

﴿وَتَضْحَكُونَ وَلَا تَبْكُونَ ۝٦٠﴾ أي: تستعملون الضحك والاستهزاء به، مع أن الذي ينبغي: أن تتأثر منه النفوس، وتلين له القلوب، وتبكي له العيون، سماعًا لأمره ونهيه، وإصغاءً لوعده ووعيده، والتفاتًا لأخباره الحسنة الصادقة.

﴿وَأَنتُمْ سَٰمِدُونَ ۝٦١﴾ أي: غافلون عنه، لاهون عن تدبره، وهذا من قلة عقولكم وأديانكم، فلو عبدتم اللَّه وطلبتم رضاه في جميع الأحوال لما كنتم بهذه المثابة التي يأنف منها أولو الألباب، ولهذا قال تعالى: ﴿فَٱسْجُدُوا۟ لِلَّهِ وَٱعْبُدُوا۟ ۩ ۝٦٢﴾ الأمر بالسجود لله خصوصًا، ليدل على فضله وأنه سر العبادة ولبها، فإن لبها

الخشوع لله والخضوع له، والسجود هو أعظم حالة يخضع بها العبد، فإنه يخضع قلبه وبدنه، ويجعل أشرف أعضائه على الأرض المهينة موضع وطء الأقدام.

ثم أمر بالعبادة عمومًا، الشاملة لجميع ما يحبه اللَّه ويرضاه من الأعمال والأقوال الظاهرة والباطنة»(١).

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة الدالة على أن سجود القرآن ليس منه شيء واجبًا وأن القارئ بالخيار إن شاء سجد وإن شاء لم يسجد

* عن عبد اللَّه رضي الله عنه قال: «قرأ النبي ﷺ (النجم) بمكة فسجد فيها وسجد من معه، غير شيخ أخذ كفًّا من حصى أو تراب فرفعه إلى جبهته وقال: يكفيني هذا. فرأيته بعد ذلك قتل كافرًا»(٢).

* عن ابن عباس: «أن رسول اللَّه ﷺ سجد في (النجم) وسجد معه المسلمون والمشركون والجن والإنس»(٣).

* عن زيد بن ثابت قال: «قرأت على النبي ﷺ: ﴿وَٱلنَّجۡمِ﴾، فلم يسجد فيها»(٤).

★ فوائد الأحاديث:

قال ابن بطال: «اختلف العلماء في سجود (النجم) لاختلافهم في سجود (المفصل)، فروي عن عمر وعثمان وعلي وابن مسعود وابن عمر وأبي هريرة أنهم كانوا يسجدون في (النجم) و(المفصل)، وهو قول الثوري وأبي حنيفة والليث والشافعي وأحمد وإسحاق وابن وهب وابن حبيب من أصحاب مالك، واحتجوا بهذا الحديث. وقالت طائفة: لا سجود في (النجم) ولا في (المفصل) روي ذلك

(١) تيسير الكريم الرحمن (٧/ ٢٢٣-٢٢٤).

(٢) أخرجه: أحمد (١/ ٤٠١و٤٣٧و٤٤٣و٤٦٢)، والبخاري (٢/ ٧٠١/ ١٠٦٧)، ومسلم (١/ ٤٠٥/ ٥٧٦)، وأبو داود (٢/ ١٢٢/ ١٤٠٦)، والنسائي (٢/ ٤٩٨-٤٩٩/ ٩٥٨).

(٣) أخرجه: البخاري (٢/ ٧٠٤/ ١٠٧١)، والترمذي (٢/ ٤٦٤/ ٥٧٥) وقال: «حديث حسن صحيح».

(٤) أخرجه: أحمد (٥/ ١٨٦)، والبخاري (٢/ ٧٠٦/ ١٠٧٣)، ومسلم (١/ ٤٠٦/ ٥٧٧)، وأبو داود (٢/ ١٢١/ ١٤٠٤)، والترمذي (٢/ ٤٦٦/ ٥٧٦)، والنسائي (٢/ ٤٩٩/ ٩٥٩).

عن عمر بن الخطاب وأبي بن كعب وابن عباس وأنس وعن سعيد بن المسيب والحسن وعطاء وطاوس ومجاهد وقال يحيى بن سعيد: أدركت القراء لا يسجدون في شيء من (المفصل). وهو قول مالك واحتج من لم ير السجود في (النجم) بما ذكره البخاري عن زيد بن ثابت أنه قرأ على الرسول ﴿وَٱلنَّجۡمِ﴾ فلم يسجد فيها، وبما رواه قتادة عن عكرمة قال: سجد رسول اللَّه بمكة في (المفصل) فلما هاجر ترك.

واحتج الطبري لأهل المقالة الأولى فقال: يمكن أن يكون ﷺ لم يسجد فيها؛ لأن زيدًا لم يسجد فيها وإنما القارئ هو الذي يسجد فيسجد السامع، ويمكن أن يكون ترك السجود فيها ليدل أن سجود القرآن ليس منه شيء واجبًا. قال الطحاوي: ويمكن أن يكون قرأها في وقت لا يحل فيه السجود أو لأنه كان على غير وضوء.

واحتج ابن القصار لمذهب مالك فقال: إذا اعتبرنا سجود (النجم) و(المفصل) وجدناه يخرج من طريق سائر السجدات؛ لأن قوله في (النجم): ﴿فَٱسۡجُدُواْ لِلَّهِ وَٱعۡبُدُواْ ۩ ﴿٦٢﴾﴾[1] إنما هو أمر بالسجود، فوجب أن يتوجه إلى سجود الصلوات، فقوله: (اسجد) أي: صلّ فلم يلزم ما ذكروه.

قال الطحاوي أيضًا: والنظر على هذا أن يكون كل موضع اختلف فيه هل هو سجود أم لا، أن ينظر فيه، فإن كان موضع أمر فإنما هو تعليم فلا سجود فيه، وكل موضع فيه خبر عن السجود فهو موضع سجود التلاوة.

قال المهلب: يمكن أن يكون اختيار من اختار من العلماء ترك السجود في ﴿وَٱلنَّجۡمِ﴾ والمفصل خشية أن يخلط على الناس صلاتهم؛ لأن المفصل هو أكثر ما يقرأ في الصلوات، وقد أشار مالك إلى هذا»[2].

قال الشافعي بعد ذكره حديث سجوده ﷺ في (النجم) وحديث تركه للسجود لما قرأ عليه زيد قال: «وفي هذين الحديثين دليل على أن سجود القرآن ليس بحتم، ولكنا نحب أن لا يترك؛ لأن النبي ﷺ سجد في (النجم) وترك..

وفي (النجم) سجدة ولا أحب أن يدع شيئًا من سجود القرآن، وإن تركه كرهته له، وليس عليه قضاؤه؛ لأنه ليس بفرض، فإن قال قائل: ما الدليل على أنه ليس

---

(١) النجم: الآية (٦٢).

(٢) شرح ابن بطال (٣/ ٥٣-٥٤).

بفرض؟ قيل: السجود صلاة، وقد قال اللَّه تعالى: ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ كَانَتْ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ كِتَٰبًا مَّوْقُوتًا﴾[١]، فكان الموقوت يحتمل موقوتًا بالعدد وموقوتًا بالوقت، فأبان رسول اللَّه أن اللَّه جل ثناؤه فرض خمس صلوات، فقال رجل: يا رسول الله! هل علي غيرها؟ قال: «لا، إلا أن تطوع»[٢]، فلما كان سجود القرآن خارجًا من الصلوات المكتوبات كان سنة اختيار، وأحب إلينا أن لا يدعه، ومن تركه ترك فضلًا لا فرضًا، وإنما سجد رسول اللَّه ﷺ في (النجم) لأن فيها سجودًا في حديث أبي هريرة وفي سجود النبي ﷺ في (النجم) دليل على ما وصفت..

وأما حديث زيد «أنه قرأ عند النبي ﷺ (النجم) فلم يسجد» فهو واللَّه أعلم أن زيدًا لم يسجد وهو القارئ، فلم يسجد النبي ﷺ، ولم يكن عليه فرضًا فيأمره النبي به..

فإن قال قائل: فلعل أحد هذين الحديثين نسخ الآخر، قيل: فلا يدعي أحد أن السجود في (النجم) منسوخ إلا جاز لغيره أن يدعي أن ترك السجود منسوخ والسجود ناسخ، ثم يكون أولى؛ لأن السنة السجود؛ لقول الله: ﴿فَٱسْجُدُوا۟ لِلَّهِ وَٱعْبُدُوا۟ ۩ ﴿٦٢﴾﴾، ولا يقال لواحد من هذين ناسخ ولا منسوخ، ولكن يقال: اختلاف من جهة المباح»[٣].

قال ابن بطال: «هذا الحديث [أي: حديث زيد] حجة لمالك والشافعي أن سجود القرآن سنة، ولو كان واجبًا كما زعم الكوفيون لم يترك زيد السجود فيها، ولا تركه النبي ﷺ؛ لأنه بعث معلمًا. وحديث زيد هذا يبين حديث ابن مسعود أن النبي ﷺ حين سجد في ﴿وَٱلنَّجْمِ﴾ بمكة أن ذلك كان إعلامًا منه لأمته أن قارئ السجدة بالخيار، إن شاء سجد فيها وإن شاء لم يسجد، وكذلك فعل عمر في (النحل) سجد فيها مرة ولم يسجد فيها أخرى، ليري أن ذلك غير واجب، وقال: إن اللَّه لم يفرض السجود إلا أن نشاء، وسيأتي زيادة في هذا المعنى في بابه إن شاء الله»[٤].

وقول ابن عباس: «وسجد معه المسلمون والمشركون والجن والإنس»: قال

---

(١) النساء: الآية (١٠٣).

(٢) أخرجه: أحمد (١/ ١٦٢)، والبخاري (١/ ١٤٢/ ٤٦)، مسلم (١/ ٤٠-٤١/ ١١)، وأبو داود (١/ ٢٧٢-٢٧٣/ ٣٩١)، والنسائي (١/ ٢٤٦-٢٤٧/ ٤٥٧).

(٣) اختلاف الحديث (ص: ٧٣-٧٤). (٤) شرح ابن بطال (٣/ ٥٨).

الحافظ: «كأن ابن عباس استند في ذلك إلى إخبار النبي ﷺ إما مشافهة له، وإما بواسطة؛ لأنه لم يحضر القصة لصغره، وأيضًا فهو من الأمور التي لا يطلع الإنسان عليها إلا بتوقيف، وتجويز أنه كشف له عن ذلك بعيد؛ لأنه لم يحضرها قطعًا»[١].

قال ابن بطال: «وأما الذي أخذ كفا من حصى وترك السجود مع الرسول ففيه أنه من خالف النبي ﵇ استهزاء به، كافر يعاقب في الدنيا والآخرة كما قال تعالى: ﴿فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾[٢] فكذلك أصاب هذا الشيخ فتنة وكفر، ويصيبه في الآخرة عذاب أليم، وقيل: إنه الوليد بن المغيرة»[٣].

وقال القاضي عياض: «هذا الشيخ هو أمية بن خلف، قتل يوم بدر ولم يكن أسلم، وإنما سجد لأنه روى أنه سجد حينئذ مع النبي ﷺ المسلمون والمشركون والجن والإنس، قاله ابن عباس، حتى شاع أن أهل مكة أسلموا، وانصرف من كان هاجر إلى الحبشة لذلك، وكان سبب سجودهم -فيما قاله ابن مسعود- أنها كانت أول سورة نزلت فيها سجدة، وروى أصحاب الأخبار والمفسرون أن سبب ذلك ما جاء على لسان النبي ﷺ من ذكر الثناء على آلهة المشركين في سورة (النجم)[٤] ولا يصح هذا في شيء من طريق النقل، ولا من طريق العقل؛ لأن مدح آلهة غير اللَّه كفر، ولا يصح أن ينزل على النبي ﷺ كفر، ولا أن يقول النبي ﷺ ذلك من قبل نفسه مداراة لهم، ولا أن تقوله الشيطان على لسانه، إذ لا يصح أن يقول ﵇ شيئًا خلافًا ما هويه، فكيف في طريق القرآن وما هو كفر، ولا يسلط الشيطان على ذلك؛ لأنه داعية إلى الشك في المعجزة وصدق النبي ﷺ، وكل هذا لا يصح. وقد أشبعنا الكلام في هذا الفصل في القسم الثالث من كتاب «الشفا» بما لا مزيد عليه، وذكرنا تخريج التأويلات في القصة لو صح نقلها، وهو لم يصح، ولا نقل فيه من طريق صحيح، ولا مسند متصل، فليطلب بسطه هناك»[٥].

---

(١) فتح الباري (٢/ ٧٠٥).

(٢) النور: الآية (٦٣).

(٣) شرح ابن بطال (٣/ ٥٤).

(٤) وهذا السبب هو المعروف عند العلماء بـ «قصة الغرانيق».

(٥) الإكمال (٢/ ٥٢٥).



سورة القمر

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في قراءة رسول اللَّه ﷺ بسورة (القمر) في الأضحى والفطر وغيرهما من المحافل الكبار

* عن عبيداللَّه بن عبداللَّه، أن عمر بن الخطاب سأل أبا واقد الليثي: «ما كان يقرأ به رسول اللَّه ﷺ في الأضحى والفطر؟ فقال: كان يقرأ فيهما بـ﴿قٓ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْمَجِيدِ﴾ و﴿ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلْقَمَرُ﴾ »[1].

⋆ فوائد الحديث:

قال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «إن رسول اللَّه ﷺ كان يقرأ بـ﴿قٓ﴾ و﴿ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ﴾ في الأضحى والفطر، وكان يقرأ بهما في المحافل الكبار؛ لاشتمالهما على ذكر الوعد والوعيد، وبدء الخلق وإعادته، والتوحيد وإثبات النبوات، وغير ذلك من المقاصد العظيمة»[2].

قال ابن عبدالبر: «يحتمل سؤال عمر رَحِمَهُ ٱللَّهُ على جلالته لأبي واقد عن قراءة رسول اللَّه ﷺ في العيدين، ليعلم إن كان عنده من ذلك علم وإلا أنبأه به، ويحتمل أن يكون على مذهب من قال: إن القراءة في العيدين تكون سرًّا، وهو قول شاذ روي عن علي رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ أنه قال: من السنة أن لا يسمع الإمام قراءته من يليه، ولا يرفع صوته، ويحتمل أن يكون عمر نسي ذلك، أو أراد عامًّا بعينه، واللَّه أعلم بما كان من ذلك. وموضع عمر من رسول اللَّه ﷺ معروف، وأنه كان من أولي الأحلام والنهى الذين

(١) أخرجه: أحمد (٥/ ٢١٧-٢١٨)، ومسلم (٢/ ٦٠٧/ ٨٩١)، وأبو داود (١/ ٦٨٣/ ١١٥٤)، والترمذي (٢/ ٤١٥/ ٥٣٤) وقال: «حسن صحيح»، والنسائي (٣/ ٢٠٤/ ١٥٦٦)، وابن ماجه (١/ ٤٠٨/ ١٢٨٢).

(٢) تفسير القرآن العظيم (٧/ ٤٤٥).

كانوا يلونه، والله أعلم»[١].

وقال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «واختلفت الآثار أيضًا في هذا الباب، وكذلك اختلف الفقهاء أيضا فيه، فقال مالك: يقرأ في صلاة العيدين بـ﴿وَٱلشَّمۡسِ وَضُحَىٰهَا﴾ و﴿سَبِّحِ ٱسۡمَ رَبِّكَ ٱلۡأَعۡلَى﴾ ونحوها. وقال الشافعي بحديث أبي واقد الليثي هذا في ﴿قٓۚ﴾ و﴿ٱقۡتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ﴾. وقال أبو حنيفة: يقرأ فيهما بـ: ﴿سَبِّحِ ٱسۡمَ رَبِّكَ ٱلۡأَعۡلَى﴾ و﴿هَلۡ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلۡغَٰشِيَةِ﴾. وما قرأ من شيء أجزأه. وقال أبو ثور: يقرأ في العيدين بـ﴿سَبِّحِ ٱسۡمَ رَبِّكَ ٱلۡأَعۡلَى ١﴾ و﴿هَلۡ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلۡغَٰشِيَةِ﴾، وقد روي عن عمر بن الخطاب مثل ذلك.

وعن ابن مسعود أنه كان يقرأ فيهما بأم القرآن وسورة من (المفصل). وكان أبان ابن عثمان يقرأ فيهما بـ﴿سَبِّحِ ٱسۡمَ رَبِّكَ ٱلۡأَعۡلَى﴾ و﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ﴾، وليس في هذا الباب أثر مرفوع إلا حديث أبي واقد الليثي المذكور في هذا الباب، وحديث سمرة ابن جندب أن النبي ﷺ كان يقرأ في العيدين بـ﴿سَبِّحِ ٱسۡمَ رَبِّكَ ٱلۡأَعۡلَى﴾ و﴿هَلۡ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلۡغَٰشِيَةِ﴾ وحديث حبيب بن سالم عن النعمان بن بشير عن النبي ﷺ مثله و. . عن ابن عباس قال: كان رسول الله ﷺ يقرأ في العيد بـ﴿سَبِّحِ ٱسۡمَ رَبِّكَ ٱلۡأَعۡلَى﴾. وفي الثانية بـ﴿هَلۡ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلۡغَٰشِيَةِ﴾ وهذا أولى ما قيل به في هذا الباب من طريق الاستحباب، وفي اختلاف الآثار في هذا الباب، دليل على أن لا توقيف فيه، والله أعلم. وما قرأ به الإمام في صلاة العيدين أجزأه إذا قرأ فاتحة الكتاب»[٢].

قال القاضي عياض: «قال بعض أصحاب المعاني: واختصاص النبي -عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ- بقراءة هاتين السورتين في العيد لما فيهما من ذكر النشور والحشر وتشبيهه ببروز الناس وحشرهم للعيد كذلك وتذكره به: قال الله تعالى في ﴿ٱقۡتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلۡقَمَرُ﴾: ﴿يَخۡرُجُونَ مِنَ ٱلۡأَجۡدَاثِ كَأَنَّهُمۡ جَرَادٞ مُّنتَشِرٞ﴾[٣]. وفي السورة الأخرى: ﴿يَوۡمَ تَشَقَّقُ ٱلۡأَرۡضُ عَنۡهُمۡ سِرَاعٗاۚ ذَٰلِكَ حَشۡرٌ عَلَيۡنَا يَسِيرٞ﴾[٤]»[٥].

وقال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «قال بعضهم: مثابرة النبي ﷺ فيهما بـ﴿قٓۚ﴾ و﴿ٱقۡتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ﴾

---

(١) فتح البر (٥/ ٣٥٨).
(٢) فتح البر (٥/ ٣٥٩-٣٦٠).
(٣) القمر: الآية (٧).
(٤) ق: الآية (٤٤).
(٥) الإكمال (٣/ ٣٠٤).

لما فيهما من ذكر النشور وشبهه بخروج الناس للعيد كما قال: ﴿يَخْرُجُونَ مِنَ ٱلْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُّنتَشِرٌ﴾[(١)] وقوله: ﴿ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْخُرُوجِ﴾[(٢)]، والصدر عن المصلى لرجاء الغفران والسرور بالعيد كالصدر من المحشر إلى الجنة مغفور لهم»[(٣)].

* * *

---

(١) القمر: الآية (٧).

(٢) ق: الآية (٤٢).

(٣) الإكمال (٣/ ٣٠٥).

قوله تعالى: ﴿بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ٱقۡتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يعني -تعالى ذكره- بقوله: ﴿ٱقۡتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ﴾: دنت الساعة التي تقوم فيها القيامة، وقوله: ﴿ٱقۡتَرَبَتِ﴾: (افتعلت) من القرب، وهذا من اللَّه - تعالى ذكره- إنذار لعباده بدنوّ القيامة، وقرب فناء الدنيا، وأمر لهم بالاستعداد لأهوال القيامة قبل هجومها عليهم، وهم عنها في غفلة ساهون»[(١)].

قال ابن كثير: «يخبر تعالى عن اقتراب الساعة وفراغ الدنيا وانقضائها؛ كما قال تعالى: ﴿أَتَىٰٓ أَمۡرُ ٱللَّهِ فَلَا تَسۡتَعۡجِلُوهُ﴾[(٢)]، وقال: ﴿ٱقۡتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمۡ وَهُمۡ فِي غَفۡلَةٖ مُّعۡرِضُونَ ۝١﴾[(٣)]»[(٤)].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة الدالة على اقتراب الساعة وفراغ الدنيا وانقضائها

* عن ابن عمر رضي الله عنهما عن النبي ﷺ قال: «**إنما أجلكم في أجل من خلا من الأمم كما بين صلاة العصر ومغرب الشمس، ومثلكم ومثل اليهود والنصارى كمثل رجل استعمل عمّالًا فقال: من يعمل لي إلى نصف النهار على قيراط قيراط؟ فعملت اليهود، فقال: من يعمل لي من نصف النهار إلى العصر؟ فعملت النصارى، ثم أنتم تعملون من العصر إلى المغرب بقيراطين قيراطين، قالوا: نحن أكثر عملًا وأقل عطاءً، قال: هل ظلمتكم من حقكم؟ قالوا: لا، قال: فذاك فضلي أوتيه من شئتُ**»[(٥)].

---

(١) جامع البيان (٢٧/ ٨٤).
(٢) النحل: الآية (١).
(٣) الأنبياء: الآية (١).
(٤) تفسير القرآن العظيم (٧/ ٤٧٠).
(٥) أخرجه: أحمد (٢/ ١١١)، والبخاري (٩/ ٨١/ ٥٠٢١) واللفظ له، والترمذي (٥/ ١٤١/ ٢٨٧١) وقال: «حسن صحيح».

★ **غريب الحديث:**

قيراط: جزء من أجزاء الدينار، وهو نصف عشره في أكثر البلاد، وأهل الشام يجعلونه جزءًا من أربعة وعشرين، والياء فيه بدل من الراء فإن أصله: قرَّاط.

قال الحافظ: «كرر «**قيراطًا**» ليدل على تقسيم القراريط على العمال؛ لأن العرب إذا أرادت تقسيم الشيء على متعدد كررته»[(١)].

* عن أنس بن مالك ﷺ قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «**بعثت أنا والساعة كهاتين**»[(٢)].

* عن خالد بن عمير العدوي قال: «خطبنا عتبة بن غزوان فحمد اللَّه وأثنى عليه ثم قال: أما بعد، فإن الدنيا قد آذنت بصرم وولت حذاء، ولم يبق منها إلا صبابة كصبابة الإناء، يتصابها صاحبها، وإنكم منتقلون منها إلى دار لا زوال لها، فانتقلوا بخير ما بحضرتكم، فإنه قد ذكر لنا أن الحجر يلقى من شفة جهنم فيهوي فيها سبعين عامًا لا يدرك لها قعرًا، وواللَّه لتملأن، أفعجبتم؟ ولقد ذكر لنا أن ما بين مصراعين من مصاريع الجنة مسيرة أربعين سنة، وليأتين عليها يوم وهو كظيظ من الزحام، ولقد رأيتني سابع سبعة مع رسول اللَّه ﷺ ما لنا طعام إلا ورق الشجر، حتى قرحت أشداقنا، فالتقطت بردة فشققتها بيني وبين سعد بن مالك، فاتزرت بنصفها، واتزر سعد بنصفها، فما أصبح اليوم منا أحد إلا أصبح أميرًا على مصر من الأمصار، وإني أعوذ باللَّه أن أكون في نفسي عظيمًا وعند اللَّه صغيرًا، وإنها لم تكن نبوة قط إلا تناسخت، حتى يكون آخر عاقبتها ملكًا، فستخبرون وتجربون الأمراء بعدنا»[(٣)].

★ **غريب الحديث:**

آذنت بصرم: آذنت بهمزة ممدودة وفتح الذال أي: أعلمت. والصرم: بالضم،

---

(١) فتح الباري (٢/ ٤٩).

(٢) أخرجه: أحمد (٣/ ١٢٣-١٢٤)، والبخاري (١١/ ٤٢٢/ ٦٥٠٤)، ومسلم (٤/ ٢٢٦٨/ ٢٩٥١)، والترمذي (٤/ ٤٣٠/ ٢٢١٤) وقال: «حسن صحيح».

(٣) أخرجه: أحمد (٤/ ١٧٤)، ومسلم (٤/ ٢٢٧٨/ ٢٩٦٧) واللفظ له، والنسائي في الكبرى (١٠/ ٣٨٤-٣٨٥/ ١١٧٩٠) طبعة الرسالة. وأخرجه مختصراً: أحمد (٥/ ٦١)، والترمذي (٤/ ٦٠٣/ ٢٥٧٥)، وابن ماجه (٢/ ١٣٩٢/ ٤١٥٦).

أي: الانقطاع والذهاب.

حذاء: بحاء مهملة مفتوحة ثم ذال معجمة مشددة وألف ممدودة أي: مسرعة الانقطاع.

صبابة: الصبابة بضم الصاد البقية اليسيرة من الشراب تبقى في أسفل الإناء.

يتصابها: أي: يشربها.

كظيظ: أي: ممتلئ.

قرحت أشداقنا: أي: صار فيها قروح وجراح من خشونة الورق الذي نأكله وحرارته.

بردة: البردة: ثوب، وهو كساء مخطط، وقيل: هي الشملة والنمرة أيضًا، وجمعها بُرْدٌ، وقيل: كساء مربع أسود فيه صفر، والعرب تسمي الكساء الذي يلتحف به: بردة، والبرد، بغير التاء: نوع من ثياب اليمن الموشية.

وإنها لم تكن نبوة قط إلا تناسخت: يعني أن زمان النبوة يكون الناس فيه يعملون بالشرع، ويقومون بالحق، ويزهدون في الدنيا، ويرغبون في الآخرة، ثم إنه بعد انقراضهم وانقراض خلفائهم يتغير الحال، وينعكس الأمر، ثم لا يزال الأمر في تناقص وإدبار إلى أن لا يبقى على الأرض من يقول: اللَّه اللَّه، فيرتفع ما كان الصدر الأول عليه، وهذا هو المعبر عنه هنا: بالتناسخ؛ فإن النسخ هو الرفع والإزالة[١].

★ فوائد الأحاديث:

في هذه الأحاديث من الفوائد ما يدل على اقتراب الساعة وفراغ الدنيا وانقضائها، وأن بعثته وأمته ﷺ من أدلة ذلك.

قال ابن رجب: «وقوله ﷺ: «**إنما بقاؤكم فيما سلف من الأمم قبلكم**» إنما أراد به -واللَّه أعلم- أتباع موسى وعيسى عليهما السلام، وقد سمى اللَّه بني إسرائيل بانفرادهم أممًا، فقال: ﴿وَقَطَّعْنَاهُمْ فِي الْأَرْضِ أُمَمًا﴾[٢]؛ ولهذا فسر النبي ﷺ ذلك

---

(١) المفهم (٧/ ١٢٤-١٢٥).

(٢) الأعراف: الآية (١٦٨).

بعمل أهل التوراة بها إلى انتصاف النهار، وعمل أهل الإنجيل إلى العصر، وعمل المسلمين بالقرآن إلى غروب الشمس.

ويدل على ذلك -أيضًا- حديث أبي موسى الذي خرجه البخاري[١] بعد هذا، ولفظه: «**مثل المسلمين واليهود والنصارى كمثل رجل استأجر قومًا يعملون له إلى الليل**» وذكر الحديث، . . وإنما قلنا: إن هذا هو المراد من الحديث؛ لأن مدة هذه الأمة بالنسبة إلى مدة الدنيا من أولها إلى آخرها لا يبلغ قدر ما بين العصر إلى غروب الشمس بالنسبة إلى ما مضى من النهار، بل هو أقل من ذلك بكثير.

ويدل عليه صريحًا ما خرجه الإمام أحمد والترمذي من حديث أبي سعيد، أن النبي ﷺ صلى بهم صلاة العصر يومًا بنهار، ثم قام خطيبًا فلم يدع شيئًا يكون إلى قيام الساعة إلا أخبرنا به - فذكر الحديث بطوله[٢]، وقال في آخره: قال: وجعلنا نلتفت إلى الشمس هل بقي منها شيء، فقال رسول اللَّه ﷺ: «**ألا إنه لم يبق من الدنيا فيما مضى إلا كما بقي من يومكم هذا فيما مضى منه**». وقال الترمذي: حديث حسن.

وخرج الإمام أحمد من حديث ابن عمر، قال: كنّا جلوسًا عند النبي ﷺ والشمس على قعيقعان بعد العصر، فقال: «**ما أعماركم في أعمار من مضى إلا كما بقي من النهار فيما مضى منه**»[٣].

ومن حديث ابن عمر، أنه كان واقفًا بعرفات ينظر إلى الشمس حين تدلّت مثل الترس للغروب، فبكى، وقال: ذكرت رسول اللَّه ﷺ وهو واقف بمكاني هذا، فقال: «**أيها الناس! لم يبق من دنياكم فيما مضى إلا كما بقي من يومكم هذا فيما مضى منه**»[٤].

---

(١) (٢/ ٤٨/ ٥٥٨).

(٢) أخرجه: أحمد (٣/ ١٩)، والترمذي (٤/ ٤١٩-٤٢٠/ ٢١٢١)، وقال: «حسن صحيح»، والحاكم (٤/ ٥٠٥-٥٠٦)، وقال: «تفرد بهذه السياقة علي بن زيد بن جدعان القرشي عن أبي نضرة، والشيخان رضي الله عنهما لم يحتجا بعلي بن يزيد»، وتعقبه الذهبي بقوله: «ابن جدعان صالح الحديث».

(٣) أخرجه: أحمد (٢/ ١١٥-١١٦)، والطبراني في الكبير (١٢/ ٤١٢/ ١٣٥١٩).

(٤) أخرجه: أحمد (٢/ ١١٣)، والحاكم (٢/ ٤٤٣)، وقال: «صحيح الإسناد ولم يخرجاه». وتعقبه الذهبي بقوله: «كثير ضعفه النسائي ومشاه غيره».

ويشهد لذلك من الأحاديث الصحيحة: قول النبي ﷺ: «**بُعثتُ أنا والساعة كهاتين**»[١]، وقرن بين أصبعيه السبابة والوسطى. خرّجاه في الصحيحين من حديث أنس، وخرّجاه -أيضًا- بمعناه من حديث أبي هريرة وسهل بن سعد. وخرجه مسلم بمعناه من حديث جابر.

وخرّج الترمذي[٢] من حديث المستورد بن شداد، عن النبي ﷺ قال: «**بعثت في نفس الساعة، فسبقتها كما سبقت هذه هذه**» - لأصبعيه: السبابة والوسطى. وفي مسند الإمام أحمد عن بريدة عن النبي ﷺ قال: «**بعثت أنا والساعة جميعًا، إن كادت لتسبقني**». وروى الإمام أحمد -أيضًا: ثنا أبو حمزة، حدثني أبو حازم، لا أعلمه إلا عن سهل بن سعد، عن النبي ﷺ قال: «**مثلي ومثل الساعة كهاتين**» وفرق كذا بين أصبعيه الوسطى والتي تلي الإبهام، ثم قال: «**مثلي ومثل الساعة كمثل فرَسَي رهان**»، ثم قال: «مثلي ومثل الساعة كمثل رجل بعثه قومه طليعة، فلما خشي أن يسبق ألاح بثوبه: أُتيتم أُتيتم». ثم يقول رسول اللَّه ﷺ: «**أنا ذاك**»[٣].

وكل هذه النصوص تدل على شدة اقتراب الساعة، كما دل عليه قوله تعالى: ﴿ٱقۡتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلۡقَمَرُ ۝١﴾[٤]، وقوله تعالى: ﴿ٱقۡتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمۡ﴾[٥]. وقد فسر قوله ﷺ: «**بعثت أنا والساعة كهاتين**» وقرن بين السبابة والوسطى، فقرب زمانه من الساعة، كقرب السبابة من الوسطى، وكأن زمن بعثته تعقبه الساعة من غير تخلل نبي آخر بينه وبين الساعة، كما قال في الحديث الصحيح: «**أنا الحاشر، يحشر الناس على قدمي، وأنا العاقب**»[٦]. فالحاشر: الذي يحشر الناس لبعثهم يوم القيامة على قدمه - يعني أن بعثهم وحشرهم يكون عقيب رسالته، فهو مبعوث بالرسالة، وعقيبه يجمع الناس لحشرهم. والعاقب: الذي جاء عقيب الأنبياء

---

(١) هو من أحاديث الباب تقدم.

(٢) (٤/ ٤٢٩-٤٣٠/ ٢٢١٣)، وقال: «غريب من حديث المستورد لا نعرفه إلا من هذا الوجه»، والحديث ضعفه الألباني في «ضعيف سنن الترمذي».

(٣) أخرجه: أحمد (٥/ ٣٣١) وصحّحه الشيخ الألباني -رحمه الله- في السلسلة الصحيحة (٧/ ٦٧١/ ٣٢٢٠).

(٤) القمر: الآية (١).

(٥) الأنبياء: الآية (١).

(٦) أخرجه: أحمد (٤/ ٨٠) واللفظ له، البخاري (٦/ ٦٨٨/ ٣٥٣٢) و(٨/ ٨٢٦/ ٤٨٩٦)، مسلم (٤/ ١٨٢٨/ ٢٣٥٤[١٢٥])، الترمذي (٥/ ١٢٤/ ٢٨٤٠)، النسائي في الكبرى (٦/ ٤٨٩/ ١١٥٩٠).

كلهم، وليس بعده نبي، فكان إرساله من علامات الساعة»[١].

وقوله في حديث خالد بن عمير: «**فإن الدنيا قد آذنت بصرم، وولت بحذاء**»: قال ابن علان: «هذا مثل فكأنه قال: إن الدنيا قد انقطعت مسرعة، «**ولم يبق إلا صبابة**» لأنه ﷺ قال: «**بعثت أنا والساعة كهاتين**» وأشار بأصبعه الوسطى والمسبحة، «**كصبابة الإناء يتصابها صاحبها، وإنكم منتقلون عنها**» إذ هي دار ارتحال وانتقال «**إلى دار لا زوال لها**» ولا ارتحال عنها، «**فانتقلوا**» أي: من الدنيا «**بخير ما بحضرتكم**» أي: بكسب صالح الأعمال وادخار الحسنات عند المولى سبحانه: جعل الخير المتمكن منه في الحياة كالحاضر المحتاج إليه في المآل، فصاحب الحزم يدخر منه حاجته لينتفع به عند احتياجه إليه، وهذا كما قال ابن عمر رضي الله عنهما: «**وخذ من صحتك لمرضك، ومن حياتك لموتك**»»[٢].

* * *

(١) فتح الباري (٤/ ٣٣٣-٣٣٦).

(٢) دليل الفالحين (٢/ ٤٥٣-٤٥٤).

قوله تعالى: ﴿وَٱنشَقَّ ٱلْقَمَرُ ۝١ وَإِن يَرَوْا۟ ءَايَةً يُعْرِضُوا۟ وَيَقُولُوا۟ سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ ۝٢﴾

★ **غريب الآية:**

مستمرّ: أي: ذاهب؛ من قولهم: مرّ الشيء واستمرّ: إذا ذهب. وقيل: محكم قويّ شديد؛ من المِرَّة، وهي القوّة؛ مأخوذ من إمرار الحبل، وهو شدة فتله.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «وقوله: ﴿وَٱنشَقَّ ٱلْقَمَرُ﴾ يقول جل ثناؤه: وانفلق القمر، وكان ذلك فيما ذُكر على عهد رسول اللَّه ﷺ وهو بمكة، قبل هجرته إلى المدينة، وذلك أن كفار أهل مكة سألوه آية، فأراهم ﷺ انشقاق القمر آية حجة على صدق قوله، وحقيقة نبوته؛ فلما أراهم أعرضوا وكذّبوا، وقالوا: هذا سحر مستمرّ، سحرنا محمد، فقال اللَّه جل ثناؤه: ﴿وَإِن يَرَوْا۟ ءَايَةً يُعْرِضُوا۟ وَيَقُولُوا۟ سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ ۝٢﴾»[1].

قال ابن كثير: «قد كان هذا في زمان رسول اللَّه ﷺ، كما ثبت ذلك في الأحاديث المتواترة بالأسانيد الصحيحة.. وهذا أمر متفق عليه بين العلماء أن انشقاق القمر قد وقع في زمان النبي ﷺ، وأنه كان إحدى المعجزات الباهرات»[2].

قال الواحدي: «وجميع المفسرين على هذا إلا ما روى عثمان بن عطاء عن أبيه أنه قال: معناه: سينشق القمر. والعلماء كلهم على خلافه، وإنما ذكر اقتراب الساعة مع انشقاق القمر؛ لأن انشقاقه من علامات نبوة محمد ﷺ، ونبوته وزمانه من أشراط اقتراب الساعة؛ قال الزجاج: زعم قوم عندوا عن القصد وما عليه أهل العلم أن تأويله أن القمر ينشق يوم القيامة، والأمر بيّن في اللفظ وإجماع أهل العلم؛ لأن قوله: ﴿وَإِن يَرَوْا۟ ءَايَةً يُعْرِضُوا۟ وَيَقُولُوا۟ سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ ۝٢﴾ يدل على أن هذا كان في

---

(١) جامع البيان (٢٧/ ٨٤).

(٢) تفسير القرآن العظيم (٧/ ٤٤٧).

الدنيا، لا في القيامة»[١].

قال الألوسي: «وأنكر الفلاسفة أصل الانشقاق بناءً على زعمهم استحالة الخرق والالتئام على الأجرام العلوية، ودليلهم على ذلك أوهن من بيت العنكبوت، وقد خرق بأدنى نسمة من نسمات أفكار أهل الحق العلويين خرقًا لا يقبل الالتئام كما بين في موضعه، وقال بعض الملاحدة: لو وقع لنقل متواترًا واشترك أهل الأرض كلهم في معرفته ولم يختص بها أهل مكة؛ لأنه أمر محسوس مشاهد، والناس فيه شركاء، والطباع حريصة على رواية الغريب ونقل ما لم يعهد، ولا أغرب من انشقاق هذا الجرم العظيم، ولم يعهد أصلًا في الزمن القديم، ولو كان له أصل لخلد أيضًا في كتب التسيير والتنجيم، ولذكره أهل الأرصاد، فقد كانت موجودة قبل البعثة بكثير، وإطباقهم على تركه وإغفاله مع جلالة شأنه ووضوح أمره مما لا تجوزه العادة، وأيضًا لا يعقل سبب لخرق هذا الجرم العظيم، وأيضًا خرقه يوجب صوتًا هائلًا أشد من أصوات الصواعق المهلكة بأضعاف مضاعفة لا يبعد هلاك أكثر أهل الأرض منه، وأيضًا متى خرق وصار قطعتين ذهبت منه قوة التجاذب كالجبل إذا انشق، فيلزم بقاؤه منشقًا، ولا أقل من أن يبقى كذلك سنين كثيرة؛ والجواب عن ذلك أنه وقع في الليل وزمان الغفلة، وكان في زمان قليل، ورؤية القمر في بلد لا تستلزم رؤيته في جميع البلاد ضرورة اختلاف المطالع، فقد يكون القمر طالعًا على قوم غائبًا عن آخرين، ومكسوفًا عند قوم غير مكسوف عند آخرين، والاعتناء بأمر الأرصاد لم يكن بمثابته اليوم، وغفلة أهلها لحظة غير مستبعد، والانشقاق لا تختلف به منازله ولا يتغير به سيره، غاية ما في الباب أن يحدث في القطعة الشرقية قوة سير لتلحق أختها الغربية، وأي مانع من أن يخلق اللَّه تعالى فيها من السرعة نحو ما خلق اللَّه سبحانه في ضوء الشمس، فقد قال أهل الحكمة الجديدة: إن بين الأرض والشمس ثلاثمائة ألف فرسخ وأربعون ألف فرسخ، وأن ضوءها ليصل إلى الأرض في مدة ثمان دقائق وثلاث عشرة ثانية، فيقطع الضوء في كل ثانية سبعين ألف فرسخ، ولا يلزم أن يعلم سبب كل حادث، بل كثير من الحوادث المتكررة المشاهدة لم يوقف على أسبابها، كرؤية الكواكب

---

(١) الوسيط (٤/ ٢٠٧).

قريبة مع بعدها المفرط، فقد ذكروا أنهم لم يقفوا على سببه، ويكفي في ذلك عدم وقوفهم على سبب الإبصار بالعين على الحقيقة، ولو أخبرهم مخبر بفرض إن لم يكن لهم أبصار بخواص البصر مع كونه قطعة شحم صغيرة معروفة أحوالها عند أهل التشريح، لأنكروا عليه غاية الإنكار، وكذبوه غاية التكذيب، ونسبوه إلى الجنون.

ومن سلم تأثير النفوس إلى حدّ أن يصرع الشخص آخر بمجرد النظر إليه وتوجيه نفسه نحوه، لم يستبعد أن يكون هناك سبب نحو ذلك، وقد صح في إصابة العين أن بعض الأعراب ممن له عين صائبة يفلق سنام الناقة فلقتين، وربما تصور له من رمل فينظر إليه ويفلقه فينفلق سنامها مع عدم رؤيته لها نفسها، وهذا كله من باب المماشاة، وإلا فإرادة اللَّه تعالى كافية في الانشقاق، وكذا في كل المعجزات وخوارق العادات، ولو كان لكل حادث سبب لزم التسلسل، وقد قامت الأدلة على بطلانه، وكون الخرق يوجب صوتًا هائلًا ممنوع فيما نحن فيه، ومثله ذهاب التجاذب، والأجسام مختلفة من حيث الخواص، فلا يلزم اتحاد جرم القمر والأرض فيها، ويمكن أن يكون إحدى القطعتين كالجبل العظيم بالنسبة إلى الأرض: إذا ارتفع عنها بقاسر مثلًا جذبته إليه إذا لم يخرج عن حدّ جذبها على ما زعموه، ويلتزم في تلك القطعة عدم الخروج عن حدّ الجذب، على أنّا في غنىً عن كل ذلك أيضًا بعد إثبات الإمكان؛ لشمول قدرته ﷻ، وأنه سبحانه فعّال لما يريد.

والحاصل أنه ليس عند المنكر سوى الاستبعاد، ولا يستطيع أن يأتي بدليل على الاستحالة الذاتية ولو انشقّ، والاستبعاد في مثل هذه المقامات قريب من الجنون عند من له عقل سليم، وروي عن الحسن أنه قال: هذا الانشقاق بعد النفخة الثانية، والتعبير بالماضي لتحقق الوقوع، وروي ذلك عن عطاء أيضًا، ويؤيد ما تقدم الذي عليه الأكثرون قراءة حذيفة وقد انشق القمر فإن الجملة عليها حالية فتقتضي المقارنة لاقتراب الساعة ووقوع الانشقاق قبل يوم القيامة، وكذا قوله تعالى: ﴿وَإِن يَرَوْاْ ءَايَةً يُعْرِضُواْ﴾؛ فإنه يقتضي أن الانشقاق آية رأوها وأعرضوا عنها، وزعم بعضهم أن انشقاق القمر عبارة عن انشقاق الظلمة عند طلوعه، وهذا كما يسمى الصبح فلقًا عند انفلاق الظلمة عنه، وقد يعبر عن الانفلاق بالانشقاق، كما في قول النابغة:

فلما أدبروا ولهم دوي ... دعانا عند شق الصبح داعي

وزعم آخر أن معنى ﴿وَٱنشَقَّ ٱلْقَمَرُ﴾: وضح الأمر وظهر. وكلا الزعمين مما لا يعول عليه ولا يلتفت إليه، ولا أظن الداعي إليهما عند من يقرّ بالساعة التي هي أعظم من الانشقاق ويعترف بالعقائد الإسلامية التي وقع عليها الاتفاق سوى عدم ثبوت الأخبار في وقوع ذلك على عهده عليه الصلاة والسلام عنده؛ ومنشأ ذلك القصور التام، والتمسك بشبه هي على طرف الثمام، ومع هذا لا يكفر المنكر بناءً على عدم الاتفاق على تواتر ذلك وعدم كون الآية نصًا فيه، والإخراج من الدين أمر عظيم فيحتاط فيه ما لا يحتاط في غيره، والله تعالى الموفق»[(١)].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في انشقاق القمر

* عن أنس بن مالك رضي الله عنه: «أنه حدثهم أن أهل مكة سألوا رسول الله ﷺ أن يريهم آية، فأراهم انشقاق القمر». وفي لفظ الترمذي: «فنزلت: ﴿ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلْقَمَرُ ۝١﴾ إلى قوله: ﴿سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ﴾ يقول: ذاهب»[(٢)].

* عن عبدالله بن مسعود رضي الله عنه قال: «انشق القمر على عهد النبي ﷺ شقتين، فقال النبي ﷺ: اشهدوا»[(٣)].

* عن ابن عباس رضي الله عنهما: «أن القمر انشق في زمان النبي ﷺ»[(٤)].

* عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: «انفلق القمر على عهد رسول الله ﷺ، فقال رسول الله ﷺ: اشهدوا»[(٥)].

* عن جبير بن مطعم قال: «انشق القمر على عهد النبي ﷺ حتى صار فرقتين:

---

(١) روح المعاني (٢٧/ ٧٦-٧٧).

(٢) أخرجه: أحمد (٣/ ١٦٥)، والبخاري (٦/ ٧٨٣/ ٣٦٣٧)، ومسلم (٤/ ٢١٥٩/ ٢٨٠٢)، والترمذي (٥/ ٣٧١/ ٣٢٨٦) وقال: «حسن صحيح»، والنسائي في الكبرى (٦/ ٤٧٦/ ١١٥٥٤).

(٣) أخرجه: أحمد (١/ ٣٧٧)، والبخاري (٦/ ٧٨٣/ ٣٦٣٦) والسياق له، ومسلم (٤/ ٢١٥٨/ ٢٨٠٠)، والترمذي (٥/ ٣٧٠و٣٧١/ ٣٢٨٥و٣٢٨٧) وقال: «حسن صحيح»، والنسائي في الكبرى (٦/ ٤٧٦/ ١١٥٥٢و١١٥٥٣).

(٤) أخرجه: البخاري (٦/ ٧٨٣/ ٣٦٣٨) والسياق له، ومسلم (٤/ ٢١٥٩/ ٢٨٠٣).

(٥) أخرجه: مسلم (٤/ ٢١٥٩/ ٢٨٠١)، والترمذي (٥/ ٣٧١/ ٣٢٨٨)واللفظ له، وقال: «هذا حديث حسن صحيح».

على هذا الجبل وعلى هذا الجبل، فقالوا: سحرنا محمد، فقال بعضهم: لئن كان سحرنا، ما يستطيع أن يسحر الناس كلهم»[١].

* عن عبدالله بن مسعود ﷺ موقوفًا: «مضى خمس: الدخان، والروم، والقمر، والبطشة، واللزام»[٢].

★ فوائد الأحاديث:

قال الخطابي: «انشقاق القمر آية عظيمة لا يكاد يعدلها شيء من آيات الأنبياء صلوات الله عليهم؛ وذلك أنه أمر ظهر في ملكوت السماء، خارج عن جملة طباع ما في العالم المركّب من الطبائع الأربع، فيُطمع في نيله بحيلة وعلاج وتأليف وتركيب ونحوها من الأمور التي يتعاطاها المحتالون، ويتصنع لها المتكلفون، فلذلك صار الخطب فيه أعظم، والبرهان به أظهر وأبهر.

وقد أنكر هذا الخبر منكرون وقالوا: لو كان له حقيقة لم يجُز أن يخفى أمره على عوامّ الناس، ولتواترت به الأخبار من قرن إلى قرن؛ لأنه أمر مصدره عن حس ومشاهدة، فالناس فيه شركاء، وهم مطالبون بفطر العقول، ومن جهة دواعي النفوس بذكر كل أمر عجيب ونقل كل خبر غريب، فلو كان لِما رُوي من ذلك أصل لكان قد خُلّد ذكره في الكتب ودوِّن في الصحف، ولكان أهل السير وأهل التنجيم والحفظة على الأزمان وأهل العناية بالتاريخ يعرفونه، ولا ينكرونه؛ إذ كان لا يجوز الإطباق منهم على تركه وإغفاله مع جلالة شأنه وجلاء أمره.

والجواب: أن الأمر في هذا خارج عما ذهبوا إليه من قياس الأمور النادرة الغريبة إذا ظهرت لعامة الناس واستفاض العلم بها عندهم، وذلك أن هذا شيء طلبه قوم خاص من أهل مكة على ما رواه أنس بن مالك، فأراهم النبي ﷺ ذلك ليلًا؛ لأن القمر آية الليل، ولا سلطان له بالنهار، وأكثر الناس في الليل تنام ومستكنّون بأبنية وحُجُب، والأيقاظ البارزون منهم في البوادي والصحارى قد يتفق أن يكونوا

---

(١) أخرجه: أحمد (٤/ ٨١-٨٢)، والترمذي (٥/ ٣٧٢/ ٣٢٨٩) واللفظ له، وصححه ابن حبان (الإحسان ١٤/ ٤٢٢/ ٦٤٩٧)، والحاكم (٢/ ٤٧٢) على شرط الشيخين.

(٢) أخرجه: البخاري (٨/ ٧٣٤/ ٤٨٢٠) والسياق له، ومسلم (٤/ ٢١٥٧/ ٢٧٩٨[٤١])، والنسائي في الكبرى (٦/ ٤٢٦/ ١١٣٨٨).

في ذلك الوقت مشاغيل بما يلهيهم من سمر وحديث، وبما يهمّهم من شغل ومهنة، ولا يجوز أن يكونوا لا يزالون مقنعي رؤوسهم، رافعين لها إلى السماء، مترصّدين مركز القمر من الفلك لا يغفلون عنه، حتى إذا حدث بجرم القمر حدث من الانشقاق أبصروه في وقت انشقاقه قبل التئامه واتساقه، وكثيرًا ما يقع للقمر الكسوف فلا يشعر به الناس حتى يخبرهم الآحاد منهم والأفراد من جماعتهم، وإنما كان ذلك في قدر اللحظة التي هي مدرك البصر، ولو أحبّ اللَّه أن تكون معجزات نبيه ﷺ أمورًا واقعة تحت الحس قائمة للعيان حتى يشترك في معاينته الخاصة والعامة لفعل ذلك؛ ولكنه سبحانه قد جرت سنته بالهلاك والاستئصال في كل أمة أتاها نبيها بآية عامة يدركها الحس فلم يؤمنوا بها، وخصّ هذه الأمة بالرحمة، فجعل آية نبيها التي دعاهم إليها وتحدّاهم بها عقلية، وذلك لما أوتوه من فضل العقول وزيادة الأفهام، ولئلا يهلكوا فيكون سبيلهم سبيل من هلك من سائر الأمم المسخوط عليهم المقطوع دابرهم، فلم يبق لهم عين ولا أثر، والحمد لله على لطفه بنا وحسن نظره لنا، وصلى اللَّه على نبيه المصطفى وعلى آله وسلم كثيرًا»[(١)].

قال القاضي عياض: «آية انشقاق القمر من أمهات آيات نبينا ﷺ ومعجزاته وقد رواها عدة من الصحابة، وظاهر الآية أيضا وسياقها، وما بعدها من تمادي قريش على التكذيب، يشهد بصحتها لقوله: ﴿ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلْقَمَرُ ۝١ وَإِن يَرَوْا۟ ءَايَةً يُعْرِضُوا۟ وَيَقُولُوا۟ سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ ۝٢﴾ قال أبو إسحاق الزجاج: وقد أنكر بعض أهل البدع وضاهى في ذلك مخالفي الملة، وذلك لما أعمى اللَّه قلبه، ولا إنكار للقلب في جهتها، إذ هو خلق من خلق اللَّه يفعل به ما يشاء كما يفنيه ويكوره آخر أمره. وإنما أنكرها مخالفو الملة لوجهين: أما المنجمون وأصحاب التدبير والفضاء فضلالهم: أن الدراري مدبّرة العالم والفاعلة فيه، وأن تغيرها في هيئتها عندهم لا يصح إلا بفناء العالم على خلاف بينهم: هل يمكن في العقل إيجاد هيئة أخرى خلاف هذه الهيئة لتدبير العالم، أو لا يصح وجود سواها؟ مما طال خطبهم به وضلالهم فيه؛ لنفي أكثرهم الصانع القديم، ومن أثبته منهم بالصنع عندهم لغيره، ولا حاجة بنا

---

(١) أعلام الحديث (٣/ ١٦١٨-١٦٢٠).

إلى بسط مقالاتهم واختلافهم في ذلك وهذيانهم الذي يحسبونه وأتباعهم الحق والبرهان وهو الخيالات والهذيان مما هو ضد الحق وعقيدة أهل الإيمان أن المدبر الخالق هو اللَّه منشئ هذا كله والمغني له إذا شاء الغنى في جميع ذلك لا عن واسطة وتدبير ظهير وتسيب مسبب سوى إرادته وقدرته لا مرد لحكمته. وأما من سواهم من أهل الملل ومن أضله اللَّه تعالى فبقولهم: إن هذا لو كان لم يخف على أهل الدنيا ولنقل نقلًا من جميع الأقطار واستوى من معرفته أهل الهند والصين ولم يختص به طائفة من أهل مكة، وهو -أيضًا- لا حجة فيه فإن آيات اللَّه تحدث وأكثر الناس نيام والأبواب موجفة والناس متغشون ثيابهم وقل من يبصرها إلا الشاذ والراصد لها، وكثيرًا ما تحدث كسوفات القمر الكليات وغيرها وعجائب من أنوار طوالع وشهب عظام، وآيات في السماء تظهر بالليل فيتحدث بها الواحد والاثنان ممن رآها ولا علم عند غيرهم منها لما ذكرناه وهذه كانت آية بليل لقوم اشترطوها وسألوها لم يهتبل غيرهم بها، وقد يكون القمر حينئذ في بعض المجاري والمنازل التي تظهر لبعض أهل الآفاق دون بعض، كما يكون ظاهرًا لقوم غائبًا عن أخر، أو كما يجد أهل بلد الكسوف في الشمس والقمر ولا يجده غيرهم، ويكون عند بعضهم كليًّا وعند بعضهم بخلافه، كل ذلك بحسب القرب والبعد وارتفاع الدرج وانخفاضها في الطول عن خط الاستواء والعرض»[1].

قال شيخ الإسلام: «ذكر اللَّه انشقاق القمر وبين أن اللَّه فعله وأخبر به لحكمتين عظيمتين: أحدهما: كونه من آيات النبوة لما سأله المشركون آية فأراهم انشقاق القمر.

والثانية: أنه دلالة على جواز انشقاق الفلك وأن ذلك دليل على ما أخبرت به الأنبياء من انشقاق السموات ولهذا قال تعالى: ﴿ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلْقَمَرُ ۝١ وَإِن يَرَوْا۟ ءَايَةً يُعْرِضُوا۟ وَيَقُولُوا۟ سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ ۝٢ وَكَذَّبُوا۟ وَٱتَّبَعُوٓا۟ أَهْوَآءَهُمْ ۚ وَكُلُّ أَمْرٍ مُّسْتَقِرٌّ ۝٣ وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّنَ ٱلْأَنۢبَآءِ مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ ۝٤ حِكْمَةٌۢ بَٰلِغَةٌ ۖ فَمَا تُغْنِ ٱلنُّذُرُ ۝٥ فَتَوَلَّ عَنْهُمْ ۘ يَوْمَ يَدْعُ ٱلدَّاعِ إِلَىٰ شَىْءٍ نُّكُرٍ ۝٦ خُشَّعًا أَبْصَٰرُهُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ ٱلْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُّنتَشِرٌ ۝٧﴾[2].

---

(١) الإكمال (٨/ ٣٣٣-٣٣٥).

(٢) القمر: الآيات (١-٧).

فذكر اقتراب الساعة وانشقاق القمر، وجعل الآية في انشقاق القمر دون الشمس وسائر الكواكب؛ لأنه أقرب إلى الأرض من الشمس والنجوم، وكان الانشقاق فيه دون سائر أجزاء الفلك، إذ هو الجسم المستنير الذي يظهر فيه الانشقاق لكل من يراه ظهورًا لا يتمارى فيه، وأنه نفسه إذا قبل الانشقاق، فقبول محله أولى بذلك، وقد عاينه الناس وشاهدوه. وكان النبي ﷺ يقرأ بهذه السورة في المجامع الكبار مثل صلاة الجمعة والعيدين ليسمع الناس ما فيها من آيات النبوة ودلائلها والاعتبار بما فيها، وكل الناس يقر بذلك ولا ينكره، فعلم أن انشقاق القمر كان معلومًا عند الناس عامة»[١].

* * *

(١) الجواب الصحيح (٦/ ١٥٩-١٦٠).

قوله تعالى: ﴿وَكَذَّبُوا وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ وَكُلُّ أَمْرٍ مُسْتَقِرٌّ ۝٣﴾

⋆ غريب الآية:

أهواءهم: أي: ضلالتهم. والأهواء: ما تميل إليه النفس على خلاف الحق.

مستقرّ: أي: لكل شيء وقت يقع فيه من غير تقدم وتأخر.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره-: وكذّب هؤلاء المشركون من قريش بآيات اللَّه بعدما أتتهم حقيقتها، وعاينوا الدلالة على صحتها برؤيتهم القمر منفلقًا فلقتين، ﴿وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ﴾ يقول: وآثروا اتباع ما دعتهم إليه أهواء أنفسهم من تكذيب ذلك على التصديق بما قد أيقنوا صحته من نبوة محمد ﷺ، وحقيقة ما جاءهم به من ربهم»[(١)].

قال السعدي: «﴿وَكَذَّبُوا وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ﴾ كقوله تعالى: ﴿فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ﴾[(٢)]؛ فإنه لو كان قصدهم اتباع الهدى لآمنوا قطعًا، واتبعوا محمدًا ﷺ؛ لأنه أراهم اللَّه على يديه من البينات والبراهين والحجج القواطع، ما دل على جميع المطالب الإلهية، والمقاصد الشرعية»[(٣)].

قال الألوسي: «وقوله تعالى: ﴿وَكُلُّ أَمْرٍ مُسْتَقِرٌّ﴾ استئناف مسوق للرد على الكفار في تكذيبهم ببيان أنه لا فائدة لهم فيه، ولا يمنع علو شأنه صلى اللَّه تعالى عليه وسلم، أو لإقناطهم عما علقوا به أمانيهم الفارغة من عدم استقرار أمره عليه الصلاة والسلام حسبما قالوا: ﴿سِحْرٌ مُسْتَمِرٌّ﴾ ببيان ثبوته ورسوخه، أي: وكل أمر من الأمور منتهٍ إلى غاية يستقر عليها لا محالة، ومن جملتها أمر النبي ﷺ فسيصير إلى غاية يتبين عندها حقيته وعلو شأنه، وللإشارة إلى ظهور هذه الغاية

---

(١) جامع البيان (٢٧/ ٨٨).

(٢) القصص: الآية (٥٠).

(٣) تيسير الكريم الرحمن (٧/ ٢٢٦-٢٢٧).

لأمره عليه الصلاة والسلام لم يصرح بالمستقر عليه، وفي «الكشاف» أي: كل أمر لا بدّ أن يصير إلى غاية يستقر عليها، وأن أمره صلى اللّه عليه وآله وسلم سيصير إلى غاية يتبين عندها أنه حق أو باطل، وسيظهر له عاقبتهم، أو وكل أمر من أمره عليه الصلاة والسلام، وأمرهم مستقر، أي: سيثبت ويستقر على حالة نصرة أو خذلان في الدنيا، أو سعادة وشقاوة في الآخرة، قال في «الكشف»: والكلام على الأول تذييل جارٍ مجرى المثل، وعلى الثاني تذييل غير مستقلّ»[1].

* * *

---

(١) روح المعاني (٢٧/ ٧٨).

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّنَ ٱلْأَنۢبَآءِ مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ ۝٤﴾

★ **غريب الآية:**

مزدجر: أي: ما يزجرهم عن الكفر؛ مأخوذ من الزجر، وهو الانتهاء؛ يقال: زجره وازدجره، فانزجر وازدجر، وزجرتُه أنا فانزجر، أي: كففته فكفّ.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره-: ولقد جاء هؤلاء المشركين من قريش الذين كذّبوا بآيات اللَّه، واتبعوا أهواءهم من الأخبار عن الأمم السالفة، الذين كانوا من تكذيب رسل اللَّه على مثل الذي هم عليه، وأحلّ اللَّه بهم من عقوباته ما قصّ في هذا القرآن ما فيه لهم مزدجر، يعني: ما يردعهم، ويزجرهم عما هم عليه مقيمون من التكذيب بآيات اللَّه، وهو (مفتعَل) من الزجر»[1].

قال الرازي: «﴿وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّنَ ٱلْأَنۢبَآءِ مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ ۝٤﴾ إشارة إلى أن كل ما هو لطف بالعباد قد وجد، فأخبرهم الرسول باقتراب الساعة، وأقام الدليل على صدقه، وإمكان قيام الساعة عقيب دعواه بانشقاق القمر الذي هو آية؛ لأن من يكذب بها لا يصدق بشيء من الآيات، فكذبوا بها، واتبعوا الأباطيل الذاهبة، وذكروا الأقاويل الكاذبة، فذكر لهم أنباء المهلكين بالآيتين تخويفًا لهم، وهذا هو الترتيب الحكمي، ولهذا قال بعد الآيات: ﴿حِكْمَةٌۢ بَٰلِغَةٌ﴾[2] أي: هذه حكمة بالغة، والأنباء هي الأخبار العظام، ويدلك على صدقه أن في القرآن لم يرد النبأ والأنباء إلا لما له وقع قال: ﴿وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍۭ بِنَبَإٍ يَقِينٍ﴾[3]؛ لأنه كان خبرًا عظيمًا. وقال: ﴿إِن جَآءَكُمْ فَاسِقٌۢ بِنَبَإٍ﴾[4] أي: محاربة أو مسالمة، وما يشبهه من الأمور العرفية، وإنما يجب التثبت فيما يتعلق به حكم ويترتب عليه أمر ذو بال،

---

(١) جامع البيان (٢٧/ ٨٩).

(٢) القمر: الآية (٥).

(٣) النمل: الآية (٢٢).

(٤) الحجرات: الآية (٦).

وكذلك قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ مِنْ أَنبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ﴾[١] فكذلك الأنباء هاهنا، وقال تعالى عن موسى: ﴿لَّعَلِّيٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ﴾[٢] حيث لم يكن يعلم أنه يظهر له شيء عظيم يصلح أن يقال له: نبأ، ولم يقصده، والظاهر أن المراد أنباء المهلكين بسبب التكذيب، وقال بعضهم: المراد القرآن، وتقديره: جاء فيه الأنباء»[٣].

* * *

(١) آل عمران: الآية (٤٤).

(٢) القصص: الآية (٢٩).

(٣) مفاتيح الغيب (٢٩/ ٣٢-٣٣).

قوله تعالى: ﴿حِكْمَةٌۢ بَٰلِغَةٌۖ فَمَا تُغْنِ ٱلنُّذُرُ ۝٥﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يعني بالحكمة البالغة: هذا القرآن، ورُفعت (الحكمةُ) ردًّا على (ما) التي في قوله: ﴿وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّنَ ٱلْأَنۢبَآءِ مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ ۝٤﴾. وتأويل الكلام: ولقد جاءهم من الأنباء النبأ الذي فيه مزدَجَر، حكمة بالغة. ولو رُفعت (الحكمة) على الاستئناف كان جائزًا، فيكون معنى الكلام حينئذ: ولقد جاءهم من الأنباء النبأ الذي فيه مزدجر، ذلك حكمة بالغة، أو هو حكمة بالغة، فتكون الحكمة كالتفسير لها.

وقوله: ﴿فَمَا تُغْنِ ٱلنُّذُرُ﴾ وفي (ما) التي في قوله: ﴿فَمَا تُغْنِ ٱلنُّذُرُ﴾ وجهان: أحدهما: أن تكون بمعنى الجحد، فيكون إذا وجهت إلى ذلك معنى الكلام، فليست تغني عنهم النذر ولا ينتفعون بها، لإعراضهم عنها وتكذيبهم بها. والآخر: أن تكون بمعنى: أنى، فيكون معنى الكلام إذا وجهت إلى ذلك: فأي شيء تُغني عنهم النُّذر»[1].

قال ابن كثير: «وهذه الآية كقوله تعالى: ﴿قُلْ فَلِلَّهِ ٱلْحُجَّةُ ٱلْبَٰلِغَةُ فَلَوْ شَآءَ لَهَدَىٰكُمْ أَجْمَعِينَ﴾[2]، وكذا قوله تعالى: ﴿وَمَا تُغْنِى ٱلْءَايَٰتُ وَٱلنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ﴾[3]»[4].

* * *

(١) جامع البيان (٢٧/ ٨٩).

(٢) الأنعام: الآية (١٤٩).

(٣) يونس: الآية (١٠١).

(٤) تفسير القرآن العظيم (٧/ ٤٥١).

قوله تعالى: ﴿فَتَوَلَّ عَنۡهُمۡۘ يَوۡمَ يَدۡعُ ٱلدَّاعِ إِلَىٰ شَيۡءٖ نُّكُرٍ ۝٦ خُشَّعًا أَبۡصَٰرُهُمۡ يَخۡرُجُونَ مِنَ ٱلۡأَجۡدَاثِ كَأَنَّهُمۡ جَرَادٞ مُّنتَشِرٞ ۝٧ مُّهۡطِعِينَ إِلَى ٱلدَّاعِۖ يَقُولُ ٱلۡكَٰفِرُونَ هَٰذَا يَوۡمٌ عَسِرٞ ۝٨﴾

★ **غريب الآية:**

نُكُر: أي: تأباه النفس وتنفر منه.

الأجداث: القبور، جمع جَدَث.

مهطعين: أي: مسرعين. وقيل: عامدين. وقيل: ناظرين. وقيل: فاتحين آذانهم إلى الصوت. قال القرطبي: «والمعنى متقارب؛ يقال: هَطَع الرجلُ يهطَعُ هُطوعًا: إذا أقبل على الشيء ببصره لا يقلع عنه؛ وأهطع: إذا مدّ عنقه وصوّب رأسه. قال الشاعر:

تعبّدني نِمْرُ بنُ سعد وقد رأى ... ونمرُ بن سعد لي مطيعٌ ومُهْطِعُ

وبعير مُهْطِع: في عنقه تصويب خِلقة. وأهطع في عَدْوه أي: أسرع»[1].

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يعني -تعالى ذكره- بقوله: ﴿فَتَوَلَّ عَنۡهُمۡ﴾: فأعرِضْ يا محمد عن هؤلاء المشركين من قومك، الذين إن يروا آية يعرضوا ويقولوا: سِحر مستمرّ؛ فإنهم يوم يدعو داعي اللّه إلى موقف القيامة، وذلك هو الشيء النُّكُر ﴿خُشَّعًا أَبۡصَٰرُهُمۡ﴾ يقول: ذليلة أبصارهم خاشعة، لا ضرر بها ﴿يَخۡرُجُونَ مِنَ ٱلۡأَجۡدَاثِ﴾ وهي جمع جَدَث، وهي القبور، وإنما وصف جلّ ثناؤه بالخشوع الأبصار دون سائر أجسامهم، والمراد به جميع أجسامهم؛ لأن أثر ذلّة كل ذليل، وعزّة كل عزيز، تتبين في ناظريه دون سائر جسده، فلذلك خصّ الأبصار بوصفها بالخشوع»[2].

(١) الجامع لأحكام القرآن (١٧/ ١٣٠).

(٢) جامع البيان (٢٧/ ٨٩-٩٠).

قال القرطبي: «أضاف الخشوع إلى الأبصار؛ لأن أثر العز والذل يتبين في ناظر الإنسان؛ قال الله تعالى: ﴿أَبْصَـٰرُهَا خَـٰشِعَةٌ ۝٩﴾[1]، وقال تعالى: ﴿خَـٰشِعِينَ مِنَ ٱلذُّلِّ يَنظُرُونَ مِن طَرْفٍ خَفِىٍّ﴾[2]»[3].

قال ابن جرير: «وقوله: ﴿كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُّنتَشِرٌ﴾ يقول -تعالى ذكره-: يخرجون من قبورهم كأنهم في انتشارهم وسعيهم إلى موقف الحساب جراد منتشر»[4].

قال القرطبي: «وقال في موضع آخر: ﴿يَوْمَ يَكُونُ ٱلنَّاسُ كَٱلْفَرَاشِ ٱلْمَبْثُوثِ ۝٤﴾[5] فهما صفتان في وقتين مختلفين: أحدهما: عند الخروج من القبور، يخرجون فزِعين لا يهتدون أين يتوجهون، فيدخل بعضهم في بعض؛ فهم حينئذ كالفراش المبثوث بعضه في بعض لا جهة يقصدها»[6].

قال ابن جرير: «وقوله: ﴿مُّهْطِعِينَ إِلَى ٱلدَّاعِ﴾ يقول: مسرعين بنظرهم قِبَل داعيهم إلى ذلك الموقف»[7].

قال ابن كثير: «﴿يَقُولُ ٱلْكَـٰفِرُونَ هَـٰذَا يَوْمٌ عَسِرٌ﴾ أي: يوم شديد الهول عَبوس قمطرير ﴿فَذَٰلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ ۝٩ عَلَى ٱلْكَـٰفِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ ۝١٠﴾[8]»[9].

قال الرازي في قوله: ﴿يَقُولُ ٱلْكَـٰفِرُونَ هَـٰذَا يَوْمٌ عَسِرٌ﴾: «فيه فائدتان: إحداهما: تنبيه المؤمن أن ذلك اليوم على الكافر عسير فحسب، كما قال تعالى: ﴿فَذَٰلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ ۝٩ عَلَى ٱلْكَـٰفِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ ۝١٠﴾، يعني: له عسر لا يُسر معه.

ثانيتهما: هي أن الأمرين متفقان مشتركان بين المؤمن والكافر؛ فإن الخروج من الأجداث كأنهم جراد، والانقطاع إلى الداعي يكون للمؤمن؛ فإنه يخاف ولا يأمن العذاب إلا بإيمان الله تعالى إياه، فيؤتيه الله الثواب، فيبقى الكافر فيقول: ﴿هَـٰذَا يَوْمٌ عَسِرٌ﴾»[10].

* * *

(١) النازعات: الآية (٩).
(٢) الشورى: الآية (٤٥).
(٣) الجامع لأحكام القرآن (١٧/ ١٢٩).
(٤) جامع البيان (٢٧/ ٩٠).
(٥) القارعة: الآية (٤).
(٦) الجامع لأحكام القرآن (١٧/ ١٣٠).
(٧) جامع البيان (٢٧/ ٩٠).
(٨) المدثر: الآيتان (٩و١٠).
(٩) تفسير القرآن العظيم (٧/ ٤٥١).
(١٠) مفاتيح الغيب (٢٩/ ٣٥).

قوله تعالى: ﴿ ۞ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا۟ عَبْدَنَا وَقَالُوا۟ مَجْنُونٌ وَٱزْدُجِرَ ۝٩ فَدَعَا رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَغْلُوبٌ فَٱنتَصِرْ ۝١٠ ﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «وهذا وعيد من اللَّه -تعالى ذكره-، وتهديد للمشركين من أهل مكة وسائر من أرسل إليه رسوله محمدًا ﷺ على تكذيبهم إياه، وتقدم منه إليهم إن هم لم ينيبوا من تكذيبهم إياه، أنه مُحِلّ بهم ما أحل بالأمم الذين قصّ قصصهم في هذه السورة من الهلاك والعذاب، ومنجٍّ نبيه محمدًا والمؤمنين به، كما نجّى من قبله الرسل وأتباعهم من نقمه التي أحلّها بأممهم، فقال جلّ ثناؤه لنبيه محمد ﷺ: كذّبَتْ يا محمد -قبل هؤلاء الذين كذّبوك من قومك، الذين إذا رأوْا آية أعرضوا وقالوا: سحر مستمرّ- قومُ نوح، فكذّبوا عبدنا نوحًا إذ أرسلناه إليهم، كما كذّبتك قريش إذ أتيتهم بالحقّ من عندنا وقالوا: هو مجنون وازدجر. .

واختلف أهل التأويل في المعنى الذي زجروه، فقال بعضهم: كان زجرهم إياه أن قالوا: استُطير جنونًا. . وقال آخرون:.بل كان زجرهم إياه وعيدهم له بالشتم والرجم بالقول القبيح. .

وقوله: ﴿فَدَعَا رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَغْلُوبٌ فَٱنتَصِرْ ۝١٠﴾ يقول -تعالى ذكره-: فدعا نوح ربه: إن قومي قد غلبوني، تمرّدًا وعتوًّا، ولا طاقة لي بهم، فانتصر منهم بعقاب من عندك على كفرهم بك»[1].

قال الشنقيطي: «ما تضمنته هذه الآية الكريمة من دعاء نوح ربه -جل وعلا- أن ينتصر له من قومه فينتقم منهم، وأن اللَّه أجابه فانتصر له منهم، فأهلكهم جميعًا بالغرق في هذا الماء الملتقي من السماء والأرض، جاء موضحًا في آيات أخر من كتاب اللَّه، كقوله تعالى في (الأنبياء): ﴿وَنُوحًا إِذْ نَادَىٰ مِن قَبْلُ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ فَنَجَّيْنَٰهُ

(١) جامع البيان (٢٧/ ٩١-٩٢).

وَأَهْلَهُۥ مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٧٦﴾ وَنَصَرْنَٰهُ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمَ سَوْءٍ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٧٧﴾﴾[1]، وقوله تعالى في (الصافات): ﴿وَلَقَدْ نَادَىٰنَا نُوحٌ فَلَنِعْمَ ٱلْمُجِيبُونَ ﴿٧٥﴾ وَنَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥ مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٧٦﴾﴾ إلى قوله: ﴿ثُمَّ أَغْرَقْنَا ٱلْـَٔاخَرِينَ ﴿٨٢﴾﴾[2].

وقد بين -جل وعلا- أن دعاء نوح فيه سؤاله اللَّه أن يهلكهم إهلاكًا مستأصلًا، وتلك الآيات فيها بيان لقوله هنا: ﴿فَٱنتَصِرْ﴾، وذلك كقوله تعالى: ﴿وَقَالَ نُوحٌ رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ دَيَّارًا ﴿٢٦﴾ إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا۟ عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوٓا۟ إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا ﴿٢٧﴾﴾[3]. وما دعا نوح على قومه إلا بعد أن أوحى اللَّه إليه أنه لا يؤمن منهم أحد غير القليل الذي آمن، وذلك في قوله تعالى: ﴿وَأُوحِىَ إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُۥ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدْ ءَامَنَ﴾[4]، وقد قال تعالى: ﴿وَمَآ ءَامَنَ مَعَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٌ﴾[5]»[6].

قال الرازي في قوله تعالى: «﴿۞ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا۟ عَبْدَنَا وَقَالُوا۟ مَجْنُونٌ وَٱزْدُجِرَ ﴿٩﴾﴾ قال: فيها تهوين وتسلية لقلب محمد ﷺ؛ فإن حاله كحال من تقدمه»[7].

وقال في قوله: ﴿فَكَذَّبُوا۟ عَبْدَنَا﴾: «كثيرًا ما يخصّ اللَّه الصالحين بالإضافة إلى نفسه كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّ عِبَادِى﴾[8]، ﴿يَٰعِبَادِىَ﴾[9]، ﴿وَٱذْكُرْ عَبْدَنَآ﴾[10]، ﴿إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا﴾[11]، وكل واحد عبده، فما السر فيه؟ نقول: الجواب عنه من وجوه:

الأول: ما قيل في المشهور أن الإضافة إليه تشريف منه، فمن خصصه بكونه عبده شرف، وهذا كقوله تعالى: ﴿أَن طَهِّرَا بَيْتِىَ﴾[12]، وقوله تعالى: ﴿نَاقَةُ ٱللَّهِ﴾[13].

الثاني: المراد من (عبدنا)، أي: الذي عبدنا، فالكل عباد؛ لأنهم مخلوقون

---

(١) الأنبياء: الآيتان (٧٦و٧٧).
(٢) الصافات: الآيات (٧٥-٨٢).
(٣) نوح: الآيتان (٢٦و٢٧).
(٤) هود: الآية (٣٦).
(٥) هود: الآية (٤٠).
(٦) أضواء البيان (٧/ ٧١٨-٧١٩).
(٧) مفاتيح الغيب (٢٩/ ٣٥).
(٨) الحجر: الآية (٤٢).
(٩) العنكبوت: الآية (٥٦).
(١٠) ص: الآية (١٧).
(١١) يوسف: الآية (٢٤).
(١٢) البقرة: الآية (١٢٥).
(١٣) الأعراف: الآية (٧٣).

للعبادة؛ لقوله: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ۝٥٦﴾[(١)]؛ لكن منهم من عبد فحقق المقصود فصار عبده، ويؤيد هذا قوله تعالى: ﴿كُونُوا۟ عِبَادًا لِّى﴾[(٢)] أي: حققوا المقصود.

الثالث: الإضافة تفيد الحصر، فمعنى (عبدنا) هو الذي لم يقل بمعبود سوانا، ومن اتبع هواه فقد اتخذ إلهًا، فالعبد المضاف هو الذي بكليته في كل وقت لله، فأكله وشربه وجميع أموره لوجه اللَّه تعالى، وقليل ما هم»[(٣)].

* * *

(١) الذاريات: الآية (٥٦).

(٢) آل عمران: الآية (٧٩).

(٣) المصدر السابق (٢٩/ ٣٦).

قوله تعالى: ﴿فَفَتَحْنَآ أَبْوَٰبَ ٱلسَّمَآءِ بِمَآءٍ مُّنْهَمِرٍ ﴿١١﴾ وَفَجَّرْنَا ٱلْأَرْضَ عُيُونًا فَٱلْتَقَى ٱلْمَآءُ عَلَىٰٓ أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ ﴿١٢﴾﴾

★ **غريب الآية:**

منهمر: أي: كثير. وانهمر الماء: نزل بقوة وغزارة. والانهمار: الانصباب. قال امرؤ القيس:

راح تمويه الصبا ثم انتحى فيه شؤبوب جنوب منهمر

فجّرنا: شققنا.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال السعدي: «﴿فَفَتَحْنَآ أَبْوَٰبَ ٱلسَّمَآءِ بِمَآءٍ مُّنْهَمِرٍ ﴿١١﴾﴾ أي: كثير جدًّا متتابع، ﴿وَفَجَّرْنَا ٱلْأَرْضَ عُيُونًا﴾ فجعلت السماء ينزل منها من الماء شيء خارق للعادة، وتفجرت الأرض كلها، حتى التنور الذي لم تجر العادة بوجود الماء فيه، فضلًا عن كونه منبعًا للماء؛ لأنه موضع النار. ﴿فَٱلْتَقَى ٱلْمَآءُ﴾ أي: ماء السماء والأرض ﴿عَلَىٰٓ أَمْرٍ﴾ من اللَّه له بذلك، ﴿قَدْ قُدِرَ﴾ أي: قد كتبه اللَّه في الأزل وقضاه؛ عقوبة لهؤلاء الظالمين الطاغين»[١].

قال الرازي: «قوله تعالى: ﴿فَفَتَحْنَآ﴾ بيان أن اللَّه انتصر منهم، وانتقم بماء، لا بجند أنزله، كما قال تعالى: ﴿۞ وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَىٰ قَوْمِهِۦ مِنۢ بَعْدِهِۦ مِن جُندٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا كُنَّا مُنزِلِينَ ﴿٢٨﴾ إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً﴾[٢]؛ بيانًا لكمال القدرة»[٣].

* * *

(١) تيسير الكريم الرحمن (٧/ ٢٣٠).

(٢) يس: الآيتان (٢٨و٢٩).

(٣) مفاتيح الغيب (٢٩/ ٣٨).

قوله تعالى: ﴿وَحَمَلْنَهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلْوَٰحٍ وَدُسُرٍ ﴿١٣﴾﴾

★ **غريب الآية:**

دُسُر: الدسر: المسامير التي تشد بها ألواح السفينة. واحدها: دِسَار.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال الشنقيطي: «لم يبيّن هنا ذات الألواح والدسر، ولكنه بين في مواضع أخر أن المراد: وحملناه على سفينة ذات ألواح، أي: من الخشب، ودسر: أي: مسامير تربط بعض الخشب ببعض، وواحد الدُّسُر: دِسار، ككتاب وكتب، وعلى هذا القول أكثر المفسرين. وقال بعض العلماء وبعض أهل اللغة: الدسور الخيوط التي تشد بها ألواح السفينة. وقال بعض العلماء: الدسور جؤجؤ السفينة، أي: صدرها ومقدمها الذي تدسر به الماء، أي: تدفعه وتمخره به، قالوا: هو من الدسر، وهو الدفع.

فمن الآيات الدالة على أن ذات الألواح والدسر السفينة: قوله تعالى: ﴿إِنَّا لَمَّا طَغَا ٱلْمَآءُ حَمَلْنَٰكُمْ فِى ٱلْجَارِيَةِ ﴿١١﴾﴾[1] أي: السفينة، كما أوضحناه في سورة (الشورى) في الكلام على قوله تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِ ٱلْجَوَارِ فِى ٱلْبَحْرِ كَٱلْأَعْلَٰمِ ﴿٣٢﴾﴾[2]، وقوله تعالى: ﴿فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَصْحَٰبَ ٱلسَّفِينَةِ﴾[3]، وقوله تعالى: ﴿وَءَايَةٌ لَّهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ ﴿٤١﴾﴾[4] إلى غير ذلك من الآيات»[5].

قال الرازي: «حذف الموصوف وأقام الصفة مقامه، إشارة إلى أنها كانت من ألواح مركبة موثقة بدسر، وكان انفكاكها في غاية السهولة، ولم يقع، فهو بفضل الله»[6].

---

(١) الحاقة: الآية (١١).
(٢) الشورى: الآية (٣٢).
(٣) العنكبوت: الآية (١٥).
(٤) يس: الآية (٤١).
(٥) أضواء البيان (٧/ ٧١٩-٧٢٠).
(٦) مفاتيح الغيب (٢٩/ ٣٩).

قوله تعالى: ﴿تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا جَزَآءً لِّمَن كَانَ كُفِرَ ⑭﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «وقوله: ﴿تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا﴾ يقول جل ثناؤه: تجري السفينة التي حملنا نوحًا فيها بمرأى منّا ومنظر. وذُكر عن سفيان في تأويل ذلك ما حدثنا ابن حُميد، قال: ثنا مهران، عن سفيان، في قوله: ﴿تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا﴾ يقول: بأمرنا ﴿جَزَآءً لِّمَن كَانَ كُفِرَ﴾.

اختلف أهل التأويل في تأويله، فقال بعضهم: تأويله فعلنا ذلك ثوابًا لمن كان كُفر فيه، بمعنى: كفر باللَّه فيه.. ووجه آخرون معنى (من) إلى معنى (ما) في هذا الموضع، وقالوا: معنى الكلام: جزاءً لما كان كَفَر من أيادي اللَّه ونِعَمه عند الذين أهلكهم وغرّقهم من قوم نوح..

والصواب من القول في ذلك عندي ما قاله مجاهد، وهو أن معناه: ففتحنا أبواب السماء بماء منهمر، وفجّرنا الأرض عيونًا، فغرّقنا قوم نوح، ونجّينا نوحًا عقابًا من اللَّه وثوابًا للذي جُحِد وكُفِر؛ لأن معنى الكفر: الجحود، والذي جحد ألوهته ووحدانيته قوم نوح، فقال بعضهم لبعض: ﴿لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا﴾[1]، ومن ذهب به إلى هذا التأويل، كانت من اللَّه كأنه قيل: عوقبوا لله ولكفرهم به. ولو وجَّه موجِّه إلى أنها مراد بها نوح والمؤمنون به كان مذهبًا، فيكون معنى الكلام حينئذ، فعلنا ذلك جزاءً لنوح ولمن كان معه في الفلك، كأنه قيل: غرقناهم لنوح ولصنيعهم بنوح ما صنعوا من كفرهم به»[2].

---

(١) نوح: الآية (٢٣).

(٢) جامع البيان (٢٧/ ٩٤-٩٥).

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في إثبات صفة العين لله تعالى والرد على الجهمية وأفراخهم

* عن عبدالله قال: ذكر الدجال عند النبي ﷺ فقال: «**إن الله لا يخفى عليكم، إن الله ليس بأعور -وأشار بيده إلى عينه- وإن المسيح الدجال أعور عين اليمنى، كأن عينه عنبة طافية**»(١).

* عن أنس رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «**ما بعث الله من نبي إلا أنذر قومه الأعور الكذاب، إنه أعور وإن ربكم ليس بأعور، مكتوب بين عينيه كافر**»(٢).

★ فوائد الحديثين:

قال الغنيمان: «قوله: «**إن الله ليس بأعور**» هذه الجملة هي المقصودة من الحديث في هذا الباب، فهذا يدل على أن لله عينين حقيقة؛ لأن العور فقد أحد العينين أو ذهاب نورها.

قال في «القاموس»: «العور ذهاب حسن إحدى العينين، والرديء من كل شيء، والضعيف الجبان البليد الذي لا يدل ولا يندل ولا خير فيه» وعلى كل العور نقص وعيب في الاتفاق، والمقصود أنه في اللغة هو ذهاب ضوء إحدى العينين، ولهذا صار هذا الحديث من الأدلة الواضحة على إثبات تثنية العين لله تعالى، ويزيد ذلك وضوحًا إشارته ﷺ إلى عينه لتحقيق الوصف، يعني أن لله عينين سالمتين من كل عيب كاملتين، بخلاف الدجال الفاقد لإحدى عينيه، وذلك من أعظم الأدلة على كذبه.

قال ابن المنير: «وجه دلالة الحديث على إثبات العين لله من حديث الدجال من قوله: «**إن الله ليس بأعور**» من جهة أن العور عرفًا عدم العين، وضد العور ثبوت العين، فلما نزعت هذه النقيصة لزم ثبوت الكمال بضدها، وهو وجود العين».

---

(١) أخرجه: البخاري (١٣/ ٤٨٠/ ٧٤٠٧) واللفظ له، ومسلم (٤/ ١٦٩/ ٢٢٤٧)، والترمذي (٤/ ٤٤٠/ ٢٢٣٥) وقال: «حسن صحيح».

(٢) أخرجه: أحمد (٣/ ١٠٣)، والبخاري (١٣/ ٤٨٠/ ٧٤٠٨)، ومسلم (٤/ ٢٢٤٨/ ٢٩٣٣)، وأبو داود (٤/ ٤٩٤/ ٤٣١٦)، والترمذي (٤/ ٤٤٧/ ٢٢٤٥) وقال: «حسن صحيح».

قلت: الحديث فيه إثبات العينين لله تعالى، لا عين واحدة كما قد يوهمه كلامه، وقوله: «عرفًا» بل هو لغة قبل العرف.

وقال شهاب الدين السهروردي في «كتاب العقيدة» له: «أخبر اللَّه في كتابه وثبت عن رسوله الاستواء والنزول والنفس واليد والعين، فلا يتصرف فيها بتشبيه ولا تعطيل، إذ لولا إخبار اللَّه ورسوله ما تجاسر عقل أن يحوم حول ذلك الحمى». قال الطيبي: «هذا هو المذهب المعتمد، وبه يقول السلف الصالح». وقال غيره: لم ينقل عن النبي ﷺ ولا عن أحد من أصحابه من طريق صحيح التصريح بوجوب تأويل شيء من ذلك، ولا المنع من ذكره.

ومن المحال أن يأمر اللَّه نبيه بتبليغ ما أنزل إليه من ربه، وينزل عليه: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾[1] ثم يترك هذا الباب، فلا يميز ما يجوز نسبته إليه مما لا يجوز، مع حضه على التبليغ عنه بقوله: «**ليبلغ الشاهد الغائب**»[2] حتى نقلوا أقواله وأفعاله وأحواله وصفاته، وما فعل بحضرته. فدل على أنهم اتفقوا على الإيمان بها على الوجه الذي أراده اللَّه منها، ووجب تنزيهه عن مشابهة المخلوقات، بقوله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ فمن أوجب خلاف ذلك بعدهم فقد خالف سبيلهم. وباللَّه التوفيق»[3].

قال الإمام أبو بكر بن خزيمة: «باب ذكر إثبات العين لله -جل وعلا-، على ما ثبته الخالق البارئ في محكم تنزيله، وعلى لسان نبيه ﷺ، قال اللَّه ﷻ لنبيه نوح -صلوات اللَّه عليه-: ﴿وَٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا﴾[4] وقال -جل وعلا-: ﴿تَجْرِى بِأَعْيُنِنَا﴾ وقال ﷻ في ذكر موسى: ﴿وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّى وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِىٓ﴾[5] وقال: ﴿وَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا﴾[6] فواجب على كل مؤمن أن يثبت لخالقه وبارئه ما ثبت الخالق البارئ لنفسه، من العين، وغير مؤمن من ينفي عن اللَّه -تبارك وتعالى- ما قد ثبته اللَّه في محكم تنزيله ببيان النبي ﷺ الذي جعله اللَّه مبينا عنه ﷻ في قوله:

---

(١) المائدة: الآية (٣).

(٢) أخرجه: أحمد (٥/ ٣٧)، والبخاري (١/ ٢٦٥/ ١٠٥) واللفظ له، ومسلم (٣/ ١٣٠٥-١٣٠٦/ ١٦٧٩)، وابن ماجه (١/ ٨٥/ ٢٣٣)، والنسائي في الكبرى (٣/ ٤٣٢/ ٥٨٥٠) من حديث أبي بكرة ﷺ.

(٣) شرح كتاب التوحيد من صحيح البخاري (١/ ٢٨٠-٢٨١).

(٤) هود: الآية (٣٧).　　(٥) طه: الآية (٣٩).

(٦) الطور: الآية (٤٨).

﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾[(١)] فبين النبي ﷺ أن لله عينين، فكان بيانه موافقًا لبيان محكم التنزيل الذي هو مسطور بين الدفتين، مقروء في المحاريب والكتاتيب»[(٢)].

قال الغنيمان: «واعلم أن المتكلمين من المعتزلة والأشعرية ونحوهم، يزعمون أن من أثبت لله عينين ويدين ووجهًا ونحو ذلك مما جاءت به النصوص، من أثبت ذلك على ظاهر اللفظ، أنه يثبت جوارح تشبه جوارح الخلق على حد زعمهم، تعالى اللَّه وتقدس عن زعمهم وظنهم السيئ في اللَّه ورسوله، حيث ظنوا أن ظاهر وصف اللَّه نفسه وظاهر وصف رسوله إياه يقتضي التشبيه، ولهذا تجد الذين تلقوا هذا الفكر وتأثروا به من الذين يشتغلون بالحديث إذا جاء ذكر ذلك، قالوا مثلًا: إثبات صفة اليد لا من حيث الجارحة، إثبات صفة الوجه لا من حيث الجارحة، ونحو ذلك، كما يقوله البيهقي في كتابه «الأسماء والصفات»، وسائر شراح الحديث الذين لا يجرؤون على رد النصوص، فهم عندما يتكلمون على مثل هذه النصوص يبادرون إلى نفي الجارحة»[(٣)].

قال أبو بكر بن خزيمة: «فاسمعوا -يا ذوي الحجى- ما نقول في هذا الباب ونذكر بهت الجهمية وزورهم، وكذبهم على علماء أهل الآثار ورميهم خيار الخلق بعد الأنبياء بما اللَّه قد نزههم عنه، وبرأهم منه بتزور الجهمية على علمائنا إنهم مشبهة، فاسمعوا ما أقول وأبين من مذاهب علمائنا وتعلموا وتستيقنوا بتوفيق خالقنا أن هؤلاء المعطلة يبهتون العلماء ويرمونهم بما اللَّه نزههم عنه، نحن نقول: لربنا الخالق عينان يبصر بهما ما تحت الثرى وتحت الأرض السابعة السفلى وما في السموات العلى وما بينهما من صغير وكبير، لا يخفى على خالقنا خافية في السموات السبع والأرضين السبع، ولا مما بينهم ولا فوقهم ولا أسفل منهن لا يغيب عن بصره من ذلك شيء، يرى ما في جوف البحار ولججها، كما يرى عرشه الذي هو مستو عليه. وبنو آدم -وإن كانت لهم عيون يبصرون بها- فإنهم إنما

---

(١) النحل: الآية (٤٤).

(٢) كتاب التوحيد (١/ ٩٦-٩٧).

(٣) شرح كتاب التوحيد من صحيح البخاري (١/ ٢٨٣-٢٨٤).

يرون ما قرب من أبصارهم مما لا حجاب ولا ستر بين المرئي وبين أبصارهم، وما يبعد منهم وإن كان يقع اسم القرب عليه في بعض الأحوال؛ لأن العرب التي خوطبنا بلغتها قد تقول: قرية كذا منا قريبة، وبلدة كذا قريبة منا ومن بلدنا، ومنزل فلان قريب منا، وإن كان بين البلدين وبين القريتين وبين المنزلين فراسخ. والبصير من بني آدم لا يدرك ببصره شخصًا آخر من بني آدم، وبينهما فرسخان فأكثر، وكذلك لا يرى أحد من الآدميين ما تحت الأرض إذا كان فوق المرئي من الأرض والتراب قدر أنملة، أو أقل منها بقدر ما يغطى ويوارى الشيء، وكذلك لا يدرك ببصره إذا كان بينهما حجاب من حائط أو ثوب، صفيق أو غيرهما مما يستر الشيء عن عين الناظر، فكيف يكون -يا ذوي الحجى- مشبهًا من يصف عين اللَّه بما ذكرنا وأعين بني آدم بما وصفنا.

ونزيد شرحًا وبيانًا: نقول: عين اللَّه ﷻ قديمة لم تزل باقية، ولا يزال محكوم لها بالبقاء، منفي عنها الهلاك والفناء، وعيون بني آدم محدثة مخلوقة، كانت عدمًا غير مكونة فكونها اللَّه وخلقها بكلامه الذي هو صفة من صفات ذاته، وقد قضى اللَّه وقدر أن عيون بني آدم تصير إلى بلاء عن قليل، واللَّه نسأل خير ذلك المصير، وقد يعمي اللَّه عيون كثير من الآدميين فيذهب بأبصارها قبل نزول المنايا بهم، ولعل كثيرًا من أبصار الآدميين قد سلط خالقنا عليها ديدان الأرض حتى تأكلها وتفنيها بعد نزول المنية بهم، ثم ينشئها اللَّه بعد، فيصيبها ما قد ذكرنا قبل في ذكر الوجه، فما الذي يشبه -يا ذوي الحجى- عين اللَّه التي هي موصوفة بما ذكرنا عيون بني آدم التي وصفناها بعد؟ ولست أحسب لو قيل لبصير لا آفة ببصره، ولا علة بعينه، ولا نقص، بل هو أعين، أكحل، أسود الحدق، شديد بياض العينين، أهدب الأشفار-: عينك كعين فلان، الذي هو صغير العين، أزرق، أحمر بياض شحمها، يرى الموصوف الأول الشخص من بعيد، ولا يرى الثاني مثل ذلك الشخص من قدر عشر ما يرى الأول لعلة في بصره أو نقص في عينه، إلا غضب من هذا وأنف منه، فلعله يخرج إلى القائل له ذلك إلى المكروه من الشتم والأذى. ولست أحسب عاقلًا يسمع هذا المشبه عيني أحدهما بعيني الآخر إلا وهو يكذب هذا المشبه عين أحدهما بعين الآخر، ورميه بالعَتَه والخبل والجنون، ويقول له: لو كنت عاقلًا يجري عليك القلم: لم تشبه عيني أحدهما بعيني الآخر. وإن كانا جميعًا يسميان

بصيرين، إذ ليسا بأعميين، ويقال لكل واحد منهما عينان يبصر بهما، فكيف لو قيل له: عينك كعين الخنزير والقرد والدب والكلب، أو غيرها من السباع، أو هوام الأرض، والبهائم، فتدبروا يا ذوي الألباب: أبين عيني خالقنا الأزلي الدائم لم يزل ولا يزال وبين عيني الإنسان من الفرقان أكثر، أو مما بين أعين بني آدم وبين عيون ما ذكرنا؟ تعلموا وتستيقنوا أن من سمى علماءنا مشبهة غير عالم بلغة العرب، ولا يفهم العلم، وإذ لم يجز تشبيه أعين بني آدم بعيون المخلوقين، من السباع والبهائم والهوام وكلها لها عيون يبصرون بها، وعيون جميعهم محدثة مخلوقة، خلقها اللَّه بعد أن كانت عدمًا، وكلها تصير إلى الفناء والبلى، وغير جائز إسقاط اسم العيون والأبصار عن شيء منها، فكيف يحل لمسلم -ولو كانت الجهمية من المسلمين- أن يرموا من يثبت لله عينًا بالتشبيه؟! فلو كان كل ما وقع عليه الاسم كان مشبهًا لما لم يقع عليه الاسم، لم يجز قراءة كتاب اللَّه، ووجب محو كل آية بين الدفتين فيها ذكر نفس اللَّه، أو عينه، أو يده، ولوجب الكفر بكل ما في كتاب اللَّه ﷻ من ذكر صفات الرب، كما يجب الكفر بتشبيه الخالق بالمخلوق، إلا أن القوم جهلة، لا يفهمون العلم، ولا يحسنون لغة العرب، فيضلون ويضلون، واللَّه نسأل العصمة والتوفيق والرشاد في كل ما نقول وندعو إليه»[1].

* * *

(١) كتاب التوحيد (١/ ١١٤-١١٧).

قوله تعالى: ﴿وَلَقَد تَّرَكْنَٰهَآ ءَايَةً فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ۝١٥﴾

★ **غريب الآية:**

مدّكر: متّعظ ومعتبر.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال الشنقيطي: «الضمير في قوله تعالى: ﴿تَّرَكْنَٰهَآ﴾، قال بعض العلماء: إنه عائد إلى هذه الفعلة العظيمة التي فعل بقوم نوح. والمعنى: ولقد تركنا فعلتنا بقوم نوح وإهلاكنا لهم آية لمن بعدهم؛ لينزجروا ويكفوا عن تكذيب الرسل؛ لئلاّ نفعل بهم مثل ما فعلنا بقوم نوح. وكون هذه الفعلة آية نص عليه تعالى بقوله: ﴿وَقَوْمَ نُوحٍ لَّمَّا كَذَّبُوا۟ ٱلرُّسُلَ أَغْرَقْنَٰهُمْ وَجَعَلْنَٰهُمْ لِلنَّاسِ ءَايَةً﴾[1]، وقوله تعالى: ﴿فَأَنجَيْنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ فِى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ ۝١١٩ ثُمَّ أَغْرَقْنَا بَعْدُ ٱلْبَاقِينَ ۝١٢٠ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ۝١٢١﴾[2].

وقال بعض العلماء: الضمير في ﴿تَّرَكْنَٰهَآ﴾ عائد إلى السفينة، وكون سفينة نوح آية بيّنه اللّه تعالى في آيات من كتابه كقوله تعالى: ﴿فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَصْحَٰبَ ٱلسَّفِينَةِ وَجَعَلْنَٰهَآ ءَايَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ۝١٥﴾[3]، وقوله تعالى: ﴿وَءَايَةٌ لَّهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ ۝٤١ وَخَلَقْنَا لَهُم مِّن مِّثْلِهِۦ مَا يَرْكَبُونَ ۝٤٢﴾[4]»[5].

قال ابن جرير: «وقوله: ﴿فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾ يقول: فهل من ذي تذكر يتذكر ما قد فعلنا بهذه الأمة التي كفرت بربها، وعصت رسوله نوحًا، وكذّبته فيما أتاهم به عن ربهم من النصيحة، فيعتبر بهم، ويحذر أن يحلّ به من عذاب اللّه بكفره بربه،

---

(١) الفرقان: الآية (٣٧).

(٢) الشعراء: الآيات (١١٩-١٢١).

(٣) العنكبوت: الآية (١٥).

(٤) يس: الآيتان (٤١و٤٢).

(٥) أضواء البيان (٧/ ٧٢٠).

وتكذيبه رسوله محمدًا ﷺ، مثل الذي حلّ بهم، فينيب إلى التوبة، ويراجع الطاعة»[١].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة
في قراءة النبي ﷺ لقوله تعالى: ﴿فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾ بدال مهملة

* عن أبي إسحاق قال: «رأيت رجلًا سأل الأسود بن يزيد وهو يعلم القرآن في المسجد فقال: كيف تقرأ هذه الآية: ﴿فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾، أدالًا أم ذالًا؟ قال: بل دالًا؛ سمعت عبدالله بن مسعود يقول: سمعت رسول الله ﷺ يقول: ﴿مُّدَّكِرٍ﴾ دالًا»[٢].

★ فوائد الحديث:

قوله: «سمعت رسول الله ﷺ يقول: ﴿مُّدَّكِرٍ﴾ دالًا»: **قال الحافظ**: «أي: بالدال المهملة، وسبب ذكر ذلك أن بعض السلف قرأها بالمعجمة، وهو منقول أيضًا عن قتادة.. وقد تكرر في هذه السورة قوله: ﴿فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾ بحسب تكرر القصص من أخبار الأمم؛ استدعاءً لأفهام السامعين ليعتبروا»[٣].

* * *

---

(١) جامع البيان (٢٧/ ٩٥).

(٢) أخرجه: أحمد (١/ ٣٩٥)، والبخاري (٨/ ٧٩٥/ ٤٨٦٩)، ومسلم (١/ ٥٦٥/ ٨٢٣[٢٨٠]) واللفظ له، وأبو داود (٤/ ٢٩١/ ٣٩٩٤)، والترمذي (٥/ ١٧٤/ ٢٩٣٧)، والنسائي في الكبرى (٦/ ٤٧٦/ ١١٥٥٥).

(٣) فتح الباري (٨/ ٧٩٦).

قوله تعالى: ﴿فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ۝١٦﴾

★ **غريب الآية:**

نُذُر: جمع نذير، وهو الرسول. وقيل: المراد الآيات المخوفة.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره-: فكيف كان عذابي لهؤلاء الذين كفروا بربهم من قوم نوح، وكذّبوا رسوله نوحًا، إذ تمادوا في غيّهم وضلالهم، وكيف كان إنذاري بما فعلت بهم من العقوبة التي أحللت بهم بكفرهم بربهم، وتكذيبهم رسوله نوحًا، صلوات اللَّه عليه، وهو إنذار لمن كفر من قومه من قريش، وتحذير منه لهم، أن يحلّ بهم على تماديهم في غيّهم، مثلُ الذي حلّ بقوم نوح من العذاب»[1].

* * *

(١) جامع البيان (٢٧/ ٩٦).

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿١٧﴾﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن كثير: «أي: سهّلنا لفظه، ويسّرنا معناه لمن أراده، ليتذكر الناس؛ كما قال: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ الْأَلْبَٰبِ ﴿٢٩﴾﴾[1]، وقال تعالى: ﴿فَإِنَّمَا يَسَّرْنَٰهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ الْمُتَّقِينَ وَتُنذِرَ بِهِۦ قَوْمًا لُّدًّا ﴿٩٧﴾﴾[2]»[3].

قال السعدي: «والذكر شامل لكل ما يتذكر به العاملون من الحلال والحرام، وأحكام الأمر والنهي، وأحكام الجزاء والمواعظ والعبر، والعقائد النافعة والأخبار الصادقة، ولهذا كان علم القرآن حفظًا وتفسيرًا أسهل العلوم، وأجلها على الإطلاق، وهو العلم النافع الذي إذا طلبه العبد أُعِين عليه، قال بعض السلف عند هذه الآية: هل من طالب علم فيعان عليه؟ ولهذا يدعو اللّه عباده إلى الإقبال عليه والتذكر بقوله: ﴿فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾»[4].

قال ابن جرير: «وقوله: ﴿فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾ يقول: فهل من معتبر متعظ يتذكر فيعتبر بما فيه من العبر والذكر. وقد قال بعضهم في تأويل ذلك: هل من طالب علم أو خيار فيُعان عليه، وذلك قريب المعنى مما قلناه، ولكنّا اخترنا العبارة التي عبرناها في تأويله؛ لأن ذلك هو الأغلب من معانيه على ظاهره»[5].

قال ابن عطية: «وقوله: ﴿فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾ استدعاء وحض على ذكره وحفظه؛ لتكون زواجره وعلومه وهداياته حاضرة في النفس. قال مطرف في قوله تعالى: ﴿فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾: هل من طالب علم فيعان عليه؟

قال القاضي أبو محمد: الآية تعديد نعمة في أن اللّه يسر الهدى ولا بخل من قبله، فللّه درّ من قَبِل وهُدِي»[6].

---

(١) ص: الآية (٢٩).
(٢) مريم: الآية (٩٧).
(٣) تفسير القرآن العظيم (٧/ ٤٧٨).
(٤) تيسير الكريم الرحمن (٧/ ٢٣٢).
(٥) جامع البيان (٢٧/ ٩٦).
(٦) المحرر الوجيز (٥/ ٢١٥).

قال الشوكاني: «وفي الآية الحث على درس القرآن، والاستكثار من تلاوته، والمسارعة في تعلمه»[(١)].

قال القرطبي في قوله: ﴿فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾ : «كرر في هذه السورة للتنبيه والإفهام. وقيل: إن اللّه تعالى اقتصّ في هذه السورة على هذه الأمة أنباء الأمم وقصص المرسلين، وما عاملتهم به الأمم، وما كان من عقبى أمورهم وأمور المرسلين؛ فكان في كل قصة ونبإ ذكر للمستمع أن لو ادّكر، وإنما كرر هذه الآية عند ذكر كل قصة بقوله: ﴿فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾ لأن (هل) كلمة استفهام تستدعي أفهامهم التي ركبت في أجوافهم وجعلها حجة عليهم؛ فـ(اللام) من (هل) للاستعراض، و(الهاء) للاستخراج»[(٢)].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة الدالة على أن العبد فاعل على الحقيقة واللّه خالق فعله

* عن عمران قال: قلت يا رسول الله: فيما يعمل العاملون؟ قال: «**كل ميسر لما خلق له**»[(٣)].

* عن علي ﷺ عن النبي ﷺ: «**أنه كان في جنازة فأخذ عودًا، فجعل ينكت في الأرض، فقال: ما منكم من أحد إلا كتب مقعده من الجنة أو من النار، قالوا: ألا نتكل؟ قال: اعملوا، فكل ميسّر** ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَٱتَّقَىٰ ۝٥﴾[(٤)] الآية»[(٥)].

★ **غريب الحديث:**

ينكت: أي: يضرب الأرض بطرفه.

---

(١) فتح القدير (٥/ ١٧٦). (٢) الجامع لأحكام القرآن (١٧/ ١٣٤).

(٣) أخرجه: أحمد (٤/ ٤٣١)، والبخاري (١٣/ ٦٣٧/ ٧٥٥١) واللفظ له، ومسلم (٤/ ٢٠٤١/ ٢٦٤٩)، وأبو داود (٥/ ٨٣/ ٤٧٠٩)، والنسائي في الكبرى (٦/ ٥١٧/ ١١٦٨٠).

(٤) الليل: الآية (٥).

(٥) أخرجه: البخاري (١٣/ ١٢٥/ ٢٥٥٧)، ومسلم (٤/ ٢٠٣٩/ ٢٦٤٧)، وأبو داود (٥/ ٦٨-٦٩/ ٤٦٩٤)، والترمذي (٤/ ٣٨٨/ ٢١٣٦) وقال: «حسن صحيح»، وابن ماجه (١/ ٣٠/ ٧٨)، والنسائي في الكبرى (٦/ ٥١٦/ ١١٦٧٨).

★ **فوائد الحديثين:**

ترجم البخاري لهذين الحديثين بقوله: «**باب قول اللَّه تعالى: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ۝١٧﴾**»[١].

قال الغنيمان: «قال ابن المنير: ما ذكره البخاري في هذا الباب راجع إلى ما تقدم من وصف القراءة بالتيسير وهذا يدل على أنها فعل العبد، ويشهد له قوله: «**كل ميسر لما خلق له**» ومما خلق له التلاوة، واللَّه أعلم. قوله: ومما خلق له التلاوة، يعني أنها عمل الإنسان الذي يترتب عليه مصيره الذي كتب له»[٢].

وقال: «وجه الاستدلال من الحديث أن قوله: «**كل ميسر لما خلق له**» يدل على أن العبد له عمل ييسر له فيعمله، فيستحق عليه الجزاء، وذلك الجزاء هو الذي خلق العبد له، إما الجنة وإما النار، فالعبد فاعل على الحقيقة، فهو المؤمن، والمصلي، والعامل حقيقة، وهو الكافر، والمنافق، والعاصي، والسارق، والزاني حقيقة، ولذلك استحق العذاب أو الثواب، وكذلك هو القارئ إذا قرأ كتاب اللَّه تعالى، فالقراءة فعله وكسبه وعمله، والمقروء كتاب اللَّه وصفته التي تكلم به وقاله، وأنزله على رسوله ﷺ، وقد يسر اللَّه القرآن للذكر، فإذا تذكره العبد وقرأه وعمل به، فذلك عمله يضاف إليه، ويجزى عليه.

قال الإمام البخاري رَحِمَهُ ٱللَّهُ: ويقال لمن زعم أني لا أقول القرآن مكتوب في المصحف ولكن القرآن بعينه في المصحف: يلزمك أن تقول: إن ما ذكره اللَّه في القرآن من الجن والإنس والملائكة والمدائن ومكة والمدينة وغيرها وإبليس وفرعون وجنودهما والجنة والنار عاينتهم بأعيانهم في المصحف؛ لأن فرعون مكتوب فيه كما أن القرآن مكتوب فيه، ويلزمك أكثر من ذلك حين تقول: اللَّه في المصحف، وهذا أمر بين؛ لأنك تضع يدك على هذه الآية وتراها بعينك: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ﴾[٣]، فلا يشك عاقل بأن اللَّه هو المعبود، وقوله: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ﴾ هو قرآن، فالقرآن قول اللَّه ﷻ، والقراءة والكتابة والحفظ

---

(١) فتح الباري (١٣/ ٦٣٧).

(٢) شرح كتاب التوحيد من صحيح البخاري (٢/ ٥٣٠).

(٣) البقرة: الآية (٢٥٥).

للقرآن هو فعل المخلوق؛ لقوله: ﴿فَٱقۡرَءُواْ مَا تَيَسَّرَ مِنۡهُۚ﴾ وقوله: ﴿فَٱقۡرَءُواْ مَا تَيَسَّرَ مِنَ ٱلۡقُرۡءَانِۚ﴾[(١)] والقراءة فعل الخلق، وهي طاعة اللَّه، والقرآن ليس هو بطاعة اللَّه، إنما هو الأمر بالطاعة، ودليله قوله تعالى: ﴿وَقُرۡءَانٗا فَرَقۡنَٰهُ لِتَقۡرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكۡثٖ﴾[(٢)] وقوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَتۡلُونَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ﴾[(٣)] وقوله: ﴿وَلَقَدۡ يَسَّرۡنَا ٱلۡقُرۡءَانَ لِلذِّكۡرِ فَهَلۡ مِن مُّدَّكِرٖ ١٧﴾.

وقال ﷺ: ﴿بَلِّغۡ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَۖ﴾[(٤)]، فذلك كله مما أمر به، ولذلك قال: ﴿أَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾[(٥)] والصلاة بجملتها طاعة لله، والأمر بالصلاة قرآن، وهو مكتوب في المصاحف، محفوظ في الصدور، مقروء على اللسان، والقراءة والحفظ والكتابة مخلوق، وما قرئ وحفظ وكتب ليس بمخلوق، ومن الدليل عليه أن الناس يكتبون «**الله**» ويحفظونه ويدعونه، فالدعاء والحفظ والكتابة من الناس مخلوق، ولا شك فيه، والخالق اللَّه بصفته»[(٦)].

قال الوزير ابن هبيرة: «وفيه من الفقه أن هذا الخبر لا ينبغي أن يؤثر في ترك العمل، بل في زيادته، ويؤثر في ترك الإدلال بالطاعة، ألا ترى إلى قول رسول اللَّه ﷺ: «**اعملوا، فكل ميسر لما خلق له**». وقد روي عن أحمد بن حنبل رضي الله عنه أنه لما روى الحديث الذي فيه: «**يعمل أحدكم بعمل أهل الجنة..**» قال: هذا أشد الحديث أو أشد الأحاديث بعثًا على العمل، أو كما قال. والغرض أن هذا الحديث ليس يقتضي تقتير العمل، بل يقتضي الحذر من الإعجاب، كما أنه لا يقتضي التتابع في المعاصي، بل يقتضي أن لا يقنط فاعلها من رحمة اللَّه إن كثرت ذنوبه»[(٧)].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة
في تسهيل حفظ القرآن وتيسيره على الأمة

* عن عبداللَّه بن عباس رضي الله عنهما أن رسول اللَّه ﷺ قال: «**أقرأني جبريل على حرف**

---

(١) المزمل: الآية (٢٠). (٢) الإسراء: الآية (١٠٦).
(٣) فاطر: الآية (٢٩). (٤) المائدة: الآية (٦٧).
(٥) البقرة: الآية (٤٣).
(٦) شرح كتاب التوحيد من صحيح البخاري (٢/ ٥٢٦-٥٢٨).
(٧) الإفصاح (١/ ٢٥٧).

فراجعته، فلم أزل أستزيده ويزيدني حتى انتهى إلى سبعة أحرف»[1].

★ فوائد الحديث:

قال المحقق الحافظ ابن الجزري: «وقد تكلم الناس على هذا الحديث بأنواع الكلام، وصنف الإمام الحافظ أبو شامة رَحِمَهُ اللَّهُ فيه كتابًا حافلًا، وتكلم بعده قوم، وجنح آخرون إلى شيء آخر، والذي ظهر لي أن الكلام عليه ينحصر في عشرة أوجه: الأول: في سبب وروده، الثاني: في معنى الأحرف، الثالث: في المقصود بها هنا، الرابع: ما وجه كونها سبعة؟ الخامس: على أي شيء يتوجه اختلاف هذه السبعة؟ السادس: على كم معنى تشتمل هذه السبعة؟ السابع: هل هذه السبعة متفرقة في القرآن؟ الثامن: هل المصاحف العثمانية مشتملة عليها؟ التاسع: هل القراءات التي بين أيدي الناس اليوم هي السبعة أم بعضها؟ العاشر: ما حقيقة هذا الاختلاف وفائدته؟

فأما سبب وروده على سبعة أحرف فللتخفيف على هذه الأمة، وإرادة اليسر بها، والتهوين عليها؛ شرفًا لها، وتوسعة، ورحمة، وخصوصية لفضلها، وإجابة لقصد نبيها أفضل الخلق وحبيب الحق، حيث أتاه جبريل فقال له: **«إن اللَّه يأمرك أن تقرأ أمتك القرآن على حرف. فقال ﷺ**: أسأل اللَّه معافاته ومعونته، وإن أمتي لا تطيق ذلك»، ولم يزل يردد المسألة حتى بلغ سبعة أحرف، وفي الصحيح أيضًا: **«إن ربي أرسل إلي أن اقرأ القرآن على حرف، فرددت إليه أن هون على أمتي، ولم يزل يردد حتى بلغ سبعة أحرف»**، وكما ثبت صحيحًا: **«إن القرآن نزل من سبعة أبواب على سبعة أحرف، وإن الكتاب قبله كان ينزل من باب واحد على حرف واحد»**، وذلك أن الأنبياء عَلَيْهِمُ السَّلَامُ كانوا يبعثون إلى قومهم الخاصين بهم، والنبي صلى اللَّه عليه وآله وسلم بعث إلى جميع الخلق أحمرها وأسودها، عربيها وعجميها، وكانت العرب الذين نزل القرآن بلغتهم لغاتهم مختلفة، وألسنتهم شتى، ويعسر على أحدهم الانتقال من لغته إلى غيرها، أو من حرف إلى آخر، بل قد يكون بعضهم لا يقدر على ذلك، ولا بالتعليم والعلاج، لا سيما الشيخ والمرأة ومن لم يقرأ

---

(١) أخرجه: أحمد (١/ ٢٦٣-٢٦٤و٢٩٩و٣١٣)، والبخاري (٩/ ٢٧-٢٨/ ٤٩٩١) واللفظ له، ومسلم (١/ ٥٦٠/ ٨١٨[٢٧٢]).

كتابًا، كما أشار إليه صلى اللَّه عليه وآله وسلم. فلو كلفوا العدول عن لغتهم والانتقال عن ألسنتهم، لكان من التكليف بما لا يستطاع، وما عسى أن يتكلف المتكلف وتأبى الطباع، ولذلك اختلف العلماء في جواز القراءة بلغة أخرى غير العربي على أقوال: ثالثها إن عجز عن العربي جاز وإلا فلا. وليس هذا موضع الترجيح، فقد ذكر في موضعه، قال الإمام أبو محمد عبداللَّه بن قتيبة في كتاب «المشكل»: «فكان من تيسير اللَّه تعالى أن أمر نبيه ﷺ بأن يقرئ كل أمة بلغتهم وما جرت عليه عادتهم، فالهذلي يقرأ: (عتّى حين) يريد (حتى) هكذا يلفظ بها ويستعملها، والأسدي يقرأ: (تِعلمون) و(تِعلم) و(تِسود وجوه) و(ألم إعهد إليكم)، والتميمي يهمز، والقرشي لا يهمز، والآخر يقرأ: (قيل لهم) و(غيض الماء) بإشمام الضم مع الكسر و(بضاعتنا ردت) بإشمام الكسر مع الضم و(مالك لا تأمنا) بإشمام الضم مع الإدغام. قلت: وهذا يقرأ: (عليهم) و(فيهم) بالضم، والآخر يقرأ: (عليهمو) و(منهمو) بالصلة، وهذا يقرأ: (قدَ اَفلح) و(قلُ اوحي) و(خلوا اِلى) بالنقل، والآخر يقرأ: (موسى) و(عيسى) و(دنيا) بالإمالة، وغيره يلطف، وهذا يقرأ: (خبيرًا) و(بصيرًا) بالترقيق، والآخر يقرأ: (الصلاة) و(الطلاق) بالتفخيم.. إلى غير ذلك. قال ابن قتيبة: ولو أراد كل فريق من هؤلاء أن يزول عن لغته وما جرى عليه اعتياده طفلًا وناشيًا وكهلًا لاشتد ذلك عليه، وعظمت المحنة فيه، ولم يمكنه إلا بعد رياضة للنفس طويلة، وتذليل للسان، وقطع للعادة، فأراد اللَّه برحمته ولطفه أن يجعل لهم متسعًا في اللغات، ومتصرفًا في الحركات، كتيسيره عليهم في الدين»»[1].

ثم ذكر رَحِمَهُ اللَّهُ مباحث نفيسة متعلقة بالأوجه التي أشار إليها ليس هذا محل ذكرها، وقد تقدم ذكر بعضها في سورة (الفرقان) وغيرها. قال: «وأما فائدة اختلاف القراءات وتنوعها فإن في ذلك فوائد غير ما قدمنا من سبب التهوين والتسهيل والتخفيف على الأمة.

ومنها: ما في ذلك من نهاية البلاغة، وكمال الإعجاز وغاية الاختصار، وجمال الإيجاز، إذ كل قراءة بمنزلة الآية، إذ كان تنوع اللفظ بكلمة تقوم مقام

---

(١) النشر في القراءات العشر (١/ ٢١-٢٣).

آيات، ولو جعلت دلالة كل لفظ آية على حدتها لم يخف ما كان في ذلك من التطويل.

ومنها: ما في ذلك من عظيم البرهان وواضح الدلالة إذ هو مع كثرة هذا الاختلاف وتنوعه لم يتطرق إليه تضاد ولا تناقض ولا تخالف، بل كله يصدق بعضه بعضًا، ويبين بعضه بعضًا، ويشهد بعضه لبعض على نمط واحد وأسلوب واحد، وما ذلك إلا آية بالغة، وبرهان قاطع على صدق من جاء به ﷺ.

ومنها: سهولة حفظه وتيسير نقله على هذه الأمة، إذ هو على هذه الصفة من البلاغة والوجازة، فإنه من يحفظ كلمة ذات أوجه أسهل عليه وأقرب إلى فهمه، وأدعى لقبوله من حفظه جملًا من الكلام تؤدي معاني تلك القراءات المختلفات، لا سيما فيما كان خطه واحدًا، فإن ذلك أسهل حفظًا، وأيسر لفظًا.

ومنها: إعظام أجور هذه الأمة من حيث إنهم يفرغون جهدهم ليبلغوا قصدهم في تتبع معاني ذلك، واستنباط الحكم والأحكام من دلالة كل لفظ، واستخراج كمين أسراره وخفي إشاراته، وإنعامهم النظر وإمعانهم الكشف عن التوجيه والتعليل والترجيح والتفصيل بقدر ما يبلغ غايةُ علمهم، ويصل إليه نهايةُ فهمهم ﴿فَٱسۡتَجَابَ لَهُمۡ رَبُّهُمۡ أَنِّي لَآ أُضِيعُ عَمَلَ عَٰمِلٖ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوۡ أُنثَىٰۖ﴾[1] والأجر على قدر المشقة.

ومنها: بيان فضل هذه الأمة وشرفها على سائر الأمم، من حيث تلقيهم كتاب ربهم هذا التلقي، وإقبالهم عليه هذا الإقبال، والبحث عن لفظة لفظة، والكشف عن صيغة صيغة، وبيان صوابه، وبيان تصحيحه، وإتقان تجويده، حتى حموه من خلل التحريف، وحفظوه من الطغيان والتطفيف، فلم يهملوا تحريكًا ولا تسكينًا، ولا تفخيمًا ولا ترقيقًا، حتى ضبطوا مقادير المدات، وتفاوت الإمالات، وميزوا بين الحروف بالصفات، مما لم يهتد إليه فكر أمة من الأمم، ولا يوصل إليه إلا بإلهام بارئ النسم.

ومنها: ما ادخره اللَّه من المنقبة العظيمة، والنعمة الجليلة الجسيمة لهذه الأمة الشريفة، من إسنادها كتاب ربها، واتصال هذا السبب الإلهي بسببها خصيصة اللَّه تعالى هذه الأمة المحمدية، وإعظامًا لقدر أهل هذه الملة الحنيفية، وكل قارئ

---

(١) آل عمران: الآية (١٩٥).

يوصل حروفه بالنقل إلى أصله، ويرفع ارتياب الملحد قطعًا بوصله، فلو لم يكن من الفوائد إلا هذه الفائدة الجليلة لكفت، ولو لم يكن من الخصائص إلا هذه الخصيصة النبيلة لوفت.

ومنها: ظهور سر اللَّه في توليه حفظ كتابه العزيز، وصيانة كلامه المنزل، بأوفى البيان والتمييز، فإن اللَّه تعالى لم يخل عصرًا من الأعصار، ولو في قطر من الأقطار، من إمام حجة قائم بنقل كتاب اللَّه تعالى، وإتقان حروفه ورواياته، وتصحيح وجوهه وقراءاته، يكون وجوده سببًا لوجود هذا السبب القويم على ممر الدهور، وبقاؤه دليلًا على بقاء القرآن العظيم في المصاحف والصدور»[1].

* * *

(١) النشر في القراءات العشر (١/ ٥٢-٥٤).

قوله تعالى: ﴿كَذَّبَتْ عَادٌ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ۝١٨﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره-: كذّبت أيضًا عاد نبيهم هودًا ﷺ فيما أتاهم به عن اللَّه، كالذي كذّبت قوم نوح، وكالذي كذّبتم معشر قريش نبيكم محمدًا ﷺ وعلى جميع رسله، ﴿فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ۝١٨﴾ يقول: فانظروا معشر كفرة قريش باللَّه كيف كان عذابي إياهم، وعقابي لهم على كفرهم باللَّه، وتكذيبهم رسوله هودًا، وإنذاري بفعلي بهم ما فعلت من سلك طرائقهم، وكانوا على مثل ما كانوا عليه من التمادي في الغيّ والضلالة»[1].

* * *

(١) جامع البيان (٢٧/ ٩٧).

قوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي يَوْمِ نَحْسٍ مُّسْتَمِرٍّ ۝١٩﴾

★ **غريب الآية:**

صرصرًا: الصرصر: الريح الشديدة الهبوب والبرد؛ مأخوذ من الصر، وهو البرد الشديد.

نحس: شؤم. والنحس ضد السَّعْد.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره-: إنا بعثنا على عاد إذ تمادوا في طغيانهم وكفرهم بالله ﴿رِيحًا صَرْصَرًا﴾، وهي الشديدة العصوف في برد، التي لصوتها صرير، وهي مأخوذة من شدة صوت هبوبها إذا سمع فيها كهيئة قول القائل: صرّ، فقيل منه: صرصر، كما قيل: فكبكبوا فيها، من (فكبوا)، ونَهْنَهْتُ من (نَهَهْتُ).. وقوله: ﴿فِي يَوْمِ نَحْسٍ مُّسْتَمِرٍّ﴾ يقول: في يوم شر وشؤم لهم.. وقوله: ﴿مُّسْتَمِرٍّ﴾ يقول: في يوم شر وشؤم استمر بهم البلاء والعذاب فيه إلى أن وافى بهم جهنم»[(١)].

قال الرازي: «قال تعالى هاهنا: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا﴾ وقال في (الطور): ﴿وَفِي عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلرِّيحَ ٱلْعَقِيمَ ۝٤١﴾[(٢)]، فعرف الريح هناك ونكرها هنا؛ لأن العقم في الريح أظهر من البرد الذي يضر النبات أو الشدة التي تعصف الأشجار؛ لأن الريح العقيم هي التي لا تنشئ سحابًا، ولا تلقح شجرًا، وهي كثيرة الوقوع، وأما الريح المهلكة الباردة فقلما توجد، فقال: الريح العقيم، أي: هذا الجنس المعروف، ثم زاده بيانًا بقوله: ﴿مَا تَذَرُ مِن شَيْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلَتْهُ كَٱلرَّمِيمِ ۝٤٢﴾[(٣)]، فتميزت عن الرياح العقم، وأما الصرصر فقليلة الوقوع، فلا تكون مشهورة

---

(١) جامع البيان (٢٧/ ٩٧-٩٨).

(٢) الذاريات: الآية (٤١).

(٣) الذاريات: الآية (٤٢).

فنكرها»(١).

وقال: «قال هنا: ﴿فِي يَوْمِ نَحْسٍ مُّسْتَمِرٍّ﴾، وقال في (السجدة): ﴿فِي أَيَّامٍ نَّحِسَاتٍ﴾(٢)، وقال في (الحاقة): ﴿سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا﴾(٣)، والمراد من اليوم هنا الوقت والزمان، كما في قوله تعالى: ﴿يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا﴾(٤)، وقوله: ﴿مُّسْتَمِرٍّ﴾ يفيد ما يفيده (الأيام)؛ لأن الاستمرار ينبئ عن إمرار الزمان كما ينبئ عنه (الأيام)، وإنما اختلف اللفظ مع اتحاد المعنى؛ لأن الحكاية هنا مذكورة على سبيل الاختصار، فذكر الزمان ولم يذكر مقداره، ولذلك لم يصفها»(٥).

* * *

(١) مفاتيح الغيب (٢٩/ ٤٦-٤٧).

(٢) فصلت: الآية (١٦).

(٣) الحاقة: الآية (٧).

(٤) مريم: الآية (٣٣).

(٥) المصدر السابق (٢٩/ ٤٧).

قوله تعالى: ﴿تَنزِعُ ٱلنَّاسَ كَأَنَّهُمۡ أَعۡجَازُ نَخۡلٖ مُّنقَعِرٖ ﴿٢٠﴾ فَكَيۡفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ﴿٢١﴾ وَلَقَدۡ يَسَّرۡنَا ٱلۡقُرۡءَانَ لِلذِّكۡرِ فَهَلۡ مِن مُّدَّكِرٖ ﴿٢٢﴾﴾

★ غريب الآية:

تنزع الناس: أي: تقلعهم من مواضعهم.

أعجاز: الأعجاز: جمع عجز، وهو مؤخّر الشيء.

منقعر: منقلع من أصله؛ لأن قَعْرَ الشيء: قَرَارُه؛ يقال: قعرت الشجرة: إذا قلعتها من الأصل.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن عطية: «وقوله: ﴿تَنزِعُ ٱلنَّاسَ﴾ معناه: تنقلهم من مواضعهم نزعًا فتطرحهم. وروي عن مجاهد: أنها كانت تلقي الرجل على رأسه فيتفتت رأسه وعنقه وما يلي ذلك من بدنه، فلذلك حسن التشبيه بـ(أعجاز النخل)؛ وذلك أن المنقعر هو الذي ينقلب من قعره. فذلك التشعث والشعب التي لأعجاز النخل، كان يشبهها ما تقطع وتشعث من شخص الإنسان، وقال قوم: إنما شبههم بـ(أعجاز النخل) لأنهم كانوا يحفرون حفرًا ليمتنعوا فيها من الريح، فكأنه شبه تلك الحفر بعد النزع بحفر أعجاز النخل، والنخل يذكّر ويؤنث، فلذلك قال هنا: ﴿مُّنقَعِرٖ﴾ وفي غير هذه السورة: ﴿خَاوِيَةٖ﴾[1]، و(الكاف) في قوله: ﴿كَأَنَّهُمۡ أَعۡجَازُ﴾ في موضع الحال، قاله الزجاج، وما روي من خبر الخلجان وغيره وقوتهم ضعيف كله»[2].

قال ابن جرير في قوله: ﴿فَكَيۡفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ﴿٢١﴾﴾: يقول -تعالى ذكره-: فانظروا معشر كفار قريش، كيف كان عذابي قوم عاد، إذ كفروا بربهم، وكذّبوا رسوله، فإن ذلك سنة اللّه في أمثالهم، وكيف كان إنذاري بهم مَنْ أنذرت»[3].

---

(١) الحاقة: الآية (٧).
(٢) المحرر الوجيز (٥/ ٢١٦).
(٣) جامع البيان (٢٧/ ١٠٠).

قال ابن عطية: «وفائدة تكرار قوله: ﴿فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ﴿٢١﴾﴾: التخويف وهزّ الأنفس، قال الرماني: لما كان الإنذار أنواعًا، كرر التذكير والتنبيه، وفائدة التكرار قوله: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿٢٢﴾﴾ التأكيد والتحريض وتنبيه الأنفس. وهذا موجود في تكرار الكلام، مثل قول النبي ﷺ: «ألا هل بلغت، ألا هل بلغت»[١]. ومثل قوله: «ألا وقول الزور، ألا وقول الزور، ألا وقول الزور»[٢]. وكان ﷺ إذا سلم على قوم سلم عليهم ثلاثًا[٣]، فهذا كله نحو واحد وإن تنوع»[٤].

* * *

(١) أخرجه: أحمد (٥/ ٤٢٣). البخاري (١٣/ ٢٠٤/ ٧١٧٤). مسلم (٣/ ١٤٦٣/ ١٨٣٢). أبو داود (٣/ ٣٥٦/ ٢٩٤٨)، من حديث أبي حميد الساعدي ﷺ.

(٢) أخرجه: أحمد (٥/ ٣٦-٣٧)، والبخاري (١٢/ ٢٦٤/ ٦٩١٩) واللفظ له، ومسلم (١/ ٩١/ ٨٧)، والترمذي (٤/ ٢٧٥/ ١٩٠١) من حديث أبي بكرة ﷺ.

(٣) أخرجه: البخاري (١/ ٢٥٠/ ٩٤)، والترمذي (٥/ ٦٨/ ٢٧٢٣).

(٤) المحرر الوجيز (٥/ ٢١٦-٢١٧).

قوله تعالى: ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِالنُّذُرِ ﴿٢٣﴾ فَقَالُوٓاْ أَبَشَرًا مِّنَّا وَاحِدًا نَّتَّبِعُهُۥٓ إِنَّآ إِذًا لَّفِى ضَلَٰلٍ وَسُعُرٍ ﴿٢٤﴾﴾

★ غريب الآية:

سُعُر: جنون؛ من قولك: ناقة مسعورة، أي: مجنونة، لشدة نشاطها.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره-: كذّبت ثمود قوم صالح بنذر اللَّه التي أتتهم من عنده، فقالوا تكذيبًا منهم لصالح رسول ربهم: أبشرًا منّا نتبعه نحن الجماعة الكبيرة، وهو واحد؟!

وقوله: ﴿إِنَّآ إِذًا لَّفِى ضَلَٰلٍ وَسُعُرٍ﴾ يقول: قالوا: ﴿إِنَّآ إِذًا﴾ باتّباعنا صالحًا إن اتّبعناه وهو بشر منّا واحد ﴿لَّفِى ضَلَٰلٍ﴾، يعنون: لفي ذهاب عن الصواب وأخذ على غير استقامة، ﴿وَسُعُرٍ﴾ يعنون بالسُّعُر: جمع سَعير. وكان قتادة يقول: عني بالسُّعُر: العناء»[١].

* * *

(١) جامع البيان (٢٧/ ١٠٠).

قوله تعالى: ﴿أَءُلْقِىَ ٱلذِّكْرُ عَلَيْهِ مِنۢ بَيْنِنَا بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌ ﴿٢٥﴾ سَيَعْلَمُونَ غَدًا مَّنِ ٱلْكَذَّابُ ٱلْأَشِرُ ﴿٢٦﴾﴾

★ **غريب الآية:**

أشر: الأشر: البطر، وهو الفرح المتكبر.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال السعدي: «هذا اعتراض من المكذّبين على اللَّه، لم يزالوا يدلون به، ويصولون ويجولون ويردّون به دعوة الرسل، وقد أجاب اللَّه عن هذه الشبهة بقول الرسل لأممهم: ﴿قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِن نَّحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ﴾[١]، فالرسل منّ اللَّه عليهم بصفات وأخلاق وكمالات، بها صلحوا لرسالات ربهم والاختصاص بوحيه، ومن رحمته وحكمته أن كانوا من البشر، فلو كانوا من الملائكة لم يمكن البشر أن يتلقوا عنهم، ولو جعلهم من الملائكة لعاجل اللَّه المكذبين لهم بالعقاب العاجل.

والمقصود بهذا الكلام الصادر من ثمود لنبيهم صالح، تكذيبه، ولهذا حكموا عليه بهذا الحكم الجائر، فقالوا: ﴿بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌ﴾ أي: كثير الكذب والشر، فقبحهم اللَّه ما أسفه أحلامهم وأظلمهم، وأشدهم مقابلة للصادقين الناصحين بالخطاب الشنيع، لا جرم عاقبهم اللَّه حين اشتد طغيانهم»[٢].

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره- مخبرًا عن قيل مكذّبي رسوله صالح ﷺ من قومه ثمود: أَأُلقي عليه الذكر من بيننا، يعنون بذلك: أنزل الوحي وخصّ بالنبوة من بيننا وهو واحد منا، إنكارًا منهم أن يكون اللَّه يُرسل رسولًا من بني آدم.

وقوله: ﴿بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌ﴾ يقول: قالوا: ما ذلك كذلك، بل هو كذاب أشر،

---

(١) إبراهيم: الآية (١١).

(٢) تيسير الكريم الرحمن (٧/ ٢٣٥-٢٣٦).

يعنون بالأشر: المَرِح ذا التجبّر والكبرياء، والمَرِح من النشاط. .

وقوله: ﴿سَيَعْلَمُونَ غَدًا مَّنِ ٱلْكَذَّابُ ٱلْأَشِرُ ﴿٢٦﴾﴾ يقول -تعالى ذكره-: قال اللَّه لهم: ستعلمون غدًا في القيامة من الكذّاب الأشر منكم معشر ثمود، ومن رسولنا صالح حين تردون على ربكم، وهذا التأويل تأويل من قرأه: (سَتَعْلَمُونَ) بـ(التاء)، وهي قراءة عامة أهل الكوفة سوى عاصم والكسائي. أما تأويل ذلك على قراءة من قرأه بـ(الياء)، وهي قراءة عامة قراء أهل المدينة والبصرة وعاصم والكسائي، فإنه قال الله: ﴿سَيَعْلَمُونَ غَدًا مَّنِ ٱلْكَذَّابُ ٱلْأَشِرُ ﴿٢٦﴾﴾ وترك من الكلام ذكر (قال الله)؛ استغناءً بدلالة الكلام عليه.

والصواب من القول في ذلك عندنا أنهما قراءتان معروفتان، قد قرأ بكل واحدة منهما علماء من القرّاء، فبأيتهما قرأ القارئ فمصيب، لتقارب معنييهما، وصحتهما في الإعراب والتأويل»[١].

* * *

---

(١) جامع البيان (٢٧/ ١٠٠-١٠١).

قوله تعالى: ﴿إِنَّا مُرْسِلُوا۟ ٱلنَّاقَةِ فِتْنَةً لَّهُمْ فَٱرْتَقِبْهُمْ وَٱصْطَبِرْ ﴿٢٧﴾﴾

★ **غريب الآية:**

فارتقبهم: أي: انتظر ما يصنعون.

واصطبر: أي: اصبر على أذاهم.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن عطية: «أخبر اللَّه تعالى صالحًا على جهة التأنيس أنه يخرج لهم الناقة ابتلاءً واختبارًا، ثم أمره بارتقاب الفرج وبالصبر»[1].

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره-: إنا باعثو الناقة التي سألتها ثمود صالحًا.. حجة لصالح على حقيقة نبوته وصدق قوله.

وقوله: ﴿فِتْنَةً لَّهُمْ﴾ يقول: ابتلاءً لهم واختبارًا، هل يؤمنون باللَّه ويتبعون صالحًا ويصدّقونه بما دعاهم إليه من توحيد اللَّه إذا أرسل الناقة، أم يكذّبونه ويكفرون بالله؟

وقوله: ﴿فَٱرْتَقِبْهُمْ﴾ يقول -تعالى ذكره- لصالح: إنّا مرسلو الناقة فتنة لهم، فانتظرهم، وتبصّر ما هم صانعوه بها، ﴿وَٱصْطَبِرْ﴾ يقول له: واصطبر على ارتقابهم ولا تعجل، وانتظر ما يصنعون بناقة الله»[2].

* * *

---

(١) المحرر الوجيز (٥/ ٢١٨).

(٢) جامع البيان (٢٧/ ١٠١).

قوله تعالى: ﴿وَنَبِّئْهُمْ أَنَّ ٱلْمَآءَ قِسْمَةٌۢ بَيْنَهُمْ ۖ كُلُّ شِرْبٍ مُّحْتَضَرٌ ﴿٢٨﴾﴾

★ **غريب الآية:**

شِرب: الشِّرب، بالكسر: الخط من الماء.

محتضَر: أي: يحضره من هو له.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: يقول -تعالى ذكره-: ﴿وَنَبِّئْهُمْ﴾: أخبرهم أن الماء قسمة بينهم، يوم غبّ الناقة، وذلك أنها كانت ترد الماء يومًا، وتغبّ يومًا، فقال جلّ ثناؤه لصالح: أخبر قومك من ثمود أن الماء يوم غبّ الناقة قسمة بينهم، فكانوا يقتسمون ذلك يوم غبها، فيشربون منه ذلك اليوم، ويتزوّدون فيه منه ليوم ورودها.

وقد وجه تأويل ذلك قوم إلى أن الماء قسمة بينهم وبين الناقة يومًا لهم ويومًا لها، وأنه إنما قيل بينهم، والمعنى: ما ذكرت عندهم؛ لأن العرب إذا أرادت الخبر عن فعل جماعة بني آدم مختلطًا بهم البهائم، جعلوا الفعل خارجًا مخرج فعل جماعة بني آدم، لتغليبهم فعل بني آدم على فعل البهائم»[١].

قال الشنقيطي: «وما تضمنته هذه الآية الكريمة جاء موضحًا في آية أخرى، وهي قوله تعالى في (الشعراء): ﴿قَالَ هَٰذِهِۦ نَاقَةٌ لَّهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴿١٥٥﴾﴾[٢] وشرب الناقة هو الذي حذرهم منه صالح لئلا يتعرضوا له في قوله تعالى: ﴿فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ ٱللَّهِ نَاقَةَ ٱللَّهِ وَسُقْيَٰهَا ﴿١٣﴾﴾[٣]»[٤].

قال الجصاص: «قوله تعالى: ﴿وَنَبِّئْهُمْ أَنَّ ٱلْمَآءَ قِسْمَةٌۢ بَيْنَهُمْ﴾ الآية، يدل على جواز المهايأة[٥] على الماء؛ لأنهم جعلوا شرب الماء يومًا للناقة، ويومًا لهم، ويدل أيضًا

---

(١) جامع البيان (٢٧/ ١٠١).
(٢) الشعراء: الآية (١٥٥).
(٣) الشمس: الآية (١٣).
(٤) أضواء البيان (٧/ ٧٢٢-٧٢٣).
(٥) المهايأة: الأمر المهايأ عليه، أي: أمر يتهايأ عليه القوم فيتراضون به، وهي في اصطلاح الفقهاء قسمة المنافع على التعاقب والتناوب.

على أن المهايأة قسمة المنافع؛ لأن اللَّه تعالى قد سمى ذلك قسمة، وإنما هي مهايأة على الماء، لا قسمة الأصل. واحتج محمد بن الحسن بذلك على جواز المهايأة على الماء على هذا الوجه، وهذا يدل من قوله على أنه كان يرى شرائع من كان قبلنا من الأنبياء ثابتة ما لم يثبت نسخها»[١].

قال ابن جرير: «وقوله: ﴿كُلُّ شِرْبٍ مُّحْتَضَرٌ﴾ يقول -تعالى ذكره-: كل شرب من ماء يوم غبّ الناقة، ومن لبن يوم ورودها محتضر يحتضرونه»[٢].

* * *

(١) أحكام القرآن (٣/ ٤١٤).

(٢) جامع البيان (٢٧/ ١٠٢).

قوله تعالى: ﴿فَنَادَوْا صَاحِبَهُمْ فَتَعَاطَىٰ فَعَقَرَ ﴿٢٩﴾﴾

★ **غريب الآية:**

تعاطى: تعاطى الشيء: تناوله وقصد فعله.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره-: فنادت ثمود صاحبهم عاقر الناقة (قدار بن سالف) ليعقر الناقة حضًّا منهم له على ذلك. وقوله: ﴿فَتَعَاطَىٰ فَعَقَرَ﴾ يقول: فتناول الناقة بيده فعقرها»[(١)].

قال الشنقيطي: «قوله: ﴿فَتَعَاطَىٰ﴾: قال أبو حيان في «البحر»: (فتعاطى) هو مطاوع (عاطى)، وكأن هذه الفعلة تدافعها الناس وعاطاها بعضهم بعضًا، فتعاطاها (قدار) وتناول العقر بيده. انتهى محل الغرض منه.

والعرب تقول: تعاطى كذا: إذا فعله أو تناوله، وعاطاه: إذا تناوله، ومنه قول حسان رضي الله عنه:

كلتاهما حلب العصير فعاطني ... بزجاجة أرخاهما للمفصل

وقوله: ﴿فَعَقَرَ﴾ أي: تعاطى عقر الناقة فعقرها، فمفعولا الفعلين محذوفان تقديرهما كما ذكرنا، وعبر عن عاقر الناقة هنا بأنه صاحبهم، وعبر عنه في الشمس بأنه أشقاهم وذلك في قوله: ﴿إِذِ ٱنۢبَعَثَ أَشْقَىٰهَا ﴿١٢﴾﴾[(٢)].

وهذه الآية الكريمة تشير إلى إزالة إشكال معروف في الآية، وإيضاح ذلك أن اللَّه تعالى فيها نسب العقر لواحد لا لجماعة؛ لأنه قال: ﴿فَتَعَاطَىٰ فَعَقَرَ﴾ بالإفراد، مع أنه أسند عقر الناقة في آيات أخر إلى ثمود كلهم كقوله في سورة (الأعراف): ﴿فَعَقَرُوا۟ ٱلنَّاقَةَ وَعَتَوْا۟ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ﴾[(٣)] الآية، وقوله تعالى في (هود): ﴿فَعَقَرُوهَا

---

(١) جامع البيان (٢٧/ ١٠٢). (٢) الشمس: الآية (١٢).
(٣) الأعراف: الآية (٧٧).

﴿فَقَالَ تَمَتَّعُواْ فِي دَارِكُمْ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍۖ﴾[١]، وقوله في (الشعراء): ﴿فَعَقَرُوهَا فَأَصْبَحُواْ نَٰدِمِينَ ۝١٥٧﴾[٢]، وقوله في (الشمس): ﴿فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا﴾[٣].

ووجه إشارة الآية إلى إزالة هذا الإشكال هو أن قوله تعالى: ﴿فَنَادَوْاْ صَاحِبَهُمْ فَتَعَاطَىٰ فَعَقَرَ ۝٢٩﴾ يدل على أن ثمود اتفقوا كلهم على عقر الناقة، فنادوا واحدًا منهم لينفذ ما اتفقوا عليه، أصالة عن نفسه ونيابة عن غيره. ومعلوم أن المتمالئين على العقر كلهم عاقرون، وصحت نسبة العقر إلى المنفذ المباشر للعقر، وصحت نسبته أيضًا إلى الجميع؛ لأنهم متمالئون كما دل عليه ترتيب تعاطي العقر بـ(الفاء) في قوله: ﴿فَتَعَاطَىٰ فَعَقَرَ﴾ على ندائهم صاحبهم لينوب عنهم في مباشرة العقر في قوله تعالى: ﴿فَنَادَوْاْ صَاحِبَهُمْ﴾ أي: نادوه ليعقرها.

وجمع بعض العلماء بين هذه الآيات بوجه آخر، وهو أن إطلاق المجموع مرادًا به بعضه أسلوب عربي مشهور، وهو كثير في القرآن في كلام العرب»[٤].

* * *

(١) هود: الآية (٦٥).

(٢) الشعراء: الآية (١٥٧).

(٣) الشمس: الآية (١٤).

(٤) أضواء البيان (٧/ ٧٢٣-٧٢٤).

قوله تعالى: ﴿فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ۝٣٠﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول -جل ثناؤه- لقريش: فكيف كان عذابي إياهم معشر قريش حين عذّبتهم؟ ألم أهلكهم بالرجفة؟ ﴿وَنُذُرِ﴾: يقول: فكيف كان إنذاري من أنذرت من الأمم بعدهم بما فعلت بهم وأحللت بهم من العقوبة؟»(١).

قال الرازي: «إن هذه الآية ذكرها في ثلاثة مواضع: ذكرها في حكاية نوح بعد بيان العذاب، وذكرها هاهنا قبل بيان العذاب، وذكرها في حكاية عاد قبل بيانه وبعد بيانه، فحيث ذكرها قبل بيان العذاب ذكرها للبيان كما تقول: ضربت فلانًا، أي: ضرب وأيما ضرب، وتقول: ضربته وكيف ضربته، أي: قويًّا، وفي حكاية عاد ذكرها مرتين للبيان والاستفهام، وقد ذكرنا السبب فيه، ففي حكاية نوح ذكر الذي للتعظيم، وفي حكاية ثمود ذكر الذي للبيان؛ لأن عذاب قوم نوح كان بأمر عظيم عام وهو الطوفان الذي عم العالم، ولا كذلك عذاب قوم هود؛ فإنه كان مختصًا بهم»(٢).

* * *

---

(١) جامع البيان (٢٧/ ١٠٢).

(٢) مفاتيح الغيب (٢٩/ ٥٦).

قوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً وَٰحِدَةً فَكَانُوا۟ كَهَشِيمِ ٱلْمُحْتَظِرِ ﴿٣١﴾﴾

★ **غريب الآية:**

هشيم: أي: حطام النبات الذي يتخذه الراعي حظيرة لغنمه.

المحتظِر: الذي يعمل الحظيرة لغنمه.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «قد بيّنّا فيما مضى أمر الصيحة، وكيف أتتهم، وذكرنا ما روي في ذلك من الآثار، فأغنى ذلك عن إعادته في هذا الموضع.

وقوله: ﴿فَكَانُوا۟ كَهَشِيمِ ٱلْمُحْتَظِرِ﴾ يقول -تعالى ذكره-: فكانوا بهلاكهم بالصيحة بعد نضارتهم أحياءً وحسنهم قبل بوارهم كيبس الشجر الذي حظرته بحظير حظرته بعد حُسن نباته، وخضرة ورقه قبل يُبسه.

وقد اختلف أهل التأويل في المعنيّ بقوله: ﴿كَهَشِيمِ ٱلْمُحْتَظِرِ﴾، فقال بعضهم: عني بذلك: العظام المحترقة، وكأنهم وجّهوا معناه إلى أنه مَثَّل هؤلاء القوم بعد هلاكهم وبلائهم بالشيء الذي أحرقه محرق في حظيرته.. وقال آخرون: بل عني بذلك التراب الذي يتناثر من الحائط.. وقال آخرون: بل هو حظيرة الراعي للغنم.. وقال آخرون: بل عني به هشيم الخيمة، وهو ما تكسر من خشبها.. وقال آخرون: بل هو الورق الذي يتناثر من خشب الحطب»[1].

* * *

(١) جامع البيان (٢٧/ ١٠٣-١٠٤).

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿٣٢﴾﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره-: ولقد هوّنّا القرآن بيّنّاه ﴿لِلذِّكْرِ﴾: يقول: لمن أراد أن يتذكر به فيتعظ، ﴿فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾ يقول: فهل من متّعظ به ومعتبر فيعتبر به، فيرتدع عما يكرهه اللَّه منه»[(١)].

قال صديق حسن خان: «فائدة تكرير هذه الآية أن يجددوا عند استماع كل نبإ من أنباء الأولين اذكارًا واتعاظًا وأن يستأنفوا تيقظًا وانتباهًا إذا سمعوا، والحث على ذلك والبعث إليه، وكذلك تكرير الأنباء والقصص في أنفسها، لتكون تلك العبرة حاضرة للقلوب، مصورة للأذهان، مذكورة غير منسية في كل أوان»[(٢)].

* * *

---

(١) جامع البيان (٢٧/ ١٠٤).

(٢) فتح البيان (١٣/ ٣٠٢).

قوله تعالى : ﴿ كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ بِالنُّذُرِ ﴿٣٣﴾ إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِبًا إِلَّا آلَ لُوطٍ نَجَّيْنَاهُم بِسَحَرٍ ﴿٣٤﴾ نِعْمَةً مِنْ عِندِنَا كَذَلِكَ نَجْزِي مَن شَكَرَ ﴿٣٥﴾ وَلَقَدْ أَنذَرَهُم بَطْشَتَنَا فَتَمَارَوْا بِالنُّذُرِ ﴿٣٦﴾ وَلَقَدْ رَاوَدُوهُ عَن ضَيْفِهِ فَطَمَسْنَا أَعْيُنَهُمْ فَذُوقُوا عَذَابِي وَنُذُرِ ﴿٣٧﴾ ﴾

★ **غريب الآية:**

حاصبًا : أي : ريحًا شديدة تثير الحصباء، وهي الحصى . قال القطامي :

تَمُرُّ كَمَرِّ الريحِ في كل غَمْرَةٍ وَيَكْتَحِلُ التالي بمورٍ وحاصبِ

بسَحَر : السَّحَر : هو ما بين آخر الليل وطلوع الفجر، وهو اختلاط سواد الليل ببياض أول النهار؛ لأن في هذا الوقت يكون مخاييل الليل ومخاييل النهار .

بطشتنا : أي : عقوبتنا وأخذنا إيّاهم بالعذاب .

فتماروا : أي : شكوا فيما أنذرهم به الرسول ولم يصدّقوه، وهو تفاعل من المرية .

ولقد راودوه : أي : أرادوا منه تمكينهم ممن كان أتاه من الملائكة في هيئة الأضياف طلبا للفاحشة، يقال : راوتده على كذا مراودة ورِوادًا، أي : أردته . وراد الكلأ يروده رودًا وريادًا، وارتاده ارتيادًا بمعنىً، أي : طلبه .

طمسنا أعينهم : أعميناهم وأزلنا أثرها .

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن كثير : «يقول تعالى مخبرًا عن قوم لوط كيف كذبوا رسولهم وخالفوه، وارتكبوا المكروه من إتيان الذكور، وهي الفاحشة التي لم يسبقهم بها أحد من العالمين؛ ولهذا أهلكهم الله هلاكًا لم يهلكه أمة من الأمم، فإنه تعالى أمر جبريل عليه السلام ، فحمل مدائنهم حتى وصل بها إلى عنان السماء، ثم قلبها عليهم وأرسلها ،

وأتبعت بحجارة من سجيل منضود؛ ولهذا قال هاهنا: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِبًا﴾ وهي الحجارة، ﴿إِلَّآ ءَالَ لُوطٍۖ نَّجَّيْنَٰهُم بِسَحَرٍ﴾ أي: خرجوا من آخر الليل فنجوا مما أصاب قومهم، ولم يؤمن بلوط من قومه أحد ولا رجل واحد حتى ولا امرأته، أصابها ما أصاب قومها، وخرج نبي اللَّه لوط وبنات له من بين أظهرهم سالمًا لم يمسسه سوء؛ ولهذا قال تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ نَجْزِي مَن شَكَرَ ﴿٣٥﴾ وَلَقَدْ أَنذَرَهُم بَطْشَتَنَا﴾ أي: ولقد كان قبل حلول العذاب بهم قد أنذرهم بأس اللَّه وعذابه، فما التفتوا إلى ذلك، ولا أصغوا إليه، بل شكوا فيه وتماروا به، ﴿وَلَقَدْ رَٰوَدُوهُ عَن ضَيْفِهِۦ﴾، وذلك ليلة ورد عليه الملائكة: جبريل، وميكائيل، وإسرافيل في صورة شباب مرد حسان محنة من اللَّه بهم، فأضافهم لوط عليه السلام، وبعثت امرأته العجوز السوءُ إلى قومها، فأعلمتهم بأضياف لوط، فأقبلوا يُهرَعون إليه من كل مكان، فأغلق لوط دونهم الباب، فجعلوا يحاولون كسر الباب، وذلك عشية، ولوط عليه السلام يدافعهم ويمانعهم دون أضيافه، ويقول لهم: ﴿هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِي﴾ يعني: نساءهم، ﴿إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ﴾[(1)]، ﴿قَالُواْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ﴾ أي: ليس لنا فيهن أرب، ﴿وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ﴾[(2)]»[(3)].

قال ابن جرير: «﴿فَطَمَسْنَآ أَعْيُنَهُمْ﴾ يقول: فطمسنا على أعينهم حتى صيّرناها كسائر الوجه لا يرى لها شقّ، فلم يبصروا ضيفه. والعرب تقول: قد طمست الريح الأعلام: إذا دفنتها بما تسفي عليها من التراب، كما قال كعب بن زهير:

من كل نضّاخة الذّفرى إذا اعترقت ... عُرضتُها طامسُ الأعلام مجهولُ

يعني بقوله: طامس الأعلام: مندفن الأعلام»[(4)].

وقال: «وقوله: ﴿فَذُوقُواْ عَذَابِي وَنُذُرِ﴾ يقول -تعالى ذكره-: فذوقوا معشر قوم لوط من سدوم، عذابي الذي حلّ بكم، وإنذاري الذي أنذرت به غيركم من الأمم من النكال والمثلات»[(5)].

---

(١) الحجر: الآية (٧١).

(٢) هود: الآية (٧٩).

(٣) تفسير القرآن العظيم (٧/ ٤٨٠).

(٤) جامع البيان (٢٧/ ١٠٥).

(٥) المصدر السابق (٢٧/ ١٠٦).

قال الرازي في قوله: ﴿وَلَقَدْ أَنذَرَهُم بَطْشَتَنَا فَتَمَارَوْا بِالنُّذُرِ ﴿٣٦﴾﴾ قال: فيه تبرئة لوط عليه السلام، وبيان أنه أتى بما عليه؛ فإنه تعالى لما رتب التعذيب على التكذيب، وكان من الرحمة أن يؤخره ويقدم عليه الإنذارات البالغة بين ذلك، فقال: أهلكناهم، وكان قد أنذرهم من قبل»[1].

* * *

(١) مفاتيح الغيب (٢٩/ ٦٠).

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ صَبَّحَهُم بُكْرَةً عَذَابٌ مُّسْتَقِرٌّ ۝٣٨﴾

★ **غريب الآية:**

بُكرة: البُكرة: أول النهار.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره-: ولقد صُبِّح قوم لوط ﴿بُكْرَةً﴾ ذكر أن ذلك كان عند طلوع الفجر..

وقوله: ﴿عَذَابٌ﴾ وذلك قلب الأرض بهم، وتصيير أعلاها أسفلها بهم، ثم إتباعهم بحجارة من سجيل منضود..

وقوله: ﴿مُّسْتَقِرٌّ﴾ يقول: استقر ذلك العذاب فيهم إلى يوم القيامة حتى يوافوا عذاب اللَّه الأكبر في جهنم»[1].

* * *

---

(١) جامع البيان (٢٧/ ١٠٦).

قوله تعالى : ﴿فَذُوقُوا عَذَابِي وَنُذُرِ ۝٣٩﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير : «يقول -تعالى ذكره- لهم : فذوقوا معشر قوم لوط عذابي الذي أحللته بكم، بكفركم بالله وتكذيبكم رسوله، وإنذاري بكم الأمم سواكم، بما أنزلته بكم من العقاب»[١].

* * *

(١) جامع البيان (٢٧/ ١٠٧).

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدۡ يَسَّرۡنَا ٱلۡقُرۡءَانَ لِلذِّكۡرِ فَهَلۡ مِن مُّدَّكِرٖ ﴿٤٠﴾﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره-: ولقد سهّلنا القرآن للذكر لمن أراد التذكر به، فهل من متعظ ومعتبر به فينزجر به عما نهاه اللَّه عنه إلى ما أمره به وأذن له فيه»[1].

قال صديق حسن خان: «لعل وجه تكرير تيسير القرآن بالذكر في هذه السورة الإشعار بأنه منة عظيمة لا ينبغي لأحد أن يغفل عن شكرها؛ ولأن في كل قصة إشهارًا بأن تكذيب كل رسول مقتضٍ لنزول العذاب، واستماع كل قصة مستدعٍ للادّكار والاتّعاظ، وهذا حكم التكرير في قوله: ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾[2] عندَ كل آية أوردها، وكذلك تكرير الأنباء والقصص في أنفسها لتكون تلك العبرة حاضرة للقلوب مصورة للأذهان، مذكورة غير منسية في كل أوان»[3].

* * *

(١) جامع البيان (٢٧/ ١٠٧).

(٢) سورة (الرحمن).

(٣) فتح البيان (١٣/ ٣٠٤).

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَآءَ ءَالَ فِرْعَوْنَ ٱلنُّذُرُ ۝٤١ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا كُلِّهَا فَأَخَذْنَٰهُمْ أَخْذَ عَزِيزٍ مُّقْتَدِرٍ ۝٤٢﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره-: ولقد جاء أتباع فرعون وقومه إنذارنا بالعقوبة بكفرهم بنا وبرسولنا موسى ﷺ، ﴿كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا كُلِّهَا﴾ يقول جل ثناؤه: كذّب آل فرعون بأدلتنا التي جاءتهم من عندنا، وحججنا التي أتتهم بأنه لا إله إلا اللّه وحده كلها، ﴿فَأَخَذْنَٰهُمْ أَخْذَ عَزِيزٍ مُّقْتَدِرٍ﴾ يقول -تعالى ذكره-: فعاقبناهم بكفرهم باللّه عقوبة شديد لا يغلب، مقتدر على ما يشاء، غير عاجز ولا ضعيف»[1].

قال الألوسي: «صدرت قصتهم بالتوكيد القسمي لإبراز كمال الاعتناء بشأنها لغاية عظم ما فيها من الآيات وكثرتها وهول ما لاقوه من العذاب، وقوة إيجابها للاتعاظ. والاكتفاء بذكر آل فرعون للعلم بأن نفسه أولى بذلك؛ فإنه رأس الطغيان ومدعي الألوهية، والقول بأنه إشارة إلى إسلامه مما لا يلتفت إليه»[2].

قال الشنقيطي: «تضمنت هاتان الآيتان ثلاثة أمور: الأول: أن آل فرعون جاءتهم النذر. الثاني: أنهم كذبوا بآيات اللّه. الثالث: أن اللّه أخذهم أخذ عزيز مقتدر.

وهذه الأمور الثلاثة المذكورة هنا جاءت موضحة في آيات أخر من كتاب اللّه، أما الأول منها وهو أن آل فرعون وقومه جاءهم النذر، فقد أوضحه تعالى في آيات كثيرة من كتابه. اعلم أولًا أن قوله: ﴿جَآءَ ءَالَ فِرْعَوْنَ ٱلنُّذُرُ﴾، قيل: هو جمع نذير وهو الرسول. وقيل: هو مصدر بمعنى الإنذار.

فعلى أنه مصدر، فقد بينت الآيات القرآنية بكثرة أن الذي جاءهم بذلك الإنذار

(١) جامع البيان (٢٧/ ١٠٧).
(٢) روح المعاني (٢٧/ ٩١).

هو موسى وهارون، وعلى أنه جمع (نذير)، أي: منذر، فالمراد به موسى وهارون، وقد جاء في آيات كثيرة إرسال موسى وهارون لفرعون كقوله تعالى في (طه): ﴿فَأْتِيَاهُ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَلَا تُعَذِّبْهُمْ ۖ قَدْ جِئْنَٰكَ بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكَ ۖ﴾(١). ثم بين تعالى إنذارهما له في قوله: ﴿إِنَّا قَدْ أُوحِىَ إِلَيْنَآ أَنَّ ٱلْعَذَابَ عَلَىٰ مَن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴿٤٨﴾﴾(٢) ونحوها من الآيات.

وفي هذه الآية سؤال معروف: وهو أن اللَّه تبارك وتعالى أرسل لفرعون نبيين هما موسى وهارون، كما قال تعالى: ﴿فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦﴾﴾(٣)، وهنا جمع النذر في قوله: ﴿وَلَقَدْ جَآءَ ءَالَ فِرْعَوْنَ ٱلنُّذُرُ ﴿٤١﴾﴾.

وللعلماء عن هذا أجوبة: أحدها: أن أقل الجمع اثنان، كما هو المقرر في أصول مالك بن أنس رَحِمَهُ ٱللَّهُ، وعقده صاحب «مراقي السعود» بقوله:

أقل معنى الجمع في المشتهر   لاثنان في رأي الإمام الحمير

قالوا: ومنه قوله تعالى: ﴿فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا ۖ﴾(٤) ولهما قلبان فقط، وقوله: ﴿فَإِن كَانَ لَهُۥٓ إِخْوَةٌ فَلِأُمِّهِ ٱلسُّدُسُ ۚ﴾(٥)، والمراد بالإخوة اثنان فصاعدًا كما عليه الصحابة فمن بعدهم خلافًا لابن عباس، وقوله: ﴿وَأَطْرَافَ ٱلنَّهَارِ﴾(٦) وله طرفان. ومنها ما ذكره الزمخشري وغيره من أن المراد بالنذر موسى وهارون وغيرهما من الأنبياء؛ لأنهما عرضا عليهم ما أنذر به المرسلون. ومنها أن النذر مصدر بمعنى الإنذار.

قال مقيده عفا اللَّه عنه وغفر له: التحقيق في الجواب: أن من كذب رسولًا واحدًا فقد كذب جميع المرسلين، ومن كذب نذيرًا واحدًا فقد كذب جميع النذر؛ لأن أصل دعوة جميع الرسل واحدة، وهي مضمون (لا إله إلا الله) كما أوضحه تعالى بقوله: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ ۖ﴾(٧)،

(١) طه: الآية (٤٧).
(٢) طه: الآية (٤٨).
(٣) الشعراء: الآية (١٦).
(٤) التحريم: الآية (٤).
(٥) النساء: الآية (١١).
(٦) طه: الآية (١٣٠).
(٧) النحل: الآية (٣٦).

وقوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ ﴿٢٥﴾﴾[١]، وقوله تعالى: ﴿وَسْـَٔلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَآ أَجَعَلْنَا مِن دُونِ ٱلرَّحْمَٰنِ ءَالِهَةً يُعْبَدُونَ ﴿٤٥﴾﴾[٢].

وأوضح تعالى أن من كذب بعضهم فقد كذب جميعهم في قوله تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُوا۟ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ﴿١٥٠﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ حَقًّا﴾[٣] الآية، وأشار إلى ذلك في قوله: ﴿لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦ﴾[٤]، وقوله: ﴿لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ﴾[٥]، وقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَلَمْ يُفَرِّقُوا۟ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ أُو۟لَٰٓئِكَ سَوْفَ يُؤْتِيهِمْ أُجُورَهُمْ﴾[٦] الآية.

وقد أوضح تعالى في سورة (الشعراء) أن تكذيب رسول واحد تكذيب لجميع الرسل، وذلك في قوله: ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٠٥﴾﴾[٧]، ثم بين أن تكذيبهم للمرسلين إنما وقع بتكذيبهم نوحًا وحده، حيث فرد ذلك بقوله: ﴿إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٠٦﴾﴾ إلى قوله: ﴿قَالَ رَبِّ إِنَّ قَوْمِى كَذَّبُونِ ﴿١١٧﴾﴾[٨]، وقوله تعالى: ﴿كَذَّبَتْ عَادٌ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٢٣﴾﴾[٩]، ثم بين أن ذلك بتكذيب هود وحده، حيث فرده بقوله: ﴿إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ هُودٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٢٤﴾﴾[١٠]، ونحو ذلك في قوله تعالى في قصة صالح وقومه، ولوط وقومه، وشعيب وأصحاب الأيكة، كما هو معلوم، وهو واضح لا خفاء فيه، ويزيده إيضاحًا قوله ﷺ: **«إنا معاشر الأنبياء أولاد علات ديننا واحد»**[١١] يعني أنهم كلهم متفقون في الأصول وإن اختلفت شرائعهم في بعض الفروع.

وأما الأمر الثاني: وهو كون فرعون وقومه كذبوا بآيات الله، فقد جاء موضحًا في آيات أخر كقوله تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِۦ مِنْ ءَايَةٍ لِّتَسْحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ

---

(١) الأنبياء: الآية (٢٥).
(٢) الزخرف: الآية (٤٥).
(٣) النساء: الآيتان (١٥٠و١٥١).
(٤) البقرة: الآية (٢٨٥).
(٥) البقرة: الآية (١٣٦).
(٦) النساء: الآية (١٥٢).
(٧) الشعراء: الآية (١٠٥).
(٨) الشعراء: الآيات (١٠٦-١١٧).
(٩) الشعراء: الآية (١٢٣).
(١٠) الشعراء: الآية (١٢٤).
(١١) أخرجه: أحمد (٢/ ٣١٩)، والبخاري (٦/ ٥٩٠-٥٩١/ ٣٤٤٣)، ومسلم (٤/ ١٨٣٧/ ٢٣٦٥)، وأبو داود (٥/ ٥٥/ ٤٦٧٥) من حديث أبي هريرة ﷺ.

بِمُؤْمِنِينَ﴾[١]، وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا كُلَّهَا فَكَذَّبَ وَأَبَىٰ ۝٥٦﴾[٢]، وقوله تعالى: ﴿فَأَرَىٰهُ ٱلْءَايَةَ ٱلْكُبْرَىٰ ۝٢٠ فَكَذَّبَ وَعَصَىٰ ۝٢١﴾[٣]، وقوله تعالى: ﴿وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِى جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ ۖ فِى تِسْعِ ءَايَٰتٍ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِۦٓ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ۝١٢ فَلَمَّا جَآءَتْهُمْ ءَايَٰتُنَا مُبْصِرَةً قَالُوا۟ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ۝١٣ وَجَحَدُوا۟ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا ۚ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ ۝١٤﴾[٤].

وأما الأمر الثالث وهو قوله تعالى: ﴿فَأَخَذْنَٰهُمْ أَخْذَ عَزِيزٍ مُّقْتَدِرٍ﴾، فقد جاء موضحًا في آيات أخر من كتاب اللَّه كقوله تعالى: ﴿وَفِى مُوسَىٰٓ إِذْ أَرْسَلْنَٰهُ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ۝٣٨﴾[٥] إلى قوله: ﴿فَأَخَذْنَٰهُ وَجُنُودَهُۥ فَنَبَذْنَٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ وَهُوَ مُلِيمٌ ۝٤٠﴾[٦]، وقوله تعالى: ﴿فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ بِجُنُودِهِۦ فَغَشِيَهُم مِّنَ ٱلْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ ۝٧٨﴾[٧]، وقوله تعالى: ﴿وَأَغْرَقْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ﴾[٨] إلى غير ذلك من الآيات.

وقوله: ﴿فَأَخَذْنَٰهُمْ أَخْذَ عَزِيزٍ مُّقْتَدِرٍ﴾ يوضحه قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِىَ ظَٰلِمَةٌ ۚ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ۝١٠٢﴾[٩]. وقد روى الشيخان في صحيحيهما عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «**إن اللَّه ليملي للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته. ثم تلا قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ﴾ الآية**»[١٠][١١].

قال الألوسي: «زعم بعض غلاة الشيعة -وهم المسمّون بـ(الكشفية) في زماننا- أن المراد بالآيات كلها علي رضي الله عنه؛ فإنه الإمام المبين المذكور في قوله تعالى: ﴿وَكُلَّ شَىْءٍ أَحْصَيْنَٰهُ فِىٓ إِمَامٍ مُّبِينٍ﴾[١٢]، وأنه رضي الله عنه ظهر مع موسى عليه السلام لفرعون وقومه فلم يؤمنوا. وهذا من الهذيان بمكان، نسأل اللَّه تعالى العفو والعافية»[١٣].

---

(١) الأعراف: الآية (١٣٢).
(٢) طه: الآية (٥٦).
(٣) النازعات: الآيتان (٢٠و٢١).
(٤) النمل: الآيات (١٢-١٤).
(٥) الذاريات: الآية (٣٨).
(٦) الذاريات: الآية (٤٠).
(٧) طه: الآية (٧٨).
(٨) البقرة: الآية (٥٠).
(٩) هود: الآية (١٠٢).
(١٠) أخرجه: البخاري (٨/ ٤٥١/ ٤٦٨٦)، ومسلم (٤/ ١٩٩٧-١٩٩٨/ ٢٥٨٣)، والترمذي (٥/ ٢٦٩/ ٣١١٠)، والنسائي في الكبرى (٦/ ٣٦٥/ ١١٢٤٥)، وابن ماجه (٢/ ١٣٣٢/ ٤٠١٨).
(١١) أضواء البيان (٧/ ٧٢٥-٧٢٩).
(١٢) يس: الآية (١٢).
(١٣) روح المعاني (٢٧/ ٩١).

قوله تعالى: ﴿أَكُفَّارُكُمْ خَيْرٌ مِّنْ أُوْلَٰٓئِكُمْ أَمْ لَكُم بَرَآءَةٌ فِي ٱلزُّبُرِ ﴿٤٣﴾﴾

★ غريب الآية:

الزُّبُر: الكتب. واحدها: زبور.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره- لكفار قريش الذين أخبر اللَّه عنهم أنهم ﴿وَإِن يَرَوْاْ ءَايَةً يُعْرِضُواْ وَيَقُولُواْ سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ ﴿٢﴾﴾[1]: أكفاركم معشر قريش خير من أولئكم الذين أحللت بهم نقمتي من قوم نوح وعاد وثمود وقوم لوط وآل فرعون، فهم يأملون أن ينجوا من عذابي، ونقمي على كفرهم بي، وتكذيبهم رسولي. يقول: إنما أنتم في كفركم باللَّه وتكذيبهم رسوله، كبعض هذه الأمم التي وصفت لكم أمرهم، وعقوبة اللَّه بكم نازلة على كفركم به، كالذي نزل بهم إن لم تتوبوا وتنيبوا»[2].

وقال: وقوله: ﴿أَمْ لَكُم بَرَآءَةٌ فِي ٱلزُّبُرِ﴾ يقول -جل ثناؤه-: أم لكم براءة من عقاب اللَّه معشر قريش، أن يصيبكم بكفركم بما جاءكم به الوحي من اللَّه في الزبر، وهي الكتب»[3].

* * *

(١) القمر: الآية (٢).
(٢) جامع البيان (٢٧/ ١٠٧).
(٣) المصدر السابق (٢٧/ ١٠٨).

قوله تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُّنتَصِرٌ ﴿٤٤﴾ سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ ﴿٤٥﴾﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره-: أيقول هؤلاء الكفار من قريش: ﴿نَحْنُ جَمِيعٌ مُّنتَصِرٌ﴾ ممّن قَصَدنا بسوء ومكروه، وأراد حربنا وتفريق جمعنا، فقال اللّٰه جلّ ثناؤه: ﴿سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ﴾ يعني جمع كفار قريش، ﴿وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ﴾ يقول: ويولون أدبارهم المؤمنين باللّٰه عند انهزامهم عنه. وقيل: ﴿الدُّبُرَ﴾ فوحّد والمراد به الجمع، كما يقال: ضربنا منهم الرأس، أي: ضربنا منهم الرؤوس؛ إذ كان الواحد يؤدي عن معنى جمعه، ثم إن اللّٰه -تعالى ذكره- صدّق وعده المؤمنين به، فهزم المشركين به من قريش يوم بدر، وولّوهم الدبر»(١).

قال الرازي: «﴿جَمِيعٌ﴾ فيه فائدتان: إحداهما الكثرة والأخرى الاتفاق، كأنه قال: نحن كثير متفقون فلنا الانتصار، ولا يقوم غير هذه اللفظة مقامها من الألفاظ المفردة، إنما قلنا: إن فيه فائدتين؛ لأن الجمع يدل على الجماعة بحروفه الأصلية من ج م ع، وبوزنه وهو (فَعيل) بمعنى (مفعول) على أنهم جمعوا جمعيتهم العصبية، ويحتمل أن يقال: معناه: نحن الكل لا خارج عنا؛ إشارة إلى أن من اتبع النبي ﷺ لا اعتداد به. قال تعالى في نوح: ﴿أَنُؤْمِنُ لَكَ وَاتَّبَعَكَ الْأَرْذَلُونَ﴾(٢)، ﴿إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِيَ الرَّأْيِ﴾(٣)، وعلى هذا ﴿جَمِيعٌ﴾ يكون التنوين فيه لقطع الإضافة، كأنهم قالوا: نحن جمع الناس»(٤).

وقال: «لم يقل: يولون الأدبار، وقال في موضع آخر: ﴿يُوَلُّوكُمُ الْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا

---

(١) جامع البيان (٢٧/ ١٠٨).
(٢) الشعراء: الآية (١١١).
(٣) هود: الآية (٢٧).
(٤) مفاتيح الغيب (٢٩/ ٦٨).

يُنصَرُونَ﴾[١]، وقال: ﴿وَلَقَدْ كَانُوا۟ عَـٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ مِن قَبْلُ لَا يُوَلُّونَ ٱلْأَدْبَـٰرَ﴾[٢]، وقال في موضع آخر: ﴿فَلَا تُوَلُّوهُمُ ٱلْأَدْبَارَ﴾[٣]، فكيف تصحيح الإفراد، وما الفرق بين المواضع؟

نقول: أما التصحيح فظاهر؛ لأن قول القائل: فعلوا، كقوله: فعل هذا وفعل ذاك وفعل الآخر. قالوا: وفي الجمع تنوب مناب الواوات التي في العطف، وقوله: ﴿يُوَلُّونَ﴾ بمثابة يول هذا الدبر ويول ذاك ويول الآخر، أي: كل واحد يولي دبره.

وأما الفرق فنقول: اقتضاء أواخر الآيات حسن الإفراد، فقوله: ﴿وَيُوَلُّونَ ٱلدُّبُرَ﴾ إفراده إشارة إلى أنهم في التولية كنفس واحدة، فلا يتخلف أحد عن الجمع، ولا يثبت أحد للزحف، فهم كانوا في التولية كدبر واحد، وأما في قوله: ﴿فَلَا تُوَلُّوهُمُ ٱلْأَدْبَارَ﴾ أي: كل واحد يوجد به ينبغي أن يثبت ولا يولي دبره، فليس المنهي هناك توليتهم بأجمعهم؛ بل المنهي أن يولي واحد منهم دبره، فكل أحد منهي عن تولية دبره، فجعل كل واحد برأسه في الخطاب ثم جمع الفعل بقوله: ﴿فَلَا تُوَلُّوهُمُ﴾، ولا يتم إلا بقوله: ﴿ٱلْأَدْبَارَ﴾، وكذلك في قوله: ﴿وَلَقَدْ كَانُوا۟ عَـٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ﴾[٤] أي: كل واحد قال: أنا أثبت ولا أولي دبري، وأما في قوله: ﴿لَيُوَلُّنَّ ٱلْأَدْبَـٰرَ﴾[٥] فإن المراد المنافقون الذين وعدوا اليهود وهم متفرقون؛ بدليل قوله تعالى: ﴿تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّىٰ﴾[٦]، وأما في هذا الموضع فهم كانوا يدًا واحدة على من سواهم»[٧].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في تحقيق ما وعد الله به رسوله في هذه الآية

* عن ابن عباس رضي الله عنهما: «أن رسول الله ﷺ قال وهو في قبة يوم بدر: **اللهم إني**

---

(١) آل عمران: الآية (١١١).
(٢) الأحزاب: الآية (١٥).
(٣) الأنفال: الآية (١٥).
(٤) الأحزاب: الآية (١٥).
(٥) الحشر: الآية (١٢).
(٦) الحشر: الآية (١٤).
(٧) المصدر السابق (٢٩/ ٦٨-٦٩).

أنشدك عهدك ووعدك، اللهم إن تشأ لا تعبد بعد اليوم، فأخذ أبو بكر بيده فقال: حسبك يا رسول اللَّه، ألححت على ربك، وهو يثب في الدرع، فخرج وهو يقول: ﴿سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ ﴿٤٥﴾﴾»[١].

★ غريب الحديث:

قبة: المراد بها العريش الذي اتخذه الصحابة لجلوس النبي ﷺ فيه.

أنشدك: «بفتح الهمزة وسكون النون والمعجمة وضم الدال أي: أطلب منك وأسألك».

يثب في الدرع: وَثَبَ وثبًا من باب وَعَدَ: قَفَزَ، ووُثُوبًا ووثيبًا، فهو وثاب، ويتعدى بالهمزة فيقال: أوثبته ووثبته، بمعنى: ساورته، من الوثوب، والعامة تستعمله بمعنى المبارزة والمسارعة.

★ فوائد الحديث:

قال ابن كثير: «وهذه الآية مكية وقد جاء تصديقها يوم بدر كما رواه ابن أبي حاتم: حدثنا أبي حدثنا أبو الربيع الزهراني حدثنا حماد عن أيوب عن عكرمة قال: لما نزلت: ﴿سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ ﴿٤٥﴾﴾ قال عمر: أي جمع يهزم وأي جمع يغلب؟ قال عمر: فلما كان يوم بدر رأيت رسول اللَّه ﷺ يثب في الدرع وهو يقول: ﴿سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ ﴿٤٥﴾ بَلِ السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَالسَّاعَةُ أَدْهَىٰ وَأَمَرُّ ﴿٤٦﴾﴾ فعرفت تأويلها يومئذ»[٢].

قال ابن عطية: «الجمهور على أن الآية مكية.. [و] إنما كان رسول اللَّه ﷺ في بدر مستشهدًا بالآية»[٣].

قلت: وفي تلاوته ﷺ هذه الآية يوم بدر قبل قتال المشركين إيماء إلى تحقيق وعد اللَّه بهذا بهم في الدنيا»[٤].

---

(١) أخرجه: أحمد (١/ ٣٢٩)، والبخاري (٨/ ٧٩٦/ ٤٨٧٥) واللفظ له، والنسائي في الكبرى (٦/ ٤٧٧/ ١١٥٥٧).

(٢) السيرة النبوية (٢/ ٤٢٠).

(٣) المحرر الوجيز (٥/ ٢٢٠).

(٤) كلام ابن عاشور في التحرير والتنوير (٢٧/ ٢١٣).

قال القرطبي: «وهذا من معجزات النبي ﷺ، لأنه أخبر عن غيب فكان كما أخبر»[1].

وقوله: **«اللهم أنشدك عهدك ووعدك»** في رواية: **«اللهم أنجز لي ما وعدتني»**:

قال ابن جرير الطبري: «معناه أنه وعده بوعد غير محين في وقت معلوم، فطلب من اللَّه تعالى أن ينجز له الوعد في هذا المقام».

قال ابن هبيرة الوزير: «ولا أرى الجواب ما ذكره؛ لأن رسول اللَّه ﷺ سبق الوحي إليه بأنه المنصور في غزوة بدر بقوله تعالى: ﴿وَإِذْ يَعِدُكُمُ ٱللَّهُ إِحْدَى ٱلطَّآئِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ﴾[2] وإذ هي اسم معلق بالماضي من الزمان، وقول اللَّه تعالى لرسوله: ﴿إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَن يَكْفِيَكُمْ أَن يُمِدَّكُمْ رَبُّكُم بِثَلَٰثَةِ ءَالَٰفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُنزَلِينَ ﴿١٢٤﴾ بَلَىٰٓ ۚ إِن تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَٰذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُم بِخَمْسَةِ ءَالَٰفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُسَوِّمِينَ ﴿١٢٥﴾ وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُم بِهِۦ ۗ وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ﴿١٢٦﴾﴾[3]، وهذا كله بصريح نطقه يدل على أنه كان نزوله قبل وقعة بدر، فكيف يظن برسول اللَّه ﷺ أنه يرتاب أو يشك فيما وعده اللَّه به من النصر يوم بدر بعد نزول هذه الآيات؟، وقد بعث معه نجدة هي خمسة آلاف ملك، وواحد منهم بأمر اللَّه يكفي جيوش الأرض كلها، فلم يدع رسول اللَّه ﷺ بما دعا إلا وهو على يقين من أنه هو المنصور في ذلك اليوم، وإنما كان دعاؤه -عليه الصلاة والسلام- لفائدة سنذكرها فيما بعد إن شاء اللَّه تعالى»[4].

وقال أيضًا: «وأما ما دعا به رسول اللَّه ﷺ من قوله في رواية أخرى: **«أنجز لي ما وعدتني»** ففي الحديث أنه كان يهتف بربه، ومعنى يهتف: يدعو دعاءً رافعًا به صوته، وذلك أنه ﷺ أراد أن يجدد ذكر أن وعده اللَّه بحيث يسمع المسلمين فيكونون شهودًا له بأنه قال لله ﷻ: **«أنجز لي ما وعدتني»**، فيكون تصديقًا لما أخبرهم به من وعد اللَّه ﷻ بالنصر، حتى إذا نصره اللَّه ﷻ ثبت عند الكل أنه هو

---

(١) الجامع لأحكام القرآن (١٧/ ١٤٦).

(٢) الأنفال: الآية (٧).

(٣) آل عمران: الآيات (١٢٤-١٢٦).

(٤) الإفصاح (١/ ٢٠٤-٢٠٥).

الذي وعده أولًا، وهو الذي أنجز له الموعد الأول ثانيًا، فيكون على شبيه الكتاب إذا ثبت من ديوان الحكم ثم سجل به»[١].

قلت: وذكر الخطابي حكمة أخرى فقال: «قد بينا أن ابتهال النبي ﷺ في الدعاء يوم بدر ومناشدته ربه إنما كان من أصحابه لتسكن إلى ذاك نفوسهم وتطمئن قلوبهم؛ إذ كان بدر أول يوم لقوا فيه العدو، وكان المسلمون في قلة من العدد، ورثاثة من الحال، وأعداؤهم في وفور من العدد والعدة، وكانوا يثقون بأنه إذا دعا اللَّه وابتهل أجيب، فكان مناشدته ربه وإلحاحه في الدعاء لذاك، فلما رأى ﷺ أبا بكر قد سكن إلى ذلك وقد قال له: حسبك، أقصر عن الدعاء وأقبل يبشرهم بالنصر، وتلا قوله: ﴿سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ ﴿٤٥﴾﴾، ولولا أن الأمر على ما تأولناه لكان أبو بكر أصح يقينًا منه وأقوى عزيمة، وهذا ما لا يجوز لمسلم أن يتوهمه بوجه»[٢].

قال الإمام السهيلي: «وأما شدة اجتهاد النبي ﷺ ونصبه في الدعاء، فإنه رأى الملائكة تنصب في القتال، وجبريل على ثناياه الغبار، وأنصار اللَّه يخوضون غمار الموت، والجهاد على ضربين: جهاد بالسيف وجهاد بالدعاء، ومن سنة الإمام أن يكون من وراء الجند لا يقاتل معهم، فكان الكل في اجتهاد وجدّ، ولم يكن ليريح نفسه من أحد الجدين والجهادين، وأنصار اللَّه وملائكته يجتهدون، ولا ليؤثر الدعة، وحزب اللَّه مع أعدائه يجتلدون»[٣].

* عن ابن مسعود رضي الله عنه حدث «عن سعد بن معاذ أنه قال: كان صديقًا لأمية بن خلف، وكان أمية إذا مر بالمدينة نزل على سعد، وكان سعد إذا مر بمكة نزل على أمية، فلما قدم رسول اللَّه ﷺ المدينة انطلق سعد معتمرًا، فنزل على أمية بمكة، فقال لأمية: انظر لي ساعة خلوة لعلي أن أطوف بالبيت، فخرج به قريبًا من نصف النهار، فلقيهما أبو جهل، فقال: يا أبا صفوان، من هذا معك؟ فقال: هذا سعد، فقال له أبو جهل: ألا أراك تطوف بمكة آمنًا وقد أويتم الصباة وزعمتم أنكم تنصرونهم وتعينونهم، أما واللَّه لولا أنك مع أبي صفوان ما رجعت إلى أهلك

---

(١) الإفصاح (١/ ٢٠٥-٢٠٦).
(٢) أعلام الحديث (٣/ ١٧٠٢-١٧٠٣).
(٣) الروض الأنف (٣/ ٤٧).

سالمًا، فقال له سعد -ورفع صوته عليه-: أما واللَّه لئن منعتني هذا لأمنعنك ما هو أشد عليك منه: طريقك على المدينة، فقال له أمية: لا ترفع صوتك يا سعد على أبي الحكم سيد أهل الوادي، فقال سعد: دعنا عنك يا أمية، فواللَّه لقد سمعت رسول اللَّه ﷺ يقول: إنهم قاتلوك، قال: بمكة؟ قال: لا أدري، ففزع لذلك أمية فزعًا شديدًا، فلما رجع أمية إلى أهله قال: يا أم صفوان! ألم تري ما قال لي سعد؟ قالت: وما قال لك؟ قال: زعم أن محمدًا أخبرهم أنهم قاتلي، فقلت له: بمكة؟ قال: لا أدري، فقال أمية: واللَّه لا أخرج من مكة، فلما كان يوم بدر، استنفر أبو جهل الناس، قال: أدركوا عيركم، فكره أمية أن يخرج، فأتاه أبو جهل فقال: يا أبا صفوان! إنك متى ما يراك الناس قد تخلفت -وأنت سيد أهل الوادي- تخلفوا معك، فلم يزل به أبو جهل حتى قال: أما إذ غلبتني فواللَّه لأشترين أجود بعير بمكة، ثم قال أمية: يا أم صفوان! جهزيني، فقالت له: يا أبا صفوان! وقد نسيت ما قال لك أخوك اليثربي؟ قال: لا، ما أريد أن أجوز معهم إلا قريبًا، فلما خرج أمية أخذ لا يترك منزلًا إلا عقل بعيره، فلم يزل بذلك حتى قتله اللَّه ﷻ ببدر»[(١)].

★ غريب الحديث:

استنفر: أي: طلب الخروج مع الناس.

★ فوائد الحديث:

ترجم البخاري لهذا الحديث بقوله: «باب ذكر النبي ﷺ من يقتل ببدر»[(٢)].

قال العيني: «مطابقته للترجمة ظاهرة؛ لأنه ﷺ أخبر بمن يقتل ببدر، فهذا أمية قتل ببدر، وهذا من أبلغ معجزاته ﷺ»[(٣)].

قال ابن الجوزي: «وأمية قتل يوم بدر بلا شك، وهو من جملة من سحب إلى القليب»[(٤)].

---

(١) أخرجه البخاري (٧/ ٣٥٧-٣٥٨).

(٢) فتح الباري (٧/ ٣٥٧).

(٣) عمدة القاري (١٢/ ٦).

(٤) كشف المشكل (٤/ ١٥٩).

قلت: «وقد روى البخاري في صحيحه صفة مقتل أمية من حديث عبدالرحمن ابن عوف ﷺ قال: «كاتبت أمية بن خلف كتابًا بأن يحفظني في صاغيتي بمكة وأحفظه في صاغيته بالمدينة، فلما ذكرت (الرحمن) قال: لا أعرف (الرحمن)، كاتبني باسمك الذي كان في الجاهلية، فكاتبته عبد عمرو، فلما كان في يوم بدر خرجت إلى جبل لأحرزه حين نام الناس، فأبصره بلال فخرج حتى وقف على مجلس من الأنصار فقال: أمية بن خلف، لا نجوت إن نجا أمية. فخرج معه فريق من الأنصار في آثارنا، فلما خشيت أن يلحقونا خلفت لهم ابنه لأشغلهم فقتلوه، ثم أبوا حتى يتبعونا -وكان رجلًا ثقيلًا- فلما أدركونا قلت له: ابرك، فبرك، فألقيت عليه نفسي لأمنعه، فتجللوه بالسيوف من تحتي حتى قتلوه، وأصاب أحدهم رجلي بسيفه. وكان عبدالرحمن بن عوف يرينا ذلك الأثر في ظهر قدمه»»[١].

قال ابن بطال: «فيه المجازاة على سوء الفعل بمثله والانتقام من الظالم، وإنما سعى بلال في قتل أمية بن خلف، واستصرخ الأنصار عليه وأغراهم به في ندائه: أمية بن خلف، لا نجوت إن نجا أمية؛ لأنه كان عذب بلالًا بمكة على ترك الإسلام، وكان يخرجه إلى الرمضاء بمكة إذا حميت فيضجعه على ظهره، ثم يأمر بالصخرة العظيمة فتوضع على صدره، ويقول: لا تزال هكذا أو تفارق دين محمد، فيقول بلال: أحد أحد»[٢].

قلت: وقد ثبت إخباره ﷺ بمصارع رؤوس المشركين يوم بدر في الصحيح من حديث أنس وعمر وغيرهما رضي اللَّه عن الجميع. وقد تقدم ذكر ذلك في سورة (آل عمران) و(الأنفال) وغيرهما، فلتراجع، وباللَّه التوفيق.

* * *

(١) فتح الباري (٤/ ٦٠٤/ ٢٣٠١).

(٢) شرح البخاري (٦/ ٤٣٤).

قوله تعالى: ﴿بَلِ ٱلسَّاعَةُ مَوۡعِدُهُمۡ وَٱلسَّاعَةُ أَدۡهَىٰ وَأَمَرُّ ۝٤٦﴾

★ **غريب الآية:**

أدهى: أعظم داهية وأفظع. والداهية: الأمر العظيم.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره-: ما الأمر كما يزعم هؤلاء المشركون من أنهم لا يبعثون بعد مماتهم، ﴿بَلِ ٱلسَّاعَةُ مَوۡعِدُهُمۡ﴾ للبعث والعقاب، ﴿وَٱلسَّاعَةُ أَدۡهَىٰ وَأَمَرُّ﴾ عليهم من الهزيمة التي يهزمونها عند التقائهم مع المؤمنين ببدر»[١].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة المبينة لتاريخ نزول الآية

* عن يوسف بن ماهك قال: «**إني عند عائشة أم المؤمنين** رضي الله عنها **إذ جاءها عراقي فقال: أي الكفن خير؟ قالت: ويحك! وما يضرك؟ قال: يا أم المؤمنين! أريني مصحفك، قالت: لم؟ قال: لعلي أؤلف القرآن عليه، فإنه يقرأ غير مؤلف، قالت: وما يضرك أَيَّهُ قرأتَ قبل؟ إنما نزل أول ما نزل منه سورة من (المفصل) فيها ذكر الجنة والنار، حتى إذا ثاب الناس إلى الإسلام نزل الحلال والحرام، ولو نزل أول شيء: لا تشربوا الخمر، لقالوا: لا ندع الخمر أبدًا، ولو نزل: لا تزنوا، لقالوا: لا ندع الزنا أبدًا، لقد نزل بمكة على محمد ﷺ وإني لجارية ألعب: ﴿بَلِ ٱلسَّاعَةُ مَوۡعِدُهُمۡ وَٱلسَّاعَةُ أَدۡهَىٰ وَأَمَرُّ ۝٤٦﴾ وما نزلت سورة البقرة والنساء إلا وأنا عنده. قال: فأخرجت له المصحف، فأملت عليه آي السور**»[٢].

★ **غريب الحديث:**

ويحك: ويح: كلمة ترحم وتوجع، تقال لمن وقع في هلكة لا يستحقها، وقد

---

(١) جامع البيان (٢٧/ ١٠٩).

(٢) أخرجه: البخاري (٩/ ٤٦-٤٧/ ٤٩٩٣)، والنسائي في الكبرى (٦/ ٤٧٧/ ١١٥٥٨).

يقال: بمعنى المدح والتعجب، وهي منصوبة على المصدر، وقد ترفع وتضاف، ولا تضاف. يقال: ويحَ زيدٍ، وويحًا له، وويحٌ له[١].

ثاب: بالمثلثة ثم الموحدة، أي: رجع.

★ **فوائد الحديث:**

الغرض من الحديث بيان أن هذه الآية من سورة (القمر) من أوائل ما نزل بمكة، ومع تقدمها في النزول فهي مؤخرة في ترتيب المصاحف. وفي ذلك -**يقول الحافظ**-: «حجة لمن يقول: إن ترتيب السور اجتهاد وليس بتوقيف من النبي ﷺ، وهو قول جمهور العلماء، واختاره القاضي الباقلاني، قال: وترتيب السور ليس بواجب في التلاوة، ولا في الصلاة، ولا في المدارس، ولا في التعليم، فلذلك اختلفت المصاحف، فلما كتب مصحف عثمان رتبوه على ما هو عليه الآن، فلذلك اختلف ترتيب مصاحف الصحابة، ثم ذكر نحو كلام ابن بطال، ثم قال: ولا خلاف أن ترتيب آيات كل سورة على ما هي عليه الآن في المصحف توقيف من اللَّه تعالى، وعلى ذلك نقلته الأمة عن نبينا ﷺ»[٢].

قال الحافظ: «قوله: «**نزل الحلال والحرام**» أشارت إلى الحكمة الإلهية في ترتيب التنزيل، وأن أول ما نزل من القرآن الدعاء إلى التوحيد، والتبشير للمؤمن والمطيع بالجنة، وللكافر والعاصي بالنار، فلما اطمأنت النفوس على ذلك أنزلت الأحكام، ولهذا قالت: «**لو نزل أول شيء: لا تشربوا الخمر، لقالوا: لا ندعها**»، وذلك لما طبعت عليه النفوس من النفرة عن ترك المألوف»[٣].

وقال: «قوله: «**لقد أنزل بمكة..**» إلخ، أشارت بذلك إلى تقوية ما ظهر لها من الحكمة المذكورة، وقد تقدم نزول سورة (القمر) -وليس فيها شيء من الأحكام- على نزول سورة (البقرة) و(النساء) مع كثرة ما اشتملتا عليه من الأحكام»[٤].

* * *

(١) النهاية (٥/ ٢٣٥).

(٢) فتح الباري (٩/ ٤٨).

(٣) المصدر نفسه.

(٤) فتح الباري (٩/ ٤٩).

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُجْرِمِينَ فِى ضَلَٰلٍ وَسُعُرٍ ۝٤٧﴾

★ **غريب الآية:**

سُعُر: أي: نيران مشتعلة، أو جنون وتخبط.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن كثير: «يخبرنا تعالى عن المجرمين أنهم في ضلال عن الحق، وسُعُر مما هم فيه من الشكوك والاضطراب في الآراء، وهذا يشمل كل من اتصف بذلك من كافر ومبتدع من سائر الفرق»[١].

* * *

(١) تفسير القرآن العظيم (٧/ ٤٥٧).

قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي ٱلنَّارِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ ذُوقُواْ مَسَّ سَقَرَ ﴿٤٨﴾﴾

★ **غريب الآية:**

سقر: اسم من أسماء جهنم؛ لا ينصرف؛ لأنه اسم مؤنث معرفة.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن كثير: «أي: كما كانوا في سُعُر وشك وتردد أورثهم ذلك النار، وكما كانوا ضلاّلًا، سُحبوا فيها على وجوههم، لا يدرون أين يذهبون، ويقال لهم تقريعًا وتوبيخًا: ﴿ذُوقُواْ مَسَّ سَقَرَ﴾ »[١].

قال ابن جرير: «وقوله: ﴿ذُوقُواْ مَسَّ سَقَرَ﴾ يقول -تعالى ذكره-: ﴿يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي ٱلنَّارِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ﴾ يقال لهم: ﴿ذُوقُواْ مَسَّ سَقَرَ﴾، وترك ذكر (يقال لهم) استغناءً بدلالة الكلام عليه من ذكره.

فإن قال قائل: وكيف يُذاق مس سقر، أَوَ له طعم فيُذاق؟ فإن ذلك مختلف فيه؛ فقال بعضهم: قيل: ذلك كذلك على مجاز الكلام، كما يقال: كيف وجدت طعم الضرب؟ وهو مجاز. وقال آخر: ذلك كما يقال: وجدتُ مس الحمّى، يُراد به أول ما نالني منها، وكذلك وجدتُ طعم عفوك»[٢].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة أن ممن يسحب في النار أيضًا من أهل التوحيد من لم يرد بعمله وجه اللَّه تعالى

* عن أبي هريرة قال: سمعت رسول اللَّه ﷺ يقول: «**إن أول الناس يقضى يوم القيامة عليه، رجل استشهد، فأتي به، فعرفه نعمه فعرفها، قال: فما عملت فيها؟ قال: قاتلت فيك حتى استشهدت، قال: كذبت، ولكنك قاتلت لأن يقال: جريء،**

---

(١) تفسير القرآن العظيم (٧/ ٤٥٧).

(٢) جامع البيان (٢٧/ ١١٠).

فقد قيل، ثم أمر به فسحب على وجهه حتى ألقي في النار، ورجل تعلم العلم وعلمه وقرأ القرآن، فأتي به، فعرفه نعمه فعرفها، قال: فما عملت فيها؟ قال: تعلمت العلم وعلمته وقرأت فيك القرآن، قال: كذبت، ولكنك تعلمت العلم ليقال: عالم، وقرأت القرآن ليقال: هو قارئ، فقد قيل، ثم أمر به فسحب على وجهه حتى ألقي في النار، ورجل وسع اللَّه عليه وأعطاه من أصناف المال كله، فأتي به، فعرفه نعمه فعرفها، قال: فما عملت فيها؟ قال: ما تركت من سبيل تحب أن ينفق فيها إلا أنفقت فيها لك، قال: كذبت، ولكنك فعلت ليقال: هو جواد، فقد قيل، ثم أمر به فسحب على وجهه ثم ألقي في النار»(١).

★ غريب الحديث:

جريء: بفتح الجيم وكسر الراء وبالمد، أي: شجاع حازم.

★ فوائد الحديث:

قال ابن عبدالبر: «وهذا الحديث فيمن لم يرد بعلمه وعمله وجه اللَّه تعالى. وقد قيل في الرياء: إنه الشرك الأصغر، ولا يزكو معه عمل، عصمنا اللَّه برحمته»(٢).

قوله: «**ثم أمر به فسحب على وجهه حتى ألقي في النار**»: **قال ابن علان:** «**«ثم أمر»** بالوجهين **«به فسحب على وجهه»** معاملة بنقيض قصده؛ فإنه قصد حصول الوجاهة بما اكتسبه من الفضائل، فسحب عليه زيادة في إهانته **«حتى ألقي في النار»**، ويستمر فيها بقدر ما سبق له في العلم الأزلي، ثم يخرج إلى الجنة؛ لأن الرياء من الكبائر، ودل الكتاب والسنة على أنها لا تخرج صاحبها من الإيمان، وأن لا بد لصاحبها من الجنة»(٣).

قال الشوكاني: «وهذا الحديث فيه دليل على أن فعل الطاعات العظيمة مع سوء

---

(١) أخرجه: أحمد (٢/ ٣٢١-٣٢٢)، ومسلم (٣/ ١٥١٣-١٥١٤/ ١٩٠٥)، والنسائي (٦/ ٣٣١/ ٣١٣٧)، وبلفظ أطول: الترمذي (٤/ ٥١٠-٥١٢/ ٢٣٨٢) وقال: «حسن غريب»، وصححه ابن حبان (الإحسان ٢/ ١٣٥-١٣٧/ ٤٠٨).

(٢) جامع بيان العلم (١/ ٦٨).

(٣) دليل الفالحين (٤/ ٤٨٠).

النية من أعظم الوبال على فاعله؛ فإن الذي أوجب سحبه في النار على وجهه هو فعل تلك الطاعة المصحوبة بتلك النية الفاسدة، وكفى بهذا رادعًا لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد، اللهم إنا نسألك صلاح النية وخلوص الطوية. وقد أخرج مسلم من حديث أبي هريرة قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «**يقول اللَّه تعالى: أنا أغنى الشركاء عن الشرك، من عمل عملًا أشرك معي فيه غيري، تركته وشركه**»(١). وأخرج الترمذي عن كعب بن مالك قال: سمعت رسول اللَّه ﷺ يقول: «**من طلب العلم ليجاري به العلماء، ويماري به السفهاء، ويصرف به وجوه الناس إليه، أدخله اللَّه النار**»(٢). . وأخرج الشيخان عن أبي وائل قال: سمعت أسامة يقول: قال النبي ﷺ: «**يؤتى بالرجل يوم القيامة، فيلقى في النار، فتندلق أقتاب بطنه، فيدور بها كما يدور الحمار بالرحى، فتجتمع إليه أهل النار فيقولون: يا فلان! ألم تكن تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر؟! فيقول: بلى، كنت آمر بالمعروف ولا آتيه، وأنهى عن المنكر وآتيه**»(٣). . وأخرج ابن حبان في صحيحه، والحاكم وصححه من حديث عائشة مرفوعًا: «**الشرك في هذه الأمة أخفى من دبيب النمل**»(٤)، وفي الباب عن أبي سعيد، رواه أحمد. وعن أبي موسى وأبي بكر وحذيفة ومعقل بن يسار رواها الهيثمي. وأخرج أحمد من حديث عبداللَّه بن عمرو مرفوعًا: «**من سمع بعلمه، سمع اللَّه به سامع خلقه وصغره وحقره**»(٥)»(٦).

قال النووي: «قوله ﷺ في الغازي والعالم والجواد وعقابهم على فعلهم ذلك لغير اللَّه وإدخالهم النار، دليل على تغليظ تحريم الرياء وشدة عقوبته، وعلى الحث على وجوب الإخلاص في الأعمال، كما قال اللَّه تعالى: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ

---

(١) أخرجه: أحمد (٢/ ٣٠١). ومسلم (٤/ ٢٢٨٩/ ٢٩٨٥). وابن ماجه (٢/ ١٤٠٥/ ٤٢٠٢).

(٢) أخرجه: الترمذي (٥/ ٣٢/ ٢٦٥٤)، وقال: «لا نعرفه إلا من هذا الوجه، وإسحاق بن يحيى ليس ذلك القوي عندهم تكلم فيه من قبل حفظه»، وقال الألباني في صحيح الترغيب (١/ ١٥٣/ ١٠٦): «صحيح لغيره».

(٣) أخرجه: أحمد (٥/ ٢٠٥). والبخاري (٦/ ٤٠٧/ ٣٢٦٧). ومسلم (٤/ ٢٢٩٠/ ٢٩٨٩).

(٤) أخرجه: الحاكم (٢/ ٢٩١) وقال: «صحيح الإسناد ولم يخرجاه»، وتعقبه الذهبي بقوله: «عبد الأعلى قال الدارقطني ليس بثقة»، والحديث ضعفه الألباني في ضعيف الترغيب (٢/ ٢٦٩/ ١٧٨٧) وقال: «لكن جملة الشرك منه لها شواهد خرجتها مع الحديث في الضعيفة».

(٥) أخرجه: أحمد (٢/ ٢١٢)، وذكره الهيثمي في المجمع (١٠/ ٢٢٢)، وقال: «رواه الطبراني في الكبير. . والأوسط. . ورجال أحمد وأحد أسانيد الطراني في الكبير رجال الصحيح».

(٦) نيل الأوطار (٧/ ٢١٧).

﴿مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾[١]. وفيه أن العمومات الواردة في فضل الجهاد إنما هي لمن أراد اللَّه تعالى بذلك مخلصًا، وكذلك الثناء على العلماء، وعلى المنفقين في وجوه الخيرات، كله محمول على من فعل ذلك لله تعالى مخلصًا»[٢].

* * *

(١) البينة: الآية (٥).

(٢) شرح صحيح مسلم (١٣/ ٤٤-٤٥).

قوله تعالى: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ ﴿٤٩﴾﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال السعدي: «﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ ﴿٤٩﴾﴾ وهذا شامل للمخلوقات والعوالم العلوية والسفلية، أن اللَّه تعالى وحده خلقها، لا خالق لها سواه، ولا مشارك له في خلقها، وخلقها بقضاء سبق به علمه، وجرى به قلمه، بوقتها ومقدارها، وجميع ما اشتملت عليه من الأوصاف، وذلك على اللَّه يسير»[١].

قال صديق حسن خان: «قال الخطابي: وقد يحسب كثير من الناس أن معنى القضاء والقدر: إجبار اللَّه العبد وقهره على ما قدّره وقضاه، وليس الأمر كما يتوهّمونه؛ وإنما معناه: الإخبار عن تقدم علم اللَّه تعالى بما يكون من أكساب العباد، وصدورها عن تقدير منه، وخلق لها خيرها وشرها؛ والقدر اسم لما صدر مقدرًا عن فعل القادر؛ يقال: قدرتُ الشيءَ وقدّرتُه، بالتخفيف والتثقيل، بمعنى واحد، والقضاء في هذا معناه: الخلق، كقوله: ﴿فَقَضَىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَاتٍ﴾[٢] أي: خلقهنّ.

قال النووي: إن مذهب أهل الحق إثبات القدر، ومعناه: أن اللَّه تعالى قدر الأشياء في القدم، وعلم سبحانه أنها ستقع في أوقات معلومة عنده سبحانه على صفات مخصوصة، فهي تقع على حسب ما قدرها اللَّه، وأنكرت القدرية هذا، وزعمت أنه سبحانه لم يقدرها، ولم يتقدم علمه بها، وأنها مستأنفة العلم، أي: إنما يعلمها سبحانه بعد وقوعها، وكذبوا على اللَّه ﷻ عن أقوالهم الباطلة علوًّا كبيرًا، انتهى.

وقد تظاهرت الأدلة القطعية من الكتاب والسنة وإجماع الصحابة، وأهل العقد

---

(١) تيسير الكريم الرحمن (٧/ ٣٤١).

(٢) فصلت: الآية (١٢).

والحل من السلف والخلف، على إثبات قدر اللَّه ﷻ، وقد قرر ذلك أئمة السنة أحسن تقرير، بدلائله القطعية، السمعية والعقلية، ليس هذا موضع بسطه، واللَّه تعالى أعلم»[١].

قال القرطبي: «الذي عليه أهل السنة أن اللَّه سبحانه قدّر الأشياء، أي: علم مقاديرها وأحوالها وأزمانها قبل إيجادها، ثم أوجد منها ما سبق في علمه أنه يوجده على نحو ما سبق في علمه، فلا يحدث حدث في العالم العلوي والسفلي إلا وهو صادر عن علمه تعالى وقدرته وإرادته دون خلقه، وأن الخلق ليس لهم فيها إلا نوع اكتساب ومحاولة ونسبة وإضافة، وأن ذلك كله إنما حصل لهم بتيسير اللَّه تعالى وبقدرته وتوفيقه وإلهامه سبحانه لا إله إلا هو، ولا خالق غيره؛ كما نص عليه القرآن والسنة، لا كما قالت القدرية وغيرهم من أن الأعمال إلينا والآجال بيد غيرنا»[٢].

قال ابن كثير: «وقوله: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ ﴿٤٩﴾﴾ كقوله: ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا﴾[٣]، وكقوله: ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى ﴿١﴾ ٱلَّذِى خَلَقَ فَسَوَّىٰ ﴿٢﴾ وَٱلَّذِى قَدَّرَ فَهَدَىٰ ﴿٣﴾﴾[٤]، أي: قدر قدرًا وهدى الخلائق إليه، ولهذا يستدل بهذه الآية الكريمة أئمة السنة على إثبات قدر اللَّه السابق لخلقه، وهو علمه الأشياء قبل كونها وكتابته لها قبل برئها، وردّوا بهذه الآية وبما شاكلها من الآيات، وما ورد في معناها من الأحاديث الثابتات على الفرقة القدرية الذين نبغوا في أواخر عصر الصحابة»[٥].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في إثبات القدر

* عن أبي هريرة قال: «جاء مشركو قريش يخاصمون رسول اللَّه ﷺ في القدر فنزلت: ﴿يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِى ٱلنَّارِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ ذُوقُوا۟ مَسَّ سَقَرَ ﴿٤٨﴾ إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ ﴿٤٩﴾﴾[٦]»[٧].

---

(١) فتح البيان (١٣/ ٣٠٨) وانظر شرح مسلم للنووي (١/ ١٣٨-١٣٩).

(٢) الجامع لأحكام القرآن (١٧/ ١٤٨).

(٣) الفرقان: الآية (٢).

(٤) الأعلى: الآيات (١-٣).

(٥) تفسير ابن كثير (٧/ ٤٨٢) دار طيبة.

(٦) القمر: الآيتان (٤٨و٤٩).

(٧) أخرجه: أحمد (٢/ ٤٤٤، ٤٧٦)، ومسلم (٤/ ٢٠٤٦/ ٢٦٥٦)، والترمذي (٤/ ٣٩٩/ ٢١٥٧) وقال: «حديث صحيح»، وابن ماجه (١/ ٣٢-٣٣/ ٨٣).

* عن طاوس أنه قال: «أدركت ناسًا من أصحاب رسول اللَّه ﷺ يقولون: كل شيء بقدر. قال: وسمعت عبداللَّه بن عمر يقول: قال رسول اللَّه ﷺ: **كل شيء بقدر، حتى العجز والكيس -أو: الكيس والعجز-**»(١).

★ غريب الحديث:

العجز: التثاقل عن المصالح حتى لا تحصل، أو تحصل لكن على غير الوجه المرضي.

الكيس: نقيض ذلك، وهو الجد والتشمير في تحصيل المصالح على وجوهها.

* عن علي قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «**لا يؤمن عبد حتى يؤمن بأربع: يشهد أن لا إله إلا اللَّه وأني محمد رسول اللَّه بعثني بالحق، ويؤمن بالموت، وبالبعث بعد الموت، ويؤمن بالقدر**»(٢).

* عن ابن الديلمي قال: «أتيت أبي بن كعب فقلت له: وقع في نفسي شيء من القدر، فحدثني بشيء لعل اللَّه أن يذهبه من قلبي، قال: لو أن اللَّه عذب أهل سماواته وأهل أرضه عذبهم وهو غير ظالم لهم، ولو رحمهم كانت رحمته خيرًا لهم من أعمالهم، ولو أنفقت مثل أحد ذهبًا في سبيل اللَّه ما قبله اللَّه منك حتى تؤمن بالقدر، وتعلم أن ما أصابك لم يكن ليخطئك، وأن ما أخطأك لم يكن ليصيبك، ولو مت على غير هذا لدخلت النار، قال: ثم أتيت عبداللَّه بن مسعود فقال مثل قوله ذلك، قال: ثم أتيت حذيفة بن اليمان فقال مثل ذلك، قال: ثم أتيت زيد بن ثابت فحدثني عن النبي ﷺ مثل ذلك»(٣).

* عن نافع، قال: «كان لابن عمر صديق من أهل الشام يكاتبه، فكتب إليه عبداللَّه بن عمر: إنه بلغني أنك تكلمت في شيء من القدر، فإياك أن تكتب إلي،

---

(١) أخرجه: أحمد (٢/ ١١٠)، ومسلم (٤/ ٢٠٤٥/ ٢٦٥٥).

(٢) أخرجه: أحمد (١/ ٩٧و١٣٣)، والترمذي (٤/ ٣٩٣/ ٢١٤٥) واللفظ له، وابن ماجه (١/ ٣٢/ ٨١)، وصححه ابن حبان (الإحسان ١/ ٤٠٤/ ١٧٨)، والحاكم (١/ ٣٢و٣٣) صحيح على شرط الشيخين، ووافقه الذهبي.

(٣) أخرجه: أحمد (٥/ ١٨٥، ١٨٩)، وأبو داود (٥/ ٧٥/ ٤٦٩٩) واللفظ له، وابن ماجه (١/ ٢٩-٣٠/ ٧٧)، وصححه ابن حبان (الإحسان ٢/ ٥٠٥-٥٠٦/ ٧٢٧).

فإني سمعت رسول اللَّه ﷺ يقول: **إنه سيكون في أمتي أقوام يكذبون بالقدر**»[١].

* عن عبداللَّه بن عباس رضي الله عنهما قال: «كنت خلف رسول اللَّه ﷺ يومًا، فقال: **يا غلام! إني أعلمك كلمات: احفظ اللَّه يحفظك، احفظ اللَّه تجده تجاهك، إذا سألت فاسأل اللَّه، وإذا استعنت فاستعن باللَّه. واعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشيء لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه اللَّه لك، ولو اجتمعوا على أن يضروك بشيء لم يضروك إلا بشيء قد كتبه اللَّه عليك، رفعت الأقلام وجفت الصحف**»[٢].

* عن عبادة بن الصامت قال لابنه: «يا بني! إنك لن تجد طعم حقيقة الإيمان حتى تعلم أن ما أصابك لم يكن ليخطئك، وما أخطأك لم يكن ليصيبك. سمعت رسول اللَّه ﷺ يقول: **إن أول ما خلق اللَّه القلم، فقال له: اكتب، قال: رب! وماذا أكتب؟ قال: اكتب مقادير كل شيء حتى تقوم الساعة**. يا بني! إني سمعت رسول اللَّه ﷺ يقول: **من مات على غير هذا فليس مني**»[٣].

★ **فوائد الأحاديث:**

في هذه الأحاديث من الفوائد:

التصريح بأن هذه الآية نزلت في كفار قريش الذين جاؤوا يخاصمون النبي ﷺ في القدر. قال ابن جرير: «وفي هذه الآية بيان أن اللَّه -جل ثناؤه- توعد هؤلاء المجرمين على تكذيبهم في القدر مع كفرهم به»[٤].

قال ابن القيم: «والمخاصمون في القدر نوعان: أحدهما: من يبطل أمر اللَّه ونهيه بقضائه وقدره، كالذين قالوا: ﴿لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا﴾[٥].

---

(١) أخرجه: أحمد (٢/ ٩٠)، وأبو داود (٥/ ٢٠/ ٤٦١٣)، والترمذي (٤/ ٣٩٧/ ٢١٥٢) وقال: «حديث حسن صحيح غريب»، وابن ماجه (٢/ ١٣٥٠/ ٤٠٦١)، والحاكم (١/ ٨٤) وقال: «حديث صحيح على شرط مسلم»، ووافقه الذهبي.

(٢) أخرجه: أحمد (١/ ٢٩٣و٣٠٧)، والترمذي (٤/ ٥٧٥-٥٧٦/ ٢٥١٦) وقال: «حديث حسن صحيح»، واللفظ له.

(٣) أخرجه: أحمد (٥/ ٣١٧)، وأبو داود (٥/ ٧٦/ ٤٧٠٠)، والترمذي (٥/ ٣٩٤-٣٩٥/ ٣٣١٩) وقال: «حديث حسن غريب». وله شاهد من حديث ابن عباس أخرجه: الحاكم (٢/ ٤٩٩) وقال: «صحيح على شرط الشيخين»، ووافقه الذهبي.

(٤) جامع البيان (٢٧/ ١١٠).

(٥) الأنعام: الآية (١٤٨).

والثاني: من ينكر قضاءه وقدره السابق. والطائفتان خصماء الله؛ قال عوف: «من كذب بالقدر فقد كذب بالإسلام، إن اللَّه -تبارك وتعالى- قدر أقدارًا، وخلق الخلق بقدر، وقسم الآجال بقدر، وقسم الأرزاق بقدر، وقسم البلاء بقدر، وقسم العافية بقدر، وأمر ونهى»»[١].

وفيها: «دليل على أن الإيمان بالقدر واجب، ولا يتم الإيمان إلا به»[٢].

وقد تقدم بيان هذا المعنى مستقصى فيما تقدم من مباحث القدر، فلتراجع.

وفيها: «بيان كيفية الإيمان بالقدر: أن يعلم المرء أن ما أصابه لم يكن ليخطئه، وما أخطأه لم يكن ليصيبه»[٣].

وقد تقدم بيان هذا المعنى أيضًا فيما تقدم من كتابنا هذا عند قوله تعالى: ﴿قُل لَّن يُصِيبَنَآ إِلَّا مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَىٰنَا ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ۝٥١﴾ الآية (٥١) من سورة التوبة، فلتراجع.

وفيها من العلم: «بيان شمول علم اللَّه تعالى وإحاطته بما كان ويكون في الدنيا والآخرة، كما قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ ٱلْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَىْءٍ عِلْمًۢا ۝١٢﴾[٤]»[٥].

قال القرطبي في حديث طاووس: «ومعنى هذا الحديث أن ما من شيء يقع في هذا الوجود كائنًا كان إلا وقد سبق به علم اللَّه تعالى ومشيئته، سواء كان من أفعالنا أو صفاتنا، أو من غيرها، ولذلك أتى بـ(كل) التي هي للاستغراق والإحاطة، وعقبها بـ(حتى) التي هي للغاية، حتى لا يخرج عن تلك المقدمة الكلية من الممكنات شيء، ولا يتوهم فيها تخصيص، وإنما جعل العجز والكيس غاية لذلك ليبين أن أفعالنا وإن كانت معلومة ومرادة لنا، فلا تقع منا إلا بمشيئة اللَّه تعالى، وإرادته وقدرته، كما قال تعالى: ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾[٦] وصار هذا من

---

(١) شفاء العليل (١/ ٨٧-٨٨). (٢) القول المفيد (٣/ ١٨٨).

(٣) أفاده في «تيسير العزيز الحميد» (ص: ٧١٤).

(٤) الطلاق: الآية (١٢).

(٥) فتح المجيد (٥٧٨).

(٦) الإنسان: الآية (٣٠)، التكوير: الآية (٢٩).

نحو قول العرب: قدم الحاج حتى المشاة، فيكون معناه: أن كل ما يقع في الوجود بقدر اللَّه ومشيئته، حتى ما يقع منكم بمشيئتكم»[١].

«وهذا أحد مراتب الإيمان بالقدر التي من لم يؤمن بها لم يؤمن بالقدر؛ وهي المرتبة الأولى من مراتبه وأركانه التي عليها مدار الإيمان به وهي العلم السابق، فقد اتفق عليه الرسل من أولهم إلى آخرهم، واتفق عليه جميع الصحابة ومن تبعهم من الأمة، وخالفهم مجوس الأمة»[٢].

قال الحافظ ابن رجب: «والإيمان بالقدر على درجتين: إحداهما: الإيمان بأن اللَّه تعالى سبق في علمه ما يعمله العباد من خير وشر وطاعة ومعصية قبل خلقهم وإيجادهم، ومن هو منهم من أهل الجنة، ومن أهل النار، وأعد لهم الثواب والعقاب جزاءً لأعمالهم قبل خلقهم وتكوينهم، وأنه كتب ذلك عنده وأحصاه، وأن أعمال العباد تجري على ما سبق في علمه وكتابه. . وهذه الدرجة أثبتها كثير من القدرية، ونفاها غلاتهم، كمعبد الجهني الذي سئل ابن عمر عن مقالته، وكعمرو ابن عبيد وغيره. وقد قال كثير من أئمة السلف: ناظروا القدرية بالعلم، فإن أقروا به خصموا، وإن جحدوه فقد كفروا. يريدون أن من أنكر العلم القديم السابق بأفعال العباد وأن اللَّه قسمهم قبل خلقهم إلى شقي وسعيد، وكتب ذلك عنده في كتاب حفيظ، فقد كذب بالقرآن، فيكفر بذلك. وإن أقروا بذلك وأنكروا أن اللَّه خلق أفعال عباده وشاءها وأرادها منهم إرادة كونية قدرية، فقد خصموا؛ لأن ما أقروا به حجة عليهم فيما أنكروه، وفي تكفير هؤلاء نزاع مشهور بين العلماء»[٣].

قال الشيخ عبدالرحمن بن حسن آل الشيخ: «وكل هذه الأحاديث وما في معناها فيها الوعيد الشديد على عدم الإيمان بالقدر، وهي الحجة على نفاة القدر من المعتزلة وغيرهم، ومن مذهبهم: تخليد أهل المعاصي في النار، وهذا الذي اعتقدوه من أكبر الكبائر وأعظم المعاصي، وفي الحقيقة إذا اعتبرنا إقامة الحجة عليهم بما تواترت به نصوص الكتاب والسنة من إثبات القدر، فقد حكموا على أنفسهم بالخلود في النار

---

(١) المفهم (٦/ ٦٧١).

(٢) أفاده ابن القيم في «شفاء العليل» (١/ ٩١).

(٣) جامع العلوم والحكم (١/ ١٠٣).

إن لم يتوبوا، وهذا لازم لهم على مذهبهم هذا، وقد خالفوا ما تواترت به أدلة الكتاب والسنة من إثبات القدر، وعدم تخليد أهل الكبائر من الموحدين في النار»[١].

وفيها: «أن للإيمان طعمًا، وهو كذلك، فإن له حلاوة وطعمًا من ذاقه تسلى به عن الدنيا وما عليها، وقد قال النبي ﷺ: «**ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الإيمان..**»[٢] الحديث. وإنما يكون العبد كذلك إذا كان مؤمنًا بالقدر، إذ يمتنع أن توجد الثلاث فيه، وهو لا يؤمن بالقدر، بل يكذب ربه، ويرد على اللَّه كلامه، وعلى الرسول ﷺ مقالته، فإن المحبة التامة تقتضي المتابعة التامة، فمن لم يؤمن بالقدر لم يكن اللَّه ورسوله أحب إليه مما سواهما، فلا يجد حلاوة الإيمان ولا طعمه، بل إن كان منكرًا للعلم القديم، فهو كافر كما تقدم، ولهذا روى عن بعض الأئمة القدرية الكبار بإسناد صحيح أنه قال -لما ذكر حديث ابن مسعود رضي الله عنه: «**حدثني الصادق المصدوق..**» الحديث-: لو سمعت الأعمش يقول هذا لكذبته، ولو سمعت زيد بن وهب يقول هذا لأجبته، ولو سمعت عبداللَّه بن مسعود يقول هذا ما قبلته، ولو سمعت رسول اللَّه ﷺ يقول هذا لرددته، وذكر كلمة بعدها. فهذا كفر صريح نعوذ باللَّه من موجبات غضبه، وأليم عقابه»[٣].

وفيها: «براءته ﷺ ممن لم يؤمن بالقدر لقوله ﷺ: «**من مات على غير هذا فليس مني**»، وهذه البراءة مطلقة؛ لأن من لم يؤمن بالقدر فهو كافر كفرًا مخرجًا من الملة»[٤].

قوله ﷺ: «**إنه سيكون في أمتي أقوام يكذبون بالقدر**» وفي رواية: «**يكون في أمتي خسف ومسخ، وذلك في المكذبين بالقدر**»: قال القاري: «بهذا الحديث تبين أن القدرية المذمومة إنما هم المكذبة بالقدر، لا المؤمنة به كما زعمت المعتزلة ونسبوا أهل السنة والجماعة إلى القدرية لما هو مقتضى المقابلة بالجبرية، وإنما عاقبهم اللَّه بهما -أي: بالخسف والمسخ- لإضافتهما الكوائن إلى غير اللَّه،

---

(١) فتح المجيد (ص: ٥٨٠).

(٢) أخرجه: أحمد (٣/ ١٠٣). والبخاري (١/ ٨٢/ ١٦). ومسلم (١/ ٦٦/ ٤٣). والترمذي (٥/ ١٦/ ٢٦٢٤). والنسائي (٨/ ٤٧٢/ ٥٠٠٤) من حديث أنس رضي الله عنه.

(٣) تيسير العزيز الحميد (ص: ٧١٤).

(٤) قاله ابن عثيمين في «القول المفيد» (٣/ ١٩٥-١٩٦).

محقوا خلق اللَّه، ومسخوا صورة خلقه»[1].

وحديث ابن الديلمي الوارد في هذا الباب حديث عظيم الشأن، جليل القدر، فيه الدواء والشفاء في باب القدر وما اتصل به من أبواب.

قال ابن القيم: «وهذا الحديث حديث صحيح، رواه الحاكم في صحيحه، وله شأن عظيم، وهو دال على أن من تكلم به أعرف الخلق باللَّه، وأعظمهم له توحيدًا، وأكثرهم له تعظيمًا، وفيه الشفاء التام في باب العدل والتوحيد، فإنه لا يزال يجول في نفوس كثير من الناس كيف يجتمع القضاء والقدر والأمر والنهي، وكيف يجتمع العدل والعقاب على المقضي المقدر الذي لا بد للعبد من فعله، ثم سلك كل طائفة في هذا المقام واديًا وطريقًا، فسلك الجبرية وادي الجبر وطريق المشيئة المحضة الذي يرجح مثلًا على مثل من غير اعتبار علة ولا غاية ولا حكمة، قالوا: وكل ممكن عدل، والظلم هو الممتنع لذاته، فلو عذب أهل سماواته وأهل أرضه لكان متصرفًا في ملكه، والظلم تصرف القادر في غير ملكه، وذلك مستحيل عليه سبحانه، قالوا: ولما كان الأمر راجعًا إلى محض المشيئة، لم تكن الأعمال سببًا للنجاة، فكانت رحمته للعباد هي المستقلة بنجاتهم، فكانت رحمته خيرًا من أعمالهم، وهؤلاء راعوا جانب الملك، وعطلوا جانب الحمد، واللَّه سبحانه له الملك وله الحمد، وسلكت القدرية وادي العدل والحكمة، ولم يوفوه حقه، وعطلوا جانب التوحيد، وحاروا في هذا الحديث ولم يدروا ما وجهه، وربما قابله كثير منهم بالتكذيب والرد له، وأن الرسول لم يقل ذلك، قالوا: وأيّ ظلم يكون أعظم من تعذيب من استنفذ أوقات عمره كلها، واستفرغ قواه في طاعته، وفعل ما يحبه، ولم يعصه طرفة عين، وكان يعمل بأمره دائمًا؟! فكيف يقول الرسول ﷺ: إن تعذيب هذا يكون عدلًا لا ظلمًا؟! قالوا: ولا يقال: إن حقه عليهم وما ينبغي له أعظم من طاعاتهم، فلا تقع تلك الطاعات في مقابلة نعمه وحقوقه، فلو عذبهم لعذبهم بحقه عليهم؛ لأنهم إذا فعلوا مقدورهم من طاعته لم يكلفوه بغيره، فكيف يعذبون على ترك ما لا قدرة لهم عليه؟! وهل ذلك إلا بمنزلة تعذيبهم على كونهم لم يخلقوا السموات والأرض، ونحو ذلك مما لا يدخل تحت مقدورهم؟ قالوا:

---

(١) المرقاة (١/ ٣٠٧).

فلا وجه لهذا الحديث إلا رده، أو تأويله وحمله على معنى يصح، وهو أنه لو أراد تعذيبهم جعلهم أمة واحدة على الكفر، فلو عذبهم في هذه الحال لكان غير ظالم لهم، وهو لم يقل: لو عذبهم مع كونهم مطيعين له عابدين له لعذبهم وهو غير ظالم لهم، ثم أخبر أنه لو عمهم بالرحمة لكانت رحمته لهم خيرًا من أعمالهم، ثم أخبر أنه لا يقبل من العبد عمل حتى يؤمن بالقدر، والقدر هو علم اللَّه بالكائنات وحكمه فيها. ووقفت طائفة أخرى في وادي الحيرة بين القدر والأمر والثواب والعقاب، فتارة يغلب عليهم شهود القدر فيغيبون به عن الأمر، وتارة يغلب عليهم شهود الأمر فيغيبون عن القدر، وتارة يبقون في حيرة وعمى، وهذا كله إنما سببه الأصول الفاسدة والقواعد الباطلة التي بنوا عليها، ولو جمعوا بين الملك والحمد، والربوبية والإلهية، والحكمة والقدرة، وأثبتوا له الكمال المطلق، ووصفوه بالقدرة التامة الشاملة، والمشيئة العامة النافذة التي لا يوجد كائن إلا بعد وجودها، والحكمة البالغة التي ظهرت في كل موجود، لعلموا حقيقة الأمر، وزالت عنهم الحيرة، ودخلوا إلى اللَّه سبحانه من باب أوسع من السموات السبع، وعرفوا أنه لا يليق بكماله المقدس إلا ما أخبر به عن نفسه على ألسنة رسله، وأن ما خالفه ظنون كاذبة، وأوهام باطلة، تولدت بين أفكار باطلة وآراء مظلمة، فنقول -وباللَّه التوفيق وهو المستعان وعليه التكلان ولا حول ولا قوة إلا بالله-: الرب تبارك اسمه وتعالى جده ولا إله غيره هو المنعم على الحقيقة بصنوف النعم التي لا يحصيها أهل سماواته وأرضه، فإيجادهم نعمة منه، وجعلهم أحياء ناطقين نعمة منه، وإعطاؤهم الأسماع والأبصار والعقول نعمة منه، وإدرار الأرزاق عليهم على اختلاف أنواعها وأصنافها نعمة منه، وتعريفهم نفسه بأسمائه وصفاته وأفعاله نعمة منه، وإجراء ذكره على ألسنتهم ومحبته ومعرفته على قلوبهم نعمة منه، وحفظهم بعد إيجادهم نعمة منه، وقيامه بمصالحهم دقيقها وجليلها نعمة منه، وهدايتهم إلى أسباب مصالحهم ومعايشهم نعمة منه، وذكر نعمه على سبيل التفصيل لا سبيل إليه ولا قدرة للبشر عليه، ويكفي أن النفس من أدنى نعمه التي لا يكادون يعدونها، وهو أربعة وعشرون ألف نفس في كل يوم وليلة، فلِلَّهِ على العبد في النفس خاصة أربعة وعشرون ألف نعمة كل يوم وليلة! دع ما عدا ذلك من أصناف نعمه على العبد، ولكل نعمة من هذه النعم حق من الشكر يستدعيه ويقتضيه، فإذا وزعت طاعات

العبد كلها على هذه النعم، لم يخرج قسط كل نعمة منها إلا جزءًا يسيرًا جدًّا لا نسبة [له] إلى قدر تلك النعمة بوجه من الوجوه..

وهذا كله لو لم يحصل للعبد من الغفلة والإعراض والذنوب ما يكون في قبالة طاعاته، فكيف إذا حصل له من ذلك ما يوازي طاعاته أو يزيد عليها، فإن من حق اللَّه على عبده أن يعبده لا يشرك به شيئًا، وأن يذكره ولا ينساه، وأن يشكره ولا يكفره، وأن يرضى به ربًّا، وبالإسلام دينًا، وبمحمد ﷺ رسولًا، وليس الرضا بذلك مجرد إطلاق هذا اللفظ وحاله وإرادته تكذبه وتخالفه، فكيف يرضى به ربًّا من يسخط ما يقضيه له إذا لم يكن موافقًا لإرادته وهواه، فيظل ساخطًا به متبرمًا يرضى وربه غضبان، ويغضب وربه راض، فهذا إنما رضي من ربه حظًا لم يرض به ربًّا، وكيف يدعي الرضا بالإسلام دينًا من ينبذ أصوله خلف ظهره إذا خالفت بدعته وهواه وفروعه وراءه إذا لم توافق غرضه وشهوته، وكيف يصح الرضا بمحمد رسولًا ممن لم يحكمه على ظاهره وباطنه، ويتلقى أصول دينه وفروعه من مشكاته وحده، وكيف يرضى به رسولًا من يترك ما جاء به لقول غيره، ولا يترك قول غيره لقوله، ولا يحكمه ويحتج بقوله إلا إذا وافق تقليده ومذهبه، فإذا خالفه لم يلتفت إلى قوله. والمقصود أن من حقه سبحانه على كل أحد من عبيده أن يرضى به ربًّا وبالإسلام دينًا وبمحمد رسولًا، وأن يكون حبه كله لله، وبغضه في اللَّه، وقوله لله، وتركه لله، وأن يذكره ولا ينساه، ويطيعه ولا يعصيه، ويشكره ولا يكفره، وإذا قام بذلك كله كانت نعم اللَّه عليه أكثر من عمله، بل ذلك نفسه من نعم اللَّه عليه، حيث وفقه له ويسره وأعانه عليه، وجعله من أهله، واختصه به على غيره، فهو يستدعي شكرًا آخر عليه، ولا سبيل له إلى القيام بما يجب لله من الشكر أبدًا، فنعم اللَّه تطالبه بالشكر، وأعماله لا تقابلها، وذنوبه وغفلته وتقصيره قد تستنفد عمله، فديوان النعم وديوان الذنوب يستنفدان طاعاته كلها.

هذا وأعمال العبد مستحقة عليه بمقتضى كونه عبدًا مملوكًا مستعملًا فيما يأمره به سيده، فنفسه مملوكة، وأعماله مستحقة بموجب العبودية، فليس له شيء من أعماله، كما أنه ليس له ذرة من نفسه، فلا هو مالك لنفسه، ولا صفاته، ولا أعماله، ولا لما بيده من المال في الحقيقة، بل كل ذلك مملوك عليه، مستحق عليه لمالكه أعظم استحقاقًا من سيد اشترى عبدًا بخالص ماله، ثم قال: اعمل وأدّ

إلي؛ فليس لك في نفسك ولا في كسبك شيء، فلو عمل هذا العبد من الأعمال ما عمل فإن ذلك كله مستحق عليه لسيده، وحق من حقوقه عليه، فكيف بالمنعم المالك على الحقيقة الذي لا تعد نعمه وحقوقه على عبده، ولا يمكن أن تقابلها طاعاته بوجه، فلو عذبه سبحانه لعذبه وهو غير ظالم له، وإذا رحمه فرحمته خير له من أعماله، ولا تكون أعماله ثمنًا لرحمته البتة، فلولا فضل اللَّه ورحمته ومغفرته ما هنأ أحدًا عيش البتة، ولا عرف أحد خالقه، ولا ذكره، ولا آمن به، ولا أطاعه، فكما أن وجود العبد -محض وجوده- من جوده وفضله ومنته عليه، وهو المحمود على إيجاده، فتوابع وجوده كلها كذلك، ليس للعبد منها شيء، كما ليس له في وجوده شيء، فالحمد كله لله، والفضل كله له، والإنعام كله له، والحق له على جميع خلقه، ومن لم ينظر في حقه عليه وتقصيره وعجزه عن القيام به فهو من أجهل الخلق بربه وبنفسه، ولا تنفعه طاعاته، ولا يسمع دعاؤه. . والعبد يسير إلى اللَّه سبحانه بين مشاهدة منته عليه ونعمه وحقوقه، وبين رؤية عيب نفسه وعمله وتفريطه وإضاعته، فهو يعلم أن ربه لو عذبه أشد العذاب لكان قد عدل فيه، وأن أقضيته كلها عدل فيه، وأن ما فيه من الخير فمجرد فضله ومنته وصدقته عليه، ولهذا كان في حديث سيد الاستغفار: «**أبوء لك بنعمتك علي، وأبوء بذنبي**»[(١)] فلا يرى نفسه إلا مقصرًا مذنبًا، ولا يرى ربه إلا محسنًا متفضلًا. وقد قسم اللَّه خلقه إلى قسمين لا ثالث لهما: تائبين وظالمين، فقال: ﴿وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾[(٢)]، وكذلك جعلهم قسمين: معذبين وتائبين، فمن لم يتب فهو معذب ولا بد، قال تعالى: ﴿لِّيُعَذِّبَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ وَيَتُوبَ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ﴾[(٣)]، وأمر جميع المؤمنين من أولهم إلى آخرهم بالتوبة، ولا يستثنى من ذلك أحد، وعلق فلاحهم بها، قال تعالى: ﴿وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾[(٤)]، وعدد سبحانه من جملة نعمه على خير خلقه وأكرمهم عليه

---

(١) أخرجه: أحمد (٤/ ١٢٢). والبخاري (١١/ ١١٧/ ٦٣٠٦). والترمذي (٥/ ٤٣٦/ ٣٣٩٣). والنسائي (٨/ ٦٧٤-٦٧٥/ ٥٥٣٧) من حديث شداد بن أوس ﷺ.

(٢) الحجرات: الآية (١١).

(٣) الأحزاب: الآية (٧٣).

(٤) النور: الآية (٣١).

وأطوعهم له وأخشاهم له أن تاب عليه وعلى خواص أتباعه، فقال: ﴿لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِيِّ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ ٱلْعُسْرَةِ مِنۢ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ﴾ ثم كرر توبته عليهم فقال: ﴿ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْۚ إِنَّهُۥ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾[1]، وقدم توبته عليهم على توبة الثلاثة الذين خلفوا، وأخبر سبحانه أن الجنة التي وعدها أهلها في التوراة والإنجيل يدخلها التائبون، فذكر عموم التائبين أولًا، ثم خص النبي والمهاجرين والأنصار بها، ثم خص الثلاثة الذين خلفوا، فعلم بذلك احتياج جميع الخلق إلى توبته عليهم ومغفرته لهم وعفوه عنهم..

وحقيقة الأمر أن العبد فقير إلى اللَّه من كل وجه، وبكل اعتبار، فهو فقير إليه من جهة ربوبيته له، وإحسانه إليه، وقيامه بمصالحه، وتدبيره له، وفقير إليه من جهة إلهيته، وكونه معبوده وإلهه، ومحبوبه الأعظم الذي لا صلاح له ولا فلاح ولا نعيم ولا سرور إلا بأن يكون أحب شيء إليه، فيكون أحب إليه من نفسه وأهله وماله ووالده وولده ومن الخلق كلهم، وفقير إليه من جهة معافاته له من أنواع البلاء، فإنه إن لم يعافيه منها هلك ببعضها، وفقير إليه من جهة عفوه عنه ومغفرته له، فإنه إن لم يعف عن العبد ويغفر له فلا سبيل إلى النجاة، فما نجي أحد إلا بعفو اللَّه، ولا دخل الجنة إلا برحمة اللَّه، وكثير من الناس ينظر إلى نفس ما يتاب منه فيراه نقصًا، ولا ينظر إلى كمال الغاية الحاصلة بالتوبة، وأن العبد بعد التوبة النصوح خير منه قبل الذنب، ولا ينظر إلى كمال الربوبية، وتفرد الرب بالكمال وحده، وأن لوازم البشرية لا ينفك منها البشر، وأن التوبة غاية كل أحد من ولد آدم وكماله، كما كانت هي غايته وكماله، فليس للعبد كمال بدون التوبة البتة، كما أنه ليس له انفكاك عن سببها، فإنه سبحانه هو المتفرد المستأثر بالغنى والحمد من كل وجه وبكل اعتبار، والعبد هو الفقير المحتاج إليه المضطر إليه بكل وجه وبكل اعتبار، فرحمته للعبد خير له من عمله، فإن عمله لا يستقل بنجاته ولا سعادته، ولو وكل إلى عمله لم ينج به البتة، فهذا بعض ما يتعلق بقوله ﷺ: **«إن اللَّه لو عذب أهل سماواته وأهل أرضه لعذبهم وهو غير ظالم لهم»**.

ومما يوضحه أن شكره سبحانه مستحق عليهم بجهة ربوبيته لهم وكونهم عبيده

---

(١) التوبة: الآية (١١٧).

ومماليكه، وذلك يوجب عليهم أن يعرفوه، ويعظموه، ويوحدوه، ويتقربوا إليه تقرب العبد المحب الذي يتقلب في نعمه، ولا غَناء به عنه طرفة عين، فهو يدأب في التقرب إليه بجهده، ويستفرغ في ذلك وسعه وطاقته، ولا يعدل به سواه في شيء من الأشياء، ويؤثر رضا سيده على إرادته وهواه، بل لا هوى له ولا إرادة إلا فيما يريد سيده ويحبه، وهذا يستلزم علومًا وأعمالًا وإرادات وعزائم لا يعارضها غيرها، ولا يبقى له معها التفات إلى غيره بوجه، ومعلوم أن ما يطبع عليه البشر لا يفي بذلك وما يستحقه الرب تعالى لذاته وأنه أهل أن يعبد أعظم مما يستحقه لإحسانه، فهو المستحق لنهاية العبادة والخضوع والذل لذاته ولإحسانه وإنعامه. . وهو سبحانه أعلم بعباده منهم بأنفسهم، فلو عذبهم لعذبهم بما يعلمه منهم وإن لم يحيطوا به علمًا، ولو عذبهم قبل أن يرسل رسله إليهم على أعمالهم لم يكن ظالمًا لهم، كما أنه سبحانه لم يظلمهم بمقته لهم قبل إرسال رسوله على كفرهم وشركهم وقبائحهم، فإنه سبحانه نظر إلى أهل الأرض فمقتهم عربهم وعجمهم إلا بقايا من أهل الكتاب، ولكن أوجب على نفسه إذ كتب عليها الرحمة أنه لا يعذب أحدًا إلا بعد قيام الحجة عليه برسالته. وسر المسألة أنه لما كان شكر المنعم على قدره وعلى قدر نعمه، ولا يقوم بذلك أحد، كان حقه سبحانه على كل أحد، وله المطالبة به، وإن لم يغفر له ويرحمه وإلا عذبه، فحاجتهم إلى مغفرته ورحمته وعفوه كحاجتهم إلى حفظه وكلاءته ورزقه، فإن لم يحفظهم هلكوا، وإن لم يرزقهم هلكوا، وإن لم يغفر لهم ويرحمهم هلكوا وخسروا، ولهذا قال أبوهم آدم وأمهم حواء: ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾[١]، وهذا شأن ولده من بعده، وقد قال موسى كليمه سبحانه: ﴿رَبِّ إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى فَٱغْفِرْ لِى﴾[٢]. . وقال صديق الأمة وخيرها وأبرها وأتقاها لله بعد رسوله: يا رسول الله! علمني دعاءً أدعو به في صلاتي، فقال: «**قل: اللهم إني ظلمت نفسي ظلمًا كبيرًا، ولا يغفر الذنوب إلا أنت، فاغفر لي مغفرة من عندك، وارحمني إنك أنت الغفور الرحيم**»[٣]،

---

(١) الأعراف: الآية (٢٣).

(٢) القصص: الآية (١٦).

(٣) أخرجه: أحمد (١/ ٤ و٧)، والبخاري (٢/ ٤٠٤/ ٨٣٤)، ومسلم (٤/ ٢٠٧٨/ ٢٧٠٥)، والترمذي (٥/ ٥٠٧/ ٣٥٣١)، والنسائي (٣/ ٦٠-٦١/ ١٣٠١).

فاستفتح الخبر عن نفسه بأداة التوكيد التي تقتضي تقرير ما بعدها، ثم ثنى بالإخبار عن ظلمه لنفسه، ثم وصف ذلك الظلم بكونه ظلمًا كبيرًا، ثم طلب من ربه أن يغفر له مغفرة من عنده، أي: لا يبلغها علمه ولا سعيه، بل هي محض منته وإحسانه، وأكبر من عمله، فإذا كان هذا شأن من وزن بالأمة فرجح بهم، فكيف بمن دونه»[١].

* عن زهدم قال: «كان بين هذا الحي من جرم وبين الأشعريين ودّ وإخاء، فكنا عند أبي موسى الأشعري فقرب إليه الطعام فيه لحم دجاج وعنده رجل من بني تيم اللَّه كأنه من الموالي، فدعاه إليه فقال الرجل: إني رأيته يأكل شيئًا فقذرته فحلفت لا آكله، فقال: هلم فلأحدثك عن ذاك، إني أتيت النبي ﷺ في نفر من الأشعريين نستحمله، قال: **والله لا أحملكم وما عندي ما أحملكم**، فأتي النبي ﷺ بنهب إبل، فسأل عنا فقال: **أين النفر الأشعريون؟** فأمر لنا بخمس ذود غر الذرى ثم انطلقنا، قلنا: ما صنعنا! حلف رسول اللَّه ﷺ لا يحملنا، وما عنده ما يحملنا، ثم حملنا، تغفلنا رسول اللَّه ﷺ يمينه، واللَّه لا نفلح أبدًا، فرجعنا إليه فقلنا له، فقال: **لست أنا أحملكم، ولكن اللَّه حملكم، إني واللَّه لا أحلف على يمين فأرى غيرها خيرًا منها إلا أتيت الذي هو خير منه وتحللتها**»[٢].

* عن ابن عباس قال: «قدم وفد عبد القيس على رسول اللَّه ﷺ فقالوا: إن بيننا وبينك المشركين من مضر، وإنا لا نصل إليك إلا في أشهر حرم، فمرنا بجمل من الأمر إن عملنا به دخلنا الجنة وندعوا إليها من وراءنا، قال: **آمركم بأربع، وأنهاكم عن أربع: آمركم بالإيمان باللَّه، وهل تدرون ما الإيمان بالله؟ شهادة أن لا إله إلا اللَّه، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، وتعطوا من المغنم الخمس، وأنهاكم عن أربع: لا تشربوا في الدباء، والنقير، والظروف المزفتة، والحنتمة**»[٣].

* عن عائشة رضي الله عنها أن رسول اللَّه ﷺ قال: «**إن أصحاب هذه الصور يعذبون يوم**

---

(١) شفاء العليل (١/ ٢٩٠-٣٠٨).

(٢) أخرجه: أحمد (٤/ ٤٠١)، والبخاري (١٣/ ٦٤٥/ ٧٥٥٥)، ومسلم (٣/ ١٢٦٨-١٢٦٩/ ١٦٤٩[٩])، والترمذي (٤/ ٢٣٩/ ١٨٢٦) وقال: «حديث حسن»، والنسائي (٧/ ٢٣٤-٢٣٥/ ٤٣٥٧).

(٣) أخرجه: أحمد (٦/ ٧٠)، والبخاري (١٣/ ٦٤٥/ ٧٥٥٦)، ومسلم (١/ ٤٦/ ١٧)، وأبو داود (٤/ ٩٤/ ٣٦٩٢)، والترمذي (٤/ ١٣٠/ ١٥٩٩) وقال: «حسن صحيح»، والنسائي في الكبرى (٦/ ٥٣٧/ ١١٧٦٢).

القيامة، ويقال لهم: أحيوا ما خلقتم»[١].

* عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: قال النبي ﷺ: «**إن أصحاب هذه الصور يعذبون يوم القيامة، ويقال لهم: أحيوا ما خلقتم»**[٢].

* عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: سمعت النبي ﷺ يقول: «**قال الله عز وجل: ومن أظلم ممن ذهب يخلق كخلقي، فليخلقوا ذرة أو ليخلقوا حبة أو شعيرة»**[٣].

★ فوائد الأحاديث:

«ترجم البخاري لهذه الأحاديث بقوله: ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ۝٩٦﴾[٤] ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ ۝٤٩﴾ إلخ»[٥].

قال المهلب: «غرضه في هذا الباب إثبات أفعال العباد وأقوالهم خلقًا لله تعالى كسائر الأبواب المتقدمة»[٦].

قال ابن القيم: «وهذا أمر متفق عليه بين الرسل -صلوات الله وسلامه عليهم-، وعليه اتفقت الكتب الإلهية والفطر والعقول والاعتبار، وخالف في ذلك مجوس الأمة فأخرجت طاعات ملائكته وأنبيائه ورسله وعباده المؤمنين -وهي أشرف ما في العالم- عن ربوبيته وتكوينه ومشيئته، بل جعلوهم هم الخالقون لها، ولا تعلق لها بمشيئته، ولا تدخل تحت قدرته

وكذلك قالوا في جميع أفعال الحيوانات الاختيارية. فعندهم أنه سبحانه لا يقدر أن يهدي ضالاً ولا يضل مهتديًا، ولا يقدر أن يجعل المسلم مسلمًا، والكافر كافرًا، والمصلي مصليًا، وإنما ذلك بجعلهم أنفسهم كذلك لا يجعله تعالى وقد نادى القرآن؛ بل الكتب السماوية كلها، والسنة، وأدلة التوحيد والعقول

---

(١) أخرجه: أحمد (٢/ ١٠١)، والبخاري (١٣/ ٦٤٥-٦٤٦/ ٧٥٥٧)، ومسلم (٣/ ١٦٦٩/ ٢١٠٧[٩٦])، والنسائي (٨/ ٦٠٦/ ٥٣٧٧)، وابن ماجه (٢/ ٧٢٧/ ٢١٥١).

(٢) أخرجه: أحمد (٢/ ١٠١)، والبخاري (١٣/ ٦٤٦/ ٧٥٥٨)، ومسلم (٣/ ١٦٦٩-١٦٧٠/ ٢١٠٨)، والنسائي (٨/ ٦٠٦/ ٥٣٧٦).

(٣) أخرجه: أحمد (٢/ ٢٣٢)، والبخاري (١٣/ ٦٤٦/ ٧٥٥٩)، ومسلم (٣/ ١٦٧١/ ٢١١١).

(٤) الصافات: الآية (٩٦).

(٥) فتح الباري (١٣/ ٦٤٤).

(٦) شرح ابن بطال (١٠/ ٥٥٣).

على بطلان قولهم، وصاح بهم أهل العلم والإيمان من أقطار الأرض، وصنف حزب الإسلام وعصابة الرسول وعسكره التصانيف في الرد عليهم، وهي أكثر من أن يحصيها إلا اللَّه، ولم تزل أيدي السلف وأئمة السنة في أقفيتهم، ونواصيهم تحت أرجلهم إذ كانوا يردون باطلهم بالحق المحض، وبدعتهم بالسنة، والسنة لا يقوم لها شيء

فكانوا معهم كالذمة مع المسلمين، إلى أن نبغت نابغة ردوا بدعتهم ببدعة تقابلها، وقابلوا باطلهم بباطل من جنسه، وقالوا العبد مجبور على أفعاله مقهور عليها لا تأثير له في وجودها البتة، وهي واقعة بإرادته وإختياره. وغلا غلاتهم فقالوا بل هي عين أفعال اللَّه، ولا تنسب إلى العبد لا على المجاز، واللَّه سبحانه يلوم العبد ويعاقبه ويخلده في النار على ما لم يكن للعبد فيه صنع ولا هو فعله، بل هو محض فعل اللَّه، وهذا قول الجبرية، وهو أن لم يكن شرًّا من القدرية فليس هو بدونه في البطلان.

وإجماع الرسل واتفاق الكتب الإلهية وأدلة العقول والفطر والعيان يكذب هذا القول ويرده. والطائفتان في عمى عن الحق القويم والصراط المستقيم»[1].

قلت: وقد تقدم بيان غريب هذه الأحاديث ووجه دلالة كل حديث منها على أن أفعال العباد وأقوالهم خلق لله وكسب من العباد، على مذهب أهل الحق سلف الأمة، أهل السنة والجماعة، خلافًا لأهل الأهواء والبدع من معتزلة وجبرية عند قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾﴾ الآية (٩٦) من سورة (الصافات)، فليراجع، وباللَّه التوفيق.

* * *

(١) شفاء العليل (١/ ١٤٥-١٤٦).

قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَمْرُنَآ إِلَّا وَٰحِدَةٌ كَلَمْحٍۭ بِٱلْبَصَرِ ۝٥٠﴾

★ **غريب الآية:**

كلمح بالبصر: أي: قضائي في خلقي أسرع من لمح البصر. واللمح: النظر بالعجلة؛ يقال: لمح البرق ببصره وألمحه: إذا أبصره بنظر خفيف.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن كثير: «هذا إخبار عن نفوذ مشيئته في خلقه كما أخبر بنفوذ قدره فيهم، فقال: ﴿وَمَآ أَمْرُنَآ إِلَّا وَٰحِدَةٌ﴾ أي: إنما نأمر بالشيء مرة واحدة، لا نحتاج إلى تأكيد بثانية، فيكون ذلك الذي نأمر به حاصلًا موجودًا كلمح البصر، لا يتأخر طرفة عين، وما أحسن ما قال بعض الشعراء:

إذا ما أراد اللَّه أمرًا فإنما ... يقول له كن قولةً فيكونُ»[١].

* * *

(١) تفسير القرآن العظيم (٧/ ٤٦١).

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَآ أَشْيَاعَكُمْ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ۝٥١﴾

★ **غريب الآية:**

أشياعكم: أي: أشباهكم في الكفر من الأمم الخالية. وقيل: أتباعكم وأعوانكم.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن كثير: قوله: ﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَآ أَشْيَاعَكُمْ﴾ يعني: أمثالكم وسلفكم من الأمم السالفة المكذّبين بالرسل، ﴿فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾ أي: فهل من متعظ بما أخزى اللَّه أولئك، وقدر لهم من العذاب، كما قال: ﴿وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ كَمَا فُعِلَ بِأَشْيَاعِهِم مِّن قَبْلُ﴾[1]»[2].

* * *

---

(١) سبأ: الآية (٥٤).

(٢) تفسير القرآن العظيم (٧/ ٤٦١).

قوله تعالى: ﴿وَكُلُّ شَيْءٍ فَعَلُوهُ فِي الزُّبُرِ ۝ وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُسْتَطَرٌ ۝﴾

★ **غريب الآية:**

مستَطَر: أي: مكتوب على عامله؛ يقال: سطر يسطر سطرًا: كتب، واستطر مثله.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال السعدي: «وهذا حقيقة القضاء والقدر، أن جميع الأشياء كلها، قد علمها اللَّه تعالى، وسطرها عنده في اللوح المحفوظ، فما شاء اللَّه كان، وما لم يشأ لم يكن، فما أصاب الإنسان لم يكن ليخطئه، وما أخطأه لم يكن ليصيبه»[1].

قال الشنقيطي: «الصحيح في معنى الآية أن كل شيء فعله الناس مكتوب عليهم في الزبر، التي هي صحف الأعمال، وكل صغير وكبير مستطر، أي: مكتوب عليهم لا يترك منه شيء.

وهذا المعنى جاء موضحًا في آيات من كتاب اللَّه كقوله تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا مَالِ هَذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا﴾[2]، وقوله تعالى: ﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَدًا بَعِيدًا﴾[3]»[4].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في التحذير من محقرات الذنوب

* عن عائشة أن رسول اللَّه ﷺ قال: «**يا عائشة! إياك ومحقرات الذنوب؛ فإن**

---

(١) تيسير الكريم الرحمن (٧/ ٢٤٢).
(٢) الكهف: الآية (٤٩).
(٣) آل عمران: الآية (٣٠).
(٤) الأضواء (٧/ ٧٢٩-٧٣٠).

لها من اللَّه ﷻ طالبًا»[١] .

★ فوائد الحديث:

قال الطحاوي: «تأملنا هذا الحديث، فوجدنا فيه تحذير رسول اللَّه ﷺ أهل الإيمان من محقرات الذنوب، فدل ذلك أنهم مأخوذون بها مع إيمانهم، معاقبون عليها إلا أن يعفو اللَّه ﷻ عنهم، وفي ذلك ما قد دل على أن الإيمان لا يرفع عقوبات صغار الذنوب، وإذا كان لا يرفع عقوبات صغارها، كان بأن لا يرفع عقوبات كبارها أولى، . . وقد وجدنا في كتاب اللَّه ﷻ ما يدل على هذا المعنى، وهو قوله ﷻ: ﴿وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ فَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَٰوَيْلَتَنَا مَالِ هَٰذَا ٱلْكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا ۚ وَوَجَدُوا۟ مَا عَمِلُوا۟ حَاضِرًا ۗ وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴿٤٩﴾﴾[٢]، وفي ذلك ما قد دل على أن أهل الوعد المذكورين في حديثي أبي الدرداء وأبي هريرة عند تلاوة رسول اللَّه ﷺ: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ ﴿٤٦﴾﴾[٣]، وعند جوابه كل واحد من أبي الدرداء ومن أبي هريرة لما قاله له: وإن زنى وإن سرق، بما أجابه به منهما، وإنهم زالوا بعد الزنى وبعد السرقة اللذين كانا منهم عن الزنى والسرقة اللذين كانا منهم إلى ضدهما، فخرجوا من أهل الوعيد لأهل المعنى الأول، ودخلوا في أهل الوعد الذي أعقبه، فبان بحمد اللَّه ونعمته بما ذكرنا من معاني أحاديث رسول اللَّه ﷺ ما ذكرنا مما بان به منهما، واللَّه ﷻ نسأله التوفيق»[٤].

قال القاري: «**«فإن لها»** أي: للمحقرات من الذنوب **«من الله»** أي: من عنده سبحانه **«طالبًا»** أي: نوعًا من العذاب يعقبه، فكأنه يطلبه طلبًا لا مردّ له، فالتنوين للتعظيم، أي: طالبًا عظيمًا، فلا ينبغي أن يغفل عنه، بل ينبغي أن يخشى منه»[٥].

قال المناوي: «قال الغزالي: وتواتر الصغائر عظيم التأثير في سواد القلب،

---

(١) أخرجه: أحمد (٦/ ٧٠)، وابن ماجه (٢/ ١٤١٧/ ٤٢٤٣) وقال البوصيري: «إسناده صحيح، رجاله ثقات»، وصححه ابن حبان (الإحسان ١٢/ ٣٧٩/ ٥٥٦٨).

(٢) الكهف: الآية (٤٩).

(٣) الرحمن: الآية (٤٦).

(٤) شرح مشكل الآثار (١٠/ ١٧٢-١٧٣).

(٥) المرقاة (٩/ ٢١٨-٢١٩).

وهو كتواتر قطرات الماء على الحجر؛ فإنه يحدث فيه حفرة لا محالة مع لين الماء وصلابة الحجر، قال العلائي: أخذ من كلام حجة الإسلام أن مقصود الحديث: الحث على عدم التهاون بالصغائر ومحاسبة النفس عليها وعدم الغفلة عنها؛ فإن في إهمالها هلاكه، بل ربما تغلب الغفلة على الإنسان فيفرح بالصغيرة، ويتحجج بها ويعد التمكن منها نعمة، غافلًا عن كونها وإن صغرت سبب للشقاوة، حتى إن من المذنبين من يتمدح بذنبه لشدة فرحه بمقارفته، فيقول: أما رأيتني كيف مزقت عرضه؟ ويقول المناظر: أما رأيتني كيف فضحته وذكرت مساوئه حتى أخجلته، وكيف استخففت به وحقرته؟ ويقول التاجر: أما رأيت كيف روجت عليه الزائف وكيف خدعته وغبنته؟ وذلك وأمثاله من المهلكات»[1].

* * *

(١) فيض القدير (٣/ ١٢٨).

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَنَهَرٍ ﴿٥٤﴾ فِى مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍۭ ﴿٥٥﴾﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال السعدي: «﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ لله، بفعل أوامره وترك نواهيه، الذين اتقوا الشرك والكبائر والصغائر ﴿فِى جَنَّٰتٍ وَنَهَرٍ﴾ أي: في جنات النعيم، التي فيها ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر، من الأشجار اليانعة، والأنهار الجارية، والقصور الرفيعة، والمنازل الأنيقة، والمآكل والمشارب اللذيذة، والحور الحسان، والروضات البهية في الجنان، ورضوان الملك الديان، والفوز بقربه»[١].

قال ابن كثير: «وقوله: ﴿فِى مَقْعَدِ صِدْقٍ﴾ أي: في دار كرامة اللَّه ورضوانه وفضله، وامتنانه وجوده وإحسانه، ﴿عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍۭ﴾ أي: عند الملك العظيم الخالق للأشياء كلها ومقدرها، وهو مقتدر على ما يشاء مما يطلبون ويريدون»[٢].

قال الشنقيطي: «قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَنَهَرٍ ﴿٥٤﴾﴾ أي: في جنات وأنهار، كما أوضح تعالى ذلك في قوله: ﴿تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾[٣]، وقوله تعالى: ﴿فِيهَآ أَنْهَٰرٌ مِّن مَّآءٍ غَيْرِ ءَاسِنٍ وَأَنْهَٰرٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُۥ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى﴾[٤].

وقد ذكرنا كثيرًا من أمثلة إطلاق المفرد وإرادة الجمع كما هنا في القرآن العظيم، مع تنكير المفرد وتعريفه وإضافته، وأكثرنا أيضًا من الشواهد العربية على ذلك في سورة (الحج) في الكلام على قوله تعالى: ﴿ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا﴾[٥]، وفي غير ذلك

---

(١) تيسير الكريم الرحمن (٧/ ٢٤٢).
(٢) تفسير القرآن العظيم (٧/ ٤٨٧).
(٣) البقرة: الآية (٢٥).
(٤) محمد: الآية (١٥).
(٥) الحج: الآية (٥).

من المواضع. والعلم عند اللَّه تعالى»[١].

قال القاسمي: «قال الشهاب: في تنكير الاسمين الكريمين إشارة إلى أن ملكه وقدرته لا تدري الأفهام كنهها، وأن قربهم منه بمنزلة من السعادة والكرامة، بحيث لا عين رأت، ولا أذن سمعت، مما يجل عن البيان، وتكلّ دونه الأذهان»[٢].

قال ابن القيم: «سمى جنته (مقعد صدق) لحصول كل ما يراد من المقعد الحسن فيها، كما يقال: مودة صادقة: إذا كانت ثابتة تامة، وحلاوة صادقة، وحملة صادقة، ومنه الكلام الصدق؛ لحصول مقصوده منه، وموضع هذه اللفظة في كلامهم الصحة والكمال، ومنه الصدق في الحديث، والصدق في العمل، والصديق الذي يصدق قوله بالعمل، والصَّدق بالفتح: الصلب من الرماح، ويقال للرجل الشجاع: إنه لذو مَصْدَق، أي: صادق الحملة، وهذا مصداق هذا، أي: ما يصدقه، ومنه الصداقة لصفاء المودة والمخالة، ومنه: صدقني القتال وصدقني المودة، ومنه قدم صدق، ولسان صدق، ومدخل صدق، ومخرج صدق، وذلك كله للحق الثابت المقصود الذي يرغب فيه، بخلاف الكذب الباطل الذي لا شيء تحته، وهو لا يتضمن أمرًا ثابتًا قط. وفسر قوم (قدم صدق) بالجنة، وفسر بالأعمال التي تنال بها الجنة، وفسر بالسابقة التي سبقت لهم من اللَّه، وفسر بالرسول الذي على يده وهدايته نالوا ذلك، والتحقيق أن الجميع حق؛ فإنهم سبقت لهم من اللَّه الحسنى بتلك السابقة، أي: بالأسباب التي قدرها لهم على يد رسوله، وادّخر لهم جزاءها يوم القيامة، ولسان الصدق، وهو لسان الثناء الصادق بمحاسن الأفعال وجميل الطرائق، وفي كونه لسان صدق إشارة إلى مطابقته للواقع، وأنه ثناء بحق، لا بباطل، ومدخل الصدق ومخرج الصدق هو المدخل والمخرج الذي يكون صاحبه فيه ضامنًا على اللَّه، وهو دخوله وخروجه باللَّه ولله، وهذه الدعوة من أنفع الدعاء للعبيد؛ فإنه لا يزال داخلًا في أمر وخارجًا من أمر، فمتى كان دخوله لله وباللَّه وخروجه كذلك، كان قد أدخل مدخل صدق، وأخرج مخرج صدق، واللَّه المستعان»[٣].

---

(١) أضواء البيان (٧/ ٧٣٠).
(٢) محاسن التأويل (١٥/ ٢٧٧).
(٣) حادي الأرواح (ص: ٧٠).

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في ثواب أهل الجنة عند الله ﷻ

* عن عبدالله بن عمرو عن النبي ﷺ قال: «**إن المقسطين عند الله تعالى على منابر من نور على يمين الرحمن، الذين يعدلون في حكمهم وأهليهم وما ولوا**»[١].

★ غريب الحديث:

المقسطون: هم العادلون، وقد فسره في آخر الحديث، والإقساط والقسط بكسر القاف العدل يقال: أقسط إقساطا فهو مقسط إذا عدل.

على يمين الرحمن: وزاد في لفظ مسلم: «**وكلتا يديه يمين**»، وهذا هو الراجح إن شاء الله تأدبًا وتعظيمًا له ﷻ، إذ الشمال من صفات النقص والضعف.

ثم نقول: إن صفات الله توقيفية، وما لم يأت دليل صحيح صريح في وصف إحدى يدي الله ﷻ بالشمال أو اليسار، فإننا لا نتعدى قول النبي ﷺ: «**كلتا يديه يمين**»، والله أعلم[٢].

ما ولوا: بفتح الواو وضم اللام المخففة، أي: كانت لهم عليه ولاية.

★ فوائد الحديث:

قال النووي: «أما المنابر فجمع منبر، سمي به لارتفاعه، قال القاضي: يحتمل أن يكونوا على منابر حقيقة على ظاهر الحديث، ويحتمل أن يكون كناية عن المنازل الرفيعة، قلت: الظاهر الأول، ويكون متضمنًا للمنازل الرفيعة، فهم على منابر حقيقة، ومنازلهم رفيعة»[٣].

قال الطيبي: «ويؤيده -أي: الجمع الذي ذكره النووي- قوله: «**عن يمين الرحمن**». قال التوربشتي: المراد منه كرامتهم على الله، وقرب محلهم، وعلو منزلتهم، وذلك لأن من شأن من عظم قدره في الناس، أن يبوأ عن يمين الملك، ثم

---

(١) أخرجه: أحمد (٢/ ١٦٠)، ومسلم (٣/ ١٤٥٨/ ١٨٢٧)، والنسائي (٨/ ٦١٢/ ٥٣٩٤).

(٢) ولمزيد من الاطلاع انظر «صفات الله ﷻ» للسقاف (ص: ٢٨٣).

(٣) شرح مسلم (١٢/ ١٧٨).

إنه نزه ربه سبحانه عما سبق إلى فهم من لم يقدر اللَّه حق قدره من مقابلة اليمين باليسار، وكشف عن حقيقة المراد بقوله: «**وكلتا يديه يمين**».

قال الخطابي: ليس فيما يضاف إلى اللَّه تعالى من صفة اليدين شمال؛ لأن الشمال تدل على النقص والضعف، وقوله: «**وكلتا يديه يمين**» هي صفة جاء بها التوقيف، فنحن نطلقها على ما جاءت، ولا نكيفها، وننتهي حيث انتهى بنا الكتاب والأخبار الصحيحة، وهو مذهب أهل السنة والجماعة»[١].

قال أبو يعلى الفراء: «اعلم أن هذا الخبر يتضمن اليدين وإثبات اليمين، وقد تقدم ذكر ذلك، وبينا أنه ليس في إطلاق ذلك ما يحيل صفاته؛ لأن إطلاق اليمين كإطلاق اليد»[٢].

وقد تقدم الكلام على هذا المعنى مستوفى فيما تقدم، وباللَّه التوفيق.

* * *

---

(١) الكاشف (٨/ ٢٥٧١).

(٢) إبطال التأويلات (١/ ١٧١).



سورة الرحمن

أغراض السورة

قال ابن عاشور: «ابتدئت بالتنويه بالقرآن؛ قال في الكشاف: أراد اللَّه أن يقدم في عداد آلائه أول شيء ما هو أسبق قدمًا من ضروب آلائه وأصناف نعمائه، وهي نعمة الدين، فقدم من نعمة الدين ما هو أعلى مراتبها، وأقصى مراقبها، وهو إنعامه بالقرآن وتنزيله وتعليمه، وأخر ذكر خلق الإنسان عن ذكره، ثم أتبعه إياه، ثم ذكر ما تميز به من سائر الحيوان من البيان. اهـ.

وتبع ذلك من التنويه بالنبي ﷺ بأن اللَّه هو الذي علمه القرآن ردًّا على مزاعم المشركين الذين يقولون: ﴿إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٌۗ﴾[1]، وردًّا على مزاعمهم أن القرآن أساطير الأولين، أو أنه سحر، أو كلام كاهن، أو شعر.

ثم التذكير بدلائل قدرة اللَّه تعالى في ما أتقن صنعه مدمجا في ذلك التذكير بما في ذلك كله من نعم على الناس.

وخلق الجن وإثبات جزائهم.

والموعظة بالفناء، وتخلص من ذلك إلى التذكير بيوم الحشر والجزاء. وختمت بتعظيم اللَّه والثناء عليه.

وتخلل ذلك إدماج التنويه بشأن العدل، والأمر بتوفية أصحاب الحقوق حقوقهم، وحاجة الناس إلى رحمة اللَّه فيما خلق لهم، ومن أهمها نعمة العلم ونعمة البيان وما أعد من الجزاء للمجرمين ومن الثواب والكرامة للمتقين ووصف نعيم المتقين.

---

(١) النحل: الآية (١٠٣).

ومن بديع أسلوبها افتتاحها الباهر باسمه (الرحمن) وهي السورة الوحيدة المفتتحة باسم من أسماء اللَّه لم يتقدمه غيره.

ومنه التعداد في مقام الامتنان والتعظيم بقوله: ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ إذ تكرر فيها إحدى وثلاثين مرة، وذلك أسلوب عربي جليل»[١].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في فضيلة سورة (الرحمن)

* عن جابر رضي الله عنه قال: «خرج رسول اللَّه ﷺ على أصحابه فقرأ عليهم سورة (الرحمن) من أولها إلى آخرها فسكتوا، فقال: **لقد قرأتها على الجن ليلة الجن فكانوا أحسن مردودًا منكم؛ كنت كلما أتيت على قوله: ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ قالوا: لا بشيء من نعمك ربنا نكذّب، فلك الحمد**»[٢].

⋆ غريب الحديث:

مردودًا: أي ردًّا.

⋆ فوائد الحديث:

مما يبيّن فضيلة هذه السورة ويجلّيها، اختيار النبي ﷺ لها وقراءتها على الجن؛ لما فيها من الأمور التي تستدعي الإيمان والتصديق لما جاء به النبي ﷺ.

قال ابن ناصر السعدي: «وما أحسن جواب الجن حين تلا عليهم النبي ﷺ هذه السورة، فما مرّ بقوله: ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ إلا قالوا: ولا بشيء من آلائك ربّنا نكذب، فلك الحمد. فهذا الذي ينبغي للعبد إذا تليت عليه نعم اللَّه وآلاؤه أن يُقرّ بها ويشكر، ويحمد اللَّه عليها»[٣].

قال ابن القيم: «وقد دلت سورة (الرحمن) على تكليفهم بالشرائع كما كُلف الإنس، ولهذا يقول في إثر كل آية (الرحمن): ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾، فدل

---

(١) التحرير والتنوير (٢٧/ ٢٢٩).

(٢) أخرجه: الترمذي (٥/ ٣٧٢-٣٧٣/ ٣٢٩١)، وقال: «هذا حديث غريب لا نعرفه إلا من حديث الوليد بن مسلم عن زهير»، والحاكم (٢/ ٤٧٣) وقال: «صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه» ووافقه الذهبي، وأبو الشيخ في «العظمة»، وحسنه الشيخ الألباني في 'السلسلة الصحيحة' (٢١٥٠).

(٣) تيسير الكريم الرحمن (ص: ٨٢٩).

ذلك على أن السورة خطاب للثقلين معًا، ولهذا قرأها رسول اللَّه ﷺ على الجن قراءة تبليغ وأخبر أصحابه أنهم كانوا أحسن ردًّا منهم؛ فإنهم جعلوا يقولون كلما قرأ عليهم: ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾: لا نكذِّب بشيء من آلائك ربنا، فلك الحمد»[١].

وقال أيضًا: «ومما يدل على أنهم مأمورون منهيون بشريعة الإسلام ما تضمنته سورة (الرحمن)؛ فإنه سبحانه وتعالى ذكر خلق النوعين في قوله تعالى: ﴿خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِن صَلْصَٰلٍ كَٱلْفَخَّارِ ۝١٤ وَخَلَقَ ٱلْجَآنَّ مِن مَّارِجٍ مِّن نَّارٍ﴾[٢]، ثم خاطب النوعين بالخطاب المتضمّن لاستدعاء الإيمان منهم وإنكار تكذيبهم بالآية، وترغيبهم في وعده وتخويفهم من وعيده وتهديدهم بقوله تعالى: ﴿سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَ ٱلثَّقَلَانِ﴾[٣] وتخويفهم من عواقب ذنوبهم، وأنه لعلمه بها لا يحتاج أن يسألهم عنها سؤال استعلام، بل يعرف المجرمون منهم بسيماهم فيؤخذ بنواصيهم والأقدام، ثم ذكر عقاب الصنفين وثوابهم، وهذا كله صريح في أنهم هم المكلفون المأمورون المنهيون المثابون المعاقبون، وفي الترمذي من حديث محمد بن المنكدر عن جابر بن عبد اللَّه قال: «خرج رسول اللَّه ﷺ على أصحابه، فقرأ عليهم سورة (الرحمن) من أولها إلى آخرها فسكتوا، فقال: «**لقد قرأتها على الجن ليلة الجن وكانوا أحسن مردودًا منكم، كنت كلما أتيت على آية: ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ قالوا: لا شيء من نعمك ربنا نكذب فلك الحمد**»، وهذا يدل على ذكائهم وفطنتهم ومعرفتهم بمؤنة الخطاب، وعلمهم أنهم مقصودون به»[٤].

* عن عبد اللَّه بن مسعود قال: أقرأني رسول اللَّه ﷺ سورة (الرحمن)، فخرجت إلى المسجد عشية فجلس إلي رهط، فقلت لرجل: اقرأ عليّ، فإذا هو يقرأ أحرفًا لا أقرؤها، فقلت: من أقرأك؟ فقال: أقرأني رسول اللَّه ﷺ، فانطلقنا حتى وقفنا على النبي ﷺ فقلت: اختلفنا في قراءتنا، فإذا وجه رسول اللَّه ﷺ فيه تغير، ووجد في نفسه حين ذكرت الاختلاف، فقال: **إنما هلك من قبلكم بالاختلاف**.

---

(١) طريق الهجرتين (ص: ٤١٧).

(٢) الرحمن: الآيتان (١٤و١٥).

(٣) الرحمن: الآية (٣١).

(٤) طريق الهجرتين (ص: ٤٢٢).

فأمر عليًّا فقال: إن رسول اللَّه ﷺ يأمركم أن يقرأ كل رجل منكم كما علم؛ فإنما أهلك من قبلكم الاختلاف. قال: فانطلقنا وكل رجل منّا يقرأ حرفًا لا يقرأ صاحبه»[١].

* * *

(١) أخرجه: أحمد (١/ ٤١٢) بنحوه، وصححه ابن حبان (الإحسان ٣/ ٢٢/ ٧٤٧) واللفظ له، وأخرجه الحاكم (٢/ ٢٢٣-٢٢٤) وسكت عنه وصححه الذهبي. وأخرجه مختصرًا: أحمد (١/ ٣٩٣و٤١١-٤١٢)، والبخاري (٥/ ٨٩/ ٢٤١٠)، والنسائي في الكبرى (٥/ ٣٣/ ٨٠٩٤).

قوله تعالى: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ
الرَّحْمَٰنُ ﴿١﴾ عَلَّمَ الْقُرْآنَ ﴿٢﴾ خَلَقَ الْإِنسَانَ ﴿٣﴾ عَلَّمَهُ الْبَيَانَ ﴿٤﴾﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآيات

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره-: الرحمن أيها الناس برحمته إياكم علمكم القرآن، فأنعم بذلك عليكم، إذ بصّركم به ما فيه رضا ربكم، وعرّفكم ما فيه سخطه، لتطيعوه باتباعكم ما يرضيه عنكم، وعملكم بما أمركم به، وبتجنبكم ما يسخطه عليكم، فتستوجبوا بذلك جزيل ثوابه، وتنجوا من أليم عقابه. .

قوله: ﴿عَلَّمَهُ الْبَيَانَ ﴿٤﴾﴾: يقول -تعالى ذكره-: علم الإنسان البيان. ثم اختلف أهل التأويل في المعني بالبيان في هذا الموضع، فقال بعضهم: عني به بيان الحلال والحرام. . وقال آخرون: عني به الكلام، أي: أن اللَّه ﷻ علم الإنسان البيان. . والصواب من القول في ذلك أن يقال: معنى ذلك: أن اللَّه علّم الإنسان ما به الحاجة إليه من أمر دينه ودنياه من الحلال والحرام، والمعايش والمنطق، وغير ذلك مما به الحاجة إليه؛ لأن اللَّه -جل ثناؤه- لم يخصص بخبره ذلك، أنه علّمه من البيان بعضًا دون بعض، بل عمّ فقال: علّمه البيان، فهو كما عمّ -جل ثناؤه-»[1].

قال أبو السعود: «﴿الرَّحْمَٰنُ ﴿١﴾ عَلَّمَ الْقُرْآنَ ﴿٢﴾﴾ لأنه أعظم النعم شأنًا، وأرفعها مكانًا. كيف لا وهو مدار للسعادة الدينية والدنيوية، عيار على سائر الكتب السماوية، ما من مرصد يدنو إليه أحداق الأمم إلا وهو منشؤه ومناطه، ولا مقصد يمتد إليه أعناق الهمم إلا وهو منهجه وصراطه»[2].

قال ابن القيم: «وقوله تعالى: ﴿الرَّحْمَٰنُ ﴿١﴾ عَلَّمَ الْقُرْآنَ ﴿٢﴾ خَلَقَ الْإِنسَانَ ﴿٣﴾ عَلَّمَهُ الْبَيَانَ ﴿٤﴾﴾ دلت هذه الكلمات على إعطائه سبحانه مراتب الوجود بأسرها، فقوله: ﴿خَلَقَ الْإِنسَانَ﴾ إخبار عن الإيجاد الخارجي العيني. . .

---

(١) جامع البيان (٢٧/ ١١٤-١١٥).

(٢) إرشاد العقل السليم (٨/ ١٧٦).

وقوله: ﴿عَلَّمَ ٱلْقُرْءَانَ ۝٢﴾ إخبار عن إعطاء الوجود العلمي الذهني؛ فإنما تعلّم الإنسان القرآن بتعليمه، كما أنه إنما صار إنسانًا بخلقه، فهو الذي خلقه وعلّمه.

ثم قال: ﴿عَلَّمَهُ ٱلْبَيَانَ ۝٤﴾ والبيان هنا يتناول مراتب ثلاثة، كل منها يسمى بيانًا:

أحدها: البيان الذهني الذي يميز فيه بين المعلومات.

الثاني: البيان اللفظي الذي يعبّر به عن تلك المعلومات، ويترجم عنها فيه غيره.

الثالث: البيان الرسمي الخطي الذي يرسم به تلك الألفاظ فيتبيّن للناظر معانيها كما يبين للسامع معاني الألفاظ، فهذا بيان للعين، وذاك بيان للسمع، والأول بيان للقلب.

وكثيرًا ما يجمع سبحانه بين هذه الثلاثة، كقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا﴾[1]، وقوله: ﴿وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ۝٧٨﴾[2]، ويذمّ من عدم الانتفاع بها في اكتساب الهدى والعلم النافع، كقوله: ﴿صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ﴾[3]، وقوله: ﴿خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ وَعَلَىٰٓ أَبْصَٰرِهِمْ غِشَٰوَةٌ﴾[4]..

تنبيه: تأمل حكمة اللطيف الخبير فيما أعطى الإنسان علمَهُ بما فيه صلاح معاشه ومعاده، ومنع عنه علم ما لا حاجة له به، فجهله به لا يضر، وعلمه لا ينتفع به انتفاعًا طائلًا.

ثم يسّر عليه طرق ما هو محتاج إليه من العلم أتمّ تيسير، وكلما كانت حاجته إليه من العلم أعظم كان تيسيره إياه عليه أتمّ.

فأعطاه معرفة خالقه وبارئه ومبدعه سبحانه، والإقرار به، ويسّر عليه طرق هذه المعرفة، فليس في العلوم ما هو أجل منها ولا أظهر عند العقل والفطرة، وليس في طرق العلوم التي تُنال بها أكثر من طرقها، ولا أدل ولا أبين ولا أوضح، فكل ما

---

(١) الإسراء: الآية (٣٦).
(٢) النحل: الآية (٧٨).
(٣) البقرة: الآية (١٨).
(٤) البقرة: الآية (٧).

تراه بعينك أو تسمعه بأذنك أو تعقله بقلبك، وكل ما يخطر ببالك وكل ما نالته حاسة من حواسّك فهو دليل على الرب -تبارك وتعالى-.

فطرق العلم بالصانع فطرية ضرورية، ليس في العلوم أجلّ منها، وكل ما استُدِلّ به على الصانع فالعلم بوجوده أظهر من دلالته، ولهذا قالت الرسل لأممهم: ﴿أَفِي ٱللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾(1)؟ فخاطبوهم مخاطبة من لا ينبغي أن يخطر له شك ما في وجود اللَّه سبحانه.

ونصب من الأدلة الدالة على وجوده ووحدانيته وصفات كماله على اختلاف أنواعها، ولا يطيق حصرها إلا اللَّه، ثم ركز ذلك في الفطرة، ووضعه في العقل جملة، ثم بعث الرسل مذكّرين به»(2).

وقال أيضًا: «وقد جمع سبحانه بين الأمرين -أعني القرآن ونطق اللسان- وجعل تعليمها من تمام نعمته وامتنانه، كما قال: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ ۝١ عَلَّمَ ٱلْقُرْءَانَ ۝٢ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ ۝٣ عَلَّمَهُ ٱلْبَيَانَ﴾، فبهذه الحروف علم القرآن، وبها علم البيان، وبها فضل الإنسان على سائر أنواع الحيوان، وبها أنزل كتبه، وبها أرسل رسله، وبها جمعت العلوم وحفظت، وبها انتظمت مصالح العباد في المعاش والمعاد، وبها يتميز الحق من الباطل والصحيح من الفاسد، وبها جمعت أشتات العلوم، وبها أمكن تنقلها في الأذهان، وكم جلب بها من نعمة ودفع بها من نقمة، وأقيلت بها من عثرة وأقيمت بها من حرمة، وهدي بها من ضلالة وأقيم بها من حق، وهدم بها من باطل، فآياته سبحانه في تعليم البيان كآياته في خلق الإنسان. ولولا عجائب صنع اللَّه ما ثبتت تلك الفضائل في لحم ولا عصب. فسبحان من هذا صنعه في هواء يخرج من قصبة الرئة، فينضم في الحلقوم وينفرش في أقصى الحلق، ووسطه، وآخره، وأعلاه، وأسفله، وعلى وسط اللسان، وأطرافه، وبين الثنايا، وفي الشفتين، والخيشوم، فيسمع له عند كل مقطع من تلك المقاطع صوت غير صوت المقطع المجاور له، فإذا هو حرف.

فألهم سبحانه الإنسان بضم بعضها إلى بعض، فإذا هي كلمات قائمة بأنفسها.

---

(1) إبراهيم: الآية (١٠).

(2) مفتاح دار السعادة (٢/ ٢٤١-٢٤٣).

ثم ألهمهم تأليف تلك الكلمات بعضها إلى بعض، وإذا هي كلام دال على أنواع المعاني أمرًا، ونهيًا، وخبرًا، واستخبارًا، ونفيًا، وإثباتًا، وإقرارًا، وإنكارًا، وتصديقًا، وتكذيبًا، وإيجابًا، واستحبابًا، وسؤالًا، وجوابًا، إلى غير ذلك من أنواع الخطاب، نظمه ونثره، ووجيزه، ومطوله، على اختلاف لغات الخلائق، كل ذلك صنعته -تبارك وتعالى- في هواء مجرد خارج من باطن الإنسان إلى ظاهره، في مجار قد هيئت وأعدت لتقطيعه وتفصيله، ثم تأليفه وتوصيله، فتبارك اللَّه رب العالمين وأحسن الخالقين، فهذا شأن الحرف المخلوق»[١].

قال الشنقيطي: «هذه الآية الكريمة تتضمن ردّ اللَّه على الكفار في قولهم: إنه تعلم هذا القرآن من بشر، كما تقدم في قوله: ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٌ﴾[٢]، وقوله تعالى: ﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ﴾[٣] أي: يرويه محمد عن غيره.

وقوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ إِفْكٌ ٱفْتَرَىٰهُ وَأَعَانَهُۥ عَلَيْهِ قَوْمٌ ءَاخَرُونَ فَقَدْ جَآءُو ظُلْمًا وَزُورًا ۝٤ وَقَالُوٓاْ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ٱكْتَتَبَهَا فَهِىَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ۝٥﴾[٤].

فقوله تعالى هنا: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ ۝١ عَلَّمَ ٱلْقُرْءَانَ﴾ أي: ليس الأمر كما ذكرتم من أنه تعلم القرآن من بشر، بل الرحمن -جل وعلا- هو الذي علمه إياه، والآيات الدالة على هذا كثيرة جدًّا، كقوله تعالى: ﴿قُلْ أَنزَلَهُ ٱلَّذِى يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾[٥]، وقوله تعالى: ﴿الٓر كِتَٰبٌ أُحْكِمَتْ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ۝١﴾[٦]، وقوله تعالى: ﴿حمٓ ۝١ تَنزِيلٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٢ كِتَٰبٌ فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ۝٣ بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾[٧]، وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ جِئْنَٰهُم بِكِتَٰبٍ فَصَّلْنَٰهُ عَلَىٰ عِلْمٍ هُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ۝٥٢﴾[٨]، وقوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ ٱلْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا ۝١١٣﴾[٩]، وقوله تعالى: ﴿وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا ۝٣٣﴾[١٠]، وقوله تعالى: ﴿إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ

---

(١) التبيان في أقسام القرآن (ص: ١٢٢-١٢٣).
(٢) النحل: الآية (١٠٣).
(٣) المدثر: الآية (٢٤).
(٤) الفرقان: الآيتان (٤و٥).
(٥) الفرقان: الآية (٦).
(٦) هود: الآية (١).
(٧) فصلت: الآيات (١-٤).
(٨) الأعراف: الآية (٥٢).
(٩) طه: الآية (١١٣).
(١٠) الفرقان: الآية (٣٣).

وَقُرْءَانَهُۥ ﴿١٧﴾ فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ ﴿١٨﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ ﴿١٩﴾﴾[١]، وقوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا ۚ﴾[٢]، وقوله تعالى: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ بِمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِۦ لَمِنَ ٱلْغَٰفِلِينَ ﴿٣﴾﴾[٣]، وقوله تعالى: ﴿وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ ۚ وَكَانَ فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا﴾[٤]، ومن أعظم ذلك هذا القرآن العظيم، وقوله تعالى: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْهُدَىٰ وَٱلْفُرْقَانِ ۚ﴾[٥].

وتعليمه -جل وعلا- هذا القرآن العظيم قد بين في مواضع أخر أنه من أعظم نعمه كما قال تعالى: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا ۖ﴾ إلى قوله: ﴿ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ﴾[٦].

وقد علّم اللَّه تعالى الناس أن يحمدوه على هذه النعمة العظمى التي هي إنزال القرآن، وذلك في قوله تعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَٰبَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُۥ عِوَجَا ۜ ﴿١﴾﴾[٧]، وبيّن أن إنزاله رحمة منه لخلقه -جل وعلا- في آيات من كتابه؛ كقوله تعالى: ﴿وَمَا كُنتَ تَرْجُوٓا۟ أَن يُلْقَىٰٓ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبُ إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ۖ﴾[٨]، وقوله: ﴿إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ ﴿٥﴾ رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ۚ﴾[٩]..

﴿عَلَّمَ ٱلْقُرْءَانَ ﴿٢﴾﴾ حذف فيه أحد المفعولين، والتحقيق أن المحذوف هو الأول لا الثاني، كما ظنه الفخر الرازي، وقد ردّه عليه أبو حيان، والصواب هو ما ذكره، من أن المحذوف الأول، وتقديره: علم النبي القرآن، وقيل: جبريل، وقيل: الإنسان.

قوله تعالى: ﴿خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ﴾:

اعلم أولًا أن خلق الإنسان وتعليمه البيان من أعظم آيات اللَّه الباهرة، كما أشار تعالى لذلك بقوله في أول (النحل): ﴿خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ

---

(١) القيامة: الآيات (١٧-١٩).
(٢) الشورى: الآية (٥٢).
(٣) يوسف: الآية (٣).
(٤) النساء: الآية (١١٣).
(٥) البقرة: الآية (١٨٥).
(٦) فاطر: الآية (٣٢).
(٧) الكهف: الآية (١).
(٨) القصص: الآية (٨٦).
(٩) الدخان: الآيتان (٥و٦).

مُّبِينٌ﴾[(١)]، وقوله في آخر (يس): ﴿أَوَلَمْ يَرَ ٱلْإِنسَـٰنُ أَنَّا خَلَقْنَـٰهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ﴾[(٢)].

فالإنسان بالأمس نطفة، واليوم هو في غاية البيان وشدة الخصام، يجادل في ربه، وينكر قدرته على البعث، فالمنافاة العظيمة التي بين النطفة وبين الإبانة في الخصام -مع أن اللَّه خلقه من نطفة وجعله خصيمًا مبينًا- آية من آياته -جل وعلا- دالة على أنه المعبود وحده، وأن البعث من القبور حق.

وقوله -جل وعلا- في هذه الآية الكريمة: ﴿خَلَقَ ٱلْإِنسَـٰنَ﴾ لم يبين هنا أطوار خلقه للإنسان، ولكنه بينها في آيات أخر كقوله تعالى في (الفلاح): ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ مِن سُلَـٰلَةٍ مِّن طِينٍ ﴿١٢﴾ ثُمَّ جَعَلْنَـٰهُ نُطْفَةً فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿١٣﴾ ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ عِظَـٰمًا فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَـٰمَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَـٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَـٰلِقِينَ ﴿١٤﴾﴾[(٣)].

والآيات المبينة أطوار خلق الإنسان كثيرة معلومة»[(٤)].

* * *

---

(١) النحل: الآية (٤).

(٢) يس: الآية (٧٧).

(٣) المؤمنون: الآيات (١٢-١٤).

(٤) أضواء البيان (٧/ ٧٣٣-٧٣٥).

قوله تعالى: ﴿ٱلشَّمۡسُ وَٱلۡقَمَرُ بِحُسۡبَانٖ ۝٥﴾[١]

★ غريب الآية:

بحسبان: أي: بحساب وتقدير لا يعلمه إلا اللَّه. تقول: حَسَبْتُهُ أَحْسُبُهُ، بالضم، حَسْبًا وحِسابًا وحُسْبانًا وحِسابَةً: إذا عَدَدْتَهُ. قال الأخفش: الحُسْبانُ: جماعةُ الحِسابِ، مثل شِهابٍ وشُهبانٍ.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال أبو السعود: «أي: يجريان بحساب مقدر في بروجهما ومنازلهما، بحيث ينتظم بذلك أمور الكائنات السفلية، وتختلف الفصول والأوقات، وتعلم السنون والحساب»[٢].

قال الشنقيطي: «وهذا المعنى الذي دلت عليه هذه الآية الكريمة جاء موضحًا في آيات أخر من كتاب اللَّه كقوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِي جَعَلَ ٱلشَّمۡسَ ضِيَآءٗ وَٱلۡقَمَرَ نُورٗا وَقَدَّرَهُۥ مَنَازِلَ لِتَعۡلَمُواْ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلۡحِسَابَۚ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ إِلَّا بِٱلۡحَقِّۚ يُفَصِّلُ ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ ۝٥﴾[٣]»[٤].

قال ابن كثير: «أي: يجريان متعاقبين بحساب مقننٍ لا يختلف ولا يضطرب، ﴿لَا ٱلشَّمۡسُ يَنۢبَغِي لَهَآ أَن تُدۡرِكَ ٱلۡقَمَرَ وَلَا ٱلَّيۡلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِۚ وَكُلّٞ فِي فَلَكٖ يَسۡبَحُونَ ۝٤٠﴾[٥]، وقال تعالى: ﴿فَالِقُ ٱلۡإِصۡبَاحِ وَجَعَلَ ٱلَّيۡلَ سَكَنٗا وَٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَ حُسۡبَانٗاۚ ذَٰلِكَ تَقۡدِيرُ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡعَلِيمِ ۝٩٦﴾[٦]»[٧].

قال ابن القيم: «ثم تأمل حال الشمس والقمر في طلوعهما وغروبهما لإقامة دولتي الليل والنهار، ولولا طلوعهما لبطل أمر العالم، وكيف كان الناس يسعون

---

(١) الرحمن: الآية (٥).
(٢) إرشاد العقل السليم (٨/ ١٧٦).
(٣) يونس: الآية (٥).
(٤) أضواء البيان (٧/ ٧٣٦).
(٥) يس: الآية (٤٠).
(٦) الأنعام: الآية (٩٦).
(٧) تفسير القرآن العظيم (٧/ ٤٦٤).

في معايشهم، ويتصرّفون في أمورهم، والدنيا مظلمة عليهم؟! وكيف كانوا يتهنّون بالعيش مع فقد النور؟! ثم تأمّل الحكمة في غروبها؛ فإنه لولا غروبها لم يكن للناس هدوء ولا قرار مع فرط الحاجة إلى السبات، وجُموم الحواسّ، وانبعاث القوى الباطنة، وظهور سلطانها في النوم المعين على هضم الطعام، وتنفيذ الغذاء إلى الأعضاء.

ثم لولا الغروب لكانت الأرض تحمى بدوام شروق الشمس واتصال طلوعها حتى يحترق كل ما عليها من حيوان ونبات، فصارت تطلع وقتًا بمنزلة السراج يُرفع لأهل البيت ليقضوا حوائجهم، ثم تغيب عنهم مثل ذلك ليقرّوا ويهدؤوا، وصار ضياء النهار مع ظلام الليل، وحر هذا مع برد هذا -مع تضادهما- متعاونين متظاهرين، بهما تمام مصالح العالم.

وقد أشار تعالى إلى هذا المعنى، ونبّه عباده عليه بقوله ﷻ: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَآءٍ أَفَلَا تَسْمَعُونَ ﴿٧١﴾ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلنَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٧٢﴾﴾[1]..

ثم تأمل بعد ذلك أحوال هذه الشمس في انخفاضها وارتفاعها لإقامة هذه الأزمنة والفصول، وما فيها من المصالح والحكم، إذ لو كان الزمان كله فصلًا واحدًا لفاتت مصالح الفصول الباقية فيه؛ فلو كان صيفًا كله لفاتت منافع مصالح الشتاء، ولو كان شتاءً لفاتت منافع الصيف، وكذلك لو كان ربيعًا كله، أو خريفًا كله.

ففي الشتاء تغور الحرارة في الأجواف وبطون الأرض والجبال فتتولّد موادّ الثمار وغيرها، وتبرد الظواهر ويُستكثف الهواء فيه، فيحصل السحاب والمطر والثلج والبَرَد الذي به حياة الأرض وأهلها، واشتداد أبدان الحيوان وقوتها، وتزايد القوى الطبيعية واستخلاف ما حلّله حرارة الصيف من الأبدان.

وفي الربيع تتحرّك الطبائع وتظهر المواد المتولّدة في الشتاء، فيظهر النبات، ويتنوّر الشجر بالزهر، ويتحرّك الحيوان للتناسل.

---

(١) القصص: الآيتان (٧١و٧٢).

وفي الصيف يحتدّ الهواء ويسخن جدًّا، فتنضج الثمار وتنحلّ فضلات الأبدان والأخلاط التي انعقدت في الشتاء، وتغور البرودة وتهرب إلى الأجواف، ولهذا تبرد العيون والآبار، ولا تهضم المعدة الطعام التي كانت تهضمه في الشتاء من الأطعمة الغليظة؛ لأنها كانت تهضمها بالحرارة التي سكنت في البطون، فلما جاء الصيف خرجت الحرارة إلى ظاهر الجسد، وغارت البرودة فيه.

فإذا جاء الخريف اعتدل الزمان وصفا الهواء وبرد، فانكسر ذلك السَّموم، وجعله اللَّه بحكمته برزخًا بين سموم الصيف وبرد الشتاء؛ لئلاّ ينتقل الحيوان وهلة واحدة من الحرّ الشديد إلى البرد الشديد فيجد أذاه ويعظم ضرره، فإذا انتقل إليه بتدريج وترتيب لم يصعب عليه، فإنه عند كل جزء يستعد لقبول ما هو أشد منه، حتى تأتي جمهرة البرد بعد استعداد وقبول.

حكمة بالغة وآية باهرة.

وكذلك الربيع برزخ بين الشتاء والصيف، ينتقل فيه الحيوان من برد هذا إلى حر هذا بتدريج وترتيب.

فتبارك اللَّه رب العالمين وأحسن الخالقين..

ثم تأمل الحكمة في طلوع الشمس على العالم، كيف قدّره العزيز العليم سبحانه، فإنها لو كانت تطلع في موضع من السماء فتقف فيه ولا تعدوه لما وصل شعاعها إلى كثير من الجهات؛ لأن ظل أحد جوانب كرة الأرض يحجبها عن الجانب الآخر، فكان يكون الليل دائمًا سرمدًا على من لم تطلع عليهم، والنهار دائمًا سرمدًا على من هي طالعة عليهم، فيفسد هؤلاء وهؤلاء.

فاقتضت الحكمة الإلهية والعناية الربانية أن قدّر طلوعها من أول النهار من المشرق، فتشرق على ما قابلها من الأفق الغربي، ثم لا تزال تدور وتغشى جهة بعد جهة حتى تنتهي إلى المغرب، فتشرق على ما استتر عنها في أول النهار، فيختلف عندهم الليل والنهار، فتنتظم مصالحهم»[1].

وقال أيضًا: «ثم تأمل حال الشمس والقمر وما أودعاه من النور والإضاءة،

---

(١) مفتاح دار السعادة (٢/ ٥٠-٥٥).

وكيف جعل لهما بروجًا ومنازل ينزلانها مرحلة بعد مرحلة لإقامة دولة السُّنة، وتمام مصالح حساب العالم الذي لا غَناء لهم في مصالحهم عنه، فبذلك يُعلم حساب الأعمار والآجال المؤجّلة للديون والإيجارات والمعاملات والعدد وغير ذلك، فلولا حلول الشمس والقمر في تلك المنازل، وتنقّلهما فيها منزلة بعد منزلة لم يُعلم شيء من ذلك.

وقد نبّه اللَّه تعالى على هذا في غير موضع من كتابه، كقوله: ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيَآءً وَٱلْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُۥ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ ۚ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۚ يُفَصِّلُ ٱلْءَايَـٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ۝٥﴾[١]، وقال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ءَايَتَيْنِ ۖ فَمَحَوْنَآ ءَايَةَ ٱلَّيْلِ وَجَعَلْنَآ ءَايَةَ ٱلنَّهَارِ مُبْصِرَةً لِّتَبْتَغُوا۟ فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ ۚ﴾[٢]»[٣].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في صفة الشمس والقمر

* عن أبي ذر ﷺ قال: «قال النبي ﷺ لأبي ذر حين غربت الشمس: **أتدري أين تذهب؟** قلت: اللَّه ورسوله أعلم، قال: **فإنها تذهب حتى تسجد تحت العرش، فتستأذن فيؤذن لها، ويوشك أن تسجد فلا يقبل منها، وتستأذن فلا يؤذن لها، فيقال لها: ارجعي من حيث جئت، فتطلع من مغربها، فذلك قوله تعالى:** ﴿وَٱلشَّمْسُ تَجْرِى لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ۝٣٨﴾[٤]»[٥].

★ **فوائد الحديث:**

قال العيني: «قوله: «**أتدري؟**» الغرض من هذا الاستفهام إعلامه بذلك. قوله: «**حتى تسجد تحت العرش**». فإن قلت: ما المراد بالسجود إذ لا جبهة لها، والانقياد حاصل دائمًا؟ قلت: الغرض تشبيهها بالساجد عند الغروب. فإن قلت: يرى أنها تغيب في الأرض، وقد أخبر اللَّه تعالى أنها تغرب في عين حمئة، فأين هي من العرش؟

---

(١) يونس: الآية (٥).
(٢) الإسراء: الآية (١٢).
(٣) مفتاح دار السعادة (٢/ ٥٤).
(٤) يس: الآية (٣٨).
(٥) أخرجه: أحمد (٥/ ١٥٢)، والبخاري (٦/ ٣٦٥/ ٣١٩٩) واللفظ له، ومسلم (١/ ٨٣١/ ٩٥١)، والترمذي (٤/ ٤١٦/ ٢١٨٦) وقال: «حسن صحيح»، والنسائي في الكبرى (٦/ ٤٣٩/ ١١٤٣٠).

قلت: الأرضون السبع في ضرب المثال كقطب الرحى، والعرش لعظم ذاته كالرحى، فأينما سجدت الشمس سجدت تحت العرش، وذلك مستقرها. فإن قلت: أصحاب الهيئة قالوا: الشمس مرصعة في الفلك، فإنه يقتضي أن الذي يسير هو الفلك، وظاهر الحديث أنها هي التي تسير وتجري؟

قلت: أما أولًا، فلا اعتبار لقول أهل الهيئة عند مصادمة كلام الرسول ﷺ، وكلام الرسول ﷺ هو الحق لا مرية فيه، وكلامهم حدس وتخمين، ولا مانع في قدرة اللَّه تعالى أن تخرج الشمس من مجراها وتذهب إلى تحت العرش فتسجد ثم ترجع. فإن قلت: قال اللَّه تعالى: ﴿وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾[1] أي: يدورون.

قلت: دوران الشمس في فلكها لا يستلزم منع سجودها في أيّ موضع أراده اللَّه تعالى، وقال بعضهم: يحتمل أن يكون المراد بالسجود من هو موكل بها من الملائكة.

قلت: هذا الاحتمال غير ناشئ عن دليل فلا يعتبر به، وهو أيضًا مخالف لظاهر الحديث، وعدول عن حقيقته، وقيل: المراد من قوله: «**تحت العرش**» أي: تحت القهر والسلطان.

قلت: لماذا هذا الهروب من ظاهر الكلام وحقيقته؟ على أنّا نقول: السموات والأرضون وغيرهما من جميع العالم تحت العرش، فإذا سجدت الشمس في أي موضع قدره اللَّه تعالى يصح أن يقال: سجدت تحت العرش، وقال ابن العربي: وقد أنكر قوم سجود الشمس وهو صحيح ممكن.

قلت: هؤلاء قوم من الملاحدة؛ لأنهم أنكروا ما أخبر به النبي ﷺ وثبت عنه بوجه صحيح، ولا مانع من قدرة اللَّه تعالى أن يمكّن كل شيء من الحيوان والجمادات أن يسجد له.

قوله: «**فتستأذن**» يدل على أنها تعقل»[2].

قال الكرماني: «**فإن قلت**: فيم تستأذن؟ **قلت**: الظاهر أنه في الطلوع من المشرق، واللَّه أعلم بحقيقة الحال»[3].

---

(١) يس: الآية (٤٠).
(٢) عمدة القاري (١٠/ ٥٥٦-٥٥٧).
(٣) شرح صحيح البخاري (١٢/ ١٥٩).

قال العيني بعد حكايته قول الكرماني: «لا حاجة إلى القيد بقوله: الظاهر؛ لأنه لا شك أن استئذانها هذا لأجل الطلوع من المشرق على عادتها فيؤذن لها، ثم إذا قرب يوم القيامة تستأذن في ذلك فلا يؤذن لها كما في الحديث المذكور»[١].

* عن أبي هريرة ﷺ عن النبي ﷺ قال: **«الشمس والقمر مكوّران يوم القيامة»**[٢].

★ **غريب الحديث:**

«مكوّران»: قال الخطابي: «ومعنى التكوير في الشيء البسيط: لفّ بعضه على بعض، كالثوب ونحوه، وهكذا قال أهل التفسير في قوله ﷻ: ﴿إِذَا ٱلشَّمْسُ كُوِّرَتْ ①﴾[٣] قالوا: جُمع ضوءها، ولُفّت كما تلف العمامة. يقال: كُرتُ العمامة على رأسي أكُورها كَوْرًا، وكوّرتها تكويرًا: إذا لففتها»[٤].

قال التوربشتي: «يحتمل أنه من التكوير الذي هو بمعنى اللّف والجمع، أي: يلف صورهما لفًّا يُذهب انبساطها في الآفاق.

ويحتمل أن يراد به رفعها؛ لأن الثوب إذا طوي رفع.

ويحتمل أن يكون من قوله: طعنه فكوّره: إذا ألقاه، أي لُقيان فَلَكهما، وهذا التفسير أشبه بنسق الحديث لما في بعض طرقه: **«مكوّران في النار»**[٥]»[٦].

قال ابن الأثير: «ومنه حديث أبي هريرة: **«يُجاء بالشمس والقمر ثَوْرَين يُكَوّران في النار يومَ القيامة»**[٧] أي يُلَفّان ويُجْمعان ويُلْقَيان فيها، والرواية: **«ثَوْرَين»** بالثاء، كأنهما يُمْسَخان. وقد رُوي بالنون، وهو تصحيف»[٨].

---

(١) العمدة (١٠/ ٥٥٧).

(٢) أخرجه البخاري (٦/ ٣٦٥/ ٣٢٠٠).

(٣) التكوير: الآية (١).

(٤) أعلام الحديث (٢/ ١٤٧٥).

(٥) يشير إلى قوله ﷺ: **«الشمس والقمر ثوران مكوران في النار يوم القيامة»**، أخرجه الطحاوي في مشكل الآثار (١/ ١٧٠/ ١٨٣)، وتمام في الفوائد (٢/ ٢٠٤/ ١٥٣٤). قال الشيخ الألباني: «وهذا إسناده صحيح على شرط البخاري وقد أخرجه في صحيحه مختصرًا».

(٦) الكاشف (١١/ ٣٤٩٠).

(٧) سبق تخريجه.

(٨) النهاية (٤/ ٢٠٨).

★ **فوائد الحديث:**

قال العيني: «مطابقته للترجمة ظاهرة؛ لأن تكور الشمس والقمر من صفاتهما»[١].

قال الخطابي: «وقد روي في هذا الحديث زيادة لم يذكرها أبو عبد اللَّه، أخبرنا ابن الأعرابي، قال: حدثنا عبّاس الدوري قال: حدثنا يونس بن محمد قال: حدثنا عبد العزيز بن المختار، عن عبد اللَّه الداناج، قال: شهدت أبا سلمة بن عبد الرحمن بن عوف في جامع البصرة، وجاءه الحسن، فجلس إليه، قال: فحدّث. قال: حدثنا أبو هريرة عن رسول اللَّه ﷺ، أنه قال: «**إن الشمس والقمر ثوران مكوّران في النار يوم القيامة**»[٢]، قال: فقال الحسَن كلامًا، فقال: إنّي أحدث عن رسول اللَّه ﷺ، قال: فسكت الحسن.

وقد سألوا فقالوا: ما ذنب الشمس والقمر؟

والجواب: أنه ليس كونهما في النار عقوبة لهما، ولكنه تعيير وتبكيت لعبدتهما الذين عبدوهما في الدنيا؛ ليعلموا أنّ عبادتهم إياها كانت باطلًا، ورأيهم في ذلك رأيًا فائلًا»[٣].

قال الإسماعيلي: «لا يلزم من جعلهما في النار تعذيبهما؛ فإن لله في النار ملائكة وحجارة وغيرها لتكون لأهل النار عذابًا، وآلة من آلات العذاب، وما شاء اللَّه من ذلك، فلا تكون هي معذبة. وقال أبو موسى المديني في 'غريب الحديث': لما وصفا بأنهما يَسبحان في قوله: ﴿كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾[٤]، وأن كل من عُبد من دون اللَّه إلا من سبقت له الحسنى يكون في النار، وكانا في النار يعذب بهما أهلهما، بحيث لا يبرحان منهما[٥]، فصارا كأنهما ثوران عقيران»[٦].

قال التوربشتي: «فيكون تكويرهما فيها ليعذب بهما أهل النار لا سيما عبّاد الأنوار، ولا يعذبان في النار فإنهما بمعزل عن التكليف، بل سبيلهما في النار سبيل

---

(١) العمدة (١٠/ ٥٥٧).

(٢) سبق تخريجه.

(٣) أعلام الحديث (٢/ ١٤٧٥-١٤٧٧).

(٤) يس: الآية (٤٠).

(٥) هكذا في الأصل، وفي النهاية: لا يبرحانها.

(٦) فتح الباري (٦/ ٣٦٩).

نفسها، وسبيل الملائكة الوكيلين بها»[١].

قال الألباني: «وليس المراد من الحديث ما تبادر إلى ذهن الحسن البصري: أن الشمس والقمر في النار يعذبان فيها عقوبة لهما؛ كلا؛ فإن الله عز وجل لا يعذب من أطاعه من خلقه، ومن ذلك الشمس والقمر، كما يشير إليه قول الله -تبارك وتعالى-: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَمَن فِي الْأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ النَّاسِ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ﴾[٢]، فأخبر تعالى أن عذابه إنما يحق على غير من كان يسجد له تعالى في الدنيا»[٣].

* عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما أنه كان يخبر عن النبي ﷺ قال: «**إن الشمس والقمر لا يخسفان لموت أحد ولا لحياته، ولكنهما آية من آيات الله، فإذا رأيتموه فصلّوا**»[٤].

* عن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما قال: قال النبي ﷺ: «**إن الشمس والقمر آيتان من آيات الله، لا يخسفان لموت أحد ولا لحياته، فإذا رأيتم ذلك فاذكروا الله**»[٥].

* عن عائشة رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ يوم خسفت الشمس قام فكبر وقرأ قراءة طويلة، ثم ركع ركوعًا طويلًا، ثم رفع رأسه فقال: **سمع الله لمن حمده**، وقام كما هو فقرأ قراءة طويلة وهي أدنى من القراءة الأولى، ثم ركع طويلًا وهي أدنى من الركعة الأولى، ثم سجد سجودًا طويلًا، ثم فعل في الركعة الآخرة مثل ذلك، ثم سلم وقد تجلت الشمس، فخطب الناس فقال في كسوف الشمس والقمر: «**إنهما آيتان من آيات الله، لا يخسفان لموت أحد ولا لحياته، فإذا رأيتموهما فافزعوا إلى الصلاة**»[٦].

---

(١) الكاشف (١١/ ٣٤٩٠). (٢) الحج: الآية (١٨).

(٣) سلسلة الأحاديث الصحيحة (١/ ٢٤٤-٢٤٥).

(٤) أخرجه: أحمد (٢/ ١٠٩)، والبخاري (٦/ ٣٦٥/ ٣٢٠١) واللفظ له، ومسلم (٢/ ٦٣٠/ ٩١٤)، والنسائي في الكبرى (٣/ ١٤٢-١٤٣/ ١٤٦٠).

(٥) أخرجه: أحمد (١/ ٢٩٨)، والبخاري (٦/ ٣٦٥/ ٣٢٠٢) واللفظ له، ومسلم (٢/ ٦٢٦/ ٧٠٩)، وأبو داود (١/ ٧٠٢/ ١١٨٩)، والنسائي (٣/ ١٦٢-١٦٤/ ١٤٩٢).

(٦) أخرجه: أحمد (٦/ ٧٦)، والبخاري (٦/ ٣٦٥-٣٦٦/ ٣٢٠٣) واللفظ له، ومسلم (٢/ ٨١٦/ ١٠٩)، وأبو داود (١/ ٦٩٧-٦٩٨/ ١١٨٠)، والنسائي (٣/ ١٤٨-١٥٠/ ١٤٧١)، وابن ماجه (١/ ٤٠١/ ١٢٦٣)، والترمذي (٢/ ٤٥٢/ ٦٦٣) مختصرًا.

* عن أبي مسعود رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «الشمس والقمر لا ينكسفان لموت أحد ولا لحياته، ولكنهما آيتان من آيات الله، فإذا رأيتموهما فصلّوا»[1].

★ **غريب الأحاديث:**

لا يخسفان: قال ابن الأثير: «يقال: خَسَفَ القمرُ، بوزن ضرب: إذا كان الفعل له، وخُسِفَ القمر، على ما لم يُسَمَّ فاعله، وقد وَرَد الخسوف في الحديث كثيرًا للشمس، والمعروف لها في اللغة الكُسُوف، لا الخسوف، فأما إطلاقه في مثل هذا الحديث فتغليبًا للقمر لتذكيره على تأنيث الشمس، فجَمع بينهما فيما يَخُص القمر، وللمعاوضة أيضًا؛ فإنه قد جاء في رواية أخرى: «إن الشمس والقمر لا ينكسفان..»، وأما إطلاق الخسوف على الشمس منفردةً فلاشتراك الخسوف والكسوف في معنى ذهاب نورِهما وإظلامهما»[2].

ويقال بهما في كلّ منهما، وبه جاءت الأحاديث.

★ **فوائد الأحاديث:**

قال الخطابي: «معنى هذا الكلام وتأويله؛ أنهم كانوا في الجاهلية يزعمون أن كسوف الشمس والقمر يوجب حدوث تغييرات في العالم من موت، وضرر، ونقص، ونحو ذلك من الأمور على ما يذهب إليه أهل التنجيم من إعطائها الأحكام، وزعمهم أن هذه الأجسام السفليّة مربوطة بالنجوم، وأن لها فعلًا وتأثيرًا فيها، فأعلمهم النبي ﷺ أن الذي كانوا يتوهّمونه من ذلك باطل، وأن خسوف الشمس والقمر آيتان من آيات الله تعالى يريهما خلقه؛ ليعلموا أنهما خلقان مسخّران لله ﷻ، ليس لهما سلطان في غيرهما، ولا قدرة على الدفع عن أنفسهما، وأنهما لا يستحقّان أن يعبدا فيتخذا إلهين، وهو معنى قوله ﷻ: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِ ٱلَّيْلُ وَٱلنَّهَارُ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ لَا تَسْجُدُوا۟ لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَٱسْجُدُوا۟ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿٣٧﴾﴾[3]، وأمر عند كسوفهما أن يفزع إلى

---

(١) أخرجه: أحمد (٤/ ١٢٢)، والبخاري (٦/ ٣٦٦/ ٣٢٠٤) واللفظ له، ومسلم (٢/ ٦٢٨/ ٩١١)، والنسائي (٣/ ١٤٣/ ١٤٦١)، وابن ماجه (١/ ٤٠٠/ ١٢٦١).

(٢) النهاية (٢/ ٣١).

(٣) فصلت: الآية (٣٧).

الصلاة والسجود لله الذي يستحق العبادة والسجود دونهما ؛ إبطالًا لقول الجهال الذين يعبدونهما ، وإفسادًا لمذاهبهم في عبادتهما ، واللَّه أعلم .

وقد يحتمل أن يكون المعنى في الأمر بالصلاة عند الكسوف الفزع إلى اللَّه ﷻ ، والتضرّع له في دفع الضرر والآفات التي تتوهمها الأنفس، وتتحدث بها الخواطر تحقيقًا لإضافة الحوادث كلها إلى اللَّه تعالى، ونفيًا لها عن الشمس والقمر وإبطالًا لأحكامها ، واللَّه أعلم .

وقد قيل فيه وجه ثالث : وهو أنهما آيتان من آيات اللَّه الدالة على قرب زمان الساعة، وأمارتان من أماراتها وأشراطها المتقدمة لها ؛ كما قد قال مخبرًا عن خسوفهما في القيامة : ﴿فَإِذَا بَرِقَ ٱلْبَصَرُ ۝٧ وَخَسَفَ ٱلْقَمَرُ ۝٨ وَجُمِعَ ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ ۝٩﴾[1] ، وقد يكون ذلك أيضًا أنه يخوّف بهما الناس ليفزعوا إلى التوبة والاستغفار من الزلل والخطايا ، ودليل ذلك قوله ﷻ : ﴿وَمَا نُرْسِلُ بِٱلْءَايَٰتِ إِلَّا تَخْوِيفًا﴾[2] ويؤكد ذلك حديث أبي بكرة[3]»[4] .

قال القاضي عياض: «فلما كان الكثير من الكفرة يعتقد فيهما من التعظيم ؛ لأنهما أعظم الأنوار الظاهرة، حتى ارتقى الحال ببعضهم إلى عبادتهما ، وقال جماعة من الضلاّل بتأثيرهما في العالم ، فأعلم النبي ﷺ أنهما آيتان على حدوثهما وتفصيهما عن هذه المرتبة ؛ لطروء التغيّر والنقص عليهما ، وإزالة نورهما الذي به عظّما في النفوس عنهما ، وأيضًا ، فلما جاء أن القيامة تكون وهما مكسوفان، ولهذا -واللَّه أعلم- جاء في الحديث الآخر : «**فقام فزعًا يخشى أن تكون الساعة**»[5] فقيل : في هذا آيتان على قيام الساعة، وأيضًا فإن الآيات غيرها من طلوعهما وإشراقهما ، وجري البحار، وتفجر الأنهار، ونمو الثمار، وغير ذلك مألوف، وليس فيها تغير حال، وهذه غير مألوفة في سائر الأيام والليالي، وإلى هذا

---

(١) القيامة (٧-٩).

(٢) الإسراء: الآية (٥٩).

(٣) أخرجه: البخاري (٢/ ٦٨١/ ١٠٤٨)، والنسائي (٣/ ١٦٨/ ١٥٠١).

(٤) أعلام الحديث (١/ ٦١٠-٦١٢).

(٥) أخرجه: البخاري (٢/ ٦٩٤/ ١٠٥٩)، ومسلم (٢/ ٦٢٨-٦٢٩/ ٩١٢)، والنسائي (٣/ ١٦٩-١٧٠/ ١٥٠٢) من طريق بريد عن أبي بردة عن أبي موسى الأشعري ﷺ.

أشار بقوله في الرواية الأخرى: «**يخوّف اللَّه بهما عباده**»[(١)]. وفيه أنه ليس في قولهم: كسفت لموت إبراهيم، ما يوجب تكفير قائله؛ لأنه لم يجعل الفعل في ذلك لغير اللَّه، وإنما قال ذلك القائل إنهما كالدليل والعلامة، فكذّب ذلك النبي ﷺ، وأن كسوفهما ليس إلا لما ذكره»[(٢)].

قال القرطبي: «ثم أخبر بالمعنى الذي لأجله يكسفان، وهو: أن اللَّه تعالى يخوّف بهما عباده. فإن قيل: فأي تخويف في ذلك؟ والكسوف أمرٌ عادي بحسب تقابل هذه النيرات وحجب بعضها لبعض، وذلك يجري مجرى حجب الجسم الكثيف نور الشمس عمّا يقابله من الأرض، وذلك لا يحصل به تخويف؟ قلنا: لا نسلّم أن سبب الكسوف ما ادّعوه، ومن أين عرفوا ذلك؛ بالعقل أم بالنقل، وكل واحد منهما إما بواسطة نظر، أو بغير واسطة، ودعوى شيء من ذلك ممنوعة، وغايتهم أن يقولوا: ذلك مبنيّ على أمور هندسية ورصدية تفضي بسالكها إلى القطع، ونحن نمنع أيضًا ما ذكروه إلى القطع، وهو أول المسألة، ولئن سلّمنا ذلك جدلًا؛ لكنّا نقول: يحصل بهما تخويف العقلاء من وجوه متعددة: أوضحها أن ذلك مذكر بالكسوفات التي تكون بين يدي الساعة، ويمكن أن يكون ذلك الكسوف منها، ولذلك قام النبي ﷺ فزعًا يخشى أن تقوم الساعة، وكيف لا؟ وقد قال اللَّه ﷻ: ﴿فَإِذَا بَرِقَ ٱلْبَصَرُ ۝٧ وَخَسَفَ ٱلْقَمَرُ ۝٨ وَجُمِعَ ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ ۝٩﴾[(٣)]، قال أهل التفسير: جمع بينهما في إذهاب نورهما، وقيل غير ذلك. وأيضًا؛ فإن كل ما في هذا العالم علويه وسفليه دليل على نفوذ قدرة اللَّه، وتمام قهره واستغنائه، وعدم مبالاته، وذلك كله يوجب عند العلماء باللَّه خوفه وخشيته، كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ﴾[(٤)]، وخصّ هنا خسوفهما بالتخويف؛ لأنهما أمران علويان نادران طارئان عظيمان، والنادر العظيم مخوف موجع بخلاف ما يكثر وقوعه؛ فإنه لا يحصل منه ذلك غالبًا، وأيضًا فلِما وقع فيهما من الغلط الكثير للأمم التي كانت تعبدهما، ولِما وقع للجهال من اعتقاد تأثيرهما»[(٥)].

---

(١) انظر حديث أبي بكرة المتقدم.
(٢) الإكمال (٣/ ٣٣٣).
(٣) القيامة: الآيات (٧-٩).
(٤) فاطر: الآية (٢٨).
(٥) المفهم (٢/ ٥٥٢-٥٥٣).

قال العيني: «فيه -أي في الحديث- رد على أهل الهيئة حيث يزعمون أن الكسوف أمرٌ عادي لا يتأخر ولا يتقدّم، فلو كان كذلك لم يكن فيه تخويف، فيصير بمنزلة الجزر والمد في البحر، وقد جاء في حديث أبي موسى، على ما يأتي: «**فقام فزعًا يخشى أن تكون الساعة**» فلو كان الكسوف بالحساب لم يقع الفزع، ولم يكن للأمر بالعتق والصدقة والصلاة والذكر معنىً»[١].

من الأسئلة التي قد تتبادر: «ما الحكمة في الكسوف؟ والجواب ما قاله أبو الفرج: فيه سبع فوائد:

الأول: ظهور التصرف في الشمس والقمر.

الثاني: تبيين قبح شأن من يعبدهما.

الثالث: إزعاج القلوب الساكنة بالغفلة عن مسكن الذهول.

الرابع: ليرى الناس نموذج ما سيجري في القيامة من قوله: ﴿وَجُمِعَ ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ ۝٩﴾.

الخامس: أنهما يوجدان على حال التمام فيركسان، ثم يلطف بهما فيعادان إلى ما كانا عليه، فيشار بذلك إلى خوف المكر ورجاء العفو.

السادس: أن يفعل بهما صورة عقاب لمن لا ذنب له.

السابع: أن الصلوات المفروضات عند كثير من الخلق عادة لا انزعاج لهم فيها ولا وجود هيبة، فأتى بهذه الآية، وسنت لهما الصلاة ليفعلوا صلاة على انزعاج وهيبة»[٢].

* * *

---

(١) عمدة القاري (٥/ ٣١٧).

(٢) عمدة القاري (٥/ ٣٠٣).

قوله تعالى: ﴿وَٱلنَّجْمُ وَٱلشَّجَرُ يَسْجُدَانِ ۝٦﴾

★ **غريب الآية:**

النجم: نَجمَ الشيءُ، يَنْجُمُ، بالضم، نُجومًا: ظهر وطلع. يقال: نَجَمَ السِنُّ، والقَرْنُ، والنَبْتُ.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «اختلف أهل التأويل في معنى (النجم) في هذا الموضع مع إجماعهم على أن الشجر ما قام على ساق، فقال بعضهم: عنى بالنجم في هذا الموضع من النبات: ما نجم من الأرض، مما ينبسط عليها، ولم يكن على ساق مثل البقل ونحوه..

وقال آخرون: عني بالنجم في هذا الموضع: نجم السماء..

وأولى القولين في ذلك بالصواب قول من قال: عُني بالنجم: ما نجم من الأرض من نبت لعطف الشجر عليه، فكان بأن يكون معناه لذلك: ما قام على ساق وما لا يقوم على ساق يسجدان لله، بمعنى أنه تسجد له الأشياء كلها المختلفة الهيئات من خلقه أشبه وأولى بمعنى الكلام من غيره. وأما قوله: ﴿وَٱلشَّجَرُ﴾ فإن الشجر ما قد وصفت صفته قبل..

وأما قوله: ﴿يَسْجُدَانِ﴾ فإنه عُني به سجود ظلهما، كما قال -جل ثناؤه-: ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظِلَٰلُهُم بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْآصَالِ ۩ ۝١٥﴾[(١)]»[(٢)].

قال ابن القيم: «قال تعالى: ﴿وَٱلنَّجْمُ وَٱلشَّجَرُ يَسْجُدَانِ ۝٦﴾ فالنجم ما ليس له ساق من النبات، والشجر ما له ساق، وكلها ساجدة لله مسبّحة بحمده: ﴿وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ۗ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾[(٣)].

---

(١) الرعد: الآية (١٥).
(٢) جامع البيان (٢٧/ ١١٦-١١٧).
(٣) الإسراء: الآية (٤٤).

ولعلّك أن تكون ممّن غلظ حجابه فذهب إلى أن التسبيح دلالتها على صانعها فقط! فاعلم أن هذا القول يظهر بطلانه من أكثر من ثلاثين وجهًا قد ذكرنا أكثرها في موضع آخر.

وفي أيّ لغة تسمى الدلالة على الصانع تسبيحًا وسجودًا وصلاة وتأويبًا وهبوطًا من خشيته كما ذكر تعالى في كتابه؟! فتارة يخبر عنها بالتسبيح، وتارة بالسجود، وتارة بالصلاة، كقوله تعالى: ﴿وَالطَّيْرُ صَافَّاتٍ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ﴾[1].

أفترى يقبل عقلك أن يكون معنى الآية: قد علم الله دلالته عليه، وسمى تلك الدلالة صلاة وتسبيحًا، وفرّق بينهما وعطف أحدهما على الآخر؟!

وتارة يخبر عنها بالتأويب كقوله: ﴿يَا جِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُ﴾[2].

وتارة يخبر عنها بالتسبيح الخاصّ بوقت دون وقت -كالعشي والإشراق- أفترى دلالتها على صانعها إنما يكون في هذين الوقتين؟

وبالجملة؛ فبطلان هذا القول أظهر لذوي البصائر من أن يطلبوا دليلًا على بطلانه، والحمد لله»[3].

* * *

---

(١) النور: الآية (٤١).

(٢) سبأ: الآية (١٠).

(٣) مفتاح دار السعادة (٢/ ١٠٥-١٠٦).

قوله تعالى: ﴿وَٱلسَّمَآءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ ٱلْمِيزَانَ ۝٧ أَلَّا تَطْغَوْا۟ فِى ٱلْمِيزَانِ ۝٨ وَأَقِيمُوا۟ ٱلْوَزْنَ بِٱلْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا۟ ٱلْمِيزَانَ ۝٩﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال أبو السعود: «﴿وَٱلسَّمَآءَ رَفَعَهَا﴾ أي: خلقها مرفوعة محلاً ورتبة حيث جعلها منشأ أحكامه وقضاياه، ومتنزل أوامره، ومحل ملائكته. وفيه من التنبيه على كبرياء شأنه وعظم ملكه وسلطانه ما لا يخفى»(١).

قال ابن ناصر السعدي: «﴿وَوَضَعَ ٱلْمِيزَانَ﴾ أي: العدل بين العباد في الأقوال والأفعال، وليس المراد به الميزان المعروف وحده، بل هو كما ذكرنا، يدخل فيه الميزان المعروف، والمكيال الذي تكال به الأشياء والمقادير، والمساحات التي تضبط بها المجهولات، والحقائق التي يفصل بها بين المخلوقات، ويقام بها العدل بينهم، ولهذا قال: ﴿أَلَّا تَطْغَوْا۟ فِى ٱلْمِيزَانِ ۝٨﴾ أي: أنزل اللَّه الميزان؛ لئلا تتجاوزوا الحد في الميزان، فإن الأمر لو كان يرجع إلى عقولكم وآرائكم، لحصل من الخلل ما اللَّه به عليم، ولفسدت السموات والأرض.

﴿وَأَقِيمُوا۟ ٱلْوَزْنَ بِٱلْقِسْطِ﴾ أي: اجعلوه قائمًا بالعدل، الذي تصل إليه مقدرتكم وإمكانكم، ﴿وَلَا تُخْسِرُوا۟ ٱلْمِيزَانَ﴾ أي: لا تنقصوه وتعملوا بضده، وهو الجور والظلم والطغيان»(٢).

قال الرازي: «﴿وَوَضَعَ ٱلْمِيزَانَ﴾ إشارة إلى العدل. وفيه لطيفة، وهي أنه تعالى بدأ أولًا بالعلم، ثم ذكر ما فيه أشرف أنواع العلوم وهو القرآن، ثم ذكر العدل وذكر أخص الأمور له، وهو الميزان، وهو كقوله تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمِيزَانَ﴾(٣) ليعمل(٤) الناس بالكتاب ويفعلوا بالميزان ما يأمرهم به الكتاب،

---

(١) إرشاد العقل السليم (٨/ ١٧٧).

(٢) تيسير الكريم الرحمن (ص: ٨٢٩).

(٣) الحديد: الآية (٢٥).

(٤) هكذا في الأصل، ولعلها: «ليعلم».

فقوله: ﴿عَلَّمَ ٱلْقُرْءَانَ ۝٢﴾ و﴿وَوَضَعَ ٱلْمِيزَانَ﴾ مثل: ﴿وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْمِيزَانَ﴾، فإن قيل: العلم لا شك في كونه نعمة عظيمة، وأما الميزان فما الذي فيه من النعم العظيمة التي بسببها يعد في الآلاء؟ نقول: النفوس تأبى الغبن، ولا يرضى أحد بأن يغلبه الآخر ولو في الشيء اليسير، ويرى أن ذلك استهانة به فلا يتركه لخصمه لغلبة، فلا أحد يذهب إلى أن خصمه يغلبه، فلولا التبيين ثم التساوي لأوقع الشيطان بين الناس البغضاء كما وقع عند الجهل وزوال العقل والسكر، فكما أن العقل والعلم صارا سببًا لبقاء عمارة العالم، فكذلك العدل في الحكمة سبب، وأخص الأسباب الميزان، فهو نعمة كاملة، ولا ينظر إلى عدم ظهور نعمته لكثرته وسهولة الوصول إليه كالهواء والماء اللذين لا يتبين فضلهما إلا عند فقدهما»[١].

قال أبو السعود: «وكرر لفظ الميزان تشديدًا للتوصية به، وتأكيدًا للأمر باستعماله والحث عليه»[٢].

* * *

(١) مفاتيح الغيب (٢٩/ ٩٠-٩١).

(٢) إرشاد العقل السليم (٨/ ١٧٧).

قوله تعالى: ﴿وَٱلْأَرْضَ وَضَعَهَا لِلْأَنَامِ ۝ فِيهَا فَٰكِهَةٌ وَٱلنَّخْلُ ذَاتُ ٱلْأَكْمَامِ ۝ وَٱلْحَبُّ ذُو ٱلْعَصْفِ وَٱلرَّيْحَانُ ۝﴾

★ **غريب الآية:**

الأنام: الخَلْقُ، أَو الجِنُّ والإِنْسُ، أَو جميعُ ما على وجهِ الأرضِ.

الأكمام: جمع كِمّ، بالكسر: وِعاءُ الطَّلْعِ، وغِطاءُ النَّوْرِ، كالكِمامَةِ، بالكسر فيهما، جمعه: أَكِمَّةٌ وأَكْمامٌ وكِمامٌ. وكُمَّتِ النَّخْلَةُ، فهي مَكْموم.

العصف: العَصْفُ: بَقْلُ الزَّرْعِ، وقد أَعْصَفَ الزَّرْعُ. و﴿فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ ۝﴾[1]، أي: كزَرْعٍ أُكِلَ حَبُّهُ وبَقِيَ تِبْنُهُ، أو كوَرَقٍ أُخِذَ ما كان فيه وبقي هُوَ لا حَبَّ فيه، أو كَوَرَقٍ أَكَلَتْهُ البَهَائِمُ. وعَصَفَهُ: جَزَّهُ قبل أَنْ يُدْرِكَ. والعُصافَةُ، ككُناسَةٍ: ما سَقَطَ من السُّنْبل من التِبْنِ. وككَنيسَةٍ: الوَرَقُ المُجْتَمِعُ الذي لَيْس فيه السُّنْبُلُ.

الريحان: نَبْتٌ طَيِّبُ الرّائحة، أو كُلُّ نَبْتٍ كذلك، أو أَطْرافُه، أو ورَقُهُ، والوَلَدُ، والرِّزْقُ.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن كثير: «﴿وَٱلْأَرْضَ وَضَعَهَا لِلْأَنَامِ ۝﴾ أي: كما رفع السماء وضع الأرض ومهّدها وأرساها بالجبال الراسيات الشامخات؛ لتستقر لما على وجهها من الأنام، وهم الخلائق المختلفة أنواعهم وأشكالهم وألوانهم وألسنتهم في سائر أقطارها وأرجائها»[2].

قال السعدي: «ثم ذكر ما فيها من الأقوات الضرورية، فقال: ﴿فِيهَا فَٰكِهَةٌ﴾ وهي جميع الأشجار التي تثمر الثمرات التي يتفكه بها العباد، من العنب والتين

---

(١) الفيل: الآية (٥).

(٢) تفسير القرآن العظيم (٧/ ٤٦٥).

والرمان والتفاح، وغير ذلك، ﴿وَٱلنَّخۡلُ ذَاتُ ٱلۡأَكۡمَامِ﴾ أي: ذات الوعاء الذي ينفلق عن القنوان التي تخرج شيئًا فشيئًا حتى تتمّ، فتكون قوتًا يؤكل ويدخر، يتزود منه المقيم والمسافر، وفاكهة لذيذة من أحسن الفواكه.

﴿وَٱلۡحَبُّ ذُو ٱلۡعَصۡفِ﴾ أي: ذو الساق الذي يداس، فينتفع بتبنه للأنعام وغيرها، ويدخل في ذلك حب البر والشعير والذرة والأرز والدخن، وغير ذلك، ﴿وَٱلرَّيۡحَانُ﴾ يحتمل أن المراد بذلك جميع الأرزاق التي يأكلها الآدميون، فيكون هذا من باب عطف العام على الخاص، ويكون اللَّه قد امتنّ على عباده بالقوت والرزق، عمومًا وخصوصًا، ويحتمل أن المراد بالريحان، الريحان المعروف، وأن اللَّه امتنّ على عباده بما يسّره في الأرض من أنواع الروائح الطيبة، والمشامّ الفاخرة، التي تسرّ الأرواح، وتنشرح لها النفوس»[١].

قال الشنقيطي: «ذكر -جل وعلا- في هذه الآية أنه وضع الأرض للأنام، وهو الخلق؛ لأن وضع الأرض لهم على هذا الشكل العظيم، القابل لجميع أنواع الانتفاع، من إجراء الأنهار، وحفر الآبار، وزرع الحبوب والثمار، ودفن الأموات، وغير ذلك من أنواع المنافع، من أعظم الآيات وأكبر الآلاء التي هي النعم، ولذا قال تعالى بعده: ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿١٣﴾﴾[٢].

وما تضمنته هذه الآية الكريمة من امتنانه -جل وعلا- على خلقه بوضع الأرض لهم بما فيها من المنافع، وجعلها آية لهم، دالة على كمال قدرة ربهم واستحقاقه للعبادة وحده، جاء موضحًا في آيات كثيرة من كتاب اللَّه كقوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي مَدَّ ٱلۡأَرۡضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِيَ وَأَنۡهَٰرٗاۖ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ جَعَلَ فِيهَا زَوۡجَيۡنِ ٱثۡنَيۡنِۖ﴾[٣] الآية، وقوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلۡأَرۡضَ ذَلُولٗا فَٱمۡشُواْ فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُواْ مِن رِّزۡقِهِۦۖ﴾[٤] الآية، وقوله تعالى: ﴿وَٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ ﴿٣٠﴾ أَخۡرَجَ مِنۡهَا مَآءَهَا وَمَرۡعَىٰهَا ﴿٣١﴾ وَٱلۡجِبَالَ أَرۡسَىٰهَا ﴿٣٢﴾ مَتَٰعٗا لَّكُمۡ وَلِأَنۡعَٰمِكُمۡ ﴿٣٣﴾﴾[٥]، وقوله تعالى: ﴿وَٱلۡأَرۡضَ فَرَشۡنَٰهَا فَنِعۡمَ ٱلۡمَٰهِدُونَ ﴿٤٨﴾﴾[٦]، وقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلۡأَرۡضَ فِرَٰشٗا﴾[٧] الآية، وقوله تعالى: ﴿وَٱلۡأَرۡضَ مَدَدۡنَٰهَا وَأَلۡقَيۡنَا فِيهَا رَوَٰسِيَ وَأَنۢبَتۡنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوۡجِۭ بَهِيجٖ ﴿٧﴾ تَبۡصِرَةٗ وَذِكۡرَىٰ

---

(١) تيسير الكريم الرحمن (ص: ٨٢٩).
(٢) الرحمن: الآية (١٣).
(٣) الرعد: الآية (٣).
(٤) الملك: الآية (١٥).
(٥) النازعات: الآيات (٣٠-٣٣).
(٦) الذاريات: الآية (٤٨).
(٧) البقرة: الآية (٢٢).

لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ ﴿٨﴾ وَنَزَّلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً مُّبَٰرَكًا﴾[١] الآية، وقوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا﴾[٢]، والآيات بمثل ذلك كثيرة معلومة. .

وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة: ﴿فِيهَا فَٰكِهَةٌ﴾ ما ذكره تعالى فيه من الامتنان بالفاكهة التي هي أنواع، جاء موضحًا في آيات أخر من كتاب اللَّه كقوله تعالى في سورة (الفلاح): ﴿لَّكُمْ فِيهَا فَوَٰكِهُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾[٣]، وقوله تعالى: ﴿وَفَٰكِهَةً وَأَبًّا ﴿٣١﴾﴾[٤] إلى غير ذلك من الآيات.

وما ذكره هنا من الامتنان بالحَبّ جاء موضحًا في آيات أخر، كقوله تعالى: ﴿فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ جَنَّٰتٍ وَحَبَّ ٱلْحَصِيدِ﴾[٥]، وقوله تعالى: ﴿فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا حَبًّا ﴿٢٧﴾ وَعِنَبًا وَقَضْبًا ﴿٢٨﴾﴾[٦]، وقوله تعالى: ﴿وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ﴾[٧]، وقوله تعالى: ﴿نُّخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُّتَرَاكِبًا﴾[٨] الآية، وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ فَالِقُ ٱلْحَبِّ وَٱلنَّوَىٰ﴾[٩] إلى غير ذلك من الآيات.

وما ذكره تعالى هنا من الامتنان بالنخل، جاء موضحًا في آيات كثيرة كقوله تعالى: ﴿وَٱلنَّخْلَ بَاسِقَٰتٍ لَّهَا طَلْعٌ نَّضِيدٌ ﴿١٠﴾ رِّزْقًا لِّلْعِبَادِ﴾[١٠]، وقوله تعالى: ﴿فَأَنشَأْنَا لَكُم بِهِۦ جَنَّٰتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَٰبٍ﴾[١١] الآية، والآيات بمثل ذلك كثيرة معلومة.

وما ذكره هنا من الامتنان بالريحان، على أنه الرزق كما في قراءة حمزة والكسائي[١٢]، جاء موضحًا في آيات كثيرة أيضًا كقوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُنَزِّلُ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ رِزْقًا﴾[١٣]، وقوله تعالى: ﴿قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾[١٤] الآية، وقوله تعالى: ﴿أَمَّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى يَرْزُقُكُمْ إِنْ أَمْسَكَ رِزْقَهُۥ﴾[١٥]، وقوله

---

(١) ق: الآيات (٧-٩).
(٢) البقرة: الآية (٢٩).
(٣) المؤمنون: الآية (١٩).
(٤) عبس: الآية (٣١).
(٥) ق: الآية (٩).
(٦) عبس: الآيتان (٢٧و٢٨).
(٧) يس: الآية (٣٣).
(٨) الأنعام: الآية (٩٩).
(٩) الأنعام: الآية (٩٥).
(١٠) ق: الآيتان (١٠و١١).
(١١) المؤمنون: الآية (١٩).
(١٢) قرأ حمزة والكسائي: (والحب ذو العصف والريحانِ) بالخفض.
(١٣) غافر: الآية (١٣).
(١٤) يونس: الآية (٣١).
(١٥) الملك: الآية (٢١).

تعالى: ﴿وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ﴾[1] الآية، والآيات بمثل ذلك كثيرة معلومة.

مسألة:

أخذ بعض علماء الأصول من هذه الآية الكريمة وأمثالها من الآيات كقوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا﴾[2] أن الأصل فيما على الأرض الإباحة، حتى يرد دليل خاص بالمنع؛ لأن اللَّه امتنّ على الأنام بأنه وضع لهم الأرض، وجعل لهم فيها أرزاقهم من القوت والتفكه في آية (الرحمن) هذه، وامتنّ عليهم بأنه خلق لهم ما في الأرض جميعًا في قوله: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا﴾.

ومعلوم أنه -جل وعلا- لا يمتن بحرام؛ إذ لا منة في شيء محرم، واستدلوا لذلك أيضًا بحصر المحرمات في أشياء معينة في آيات من كتاب اللَّه، كقوله تعالى: ﴿قُل لَّآ أَجِدُ فِى مَآ أُوحِىَ إِلَىَّ مُحَرَّمًا عَلَىٰ طَاعِمٍ يَطْعَمُهُۥٓ إِلَّآ أَن يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَّسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنزِيرٍ﴾[3] الآية، وقوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّىَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ﴾[4] الآية، وقوله تعالى: ﴿قُلْ تَعَالَوْا۟ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ﴾[5] الآية.

وفي هذه المسألة قولان آخران:

أحدهما: أن الأصل فيما على الأرض التحريم حتى يدل دليل على الإباحة، واحتجوا لهذا بأن جميع الأشياء مملوكة لله -جل وعلا-، والأصل في ملك الغير منع التصرف فيه إلا بإذنه، وفي هذا مناقشات معروفة في الأصول، ليس هذا محل بسطها.

القول الثاني: هو الوقف وعدم الحكم فيها بمنع ولا إباحة حتى يقوم الدليل، فتحصل أن في المسألة ثلاثة مذاهب: المنع، والإباحة، والوقف.

قال مقيده عفا اللَّه عنه وغفر له: الذي يظهر لي صوابه في هذه المسألة هو

---

(١) غافر: الآية (٦٤). (٢) البقرة: الآية (٢٩).

(٣) الأنعام: الآية (١٤٥).

(٤) الأعراف: الآية (٣٣).

(٥) الأنعام: الآية (١٥١).

التفصيل؛ لأن الأعيان التي خلقها اللَّه في الأرض للناس بها ثلاث حالات:

الأولى: أن يكون فيها نفع لا يشوبه ضرر كأنواع الفواكه وغيرها.

الثانية: أن يكون فيها ضرر لا يشوبه نفع كأكل الأعشاب السامة القاتلة.

الثالثة: أن يكون فيها نفع من جهة وضرر من جهة أخرى، فإن كان فيها نفع لا يشوبه ضرر، فالتحقيق حملها على الإباحة حتى يقوم دليل على خلاف ذلك لعموم قوله: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا﴾، وقوله: ﴿وَٱلْأَرْضَ وَضَعَهَا لِلْأَنَامِ ۝١٠﴾ الآية.

وإن كان فيها ضرر لا يشوبه نفع فهي على التحريم لقوله ﷺ: «لا ضرر ولا ضرار»[1].

وإن كان فيها نفع من جهة وضرر من جهة أخرى، فلها ثلاث حالات:

الأولى: أن يكون النفع أرجح من الضرر.

والثانية: عكس هذا.

والثالثة: أن يتساوى الأمران.

فإن كان الضرر أرجح من النفع أو مساويًا له فالمنع لحديث: «لا ضرر ولا ضرار»، ولأن درء المفاسد مقدم على جلب المصالح. وإن كان النفع أرجح، فالأظهر الجواز؛ لأن المقرر في الأصول أن المصلحة الراجحة تقدم على المفسدة المرجوحة»[2].

* * *

(١) أخرجه من حديث ابن عباس رضي الله عنهما: أحمد (١/ ٣١٣)، وابن ماجه (٢/ ٧٨٤/ ٢٣٤١)، وصححه الشيخ الألباني (انظر السلسلة الصحيحة، برقم: ٢٥٠).

(٢) أضواء البيان (٧/ ٧٣٨-٧٤٤).

قوله تعالى: ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿١٣﴾﴾

★ غريب الآية:

ءالاء: الآلاء: النِّعَمُ، واحِدُها: إِلْيٌ وأَلْوٌ وأَلْيٌ وأَلَى وإِلَى.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال القنوجي: «﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ﴾ أي: فبأي فرد من أفراد نعم ربكما تكذبان؟ أبتلك النعم المذكورة هنا؟ أم بغيرها؟ والمراد بالتكذيب الإنكار، والخطاب للجن والإنس؛ لأن لفظ الأنام يعمهما وغيرهما، ثم خصص بهذا الخطاب من يعقل، وبهذا قال الجمهور من المفسرين، ويدل عليه قوله فيما سيأتي: ﴿سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَ ٱلثَّقَلَانِ ﴿٣١﴾﴾[1]، ويدل على هذا ما قدمناه أن النبي ﷺ قرأها على الجن والإنس، وقيل: الخطاب للإنس، وثنّاه على قاعدة العرب في خطاب الواحد بلفظ التثنية..

وكرر سبحانه هذه الآية في هذه السورة في أحد وثلاثين موضعًا تقريرًا للنعمة، وتأكيدًا للتذكير بها، على عادة العرب في الاتساع، ثمانية منها ذكرت عقب آيات فيها تعداد عجائب خلق اللّه، وبدائع صنعه، ومبدأ الخلق ومعادهم، ثم سبعة منها عقب آيات فيها ذكر النار وشدائدها، بعدد أبواب جهنم، وحسن ذكر الآلاء عقبها؛ لأن من جملة الآلاء رفع البلاء، وتأخير العقاب، وبعد هذه السبعة ثمانية في وصف الجنتين وأهلهما بعدد أبواب الجنة، وثمانية أخرى بعدها في الجنتين اللتين هما دون الجنتين الأوليين، أخذًا من قوله: ﴿وَمِن دُونِهِمَا جَنَّتَانِ ﴿٦٢﴾﴾[2]، فمن اعتقد الثمانية الأولى وعمل بموجبها؛ استحق هاتين الثمانيتين من اللّه ووقاه السبعة السابقة، أفاده شيخ الإسلام في «متشابه القرآن».

قال القتيبي: إن اللّه عدد في هذه السورة نعماءه، وذكّر خلقه آلاءه، ثم أتبع كل خلة وضعها بهذه الآية، وجعلها فاصلة بين كل نعمتين، لينبههم على النعم،

---

(١) الرحمن: الآية (٣١).

(٢) الرحمن: الآية (٦٢).

ويقررهم بها، كما تقول لمن تتابع له إحسانك وهو يكفره: ألم تكن فقيرًا فأغنيتك؟ أفتنكر هذا؟ ألم تكن خاملًا فعززتك؟ أفتنكر هذا؟ ألم تكن راجلًا فحملتك؟ أفتنكر هذا؟ ألم تكن عريانًا فكسوتك؟ أفتنكر هذا؟ والتكرير حسن في مثل هذا، ومنه قول الشاعر:

لا تقتلي رجلًا إن كنت مسلمة ... إياك من دمه إياك إياك

ومثل هذا الكلام شائع في كلام العرب؛ وذلك لأن اللّٰه تعالى ذكر في هذه السورة ما يدل على وحدانيته من خلق الإنسان، وتعليمه البيان، وخلق الشمس والقمر، والسماء والأرض، إلى غير ذلك مما أنعم به على خلقه، وخاطب الجن والإنس بالأشياء المذكورة؛ لأنها كلها منعم بها عليهم، قال الحسين بن الفضل: التكرير طرد للغفلة، وتأكيد للحجة.

وذهب جماعة منهم ابن قتيبة إلى أن التكرير لاختلاف النعم، فلذلك كرر التوقيف مع كل واحدة»[1].

* * *

(١) فتح البيان (١٣/ ٣١٨-٣١٩).

قوله تعالى: ﴿خَلَقَ ٱلْإِنسَـٰنَ مِن صَلْصَـٰلٍ كَٱلْفَخَّارِ ۝١٤ وَخَلَقَ ٱلْجَآنَّ مِن مَّارِجٍ مِّن نَّارٍ ۝١٥﴾[١]

★ **غريب الآية:**

صلصال: الطِّينُ الحُرُّ خُلِطَ بالرَّمْلِ، أو الطينُ ما لم يُجْعَلْ خَزَفًا.

الفخار: الطين المشوي بالنار، وهو الخزف.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال القنوجي: «لما ذكر سبحانه خلق العالم الكبير، وهو السماء والأرض وما فيهما، ذكر خلق العالم الصغير، وقال: ﴿خَلَقَ ٱلْإِنسَـٰنَ﴾، وهذا تمهيد للتوبيخ على إخلالهم بواجب شكر النعم المتعلقة بذات كل واحد من الثقلين، والمراد بالإنسان هنا: آدم»[٢].

قال الطبري: «يقول -تعالى ذكره-: خلق اللَّه الإنسان، وهو آدم، من صلصال، وهو الطين اليابس الذي لم يطبخ؛ فإنه من يبسه له صلصلة إذا حرّك ونقر كالفخار؛ يعني أنه من يبسه وإن لم يكن مطبوخًا، كالذي قد طُبخ بالنار، فهو يصلصل كما يصلصل الفخار»[٣].

قال ابن ناصر السعدي: «﴿وَخَلَقَ ٱلْجَآنَّ﴾ أي: أبا الجن، وهو إبليس اللعين، ﴿مِن مَّارِجٍ مِّن نَّارٍ﴾ أي: من لهب النار الصافي، أو الذي قد خالطه الدخان، وهذا يدل على شرف عنصر الآدمي المخلوق من الطين والتراب، الذي هو محل الرزانة والثقل والمنافع، بخلاف عنصر الجان وهو النار، التي هي محل الخفة والطيش والشر والفساد.

---

(١) الرحمن: الآيتان (١٤و١٥).

(٢) فتح البيان (١٣/ ٣٢٠).

(٣) جامع البيان (٢٧/ ١٢٤).

ولما بين خلق الثقلين ومادة ذلك، وكان ذلك منّة منه تعالى على عباده، قال: ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝١٦﴾»[١].

قال الشنقيطي: «وهذه الآية بين اللَّه فيها طورًا من أطوار التراب الذي خلق منه آدم، فبين في آيات أنه خلقه من تراب كقوله تعالى: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ﴾[٢]، وقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّنَ ٱلْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن تُرَابٍ﴾[٣]، وقوله تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ إِذَآ أَنتُم بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ ۝٢٠﴾[٤]، وقوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ﴾[٥]، وقوله تعالى: ﴿مِنْهَا خَلَقْنَٰكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ﴾[٦].

وقد بينا في قوله تعالى: ﴿فَإِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن تُرَابٍ﴾ وقوله: ﴿مِنْهَا خَلَقْنَٰكُمْ﴾ أن المراد بخلقهم منها هو خلق أبيهم آدم منها؛ لأنه أصلهم وهم فروعه، ثم إن اللَّه تعالى عجن هذا التراب بالماء فصار طينًا، ولذا قال: ﴿ءَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا﴾[٧]، وقال: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن طِينٍ ۝١٢﴾[٨]، وقال تعالى: ﴿وَبَدَأَ خَلْقَ ٱلْإِنسَٰنِ مِن طِينٍ﴾[٩]، وقال: ﴿إِنَّا خَلَقْنَٰهُم مِّن طِينٍ لَّازِبٍ﴾[١٠]، وقال تعالى: ﴿إِنِّى خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن طِينٍ﴾[١١]، ثم خمر هذا الطين فصار حمأً مسنونًا، أي: طينًا أسود متغير الريح، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ۝٢٦﴾[١٢] الآية، قال تعالى: ﴿إِنِّى خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ﴾[١٣]، وقال عن إبليس: ﴿قَالَ لَمْ أَكُن لِّأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُۥ مِن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ۝٣٣﴾[١٤]، والمسنون: قيل: المتغير، وقيل: المصور، وقيل: الأملس، ثم يبس هذا الطين فصار صلصالًا، كما قال هنا: ﴿خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِن صَلْصَٰلٍ كَٱلْفَخَّارِ ۝١٤﴾، وقال: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ۝٢٦﴾.

---

(١) تيسير الكريم الرحمن (ص: ٨٢٩-٨٣٠).
(٢) آل عمران: الآية (٥٩).
(٣) الحج: الآية (٥).
(٤) الروم: الآية (٢٠).
(٥) غافر: الآية (٦٧).
(٦) طه: الآية (٥٥).
(٧) الإسراء: الآية (٦١).
(٨) المؤمنون: الآية (١٢).
(٩) السجدة: الآية (٧).
(١٠) الصافات: الآية (١١).
(١١) ص: الآية (٧١).
(١٢) الحجر: الآية (٢٦).
(١٣) الحجر: الآية (٢٨).
(١٤) الحجر: الآية (٣٣).

فالآيات يصدق بعضها بعضًا، ويتبين فيها أطوار ذلك التراب كما لا يخفى»[١].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في بيان أصل الإنس والجن

* عن عائشة قالت: قال رسول اللَّه ﷺ: «**خلقت الملائكة من نور، وخلق الجان من مارج من نار، وخلق آدم مما وصف لكم**»[٢].

★ غريب الحديث:

مارج: اللهب المختلط بسواد النار.

★ فوائد الحديث:

قال عبد الرحمن بن ناصر السعدي: «وهذا من نعمه تعالى على عباده، حيث أراهم من آثار قدرته وبديع صنعته، أنْ خلق أبا الإنس، وهو آدم عليه السلام، من صلصال كالفخار، أي: من طين مبلول، قد أُحكم بلّه، وأُتقن، حتى جفّ، فصار له صلصلة وصوت، يشبه صوت الفخار، وهو الطين المشوي»[٣].

قال القرطبي: «قوله: «**خلق الجان من مارج من نار**» أي: من شواظ ذي لهب واتّقاد ودخان، فكانوا شرًّا محضًا، والخير فيهم قليل.

وقوله: «**وخلق آدم مما تعلمون**» أي مما أعلمكم به، أي: من تراب صُيّر طينًا، ثم فخارًا، كما أخبرنا به تعالى في غير موضع من كتابه. والفخار: الطين اليابس»[٤].

قال البنا: «**«من مارج من نار»** أي: من نار مختلطة بهواء مشتعل، والمرج الاختلاط، فهو من عنصرين من هواء وماء، كما أن آدم من عنصرين: تراب وماء وعجن محدث له اسم الطين. «**مما وصف لكم**» بالبناء على المفعول، أي: وصفه اللَّه لكم في مواضع من كتابه»[٥].

قال ابن القيم: «ذكر اللَّه سبحانه وتعالى خلق الإنسان في كتابه في مواضع

---

(١) أضواء البيان (٧/ ٧٤٦).

(٢) أخرجه: أحمد (٦/ ١٥٣و١٦٨)، ومسلم (٤/ ٢٢٩٤/ ٢٩٩٦).

(٣) تيسير الكريم الرحمن (ص: ٨٢٩).

(٤) المفهم (٧/ ٣١٥).

(٥) الفتح الرباني (١٧/ ٢٠).

متعددة يخبر في بعضها أنه خلقه من ماء، وفي بعضها أنه خلقه من تراب، وفي بعضها أنه خلقه من المركّب منهما وهو الطين، وفي بعضها أنه خلقه من صلصال كالفخار، وهو الطين الذي ضربته الشمس والريح حتى صار صلصالًا كالفخار، ولم يخبر في موضع واحد أنه خلقه من نار؛ بل جعل ذلك خاصية إبليس؛ وثبت في صحيح مسلم عن النبي ﷺ قال: «**خلقت الملائكة من نور، وخلق الجان من مارج من نار، وخلق آدم مما وصف لكم**»، وهذا صريح في أنه خلق مما وصفه اللَّه في كتابه فقط، ولم يصف لنا سبحانه أنه خلقه من نار ولا أن في مادته شيئًا من النار»[١].

قال شيخ الإسلام: «والنبي صلى اللَّه تعالى عليه وسلم خلق مما يخلق منه البشر، ولم يخلق أحد من البشر من نور، بل قد ثبت في الصحيح عن النبي صلى اللَّه تعالى عليه وسلم أنه قال: «**إن اللَّه خلق الملائكة من نور، وخلق إبليس من مارج من نار، وخلق آدم مما وصف لكم**» وليس تفضيل بعض المخلوقات على بعض باعتبار ما خلقت منه فقط، بل قد يخلق المؤمن من كافر والكافر من مؤمن كابن نوح منه وكإبراهيم من آزر، وآدم خلقه اللَّه من طين، فلما سوّاه ونفخ فيه من روحه، وأسجد له الملائكة، وفضله عليهم بتعليمه أسماء كل شيء، وبأن خلقه بيديه، وبغير ذلك، فهو وصالحو ذريته أفضل من الملائكة، وإن كان هؤلاء مخلوقين من طين، وهؤلاء من نور. وهذه مسألة كبيرة مبسوطة في غير هذا الموضع. فإن فضل بني آدم هو بأسباب يطول شرحها هنا، وإنما يظهر فضلهم إذا دخلوا دار القرار ﴿وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ ۝٢٣ سَلَٰمٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ ۚ فَنِعْمَ عُقْبَى ٱلدَّارِ﴾[٢]، والآدمي خلق من نطفة، ثم من مضغة، ثم من علقة، ثم انتقل من صغر إلى كبر، ثم من دار إلى دار، فلا يظهر فضله وهو في ابتداء أحواله، وإنما يظهر فضله عند كمال أحواله، بخلاف الملك الذي تشابه أول أمره وآخره، ومن هنا غلط من فضّل الملائكة على الأنبياء، حيث نظر إلى أحوال الأنبياء وهم في أثناء الأحوال قبل أن يصلوا إلى ما وعدوا به في الدار الآخرة من نهايات الكمال»[٣].

* * *

---

(١) زاد المعاد (٤/ ٢١-٢٢).

(٢) الرعد: الآيتان (٢٣و٢٤).

(٣) مجموع الفتاوى (١١/ ٩٤-٩٥).

قوله تعالى: ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿١٦﴾﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال أبو السعود: «مما أفاض عليكما في تضاعيف خلقكما من سوابغ النعم»[1].

وقال القنوجي: «فإنه أنعم عليكما في تضاعيف خلقكما من ذلك بنعم لا تحصى، فهلاّ اعتبرتم بهذه الأصول فصدقتم بالآخرة، لعلكم تنجون من عذاب اللّه تعالى»[2].

* * *

---

(١) إرشاد العقل السليم (٨/ ١٧٩).

(٢) فتح البيان (١٣/ ٣٢١).

قوله تعالى: ﴿رَبُّ ٱلْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ ٱلْمَغْرِبَيْنِ ۝١٧ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝١٨﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال الطبري: «يقول -تعالى ذكره-: ذلكم -أيها الثقلان- ﴿رَبُّ ٱلْمَشْرِقَيْنِ﴾ يعني بالمشرقين: مشرق الشمس في الشتاء، ومشرقها في الصيف.

وقوله: ﴿وَرَبُّ ٱلْمَغْرِبَيْنِ﴾ يعني: وربّ مغرب الشمس في الشتاء، ومغربها في الصيف»[١].

قال ابن كثير: «وقال في الآية الأخرى: ﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِرَبِّ ٱلْمَشَٰرِقِ وَٱلْمَغَٰرِبِ﴾[٢]، وذلك باختلاف مطالع الشمس وتنقلها في كل يوم وبروزها منه إلى الناس. وقال في الآية الأخرى: ﴿رَّبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱتَّخِذْهُ وَكِيلًا ۝٩﴾[٣]، وهذا هو المراد منه جنس المشارق والمغارب، ولما كان في اختلاف هذه المشارق والمغارب مصالح للخلق من الجن والإنس قال: ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝١٨﴾»[٤].

قال القنوجي: «فإن في ذلك من النعم ما لا يحصى، كاعتدال الهواء واختلاف الفصول، وحدوث ما يناسب كل فصل فيه، أو بغير ذلك، ولا يتيسر لمن أنصف من نفسه تكذيب فرد من أفراده»[٥].

* * *

---

(١) جامع البيان (٢٧/ ١٢٧).

(٢) المعارج: الآية (٤٠).

(٣) المزمل: الآية (٩).

(٤) تفسير القرآن العظيم (٧/ ٤٦٧).

(٥) فتح البيان (١٣/ ٣٢٢).

قوله تعالى: ﴿مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ ۝١٩ بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَّا يَبْغِيَانِ ۝٢٠ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝٢١﴾

★ غريب الآية:

مرج: المَرْجُ: الخَلْطُ. ومَرَجَ اللَّه البحرَينِ العذْبَ والمِلْحَ: خَلَطَهما حتى التقيا.

بَرْزَخٌ: البرزخ: ما بين كل شيئين من حاجز.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «قوله: ﴿مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ ۝١٩﴾ يقول -تعالى ذكره-: مرج رب المشرقين ورب المغربين البحرين يلتقيان، يعني بقوله: ﴿مَرَجَ﴾ أرسل وأرخى. .

واختلف أهل العلم في البحرين اللذين ذكرهما اللَّه -جل ثناؤه- في هذه الآية، أيّ البحرين هما؟ فقال بعضهم: هما بحران: أحدهما في السماء والآخر في الأرض. .

وقال آخرون: عني بذلك فارس والروم.

وأولى الأقوال في ذلك عندي بالصواب قول من قال: عُني به بحر السماء، وبحر الأرض، وذلك أن اللَّه قال: ﴿يَخْرُجُ مِنْهُمَا ٱللُّؤْلُؤُ وَٱلْمَرْجَانُ ۝٢٢﴾، واللؤلؤ والمرجان إنما يخرج من أصداف بحر الأرض عن قَطْر ماء السماء، فمعلوم أن ذلك بحر الأرض وبحر السماء»[1].

قال ابن كثير بعد حكايته قول الطبري: «لكن ليس المراد بذلك ما ذهب إليه؛ فإنه لا يساعده اللفظ؛ فإنه تعالى قد قال: ﴿بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَّا يَبْغِيَانِ ۝٢٠﴾ أي: وجعل بينهما برزخًا، وهو الحاجز من الأرض؛ لئلاّ يبغي هذا على هذا، وهذا على هذا،

---

(١) جامع البيان (٢٧/ ١٢٨).

فيفسد كل واحد منهما الآخر، ويزيله عن صفته التي هي مقصودة منه، وما بين السماء والأرض لا يسمى برزخًا وحجرًا محجورًا»[١].

قال ابن ناصر السعدي: «المراد بالبحرين: البحر العذب، والبحر المالح، فهما يلتقيان كلاهما، فيصب العذب في البحر المالح، ويختلطان ويمتزجان، ولكن اللَّه تعالى جعل بينهما برزخًا من الأرض، حتى لا يبغي أحدهما على الآخر، ويحصل النفع بكل منهما، فالعذب منه يشربون وتشرب أشجارهم وزروعهم، والملح به يطيب الهواء ويتولد الحوت والسمك، واللؤلؤ والمرجان، ويكون مستقرًّا مسخّرًا للسفن والمراكب»[٢].

قال الطبري: «اختلف أهل التأويل في معنى قوله: ﴿لَّا يَبْغِيَانِ﴾، فقال بعضهم: معنى ذلك: لا يبغي أحدهما على صاحبه..

وقال آخرون: بل معنى ذلك: أنهما لا يختلطان..

وقال آخرون: بل معنى ذلك: لا يبغيان على اليبس..

وقال آخرون: بل معناه: لا يبغيان أن يلتقيا..

وأولى الأقوال في ذلك بالصواب أن يقال: إن اللَّه وصف البحرين اللذين ذكرهما في هذه الآية أنهما لا يبغيان، ولم يخصص وصفهما في شيء دون شيء، بل عمّ الخبر عنهما بذلك، فالصواب أن يُعَمّ كما عمّ -جل ثناؤه-، فيقال: إنهما لا يبغيان على شيء، ولا يبغي أحدهما على صاحبه، ولا يتجاوزان حدّ اللَّه الذي حدّه لهما.

وقوله: ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ يقول -تعالى ذكره-: فبأيّ نعم اللَّه ربكما معشر الجن والإنس تكذّبان من هذه النعم التي أنعم عليكم من مرجه البحرين، حتى جعل لكم بذلك حلية تلبسونها كذلك»[٣].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: «قال الرافضي: (قوله تعالى: ﴿مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ ۝١٩ بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَّا يَبْغِيَانِ ۝٢٠﴾، من تفسير الثعلبي وطريق أبي نعيم عن ابن عباس في

---

(١) تفسير القرآن العظيم (٧/ ٤٦٨).

(٢) تيسير الكريم الرحمن (ص: ٨٣٠).

(٣) جامع البيان (٢٧/ ١٢٩-١٣٠).

قوله: ﴿مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ ﴿١٩﴾﴾ قال: علي وفاطمة، ﴿بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَّا يَبْغِيَانِ ﴿٢٠﴾﴾: النبي صلى الله عليه وآله، ﴿يَخْرُجُ مِنْهُمَا ٱللُّؤْلُؤُ وَٱلْمَرْجَانُ ﴿٢٢﴾﴾: الحسن والحسين، ولم يحصل لغيره من الصحابة هذه الفضيلة، فيكون أولى بالإمامة).

والجواب: أن هذا وأمثاله إنما يقوله من لا يعقل ما يقول. وهذا بالهذيان أشبه منه بتفسير القرآن، وهو من جنس تفسير الملاحدة والقرامطة الباطنية للقرآن، بل هو شر من كثير منه. والتفسير بمثل هذا طريق للملاحدة على القرآن والطعن فيه، بل تفسير القرآن بمثل هذا من أعظم القدح فيه والطعن فيه.

ولجهّال المنتسبين إلى السنة تفاسير في الأربعة، وهي إن كانت باطلة فهي أمثل من هذا، كقولهم: ﴿ٱلصَّٰبِرِينَ﴾[1]: محمد، ﴿وَٱلصَّٰدِقِينَ﴾: أبو بكر، ﴿وَٱلْقَٰنِتِينَ﴾: عمر، ﴿وَٱلْمُنفِقِينَ﴾: عثمان، ﴿وَٱلْمُسْتَغْفِرِينَ بِٱلْأَسْحَارِ﴾: عليّ.

وكقوله: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ﴾[2]: أبو بكر، ﴿أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ﴾: عمر، ﴿رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ۖ﴾: عثمان، ﴿تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا﴾: عليّ.

وكقولهم: ﴿وَٱلتِّينِ﴾: أبو بكر، ﴿وَٱلزَّيْتُونِ﴾: عمر، ﴿وَطُورِ سِينِينَ ﴿٢﴾﴾: عثمان، ﴿وَهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ٱلْأَمِينِ ﴿٣﴾﴾: عليّ.

وكقولهم: ﴿وَٱلْعَصْرِ ﴿١﴾ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ ﴿٢﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾: أبو بكر، ﴿وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾: عمر، ﴿وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ﴾: عثمان، ﴿وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ﴾: عليّ.

فهذه التفاسير من جنس تلك التفاسير، وهي أمثل من إلحادات الرافضة، كقولهم: ﴿وَكُلَّ شَىْءٍ أَحْصَيْنَٰهُ فِىٓ إِمَامٍ مُّبِينٍ﴾[3]: عليّ، وكقولهم: ﴿وَإِنَّهُۥ فِىٓ أُمِّ ٱلْكِتَٰبِ لَدَيْنَا لَعَلِىٌّ حَكِيمٌ ﴿٤﴾﴾[4]: إنه عليّ بن أبي طالب، ﴿وَٱلشَّجَرَةَ ٱلْمَلْعُونَةَ فِى ٱلْقُرْءَانِ ۚ﴾[5]: بنو أمية، وأمثال هذا الكلام الذي لا يقوله من يرجو لله وقارًا، ولا يقوله من يؤمن بالله وكتابه.

وكذلك قول القائل: ﴿مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ ﴿١٩﴾﴾: عليّ وفاطمة، ﴿بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَّا يَبْغِيَانِ ﴿٢٠﴾﴾: النبي ﷺ، ﴿يَخْرُجُ مِنْهُمَا ٱللُّؤْلُؤُ وَٱلْمَرْجَانُ ﴿٢٢﴾﴾: الحسن والحسين.

---

(١) آل عمران: الآية (١٧).
(٢) الفتح: الآية (٢٩).
(٣) يس: الآية (١٢).
(٤) الزخرف: الآية (٤).
(٥) الإسراء: الآية (٦٠).

وكل من له أدنى علم وعقل يعلم بالاضطرار بطلان هذا التفسير، وأن ابن عباس لم يقل هذا.

وهذا من التفسير الذي في تفسير الثعلبي، وذكره بإسناد رواته مجهولون لا يُعرفون، عن سفيان الثوري. وهو كذب على سفيان. قال الثعلبي: أخبرني الحسن بن محمد الدينوري، حدثنا موسى بن محمد بن علي بن عبد اللَّه، قال: قرأ أبي على أبي محمد بن الحسن بن علوية القطان من كتابه وأنا أسمع، حدثنا بعض أصحابنا، حدثنا رجل من أهل مصر يقال له: طسم، حدثنا أبو حذيفة، عن أبيه، عن سفيان الثوري في قوله: ﴿مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ ﴿١٩﴾ بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَّا يَبْغِيَانِ ﴿٢٠﴾﴾ قال: فاطمة وعليّ، ﴿يَخْرُجُ مِنْهُمَا ٱللُّؤْلُؤُ وَٱلْمَرْجَانُ ﴿٢٢﴾﴾: الحسن والحسين.

وهذا الإسناد ظلمات بعضها فوق بعض، لا يثبت بمثله شيء.

ومما يبيّن كذب ذلك وجوه:

أحدها: أن هذا في سورة (الرحمن)، وهي مكية بإجماع المسلمين، والحسن والحسين إنما ولدا بالمدينة.

الثاني: أن تسمية هذين بحرين، وهذا لؤلؤًا، وهذا مرجانًا، وجعل النكاح مرجًا، أمر لا تحتمله لغة العرب بوجه، لا حقيقة ولا مجازًا، بل كما أنه كذب على اللَّه وعلى القرآن، فهو كذب على اللغة.

الثالث: أنه ليس في هذا شيء زائد على ما يوجد في سائر بني آدم، فإن كل من تزوج امرأة ووُلد لهما ولدان فهما من هذا الجنس، فليس في ذكر هذا ما يُستعظم من قدرة اللَّه وآياته، إلا ما في نظائره من خلق الآدميين. فلا موجب للتخصيص، وإن كان ذلك لفضيلة الزوجين والولدين، فإبراهيم وإسحق ويعقوب أفضل من عليّ..

الرابع: أن اللَّه ذكر أنه مرج البحرين في آية أخرى، فقال في (الفرقان): ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ﴾[1]، فلو أريد بذلك عليّ وفاطمة لكان ذلك ذمًّا لأحدهما، وهذا باطل بإجماع أهل السنة والشيعة.

الخامس: أنه قال: ﴿بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَّا يَبْغِيَانِ ﴿٢٠﴾﴾ فلو أريد بذلك عليّ وفاطمة،

---

(١) الفرقان: الآية (٥٣).

لكان البرزخ الذي هو النبي ﷺ -بزعمهم- أو غيره هو المانع لأحدهما أن يبغي على الآخر. وهذا بالذم أشبه منه بالمدح.

السادس: أن أئمة التفسير متفقون على خلاف هذا، كما ذكره ابن جرير وغيره»[1].

* * *

(١) منهاج السنة النبوية (٧/ ٢٤٤-٢٤٩).

قوله تعالى: ﴿يَخْرُجُ مِنْهُمَا ٱللُّؤْلُؤُ وَٱلْمَرْجَانُ ۝٢٢ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝٢٣﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال الطبري: «يقول -تعالى ذكره-: يخرج من هذين البحرين -اللذين مرجهما اللَّه، وجعل بينهما برزخًا- اللؤلؤ والمرجان.

واختلف أهل التأويل في صفة اللؤلؤ والمرجان، فقال بعضهم: اللؤلؤ: ما عظم من الدر، والمرجان: ما صغُر منه..

وقال آخرون: المرجان من اللؤلؤ: الكبار، واللؤلؤ منها: الصغار..

وقال آخرون: المرجان: جيد اللؤلؤ..

وقال آخرون: المرجان: حجر..

والصواب من القول في اللؤلؤ أنه هو الذي عرفه الناس مما يخرج من أصداف البحر من الحبّ؛ وأما المرجان، فإني رأيت أهل المعرفة بكلام العرب لا يتدافعون أنه جمع مرجانة، وأنه الصغار من اللؤلؤ، قد ذكرنا ما فيه من الاختلاف بين متقدمي أهل العلم، واللَّه أعلم بصواب ذلك»[١].

قال السمرقندي: «﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ يعني خلق في البحر اللؤلؤ لمنفعة الخلق، ولصلاحهم، ولكي تعتبروا به، فكيف تنكرون هذه النعمة؟!»[٢].

قال الشنقيطي: «اعلم أن جماعة من أهل العلم قالوا: إن المراد بقوله في هذه الآية: ﴿يَخْرُجُ مِنْهُمَا﴾ أي: من مجموعها الصادق بالبحر الملح، وأن الآية من إطلاق المجموع وإرادة بعضه، وأن اللؤلؤ والمرجان لا يخرجان إلا من البحر الملح وحده دون العذب.

---

(١) جامع البيان (٢٧/ ١٣٠-١٣٢).

(٢) بحر العلوم (٣/ ٣٠٧).

وهذا القول الذي قالوه في هذه الآية مع كثرتهم وجلالتهم لا شك في بطلانه؛ لأن اللَّه صرح بنقيضه في سورة (فاطر)، ولا شك أن كل ما ناقض القرآن فهو باطل، وذلك في قوله تعالى: ﴿وَمَا يَسْتَوِي الْبَحْرَانِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَائِغٌ شَرَابُهُ وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَمِن كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا﴾[1]، فالتنوين في قوله: ﴿وَمِن كُلٍّ﴾ تنوين عوض، أي: من كل واحد من العذب والملح تأكلون لحمًا طريًّا وتستخرجون حلية تلبسونها، وهي اللؤلؤ والمرجان، وهذا مما لا نزاع فيه»[2].

* * *

(١) فاطر: الآية (١٢).

(٢) أضواء البيان (٧/ ٧٤٨).

قوله تعالى: ﴿وَلَهُ ٱلْجَوَارِ ٱلْمُنشَآتُ فِى ٱلْبَحْرِ كَٱلْأَعْلَٰمِ ﴿٢٤﴾ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٢٥﴾﴾

★ **غريب الآية:**

الجوار: جمع جارية، وهي السفينة.

الأعلام: الجبال، واحدها: عَلَم. قالت الخنساء:

وإن صخرًا لتأتم الهداة به كأنه علم في رأسه نار

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن ناصر السعدي: «أي: وسخر تعالى لعباده السفن الجواري، التي تمخر البحر وتشقه بإذن الله، التي ينشئها الآدميون، فتكون من كبرها وعظمها كالأعلام، وهي الجبال العظيمة، فيركبها الناس، ويحملون عليها أمتعتهم وأنواع تجاراتهم، وغير ذلك مما تدعو إليه حاجتهم وضرورتهم، وقد حفظها حافظ السموات والأرض، وهذه من نعم الله الجليلة، فلذلك قال: ﴿فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾»[1].

وقال ابن كثير: «﴿كَٱلْأَعْلَٰمِ﴾ أي: كالجبال في كبرها وما فيها من المتاجر والمكاسب المنقولة من قطر إلى قطر، وإقليم إلى إقليم، مما فيه صلاح للناس في جلب ما يحتاجون إليه من سائر أنواع البضائع، ولهذا قال: ﴿فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾»[2].

وقال أبو السعود: «﴿فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ من خلق مواد السفن، والإرشاد إلى أخذها، وكيفية تركيبها، وجرائها[3] في البحر بأسباب لا يقدر على خلقها وجمعها وترتيبها غيره سبحانه»[4].

---

(١) تيسير الكريم الرحمن (ص: ٨٣٠).

(٢) تفسير القرآن العظيم (٧/ ٤٦٩).

(٣) هكذا في الأصل، ولعل الصواب: وإجرائها.

(٤) إرشاد العقل السليم (٨/ ١٨٠).

تنبيه :

قال القنوجي : «المراد بالجوار : السفن الجارية في البحر، وسميت السفينة جارية؛ لأن شأنها ذلك وإن كانت واقفة في الساحل؛ كما سماها في موضع آخر بالجارية، كما قال تعالى : ﴿إِنَّا لَمَّا طَغَا ٱلْمَآءُ حَمَلْنَٰكُمْ فِى ٱلْجَارِيَةِ ﴿١١﴾﴾[١]، وسماها بالفلك قبل أن لم تكن كذلك، فقال تعالى لنوح : ﴿وَٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا﴾[٢]، ثم بعدما عملها سماها سفينة، فقال تعالى : ﴿فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَصْحَٰبَ ٱلسَّفِينَةِ﴾[٣]»[٤].

* * *

(١) الحاقة : الآية (١١).

(٢) هود : الآية (٣٧).

(٣) العنكبوت : الآية (١٥).

(٤) فتح البيان (١٣/ ٣٢٤).

قوله تعالى: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴿٢٦﴾ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ ﴿٢٧﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٢٨﴾﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره-: كل من على ظهر الأرض من جن وإنس فإنه هالك، ويبقى وجه ربك -يا محمد- ذو الجلال والإكرام. و﴿ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ﴾ من نعت الوجه، فلذلك رفع ﴿ذُو﴾»(١).

قال ابن كثير: «وهذه الآية كقوله تعالى: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ﴾(٢)، وقد نعت تعالى وجهه الكريم في هذه الآية الكريمة بأنه ذو الجلال والإكرام، أي: هو أهل أن يُجَلّ فلا يعصى، وأن يُطاع فلا يخالف، كقوله تعالى: ﴿وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ﴾(٣)، وكقوله إخبارًا عن المتصدقين: ﴿إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ﴾(٤)..

ولما أخبر تعالى عن تساوي أهل الأرض كلهم في الوفاة، وأنهم سيصيرون إلى الدار الآخرة فيحكم فيهم ذو الجلال والإكرام بحكمه العدل؛ قال: ﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٢٨﴾﴾»(٥).

قال السمرقندي: «﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ ومعناه: أن اللّه تعالى يعينكم، فتوكّلوا عليه، ولا تعتمدوا على الناس؛ لأنهم لا يقدرون على دفع الهلاك عن أنفسهم، واللّه هو الباقي بعد فناء الخلق، وهو الذي يتجاوز عنكم، ويعينكم، فكيف تنكرون ربكم الذي خلقكم وأحسن إليكم؟!»(٦).

قال الشنقيطي: «والوجه صفة من صفات اللّه العليّ، وصف بها نفسه، فعلينا

---

(١) جامع البيان (٢٧/ ١٣٤).
(٢) القصص: الآية (٨٨).
(٣) الكهف: الآية (٢٨).
(٤) الإنسان: الآية (٩).
(٥) تفسير القرآن العظيم (٧/ ٤٦٩).
(٦) بحر العلوم (٣/ ٣٠٧).

أن نصدق ربنا، ونؤمن بما وصف به نفسه مع التنزيه التامّ عن مشابهة صفات الخلق»[١].

وانظر ما تقدّم من الكلام على هذه الصفة في تفسير سورة (القصص) عند قوله تعالى: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ﴾ الآية (٨٨).

* * *

(١) أضواء البيان (٧/ ٧٥٠).

قوله تعالى: ﴿يَسْـَٔلُهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۚ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ ۝٢٩ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝٣٠﴾

★ **غريب الآية:**

شأن: الشَّأْنُ: الخَطْبُ والأمْرُ، جمعه: شُؤُونٌ وشِئِينٌ.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «﴿يَسْـَٔلُهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۚ﴾ يقول -تعالى ذكره-: إليه يفزع بمسألة الحاجات كل من في السموات والأرض، من مَلَك وإنس وجن وغيرهم، لا غنى بأحد منهم عنه»[1].

وقال ابن كثير: «هذا إخبار عن غناه عما سواه، وافتقار الخلائق إليه في جميع الآنات، وأنهم يسألونه بلسان حالهم وقالهم، وأنه كل يوم هو في شأن»[2].

قال ابن جرير: «وقوله: ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ يقول -تعالى ذكره-: فبأي نعم ربكما -معشر الجن والإنس التي أنعم عليكم من صرفه إياكم في مصالحكم، وما هو أعلم به منكم من تقليبه إياكم فيما هو أنفع لكم- تكذبان»[3].

تنبيه:

قال القنوجي: «ولا وجه لتخصيص شأن دون شأن، بل الآية تدل على أنه سبحانه كل يوم في شأن من الشؤون له، أي شأن كان من غير تعيين، وشؤونه سبحانه لا تحصى، ولا يعلمها إلا هو، فالعموم أولى وأنسب بمقام القدرة وكمالها»[4].

---

(١) جامع البيان (٢٧/ ١٣٤).
(٢) تفسير القرآن العظيم (٧/ ٤٧٠).
(٣) جامع البيان (٢٧/ ١٣٥).
(٤) فتح البيان (١٣/ ٣٢٧).

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في تفسير قوله تعالى: ﴿كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾

* عن أبي الدرداء عن النبي ﷺ في قوله: ﴿كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾ قال: «يغفر ذنبًا، ويكشف كربًا، ويرفع قومًا، ويضع آخرين»[(١)].

★ فوائد الحديث:

هذا الحديث يدخل في التفسير المسند لقول اللَّه ﷻ: ﴿كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾، فبيّن النبي ﷺ بعض ما يقدّره اللَّه ﷻ ويقضيه كل يوم.

قال ابن القيم وهو يتحدث عن تدبير اللَّه لهذا الكون: «يعلم السر وأخفى من السر، فالسرّ ما انطوى عليه ضمير العبد وخَطر بقلبه ولم تتحرك به شفتاه، وأخفى منه ما لم يخطر بعدُ، فيعلم أنه سيخطر بقلبه كذا وكذا في وقت كذا وكذا، له الخلق والأمر، وله الملك والحمد، وله الدنيا والآخرة، وله النعمة وله الفضل وله الثناء الحسن، له الملك كله، وله الحمد كله، وبيده الخير كله، وإليه يرجع الأمر كله، شملت قدرته كلّ شيء، ووسِعت رحمته كل شيء، ووسعت نعمته إلى كل حيّ، ﴿يَسْـَٔلُهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِى شَأْنٍ ﴿٢٩﴾﴾، يغفر ذنبًا، ويفرّج همًّا، ويكشف كربًا، ويجبر كسيرًا، ويغني فقيرًا، ويُعلّم جاهلًا، ويهدي ضالاً، ويرشد حيرانًا، ويغيث لهفان، ويفكُّ عانيًا، ويُشبع جائعًا، ويكسو عاريًا، ويشفي مريضًا، ويعافي مبتلىً، ويقبل تائبًا، ويجزي محسنًا، وينصر مظلومًا، ويَقصم جبّارًا، ويقيل عثرةً، ويستر عورةً، ويُؤمن روعة، ويرفع أقوامًا، ويضع آخرين، لا ينام ولا ينبغي له أن ينام، يخفض القسط ويرفعه، يرفع إليه عمل الليل قبل النهار، وعمل النهار قبل الليل»[(٢)].

وقال الشيخ ابن ناصر السعدي: «يغني فقيرًا، ويجبر كسيرًا، ويعطي قومًا، ويمنع آخرين، ويميت ويحيي، ويخفض ويرفع، لا يشغله شأن عن شأن،

---

(١) أخرجه: ابن ماجه (١/ ٧٣/ ٢٠٢)، وقال البوصيري: «إسناده حسن»، وصححه ابن حبان (الإحسان ٢/ ٤٦٤/ ٦٨٩). وذكره البخاري تعليقًا (٨/ ٧٩٨) موقوفًا عن أبي الدرداء، وانظر تغليق التعليق (٤/ ٣٣٢).

(٢) الوابل الصيب (ص: ١٣٥-١٣٦).

ولا تغلطه المسائل، ولا يُبرمه[١] إلحاح الملحّين، ولا طول مسألة السائلين، فسبحان الكريم الوهاب، الذي عمت مواهبه أهل الأرض والسموات، وعم لطفه جميع الخلق في كل الآنات واللحظات، وتعالى الذي لا يمنعه من الإعطاء معصية العاصين، ولا استغناء الفقراء الجاهلين به وبكرمه. وهذه الشؤون التي أخبر أنه تعالى كل يوم هو في شأن؛ هي تقاديره وتدابيره التي قدرها في الأزل وقضاها، لا يزال تعالى يمضيها وينفذها في أوقاتها، التي اقتضتها حكمته، وهي أحكامه الدينية التي هي الأمر والنهي، والقدرية التي يجريها على عباده مدة مقامهم في هذه الدار. حتى إذا تمت هذه الخليقة وأفناهم اللَّه تعالى، وأراد تعالى أن ينفذ فيهم أحكام الجزاء، ويريَهم من عدله وفضله، وكثرة إحسانه ما به يعرفونه ويوحدونه؛ نقل المكلفين من دار الابتلاء والامتحان إلى دار الحيوان»[٢].

* * *

(١) أي: لا يضجره ولا يمله ولا يسئمه.

(٢) تيسير الكريم الرحمن (ص: ٨٣٠).

قوله تعالى: ﴿سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَ ٱلثَّقَلَانِ ﴿٣١﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٢﴾﴾

★ **غريب الآية:**

الثقلان: الجن والإنس.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «وعيد من اللَّه لعباده وتهدد، كقول القائل الذي يتهدد غيره ويتوعده، ولا شغل له يشغله عن عقابه: لأتفرغنّ لك، وسأتفرّغ لك، بمعنى: سأجدّ في أمرك وأعاقبك، وقد يقول القائل للذي لا شغل له: قد فرغت لي، وقد فرغت لشتمي، أي: أخذت فيه وأقبلت عليه، وكذلك قوله -جل ثناؤه-: ﴿سَنَفْرُغُ لَكُمْ﴾ سنحاسبكم، ونأخذ في أمركم أيها الإنس والجن، فنعاقب أهل المعاصي، ونثيب أهل الطاعة»[1].

قال ابن عطية: «قوله: ﴿سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَ ٱلثَّقَلَانِ ﴿٣١﴾﴾ عبارة عن إتيان الوقت الذي قدر فيه وقضى أن ينظر في أمور عباده، وذلك يوم القيامة، وليس المعنى: أن ثم شغلًا يتفرغ منه، وإنما هي إشارة وعيد»[2].

قال البخاري: ﴿سَنَفْرُغُ لَكُمْ﴾: سنحاسبكم، ولا يشغله شيء عن شيء، وهو معروف في كلام العرب»[3].

قال القنوجي: «﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ ومن جملتها ما في هذا التهديد من النعم، فمن ذلك أنه ينزجر به المسيء عن إساءته، ويزداد به المحسن إحسانًا، فيكون ذلك سببًا للفوز بنعيم الدار الآخرة، الذي هو النعيم في الحقيقة»[4].

---

(١) جامع البيان (٢٧/ ١٣٦).

(٢) المحرر الوجيز (٥/ ٢٢٩).

(٣) فتح الباري (٨/ ٧٩٩).

(٤) فتح البيان (١٣/ ٣٢٩).

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في المراد بالثقلين

* عن أنس بن مالك أن نبي اللَّه ﷺ قال: «العبد إذا وضع في قبره، وتُوُلِّيَ وذهب أصحابه حتى إنه ليسمع قرع نعالهم... فيصيح صيحة يسمعها من يليه إلا الثقلين»[١].

★ فوائد الحديث:

قال ابن كثير: «وقوله تعالى: ﴿أَيُّهَ ٱلثَّقَلَانِ﴾؛ الثَّقَلان: الإنس والجن كما جاء في الصحيح: «يسمعه كلُّ شيء إلا الثقلين»، وفي رواية: «إلا الإنس والجن»»[٢].

قال القرطبي: «سمّيا بذلك لعظيم شأنهما بالإضافة إلى ما في الأرض من غيرهما بسبب التكليف. وقيل: سموا بذلك لأنهم ثقل على الأرض أحياءً وأمواتًا؛ قال اللَّه تعالى: ﴿وَأَخْرَجَتِ ٱلْأَرْضُ أَثْقَالَهَا ۝﴾[٣]، ومنه قولهم: أعطه ثقله، أي: وزنه. وقال بعض أهل المعاني: كل شيء له قدر ووزن ينافس فيه فهو ثقل، ومنه قيل لبيض النعام: ثقل؛ لأن واجده وصائده يفرح به إذا ظفر به، وقال جعفر الصادق: سمّيا ثقلين؛ لأنهما مثقلان بالذنوب»[٤].

* * *

---

(١) أخرجه: أحمد (٣/ ١٢٦)، والبخاري (٣/ ٢٦٤/ ١٣٣٨) واللفظ له، ومسلم (٤/ ٢٢٠٠/ ٢٨٧٠)، وأبو داود (٣/ ٥٥٦/ ٣٢٣١)، والنسائي (٤/ ٤٠٢-٤٠٣/ ٢٠٤٩)، وابن حبان (الإحسان ٧/ ٣٩٠/ ٣١٢٠).

(٢) تفسير القرآن العظيم (٧/ ٤٧١).

(٣) الزلزلة: الآية (٢).

(٤) الجامع لأحكام القرآن (١٧/ ١٦٩).

قوله تعالى: ﴿يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ إِنِ ٱسْتَطَعْتُمْ أَن تَنفُذُوا۟ مِنْ أَقْطَارِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ فَٱنفُذُوا۟ ۚ لَا تَنفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَٰنٍ ﴿٣٣﴾ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٤﴾﴾

★ غريب الآية:

تنفذوا: النفوذ: الخروج من الشيء. يقال: نفذ السهم في الرمية: خرقها وخرج منها.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن القيم: «فيها قولان: أحدهما: إن استطعتم أن تنفذوا ما في السموات والأرض علمًا -أي: أن تعلموا ما فيهما- فاعلموه، ولن تعلموه إلا بسلطان، أي: إلا ببينة من اللَّه. وعلى هذا، فالنفوذ ههنا نفوذ علم الثقلين في السموات والأرض.

الثاني: إن استطعتم أن تخرجوا عن قهر اللَّه ومحل سلطانه ومملكته بنفوذكم من أقطار السموات والأرض، وخروجكم عن محل حكم اللَّه وسلطانه فافعلوا، ومعلوم أن هذا من الممتنع عليكم؛ فإنكم تحت سلطاني، وفي محل ملكي وقدرتي أين كنتم. وقال الضحاك: معنى الآية: إن استطعتم أن تهربوا عند الموت فاهربوا؛ فإنه مدرككم. وهذه الأقوال على أن يكون الخطاب لهم بهذا القول في الدنيا. وفي الآية تقرير آخر، وهو أن يكون هذا الخطاب في الآخرة إذا أحاطت الملائكة بأقطار الأرض، وأحاط سرادق النار بالآفاق، فهرب الخلائق، فلا يجدون مهربًا ولا منفذًا، كما قال تعالى: ﴿وَيَٰقَوْمِ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ ٱلتَّنَادِ ﴿٣٢﴾ يَوْمَ تُوَلُّونَ مُدْبِرِينَ﴾[1] قال مجاهد: فارّين غير معجزين، وقال الضحاك: إذا سمعوا زفير النار ندّوا هربًا، فلا يأتون قطرًا من الأقطار إلا وجدوا الملائكة صفوفًا، فيرجعون إلى المكان الذي كانوا فيه، فذلك قوله تعالى: ﴿وَٱلْمَلَكُ عَلَىٰٓ أَرْجَآئِهَا﴾[2]، وقوله تعالى:

---

(١) غافر: الآيتان (٣٢و٣٣).

(٢) الحاقة: الآية (١٧).

﴿يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ إِنِ ٱسْتَطَعْتُمْ أَن تَنفُذُوا۟ مِنْ أَقْطَارِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ فَٱنفُذُوا۟﴾، وهذا القول أظهر، والله أعلم. فإذا بده الخلائق ولّوا مدبرين، يقال لهم: ﴿إِنِ ٱسْتَطَعْتُمْ أَن تَنفُذُوا۟ مِنْ أَقْطَارِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ فَٱنفُذُوا۟﴾ أي: إن قدرتم أن تتجاوزوا أقطار السموات والأرض فتعجزوا ربكم حتى لا يقدر على عذابكم فافعلوا. وكأن ما قبل هذه الآية وما بعدها على هذا القول؛ فإن قبلها: ﴿سَنَفْرُغُ﴾ الآية، وهذا في الآخرة، وبعدها: ﴿فَإِذَا ٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَآءُ فَكَانَتْ وَرْدَةً كَٱلدِّهَانِ ۝٣٧﴾[1]، وهذا في الآخرة. وأيضًا فإن هذا خطاب لجميع الإنس والجن، فإنه أتى فيه بصيغة العموم، وهي قوله تعالى: ﴿يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ﴾ فلا بد أن يشترك الكل في سماع هذا الخطاب ومضمونه. وهذا إنما يكون إذا جمعهم الله في صعيد واحد يسمعهم الداعي وينفذهم البصر. وقال تعالى: ﴿إِنِ ٱسْتَطَعْتُمْ﴾ ولم يقل: إن استطعتما؛ لإرادة الجماعة، كما في آية أخرى: ﴿يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ﴾[2]»[3].

قال السعدي: «أي: إذا جمعهم الله في موقف القيامة، أخبرهم بعجزهم وضعفهم، وكمال سلطانه، ونفوذ مشيئته وقدرته، فقال معجزًا لهم: ﴿يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ إِنِ ٱسْتَطَعْتُمْ أَن تَنفُذُوا۟ مِنْ أَقْطَارِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ أي: تجدون منفذًا ومسلكًا تخرجون به عن ملك الله وسلطانه، ﴿فَٱنفُذُوا۟ لَا تَنفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَٰنٍ﴾ أي: لا تخرجون عنه إلا بقوة وتسلط منكم، وكمال قدرة، وأنى لهم ذلك، وهم لا يملكون لأنفسهم نفعًا ولا ضرًا، ولا موتًا ولا حياة ولا نشورًا؟! ففي ذلك الموقف لا يتكلم أحد إلا بإذنه، ولا تسمع إلا همسًا، وفي ذلك الموقف يستوي الملوك والمماليك، والرؤساء والمرؤوسون، والأغنياء والفقراء»[4].

قال ابن جرير: «قوله: ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ يقول -تعالى ذكره-: فبأيّ نعم ربكما معشر الثقلين التي أنعمت عليكم، من التسوية بين جميعكم، لا يقدرون على خلاف أمر أراده بكم تكذّبان»[5].

قال ابن كثير: «﴿يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ إِنِ ٱسْتَطَعْتُمْ أَن تَنفُذُوا۟ مِنْ أَقْطَارِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ

(١) الرحمن: الآية (٣٧).
(٢) الأنعام: الآية (١٣٠).
(٣) طريق الهجرتين (ص: ٤٢٣-٤٢٤).
(٤) تيسير الكريم الرحمن (ص: ٨٣٠).
(٥) جامع البيان (٢٧/١٣٨).

﴿فَٱنفُذُواْۚ لَا تَنفُذُونَ إِلَّا بِسُلۡطَٰنٍ ٣٣﴾ أي: لا تستطيعون هربًا من أمر اللَّه وقدره، بل هو محيط بكم، لا تقدرون على التخلص من حكمه، ولا النفوذ عن حكمه فيكم، أينما ذهبتم أحيط بكم. وهذا في مقام الحشر.. ﴿إِلَّا بِسُلۡطَٰنٍ﴾، أي: إلا بأمر اللَّه، ﴿يَقُولُ ٱلۡإِنسَٰنُ يَوۡمَئِذٍ أَيۡنَ ٱلۡمَفَرُّ ١٠ كَلَّا لَا وَزَرَ ١١ إِلَىٰ رَبِّكَ يَوۡمَئِذٍ ٱلۡمُسۡتَقَرُّ ١٢﴾[1].

وقال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَسَبُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ جَزَآءُ سَيِّئَةِۭ بِمِثۡلِهَا وَتَرۡهَقُهُمۡ ذِلَّةٞۖ مَّا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِنۡ عَاصِمٖۖ كَأَنَّمَآ أُغۡشِيَتۡ وُجُوهُهُمۡ قِطَعٗا مِّنَ ٱلَّيۡلِ مُظۡلِمًاۚ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ٢٧﴾[2]، ولهذا قال تعالى: ﴿يُرۡسَلُ عَلَيۡكُمَا شُوَاظٞ مِّن نَّارٖ وَنُحَاسٞ فَلَا تَنتَصِرَانِ ٣٥﴾[3]»[4].

* * *

---

(١) القيامة: الآيات (١٠-١٢).

(٢) يونس: الآية (٢٧).

(٣) الرحمن: الآية (٣٥).

(٤) تفسير القرآن العظيم (٧/ ٤٧١-٤٧٢).

قوله تعالى: ﴿يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ مِّن نَّارٍ وَنُحَاسٌ فَلَا تَنتَصِرَانِ ۝ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝﴾

★ **غريب الآية:**

شواظ: الشُّواظُ والشِّواظُ: اللَّهَب الذي لا دُخانَ فيه، وقيل: الشُّواظ قِطْعة من نار ليس فيها نُحاس، وقيل: الشواظ لهب النار، ولا يكون إلا من نار وشيءٍ آخر يَخْلِطُه، ويقال لدُخان النار: شُواظ وشِواظ، ولحرّها: شُواظ وشِواظ.

نحاس: النُّحَاسُ: مَا سَقَطَ مِن شَرَارِ الصُّفْرِ أَو من شَرَارِ الحَدِيدِ إذا طُرِقَ، أي: ضُرِبَ بالمِطْرَقَةِ، والنِّحاسُ -بالكسر- لُغَةٌ فيه، قال أبو عُبَيْدَة: النُّحاسُ -ههُنا-: الدخانُ الذي لا لَهَبَ فيه.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن ناصر السعدي: «أي: يرسل عليكما لهب صاف من النار. ﴿وَنُحَاسٌ﴾ وهو اللهب الذي قد خالطه الدخان. والمعنى أن هذين الأمرين الفظيعين يرسلان عليكما يا معشر الجن والإنس، ويحيطان بكما فلا تنتصران، لا بناصر من أنفسكم، ولا بأحد ينصركم من دون الله.

ولما كان تخويفه لعباده نعمة منه عليهم، وسوطًا يسوقهم به إلى أعلى المطالب وأشرف المواهب، امتنّ عليهم، فقال: ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾»[1].

قال ابن القيم: «قال تعالى: ﴿يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا﴾[2]، ولم يقل: يرسل عليكم؛ لإرادة الصنفين، أي: لا يختص به صنف عن صنف، بل يرسل ذلك على الصنفين معًا. وهذا وإن كان مرادًا بقوله تعالى: ﴿إِنِ ٱسْتَطَعْتُمْ﴾ فخطاب الجماعة في ذلك بلفظ الجمع أحسن، أي: من استطاع منكم، وحسن الخطاب بالتثنية في قوله تعالى:

---

(١) تيسير الكريم الرحمن (ص: ٨٣١).

(٢) الرحمن: الآية (٣٥).

﴿عَلَيۡكُمَا﴾ أمر آخر، وهو موافقة رؤوس الآي، فاتصلت التثنية بالتثنية. وفيه التسوية بين الصنفين في العذاب بالتنصيص عليهما، فلا يحتمل اللفظ إرادة أحدهما، واللَّه أعلم»[١].

* * *

(١) طريق الهجرتين (ص: ٤٢٤).

قوله تعالى: ﴿فَإِذَا انشَقَّتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ وَرْدَةً كَالدِّهَانِ ﴿٣٧﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٨﴾﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال الشنقيطي: «ذكر -جل وعلا- في هذه الآية الكريمة أن السماء ستنشق يوم القيامة، وأنها إذا انشقّت صارت وردة كالدهان، وقوله: ﴿وَرْدَةً﴾: أي حمراء كلون الورد، وقوله: ﴿كَالدِّهَانِ﴾: فيه قولان معروفان للعلماء.

الأول منهما: أن الدهان هو الجلد الأحمر، وعليه فالمعنى أنها تصير وردة متصفة بلون الورد مشابهة للجلد الأحمر في لونه.

والثاني: أن الدهان هو ما يدهن به، وعليه فالدهان قيل: هو جمع دهن، وقيل: هو مفرد؛ لأن العرب تسمي ما يدهن به دهانًا، وهو مفرد، ومنه قول امرئ القيس:

كأنهما مزادتا متعجل فريان لما تدهني بدهان

وحقيقة الفرق بين القولين؛ أنه على القول بأن الدهان هو الجلد الأحمر، يكون اللَّه وصف السماء عند انشقاقها يوم القيامة بوصف واحد وهو الحمرة، فشبهها بحمرة الورد، وحمرة الأديم الأحمر.

قال بعض أهل العلم: إنها يصل إليها حر النار فتحمر من شدة الحرارة. وقال بعض أهل العلم: أصل السماء حمراء، إلا أنها لشدة بعدها وما دونها من الحواجز لم تصل العيون إلى إدراك لونها الأحمر على حقيقته، وأنها يوم القيامة ترى على حقيقة لونها.

وأما على القول بأن الدهان هو ما يدهن به، فإن اللَّه قد وصف السماء عند انشقاقها بوصفين أحدهما حمرة لونها، والثاني أنها تذوب وتصير مائعة كالدهن.

أما على القول الأول، فلم نعلم آية من كتاب اللَّه تبين هذه الآية، بأن السماء ستحمر يوم القيامة حتى تكون كلون الجلد الأحمر.

وأما على القول الثاني الذي هو أنها تذوب وتصير مائعة، فقد أوضحه اللَّه في غير هذا الموضع، وذلك في قوله تعالى في (المعارج): ﴿إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُۥ بَعِيدًا ۝٦ وَنَرَىٰهُ قَرِيبًا ۝٧ يَوْمَ تَكُونُ ٱلسَّمَآءُ كَٱلْمُهْلِ ۝٨﴾[(١)]، والمهل شيء ذائب على كلا القولين، سواء قلنا: إنه دردي الزيت، وهو عكره، أو قلنا: إنه الذائب من حديد أو نحاس أو نحوهما.

وقد أوضح تعالى في (الكهف) أن المهل شيء ذائب يشبه الماء، شديد الحرارة، وذلك في قوله تعالى: ﴿وَإِن يَسْتَغِيثُوا۟ يُغَاثُوا۟ بِمَآءٍ كَٱلْمُهْلِ يَشْوِى ٱلْوُجُوهَ ۚ بِئْسَ ٱلشَّرَابُ وَسَآءَتْ مُرْتَفَقًا﴾[(٢)].

والقول بأن الوردة تشبيه بالفرس الكميت وهو الأحمر؛ لأن حمرته تتلون باختلاف الفصول، فتشتد حمرتها في فصل، وتميل إلى الصفرة في فصل، وإلى الغبرة في فصل، وأن المراد بالتشبيه كون السماء عند انشقاقها تتلون بألوان مختلفة واضح البعد عن ظاهر الآية.

وقول من قال: إنها تذهب وتجيء، معناه له شاهد في كتاب اللَّه، وذلك في قوله تعالى: ﴿يَوْمَ تَمُورُ ٱلسَّمَآءُ مَوْرًا ۝٩﴾[(٣)] الآية، ولكنه لا يخلو عندي من بعد.

وما ذكره تعالى في هذه الآية الكريمة من انشقاق السماء يوم القيامة، جاء موضحًا في آيات كثيرة كقوله تعالى: ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتْ ۝١﴾[(٤)]، وقوله تعالى: ﴿فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ ٱلْوَاقِعَةُ ۝١٥﴾[(٥)]، وقوله: ﴿وَيَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلسَّمَآءُ بِٱلْغَمَٰمِ﴾[(٦)] الآية، وقوله: ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتْ ۝١﴾[(٧)]»[(٨)].

قال القنوجي: «﴿فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ فإن من جملتها ما في هذا التهديد والتخويف من حسن العاقبة بالإقبال على الخير، والإعراض عن الشر»[(٩)].

* * *

---

(١) المعارج: الآيات (٦-٨).
(٢) الكهف: الآية (٢٩).
(٣) الطور: الآية (٩).
(٤) الانشقاق: الآية (١).
(٥) الحاقة: الآيتان (١٥و١٦).
(٦) الفرقان: الآية (٢٥).
(٧) الانفطار: الآية (١).
(٨) أضواء البيان (٧/ ٧٥٠-٧٥٢).
(٩) فتح البيان (١٣/ ٣٣٣).

قوله تعالى: ﴿فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُسْـَٔلُ عَن ذَنۢبِهِۦٓ إِنسٌ وَلَا جَآنٌّ ۝٣٩ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝٤٠﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن القيم: «قوله تعالى: ﴿فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُسْـَٔلُ عَن ذَنۢبِهِۦٓ إِنسٌ وَلَا جَآنٌّ ۝٣٩﴾ أضاف الذنوب إلى الثقلين، وهذا دليل على أنهما سويًا في التكليف. واختلف في هذا السؤال المنفي، فقيل: هو وقت البعث والمصير إلى الموقف، لا يسألون حينئذ، ولا يسألون بعد إطالة الوقوف واستشفاعهم إلى اللَّه أن يحاسبهم ويريحهم من مقامهم ذلك. وقيل: المنفي سؤال الاستعلام والاستخبار، لا سؤال المحاسبة والمجازاة، أي: قد علم اللَّه ذنوبهم فلا يسألهم عنها سؤال من يريد علمها، وإنما يحاسبهم عليها»[1].

قال الشنقيطي: «ذكر -جل وعلا- في هذه الآية الكريمة أنه يوم القيامة لا يسأل إنسًا ولا جانًّا عن ذنبه، وبين هذا المعنى في قوله تعالى في (القصص): ﴿وَلَا يُسْـَٔلُ عَن ذُنُوبِهِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ﴾[2].

وقد ذكر -جل وعلا- في آيات أخر أنه يسأل جميع الناس يوم القيامة، الرسل والمرسل إليهم، وذلك في قوله تعالى: ﴿فَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلْمُرْسَلِينَ ۝٦﴾[3]، وقوله: ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسْـَٔلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ۝٩٢ عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾[4].

وقد جاءت آيات من كتاب اللَّه مبينة لوجه الجمع بين هذه الآيات، التي قد يظن غير العالم أن بينها اختلافًا، اعلم أولًا أن السؤال المنفي في قوله هنا: ﴿فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُسْـَٔلُ عَن ذَنۢبِهِۦٓ إِنسٌ وَلَا جَآنٌّ ۝٣٩﴾، وقوله: ﴿وَلَا يُسْـَٔلُ عَن ذُنُوبِهِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ﴾ أخص من السؤال المثبت في قوله: ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسْـَٔلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ۝٩٢ عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾؛ لأن هذه فيها تعميم السؤال في كل عمل، والآيتان قبلها ليس فيهما نفي السؤال إلا عن

---

(١) طريق الهجرتين (ص: ٤٢٤).
(٢) القصص: الآية (٧٨).
(٣) الأعراف: الآية (٦).
(٤) الحجر: الآيتان (٩٢و٩٣).

الذنوب خاصة، وللجمع بين هذه الآيات أوجه معروفة عند العلماء.

الأول منها: وهو الذي دل عليه القرآن، وهو محل الشاهد عندنا من بيان القرآن بالقرآن هنا، هو أن السؤال نوعان: أحدهما: سؤال التوبيخ والتقريع، وهو من أنواع العذاب، والثاني: هو سؤال الاستخبار والاستعلام.

فالسؤال المنفي في بعض الآيات هو سؤال الاستخبار والاستعلام؛ لأن اللَّه أعلم بأفعالهم منهم أنفسهم كما قال تعالى: ﴿أَحْصَىٰهُ ٱللَّهُ وَنَسُوهُ﴾[١].

وعليه فالمعنى: لا يسأل عن ذنبه إنس ولا جان سؤال استخبار واستعلام؛ لأن اللَّه أعلم بذنبه منه.

والسؤال المثبت في الآيات الأخرى هو سؤال التوبيخ والتقريع، سواء كان عن ذنب أو غير ذنب، ومثال سؤالهم عن الذنوب سؤال توبيخ وتقريع قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ فَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ﴾[٢]، ومثاله عن غير ذنب قوله تعالى: ﴿وَقِفُوهُمْ إِنَّهُم مَّسْـُٔولُونَ ﴿٢٤﴾ مَا لَكُمْ لَا تَنَاصَرُونَ ﴿٢٥﴾ بَلْ هُمُ ٱلْيَوْمَ مُسْتَسْلِمُونَ ﴿٢٦﴾﴾[٣]، وقوله تعالى: ﴿يَوْمَ يُدَعُّونَ إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا ﴿١٣﴾ هَٰذِهِ ٱلنَّارُ ٱلَّتِى كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴿١٤﴾ أَفَسِحْرٌ هَٰذَآ﴾[٤] الآية، وقوله: ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ﴾[٥].

أما سؤال الموءودة في قوله: ﴿وَإِذَا ٱلْمَوْءُۥدَةُ سُئِلَتْ﴾[٦] فلا يعارض الآيات النافية السؤال عن الذنب؛ لأنها سئلت عن أي ذنب قتلت، وهذا ليس من ذنبها، والمراد بسؤالها توبيخ قاتلها وتقريعه؛ لأنها هي تقول: لا ذنب لي، فيرجع اللوم على من قتلها ظلمًا»[٧].

قال ابن جرير: «وقوله: ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ يقول -تعالى ذكره-: فبأيِّ نعم ربكما معشر الثقلين -التي أنعم عليكم من عدله فيكم، أنه لم يعاقب منكم إلا مجرمًا- تكذّبان»[٨].

---

(١) المجادلة: الآية (٦).

(٢) آل عمران: الآية (١٠٦).

(٣) الصافات: الآيات (٢٤-٢٦).

(٤) الطور: الآيات (١٣-١٥).

(٥) الأنعام: الآية (١٣٠).

(٦) التكوير: الآية (٨).

(٧) أضواء البيان (٧/ ٧٥٣-٧٥٤).

(٨) جامع البيان (٢٧/ ١٤٣).

قوله تعالى: ﴿يُعْرَفُ ٱلْمُجْرِمُونَ بِسِيمَٰهُمْ فَيُؤْخَذُ بِٱلنَّوَٰصِى وَٱلْأَقْدَامِ ﴿٤١﴾ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٢﴾﴾

★ **غريب الآية:**

النواصي: جمع ناصية، وهي شعر مقدم الرأس.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «قوله: ﴿يُعْرَفُ ٱلْمُجْرِمُونَ بِسِيمَٰهُمْ﴾ يقول -تعالى ذكره-: تعرف الملائكة المجرمين بعلاماتهم وسيماهم التي يسوّمهم اللّه بها من اسوداد الوجوه وازرقاق العيون. .

وقوله: ﴿فَيُؤْخَذُ بِٱلنَّوَٰصِى وَٱلْأَقْدَامِ﴾ يقول -تعالى ذكره-: فتأخذهم الزبانية بنواصيهم وأقدامهم فتسحبهم إلى جهنم، وتقذفهم فيها، ﴿فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ يقول -تعالى ذكره-: فبأيّ نعم ربكما -معشر الجن والإنس، التي أنعم عليكم بها من تعريفه ملائكته أهل الإجرام من أهل الطاعة منكم؛ حتى خصوا بالإذلال والإهانة المجرمين دون غيرهم- تكذّبان»[1].

قال الشنقيطي: «قوله: ﴿بِسِيمَٰهُمْ﴾ أي: بعلامتهم المميزة لهم. وقد دل القرآن على أنها هي سواد وجوههم وزرقة عيونهم، كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ﴾[2] الآية، وقال تعالى: ﴿وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ تَرَى ٱلَّذِينَ كَذَبُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ﴾[3]، وقال تعالى: ﴿وَتَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ مَّا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ كَأَنَّمَآ أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطَعًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مُظْلِمًا أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾[4]، وقال تعالى: ﴿وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ ﴿٤٠﴾ تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ ﴿٤١﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَفَرَةُ ٱلْفَجَرَةُ ﴿٤٢﴾﴾[5]؛ لأن

---

(١) جامع البيان (٢٧/ ١٤٣).
(٢) آل عمران: الآية (١٠٦).
(٣) الزمر: الآية (٦٠).
(٤) يونس: الآية (٢٧).
(٥) عبس: الآيات (٤٠-٤٢).

معنى قوله: ﴿تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ ۝٤١﴾ أي: يعلوها ويغشاها سواد كالدخان الأسود، وقال تعالى في زرقة عيونهم: ﴿وَنَحْشُرُ ٱلْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا﴾[١]، ولا شيء أقبح وأشوه من سواد الوجوه وزرقة العيون، ولذا لما أراد الشاعر أن يقبح علل البخيل بأسوإ الأوصاف وأقبحها، فوصفها بسواد الوجوه وزرقة العيون حيث قال:

وللبخيل على أمواله علل

زرق العيون عليها أوجه سود

ولا سيما إذا اجتمع مع سواد الوجه اغبراره، كما في قوله: ﴿وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ ۝٤٠ تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ ۝٤١﴾[٢]، فإن ذلك يزيده قبحًا على قبح»[٣].

* * *

(١) طه: الآية (١٠٢).

(٢) عبس: الآيتان (٤٠-٤١).

(٣) أضواء البيان (٧/ ٧٥٤-٧٥٥).

قوله تعالى: ﴿هَٰذِهِۦ جَهَنَّمُ ٱلَّتِي يُكَذِّبُ بِهَا ٱلْمُجْرِمُونَ ۝٤٣ يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ ءَانٍ ۝٤٤ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝٤٥﴾

★ **غريب الآية:**

حميم: الحميم: الماءُ الحار.

آنٍ: أَنَى الحميمُ: انتهى حَرُّهُ.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره-: يقال لهؤلاء المجرمين الذين أخبر -جل ثناؤه- أنهم يُعرفون يوم القيامة بسيماهم حين يؤخذ بالنواصي والأقدام: ﴿هَٰذِهِۦ جَهَنَّمُ ٱلَّتِي يُكَذِّبُ بِهَا ٱلْمُجْرِمُونَ ۝٤٣﴾، فترك ذكر (يقال) اكتفاءً بدلالة الكلام عليه منه..

وقوله: ﴿يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ ءَانٍ ۝٤٤﴾، يقول -تعالى ذكره-: يطوف هؤلاء المجرمون الذين وصف صفتهم في جهنم بين أطباقها ﴿وَبَيْنَ حَمِيمٍ ءَانٍ﴾ يقول: وبين ماء قد أسخن وأغلي حتى انتهى حرّه وأنى طبخه؛ وكل شيء قد أدرك وبلغ فقد أنى؛ ومنه قوله: ﴿غَيْرَ نَٰظِرِينَ إِنَىٰهُ﴾[1] يعني: إدراكه وبلوغه»[2].

قال ابن كثير: «ولمّا كان معاقبة العصاة المجرمين، وتنعيم المتقين من فضله ورحمته وعدله ولطفه بخلقه، وكان إنذاره لهم عذابه وبأسه مما يزجرهم عما هم فيه من الشرك والمعاصي وغير ذلك، قال ممتنًّا بذلك على بريته: ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾»[3].

وقال: «وهذه كقوله تعالى: ﴿إِذِ ٱلْأَغْلَٰلُ فِيٓ أَعْنَٰقِهِمْ وَٱلسَّلَٰسِلُ يُسْحَبُونَ ۝٧١ فِى ٱلْحَمِيمِ ثُمَّ فِى ٱلنَّارِ يُسْجَرُونَ ۝٧٢﴾[4]»[5].

---

(١) الأحزاب: الآية (٥٣).

(٢) جامع البيان (٢٧/ ١٤٣-١٤٤).

(٣) تفسير القرآن العظيم (٧/ ٤٧٥-٤٧٦).

(٤) غافر: الآيتان (٧١و٧٢).

(٥) المصدر السابق (٧/ ٤٧٥).

قوله تعالى: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ ﴿٤٦﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٧﴾﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال القنوجي: «لما فرغ سبحانه من تعداد النعم الدنيوية على الثقلين، ذكر نعمه الأخروية التي أنعم بها عليهم فقال: ﴿وَلِمَنْ خَافَ﴾ أي: لكل فرد من أفراد الخائفين أو لمجموعهم، والأول هو المعتمد، ﴿مَقَامَ رَبِّهِۦ﴾ مقامه سبحانه هو الموقف الذي يقف فيه العباد للحساب؛ كما في قوله: ﴿يَوْمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦﴾﴾[١]، وقيل: المعنى: خاف قيام ربه عليه، وهو إشرافه على أحواله، واطلاعه على أفعاله وأقواله؛ كما في قوله: ﴿أَفَمَنْ هُوَ قَآئِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ﴾[٢]، أو قيام الخائف عند ربه للحساب. ومحصله احتمالات ثلاثة في تفسير المقام، أولها: أنه اسم مكان، والثاني: أنه مصدر تحته احتمالان: إما بمعنى قيام اللَّه على الخلائق، أو بمعنى قيام الخلائق بين يديه؛ قال مجاهد والنخعي: هو الرجل الذي يهم بالمعصية فيذكر اللَّه فيدعها من خوفه. وفيه إشارة إلى سبب استحقاق الجنتين في نفس الأمر، وهو أنه ليس مجرد الخوف، بل الخوف الناشئ عنه ترك المعاصي»[٣].

وقال الطبري: «يقول -تعالى ذكره-: ولمن اتقى اللَّه من عباده فخاف مقامه بين يديه، فأطاعه بأداء الفرائض واجتناب معاصيه جنتان، يعني بستانين»[٤].

قال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ بعد تقريره بأن الجن مكلف، وأن محسنهم في الجنة، ومسيئهم في النار، قال: «وأيضًا فقد قال تعالى في سورة (الرحمن): ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ ﴿٤٦﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ وذكر ما في الجنتين إلى قوله تعالى: ﴿لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَآنٌّ﴾[٥]، وهذا يدل على أن ثواب محسنهم

---

(١) المطففين: الآية (٦).
(٢) الرعد: الآية (٣٣).
(٣) فتح البيان (١٣/ ٣٣٥-٣٣٦).
(٤) جامع البيان (٢٧/ ١٤٥).
(٥) الرحمن: الآية (٥٦).

الجنة من وجوه:

أحدها: أن (مَنْ) من صيغ العموم، فتتناول كل خائف.

الثاني: أنه رتب الجزاء المذكور على خوف مقامه، فدل على استحقاقه به. وقد اختلف في إضافة المقام إلى الرب، هل هي من إضافة المصدر إلى فاعله أو إلى مفعوله؟ على قولين: أحدهما: أن المعنى: ولمن خاف مقامه بين يدي ربه، فعلى هذا هو من إضافة المصدر إلى المفعول. والثاني: أن المعنى: ولمن خاف مقام ربه عليه واطلاعه عليه، فهو من باب إضافة المصدر إلى فاعله، وكذلك القولان في قوله تعالى: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ۝٤٠﴾[1]، ونظيره قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِى وَخَافَ وَعِيدِ﴾[2]، فهذه ثلاثة مواضع. وقد يقال: الراجح هو الأول، وإن المعنى: خاف مقامه بين يدي ربه لوجوه، أحدها: أن طريقة القرآن في التخويف أن يخوفهم بالله وباليوم الآخر، فإذا خوفهم به علق الخوف به لا بقيامه عليهم، كقوله تعالى: ﴿فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ﴾[3]، وقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِىَ رَبَّهُۥ﴾[4]، وقوله تعالى: ﴿يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ﴾[5]، وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ۝١٢﴾[6]، ففي هذا كله لم يذكر خشية مقامه عليهم، وإنما مدحهم بخوفه وخشيته. وقد يذكر الخوف متعلقًا بعذابه كقوله تعالى: ﴿يَرْجُونَ رَحْمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓ﴾[7]، وأما خوف مقامه عليهم فهو وإن كان كذلك فليس طريقة القرآن. الثاني: أن هذا نظير قوله تعالى: ﴿وَأَنذِرْ بِهِ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَن يُحْشَرُوٓا۟ إِلَىٰ رَبِّهِمْ﴾[8] فخوفهم أن يحشروا إليه هو خوفهم من مقامهم بين يديه، والقرآن يفسر بعضه بعضًا. الثالث: أن خوف مقام العبد بين يدي ربه في الآخرة لا يكون إلا ممن يؤمن بلقائه وباليوم الآخر وبالبعث بعد الموت. وهذا هو الذي يستحق الجنتين المذكورتين؛ فإنه لا يؤمن بذلك حق الإيمان إلا من آمن بالرسل،

---

(١) النازعات: الآية (٤٠).

(٢) إبراهيم: الآية (١٤).

(٣) آل عمران: الآية (١٧٥).

(٤) البينة: الآية (٨).

(٥) النحل: الآية (٥٠).

(٦) الملك: الآية (١٢).

(٧) الإسراء: الآية (٥٧).

(٨) الأنعام: الآية (٥١).

وهو من الإيمان بالغيب الذي جاءت به الرسل. وأما مقام اللَّه على عبده في الدنيا واطلاعه عليه وقدرته عليه، فهذا يقرّ به المؤمن والكافر والبر والفاجر، وأكثر الكفار يخافون جزاء اللَّه لهم في الدنيا لما عاينوه من مجازاة الظالم بظلمه والمحسن بإحسانه، وأما مقام العبد بين يدي ربه في الآخرة فلا يؤمن به إلا المؤمن بالرسل. فإن قيل: إذا كان المعنى أنه خاف مقام ربه عليه في الآخرة بالجزاء فقد استوى التقديران، فمن أين رجحتم أحدهما؟ قيل: التخويف بمقام العبد بين يدي ربه أبلغ من التخويف بمقام الرب على العبد، ولهذا خوفنا تعالى في قوله: ﴿يَوْمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٦﴾[1]، ولأنه مقام مخصوص مضاف إلى اللَّه وذلك في يوم القيامة، بخلاف مقام اللَّه على العبد فإنه كل وقت. وأيضًا فإنه لا يقال لقدرة اللَّه على العبد واطلاعه عليه وعلمه به: مقام اللَّه، ولا هذا من المألوف إطلاقه على الرب. وأيضًا فإن المقام في القرآن والسنة إنما يطلق على المكان كقوله: ﴿عَسَىٰٓ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا﴾[2]، وقوله تعالى: ﴿كَمْ تَرَكُوا۟ مِن جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ۝٢٥ وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ۝٢٦﴾[3]، وقوله تعالى: ﴿خَيْرٌ مَّقَامًا وَأَحْسَنُ نَدِيًّا﴾[4]، والمقصود أن قوله تعالى: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ ۝٤٦﴾ يتناول الصنفين من وجوه تقدم منها وجهان.

الثالث: قوله عقيب هذا الوعد: ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾»[5].

قال ابن عطية: «وفي هذه الإضافة تنبيه على صعوبة الموقف، وتحريض على الخوف الذي هو أسرع المطايا إلى اللَّه ﷻ»[6].

قال ابن كثير: «هذه الآية عامة في الإنس والجن، فهي من أدل دليل على أن الجن يدخلون الجنة إذا آمنوا واتقوا، ولهذا امتنّ اللَّه تعالى على الثقلين بهذا الجزاء فقال: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ ۝٤٦ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝٤٧﴾»[7].

---

(١) المطففين: الآية (٦).
(٢) الإسراء: الآية (٧٩).
(٣) الدخان: الآيتان (٢٥و٢٦).
(٤) مريم: الآية (٧٣).
(٥) طريق الهجرتين (ص: ٤٢٤-٤٢٦).
(٦) المحرر الوجيز (٥/ ٢٣٣).
(٧) تفسير القرآن العظيم (٦/ ٤٩٧).

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في بيان عاقبة منزلة الخوف من اللَّه تعالى

* عن أبي هريرة قال: قال رسول اللَّه ﷺ: **«من خاف أدلج، ومن أدلج فقد بلغ المنزل، ألا إن سلعة اللَّه غالية، ألا إن سلعة اللَّه الجنة»**[(١)].

★ **غريب الحديث:**

أدْلج: يُقال: أدْلَجَ، بالتَّخفيف: إذا سار من أوّل الليل، وادَّلَجَ، بالتشديد: إذا سار من آخره. والاسم منهما: الدُّلْجة والدَّلجة، بالضم والفتح.. ومنهم مَن يجعل الإدْلاَجَ لِلّيل كله.

قال الطيبِي: «**«من خاف أدلج»**؛ قيل: من خاف من هجوم العدوّ عليه وقت السحر؛ يسير في الليل ويبلغ المأمن»[(٢)].

★ **فوائد الحديث:**

قال الطيبِي: «هذا مثل ضربه النبي ﷺ لسالك الآخرة، فإن الشيطان على طريقه؛ والنفس وأمانيه الكاذبة أعوانُه. فإن تيقّظ في سيره وأخلص النية في عمله أمِن من الشيطان وكيده، ومِن قطعِ الطريق بأعوانه، ثم أرشد إلى أنّ سلوك طريق الآخرة صعب، وتحصيل الآخرة متعسّر لا يحصل بأدنى سعي، فقال: **«ألا إن سلعة اللَّه غالية»** أي: رفيعة القدر، **وسلعة اللَّه الجنة العالية الباقية، ثمنها الأعمال الخالصة الباقية التي أشار إليها بقوله سبحانه:** ﴿وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا﴾[(٣)]»[(٤)].

وقال أيضًا: «والمراد بالخوف كفّ الجوارح عن المعاصي وتقييدها

---

(١) أخرجه: البخاري في التاريخ (٢/ ١١١)، والترمذي (٤/ ٥٤٦/ ٢٤٥٠) واللفظ له، وقال: «هذا حديث حسن غريب لا نعرفه إلا من حديث أبي النضر»، والحاكم (٤/ ٣٠٧-٣٠٨) وقال: «صحيح الإسناد ولم يخرجاه» ووافقه الذهبي، والبيهقي في الشعب (١/ ٥١٢/ ٨٨١)، وعبد بن حميد في المنتخب (٤٢٥/ ١٤٦٠)، والقضاعي (١/ ٢٥٠/ ٤٠٦). وانظر السلسلة الصحيحة رقم (٢٣٣٥).

(٢) الكاشف (١١/ ٣٣٨٤).

(٣) الكهف: الآية (٤٦).

(٤) الكاشف (١١/ ٣٣٨٤-٣٣٨٥).

بالطاعات، وإلا فهو حديث نفس، وحركة خاطر لا يستحق أن يسمّى خوفًا، وذلك عند مشاهدة سبب هائل، فإذا غاب ذلك السبب عن الحسّ رجع القلب إلى الغفلة، قال الفضيل: (إذا قيل لك: هل تخاف الله؟ فاسكت، فإنك إذا قلت: لا؛ كفرت، وإذا قلت: نعم؛ كذبت) أشار به إلى الخوف الذي هو كفّ الجوارح عن المعاصي»[1].

* عن أبي الدرداء: «أنه سمع رسول اللّه ﷺ وهو يقص على المنبر يقول: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ ۝٤٦﴾. فقلت: وإن زنا وإن سرق يا رسول الله؟ فقال رسول اللّه ﷺ الثانية: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ﴾. فقلت الثانية: وإن زنا وإن سرق يا رسول الله؟ فقال رسول اللّه ﷺ في الثالثة: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ﴾. فقلت الثالثة: وإن زنا وإن سرق يا رسول الله؟ قال: **وإن رغم أنف أبي الدرداء**»[2].

★ **فوائد الحديث:**

قال الطحاوي: «تأمّلنا هذا الحديث لنَقف على المراد به إن شاء اللّه، فوجدنا خوف مقام الربّ ﷻ مرتبة جليلة، ووجدنا ثوابها عنده ﷻ ثوابًا عظيمًا، ووجدناها تمنعُ من صغير معاصي اللّه ﷻ ومن كبيرها، وكما روي عن مجاهد في قول اللّه ﷻ: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ ۝٤٦﴾، قال: إذا همّ بمعصية، فذكر مقام اللّه ﷻ عليه في الدنيا تركها. . .

وكان محالًا أن يخالط ذلك الخوف من مقام اللّه ﷻ مَن يركب الزنى والسرقة، فعقلنا بذلك أن الزنى والسرقة اللذين أريدا في هذا الحديث إنما هما زنى وسرقة قد كانا في حال ممن كانا منه، ثم زال عن ذلك الحال إلى خوف مقام ربه ﷻ، الخوف الذي يمنعه من الوقوع في شيء من ذلك، ولما كانت هاتان الحالان، كلّ واحدة منهما ضد الأخرى، عقلنا بذلك أنّ كلّ واحدة منهما كانت في حال عدم الأخرى، فكانت الحال المذمومة في البدء، ثم تليها الحال المحمودة، فصار صاحبها فيها إلى خوف مقام ربّه، وردّ السرقة على من سرقها منه، وطلب وعد ربّه، وخاف

---

(١) المصدر نفسه (١١/ ٣٣٨٥).

(٢) أخرجه: أحمد (٢/ ٣٥٧)، والنسائي في الكبرى (٦/ ٤٧٨/ ١١٥٦٠) واللفظ له، قال الهيثمي (٧/ ١١٨): «رجال أحمد رجال الصحيح».

وعيده، وكان بذلك من أهل ما ذكر في هذا الحديث، وإن كان قد زنى، وقد سرق في حال قد نزع عنها إلى حال محمودة صار إليها.

وقد وجدنا في ذلك في كتاب اللَّه ﷻ ما قد دلّ على ذلك، وهو قوله فيه: ﴿وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ﴿٦٨﴾ يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَانًا ﴿٦٩﴾﴾[1]، فأعلمنا ﷻ أن من كان من أهل هذه الأفعال كان من أهل هذا الوعيد، ثم أعقب ذلك بقوله ﷻ: ﴿إِلَّا مَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُولَٰئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ﴾[2] فكان من صار إلى هذه الحال صار من أهل هذا الوعد، وخرج من أهل الوعيد، فدلّ ذلك أن أحوال الزنى والسرقة غير أحوال خوف مقام اللَّه ﷻ، وإن كان كلّ واحدة من الحالين كانت والحالة الأخرى منهما معدومة، وفيما ذكرنا بيان لما وصفنا، واللَّه نسأله التوفيق»[3].

*** عن أبي موسى الأشعري عن النبي ﷺ قال: «جنتان من فضة آنيتهما وما فيهما، وجنتان من ذهب آنيتهما وما فيهما، وما بين القوم وبين أن ينظروا إلى ربهم إلا رداء الكِبر على وجهه في جنة عدن»[4].**

*** عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه في قوله: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ ﴿٤٦﴾﴾ قال: «جنتان من ذهب للسابقين، وجنتان من فضة للتابعين»[5].**

★ فوائد الحديثين:

قال ابن كثير: «﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ ﴿٤٦﴾﴾ بين يدي اللَّه ﷻ يوم القيامة، ﴿وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ﴾[6] ولم يطع ولا آثر الحياة الدنيا، وعلم أن الآخرة خير وأبقى فأدى فرائض اللَّه واجتنب محارمه، فله يوم القيامة عند ربه جنتان، كما قال

---

(١) الفرقان: الآيتان (٦٨و٦٩). (٢) الفرقان: الآية (٧٠).

(٣) شرح مشكل الآثار (١٠/ ١٦٠-١٦٢).

(٤) أخرجه: أحمد (٤/ ٤١١)، والبخاري (٨/ ٨٠٣/ ٤٨٧٨) واللفظ له، ومسلم (١/ ١٦٣/ ١٨٠)، والترمذي (٤/ ٥٨١/ ٢٥٢٨)، والنسائي في الكبرى (٤/ ٤١٩-٤٢٠/ ٧٧٦٥)، وابن ماجه (١/ ٦٦/ ١٨٦).

(٥) أخرجه: ابن أبي شيبة (٧/ ١٤١/ ٣٤٤٨١٤)، والبيهقي في البعث (ص: ١٤٠، رقم: ٢٤٠-٢٤١)، والحاكم (٢/ ٤٧٤-٤٧٥) وسكت عليه، وقال الذهبي: «صحيح على شرط مسلم».

(٦) النازعات: الآية (٤٠).

البخاري. . » ثم ساق حديث أبي موسى.

قوله: «**وما بين القوم**. . » الحديث، قال الغنيمان: «هذا الشاهد من الحديث للباب؛ إذ فيه التصريح بقرب نظرهم إلى ربهم، فإذا أراد اللَّه تعالى أن ينعمهم ويزيد في كرامتهم رفع رداء الكبرياء عن وجهه فنظروا إليه»[١].

وبوّب الإمام النووي: «باب إثبات رؤية المؤمنين في الآخرة لربهم سبحانه وتعالى».

وقال: «اعلم أن مذهب أهل السنة بأجمعهم أن رؤية اللَّه تعالى ممكنة غير مستحيلة عقلًا، وأجمعوا أيضًا على وقوعها في الآخرة، وأن المؤمنين يرون اللَّه تعالى دون الكافرين، وزعمت طائفة من أهل البدع: المعتزلة والخوارج وبعض المرجئة؛ أن اللَّه تعالى لا يراه أحد من خلقه، وأن رؤيته مستحيلة عقلًا، وهذا الذي قالوه خطأ صريح وجهل قبيح، وقد تظاهرت أدلة الكتاب والسنة وإجماع الصحابة فمن بعدهم من سلف الأمة على إثبات رؤية اللَّه تعالى في الآخرة للمؤمنين، ورواها نحو من عشرين صحابيًّا عن رسول اللَّه ﷺ، وآيات القرآن فيها مشهورة، واعتراضات المبتدعة عليها لها أجوبة مشهورة في كتب المتكلمين من أهل السنة، وكذلك باقي شبههم، وهي مستقصاة في كتب الكلام، وليس بنا ضرورة إلى ذكرها ههنا»[٢].

* * *

---

(١) شرح كتاب التوحيد (٢/ ٥٤).

(٢) شرح صحيح مسلم (٣/ ١٤-١٥).

قوله تعالى: ﴿ذَوَاتَآ أَفۡنَانٍ ﴿٤٨﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٩﴾﴾[1]

★ **غريب الآية:**

أفنان: قال ابن عطية: «(الأفنان) يحتمل أن يكون جمع فنن، وهو فنن الغصن، وهذا قول مجاهد، فكأنه مدحها بظلالها وتكاثف أغصانها، ويحتمل أن يكون جمع فن، وهو قول ابن عباس، فكأنه مدحها بكثرة أنواع فواكهها ونعيمها»[2].

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن كثير: «ثم نعت هاتين الجنتين فقال: ﴿ذَوَاتَآ أَفۡنَانٍ ﴿٤٨﴾﴾ أي: أغصان نضرة حسنة تحمل من كل ثمرة نضيجة فائقة»[3].

وقال ابن ناصر السعدي: «أي: فيهما من ألوان النعيم المتنوعة -نعيم الظاهر والباطن- ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر، أن فيهما الأشجار الكثيرة الزاهرة ذوات الغصون الناعمة، التي فيها الثمار اليانعة الكثيرة اللذيذة»[4].

وقال السمرقندي: «ثم قال: ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ يعني: قد وُعِدتُّم الجنة والراحة، فكيف تنكرون وحدانية اللَّه ونعمته»[5].

* * *

---

(١) الرحمن: الآيتان (٤٨و٤٩).

(٢) المحرر الوجيز (٥/ ٢٣٣).

(٣) تفسير القرآن العظيم (٧/ ٤٧٧).

(٤) تيسير الكريم الرحمن (ص: ٨٣١).

(٥) بحر العلوم (٣/ ٣١٠).

قوله تعالى: ﴿فِيهِمَا عَيْنَانِ تَجْرِيَانِ ۝٥٠ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝٥١﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال السمرقندي: «يعني في البساتين نهران من ماء غير آسن، أي: غير متغير. ثم قال: ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ يعني: جعل الأنهار نزاهة لكم زيادة في النعمة، فكيف تنكرون قدرة اللَّه تعالى ونعمته؟!»[1].

* * *

---

(١) بحر العلوم (٣/ ٣١٠).

قوله تعالى: ﴿فِيهِمَا مِن كُلِّ فَٰكِهَةٍ زَوْجَانِ ۝٥٢ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝٥٣﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال القنوجي: «﴿فِيهِمَا مِن كُلِّ فَٰكِهَةٍ زَوْجَانِ ۝٥٢﴾ هذا صفة ثالثة لـ﴿جَنَّتَانِ﴾، والزوجان: الصنفان والنوعان، والمعنى أن في الجنتين من كل نوع يتفكه به في الدنيا ضربين، يسلتذ بكل نوع من أنواعه..

﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ فإن في مجرد تعداد هذه النعم ووصفها في هذا الكتاب العزيز من الترغيب إلى فعل الخير، والترهيب عن فعل الشر ما لا يخفى على من يفهم، وذلك نعمة عظمى، ومنة كبرى، فكيف بالتنعم به عند الوصول إليه»[1].

* * *

---

(١) فتح البيان (١٣/ ٣٣٩).

قوله تعالى: ﴿مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ فُرُشٍۭ بَطَآئِنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍۚ وَجَنَى ٱلْجَنَّتَيْنِ دَانٍ ﴿٥٤﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥٥﴾﴾

★ **غريب الآية:**

إستبرق: الإستبرق: الديباج الغليظ.

جنى: الجنى: ما يجنى من الثمر وصلح لذلك. قال الشاعر:

هذا جناي وخياره فيه إذ كل جان يده إلى فيه

دانٍ: قريب.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن ناصر السعدي: «هذه صفة فرش أهل الجنة وجلوسهم عليها، وأنهم متكئون عليها، أي: جلوس تمكن واستقرار وراحة، كجلوس الملوك على الأسرة. وتلك الفرش، لا يعلم وصفها وحسنها إلا اللَّه ﷻ، حتى إن بطائنها التي تلي الأرض منها، من إستبرق، وهو أحسن الحرير وأفخره، فكيف بظواهرها التي تلي بشرتهم؟!

﴿وَجَنَى ٱلْجَنَّتَيْنِ دَانٍ﴾ الجنى هو الثمر المستوي، أي: وثمر هاتين الجنتين قريب التناول، يناله القائم والقاعد والمضطجع»[(١)].

قال ابن كثير: «﴿وَجَنَى ٱلْجَنَّتَيْنِ دَانٍ﴾ أي: ثمرهما قريب إليهم، متى شاؤوا تناولوه على أيّ صفة كانوا؛ كما قال تعالى: ﴿قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ ﴿٢٣﴾﴾[(٢)] وقال: ﴿وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلَٰلُهَا وَذُلِّلَتْ قُطُوفُهَا تَذْلِيلًا ﴿١٤﴾﴾[(٣)]، أي: لا تمتنع ممن تناولها، بل تنحطّ إليه من أغصانها»[(٤)].

---

(١) تيسير الكريم الرحمن (ص: ٨٣١).

(٢) الحاقة: الآية (٢٣).

(٣) الإنسان: الآية (١٤).

(٤) تفسير القرآن العظيم (٧/ ٤٧٩).

قال الطبري: «وقوله: ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ يقول -تعالى ذكره-: فبأي آلاء ربكما -معشر الثقلين، التي أنعم عليكما من أثاب أهل طاعته منكم هذا الثواب، وأكرمهم هذه الكرامة- تكذبان»[1].

* * *

(١) جامع البيان (٢٧/ ١٥٠).

قوله تعالى: ﴿فِيهِنَّ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَآنٌّ ﴿٥٦﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥٧﴾﴾

★ **غريب الآية:**

قاصرات: القَصْرُ: كفُّك نفسَك عن شيء، وقَصَرْتُ نفسي على كذا أقصرها قَصْرًا. وقَصَرْتُ طرفي، أي: لم أرفعه إلى ما لا ينبغي. وقاصِرُ الطرف قريب من الخاشع. وقاصِراتُ الطرف، أي: قَصَرْنَ طرفهنّ على أزواجهنّ؛ لا يرفعن إلى غيرهم ولا يردن بدلًا.

الطَّرْفُ: العَيْنُ، لا يُجْمَعُ؛ لأنه في الأصْلِ مَصْدَرٌ، أو اسمٌ جامعٌ للبَصَرِ، لا يُثَنَّى ولا يُجْمَعُ، وقيلَ: أطْرافٌ.

لم يطمثهن: الطمث في الأصل: دم الحيض ودم الافتضاض. ومعنى ﴿لَمْ يَطْمِثْهُنَّ﴾: لم يفتضهن قبل أزواجه أحد. وبعير لم يطمث: إذا لم يمسه حبل ولا رحل. قال الفرزدق:

دُفِعْنَ إِلَيَّ لَمْ يُطْمَثْنَ قَبْلِي وهنَّ أصحُّ من بيضِ النعام

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن كثير: «لما ذكر الفرش وعظمتها، قال بعد ذلك: ﴿فِيهِنَّ﴾ أي: في الفرش ﴿قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ﴾ أي: غضيضات عن غير أزواجهن، فلا يرين شيئًا أحسن في الجنة من أزواجهن، قاله ابن عباس وقتادة وعطاء الخراساني وابن زيد.. ﴿لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَآنٌّ﴾ أي: بل هنّ أبكار عُرُب أتراب، لم يطأهن أحد قبل أزواجهن من الإنس والجن، وهذه أيضًا من الأدلة على دخول مؤمني الجن الجنة»[1].

(١) تفسير القرآن العظيم (٧/ ٤٧٩).

قال ابن القيم: «﴿لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَانٌّ﴾ هذا -والله أعلم- معناه أنه لم يطمث نساء الإنس إنس قبلهم، ولا نساء الجن جن قبلهم.

ومما يدل على أن ثوابهم الجنة قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا ۝ أُولَٰئِكَ لَهُمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ﴾[1]، وأمثال هذه من العمومات، وقد ثبت أن منهم المؤمنين فيدخلون في العموم، كما أن كافرهم يدخل في الكافرين المستحقين للوعيد. ودخول مؤمنهم في آيات الوعد أولى من دخول كافرهم في آيات الوعيد؛ فإن الوعد فضله والوعيد عدله، وفضله من رحمته وهي تغلب غضبه. وأيضًا فإن دخول عاصيهم النار إنما كان لمخالفته أمر الله، فإذا أطاع الله أدخل الجنة. وأيضًا فإنه لا دار للمكلفين سوى الجنة والنار، وكل من لم يدخل النار من المكلفين فالجنة مثواه. وأيضًا فقد ثبت أنهم إذا أجابوا داعي الله غفر لهم وأجارهم من عذابه، وكل من غفر له دخل الجنة ولا بد، وليس فائدة المغفرة إلا الفوز بالجنة والنجاة من النار. وأيضًا فإنه قد ثبت أن الرسول مبعوث إليهم، وأنهم مكلفون باتباعه، وأن مطيعهم لله ورسوله مع الذين أنعم الله عليهم، لقوله تعالى: ﴿وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَٰئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ ۚ وَحَسُنَ أُولَٰئِكَ رَفِيقًا﴾[2]، وقد أخبر سبحانه عن ملائكته حملة العرش ومن حولهم أنهم يستغفرون للذين آمنوا وأنهم يقولون: ﴿فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ ۝ رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّاتِ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدتَّهُمْ﴾[3]، فدل على أن كل مؤمن غفر الله له ووقاه عذاب الجحيم فقد وعده الجنة. وقد ثبت في حق مؤمنهم الإيمان ومغفرة الذنب ووقاية النار كما تقدم، فتعين دخولهم الجنة، والله أعلم. وإذا ثبت تكليفهم بانقسامهم إلى المسلمين والكفار والصالحين ودون ذلك، فهم في الموازنة على نحو طبقات الإنس المتقدمة، إلا أنهم ليس فيهم رسول، وأفضل درجاتهم درجة الصالحين، ولو كان لهم درجة أفضل منها لذكروها، فقد دل القرآن على انقسامهم إلى ثلاثة أقسام: صالحين، ودونهم،

---

(١) الكهف: الآيتان (٣٠و٣١).

(٢) النساء: الآية (٦٩).

(٣) غافر: الآيتان (٧و٨).

وكفار. وزاد عليهم الإنس بدرجة الرسالة والنبوة ودرجة المقربين. والله أعلم»[١].

قال السمرقندي: «﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝٥٧﴾ يعني: جعل لكم أزواجًا موافقة لطبعكم، وهن لا يَرَين غيركم، فكيف تنكرون الله تعالى؟»[٢].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في صفة نساء أهل الجنة وما فيها من النعيم

* عن محمد بن سيرين قال: إما تفاخروا وإما تذاكروا: الرجال في الجنة أكثر أم النساء؟ فقال أبو هريرة: أو لم يقل أبو القاسم ﷺ: «**إن أول زمرة تدخل الجنة على صورة القمر ليلة البدر، والتي تليها على أضوء كوكب دري في السماء، لكل امرئ منهم زوجتان اثنتان، يرى مخ سوقهما من وراء اللحم. وما في الجنة أعزب**»[٣].

⋆ فوائد الحديث:

تقدم في سورة (الزمر) الآية (٧٣)، و(مريم) تحت الآيتين (٦٢و٦٣).

* عن أنس بن مالك عن النبي ﷺ أنه قال: «**لَروحة في سبيل الله أو غدوة خير من الدنيا وما فيها، ولَقاب قوس أحدكم من الجنة أو موضع قيد -يعني سوطه- خير من الدنيا وما فيها. ولو أن امرأة من أهل الجنة اطلعت إلى أهل الأرض لأضاءت ما بينهما ولملأته ريحًا، ولنصيفها على رأسها خير من الدنيا وما فيها**»[٤].

⋆ فوائد الحديث:

انظر شرحه في سورة (البقرة) الآية (٢٥).

---

(١) طريق الهجرتين (ص: ٤٢٦-٤٢٧).

(٢) بحر العلوم (٣/ ٣١٠).

(٣) أخرجه: أحمد (٢/ ٢٣٠و٢٤٧)، والبخاري (٦/ ٣٩٢/ ٣٢٤٦)، ومسلم (٤/ ٢١٧٨-٢١٧٩/ ٢٨٣٤)، وابن ماجه (٢/ ١٤٩٤/ ٤٣٣٣).

(٤) أخرجه: أحمد (٣/ ١٤١و٢٦٣و٢٦٤و١٤٧)، والبخاري (٦/ ١٨/ ٢٧٩٦)، ومسلم (٣/ ١٤٩٩/ ١٨٨٠) مختصرًا، والترمذي (٤/ ١٥٦/ ١٦٥١) وقال: «حديث صحيح»، وابن ماجه (٢/ ٢٩١/ ٢٧٥٧).

* عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «**إن في الجنة خيمة من لؤلؤة مجوفة عرضها ستون ميلًا، في كل زاوية منها أهل ما يرون الآخرين يطوف عليهم المؤمنون**»[1].

انظر شرحه في سورة (التوبة) الآية (٧٢).

* * *

(١) أخرجه: أحمد (٤/ ٤١١)، والبخاري (٨/ ٨٠٤/ ٤٨٧٩)، ومسلم (٤/ ٢١٨٢/ ٢٨٣٨)، والترمذي (٤/ ٥٨١/ ٢٥٢٨) وقال: «حسن صحيح»، والنسائي في الكبرى (٦/ ٤٧٩/ ١١٥٦٢).

قوله تعالى: ﴿كَأَنَّهُنَّ ٱلْيَاقُوتُ وَٱلْمَرْجَانُ ۝٥٨ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝٥٩﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره-: كأنّ هؤلاء القاصرات الطرف اللواتي هنّ في هاتين الجنتين في صفائهن الياقوت الذي يرى السلك الذي فيه من ورائه، فكذلك يرى مخّ سوقهنّ من وراء أجسامهنّ، وفي حسنهنّ الياقوت والمرجان»[1].

قال الرازي: «وهذا التشبيه فيه وجهان: أحدهما: تشبيه بصفائهما، وثانيهما: بحسن بياض اللؤلؤ وحمرة الياقوت، والمرجان: صغار اللؤلؤ، وهي أشد بياضًا وضياءً من الكبار بكثير»[2].

قال السمرقندي: «﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ يعني: جعلهن بحال تتلذذ أعينكم بالنظر إليهن، فكيف تنكرون وحدانية اللّه ونعمته؟»[3].

* * *

(١) جامع البيان (٢٧/ ١٥٢).
(٢) مفاتيح الغيب (٢٩/ ١٣١).
(٣) بحر العلوم (٣/ ٣١١).

قوله تعالى: ﴿هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَٰنُ ۝٦٠ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝٦١﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «قوله: ﴿هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَٰنُ ۝٦٠﴾ يقول -تعالى ذكره-: هل ثواب خوف مقام الله ﷻ لمن خافه فأحسن في الدنيا عمله، وأطاع ربه، إلا أن يحسن إليه في الآخرة ربُّهُ، بأن يجازيه على إحسانه ذلك في الدنيا ما وصف في هذه الآيات من قوله: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ ۝٤٦﴾ إلى قوله: ﴿كَأَنَّهُنَّ ٱلْيَاقُوتُ وَٱلْمَرْجَانُ ۝٥٨﴾[1]»[2].

وقال ابن ناصر السعدي: «أي: هل جزاء من أحسن في عبادة الخالق ونفع عبيده إلا أن يحسن إليه بالثواب الجزيل، والفوز الكبير، والنعيم والعيش السليم، فهاتان الجنتان العاليتان للمقربين»[3].

قال القنوجي: «﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ فإن من جملتها الإحسان إليكم في الدنيا والآخرة، بالخلق والرزق والإرشاد إلى العمل الصالح، والزجر عن العمل الذي لا يرضاه»[4].

* * *

(١) الرحمن: الآيات (٤٦-٥٨).
(٢) جامع البيان (٢٧/ ١٥٣).
(٣) تيسير الكريم الرحمن (ص: ٨٣١).
(٤) فتح البيان (١٣/ ٣٤٥).

قوله تعالى: ﴿وَمِن دُونِهِمَا جَنَّتَانِ ﴿٦٢﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦٣﴾﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن كثير: «هاتان جنتان دون اللتين قبلهما في المرتبة والفضيلة والمنزلة بنص القرآن، قال اللَّه تعالى: ﴿وَمِن دُونِهِمَا جَنَّتَانِ ﴿٦٢﴾﴾، وقد تقدم في الحديث: «**جنتان من ذهب؛ آنيتهما وما فيهما، وجنتان من فضة؛ آنيتهما وما فيهما**»، فالأوليان للمقربين، والأخريان لأصحاب اليمين»[1].

قال القنوجي: «﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ فإنها كلها حق ونعم لا يمكن جحدها»[2].

* * *

(١) تفسير القرآن العظيم (٧/ ٤٨١).

(٢) فتح البيان (١٣/ ٣٤٥).

قوله تعالى: ﴿مُدْهَآمَّتَانِ ﴿٦٤﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦٥﴾﴾

★ **غريب الآية:**

مدهامتان: خضراوان شديدتا الخضرة، والدُّهمة في اللغة: السواد. والعرب تقول للشجر: السواد؛ لخضرتها.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «قوله: ﴿مُدْهَآمَّتَانِ ﴿٦٤﴾﴾ يقول -تعالى ذكره-: مسوادّتان من شدة خضرتهما»[1].

قال القنوجي: «﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ فإن جميعها نعم ظاهرة واضحة لا تجحد ولا تنكر»[2].

* * *

(١) جامع البيان (٢٧/ ١٥٤).

(٢) فتح البيان (١٣/ ٣٤٦).

قوله تعالى: ﴿فِيهِمَا عَيْنَانِ نَضَّاخَتَانِ ۝٦٦ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝٦٧﴾

★ **غريب الآية:**

نضّاختان: النضخ: فوق النضح بالحاء؛ لأن النضح بالحاء: الرش والرشح، والنضخ بالخاء: فوران الماء.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «قوله: ﴿فِيهِمَا عَيْنَانِ نَضَّاخَتَانِ ۝٦٦﴾ يقول -تعالى ذكره-: في هاتين الجنتين -اللتين من دون الجنتين اللتين هما لمن خاف مقام ربه- عينان نضاختان، يعني: فوّارتان.

واختلف أهل التأويل في المعنى الذي تنضخان به، فقال بعضهم: تنضخان بالماء..

وقال آخرون: بل معنى ذلك أنهما ممتلئتان..

وقال آخرون: تنضخان الماء والفاكهة..

وقال آخرون: نضاختان بألوان الفاكهة..

وقال آخرون: نضاختان بالخير..

وأولى الأقوال في ذلك بالصواب قول من قال: عُني بذلك أنهما تنضخان بالماء؛ لأنه المعروف بالعيون إذ كانت عيون الماء.

وقوله: ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ يقول -تعالى ذكره-: فبأيّ نِعَم ربكما -التي أنعم عليكم بإثابته محسنكم هذا الثواب الجزيل- تكذّبان؟»[1].

* * *

(١) جامع البيان (٢٧/ ١٥٦-١٥٧).

قوله تعالى: ﴿فِيهِمَا فَٰكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ ۝٦٨ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝٦٩﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره-: وفي هاتين الجنتين المدهامّتين فاكهة ونخل ورمّان.

وقد اختلف في المعنى الذي من أجله أعيد ذكر النخل والرمان؛ وقد ذكر قبل أن فيهما الفاكهة، فقال بعضهم: أعيد ذلك لأن النخل والرمان ليسا من الفاكهة.

وقال آخرون: هما من الفاكهة؛ وقالوا: قلنا: هما من الفاكهة؛ لأن العرب تجعلهما من الفاكهة، قالوا: فإن قيل لنا: فكيف أعيدا وقد مضى ذكرهما مع ذكر سائر الفواكه؟ قلنا: ذلك كقوله: ﴿حَٰفِظُواْ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلْوُسْطَىٰ﴾[1]، فقد أمرهم بالمحافظة على كلّ صلاة، ثم أعاد العصر تشديدًا لها، كذلك أعيد النخل والرمّان ترغيبًا لأهل الجنة. وقال: وذلك كقوله: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَسْجُدُ لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ﴾[2]، ثم قال: ﴿وَكَثِيرٌ مِّنَ ٱلنَّاسِ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ ٱلْعَذَابُ﴾، وقد ذكرهم في أوّل الكلمة في قوله: ﴿مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ﴾»[3].

قال القنوجي: «والنخل والرمان وإن كانا من الفاكهة، لكنهما خصصا بالذكر لمزيد حسنهما وكثرة نفعهما بالنسبة إلى سائر الفواكه، كما حكاه الزجاج والأزهري وغيرهما. وقيل: إنما خصهما لكثرتهما في أرض العرب؛ قال الخطيب: كانا عندهم في ذلك الوقت بمنزلة البر عندنا؛ لأن النخل عامة قوتهم، والرمان كالشراب، فكان يكثر غرسهما عندهم لحاجتهم إليهما، وكانت الفواكه عندهم الثمار التي يعجبون بها، وقيل: خصهما لأن النخل فاكهة وطعام، والرمان فاكهة ودواء، وقد ذهب إلى أنهما من جملة الفاكهة جمهور أهل العلم، وبه قال

---

(١) البقرة: الآية (٢٣٨).

(٢) الحج: الآية (١٨).

(٣) جامع البيان (٢٧/ ١٥٧).

الشافعي، فيحنث بأكل أحدهما من حلف لا يأكل فاكهة، وحينئذ فعطفهما عليها من عطف الخاص على العام تفصيلًا، ولم يخالف في ذلك إلا أبو حنيفة رَحِمَهُ ٱللَّهُ، وقد خالفه صاحباه أبو يوسف ومحمد، وهو قول خلاف قول أهل اللغة، ولا حجة له في الآية.

﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ فإن من جملها هذه النعم التي في جنات النعيم، ومجرد الحكاية لها تؤثر في نفوس السامعين، وتجذبهم إلى طاعة رب العالمين»[١].

* * *

(١) فتح البيان (١٣/ ٣٤٧).

قوله تعالى: ﴿فِيهِنَّ خَيْرَٰتٌ حِسَانٌ ۝٧٠ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝٧١﴾

★ غريب الآية:

الخيرات: جمع خَيْرَةٍ، وهي المرأة الفاضلة في كل شيء. قال الشاعر:

ولقد طعنت مجامع الربلات　　ربلات هند خيرة الملكات

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال الطبري: «قوله: ﴿فِيهِنَّ خَيْرَٰتٌ حِسَانٌ ۝٧٠﴾ يقول -تعالى ذكره-: في هذه الجنان الأربع -اللواتي اثنتان منهن لمن يخاف مقام ربه، والأخريان منهنّ من دونهما المدهامّتان- خيرات الأخلاق، حسان الوجوه»[1].

قال السعدي: «فجمعن بين جمال الظاهر والباطن وحسن الخَلْق والخُلُق»[2].

قال القنوجي: «﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ فإن شيئًا منها كائنًا ما كان لا يقبل التكذيب»[3].

* * *

(١) جامع البيان (٢٧/ ١٥٨).

(٢) تيسير الكريم الرحمن (ص: ٨٣٢).

(٣) فتح البيان (١٣/ ٣٤٨).

قوله تعالى: ﴿حُورٌ مَّقْصُورَٰتٌ فِى ٱلْخِيَامِ ﴿٧٢﴾ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٧٣﴾ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَآنٌّ ﴿٧٤﴾ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٧٥﴾﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن ناصر السعدي: «أي: محبوسات في خيام اللؤلؤ قد تهيّأن وأعددن أنفسهنّ لأزواجهنّ، ولا ينفي ذلك خروجهنّ في البساتين ورياض الجنة، كما جرت العادة لبنات الملوك ونحوهنّ المخدرات الخفرات»[١].

قال القنوجي: «﴿فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ -أي: الذي صوّركم فأحسن صوركم، وجعل لكم في الجنة ما لا عين رأت ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر- ﴿تُكَذِّبَانِ﴾؟ أبهذه النعم؟ أم بغيرها؟»[٢].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في تفسير الآية

* عن ابن عباس في قوله: ﴿حُورٌ مَّقْصُورَٰتٌ فِى ٱلْخِيَامِ ﴿٧٢﴾﴾ قال: «حور سود الحدق»[٣].

★ فوائد الأثر:

الحديث بيان لمعنى الحور، والحور: جمع حوراء، وهي الشديدة بياض العين الشديدة سوادها. نص عليه القرطبي في التفسير[٤]، والحدَقَة: السواد المستدير وسط العين، كما في 'اللسان' لابن منظور.

* * *

(١) تيسير الكريم الرحمن (ص: ٨٣٢).
(٢) فتح البيان (١٣/ ٣٤٩).
(٣) أخرجه ابن جرير (٢٧/ ١٧٨)، وعلقه البخاري (٨/ ٤٢٦) بصيغة الجزم.
(٤) (١٧/ ١٨٨).

قوله تعالى: ﴿مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ رَفۡرَفٍ خُضۡرٍ وَعَبۡقَرِيٍّ حِسَانٍ ۝٧٦ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝٧٧﴾

★ غريب الآية:

رفرف: وسائد خضر. وقيل: كل ثوب عريض عند العرب، فهو رفرف. قال ابن مقبل:

وإنا لنزالون تغشى نعالنا سواقط من أصناف ريط ورفرف

عبقري: العبقري: عتاق الزرابي والطنافس المخملية الموشاة. وهي اسم جنس واحدها: عبقرية. والعبقري عند العرب: كل شيء مستغرب فائق؛ نسبة إلى عبقر؛ قرية تزعم العرب أن الجن تسكنها وتصنع بها صنائع عجيبة.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن ناصر السعدي: «أي: أصحاب هاتين الجنتين، متكؤهم على الرفرف الأخضر، وهي الفرش التي تحت المجالس العالية، التي قد زادت على مجالسهم، فصار لها رفرفة من وراء مجالسهم، لزيادة البهاء وحسن المنظر، ﴿وَعَبۡقَرِيٍّ حِسَانٍ﴾ العبقري: نسبة لكل منسوج نسجًا حسنًا فاخرًا، ولهذا وصفها بالحسن الشامل، لحسن الصنعة وحسن المنظر، ونعومة الملمس. وهاتان الجنتان دون الجنتين الأوليين، كما نص اللَّه على ذلك بقوله: ﴿وَمِن دُونِهِمَا جَنَّتَانِ ۝٦٢﴾[1] وكما وصف الأوليين بعدة أوصاف لم يصف بها الأخريين، فقال في الأوليين: ﴿فِيهِمَا عَيۡنَانِ تَجۡرِيَانِ ۝٥٠﴾[2] وفي الأخريين: ﴿فِيهِمَا عَيۡنَانِ نَضَّاخَتَانِ ۝٦٦﴾[3]. ومن المعلوم الفرق بين الجارية والنضاخة.

(١) الرحمن: الآية (٦٢).
(٢) الرحمن: الآية (٥٠).
(٣) الرحمن: الآية (٦٦).

وقال في الأوليين: ﴿ذَوَاتَآ أَفْنَانٍ ﴿٤٨﴾﴾[(١)] ولم يقل ذلك في الأخريين.

وقال في الأوليين: ﴿فِيهِمَا مِن كُلِّ فَٰكِهَةٍ زَوْجَانِ ﴿٥٢﴾﴾[(٢)] وفي الأخريين: ﴿فِيهِمَا فَٰكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ ﴿٦٨﴾﴾[(٣)] وقد علم ما بين الوصفين من التفاوت.

وقال في الأوليين: ﴿مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ فُرُشٍۭ بَطَآئِنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍ ۚ وَجَنَى ٱلْجَنَّتَيْنِ دَانٍ ﴿٥٤﴾﴾[(٤)]، ولم يقل ذلك في الأخيرتين؛ بل قال: ﴿مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ رَفْرَفٍ خُضْرٍ وَعَبْقَرِىٍّ حِسَانٍ ﴿٧٦﴾﴾[(٥)].

وقال في الأوليين، في وصف نسائهم وأزواجهم: ﴿فِيهِنَّ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَآنٌّ ﴿٥٦﴾﴾[(٦)]، وقال في الأخريين: ﴿حُورٌ مَّقْصُورَٰتٌ فِى ٱلْخِيَامِ ﴿٧٢﴾﴾[(٧)]، وقد علم التفاوت بين ذلك.

وقال في الأوليين: ﴿هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَٰنُ ﴿٦٠﴾﴾[(٨)]، فدل ذلك أن الأوليين جزاء المحسنين، ولم يقل ذلك في الأخيرتين.

ومجرد تقديم الأوليين على الأخريين، يدل على فضلهما.

فبهذه الأوجه يعرف فضل الأوليين على الأخريين، وأنهما معدتان للمقربين من الأنبياء، والصديقين، وخواص عباد اللَّه الصالحين، وأن الأخريين معدتان لعموم المؤمنين، وفي كل من الجنات المذكورات ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر، وفيهن ما تشتهيه الأنفس وتلذ الأعين، وأهلها في غاية الراحة والرضا والطمأنينة وحسن المأوى، حتى إن كلاً منهم لا يرى أحدًا أحسن حالًا منه، ولا أعلى من نعيمه الذي هو فيه»[(٩)].

قال السمرقندي: «﴿فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ يعني: فبأي نعمة من نعماء ربكما أيها الجن والإنس تتجاحدان مع هذه الكرامات التي بين اللَّه تعالى لكم؟ لتعلموا، فتنالوا تلك الكرامات»[(١٠)].

---

(١) الرحمن: الآية (٤٨).
(٢) الرحمن: الآية (٥٢).
(٣) الرحمن: الآية (٦٨).
(٤) الرحمن: الآية (٥٤).
(٥) الرحمن: الآية (٧٦).
(٦) الرحمن: الآية (٥٦).
(٧) الرحمن: الآية (٧٢).
(٨) الرحمن: الآية (٦٠).
(٩) تيسير الكريم الرحمن (ص: ٨٣٢).
(١٠) بحر العلوم (٣/ ٣١٢).

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في تفسير لفظ (العبقري)

* عن عبد اللَّه بن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «**بينما أنا على بئر أنزع منها جاءني أبو بكر وعمر، فأخذ أبو بكر الدلو فنزع ذنوبًا أو ذنوبين، وفي نزعه ضعف، واللَّه يغفر له، ثم أخذها ابن الخطاب من يد أبي بكر فاستحالت في يده غربًا، فلم أر عبقريًّا من الناس يفري فريه، فنزع حتى ضرب الناس بعطن**»[1].

★ غريب الحديث:

أَنزِع: أي: أملأ الماء بالدلو.

ذَنوبًا: بفتح المعجمة وبالنون وآخره موحدة: الدلو الكبيرة إذا كان فيها الماء.

استحالت في يده غَرْبًا: بفتح المعجمة وسكون الراء بعدها موحدة: أي دلوًا عظيمة.

عبقريًّا: بفتح فسكون بعده قاف وراء مكسورة ثم تحتانية ثقيلة. وسيأتي معناه.

يَفْري: بفتح أوله وسكون الفاء وكسر الراء وسكون التحتانية.

فَرِيّه: بفتح الفاء وكسر الراء وتشديد التحتانية المفتوحة، وروي بسكون الراء وخطّأه الخليل، ومعناه: يعمل عمله البالغ.

بعطن: بفتح المهملتين وآخره نون، هو مناخ الإبل إذا شربت ثم صدرت.

★ فوائد الحديث:

استدل الحافظ ابن كثير بهذا الحديث لتقوية ما ذكره الخليل بن أحمد في تفسير العبقري بأنه كل شيء نفيس من الرجال وغير ذلك[2].

وكذا قال القرطبي قبله ثم قال: «وقال أبو عمرو بن العلاء وقد سئل عن قول النبي ﷺ: «**فلم أر عبقريًّا يفري فريّه**»، **فقال: رئيس قوم وجليلهم**»[3].

* * *

---

(١) أخرجه: أحمد (٢/ ٢٧-٢٨، ٣٩، ٨٩)، والبخاري (٧/ ٢٦/ ٣٦٧٦)، ومسلم (٤/ ١٨٦٠/ ٢٣٩٢و٢٣٩٣)، والترمذي (٤/ ٤٦٨-٤٦٩/ ٢٢٨٩) وقال: «صحيح غريب»، والنسائي في الكبرى (٤/ ٣١٦/ ٨٦٣٦).

(٢) تفسير ابن كثير (٦/ ٥٠٤).

(٣) الجامع لأحكام القرآن (١٧/ ١٩٢).

قوله تعالى: ﴿تَبَٰرَكَ ٱسۡمُ رَبِّكَ ذِى ٱلۡجَلَٰلِ وَٱلۡإِكۡرَامِ ۝٧٨﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال السعدي: «تعاظم وكثر خيره، الذي له الجلال الباهر، والمجد الكامل، والإكرام لأوليائه»[(١)].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في اسم اللَّه الأعظم

* عن أنس بن مالك قال: «كنت مع رسول اللَّه ﷺ جالسًا، يعني ورجل قائم يصلي، فلما ركع وسجد وتشهد دعا فقال في دعائه: **اللهم إني أسألك بأن لك الحمد، لا إله إلا أنت المنان، بديع السموات والأرض، يا ذا الجلال والإكرام، يا حي يا قيوم، إني أسألك.** فقال النبي ﷺ لأصحابه: **تدرون بما دعا؟** قالوا: اللَّه ورسوله أعلم! قال: **والذي نفسي بيده لقد دعا اللَّه باسمه العظيم الذي إذا دعي به أجاب وإذا سئل به أعطى**»[(٢)].

* عن ثوبان قال: «كان رسول اللَّه ﷺ إذا انصرف من صلاته استغفر ثلاثًا، وقال: **اللهم أنت السلام ومنك السلام تباركت ذا الجلال والإكرام**»[(٣)].

* عن ربيعة بن عامر قال: سمعت النبي ﷺ يقول: «**أَلِظُّوا بذي الجلال**

---

(١) تيسير الكريم الرحمن (ص: ٨٣٢).

(٢) أخرجه: أحمد (٣/ ١٥٨)، وأبو داود (٢/ ١٦٧-١٦٨/ ١٤٩٥)، والبخاري في الأدب المفرد (٧٠٥)، والترمذي (٥/ ٥١٤/ ٣٥٤٤)، وقال: «هذا حديث غريب من حديث ثابت عن أنس»، والنسائي (٣/ ٥٩-٦٠/ ١٢٩٩) واللفظ له، وابن ماجه (٢/ ١٢٦٨/ ٣٨٥٨)، وصححه الحاكم (١/ ٥٠٣-٥٠٤) على شرط مسلم ووافقه الذهبي، وابن حبان (الإحسان ٣/ ١٧٥-١٧٦/ ٨٩٣).

(٣) أخرجه: أحمد (٥/ ٢٧٥ ٢٧٩-٢٨٠)، ومسلم (١/ ٤١٤/ ٥٩١) واللفظ له، وأبو داود (٢/ ١٧٦-١٧٧/ ٣١٥١)، والترمذي (٢/ ٩٧-٩٨/ ٣٠٠) وقال: «حسن صحيح»، والنسائي (٣/ ٧٧-٧٨/ ٦٣٣١)، وابن ماجه (١/ ٣٠٠/ ٩٢٨).

والإكرام»[١].

★ غريب الحديث:

أَلِظّوا: يقال: أَلَظّ بالشيء يُلِظّ إلظاظًا: إذا لزمه وثابر عليه. أفاده في النهاية. والإلظاظ: الإلحاح، كما قال الجوهري.

★ فوائد الأحاديث:

قال ابن ناصر السعدي: (ذو الجلال والإكرام) أي: ذو العظمة والكبرياء والمجد الذي يعظم ويبجل، ويجل لأجله، والإكرام الذي هو سعة الفضل والجود، والداعي لأن يكرم أولياءه وخواصّ خلقه بأنواع الإكرام، الذي يكرمه أولياؤه ويجلّونه ويعظمونه ويحبّونه وينيبون إليه ويعبدونه»[٢].

قال القرطبي: «وقوله: «**تباركت يا ذا الجلال والإكرام**» تباركت: تفاعلت من البركة، وهي الكثرة والنماء. ومعناه: تعاظمت، إذا كثرت صفات جلالك وكمالك، وذا الجلال: ذا العظمة والسلطان، وهو على حذف حرف النداء، تقديره: يا ذا الجلال، والإكرام: الإحسان وإفاضة النعم»[٣].

قال ابن الأثير: «في حديث الدعاء: «**ألظّوا بـ(يا ذا الجلال والإكرام)**» أي: الزموه واثبتوا عليه، وأكثروا من قوله والتلفظ به في دعائكم»[٤].

قلت: هذه السورة المباركة من السور التي تميزت عن باقي السور بآياتها التي تختم بالذكر بالنعم، وأن كل نعمة من اللَّه حدثت للإنس والجن فإنها منه وإليه، وبدأت السورة المباركة بأعظم نعمة وهي نعمة القرآن، وافتتحت بأعظم اسم بعد اسم اللَّه، وهذا الاسم المبارك منه تنطلق كل الخيرات، وأعظم خير نزل للإنس والجن هو القرآن، فالهداية به هي الهداية، ومن لم يهتد به فلا هداية له ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ﴾[٥]. واسترسلت السورة في تعداد الكثير من النعم، ومن أعظمها الخلق والإيجاد. فإخراج الإنسان من العدم إلى الوجود، وجعله بما هو

---

(١) أخرجه: أحمد (٤/ ١٧٧)، والنسائي في الكبرى (٦/ ٤٧٩/ ١١٥٦٣)، وصححه الحاكم (١/ ٤٩٨-٤٩٩)، ووافقه الذهبي. انظر 'السلسلة الصحيحة' (١٥٣٦). وفي الباب عن أنس بن مالك ﷺ.

(٢) تيسير الكريم الرحمن (ص: ٨٣٠).

(٣) المفهم (٢/ ٢١١).

(٤) النهاية (٤/ ٢٥٢).

(٥) الإسراء: الآية (٩).

عليه من كمال في الخلق والصفات؛ لمن أعظم النعم والآيات، ومن أعظم الأدلة على ربوبيته؛ فيجب أن يعلم الإنسان أنه مربوب داخل تحت ربوبية اللَّه ﷻ، وهذا أكبر دافع له للانقياد لأوامر اللَّه تعالى ونواهيه. فمن كانت هذه صفته فلا ينبغي أن يعصى ويجب أن يطاع. ومن تدبيره للكون ما نراه في البحار من الآيات، والتنسيق العجيب، ومن المخلوقات التي تعيش فيه ما يبهر ويحير، وينقلب البحر برًّا فتجري فيه السفن كأنها مدن متحركة تحمل العدد الكبير من الناس والمتاع.

وكل هذا وغيره يتعرض للفناء والنهاية، ويبقى -تبارك وتعالى- وحده، لا تأخذه سنة ولا نوم، ولا يلحقه فناء ولا عدم، وتذكر السورة أعظم صفة له -تبارك وتعالى-، فيوصف بها بما يليق به من جلال وإكرام، وفي هذا رد على أئمة الضلال، المحرفين لكتاب اللَّه بتبريراتهم الباردة الفاسدة التي لا مستند لها، إلا التأثر بمنطق اليونان الذي أفسد على الأمة عقيدتها.

فهو -تبارك وتعالى- الذي يملك الدنيا والآخرة، فيحاصر الجن والإنس فلا مهرب لهم ولا مفر إلا إليه -تبارك وتعالى-، فيخلصهم من كل شدة يتعرضون لها في الدنيا، ويسلمهم من هول المحشر والقيامة. ويذكر -تبارك وتعالى- صفة فناء هذا العالم، وأن ما عليه من إحكام وبناء يتلاشى كالصوف المنفوش، كما وصفه تعالى: ﴿وَتَكُونُ ٱلْجِبَالُ كَٱلْعِهْنِ ٱلْمَنفُوشِ﴾[١]، ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْجِبَالِ فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّى نَسْفًا﴾[٢]، ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتْ ۝ وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ﴾[٣]، ﴿وَيَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلسَّمَآءُ بِٱلْغَمَٰمِ وَنُزِّلَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ تَنزِيلًا﴾[٤].

ثم يذكر تعالى صفات المشركين والمنحرفين والمجرمين، وأن لهم علامات وسمات يعرفون بها ولا تتخلف فيهم، وأن اللَّه فاعل بكل مجرم معادٍ لدينه ورسله وكتبه؛ ما يفعله بأوليائه، فالجزاء من جنس العمل.

وفي مقابل ذلك ما يمن به تعالى ويتفضل من نعم متعددة في الآخرة التي لا تعرف إلا بالأسماء، وأما حقائقها وأشكالها وأوصافها فلا يعرفها المنعم عليه

---

(١) القارعة: الآية (٥).

(٢) طه: الآية (١٠٥).

(٣) الانشقاق: الآيتان (١ و ٢).

(٤) الفرقان: الآية (٢٥).

إلا عند الوقوف عليها، فهناك يصل إلى كنهها.

وقد أصبحت هذه الآية أصلًا وقاعدة للجزاء في الدنيا والآخرة ويضاف إليها حديث الرسول ﷺ: **«من لا يشكر الناس لا يشكر الله»**[1] و**«من أحسن إليكم فكافئوه..»**[2] الحديث.

وأما اللئام -ومع الأسف هم الكثيرون- فلا يرون لله وقارًا، فيعبدون غيره وهو يرزقهم ويطعمهم، ويحاربون الأنبياء -عليهم الصلاة والسلام- وهم دعاة الهدى والخير، وهم من ينبغي أن يتبعوا ويطيعوا.

* * *

(١) أخرجه: أحمد (٢/ ٣٠٢)، وأبو داود (٥/ ١٥٧-١٥٨/ ٤٨١١)، والترمذي (٤/ ٤٩٨-٤٩٩/ ١٩٥٤) وقال: «هذا حديث حسن صحيح»، وصححه ابن حبان (٨/ ١٩٨-١٩٩/ ٣٤٠٧ الإحسان)، كلهم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) أخرجه: أحمد (٢/ ٦٨ و ٩٩)، وأبو داود (٢/ ٣١٠/ ١٦٧٢)، والنسائي (٥/ ٨٧/ ٢٥٦٦)، وصححه ابن حبان (٨/ ١٩٩/ ٣٤٠٨ الإحسان)، والحاكم (١/ ٤١٢) على شرط الشيخين، ووافقه الذهبي. كلهم من حديث عبد الله بن عمر رضي الله عنهما.



سورة الواقعة

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في قراءة الرسول ﷺ بسورة (الواقعة)

* عن جابر بن سمرة قال: «كان رسول اللَّه ﷺ يصلي نحوًا من صلاتكم؛ كان يخفف الصلاة، وكان يقرأ في صلاة الفجر بالواقعة ونحوها من السور»[1].

* * *

(١) أخرجه: عبد الرزاق (٢/ ١١٥/ ٢٧٢٠)، وأحمد (٥/ ١٠٤)، والطبراني (٢/ ٢٢٢/ ١٩١٤)، والبيهقي (٣/ ١١٩)، وصححه الحاكم (١/ ٢٤٠) على شرط مسلم ووافقه الذهبي، وابن حبان (الإحسان ٥/ ١٣١/ ١٨٢٣) واللفظ له، وابن خزيمة (١/ ٢٦٥/ ٥٣١).

قوله تعالى: ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ إِذَا وَقَعَتِ ٱلْوَاقِعَةُ ۝١ لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا كَاذِبَةٌ ۝٢﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يعني -تعالى ذكره- بقوله: ﴿إِذَا وَقَعَتِ ٱلْوَاقِعَةُ ۝١﴾: إذا نزلت صيحة القيامة، وذلك حين ينفخ في الصور لقيام الساعة»(١).

قال ابن كثير: «(الواقعة) من أسماء يوم القيامة؛ سميت بذلك لتحقق كونها ووجودها؛ كما قال تعالى: ﴿فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ ٱلْوَاقِعَةُ ۝١٥﴾(٢)»(٣).

قال ابن جرير: «وقوله: ﴿لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا كَاذِبَةٌ ۝٢﴾ يقول تعالى: ليس لوقعة الواقعة تكذيب، ولا مردودية، ولا مثنوية»(٤).

وقال القنوجي: «والمعنى أنها إذا وقعت النفخة الآخرة عند البعث لم يكن هناك تكذيب لها أصلًا، أو لا تكون هناك نفس تكذب على اللَّه وتكذب بما أخبر عنه من أمور الآخرة ووقوع القيامة؛ لأن كل نفس تكذب حينئذ مؤمنة صادقة مصدقة، وأكثر النفوس اليوم كواذب مكذِّباتٍ»(٥).

قال ابن كثير: «وقوله تعالى: ﴿لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا كَاذِبَةٌ ۝٢﴾، أي: ليس لوقوعها إذا أراد اللَّه كونها صارف يصرفها، ولا دافع يدفعها؛ كما قال: ﴿ٱسْتَجِيبُوا۟ لِرَبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ يَوْمٌ لَّا مَرَدَّ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ﴾(٦)، وقال: ﴿سَأَلَ سَآئِلٌۢ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ ۝١ لِّلْكَٰفِرِينَ لَيْسَ لَهُۥ دَافِعٌ ۝٢﴾(٧)، وقال تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَقُولُ كُن فَيَكُونُ قَوْلُهُ ٱلْحَقُّ وَلَهُ ٱلْمُلْكُ يَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ﴾(٨)»(٩).

---

(١) جامع البيان (٢٧/ ١٦٦).
(٢) الحاقة: الآية (١٥).
(٣) تفسير القرآن العظيم (٧/ ٤٨٨).
(٤) جامع البيان (٢٧/ ١٦٦).
(٥) فتح البيان (١٣/ ٣٥٥).
(٦) الشورى: الآية (٤٧).
(٧) المعارج: الآيتان (١و٢).
(٨) الأنعام: الآية (٧٣).
(٩) تفسير القرآن العظيم (٧/ ٤٨٨).

قوله تعالى: ﴿خَافِضَةٌ رَّافِعَةٌ ۝٣﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره-: الواقعة حينئذ خافضة أقوامًا كانوا في الدنيا أعزّاء إلى نار اللَّه، وقوله: ﴿رَّافِعَةٌ﴾ يقول: رفعت أقوامًا كانوا في الدنيا وضعاء إلى رحمة اللَّه وجنته. وقيل: خفضت فأسمعت الأدنى، ورفعت فأسمعت الأقصى»[١].

قال أبو السعود: «وهو تقرير لعظمتها وتهويل لأمرها؛ فإن الوقائع العظام شأنها كذلك، أو بيان لما يكون يومئذ من حط الأشقياء إلى الدركات، ورفع السعداء إلى الدرجات، ومن زلزلة الأشياء، وإزالة الأجرام عن مقارها بنثر الكواكب، وإسقاط السماء كسفًا، وتسيير الجبال في الجو كالسحاب. وتقديم الخفض على الرفع للتشديد في التهويل»[٢].

قال الشنقيطي: «قال بعض العلماء: تقديره: هي خافضة أقوامًا في دركات النار، رافعة أقوامًا إلى الدرجات العلى إلى الجنة، وهذا المعنى قد دلت عليه آيات كثيرة كقوله: ﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِى ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ﴾[٣]، وقوله تعالى: ﴿وَمَن يَأْتِهِۦ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلدَّرَجَٰتُ ٱلْعُلَىٰ ۝٧٥ جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾[٤]، وقوله تعالى: ﴿وَلَلْءَاخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَٰتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا﴾[٥]، والآيات بمثل هذا كثيرة معلومة.

وقال بعض العلماء: تقديره: خافضة أقوامًا كانوا مرتفعين في الدنيا، رافعة أقوامًا كانوا منخفضين في الدنيا، وهذا المعنى تشهد له آيات من كتاب اللَّه تعالى، كقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُوا۟ كَانُوا۟ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يَضْحَكُونَ ۝٢٩ وَإِذَا مَرُّوا۟ بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ

---

(١) جامع البيان (٢٧/ ١٦٦).
(٢) إرشاد العقل السليم (٨/ ١٨٨).
(٣) النساء: الآية (١٤٥).
(٤) طه: الآيتان (٧٥و٧٦).
(٥) الإسراء: الآية (٢١).

﴿٣٠﴾ إلى قوله: ﴿فَٱلْيَوْمَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنَ ٱلْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ ﴿٣٤﴾ عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ ﴿٣٥﴾﴾[1] إلى غير ذلك من الآيات.

وقال بعض العلماء: تقديره: خافضة بعض الأجرام التي كانت مرتفعة كالنجوم التي تسقط وتتناثر يوم القيامة، وذلك خفض لها بعد أن كانت مرتفعة، كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا ٱلْكَوَاكِبُ ٱنتَثَرَتْ ﴿٢﴾﴾[2]، وقال تعالى: ﴿وَإِذَا ٱلنُّجُومُ ٱنكَدَرَتْ ﴿٢﴾﴾[3].

﴿رَّافِعَةٌ﴾: أي رافعة بعض الأجرام التي كانت منخفضة، كالجبال التي ترفع من أماكنها وتسير بين السماء والأرض، كما قال تعالى: ﴿وَيَوْمَ نُسَيِّرُ ٱلْجِبَالَ وَتَرَى ٱلْأَرْضَ بَارِزَةً﴾[4]؛ فقوله: ﴿وَتَرَى ٱلْأَرْضَ بَارِزَةً﴾ لأنها لم يبق على ظهرها شيء من الجبال، وقال تعالى: ﴿وَتَرَى ٱلْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِىَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِ﴾[5].

وقد قدمنا أن التحقيق الذي دل عليه القرآن، أن ذلك يوم القيامة، وأنها تسير بين السماء والأرض كسير السحاب الذي هو المزن.

وقد صرح تعالى بأن الجبال تحمل هي والأرض أيضًا يوم القيامة، وذلك في قوله تعالى: ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِى ٱلصُّورِ نَفْخَةٌ وَٰحِدَةٌ ﴿١٣﴾ وَحُمِلَتِ ٱلْأَرْضُ وَٱلْجِبَالُ﴾[6] الآية.

وعلى هذا القول، فالمراد تعظيم شأن يوم القيامة، وأنه يختل فيه نظام العالم، وعلى القولين الأولين، فالمراد الترغيب والترهيب؛ ليخاف الناس في الدنيا من أسباب الخفض في الآخرة فيطيعوا الله، ويرغبوا في أسباب الرفع فيطيعوه أيضًا، وقد قدمنا مرارًا أن الصواب في مثل هذا حمل الآية على شمولها للجميع»[7].

* * *

---

(١) المطففين: الآيات (٢٩-٣٥).

(٢) الانفطار: الآية (٢).

(٣) التكوير: الآية (٢).

(٤) الكهف: الآية (٤٧).

(٥) النمل: الآية (٨٨).

(٦) الحاقة: الآيتان (١٣و١٤).

(٧) أضواء البيان (٧/ ٧٦٣-٧٦٤).

قوله تعالى: ﴿إِذَا رُجَّتِ ٱلْأَرْضُ رَجًّا ۝٤﴾

★ **غريب الآية:**

رجت: تزلزلت وتحركت حركة شديدة. والرَّجُّ: تحريك الشيء وإزعاجه.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره-: إذا زلزلت الأرض فحرّكت تحريكًا؛ من قولهم: السهم يرتجّ في الغرض، بمعنى: يهتزّ ويضطرب»[١].

قال ابن كثير: «أي: حُرِّكت تحريكًا فاهتزّت واضطربت بطولها وعرضها.. وهذه كقوله تعالى: ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ ٱلْأَرْضُ زِلْزَالَهَا ۝١﴾[٢]، وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمْ ۚ إِنَّ زَلْزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَىْءٌ عَظِيمٌ ۝١﴾[٣]»[٤].

* * *

---

(١) جامع البيان (٢٧/ ١٦٧).

(٢) الزلزلة: الآية (١).

(٣) الحج: الآية (١).

(٤) تفسير القرآن العظيم (٧/ ٤٨٩).

قوله تعالى: ﴿وَبُسَّتِ ٱلْجِبَالُ بَسًّا ۝٥ فَكَانَتْ هَبَآءً مُّنۢبَثًّا ۝٦﴾

★ **غريب الآية:**

بست: فُتَّتْ وتحطمت حتى صارت كالْبَسيس، وهو الدقيق.

هباء: الهباء: الغبار.

منبثا: متفرّقًا ومنتشرًا.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال الشنقيطي: «قال أكثر المفسرين: ﴿وَبُسَّتِ ٱلْجِبَالُ بَسًّا ۝٥﴾ أي: فتت تفتيتًا حتى صارت كالبسيسة، وهي دقيق ملتوت بسمن، ومنه قول لص من غطفان أراد أن يخبز دقيقًا عنده فخاف أن يعجل عنه، فأمر صاحبيه أن يلتاه ليأكلوه دقيقًا ملتوتًا، وهو البسيسة.

لا تخبزا خبزًا وبسّا بسّا ولا تطيلا بمناخ حبسا

وهذا الوجه يشهد له قرآن كقوله تعالى: ﴿يَوْمَ تَرْجُفُ ٱلْأَرْضُ وَٱلْجِبَالُ وَكَانَتِ ٱلْجِبَالُ كَثِيبًا مَّهِيلًا ۝١٤﴾[1]، فقوله: ﴿كَثِيبًا مَّهِيلًا﴾ أي: رملًا متهايلًا، ومنه قول امرئ القيس:

ويومًا على ظهر الكثيب تعذرت عليّ وآلت حلفة لم تحلّلِ

ومشابهة الدقيق المبسوس بالرمل المتهايل واضحة، فقوله: ﴿وَكَانَتِ ٱلْجِبَالُ كَثِيبًا مَّهِيلًا﴾ مطابق في المعنى لتفسير ﴿وَبُسَّتِ ٱلْجِبَالُ بَسًّا ۝٥﴾ بأن بسّها هو تفتيتها وطحنها كما ترى.

وما دلت عليه هذه الآية من أنها تسلب عنها قوة الحجرية، وتتصف بعد الصلابة والقوة باللين الشديد الذي هو كلين الدقيق والرمل المتهايل، يشهد له في الجملة تشبيهها في بعض الآيات بالصوف المنفوش الذي هو العهن؛ كقوله تعالى:

---

(١) المزمل: الآية (١٤).

﴿وَتَكُونُ ٱلْجِبَالُ كَٱلْعِهْنِ ٱلْمَنفُوشِ ۝٥﴾[(١)]، وقوله تعالى: ﴿يَوْمَ تَكُونُ ٱلسَّمَآءُ كَٱلْمُهْلِ ۝٨ وَتَكُونُ ٱلْجِبَالُ كَٱلْعِهْنِ ۝٩﴾[(٢)]، وأصل العهن أخص من مطلق الصوف؛ لأنه الصوف المصبوغ خاصة. ومنه قول زهير بن أبي سلمى في معلقته:

كأن فتاة العهن في كل منزل   نزلن به حب الفنا لم يحطم

وقال بعضهم: الجبال منها جُدد بيض وحمر ومختلف ألوانه وغرابيب سود، فإذا بست وفتتت يوم القيامة وطيرت في الجو أشبهت العهن إذا طيرته الريح في الهوى، وهذا الوجه يدل عليه ترتيب كينونتها هباءً منبثًا بـ(الفاء) على قوله: ﴿وَبُسَّتِ ٱلْجِبَالُ بَسًّا ۝٥﴾؛ لأن الهباء هو ما ينزل من الكوة من شعاع الشمس إذا قابلتها، ﴿مُّنۢبَثًّا﴾ أي متفرقًا، ووصفها بالهباء المنبث أنسب؛ لكون البسّ بمعنى التفتيت والطحن.

الوجه الثاني: أن معنى قوله: ﴿وَبُسَّتِ ٱلْجِبَالُ بَسًّا ۝٥﴾ أي: سيرت بين السماء والأرض، وعلى هذا فالمراد ببسّها سوقها وتسييرها؛ من قول العرب: بسست الإبل أبسّها، بضم الباء، وأبستها أبسها بضم الهمزة وكسر الباء، لغتان بمعنى سقتها، ومنه حديث: «**يخرج أقوام من المدينة إلى اليمن والشام والعراق يبسّون، والمدينة خير لهم لو كانوا يعلمون**»[(٣)].

وهذا الوجه تشهد له آيات من كتاب اللَّه كقوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ نُسَيِّرُ ٱلْجِبَالَ﴾[(٤)] الآية، وقوله: ﴿وَتَسِيرُ ٱلْجِبَالُ سَيْرًا ۝١٠﴾[(٥)].

وقد قدمنا الآيات الموضحة لهذا في سورة (النمل) في الكلام على قوله: ﴿وَتَرَى ٱلْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِىَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِ﴾[(٦)].

الوجه الثالث: أن معنى قوله: ﴿وَبُسَّتِ ٱلْجِبَالُ بَسًّا ۝٥﴾ نزعت من أماكنها وقلعت، وقد أوضحنا أن هذا الوجه راجع للوجه الأول مع الإيضاح التام لأحوال

---

(١) القارعة: الآية (٥).

(٢) المعارج: الآيتان (٨و٩).

(٣) أخرجه: أحمد (٥/ ٢٢٠)، والبخاري (٤/ ١١١/ ١٨٧٥)، ومسلم (٢/ ١٠٠٨-١٠٠٩/ ١٣٨٨)، والنسائي في الكبرى (٢/ ٤٨٢/ ٤٢٦٣) من حديث سفيان بن أبي زهير ﷺ.

(٤) الكهف: الآية (٤٧).   (٥) الطور: الآية (١٠).

(٦) النمل: الآية (٨٨).

الجبال يوم القيامة وأطوارها بالآيات القرآنية، وفي سورة (طه) في الكلام على قوله تعالى: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْجِبَالِ فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّى نَسْفًا ﴿١٠٥﴾﴾[١]، وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة: ﴿فَكَانَتْ هَبَآءً مُّنۢبَثًّا ﴿٦﴾﴾ كقوله تعالى: ﴿وَسُيِّرَتِ ٱلْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَابًا ﴿٢٠﴾﴾[٢]، والهباء إذا انبث، أي: تفرّق واضمحلّ صار لا شيء، والسراب قد قال الله تعالى فيه: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُۥ لَمْ يَجِدْهُ شَيْـًٔا﴾[٣]»[٤].

* * *

(١) طه: الآية (١٠٥).

(٢) النبأ: الآية (٢٠).

(٣) النور: الآية (٣٩).

(٤) أضواء البيان (٧/ ٧٦٥-٧٦٦).

قوله تعالى: ﴿وَكُنتُمْ أَزْوَٰجًا ثَلَٰثَةً ﴿٧﴾ فَأَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ ﴿٨﴾ وَأَصْحَٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ ﴿٩﴾ وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلسَّٰبِقُونَ ﴿١٠﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلْمُقَرَّبُونَ ﴿١١﴾ فِى جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿١٢﴾﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال الخازن: «﴿وَكُنتُمْ أَزْوَٰجًا﴾ أي: أصنافًا ﴿ثَلَٰثَةً﴾، ثم فسّر الأزواج فقال تعالى: ﴿فَأَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ﴾ يعني أصحاب اليمين.

والميمنة ناحية اليمين، وهم الذين يؤخذ بهم ذات اليمين إلى الجنة، وقال ابن عباس: «هم الذين كانوا على يمين آدم حين أخرجت الذرية من صلبه، وقال اللَّه تعالى: هؤلاء إلى الجنة ولا أبالي»، وقيل: هم الذين يعطون كتبهم بأيمانهم، وقيل: هم الذين كانوا ميامين، أي: مباركين على أنفسهم وكانت أعمالهم صالحة في طاعة اللَّه، وهم التابعون بإحسان. ﴿مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ﴾ تعجيب من حالهم في السعادة. والمعنى: أي شيء هم؟!

﴿وَأَصْحَٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ ﴿٩﴾﴾: يعني أصحاب الشمال، وهم الذين يؤخذ بهم ذات الشمال إلى النار، وقال ابن عباس: «**هم الذين كانوا على شمال آدم عند إخراج الذرية، وقال اللَّه تعالى لهم: هؤلاء إلى النار ولا أبالي**»، وقيل: هم الذين يؤتون كتبهم بشمائلهم، وقيل: هم المشائيم على أنفسهم، وكانت أعمالهم في المعاصي؛ لأن العرب تسمي اليد اليسرى: الشؤمى.

﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلسَّٰبِقُونَ ﴿١٠﴾﴾ قال ابن عباس: «**هم السابقون إلى الهجرة، السابقون في الآخرة إلى الجنة**». وقيل: هم السابقون إلى الإسلام. وقيل: هم الذين صلّوا إلى القبلتين من المهاجرين والأنصار. وقيل: هم السابقون إلى الصلوات الخمس. وقيل: إلى الجهاد. وقيل: هم المسارعون إلى التوبة وإلى ما دعا اللَّه إليه من أعمال البر والخير. وقيل: هم أهل القرآن المتوجون يوم القيامة.

فإن قلت: لِمَ أخّر ذكر السابقين وكانوا أولى بالتقديم عن أصحاب اليمين؟

قلت: فيه لطيفة؛ وذلك أن اللَّه تعالى ذكر في أول السورة من الأمور الهائلة عند قيام الساعة تخويفًا لعباده، فإما محسن فيزداد رغبة في الثواب، وإما مسيء فيرجع عن إساءته خوفًا من العقاب، فلذلك قدم أصحاب اليمين ليسمعوا ويرغبوا، ثم ذكر أصحاب الشمال ليرهبوا، ثم ذكر السابقين وهم الذين لا يحزنهم الفزع الأكبر؛ ليجتهد أصحاب اليمين في القرب من درجتهم، ثم أثنى على السابقين فقال تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلۡمُقَرَّبُونَ ١١﴾ أي: من اللَّه في جواره وفي ظل عرشه ودار كرامته، وهو قوله: ﴿فِي جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ﴾»[1].

* * *

(١) لباب التأويل (٤/ ٢١٦-٢١٧).

قوله تعالى: ﴿ثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ ۝١٣ وَقَلِيلٌ مِّنَ ٱلْآخِرِينَ ۝١٤﴾

★ **غريب الآية:**

ثلة: الثُّلّة، بالضم: الجماعة من الناس.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره-: جماعة من الأمم الماضية، وقليل من أمة محمد ﷺ، وهم الآخَرون، وقيل لهم: الآخِرون؛ لأنهم آخر الأمم»[1].

قال ابن كثير: «وهذا الذي اختاره ابن جرير ههنا، فيه نظر، بل هو قول ضعيف؛ لأن هذه الأمة هي خير الأمم بنص القرآن، فيبعد أن يكون المقربون في غيرها أكثر منها، اللهم إلا أن يقابل مجموع الأمم بهذه الأمة. والظاهر أن المقربين من هؤلاء أكثر من سائر الأمم، والله أعلم. فالقول الثاني في هذا المقام هو الراجح، وهو أن يكون المراد بقوله: ﴿ثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ ۝١٣﴾، أي: من صدر هذه الأمة، ﴿وَقَلِيلٌ مِّنَ ٱلْآخِرِينَ ۝١٤﴾ أي: من هذه الأمة..

ولا شك أن أول كل أمة خير من آخرها، فيحتمل أن يعم الأمر جميع الأمم كل أمة بحسبها؛ ولهذا ثبت في الصحاح وغيرها من غير وجه أن رسول الله ﷺ قال: «خير القرون قرني، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم»..

والغرض أن هذه الأمة أشرف من سائر الأمم، والمقربون فيها أكثر من غيرها وأعلى منزلة؛ لشرف دينها وعظم نبيها. ولهذا ثبت بالتواتر عن رسول الله ﷺ أنه أخبر أن في هذه الأمة سبعين ألفًا يدخلون الجنة بغير حساب[2]»[3].

---

(١) جامع البيان (٢٧/ ١٧٢).

(٢) أخرجه: أحمد (١/ ٣٢١)، والبخاري (١١/ ٣٦٩/ ٦٤٧٢)، ومسلم (١/ ١٩٩-٢٠٠/ ٢٢٠)، والترمذي (٤/ ٥٤٥-٥٤٦/ ٢٤٤٦)، والنسائي في الكبرى (٤/ ٣٧٨/ ٧٦٠٤) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

(٣) تفسير القرآن العظيم (٧/ ٤٩٢-٤٩٣).

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في فضل السلف

* عن عبد اللَّه بن مسعود قال: سئل النبي ﷺ أي الناس خير؟ قال: «**قرني، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم، ثم يجيء قوم تسبق شهادة أحدهم يمينه ويمينه شهادته**»[1].

★ غريب الحديث:

قرني: القرن من الناس أهل زمان واحد، قال الشاعر:

إذا ذهب القرن الذي أنت فيهم وخُلفت في قرن فأنت غريب

وقيل: مقدار زمانه ثمانون سنة، وقيل: ستون.

★ فوائد الحديث:

قال الحافظ: «والمراد بقرن النبي ﷺ في هذا الحديث: الصحابة، وقد سبق في صفة النبي ﷺ قوله: «**وبعثت في خير قرون بني آدم**»[2]، وفي رواية بريدة عند أحمد: «**خير هذه الأمة القرن الذين بعثت فيهم**»[3]، وقد ظهر أن الذي بين البعثةِ وآخرِ من مات من الصحابة مائةُ سنة وعشرون سنة، أو دونها أو فوقها بقليل على الاختلاف في وفاة أبي الطفيل، وإن اعتبر ذلك من بعد وفاته ﷺ فيكون مائة سنة أو تسعين أو سبعًا وتسعين، وأما قرن التابعين فإن اعتبر من سنة مائة كان نحو سبعين أو ثمانين، وأما الذين بعدهم فإن اعتبر منها كان نحوًا من خمسين، فظهر بذلك أن مدة القرن تختلف باختلاف أعمار أهل كل زمان، واللَّه أعلم.

واتفقوا أن آخر من كان من أتباع التابعين ممن يقبل قوله من عاش إلى حدود العشرين ومائتين، وفي هذا الوقت ظهرت البدع ظهورًا فاشيًا، وأطلقت المعتزلة ألسنتها، ورفعت الفلاسفة رؤوسها، وامتحن أهل العلم ليقولوا بخلق القرآن،

---

(١) أخرجه: أحمد (١/ ٤٣٤و٤٣٨و٤١٧)، والبخاري (١١/ ٦٦٦/ ٦٦٥٨) واللفظ له، ومسلم (٤/ ١٩٦٢/ ٢٥٣٣)، والترمذي (٥/ ٦٥٢/ ٣٨٥٩) وقال: «حسن صحيح»، والنسائي في الكبرى (٣/ ٤٩٤-٤٩٥/ ٦٠٣١)، وابن ماجه (٢/ ٧٩١/ ٢٣٦٢).

(٢) أخرجه: أحمد (٢/ ٣٧٣)، والبخاري (٦/ ٧٠١/ ٣٥٥٧) من حديث أبي هريرة ﷺ.

(٣) أخرجه: أحمد (٥/ ٣٥٧).

وتغيرت الأحوال تغيرًا شديدًا، ولم يزل الأمر في نقص إلى الآن، وظهر قوله ﷺ: «ثم يفشو الكذب»[١] ظهورًا بينًا حتى يشمل الأقوال والأفعال والمعتقدات، والله المستعان»[٢].

قال القرطبي: «ويعني أن هذه القرون الثلاثة: أفضل ممّا بعدها إلى يوم القيامة، وهذه القرون في أنفسها متفاضلة، فأفضلها: الأول، ثم الذي بعده، ثم الذي بعده. هذا ظاهر الحديث.

فأما أفضلية الصحابة؛ وهم القرن الأول على من بعدهم، فلا تخفى، وقد بيّنا إبطال قول من زعم أنه يكون فيمن بعدهم أفضل منهم، أو مساوٍ لهم في كتاب الطهارة. وأما أفضلية من بعدهم بعضهم على بعض؛ فبحسب قربهم من القرن الأول، وبحسب ما ظهر على أيديهم من إعلاء كلمة الدين، ونشر العلم، وفتح الأمصار، وإخماد كلمة الكفر. ولا خفاء أن الذي كان من ذلك في قرن التابعين كان أكثر وأغلب مما كان في أتباعهم، وكذلك الأمر في الذين بعدهم، ثم بعد هذا غلبت الشرور، وارتكبت الأمور»[٣].

قال القسطلاني: «هذا صريح في أن الصحابة أفضل من التابعين، وأن التابعين أفضل من تابعي التابعين، وهذا مذهب الجمهور. وذهب ابن عبد البر إلى أنه قد يكون فيمن يأتي بعد الصحابة أفضل ممن كان في جملة الصحابة، وأن قوله عليه الصلاة والسلام: «**خير الناس قرني**» ليس على عمومه؛ بدليل ما يجمع القرآن بين الفاضل والمفضول. وقد جمع قرنه عليه الصلاة والسلام جماعة من المنافقين المظهرين للإيمان وأهل الكبائر الذين أقام عليهم أو على بعضهم الحدود»[٤].

قال الحافظ: «لكن كلام ابن عبد البر ليس على الإطلاق في حق جميع الصحابة؛ فإنه صرح في كلامه باستثناء أهل بدر والحديبية، نعم والذي ذهب إليه

---

(١) أخرجه: أحمد (١/ ١٨)، والترمذي (٤/ ٤٠٤/ ٢١٦٥)، وقال: «هذا حديث حسن صحيح غريب من هذا الوجه»، والنسائي في الكبرى (٥/ ٣٨٨-٣٨٩/ ٩٢٢٥)، وصححه ابن حبان (الإحسان ١٦/ ٢٣٩-٢٤٠/ ٧٢٥٤)، والحاكم (١/ ١١٤) على شرط الشيخين ووافقه الذهبي؛ من حديث عمر بن الخطاب ﷺ.

(٢) فتح الباري (٧/ ٦-٧).

(٣) المفهم (٦/ ٤٨٦).

(٤) إرشاد الساري (٨/ ١٥٩).

الجمهور أن فضيلة الصحبة لا يعدلها عمل لمشاهدة رسول اللَّه ﷺ، وأما من اتفق له الذب عنه، والسبق إليه بالهجرة أو النصرة، وضبط الشرع المتلقى عنه وتبلغيه لمن بعده فإنه لا يعدله أحد ممن يأتي بعده؛ لأنه ما من خصلة من الخصال المذكورة إلا وللذي سبق بها مثل أجر من عمل بها من بعده، فظهر فضلهم»[(١)].

قال القسطلاني: «والحق ما عليه الجمهور؛ لأن الصحبة لا يعدلها شيء، وحديث «**للعامل منهم أجر خمسين منكم**»[(٢)] لا دلالة فيه على أفضلية غير الصحابة على الصحابة؛ لأن مجرد زيادة الأجر لا يستلزم ثبوت الأفضلية المطلقة»[(٣)].

قال الحافظ: «وأيضًا فالأجر إنما يقع تفاضله بالنسبة إلى ما يماثله في ذلك العمل، فأما ما فاز به من شاهد النبي ﷺ من زيادة فضيلة المشاهدة فلا يعدله فيها أحد، فبهذه الطريق يمكن تأويل الأحاديث المتقدمة»[(٤)].

وقال أيضًا: «واحتج -أي ابن عبد البر- بأن السبب في كون القرن الأول خير القرون أنهم كانوا غرباء في إيمانهم لكثرة الكفار حينئذ، وصبرهم على أذاهم، وتمسكهم بدينهم، قال: فكذلك أواخرهم إذا أقاموا الدين وتمسكوا به وصبروا على الطاعة حين ظهور المعاصي والفتن، كانوا أيضًا عند ذلك غرباء، وزكت أعمالهم في ذلك الزمان كما زكت أعمال أولئك»[(٥)].

* **عن عبد اللَّه قال: كنا مع النبي ﷺ في قبة فقال: «أترضون أن تكونوا ربع أهل الجنة؟ قلنا: نعم. قال: أترضون أن تكونوا ثلث أهل الجنة؟ قلنا: نعم. قال: أترضون أن تكونوا شطر أهل الجنة، قلنا: نعم. قال: والذي نفس محمد بيده، إني لأرجو أن تكونوا شطر أهل الجنة، وذلك أن الجنة لا يدخلها إلا نفس مسلمة، وما أنتم في أهل الشرك إلا كالشعرة البيضاء في جلد الثور الأسود، أو كالشعرة السوداء**

---

(١) فتح الباري (٧/ ٨).

(٢) أخرجه: أبو داود (٤/ ٥١٢/ ٤٣٤١)، والترمذي (٥/ ٢٤٠/ ٣٠٥٨) وقال: «هذا حديث حسن غريب»، وابن ماجه (٢/ ١٣٣٠-١٣٣١/ ٤٠١٤)، وصححه ابن حبان (٢/ ١٠٨-١٠٩/ ٣٨٥)، والحاكم (٤/ ٣٢٢)، ووافقه الذهبي؛ كلهم من حديث أبي ثعلبة الخشني ﷺ.

(٣) إرشاد الساري (٨/ ١٥٩).

(٤) فتح الباري (٧/ ٨).

(٥) فتح الباري (٧/ ٧).

في جلد الثور الأحمر»[١].

★ **فوائد الحديث:**

قال القرطبي: «وقوله: «**إني لأطمع أن تكونوا شطر أهل الجنة**» هذه الطماعية قد حققت له بقوله: ﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰٓ ۝٥﴾[٢]. لكن علق هذه البشرى على الطمع أدبًا مع الحضرة الإلهية، ووقوفًا مع أحكام العبودية»[٣].

* عن ثوبان قال رسول اللَّه ﷺ: «**لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق لا يضرهم من خذلهم، حتى يأتي أمر اللَّه وهم كذلك**»[٤].

★ **غريب الحديث:**

لا تزال: أي دائمة ومستمرة.

طائفة: جماعة.

ظاهرين: غالبين منصورين.

خذلهم: أي ترك نصرتهم ومعاونتهم.

أمر الله: هو الساعة.

★ **فوائد الحديث:**

قال القرطبي: «الطائفة الجماعة، وهم العصابة في الحديث الآخر[٥]، وهم الذين قال اللَّه تعالى في حقهم: ﴿وَمِمَّنْ خَلَقْنَآ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِٱلْحَقِّ وَبِهِۦ يَعْدِلُونَ﴾[٦]»[٧].

وقال أيضًا: «وقد اختلف في: من هذه الطائفة؟ وأين هم؟ فقال عليّ بن المديني: هم العرب، واستدلّ برواية من روى: «**وهم أهل الغرب**»[٨] وفسّر

---

(١) أخرجه: أحمد (١/ ٣٨٦و٤٣٧و٤٤٥)، والبخاري (١١/ ٤٦٠/ ٦٥٢٨) واللفظ له، ومسلم (١/ ٢٠٠/ ٢٢١[٣٧٧])، والترمذي (٤/ ٥٩٠/ ٢٥٤٧) وقال: «حسن صحيح»، وابن ماجه (٢/ ١٤٣٢/ ٤٢٨٣).

(٢) الضحى: الآية (٥).　　(٣) المفهم (١/ ٤٧٢).

(٤) أخرجه: أحمد (٥/ ٢٧٩)، ومسلم (٣/ ١٥٢٣/ ١٩٢٠)، والترمذي (٤/ ٤٣٧/ ٢٢٢٩) وقال: «حسن صحيح»، وابن ماجه (١/ ٥-٦/ ١٠) كلهم من طريق أبي قلابة، عن أبي أسماء (الرحبي) عن ثوبان ﷺ به.

(٥) رواه مسلم (رقم ١٩٢٤) عن عقبة بن عامر ﷺ.

(٦) الأعراف: الآية (١٨١).　　(٧) المفهم (٣/ ٧٦١-٧٦٢).

(٨) أخرجه مسلم (٢/ ١٥٢٥/ ١٩٢٥) من حديث سعد بن أبي وقاص ﷺ.

(الغرب) بالدّلو العظيمة. وقيل: أراد بالغرب: أهل القوّة، والشّدة، والحدّ. وغرب كلّ شيء حدُّه. وقيل: أراد به غرب الأرض. وهو ظاهر حديث سعد بن أبي وقّاص، وقال فيه: «**لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق في المغرب حتى تقوم الساعة**»، ورواه عبد بن حميد وقال فيه: «**لا يزال أهل المغرب ظاهرين على الحقّ حتى تقوم الساعة، أو يأتي أمر الله**» ورواه بقي بن مخلد في مسنده كذلك: «**لا يزال أهل المغرب كذلك**».

قلت: وهذه الروايات تدلّ على بطلان التأويلات المتقدمة، وعلى أن المراد به أهل المغرب في الأرض، لكن أول المغرب بالنسبة إلى المدينة -مدينة النبي ﷺ- إنما هو الشام، وآخره: حيث تنقطع الأرض من المغرب الأقصى وما بينهما، كلّ ذلك يقال عليه: مغرب. فهل أراد المغرب كلّه؛ أو أوله؟ كلّ ذلك محتمل لا جرم، قال معاذ في الحديث الآخر: هم أهل الشام[١]. ورواه الطبراني وقال: هم ببيت المقدس[٢]. وقال أبو بكر الطرطوشي في رسالة بعث بها إلى أقصى المغرب -بعد أن أورد حديثًا في هذا المعنى- قال -واللَّه تعالى أعلم-: هل أرادكم رسول اللَّه ﷺ أو أراد بذلك جملة أهل المغرب؛ لما هم عليه من التمسك بالسّنة والجماعة، وطهارتهم من البدع والإحداث في الدين، والاقتفاء لآثار من مضى من السّلف الصالح؟ واللَّه تعالى أعلم»[٣].

قال المناوي: «فيه معجزة بيّنة؛ فإن أهل السنة لم يزالوا ظاهرين في كل عصر إلى الآن، فمن حين ظهرت البدع على اختلاف صنوفها من الخوارج والمعتزلة والرافضة وغيرهم؛ لم يقم لأحد منهم دولة ولم تستمر لهم شوكة، بل كلما أوقدوا نارًا للحرب أطفأها اللَّه بنور الكتاب والسنة، فللّه الحمد والمنة»[٤].

وانظر بعض فوائد هذا الحديث في سورة (الأعراف) الآية (١٣٧).

* * *

---

(١) أخرجه: أحمد (٤/ ١٠١)، والبخاري (٦/ ٧٨٤/ ٣٦٤١)، ومسلم (٣/ ١٥٢٤/ ١٠٣٧) مختصرًا دون ذكر موضع الشاهد.

(٢) أخرجه عبد اللَّه بن أحمد وجادة عن خط أبيه (٥/ ٢٦٩)، والطبراني في الكبير (٨/ ١٤٥/ ٧٦٤٣)، وفي مسند الشاميين (٢/ ٢٧/ ٨٦٠) من حديث أبي أمامة ﷺ قال الهيثمي في المجمع (٧/ ٢٨٨): «رجاله ثقات». وانظر الصحيحة (٤/ ٥٩٩).

(٣) المصدر السابق (٣/ ٧٦٣-٧٦٤).

(٤) فيض القدير (٦/ ٣٩٥).

قوله تعالى: ﴿عَلَىٰ سُرُرٍ مَّوْضُونَةٍ ۝١٥ مُّتَّكِـِٔينَ عَلَيْهَا مُتَقَـٰبِلِينَ ۝١٦﴾

★ **غريب الآية:**

موضونة: منسوجة محكمة النسج كأن بعضها أدخل في بعض. وكل شيء وضع بعضه فوق بعض فهو موضون. قال الأعشى:

ومن نسج داود موضونة تُسَاقُ من الحيّ عيرًا فعيرا

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول: فوق سُرُر منسوجة؛ قد أدخل بعضها في بعض؛ كما يوضن حلق الدرع بعضها فوق بعض مضاعفة.. وقيل: إنما قيل لها: سرر موضونة؛ لأنها مشبكة بالذهب والجوهر..

وقال آخرون: بل معنى ذلك: أنها مصفوفة..

﴿مُّتَّكِـِٔينَ عَلَيْهَا مُتَقَـٰبِلِينَ ۝١٦﴾: يقول -تعالى ذكره-: متكئين على السرر الموضونة متقابلين بوجوههم، لا ينظر بعضهم إلى قفا بعض»[1].

قال الشنقيطي: «وما ذكر -جل وعلا- في هذه الآية الكريمة من كونهم على سرر متقابلين، أي: ينظر بعضهم إلى وجه بعض، كلهم يقابل الآخر بوجهه، جاء موضّحًا في آيات أخر كقوله تعالى في (الحجر): ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِى صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَٰنًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَـٰبِلِينَ ۝٤٧﴾[2]»[3].

* * *

(١) جامع البيان (٢٧/ ١٧٢-١٧٣).

(٢) الحجر: الآية (٤٧).

(٣) أضواء البيان (٧/ ٧٧٢).

قوله تعالى: ﴿يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُخَلَّدُونَ ۝١٧﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره-: يطوف على هؤلاء السابقين -الذين قربهم الله في جنات النعيم- ولدان على سن واحدة، لا يتغيرون ولا يموتون. .

وقال آخرون: عنى بذلك أنهم مقرّطون مسوّرون.

والذي هو أولى بالصواب في ذلك قول من قال: معناه: إنهم لا يتغيرون، ولا يموتون؛ لأن ذلك أظهر معنييه، والعرب تقول للرجل إذا كبر ولم يشمط: إنه لمخلَّد، وإنما هو (مُفَعَّل) من الخلد»[1].

قال الخازن: «﴿يَطُوفُ عَلَيْهِمْ﴾ أي: للخدمة ﴿وِلْدَانٌ﴾ أي: غلمان ﴿مُخَلَّدُونَ﴾ لا يموتون ولا يهرمون ولا يتغيرون ولا ينتقلون من حالة إلى حالة. وقيل: ﴿مُخَلَّدُونَ﴾: مقرطون، والخلد: القرط، وهو الحلقة تعلق في الأذن. واختلفوا في هؤلاء الولدان، فقيل: هم أولاد المؤمنين الذين ماتوا أطفالًا، وفيه ضعف؛ لأن الله أخبر أنه يلحقهم بآبائهم، ولأن من المؤمنين من لا ولد له، فلو خدمه ولد غيره كان منقصة بأبي الخادم. وقيل: هم صغار الكفار الذين ماتوا قبل التكليف، وهذا القول أقرب من الأول؛ لأنه قد اختلف في أولاد المشركين على ثلاثة مذاهب، فقال الأكثرون: هم في النار تبعًا لآبائهم، وتوقف فيهم طائفة، والمذهب الثالث، وهو الصحيح الذي ذهب إليه المحققون: أنهم من أهل الجنة؛ ولكل مذهب دليل ليس هذا موضعه. وقيل: هم أطفال ماتوا لم يكن لهم حسنات فيثابوا عليها، ولا سيئات فيعاقبوا عليها. ومن قال بهذه الأقوال يعلل بأن الجنة ليس فيها ولادة. والقول الصحيح الذي لا معدل عنه إن شاء الله: إنهم ولدان خلقوا في الجنة لخدمة أهل الجنة كالحور وإن لم يولدوا ولم يحصلوا عن ولادة أطلق عليهم اسم (الولدان)؛ لأن العرب تسمي الغلام وليدًا ما لم يحتلم، والأمة وليدة وإن أسنّت»[2].

---

(١) جامع البيان (٢٧/ ١٧٣-١٧٤).

(٢) لباب التأويل (٤/ ٢١٧).

قوله تعالى: ﴿بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ وَكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ ۝١٨ لَّا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلَا يُنزِفُونَ ۝١٩﴾

★ غريب الآية:

لا يصدعون: أي: لا تسبب لهم صداعًا في الرأس.

لا ينزفون: أي: لا تذهب بعقولهم عند شربها.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن ناصر السعدي: «﴿بِأَكْوَابٍ﴾: وهي التي لا عرى لها، ﴿وَأَبَارِيقَ﴾ الأواني التي لها عرى، ﴿وَكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ﴾ أي: من خمر لذيذ المشرب لا آفة فيها، ﴿لَّا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا﴾ أي: لا تصدعهم رؤوسهم كما تصدع خمرة الدنيا رأس شاربها.

ولا هم عنها ينزفون، أي: لا تنزف عقولهم، ولا تذهب أحلامهم منها، كما يكون لخمر الدنيا.

والحاصل: أن جميع ما في الجنة من أنواع النعيم الموجود جنسه في الدنيا، لا يوجد في الجنة فيه آفة، كما قال تعالى: ﴿فِيهَآ أَنْهَٰرٌ مِّن مَّآءٍ غَيْرِ ءَاسِنٍ وَأَنْهَٰرٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُۥ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى﴾[1]، وذكر هنا خمر الجنة، ونفى عنها كل آفة توجد في الدنيا»[2].

قال ابن القيم: «ونفى اللَّه تعالى عن خمر الجنة جميع آفات خمر الدنيا من الصداع والغول واللغو والإنزاف وعدم اللذة، فهذه خمس آفات من آفات خمر الدنيا: تغتال العقل، ويكثر اللغو على شربها، بل لا يطيب لشرابها ذلك إلا باللغو، وتنزف في نفسها، وتنزف المال، وتصدع الرأس، وهي كريهة المذاق، وهي رجس من عمل الشيطان، توقع العداوة والبغضاء بين الناس، وتصد عن ذكر

---

(١) محمد: الآية (١٥).

(٢) تيسير الكريم الرحمن (ص: ٨٣٣).

اللَّه وعن الصلاة، وتدعو إلى الزنا، وربما دعت إلى الوقوع على البنت والأخت وذوات المحارم، وتذهب الغيرة، وتورث الخزي والندامة والفضيحة، وتلحق شاربها بأنقص نوع الإنسان وهم المجانين، وتسلبه أحسن الأسماء والسمات، وتكسوه أقبح الأسماء والصفات، وتسهل قتل النفس وإفشاء السر الذي في إفشائه مضرته أو هلاكه، ومؤاخاة الشياطين في تبذير المال الذي جعله اللَّه قيامًا له ولم يلزمه مؤنته، وتهتك الأستار، وتظهر الأسرار، وتدل على العورات، وتهون ارتكاب القبائح والمآثم، وتخرج من القلب تعظيم المحارم، ومدمنها كعابد وثن، وكم أهاجت من حرب، وأفقرت من غني، وأذلت من عزيز، ووضعت من شريف، وسلبت من نعمة، وجلبت من نقمة، وفسخت مودة، ونسجت عداوة، وكم فرقت بين رجل وزوجته فذهبت بقلبه، وراحت بلبه، وكم أورثت من حسرة، وأجرت من عبرة، وكم أغلقت في وجه شاربها بابًا من الخير وفتحت له بابًا من الشر، وكم أوقعت في بلية، وعجلت من منية، وكم أورثت من خزية، وجرت على شاربها من محنة، وجرت عليه من سفلة، فهي جماع الإثم، ومفتاح الشر، وسلابة النعم، وجالبة النقم، ولو لم يكن من رذائلها إلا أنها لا تجتمع هي وخمر الجنة في جوف عبد كما ثبت عنه ﷺ أنه قال: «**من شرب الخمر في الدنيا لم يشربها في الآخرة**»[١] لكفى. وآفات الخمر أضعاف أضعاف ما ذكرنا، وكلها منتفية عن خمر الجنة»[٢].

* * *

(١) أخرجه: أحمد (٢/ ٢٢)، والبخاري (١٠/ ٣٧/ ٥٥٧٥)، ومسلم (٣/ ١٥٨٧/ ٢٠٠٣)، وأبو داود (٤/ ٨٥-٨٦/ ٣٦٧٩)، والترمذي (٤/ ٢٥٦/ ١٨٦١)، والنسائي (٨/ ٧٢١/ ٥٦٨٩)، وابن ماجه (٢/ ١١١٩/ ٣٣٧٣) من حديث ابن عمر رضي الله عنهما.

(٢) حادي الأرواح (ص: ١٦٣).

قوله تعالى: ﴿وَفَٰكِهَةٖ مِّمَّا يَتَخَيَّرُونَ ٢٠﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن ناصر السعدي: «﴿وَفَٰكِهَةٖ مِّمَّا يَتَخَيَّرُونَ ٢٠﴾: أي: مهما تخيّروا، وراق في أعينهم، واشتهته نفوسهم من أنواع الفواكه الشهية، والجنى اللذيذ، حصل لهم على أكمل وجه وأحسنه»[١].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في جواز أكل الطعام على صفة التخير

* عن أنس بن مالك قال: «كان رسول اللَّه ﷺ تعجبه الرؤيا، فربما رأى الرجل الرؤيا، فسأل عنه إذا لم يكن يعرفه، فإذا أثني عليه معروفًا، كان أعجب لرؤياه إليه، فأتته امرأة، فقالت: يا رسول الله! رأيت كأني أتيت، فأخرجت من المدينة، فأدخلت الجنة، فسمعت وجبة انتحت لها الجنة، فنظرت، فإذا فلان وفلان وفلان -فسمّت اثني عشر رجلًا كان رسول اللَّه ﷺ بعث سرية قبل ذلك- فجيء بهم عليهم ثياب طُلْس، تشخب أوداجهم، فقيل: اذهبوا بهم إلى نهر البيذخ، قال: فغمسوا فيه، قال: فخرجوا ووجوههم كالقمر ليلة البدر، فأتوا بصحفة من ذهب فيها بسرة، فأكلوا من بسره ما شاؤوا، ما يقلبونها من وجه إلا أكلوا من الفاكهة ما أرادوا، وأكلت معهم، فجاء البشير من تلك السرية، فقال: كان من أمرنا كذا وكذا، فأصيب فلان وفلان حتى عد اثني عشر رجلًا، فدعا رسول اللَّه ﷺ بالمرأة، فقال: قصّي رؤياك. فقصتها، وجعلت تقول: جيء بفلان وفلان، كما قال الرجل»[٢].

---

(١) تيسير الكريم الرحمن (ص: ٨٣٣).

(٢) أخرجه: أحمد (٣/ ١٣٥و٢٥٧)، والنسائي في الكبرى (٤/ ٣٨٢/ ٧٦٢٢)، وابن حبان (الإحسان ١٣/ ٤١٨-٤١٩/ ٦٠٥٤) واللفظ له، وأبو يعلى (٦/ ٤٤-٤٥/ ٣٢٨٩)، والبيهقي في الدلائل (٧/ ٢٦-٢٧)، وذكره الهيثمي في المجمع (٧/ ١٧٥-١٧٦) وقال: «رواه أحمد ورجاله رجال الصحيح». وذكره ابن كثير عند تفسيره لهذه الآية وقال: قال الحافظ الضياء: «وهذا على شرط مسلم».

★ غريب الحديث:

وجبة: الوجبة السقطة مع الهدة.

ثياب طُلس: بضم الطاء وسكون اللام، يعني: ثيابًا وسخة. والطلسة: هي الغبرة إلى السواد، والأطلس: الأسود الوسخ.

تشخب: من الشخب، وهو السيلان. وأصل الشخب: ما يخرج من تحت يد الجالب عند كل غمزة وعصرة لضرع الشاة.

أوداجهم: جمع ودج، وهو ما أحاط بالعنق من العروق.

بُسرة: البُسر بالضم: التمر قبل إرطابه، والبسرة واحدتها، وتضم السين.

★ فوائد الحديث:

قال ابن كثير: «وهذه الآية دليل على جواز أكل الفاكهة على صفة التخير لها». ثم ذكر من الأدلة على ذلك حديث أنس هذا[(١)].

وفي هذا الحديث من الفوائد ردّ على من ادّعى سلوك طريق الصلاح والتّزهد وقال: (لا يحل للآكل أن يأكل تلذذًا ولا على سبيل التّشهّي والإعجاب، ولا يأكل إلا ما لا بدّ منه إلا لإقامة الرمق)[(٢)].

وفيه كذلك ردّ على من قال منهم: (إنه ليس لأحد أن يجمع بين شيئين من الطعام، ولا بين أدمين على خوان)[(٣)].

* * *

(١) تفسير القرآن العظيم (٧/ ٤٩٦).
(٢) الفقيه والمتفقه (١/ ٣٤٩).
(٣) الفقيه والمتفقه (١/ ٣٥٠).

قوله تعالى: ﴿وَلَحْمِ طَيْرٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ ۝٢١﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن ناصر السعدي: «أي: من كل صنف من الطيور يشتهونه، ومن أي جنس من لحمه أرادوا، وإن شاؤوا مشويًّا، أو طبيخًا أو غير ذلك»[1].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في صفة طير الجنة

❋ عن أنس بن مالك قال: سئل رسول اللَّه ﷺ: ما الكوثر؟ قال: **«ذاك نهر أعطانيه اللَّه -يعني في الجنة- أشد بياضًا من اللبن، وأحلى من العسل، فيها طير أعناقها كأعناق الجُزُر»**، قال عمر: إن هذه لناعمة؛ قال رسول اللَّه ﷺ: **«أَكَلَتها أحسن منها»**[2].

★ **غريب الحديث:**

الكوثر: الكثير من كل شيء.

كأعناق الجُزُر: بضم الجيم والزاي، جمع جزور، وهو البعير.

ناعمة: سمان مترفة. قال القاري: «أي لمتنعّمة أو لنعمةٌ طيبة»[3]. .

---

(١) تيسير الكريم الرحمن (ص: ٨٣٣).

(٢) أخرجه: ابن جرير في التفسير (٣٠/ ٣٢٤)، وأحمد (٣/ ٢٣٦)، والترمذي (٤/ ٥٨٧/ ٢٥٤٢) من طرق عن محمد بن عبد اللَّه بن مسلم عن أبيه عن أنس. وقال الترمذي: «هذا حديث حسن غريب. ومحمد بن عبد اللَّه بن مسلم هو ابن أخي ابن شهاب الزهري»، وقال الحافظ في التقريب: «محمد بن عبد اللَّه بن مسلم ابن أخي الزهري: صدوق له أوهام». وقد تابعه ابن شهاب الزهري أخرجه: أحمد (٣/ ٢٣٦و٢٣٧)، والحاكم (٢/ ٥٣٧)، وله تابع آخر: عبد الوهاب بن أبي بكر عن عبد اللَّه بن مسلم بن شهاب أخرجه: ابن جرير (٣٠/ ٣٢٤)، وأحمد (٣/ ٢٢٠-٢٢١)، قال الألباني في الصحيحة (ج ٦ ف ١/ ٥٠): «فهذه ثلاث طرق عن عبد اللَّه بن مسلم بن شهاب، يجعل حديثه صحيحًا، ولعل الترمذي لم يقف على هذه المتابعات، وإلا لكان حقه أن يصححه».

(٣) المرقاة (٩/ ٦٠٤).

أكلتها: بفتحات، جمع آكل، اسم فاعل كطلبة جمع طالب.

★ فوائد الحديث:

قوله: «**أعناقها كأعناق الجزر**» قال القاري: «المعنى أنه أعد للنحر ليأكل منه أصحاب شرب ذلك النهر، فإنه بها يتم عيش الدهر».

قوله: «**أكلتها أنعم منها**» قال القاري: «المعنى: من يأكلها أنعم منها»[(١)].

قال ابن القيم في نونيته: فصل في طعام أهل الجنة:

وطعامهم ما تشتهيه نفوسهم ولحوم طير ناعم وسمان

قال هراس: «يعني أن طعام أهل الجنة هو كل ما تتطلبه نفوسهم من لحوم الطير السمان والفواكه المتنوعة؛ كما قال تعالى: ﴿وَفَٰكِهَةٖ مِّمَّا يَتَخَيَّرُونَ ۝٢٠ وَلَحۡمِ طَيۡرٖ مِّمَّا يَشۡتَهُونَ ۝٢١﴾.. فلهم فيها لحم طيب نضيج»[(٢)].

* * *

(١) المصدر السابق.

(٢) شرح القصيدة النونية (٢/ ٣٧٥).

قوله تعالى: ﴿وَحُورٌ عِينٌ ﴿٢٢﴾ كَأَمْثَٰلِ ٱللُّؤْلُوِ ٱلْمَكْنُونِ ﴿٢٣﴾ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٢٤﴾﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن ناصر السعدي: «أي: ولهم حور عين، والحوراء: التي في عينها كحل وملاحة وحسن بهاء، والعِين: حسان الأعين وضخامها، وحسن العين في الأنثى من أعظم الأدلة على حسنها وجمالها»(١).

قال الخازن: «كاللؤلؤ المكنون، أي: المخزون في الصَّدَف المصون الذي لم تمسّه الأيدي، ولم تقع عليه الشمس والهواء، فيكون في نهاية الصّفاء»(٢).

قال ابن جرير: «وقوله: ﴿جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ يقول -تعالى ذكره-: ثوابًا لهم من اللَّه بأعمالهم التي كانوا يعملونها في الدنيا، وعوضًا من طاعتهم إيّاه»(٣).

* * *

---

(١) تيسير الكريم الرحمن (ص: ٨٣٣).
(٢) لباب التأويل (٤/ ٢١٨).
(٣) جامع البيان (٢٧/ ١٧٧).

قوله تعالى: ﴿لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْثِيمًا ﴿٢٥﴾ إِلَّا قِيلًا سَلَامًا سَلَامًا ﴿٢٦﴾﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن ناصر السعدي: «﴿لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْثِيمًا ﴿٢٥﴾﴾ أي: لا يسمعون في جنات النعيم كلامًا يلغى، ولا يكون فيه فائدة، ولا كلامًا يؤثم صاحبه، ﴿إِلَّا قِيلًا سَلَامًا سَلَامًا ﴿٢٦﴾﴾ أي: كلامًا طيبًا، وذلك لأنها دار الطيبين، ولا يكون فيها إلا كل طيب، وهذا دليل على حسن أدب أهل الجنة في خطابهم فيما بينهم، وأنه أطيب كلام، وأسرّه للنفوس، وأسلمه من كل لغو وإثم، نسأل اللّه من فضله»[١].

قال ابن القيم: «قوله تعالى: ﴿لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْثِيمًا ﴿٢٥﴾ إِلَّا قِيلًا سَلَامًا سَلَامًا ﴿٢٦﴾﴾ وهذا فيه نفي لسماع اللغو والتأثيم، وإثبات لضده وهو السلام المنافي لهما، فالمقصود به نفي شيء وإثبات ضده، وعلى هذا فلا حاجة إلى تكلف دخوله تحت المستثنى منه؛ لأنه يتضمن زوال هذه الفائدة من الكلام، ومن رده إلى الأول قال: لما نفي عنهم سماع اللغو والتأثيم وهما مما يقال، فكأن النفس تشوفت إلى أنه هل يسمع فيها شيء غيره؟ فقال: ﴿إِلَّا قِيلًا سَلَامًا سَلَامًا ﴿٢٦﴾﴾، فعاد المعنى إلى: لا يسمعون فيها شيئًا إلا قيلًا سلامًا سلامًا. وأنت إذا تأملت هذين التقديرين رأيت الأول أصوب؛ فإنه نفى سماع شيء وأثبت ضده، وعلى الثاني نفى سماع كل شيء إلا السلام، وليس المعنى عليه؛ فإنهم يسمعون السلام وغيره، فتأمله»[٢].

قال ابن كثير: «أي: لا يسمعون في الجنة كلامًا لاغيًا، أي: غثًّا خاليًا عن المعنى، أو مشتملًا على معنى حقير أو ضعيف، كما قال: ﴿لَّا تَسْمَعُ فِيهَا لَاغِيَةً ﴿١١﴾﴾[٣]، أي: كلمة لاغية، ﴿وَلَا تَأْثِيمًا﴾ أي: ولا كلامًا فيه قبح، ﴿إِلَّا قِيلًا سَلَامًا سَلَامًا ﴿٢٦﴾﴾ أي: إلا التسليم منهم بعضهم على بعض، كما قال: ﴿تَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ﴾[٤]، وكلامهم أيضًا سالم من اللغو والإثم»[٥].

---

(١) تيسير الكريم الرحمن (ص: ٩١٤).
(٢) بدائع الفوائد (٣/ ٦٩-٧٠).
(٣) الغاشية: الآية (١١).
(٤) إبراهيم: الآية (٢٣).
(٥) تفسير القرآن العظيم (٧/ ٤٩٩).

قوله تعالى: ﴿وَأَصۡحَٰبُ ٱلۡيَمِينِ مَآ أَصۡحَٰبُ ٱلۡيَمِينِ ۝٢٧﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن كثير: «لما ذكر تعالى مآل السابقين، وهم المقربون، عطف عليهم بذكر أصحاب اليمين، وهم الأبرار، كما قال ميمون بن مهران: أصحاب اليمين منزلة دون المقربين، فقال: ﴿وَأَصۡحَٰبُ ٱلۡيَمِينِ مَآ أَصۡحَٰبُ ٱلۡيَمِينِ ۝٢٧﴾ أي: أيّ شيء أصحاب اليمين؟ وما حالهم؟ وكيف مآلهم؟»[1].

* * *

---

(١) تفسير القرآن العظيم (٨/ ٣).

قوله تعالى: ﴿فِي سِدۡرٖ مَّخۡضُودٖ ۝٢٨﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال الخازن: «﴿فِي سِدۡرٖ مَّخۡضُودٖ ۝٢٨﴾ أي: لا شوك فيه، كأنه خُضِد شوكه، أي: قُطع ونزع منه، وهذا قول ابن عباس. وقيل: هو الموقر حملًا، قيل: ثمرها أعظم من القلال، وهو النبق»(١).

قال ابن كثير: «والظاهر أن المراد هذا وهذا؛ فإن سدر الدنيا كثير الشوك، قليل الثمر، وفي الآخرة على عكس من هذا: لا شوك فيه، وفيه الثمر الكثير الذي قد أثقل أصله»(٢).

* * *

(١) لباب التأويل (٤/ ٢١٨).

(٢) تفسير القرآن العظيم (٨/ ٣).

قوله تعالى: ﴿وَطَلْحٍ مَّنضُودٍ ۝٢٩﴾

★ **غريب الآية:**

منضود: متراكب بعضه فوق بعض.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال الخازن: «﴿وَطَلْحٍ﴾ هو الموز عند أكثر المفسرين. وقيل: هو شجر له ظل بارد طيب. وقيل: هو شجر أم غيلان له شوك ونور طيب الرائحة، فخوطبوا ووعدوا بمثل ما يحبون ويعرفون؛ إلا أن فضله على شجر الدنيا كفضل الجنة على الدنيا. ﴿مَّنضُودٍ﴾ أي: متراكم قد نضد بالحمل من أوّله إلى آخره، ليست له سوق بارزة، بل من عروقه إلى أغصانه ثمر، وليس شيء من ثمر الجنة في غلاف كثمر الدنيا، مثل الباقلاء والجوز ونحوهما؛ بل كلها مأكول ومشروب ومشموم ومنظور إليه»[1].

* * *

(١) لباب التأويل (٤/ ٢١٨).

قوله تعالى: ﴿وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ ۝٣٠﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال القنوجي: «﴿وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ ۝٣٠﴾ أي: دائم باقٍ، لا يزول، ولا تنسخه الشمس كظل أهل الدنيا، ممتد منبسط، كظل ما بين طلوع الفجر وطلوع الشمس، قال أبو عبيدة: والعرب تقول لكل شيء طويل لا ينقطع: ممدود، ومنه قوله: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ ٱلظِّلَّ﴾(١)، والجنة كلها ظل، لا شمس معه»(٢).

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في صفة الجنة

* عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «**إن في الجنة لشجرة يسير الراكب في ظلها مائة سنة، واقرؤوا إن شئتم: ﴿وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ ۝٣٠﴾**»(٣).

★ **فوائد الحديث:**

انظر فوائد هذا الحديث عند الآية (٥٧) من سورة (النساء).

* * *

---

(١) الفرقان: الآية (٤٥).

(٢) فتح البيان (١٣/ ٣٦٧).

(٣) أخرجه: أحمد (٢/ ٤١٨)، والبخاري (٦/ ٣٩٣/ ٣٢٥٢) واللفظ له، ومسلم (٤/ ٢١٧٥/ ٢٨٢٦)، والترمذي (٤/ ٥٧٩/ ٢٥٢٣)، والنسائي في الكبرى (٦/ ٤٧٩/ ١١٥٦٤)، وابن ماجه (٢/ ١٤٥٠/ ٤٣٣٥).

قوله تعالى: ﴿وَمَآءٍ مَّسْكُوبٍ ۝٣١﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال أبو السعود: «﴿وَمَآءٍ مَّسْكُوبٍ ۝٣١﴾: يسكب لهم أينما شاؤوا، وكيفما أرادوا بلا تعب، أو مصبوب سائل يجري على الأرض في غير أخدود، كأنه مثل حال السابقين بأقصى ما يتصور لأهل المدن، وقال: أصحاب اليمين بأكمل ما يتصور لأهل البوادي إيذان بالتعاون بين الحالين»[(١)].

قال الشنقيطي: «المفسرون يقولون: إن أنهار الجنة تجري في غير أخدود، وأن الماء يصل إليهم أينما كانوا كيف شاؤوا، كما قال تعالى: ﴿عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ ٱللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا ۝٦﴾[(٢)]»[(٣)].

* * *

---

(١) إرشاد العقل السليم (٨/ ١٩٣).

(٢) الإنسان: الآية (٦).

(٣) أضواء البيان (٧/ ٧٧٤).

قوله تعالى: ﴿وَفَٰكِهَةٖ كَثِيرَةٖ ۝٣٢ لَّا مَقۡطُوعَةٖ وَلَا مَمۡنُوعَةٖ ۝٣٣﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره-: وفيها فاكهة كثيرة، لا ينقطع عنهم شيء منها أرادوه في وقت من الأوقات، كما تنقطع فواكه الصيف في الشتاء في الدنيا، ولا يمنعهم منها، ولا يحول بينهم وبينها شوك على أشجارها، أو بعدها منهم كما تمتنع فواكه الدنيا من كثير ممن أرادها ببعدها على الشجرة منهم، أو بما على شجرها من الشوك، ولكنها إذا اشتهاها أحدهم وقعت في فيه، أو دنت منه حتى يتناولها بيده»[(١)].

قال ابن كثير: «﴿وَفَٰكِهَةٖ كَثِيرَةٖ ۝٣٢ لَّا مَقۡطُوعَةٖ وَلَا مَمۡنُوعَةٖ ۝٣٣﴾ أي: وعندهم من الفواكه الكثيرة المتنوعة في الألوان ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر، ﴿كُلَّمَا رُزِقُواْ مِنۡهَا مِن ثَمَرَةٖ رِّزۡقٗا قَالُواْ هَٰذَا ٱلَّذِي رُزِقۡنَا مِن قَبۡلُۖ وَأُتُواْ بِهِۦ مُتَشَٰبِهٗاۖ﴾[(٢)]، أي: يشبه الشكل الشكل، ولكن الطعم غير الطعم»[(٣)].

قال القنوجي: «﴿وَلَا مَمۡنُوعَةٖ﴾ أي: لا تمتنع على من أرادها في أي وقت، على أي صفة شاء، بل هي معدّة لمن أرادها، لا يحول بينه وبينها حائل من ثمن أو حائط أو باب أو سلم أو بعد؛ قال تعالى: ﴿وَذُلِّلَتۡ قُطُوفُهَا تَذۡلِيلٗا﴾[(٤)]»[(٥)].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في صفة فاكهة الجنة

* عن عبد اللّه بن عباس قال: «انخسفت الشمس على عهد رسول اللّه ﷺ، فصلى رسول اللّه ﷺ، فقام قيامًا طويلًا نحوًا من قراءة سورة (البقرة)، ثم ركع ركوعًا طويلًا، ثم رفع فقام قيامًا طويلًا، وهو دون القيام الأول، ثم ركع ركوعًا

---

(١) جامع البيان (٢٧/ ١٨٤-١٨٥).
(٢) البقرة: الآية (٢٥).
(٣) تفسير القرآن العظيم (٨/ ٧).
(٤) الإنسان: الآية (١٤).
(٥) فتح البيان (١٣/ ٣٦٧).

طويلًا، وهو دون الركوع الأول، ثم سجد، ثم قام قيامًا طويلًا وهو دون القيام الأول، ثم ركع ركوعًا طويلًا، وهو دون الركوع الأول، ثم قام قيامًا طويلًا وهو دون القيام الأول، ثم ركع ركوعًا طويلًا، وهو دون الركوع الأول، ثم سجد ثم انصرف وقد تجلّت الشمس. فقال: «**إن الشمس والقمر آيتان من آيات اللّه. لا يخسفان لموت أحد ولا لحياته. فإذا رأيتم ذلك فاذكروا الله**» قالوا: يا رسول الله! رأيناك تناولت شيئًا في مقامك، ثم رأيناك كعكعت. قال ﷺ: «**إني رأيت الجنة، فتناولت عنقودًا، ولو أصبته لأكلتم منه ما بقيت الدنيا، وأريت النار فلم أر منظرًا كاليوم قط أفظع، ورأيت أكثر أهلها النساء**»، قالوا: بم يا رسول الله؟ قال: «**بكفرهنّ**». قيل: يكفرن بالله؟ قال: «**يكفرن العشير، ويكفرن الإحسان، لو أحسنت إلى إحداهنّ الدهر كله، ثم رأت منك شيئًا، قالت: ما رأيت منك خيرًا قطّ**»[1].

★ غريب الحديث:

كعكعت: قال القسطلاني: «بالكافين المفتوحتين والمهملتين الساكنتين، وللكشميهني: «**تكعكعت**» **بزيادة مثناة فوقية أوله، أي: تأخرت، أو تقهقرت. وقال أبو عبيدة: كعكعته فتكعكع، وهو يدل على أن (كعكع) متعدّ، و(تكعكع) لازم. و(كعكع) يقتضي مفعولًا، أي: رأيناك كعكعت نفسك. ولمسلم: «رأيناك كففت نفسك»** من الكفّ، وهو المنع»[2].

عُنقود: قال ابن منظور: العنقود والعِنقاد من النخل والعنب والأراك والبطم، بالضم: واحد عناقيد.

★ فوائد الحديث:

قال الحافظ: «**«لو أصبته»**: لو أخذته، واستشكل مع قوله: «**فحيل بيني وبينه**»»[3].

---

(١) أخرجه: أحمد (١/ ٢٩٨)، والبخاري (١/ ١١٣/ ٢٩)، ومسلم (٢/ ٦٢٦/ ٩٠٧)، وأبو داود (١/ ٧٠٢/ ١١٨٩)، والنسائي (٣/ ١٦٢-١٦٤/ ١٤٩٢).

(٢) إرشاد الساري (٣/ ١٠٢).

(٣) فتح الباري (٢/ ٦٨٨).

قال ابن بطال: «ولم يأخذه ﷺ ولم يأكل منه في الدنيا؛ لأن طعام أهل الجنة باقٍ أبدًا لا يفنى، ولا يجوز أن يكون شيء من دار البقاء في دار الفناء، وقد قدر اللَّه أنّ رزق الدنيا لا ينال إلا بالتعب فيه والنصب، ولا يبدل القول لديه، وأيضًا فإن طعام الجنة إنما شوق اللَّه إليه عباده، ووعدهم نيله جزاءً لأعمالهم الصالحة، والدنيا ليست بدار جزاء، ولذلك لم يصلح لهم في الدنيا أخذه»[1].

قال القسطلاني: «قال صاحب المظهر: لأنه لو تناوله ورآه الناس لكان إيمانهم بالشهادة لا بالغيب، فيخشى أن يقع رفع التوبة، قال تعالى: ﴿يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَٰنُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ﴾[2] وقال غيره: لأن الجنة جزاء الأعمال، والجزاء لا يقع إلا في الآخرة»[3].

قال الحافظ: «وحكى ابن العربي في «قانون التأويل» عن بعض شيوخه أنه قال: معنى قوله: «**لأكلتم منه**» إلخ، أن يخلق في نفس الآكل مثل الذي أكل دائمًا بحيث لا يغيب عن ذوقه. وتعقب بأنه رأي فلسفي مبني على أن دار الآخرة لا حقائق لها وإنما هي أمثال، والحق أن ثمار الجنة لا مقطوعة ولا ممنوعة، وإذا قطعت خلقت في الحال، فلا مانع أن يخلق اللَّه مثل ذلك في الدنيا إذا شاء، والفرق بين الدارين في وجوب الدوام وجوازه»[4].

«**لأكلتم**»: «والخطاب عام في كل جماعة يتأتى منهم السماع والأكل إلى يوم القيامة؛ لقوله: «**ما بقيت الدنيا**»»[5].

قال النووي: «وفيه أن الجنة والنار مخلوقتان موجودتان اليوم، وأن في الجنة ثمارًا، وهذا كله مذهب أصحابنا وسائر أهل السنة، خلافًا للمعتزلة»[6].

* * *

(١) شرح صحيح البخاري (٣/ ٤٢).
(٢) الأنعام: الآية (١٥٨).
(٣) إرشاد الساري (٣/ ١٠٣).
(٤) فتح الباري (٢/ ٦٨٩).
(٥) إرشاد الساري (٣/ ١٠٣).
(٦) شرح صحيح مسلم (٦/ ١٨٤).

قوله تعالى: ﴿وَفُرُشٍ مَّرْفُوعَةٍ ۝﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره-: ولهم فيها فرش مرفوعة طويلة، بعضها فوق بعض، كما يقال: بناء مرفوع»[(١)].

قال ابن القيم: «وقيل: الفرش في قوله: ﴿وَفُرُشٍ مَّرْفُوعَةٍ ۝﴾ كناية عن النساء، كما يكنى عنهن بالقوارير والأزر وغيرها؛ ولكن قوله: ﴿مَّرْفُوعَةٍ﴾ يأبى هذا، إلا أن يقال: المراد: رفعة القدر.. الصواب أنها الفرش نفسها، ودلّت على النساء لأنها محلهنّ غالبًا»[(٢)].

* * *

(١) جامع البيان (٢٧/ ١٨٥).
(٢) حادي الأرواح (ص: ٢٠٤).

قوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَنشَأْنَٰهُنَّ إِنشَآءً ﴿٣٥﴾ فَجَعَلْنَٰهُنَّ أَبْكَارًا ﴿٣٦﴾ عُرُبًا أَتْرَابًا ﴿٣٧﴾ لِّأَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ ﴿٣٨﴾﴾

★ غريب الآية:

أترابًا: جمع تِرْب، وهو المساوي لك في السن. قال ابن أبي ربيعة:

أبرزوها مثل المهاة تهادى بين عشر كواكب أترابا

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال الشنقيطي: «الضمير في ﴿أَنشَأْنَٰهُنَّ﴾ قال بعض أهل العلم: هو راجع إلى مذكور، وقال بعض العلماء: هو راجع إلى غير مذكور، إلا أنه دل عليه المقام.

فمن قال: إنه راجع إلى مذكور، قال: هو راجع إلى قوله: ﴿وَفُرُشٍ مَّرْفُوعَةٍ ﴿٣٤﴾﴾[1] قال: لأن المراد بالفرش النساء، والعرب تسمي المرأة لباسًا وإزارًا وفراشًا ونعلًا، وعلى هذا فالمراد بالرفع في قوله: ﴿مَّرْفُوعَةٍ﴾ رفع المنزلة والمكانة.

ومن قال: إنه راجع إلى غير مذكور، قال: إنه راجع إلى نساء لم يذكرن، ولكن ذكر الفرش دل عليهن؛ لأنهن يتكئن عليها مع أزواجهن.

وقال بعض العلماء: المراد بهن الحور العين، واستدل من قال ذلك بقوله: ﴿إِنَّآ أَنشَأْنَٰهُنَّ إِنشَآءً ﴿٣٥﴾﴾؛ لأن الإنشاء هو الاختراع والابتداع.

وقالت جماعة من أهل العلم: أن المراد بهن بنات آدم التي كن في الدنيا عجائز شمطًا رمصًا»[2].

قال ابن القيم: «أعاد الضمير إلى النساء ولم يجرِ لهن ذكر؛ لأن الفرش دلّت عليهنّ؛ إذ هنّ محلهنّ.. الظاهر أن المراد: أنشأهن اللَّه تعالى في الجنة إنشاءً؛ ويدل عليه وجوه:

---

(١) الواقعة: الآية (٣٤).

(٢) أضواء البيان (٧/ ٧٧٤-٧٧٥).

أحدها: أنه قد قال في حق السابقين: ﴿يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ ﴿١٧﴾ بِأَكْوَابٍ﴾ إلى قوله: ﴿كَأَمْثَالِ اللُّؤْلُؤِ الْمَكْنُونِ﴾[(١)]، فذكر سررهم وآنيتهم وشرابهم وفاكهتهم وطعامهم وأزواجهم من الحور العين، ثم ذكر أصحاب الميمنة وطعامهم وشرابهم وفرشهم ونساءهم، والظاهر أنهن مثل نساء من قبلهم خلقن في الجنة.

الثاني: أنه سبحانه قال: ﴿إِنَّا أَنشَأْنَاهُنَّ إِنشَاءً ﴿٣٥﴾﴾ وهذا ظاهر أنه إنشاء أول، لا ثان؛ لأنه سبحانه حيث يريد الإنشاء يقيده بذلك، كقوله: ﴿وَأَنَّ عَلَيْهِ النَّشْأَةَ الْأُخْرَىٰ ﴿٤٧﴾﴾[(٢)]، وقوله: ﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ النَّشْأَةَ الْأُولَىٰ﴾[(٣)].

الثالث: أن الخطاب بقوله: ﴿وَكُنتُمْ أَزْوَاجًا ثَلَاثَةً ﴿٧﴾﴾[(٤)] إلى آخره، للذكور والإناث، والنشأة الثانية أيضًا عامة للنوعين، وقوله: ﴿إِنَّا أَنشَأْنَاهُنَّ إِنشَاءً ﴿٣٥﴾﴾ ظاهره اختصاصهن بهذا الإنشاء، وتأمل تأكيده بالمصدر»[(٥)].

قال السعدي: «﴿فَجَعَلْنَاهُنَّ أَبْكَارًا ﴿٣٦﴾﴾ صغارهنّ وكبارهنّ.

وعموم ذلك، يشمل الحور العين ونساء أهل الدنيا، وأن هذا الوصف -وهو البكارة- ملازم لهن في جميع الأحوال، كما أن كونهنّ ﴿عُرُبًا أَتْرَابًا﴾ ملازم لهن في كل حال، والعروب: هي المرأة المتحببة إلى بعلها بحسن لفظها، وحسن هيئتها، ودلالها، وجمالها، ومحبتها، فهي التي إن تكلمت سبت العقول، وود السامع أن كلامها لا ينقضي، خصوصًا عند غنائهن بتلك الأصوات الرخيمة والنغمات المطربة، وإن نظر إلى أدبها وسمتها ودلها ملأت قلب بعلها فرحًا وسرورًا، وإن برزت من محل إلى آخر، امتلأ ذلك الموضع منها ريحًا طيبًا ونورًا، ويدخل في ذلك الغنجة عند الجماع.

والأتراب اللاتي على سن واحدة، ثلاث وثلاثين سنة، التي هي غاية ما يتمنى ونهاية سن الشباب، فنساؤهم عرب أتراب، متفقات مؤتلفات، راضيات

---

(١) الواقعة: الآيات (١٧-٢٣).

(٢) النجم: الآية (٤٧).

(٣) الواقعة: الآية (٦٢).

(٤) الواقعة: الآية (٧).

(٥) حادي الأرواح (ص: ٢٠٤-٢٠٦).

مرضيات، لا يحزَنّ ولا يحزِنّ، بل هنّ أفراح النفوس، وقرة العيون، وجلاء الأبصار»[١].

قال ابن جرير: «وقوله: ﴿لِّأَصۡحَٰبِ ٱلۡيَمِينِ ۝٣٨﴾ يقول -تعالى ذكره-: أنشأنا هؤلاء اللواتي وصف صفتهنّ من الأبكار للذين يؤخذ بهم ذات اليمين من موقف الحساب إلى الجنة»[٢].

قال ابن القيم: «فجمع سبحانه بين حسن صورتها وحسن عشرتها. وهذه غاية ما يطلب من النساء، وبه تكمل لذة الرجل بهنّ»[٣].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في صفة أهل الجنة

* عن أنس عن النبي ﷺ قال: «**يعطى المؤمن في الجنة قوة كذا وكذا من الجماع**»، قيل: يا رسول الله! أو يطيق ذلك؟ قال: «**يعطى قوة مائة**»[٤].

★ **فوائد الحديث:**

في الحديث دلالة على أن المؤمن يمنح قوة في الجماع، كلما جامعهن وجدهن أبكارًا، ويؤيده حديث أبي هريرة الذي رواه الطبراني قال: «قيل: يا رسول الله! هل نصل إلى نسائنا في الجنة؟ قال: **إن الرجل ليصل في اليوم إلى مائة عذراء**»[٥]، قال الحافظ أبو عبد الله المقدسي: هذا الحديث عندي على شرط الصحيح، والله أعلم. وقال الهيثمي في 'الزوائد'[٦]: «ورجال هذه الرواية رجال الصحيح غير محمد بن ثوّاب، وهو ثقة»[٧].

* * *

---

(١) تيسير الكريم الرحمن (ص: ٨٣٤).

(٢) جامع البيان (٢٧/ ١٨٩).

(٣) حادي الأرواح (ص: ٢٠٦).

(٤) أخرجه: الطيالسي (٢٠١٢)، والترمذي (٤/ ٥٨٤/ ٢٥٣٦) وقال: «حديث صحيح غريب»، وابن حبان (الإحسان ١٦/ ٤١٣/ ٧١٠٠).

(٥) أخرجه: الطبراني في الصغير (٢/ ٦٨/ ٧٩٥)، وفي الأوسط (١/ ٤٠٦/ ٧٢٢). وانظر الصحيحة للشيخ الألباني (١/ ٧٠٨/ ٣٦٧).

(٦) (١٠/ ٤٢٠).

(٧) العمدة (٣/ ٤٣٧)، وانظر كلام ابن القيم في سورة (الرعد): الآية (٣٥).

قوله تعالى: ﴿ثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ ۝٣٩ وَثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْآخِرِينَ ۝٤٠﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال السعدي: «أي: هذا القسم -وهم أصحاب اليمين- عدد كثير من الأولين وعدد كثير من الآخرين»(١).

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في صفة أول زمرة تدخل الجنة

* عن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «**أول زمرة يدخلون الجنة على صورة القمر ليلة البدر، ثم الذين يلونهم على أشد كوكب دري في السماء إضاءة، لا يبولون ولا يتغوطون ولا يتفلون ولا يتمخطون، أمشاطهم الذهب، ورشحهم المسك، ومجامرهم الألُوّة، الألنجوج عود الطِّيب، وأزواجهم الحور العين، على خلق رجل واحد على صورة أبيهم آدم ستون ذراعًا في السماء**»(٢).

★ **فوائد الحديث:**

انظر شرح هذا الحديث في سورة (البقرة) الآية (٢٥).

* عن عمران قال: قال النبي ﷺ: «**يدخل الجنة من أمتي سبعون ألفًا بغير حساب**» قالوا: من هم يا رسول الله؟ قال: «**هم الذين لا يسترقون ولا يتطيرون ولا يكتوون وعلى ربهم يتوكلون**»(٣).

★ **فوائد الحديث:**

قال الإمام الطحاوي وهو يتحدث عن قوله تعالى: ﴿ثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ ۝١٣ وَقَلِيلٌ مِّنَ

---

(١) تيسير الكريم الرحمن (ص: ٨٣٤).

(٢) أخرجه: أحمد (٢/ ٢٣٢)، والبخاري (٦/ ٤٤٦/ ٣٣٢٧) واللفظ له، ومسلم (٤/ ٢١٧٩/ ٢٨٣٤[١٥])، والترمذي (٤/ ٥٨٥/ ٢٥٣٧) وقال: «هذا حديث صحيح»، وابن ماجه (٢/ ١٤٤٩/ ٤٣٣٣).

(٣) أخرجه: أحمد (٤/ ٤٣٦و٤٤٣)، ومسلم (١/ ١٩٨/ ٢١٨) واللفظ له.

﴿ٱلْءَاخِرِينَ ۝١٤﴾[(١)]، وقوله: ﴿ثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ ۝٣٩ وَثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْءَاخِرِينَ ۝٤٠﴾: «فتأملنا هاتين الآيتين فوجدنا الأولى منهما قد تقدمها قول اللّه تعالى: ﴿وَكُنتُمْ أَزْوَٰجًا ثَلَٰثَةً ۝٧ فَأَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ ۝٨ وَأَصْحَٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ ۝٩ وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلسَّٰبِقُونَ ۝١٠ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلْمُقَرَّبُونَ ۝١١﴾[(٢)]، فجعل المقرّبين أعلاهم رتبة، وأشرفهم منزلة، ووصفهم بالسبق، ثم أخبر أنهم ثلة من الأولين، كأنه جلّ وعزّ يعني ممن تقدّمهم من الأمم، وقليل من الآخرين.

ووجدنا الثانية منهما قد تقدّمها قوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَنشَأْنَٰهُنَّ إِنشَآءً ۝٣٥ فَجَعَلْنَٰهُنَّ أَبْكَارًا ۝٣٦ عُرُبًا أَتْرَابًا ۝٣٧ لِّأَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ ۝٣٨ ثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ ۝٣٩ وَثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْءَاخِرِينَ ۝٤٠﴾[(٣)]، وكان الذي في الأولى فمن قوله تعالى: ﴿وَقَلِيلٌ مِّنَ ٱلْءَاخِرِينَ ۝١٤﴾ على المقربين، والذي سبق في الآية الثانية فمن قوله: ﴿وَثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْءَاخِرِينَ ۝٤٠﴾ على أصحاب اليمين، وهم غير المقرّبين.

ووجدناه تعالى قد بين ذلك في آخر السورة التي فيها هاتان الآيتان بقوله: ﴿فَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ۝٨٨ فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّتُ نَعِيمٍ ۝٨٩ وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ ۝٩٠ فَسَلَٰمٌ لَّكَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ ۝٩١ وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُكَذِّبِينَ ٱلضَّآلِّينَ ۝٩٢ فَنُزُلٌ مِّنْ حَمِيمٍ ۝٩٣ وَتَصْلِيَةُ جَحِيمٍ ۝٩٤﴾[(٤)].

فعقلنا بذلك أن المقربين هم غير أصحاب اليمين، وأنهم أعلى الثلاث الفرق رتبة، وأعلاهم منزلة، وأنهم في العدد أقلّ من أصحاب اليمين، وهم المذكورون في الآية الأولى من الآيتين الأوليين، وأن المذكورين في الآية الثانية منهما هم أصحاب اليمين، وكان الزوجان جميعًا: المقربون، وأصحاب اليمين؛ هم أهل الجنة، إلا أن المقربين منهم أعلى فيها رتبةً وأشرف فيها منزلة من أصحاب اليمين. .

ثم طلبنا ما روي عن رسول اللّه في أمته التي تدخل الجنة كم هو ممن يدخل الجنة سواها؟ -ثم ذكر حديث عكاشة بسنده- ثم قال:

وذكر لنا أن رجالًا من المؤمنين تراجعوا فيهم، فقالوا: ما ترون عمل هؤلاء

---

(١) الواقعة: الآيتان (١٣و١٤).

(٢) الواقعة: الآيات (٧-١١).

(٣) الواقعة: الآيات (٣٥-٤٠).

(٤) الواقعة: الآيات (٨٨-٩٤).

السبعون ألفًا حتى صيّروا من أمرهم؟ فقالوا: هؤلاء ولدوا في الإسلام فلم يزالوا يعملون به حتى ماتوا، قال: «ليس كذلك، ولكنهم الذين لا يكتوون، ولا يسترقون، ولا يتطيرون، وعلى ربهم يتوكلون»»[1].

* * *

(١) شرح مشكل الآثار (١/ ٣٣٠-٣٣٣).

قوله تعالى: ﴿وَأَصْحَٰبُ ٱلشِّمَالِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلشِّمَالِ ۝٤١﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن كثير: «لما ذكر تعالى حال أصحاب اليمين، عطف عليهم بذكر أصحاب الشمال، فقال: ﴿وَأَصْحَٰبُ ٱلشِّمَالِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلشِّمَالِ ۝٤١﴾ أي: أيّ شيء هم أصحاب الشمال؟»(١).

وقال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره- معجِّبًا نبيَّه محمدًا من أهل النار: ﴿وَأَصْحَٰبُ ٱلشِّمَالِ﴾ الذين يؤخذ بهم ذات الشمال من موقف الحساب إلى النار، ﴿مَآ أَصْحَٰبُ ٱلشِّمَالِ﴾: ماذا لهم؟ وماذا أعدّ لهم؟»(٢).

* * *

(١) تفسير القرآن العظيم (٨/ ١٥).

(٢) جامع البيان (٢٧/ ١٩١).

قوله تعالى: ﴿فِي سَمُومٍ وَحَمِيمٍ ﴿٤٢﴾ وَظِلٍّ مِّن يَحْمُومٍ ﴿٤٣﴾ لَّا بَارِدٍ وَلَا كَرِيمٍ ﴿٤٤﴾﴾

★ **غريب الآية:**

سموم: السموم: الريح الحارة التي تدخل في مسام البدن.

حميم: الحميم: الماء الحار.

يحموم: اليحموم: دخان شديد السواد.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال أبو السعود: «قوله تعالى: ﴿فِي سَمُومٍ وَحَمِيمٍ ﴿٤٢﴾﴾ والسموم: حر نار ينفذ في المسام، والحميم: الماء المتناهي في الحرارة، ﴿وَظِلٍّ مِّن يَحْمُومٍ ﴿٤٣﴾﴾ من دخان أسود بهيم، ﴿لَّا بَارِدٍ﴾ كسائر الظلال، ﴿وَلَا كَرِيمٍ﴾ فيه خير ما في الجملة، سمي ذلك ظلاً، ثم نفي عنه وصفاه البرد والكرم الذي عبر به عن دفع أذى الحرّ؛ لتحقيق أنه ليس بظل»(١).

قال الرازي: «وفي الأمور الثلاثة إشارة إلى دونهم في العذاب دائمًا؛ لأنهم إن تعرضوا لمهب الهواء أصابهم الهواء الذي هو السموم، وإن استكنّوا كما يفعله الذي يدفع عن نفسه السموم بالاستكنان في الكن يكونوا في ظل من يحموم، وإن أرادوا الرد عن أنفسهم السموم بالاستكنان في مكان من حميم فلا انفكاك لهم من عذاب الحميم، ويحتمل أن يقال فيه ترتيب، وهو أن السموم يضربه فيعطش وتلتهب نار السموم في أحشائه، فيشرب الماء فيقطع أمعاءه، ويريد الاستظلال بظل فيكون ذلك الظل ظل اليحموم»(٢).

قال السعدي: «والمقصود أن هناك الهم والغم والحزن والشر الذي لا خير فيه؛

---

(١) إرشاد العقل السليم (٨/ ١٩٤).

(٢) مفاتيح الغيب (٢٩/ ١٦٩-١٧٠).

لأن نفي الضد إثبات لضده»[١].

وقوله: ﴿وَظِلٍّ مِّن يَحْمُومٍ ﴿٤٣﴾﴾: قال ابن كثير: «وهذه كقوله تعالى: ﴿ٱنطَلِقُوٓاْ إِلَىٰ مَا كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ ﴿٢٩﴾ ٱنطَلِقُوٓاْ إِلَىٰ ظِلٍّ ذِى ثَلَٰثِ شُعَبٍ ﴿٣٠﴾ لَّا ظَلِيلٍ وَلَا يُغْنِى مِنَ ٱللَّهَبِ ﴿٣١﴾ إِنَّهَا تَرْمِى بِشَرَرٍ كَٱلْقَصْرِ ﴿٣٢﴾ كَأَنَّهُۥ جِمَٰلَتٌ صُفْرٌ ﴿٣٣﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٣٤﴾﴾[٢]، ولهذا قال ههنا: ﴿وَظِلٍّ مِّن يَحْمُومٍ ﴿٤٣﴾﴾ وهو الدخان الأسود»[٣].

* * *

---

(١) تيسير الكريم الرحمن (ص: ٨٣٤).

(٢) المرسلات: الآيات (٢٩-٣٤).

(٣) تفسير القرآن العظيم (٨/ ١٥).

قوله تعالى: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَٰلِكَ مُتْرَفِينَ ﴿٤٥﴾﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال أبو السعود: «قوله تعالى: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَٰلِكَ مُتْرَفِينَ ﴿٤٥﴾﴾ تعليل لابتلائهم بما ذكر من العذاب، أي: إنهم كانوا قبل ما ذكر من سوء العذاب في الدنيا منعّمين بأنواع النعم من المآكل والمشارب، والمساكن الطيبة، والمقامات الكريمة، منهمكين في الشهوات، فلا جرم عُذِّبوا بنقائضها»[١].

قال ابن كثير: «أي: كانوا في الدار الدنيا منعّمين مقبلين على لذّات أنفسهم، لا يلوون على ما جاءتهم به الرسل»[٢].

قال الرازي: «فإن قيل: ما الحكمة في بيان سبب كونهم في العذاب مع أنه تعالى لم يذكر سبب كون أصحاب اليمين في النعيم، ولم يقل: إنهم كانوا قبل ذلك شاكرين مذعنين؟

فنقول: قد ذكرنا مرارًا أن اللَّه تعالى عند إيصال الثواب لا يذكر أعمال العباد الصالحة، وعند إيصال العقاب يذكر أعمال المسيئين؛ لأن الثواب فضل والعقاب عدل، والفضل سواء ذكر سببه أو لم يذكر، لا يتوهم في المتفضل به نقص وظلم، وأما العدل، فإن لم يعلم سبب العقاب، يظن أن هناك ظلمًا، فقال: هم فيها بسبب ترفهم، والذي يؤيد هذه اللطيفة أن اللَّه تعالى قال في حق السابقين: ﴿جَزَآءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾[٣]، ولم يقل في حق أصحاب اليمين ذلك؛ لأنا أشرنا أن أصحاب اليمين هم الناجون بالفضل العظيم. . وإذا كان كذلك، فالفضل في حقهم متمحض، فقال: هذه النعم لكم، ولم يقل: جزاء؛ لأن قوله: ﴿جَزَآءً﴾ في مثل هذا الموضع، وهو موضع العفو عنهم لا يثبت لهم سرورًا، بخلاف من كثرت حسناته، فيقال له:

---

(١) إرشاد العقل السليم (٨/ ١٩٤-١٩٥).

(٢) تفسير القرآن العظيم (٨/ ١٥).

(٣) الواقعة: الآية (٢٤).

نعم ما فعلت، خذ هذا لك جزاء».

وقال أيضًا: «جعل السبب كونهم مترفين، وليس كل من هو من أصحاب الشمال يكون مترفًا، فإن فيهم من يكون فقيرًا؟

نقول: قوله تعالى: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَٰلِكَ مُتْرَفِينَ ۝٤٥﴾ ليس بذم؛ فإن المترف هو الذي جعل ذا ترف، أي: نعمة، فظاهر ذلك لا يوجب ذمًّا؛ لكن ذلك يبين قبح ما ذكر عنهم بعده، وهو قوله تعالى: ﴿وَكَانُوا يُصِرُّونَ﴾[1]؛ لأن صدور الكفران ممن عليه غاية الإنعام أقبح القبائح فقال: إنهم كانوا مترفين ولم يشكروا نعم الله؛ بل أصرّوا على الذنب»[2].

* * *

(١) الواقعة: الآية (٤٦).

(٢) مفاتيح الغيب (٢٩/ ١٧١).

قوله تعالى: ﴿وَكَانُوا۟ يُصِرُّونَ عَلَى ٱلْحِنثِ ٱلْعَظِيمِ ۝٤٦﴾

★ غريب الآية:

الحنث: الذنب العظيم، وهو هنا: الكفر؛ لأنه أعظم الآثام والذنوب.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن كثير: «﴿وَكَانُوا۟ يُصِرُّونَ﴾ أي: يصممون ولا ينوون توبة، ﴿عَلَى ٱلْحِنثِ ٱلْعَظِيمِ﴾ وهو الكفر بالله وجعل الأوثان والأنداد أربابًا من دون الله»[(١)].

قال الرازي: «قوله تعالى: ﴿وَكَانُوا۟ يُصِرُّونَ عَلَى ٱلْحِنثِ ٱلْعَظِيمِ ۝٤٦﴾ فيه مبالغات من وجوه:

أحدها: قوله تعالى: ﴿وَكَانُوا۟ يُصِرُّونَ﴾، وهو آكد من قول القائل: إنهم قبل ذلك أصرّوا؛ لأن اجتماع لفظي الماضي والمستقبل يدل على الاستمرار؛ لأن قولنا: فلان كان يحسن إلى الناس، يفيد كون ذلك عادة له.

ثانيها: لفظ الإصرار؛ فإن الإصرار مداومة المعصية والغلول، ولا يقال في الخير: أصرّ.

ثالثها: الحنث؛ فإنه فوق الذنب؛ فإن الحنث لا يكاد في اللغة يقع على الصغيرة، والذنب يقع عليها، وأما الحنث في اليمين فاستعملوه؛ لأن نفس الكذب عند العقلاء قبيح؛ فإن مصلحة العالم منوطة بالصدق، وإلا لم يحصل لأحد بقول أحد ثقة، فلا يبنى على كلامه مصالح، ولا يجتنب عن مفاسد، ثم إن الكذب لما وجد في كثير من الناس لأغراض فاسدة أرادوا توكيد الأمر بضم شيء إليه يدفع توهمه، فضموا إليه الأيمان ولا شيء فوقها، فإذا حنث لم يبق أمر يفيد الثقة، فيلزم منه فساد فوق فساد الزنا والشرب، غير أن اليمين إذا كانت على أمر مستقبل، ورأى الحالف غيره جوز الشرع الحنث، ولم يجوزه في الكبيرة كالزنا والقتل لكثرة وقوع

---

(١) تفسير القرآن العظيم (٨/ ١٥).

الأيمان وقلة وقوع القتل، والذي يدل على أن الحنث هو الكبيرة قولهم للبالغ: بلغ الحنث، أي: بلغ مبلغًا بحيث يرتكب الكبيرة، وقبله ما كان ينفي عنه الصغيرة؛ لأن الولي مأمور بالمعاقبة على إساءة الأدب وترك الصلاة»[1].

* * *

(١) مفاتيح الغيب (٢٩/ ١٧٢).

قوله تعالى: ﴿وَكَانُوا يَقُولُونَ أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴿٤٧﴾ أَوَ آبَاؤُنَا الْأَوَّلُونَ ﴿٤٨﴾ قُلْ إِنَّ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ ﴿٤٩﴾ لَمَجْمُوعُونَ إِلَىٰ مِيقَاتِ يَوْمٍ مَعْلُومٍ ﴿٥٠﴾﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره-: وكانوا يقولون كفرًا منهم بالبعث، وإنكارًا لإحياء اللَّه خلقه من بعد مماتهم: أئذا كنا ترابًا في قبورنا من بعد مماتنا، وعظامًا نخرة، أئنّا لمبعوثون منها أحياءً كما كنّا قبل الممات، أو آباؤنا الأولون الذين كانوا قبلنا، وهم الأولون، يقول اللَّه لنبيه محمد ﷺ: قل -يا محمد- لهؤلاء: إن الأولين من آبائكم والآخرين منكم ومن غيركم، لمجموعون إلى ميقات يوم معلوم، وذلك يوم القيامة»[1].

قال الشنقيطي: «لما ذكر -جل وعلا- ما أعدّ لأصحاب الشمال من العذاب، بيّن بعض أسبابه، فذكر منها أنهم كانوا قبل ذلك في دار الدنيا مترفين، أي: متنعمين، وقد قدمنا أن القرآن دلّ على أن الإتراف والتنعم والسرور في الدنيا من أسباب العذاب يوم القيامة؛ لأن صاحبه معرض عن اللَّه لا يؤمن به ولا برسله، كما دلت عليه هذه الآية الكريمة، وقوله تعالى: ﴿فَسَوْفَ يَدْعُوا ثُبُورًا ﴿١١﴾ وَيَصْلَىٰ سَعِيرًا ﴿١٢﴾ إِنَّهُ كَانَ فِي أَهْلِهِ مَسْرُورًا ﴿١٣﴾﴾[2]..

وما دلت عليه هذه الآية الكريمة من كون إنكار البعث سببًا لدخول النار؛ لأن قوله تعالى لما ذكر أنهم في سموم وحميم وظل من يحموم، بيّن أن من أسباب ذلك أنهم قالوا: ﴿أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا﴾ الآية، جاء موضحًا في آيات كثيرة، كقوله تعالى: ﴿۞ وَإِن تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ أَئِذَا كُنَّا تُرَابًا أَئِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ أُولَٰئِكَ

---

(١) جامع البيان (٢٧/ ١٩٤).

(٢) الانشقاق: الآيات (١١-١٣).

ﱡٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمْۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ ٱلۡأَغۡلَٰلُ فِيٓ أَعۡنَاقِهِمۡۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٥﴾ﱠ[1] . .

وما ذكره -جل وعلا- في هذه الآية الكريمة من إنكارهم بعث آبائهم الأولين في قوله: ﱡأَوَ ءَابَآؤُنَا ٱلۡأَوَّلُونَﱠ، وأنه تعالى بيّن لهم أنه يبعث الأولين والآخرين في قوله: ﱡقُلۡ إِنَّ ٱلۡأَوَّلِينَ وَٱلۡأٓخِرِينَ ﴿٤٩﴾ لَمَجۡمُوعُونَ إِلَىٰ مِيقَٰتِ يَوۡمٖ مَّعۡلُومٖ ﴿٥٠﴾ﱠ جاء موضحًا في غير هذا الموضع، فبينا فيه أن البعث الذي أنكروا سيتحقق في حال كونهم أذلاّء صاغرين، وذلك في قوله تعالى في (الصافات): ﱡوَقَالُوٓاْ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّا سِحۡرٞ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ أَءِذَا مِتۡنَا وَكُنَّا تُرَابٗا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبۡعُوثُونَ ﴿١٦﴾ أَوَ ءَابَآؤُنَا ٱلۡأَوَّلُونَ ﴿١٧﴾ قُلۡ نَعَمۡ وَأَنتُمۡ دَٰخِرُونَ ﴿١٨﴾ فَإِنَّمَا هِيَ زَجۡرَةٞ وَٰحِدَةٞ فَإِذَا هُمۡ يَنظُرُونَ ﴿١٩﴾ﱠ[2]»[3].

وقال أيضًا: «وما تضمنته هذه الآية الكريمة من بعث الأولين والآخرين وجمعهم يوم القيامة، جاء موضحًا في آيات كثيرة، كقوله: ﱡيَوۡمَ يَجۡمَعُكُمۡ لِيَوۡمِ ٱلۡجَمۡعِۖ ذَٰلِكَ يَوۡمُ ٱلتَّغَابُنِۗﱠ[4]، وقوله تعالى: ﱡٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۚ لَيَجۡمَعَنَّكُمۡ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِﱠ[5]، وقوله تعالى: ﱡرَبَّنَآ إِنَّكَ جَامِعُ ٱلنَّاسِ لِيَوۡمٖ لَّا رَيۡبَ فِيهِۚﱠ[6] الآية، وقوله تعالى: ﱡذَٰلِكَ يَوۡمٞ مَّجۡمُوعٞ لَّهُ ٱلنَّاسُﱠ[7]، وقوله تعالى: ﱡهَٰذَا يَوۡمُ ٱلۡفَصۡلِۖ جَمَعۡنَٰكُمۡ وَٱلۡأَوَّلِينَ ﴿٣٨﴾ﱠ[8]، وقوله تعالى: ﱡوَحَشَرۡنَٰهُمۡ فَلَمۡ نُغَادِرۡ مِنۡهُمۡ أَحَدٗاﱠ[9]»[10].

وقال ابن كثير: «كما قال تعالى: ﱡذَٰلِكَ يَوۡمٞ مَّجۡمُوعٞ لَّهُ ٱلنَّاسُ وَذَٰلِكَ يَوۡمٞ مَّشۡهُودٞ ﴿١٠٣﴾ وَمَا نُؤَخِّرُهُۥٓ إِلَّا لِأَجَلٖ مَّعۡدُودٖ ﴿١٠٤﴾ يَوۡمَ يَأۡتِ لَا تَكَلَّمُ نَفۡسٌ إِلَّا بِإِذۡنِهِۦۚ فَمِنۡهُمۡ شَقِيّٞ وَسَعِيدٞﱠ[11]، ولهذا قال ههنا: ﱡلَمَجۡمُوعُونَ إِلَىٰ مِيقَٰتِ يَوۡمٖ مَّعۡلُومٖ ﴿٥٠﴾ﱠ أي: هو موقت بوقت محدد، لا يتقدم ولا يتأخر، ولا يزيد ولا ينقص»[12].

قال الرازي: «قوله تعالى: ﱡإِلَىٰ مِيقَٰتِ يَوۡمٖ مَّعۡلُومٍﱠ فإنه يدل على أن الله تعالى

---

(١) الرعد: الآية (٥).
(٢) الصافات: الآيات (١٥-١٩).
(٣) أضواء البيان (٧/ ٧٧٧-٧٧٨).
(٤) التغابن: الآية (٩).
(٥) النساء: الآية (٨٧).
(٦) آل عمران: الآية (٩).
(٧) هود: الآية (١٠٣).
(٨) المرسلات: الآية (٣٨).
(٩) الكهف: الآية (٤٧).
(١٠) أضواء البيان (٧/ ٧٨٣).
(١١) هود: الآيات (١٠٣-١٠٥).
(١٢) تفسير القرآن العظيم (٨/ ١٦).

يجمعهم في يوم واحد معلوم، واجتماع عدد من الأموات لا يعلم عددهم إلا اللَّه تعالى في وقت واحد أعجب من نفس البعث، وهذا كقوله تعالى في سورة (الصافات): ﴿فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ﴾[(١)] أي: أنتم تستبعدون نفس البعث، والأعجب من هذا أنه يبعثهم بزجرة واحدة، أي: صيحة واحدة ﴿فَإِذَا هُمْ يَنظُرُونَ﴾، أي: يبعثون مع زيادة أمر، وهو فتح أعينهم ونظرهم، بخلاف من نعس فإنه إذا انتبه يبقى ساعة ثم ينظر في الأشياء، فأمر الإحياء عند اللَّه تعالى أهون من تنبيه نائم»[(٢)].

* * *

(١) الصافات: الآية (١٩).

(٢) مفاتيح الغيب (٢٩/ ١٧٤).

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ أَيُّهَا الضَّالُّونَ الْمُكَذِّبُونَ ﴿٥١﴾ لَآكِلُونَ مِن شَجَرٍ مِّن زَقُّومٍ ﴿٥٢﴾ فَمَالِئُونَ مِنْهَا الْبُطُونَ﴾

★ **غريب الآية:**

زقوم: الزقوم: ثمر كريه. ومنه قيل: تَزَقَّمَ فلان، أي: بلع شيئًا كريهًا.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره- لأصحاب الشمال: ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ أَيُّهَا الضَّالُّونَ﴾ عن طريق الهدى، ﴿الْمُكَذِّبُونَ﴾ بوعيد اللَّه ووعده، لآكلون من شجر من زقوم.

وقوله: ﴿فَمَالِئُونَ مِنْهَا الْبُطُونَ﴾ يقول: فمالئون من الشجر الزّقّوم بطونهم»[1].

* * *

(١) جامع البيان (٢٧/ ١٩٤).

قوله تعالى: ﴿فَشَٰرِبُونَ عَلَيۡهِ مِنَ ٱلۡحَمِيمِ ۝٥٤ فَشَٰرِبُونَ شُرۡبَ ٱلۡهِيمِ ۝٥٥﴾

⋆ غريب الآية:

الهيم: الإبل العطاش التي لا تروى لداء يُصِيبُهَا.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال الرازي: «﴿فَشَٰرِبُونَ عَلَيۡهِ﴾ أي: عقيب الأكل تجر مرارته وحرارته إلى شرب الماء، فيشربون على ذلك المأكول وعلى ذلك الزقوم من الماء الحار، وقد تقدم بيان الحميم، وقوله: ﴿فَشَٰرِبُونَ شُرۡبَ ٱلۡهِيمِ ۝٥٥﴾ بيان أيضًا لزيادة العذاب، أي: لا يكون أمركم أمر من شرب ماءً حارًّا منتنًا فيمسك عنه، بل يلزمكم أن تشربوا منه مثل ما تشرب الهيم، وهي الجمال التي أصلبها العطش فتشرب ولا تروى، وهذا البيان في الشرب لزيادة العذاب»[1].

* * *

(١) مفاتيح الغيب (٢٩/ ١٧٦).

قوله تعالى: ﴿هَٰذَا نُزُلُهُمْ يَوْمَ ٱلدِّينِ ۝٥٦﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال الرازي: «يعني: ليس هذا كل العذاب، بل هذا أول ما يلقونه، وهو بعض منه وأقطع لأمعائهم»(١).

قال القاسمي: «فيه مبالغة بديعة؛ لأن النزل ما يعدّ للقادم عاجلًا إذا نزل، ثم يؤتى بعده بما هو المقصود من أنواع الكرامة، فلما جعل هذا، مع أنه أمر مهول، كالنزل، دلّ على أن بعده ما لا يطيق البيان شرحه. وجعله نزلًا، مع أنه ما يكرم به النازل، متهكمًا، كما في قوله:

وكنّا إذا الجبّار بالجيش ضافَنا جعلنا القنا والمرهفات له نُزْلا» (٢).

قال ابن كثير: «﴿هَٰذَا نُزُلُهُمْ يَوْمَ ٱلدِّينِ ۝٥٦﴾ أي: هذا الذي وصفنا هو ضيافتهم عند ربهم يوم حسابهم، كما قال تعالى في حق المؤمنين: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلْفِرْدَوْسِ نُزُلًا ۝١٠٧﴾(٣) أي: ضيافة وكرامة»(٤).

قال الشنقيطي: «وربما استعملت العرب النزول في ضد ذلك على سبيل التهكم والاحتقار، وجاء القرآن باستعمال النزول فيما يقدم لأهل النار من العذاب كقوله هنا في عذابهم المذكور في قولهم: ﴿لَأَكِلُونَ مِن شَجَرٍ مِّن زَقُّومٍ ۝٥٢﴾ إلى قوله: ﴿شُرْبَ ٱلْهِيمِ ۝٥٥ هَٰذَا نُزُلُهُمْ﴾ أي: هذا العذاب المذكور هو ضيافتهم ورزقهم المقدم لهم عند نزولهم في دارهم التي هي النار، كقوله تعالى للكافر الحقير الذليل: ﴿ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْكَرِيمُ﴾(٥).

وما تضمنته هذه الآية الكريمة من إطلاق النزول على عذاب أهل النار، جاء موضحًا في غير هذا الموضع كقوله في آخر هذه السورة الكريمة: ﴿فَنُزُلٌ مِّنْ حَمِيمٍ

---

(١) مفاتيح الغيب (٢٩/ ١٧٦).
(٢) محاسن التأويل (١٦/ ١٤).
(٣) الكهف: الآية (١٠٧).
(٤) تفسير القرآن العظيم (٨/ ١٦).
(٥) الدخان: الآية (٤٩).

﴿٩٣﴾ وَتَصْلِيَةُ جَحِيمٍ ﴿٩٤﴾﴾[١]، وقوله تعالى في آخر (الكهف): ﴿إِنَّآ أَعْتَدْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَٰفِرِينَ نُزُلًا﴾[٢]، ونظير ذلك من كلام العرب قول أبي السعد الضبي:

وكنّا إذا الجبّار بالجيش ضافَنا ... جعلنا القنا والمرهفات له نُزلا

وقوله: ﴿يَوْمَ ٱلدِّينِ﴾ أي: يوم الجزاء كما تقدم مرارًا»[٣].

* * *

(١) الواقعة: الآيتان (٩٣و٩٤).
(٢) الكهف: الآية (١٠٢).
(٣) أضواء البيان (٧/ ٧٨٣-٧٨٤).

قوله تعالى: ﴿نَحْنُ خَلَقْنَٰكُمْ فَلَوْلَا تُصَدِّقُونَ ۝٥٧﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن كثير: «يقول تعالى مقرّرًا للمعاد، وردًّا على المكذّبين به من أهل الزيغ والإلحاد من الذين قالوا: ﴿أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ﴾[١]، وقولهم ذلك صدر منهم على وجه التكذيب والاستبعاد. فقال تعالى: ﴿نَحْنُ خَلَقْنَٰكُمْ﴾ أي: نحن ابتدأنا خلقكم بعد أن لم تكونوا شيئًا مذكورًا، أفليس الذي قدر على البداءة بقادر على الإعادة بطريق الأولى والأحرى؟ ولهذا قال: ﴿فَلَوْلَا تُصَدِّقُونَ﴾ أي: فهلاّ تصدّقون بالبعث»[٢].

قال الشنقيطي: «وهذا البرهان على البعث بدلالة الخلق الأول على الخلق الثاني، جاء موضحًا في آيات كثيرة جدًّا كقوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾[٣]، وقوله: ﴿كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ وَعْدًا عَلَيْنَآ إِنَّا كُنَّا فَٰعِلِينَ﴾[٤]، وقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّنَ ٱلْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن تُرَابٍ﴾[٥]، وقوله تعالى: ﴿قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾[٦]، وقوله تعالى: ﴿فَسَيَقُولُونَ مَن يُعِيدُنَا قُلِ ٱلَّذِى فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾[٧]، والآيات بمثل هذا كثيرة معلومة..

وقوله تعالى في هذه الآية: ﴿فَلَوْلَا تُصَدِّقُونَ﴾، (لولا) حرف تحضيض، ومعناه: الطلب بحثّ وشدة، فالآية تدل على شدة حثّ اللّه للكفار وحضه لهم على التصديق بالبعث؛ لظهور برهانه القاطع الذي هو خلقه لهم أولًا»[٨].

* * *

---

(١) الواقعة: الآية (٤٧).
(٢) تفسير القرآن العظيم (٨/ ١٦).
(٣) الروم: الآية (٢٧).
(٤) الأنبياء: الآية (١٠٤).
(٥) الحج: الآية (٥).
(٦) يس: الآية (٧٩).
(٧) الإسراء: الآية (٥١).
(٨) أضواء البيان (٧/ ٧٨٤-٧٨٥).

قوله تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتُم مَّا تُمْنُونَ ﴿٥٨﴾ ءَأَنتُمْ تَخْلُقُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلْخَٰلِقُونَ ﴿٥٩﴾﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره- لهؤلاء المكذّبين بالبعث: أفرأيتم أيها المنكرون قدرة اللَّه على إحيائكم من بعد مماتكم النطف التي تمنون في أرحام نسائكم، أأنتم تخلقون تلك أم نحن الخالقون»[١].

قال الرازي: «ثم قال تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتُم مَّا تُمْنُونَ ﴿٥٨﴾﴾ من تقرير قوله تعالى: ﴿نَحْنُ خَلَقْنَٰكُمْ﴾؛ وذلك لأنه تعالى لما قال: ﴿نَحْنُ خَلَقْنَٰكُمْ﴾ قال الطبيعيون: نحن موجودون من نطف الخلق بجواهر كامنة، وقبل كل واحد نطفة واحد، فقال تعالى ردًّا عليهم: هل رأيتم هذا المني وأنه جسم ضعيف متشابه الصورة لا بد له من مكوّن، فأنتم خلقتم النطفة أم غيركم خلقها؟ ولا بد من الاعتراف بخالق غير مخلوق قطعًا للتسلسل الباطل، وإلى ربنا المنتهى، ولا يرتاب فيه أحد من أول ما خلق اللَّه النطفة وصوّرها وأحياها ونورها، فلم لا تصدقون أنه واحد أحد صمد قادر على الأشياء؟ فإنه يعيدكم كما أنشأكم في الابتداء، والاستفهام يفيد زيادة تقرير، وقد علمت ذلك مرارًا»[٢].

قال الشنقيطي: «تنبيه: هذا البرهان الدال على البعث الذي هو خلق الإنسان من نطفة مني تمنى، يجب على كل إنسان النظر فيه؛ لأن اللَّه -جل وعلا- وجه صفة الأمر بالنظر فيه إلى مني الإنسان، والأصل في صيغة الأمر على التحقيق الوجوب إلا لدليل صارف عنه، وذلك في قوله تعالى: ﴿فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ مِمَّ خُلِقَ ﴿٥﴾ خُلِقَ مِن مَّآءٍ دَافِقٍ ﴿٦﴾﴾[٣] الآية»[٤].

* * *

(١) جامع البيان (٢٧/ ١٩٦).
(٢) مفاتيح الغيب (٢٩/ ١٧٧).
(٣) الطارق: الآيتان (٥و٦).
(٤) أضواء البيان (٧/ ٧٨٦).

قوله تعالى: ﴿نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ ٱلْمَوْتَ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ ﴿٦٠﴾ عَلَىٰٓ أَن نُّبَدِّلَ أَمْثَٰلَكُمْ وَنُنشِئَكُمْ فِى مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦١﴾﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال السمرقندي: «﴿نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ ٱلْمَوْتَ﴾ يعني: نحن قسمنا بينكم الآجال، فمنكم من يموت صغيرًا، ومنكم من يموت شابًّا، ومنكم من يموت شيخًا.. ﴿وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ ﴿٦٠﴾ عَلَىٰٓ أَن نُّبَدِّلَ أَمْثَٰلَكُمْ﴾ يعني: وما نحن بعاجزين إن أردنا أن نأتي بخلق مثلكم وأمثل منكم وأطوع لله تعالى، ﴿وَنُنشِئَكُمْ فِى مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ يعني: ونخلقكم سوى خلقكم من الصور فيما لا تعلمون من الصور، مثل القردة والخنازير، ويقال: وما نحن بعاجزين على أن نرد أرواحكم إلى أجسامكم بعد الموت»[١].

قال الشنقيطي: «وقد قدمنا في ترجمة هذا الكتاب المبارك أن الآية الكريمة قد يكون فيها وجهان أو أكثر من التفسير، ويكون كل ذلك صحيحًا، وكله يشهد له قرآن، فنذكر الجميع وأدلته من القرآن، ومن ذلك هذه الآية الكريمة.

وإيضاح ذلك أن لقوله: ﴿قَدَّرْنَا﴾ وجهين من التفسير، وفيما تتعلق به ﴿عَلَىٰٓ أَن نُّبَدِّلَ﴾ وجهان أيضًا، فقال بعض العلماء، وهو اختيار ابن جرير، أن قوله: ﴿نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ ٱلْمَوْتَ﴾ أي: قدّرنا لموتكم آجالًا مختلفة وأعمارًا متفاوتة، فمنكم من يموت صغيرًا ومنكم من يموت شابًّا، ومنكم من يموت شيخًا.

وهذا المعنى دلت عليه آيات كثيرة من كتاب اللَّه كقوله تعالى: ﴿ثُمَّ لِتَبْلُغُوٓا۟ أَشُدَّكُمْ ۖ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرْذَلِ ٱلْعُمُرِ﴾[٢]، وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ لِتَبْلُغُوٓا۟ أَشُدَّكُمْ ثُمَّ لِتَكُونُوا۟ شُيُوخًا ۚ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ مِن قَبْلُ ۖ وَلِتَبْلُغُوٓا۟ أَجَلًا مُّسَمًّى وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾[٣]، وقوله تعالى: ﴿وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٍ وَلَا يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِۦٓ إِلَّا فِى

(١) بحر العلوم (٣/ ٣١٨).
(٢) الحج: الآية (٥).
(٣) غافر: الآية (٦٧).

كِتَٰبٍ﴾(١)، وقوله تعالى: ﴿وَلَن يُؤَخِّرَ ٱللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَآءَ أَجَلُهَا﴾(٢)، وقوله: ﴿وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ﴾ أي: ما نحن بمغلوبين، والعرب تقول: سبقه على كذا، أي: غلبه عليه وأعجزه عن إدراكه، أي: وما نحن بمغلوبين على ما قدرنا من آجالكم وحددناه من أعماركم، فلا يقدر أحد أن يقدم أجلًا أخرناه ولا يؤخّر أجلًا قدمناه.

وهذا المعنى دلّت عليه آيات كثيرة كقوله تعالى: ﴿فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾(٣)، وقوله تعالى: ﴿إِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ إِذَا جَآءَ لَا يُؤَخَّرُ﴾(٤) الآية، وقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ كِتَٰبًا مُّؤَجَّلًا﴾(٥) إلى غير ذلك من الآيات.

وعلى هذا القول، فقوله تعالى: ﴿عَلَىٰٓ أَن نُّبَدِّلَ أَمْثَٰلَكُمْ﴾ ليس متعلقًا بـ(مسبوقين)، بل بقوله تعالى: ﴿نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ ٱلْمَوْتَ﴾، والمعنى: نحن قدرنا بينكم الموت على أن نبدل أمثالكم، أي: نبدل من الذين ماتوا أمثالًا لهم نوجدهم.

وعلى هذا، فمعنى تبديل أمثالهم إيجاد آخرين من ذرية أولئك الذين ماتوا، وهذا المعنى تشهد له آيات من كتاب اللَّه كقوله تعالى: ﴿إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَسْتَخْلِفْ مِنۢ بَعْدِكُم مَّا يَشَآءُ كَمَآ أَنشَأَكُم مِّن ذُرِّيَّةِ قَوْمٍ ءَاخَرِينَ﴾(٦) إلى غير ذلك من الآيات.

وهذا التفسير هو اختيار ابن جرير، وقراءة ﴿قَدَّرْنَا﴾ بالتشديد مناسبة لهذا الوجه، وكذلك لفظة ﴿بَيْنَكُمُ﴾.

الوجه الثاني: أن ﴿قَدَّرْنَا﴾ بمعنى: قضينا وكتبنا، أي: كتبنا الموت وقدّرناه على جميع الخلق، وهذا الوجه تشهد له آيات من كتاب اللَّه كقوله تعالى: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ﴾(٧)، وقوله تعالى: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ﴾(٨)، وقوله تعالى: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْحَيِّ ٱلَّذِى لَا يَمُوتُ﴾(٩)، وعلى هذا القول فقوله: ﴿عَلَىٰٓ أَن نُّبَدِّلَ أَمْثَٰلَكُمْ﴾: متعلق بـ(مسبوقين)، أي: ما نحن مغلوبين، والمعنى: وما نحن

(١) فاطر: الآية (١١).
(٢) المنافقون: الآية (١١).
(٣) الأعراف: الآية (٣٤).
(٤) نوح: الآية (٤).
(٥) آل عمران: الآية (١٤٥).
(٦) الأنعام: الآية (١٣٣).
(٧) القصص: الآية (٨٨).
(٨) آل عمران: الآية (١٨٥).
(٩) الفرقان: الآية (٥٨).

بمغلوبين على أن نبدل أمثالكم إن أهلكناكم لو شئنا فنحن قادرون على إهلاككم، ولا يوجد أحد يغلبنا ويمنعنا من خلق أمثالكم بدلًا منكم.

وهذا المعنى تشهد له آيات من كتاب اللَّه كقوله تعالى: ﴿إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ أَيُّهَا النَّاسُ وَيَأْتِ بِآخَرِينَ وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ ذَٰلِكَ قَدِيرًا ﴿١٣٣﴾﴾[1]، وقوله تعالى: ﴿إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَسْتَخْلِفْ مِن بَعْدِكُم مَّا يَشَاءُ﴾[2]، وقوله تعالى: ﴿إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٩﴾ وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ﴾[3]، وقوله تعالى: ﴿وَإِن تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَالَكُم﴾[4]، وقد قدمنا هذا في سورة (النساء) في الكلام على قوله تعالى: ﴿إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ أَيُّهَا النَّاسُ﴾ الآية. وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة: ﴿وَنُنشِئَكُمْ فِي مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾، فيه للعلماء أقوال متقاربة، قال بعضهم: ننشئكم بعد إهلاككم فيما لا تعلمونه من الصور والهيئات، كأن ننشئكم قردة وخنازير، كما فعلنا ببعض المجرمين قبلكم.

وقال بعضهم: ننشئكم فيما لا تعلمونه من الصفات، فنغير صفاتكم ونجمل المؤمنين ببياض الوجوه، ونقبح الكافرين بسواد الوجوه وزرقة العيون، إلى غير ذلك من الأقوال»[5].

* * *

(١) النساء: الآية (١٣٣).

(٢) الأنعام: الآية (١٣٣).

(٣) إبراهيم: الآيتان (١٩و٢٠).

(٤) محمد: الآية (٣٨).

(٥) أضواء البيان (٧/ ٧٨٧-٧٨٩).

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْأُولَىٰ فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٦٢﴾﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول تعالى: ولقد علمتم أيها الناس الإحداثة الأولى التي أحدثناكموها، ولم تكونوا من قبل ذلك شيئًا.. ﴿فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ﴾ يقول -تعالى ذكره-: فهلاّ تذكرون أيها الناس، فتعلموا أن الذي أنشأكم النشأة الأولى ولم تكونوا شيئًا، لا يتعذر عليه أن يعيدكم من بعد مماتكم وفنائكم أحياءً»[1].

وقال ابن كثير: «قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْأُولَىٰ فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٦٢﴾﴾ أي: قد علمتم أن الله أنشأكم بعد أن لم تكونوا شيئًا مذكورًا، فخلقكم وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة، فهلاّ تتذكرون وتعرفون أن الذي قدر على هذه النشأة -وهي البَداءة- قادر على النشأة الأخرى، وهي الإعادة بطريق الأولى والأحرى، كما قال: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾[2]، وقال: ﴿أَوَلَا يَذْكُرُ ٱلْإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقْنَٰهُ مِن قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْـًٔا ﴿٦٧﴾﴾[3]، ﴿أَوَلَمْ يَرَ ٱلْإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقْنَٰهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ﴿٧٧﴾ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِىَ خَلْقَهُۥ ۖ قَالَ مَن يُحْىِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِىَ رَمِيمٌ ﴿٧٨﴾ قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴿٧٩﴾﴾[4]، وقال تعالى: ﴿أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَن يُتْرَكَ سُدًى ﴿٣٦﴾ أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِىٍّ يُمْنَىٰ ﴿٣٧﴾ ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ ﴿٣٨﴾ فَجَعَلَ مِنْهُ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰٓ ﴿٣٩﴾ أَلَيْسَ ذَٰلِكَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْۦِىَ ٱلْمَوْتَىٰ ﴿٤٠﴾﴾[5]»[6].

قال ابن القيم: «تأمل قوله تعالى في (الواقعة): ﴿أَفَرَءَيْتُم مَّا تُمْنُونَ ﴿٥٨﴾ ءَأَنتُمْ تَخْلُقُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلْخَٰلِقُونَ ﴿٥٩﴾ نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ ٱلْمَوْتَ﴾[7] كيف ذكر مبدأ النشأة وآخرها

---

(١) جامع البيان (٢٧/ ١٩٧-١٩٨).

(٢) الروم: الآية (٢٧).

(٣) مريم: الآية (٦٧).

(٤) يس: الآيات (٧٧-٧٩).

(٥) القيامة: الآيات (٣٦-٤٠).

(٦) تفسير القرآن العظيم (٨/ ١٧).

(٧) الواقعة: الآيات (٥٨-٦٠).

مستدلاً بها على النشأة الثانية بقوله: ﴿وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ ۝ عَلَىٰٓ أَن نُّبَدِّلَ أَمْثَٰلَكُمْ وَنُنشِئَكُمْ فِى مَا لَا تَعْلَمُونَ ۝﴾[1]، فإنكم إنما علمتكم النشأة الأولى في بطون أمهاتكم ومبدأها مما تمنون، ولن نغلب على أن ننشئكم نشأة ثانية فيما لا تعلمون، فإذا أنتم أمثال ما كنتم في الدنيا في صوركم وهيئاتكم، وهذا من كمال قدرة الرب تعالى ومشيئته، لو تذكرتم أحوال النشأة الأولى لدلّكم ذلك على قدرة منشئها على النشأة التي كذّبتم بها، فأي استدلال وإرشاد أحسن من هذا وأقرب إلى العقل والفهم، وأبعد من كل شبهة وشك؟»[2].

* * *

(١) الواقعة: الآيتان (٦٠و٦١).

(٢) التبيان في أقسام القرآن (ص: ١٢٠).

قوله تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ ۝٦٣ ءَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلزَّٰرِعُونَ ۝٦٤﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال البقاعي: «ولما كان علمهم بأمر النبات الذي هو الآية العظمى لإعادة الأموات أعظم من علمهم بجميع ما مضى، وكان أمره في الحرث وإلقاء البذر فيه أشبه شيء بالجماع وإلقاء النطفة، ولذلك سميت المرأة حرثًا، وصل بما مضى مسببًا عنه قوله منكرًا عليهم: ﴿أَفَرَءَيْتُم﴾ أي: أخبروني هل رأيتم بالبصر أو البصيرة ما نبهناكم عليه وفيما تقدم فتسبب عن تنبهكم لذلك أنكم رأيتم ﴿مَّا تَحْرُثُونَ﴾ أي: تجددون حرثه على سبيل الاستمرار بتهيئة أرضه للبذر وإلقاء البذر فيه.

ولما كانوا لا يدعون القدرة على الإنبات بوجه، وكان القادر عليه قادرًا على كل شيء، وهم يعتقدون في أمر البعث ما يؤدي إلى الطعن في قدرته، كرر الإنكار عليهم فقال: ﴿ءَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُۥٓ﴾ أي: تنبتونه بعد طرحكم البذر فيه وتحفظونه إلى أن يصير مالًا ﴿أَمْ نَحْنُ﴾ خاصة، وأكد لما مضى بذكر الخبر المعلوم من السياق فقال: ﴿ٱلزَّٰرِعُونَ﴾ أي المنبتون له والحافظون»[1].

قال الماوردي: «تتضمن هذه الآية أمرين:

أحدهما: الامتنان عليهم بأن أنبت زرعهم حتى عاشوا به ليشكروه على نعمته عليهم.

الثاني: البرهان الموجب للاعتبار بأنه لما أنبت زرعهم بعد تلاشي بذوره وانتقاله إلى استواء حاله، من العفن إلى الترتيب حتى صار زرعًا أخضر، ثم جعله قويًا مشتدًا أضعاف ما كان عليه، فهو بإعادة من مات أحق وعليه أقدر، وفي هذا البرهان مقنع لذوي الفطر السليمة»[2].

---

(١) نظم الدرر (١٩/ ٢٢٣).

(٢) النكت والعيون (٥/ ٤٦٠).

وقال الشنقيطي: «تضمنت هذه الآية الكريمة برهانًا قاطعًا ثانيًا على البعث، وامتنانًا عظيمًا على الخلق بخلق أرزاقهم لهم، فقوله تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ ﴿٦٣﴾﴾، يعني: أفرأيتم البذر الذي تجعلونه في الأرض بعد حرثها، أي: تحريكها وتسويتها، أأنتم تزرعونه، أي: تجعلونه زرعًا، ثم تمنونه إلى أن يصير مدركًا صالحًا للأكل أم نحن الزارعون له؟ ولا شك أن الجواب الذي لا جواب غيره هو أن يقال: أنت يا ربنا هو الزراع المنبت، ونحن لا قدرة لنا على ذلك، فيقال لهم: كل عاقل يعلم أن من أنبت هذا السنبل من هذا البذر الذي تعفن في باطن الأرض قادر على أن يبعثكم بعد موتكم، وكون إنبات النبات بعد عدمه من براهين البعث، جاء موضحًا في آيات كثيرة كقوله: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنَّكَ تَرَى ٱلْأَرْضَ خَٰشِعَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ ۚ إِنَّ ٱلَّذِىٓ أَحْيَاهَا لَمُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰٓ﴾[1]، وقوله تعالى: ﴿فَٱنظُرْ إِلَىٰٓ ءَاثَٰرِ رَحْمَتِ ٱللَّهِ كَيْفَ يُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٥٠﴾﴾[2]، وقوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا سُقْنَٰهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَنزَلْنَا بِهِ ٱلْمَآءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ ۚ كَذَٰلِكَ نُخْرِجُ ٱلْمَوْتَىٰ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾[3]..

تنبيه: اعلم أنه يجب على كل إنسان أن ينظر في هذا البرهان الذي دلت عليه هذه الآية الكريمة؛ لأن اللَّه -جل وعلا- وجه في كتابه صيغة أمر صريحة عامة في كل ما يصدق عليه مسمى الإنسان بالنظر في هذا البرهان العظيم المتضمن للامتنان لأعظم النعم على الخلق، وللدلالة على عظم اللَّه وقدرته على البعث وغيره، وشدة حاجة خلقه إليه مع غناه عنهم، وذلك قوله تعالى: ﴿فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ إِلَىٰ طَعَامِهِۦٓ ﴿٢٤﴾ أَنَّا صَبَبْنَا ٱلْمَآءَ صَبًّا ﴿٢٥﴾ ثُمَّ شَقَقْنَا ٱلْأَرْضَ شَقًّا ﴿٢٦﴾ فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا حَبًّا ﴿٢٧﴾ وَعِنَبًا وَقَضْبًا ﴿٢٨﴾ وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا ﴿٢٩﴾ وَحَدَآئِقَ غُلْبًا ﴿٣٠﴾ وَفَٰكِهَةً وَأَبًّا ﴿٣١﴾ مَّتَٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَٰمِكُمْ ﴿٣٢﴾﴾[4].

والمعنى: انظر أيها الإنسان الضعيف إلى طعامك كالخبز الذي تأكله ولا غنى لك عنه، من هو الذي خلق الماء الذي صار سببًا لإنباته هل يقدر أحد غير اللَّه على

---

(١) فصلت: الآية (٣٩).

(٢) الروم: الآية (٥٠).

(٣) الأعراف: الآية (٥٧).

(٤) عبس: الآيات (٢٤-٣٢).

خلق الماء؟ أي: إبرازه من أصل العدم إلى الوجود. ثم هب أن الماء خلق، هل يقدر أحد غير اللَّه أن ينزله على هذا الأسلوب الهائل العظيم الذي يسقى به الأرض من غير هدم ولا غرق؟ ثم هب أن الماء نزل في الأرض، من هو الذي يقدر على شق الأرض عن مسار الزرع؟ ثم هب أن الزرع طلع، فمن هو الذي يقدر على إخراج السنبل منه؟ ثم هب أن السنبل خرج منه، فمن هو الذي يقدر على إنبات الحب فيه وتنميته حتى يدرك صالحًا للأكل؟

﴿انظُرُوا إِلَىٰ ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ إِنَّ فِي ذَٰلِكُمْ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾(١)، والمعنى: انظروا إلى الثمر وقت طلوعه ضعيفًا لا يصلح للأكل، وانظروا إلى ينعه، أي: انظروا إليه بعد أن صار يانعًا مدركًا صالحًا للأكل، تعلموا أن الذي رباه ونماه حتى صار كما ترونه وقت ينعه قادر على كل شيء، منعم عليكم عظيم الإنعام، ولذا قال: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكُمْ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾، فاللازم أن يتأمل الإنسان وينظر في طعامه ويتدبر قوله تعالى: ﴿أَنَّا صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبًّا ﴿٢٥﴾ ثُمَّ شَقَقْنَا الْأَرْضَ شَقًّا ﴿٢٦﴾﴾(٢)، أي: عن النبات شقًّا إلى آخر ما بيّنّاه»(٣).

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في فضل الزرع والغرس وعمارة الأرض لنفع المسلمين والتأدب بآداب الرسول ﷺ في إطلاق الألفاظ

* عن أبي هريرة قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «**لا يقولن أحدكم: زرعت، ولكن ليقل: حرثت**»، قال أبو هريرة: ألم تسمع إلى قول الله: ﴿أَفَرَأَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ ﴿٦٣﴾ أَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ ﴿٦٤﴾﴾»(٤).

---

(١) الأنعام: الآية (٩٩).

(٢) عبس: الآيتان (٢٥و٢٦).

(٣) أضواء البيان (٧/ ٧٨٩-٧٩١).

(٤) أخرجه: ابن جرير (٢٢/ ٨٩١)، والبزار (كشف الأستار ٢/ ٩٦/ ١٢٨٩)، والبيهقي (٦/ ١٣٨)، وصححه ابن حبان (١٣/ ٣٠/ ٥٧٢٣) واللفظ له، والطبراني في الأوسط (٩/ ١٣/ ٨٠٢٠) وأورده الهيثمي في المجمع (٤/ ١٢٠) وقال: «رواه الطبراني في الأوسط والبزار، وفيه مسلم بن أبي مسلم، ولم أجد من ترجمه، وبقية رجاله ثقات»، وانظر السلسلة الصحيحة (رقم: ٢٨٠١).

★ **فوائد الحديث:**

قال الألوسي: «يشير رضي اللَّه تعالى عنه -يعني أبا هريرة- إلى أنه عليه الصلاة والسلام أخذ النهي من هذه الآية؛ فإنه أسند الحرث إلى المخاطبين دون الزرع»[(١)].

قال العيني: «وذكر هذه الآية لاشتمالها على الحرث والزرع، وأيضًا تدل على إباحة الزرع من جهة الامتنان به، وفيها وفي الآيات التي قبلها ردّ وتبكيت على المشركين الذين قالوا: نحن موجودون من نطفة حدثت بحرارة كائنة، وأنكروا البعث والنشور بأمور ذكرت فيها، من جملتها قوله: ﴿أَفَرَءَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ ﴿٦٣﴾﴾ أي: تثيرون في الأرض وتعملون فيها وتطرحون البذار، ﴿ءَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُۥ﴾ أي: تنبتونه وتردونه نباتًا ينمي إلى أن يبلغ الغاية. قوله تعالى: ﴿لَوْ نَشَآءُ لَجَعَلْنَٰهُ حُطَٰمًا﴾[(٢)] أي: هشيمًا لا ينتفع به ولا تقدرون على منعه، وقيل: نبتًا لا قمح فيه، ﴿فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ﴾ أي: تفجعون، وقيل: تحزنون، وهو من الأضداد، تقول العرب: تفكّهت، أي: تنعّمت، وتفكّهت، أي: حزنت، وقيل: التفكّه: التكلم فيما لا يعنيك، ومنه قيل للمزاح: فكاهة، وأخذوا من قوله: ﴿أَمْ نَحْنُ ٱلزَّٰرِعُونَ﴾؟ أن لا يقول أحد: زرعت، ولكن يقول: حرثت»[(٣)].

قال الحافظ ابن حجر: «وفيه جواز نسبة الزرع للآدمي -يعني حديث أنس الآتي-، وقد ورد في المنع حديث غير قوي أخرجه ابن أبي حاتم من حديث أبي هريرة مرفوعًا: «**لا يقل أحدكم: زرعت، ولكن ليقل: حرثت، ألم تسمع لقول اللَّه تعالى**: ﴿ءَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلزَّٰرِعُونَ ﴿٦٤﴾﴾» ورجاله ثقات إلا أن مسلم بن أبي مسلم الجرمي؛ قال فيه ابن حبان: ربما أخطأ»[(٤)].

قال الألباني: «قد عرفت أن الحديث قوي، فلا بد حينئذ من التوفيق بينه وبين حديث الصحيحين بوجه من وجوه التوفيق المعروفة، كأن يحمل حديث الترجمة على أن النهي فيه للكراهة، كما قالوا في التوفيق بين أحاديث النهي عن تسمية

---

(١) روح المعاني (٢٧/ ١٤٨).
(٢) الواقعة: الآية (٦٥).
(٣) عمدة القاري (٩/ ٣-٤).
(٤) فتح الباري (٥/ ٥).

العنب كرمًا[(١)]، وبين أحاديث أخرى جاء فيها كقوله ﷺ: «**الخمر من هاتين الشجرتين: الكرمة والنخلة**» رواه مسلم[(٢)]، وكحديث النهي عن بيع الكرم بالزبيب[(٣)] (انظر 'فتح الباري'[(٤)]).

أو يقدّم حديث الترجمة لأنه حاظر، والحاظر مقدم على المبيح. والله سبحانه وتعالى أعلم»[(٥)].

قال عبد الرحمن الجزيري: «ورد النهي عن أن يقول الإنسان: زرعت، بل يقول: حرثت، فقد روى البزار عن أبي هريرة قال رسول الله ﷺ: «**لا يقولنّ أحدكم: زرعت، وليقل: حرثت**»، ومعنى هذا أنه لا يصح أن يقول: زرعت، ويريد المعنى الحقيقي للزرع وهو الإنبات؛ لأن المنبت هو الله تعالى كما أشار إلى ذلك سبحانه بقوله: ﴿أَفَرَءَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ ﴿٦٣﴾ ءَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلزَّٰرِعُونَ ﴿٦٤﴾﴾ فقد نسب سبحانه لعباده الحرث وهو إلقاء البذرة، أما الإنبات فإنهم لا يستطيعون ادّعاءه؛ إذ لو كان من عملهم لكان لازمًا؛ والواقع غير ذلك؛ فقد يلقون البذر ولا ينبت أصلًا، أو ينبت ثم تجتاحه جائحة، كما قال تعالى: ﴿لَوْ نَشَآءُ لَجَعَلْنَٰهُ حُطَٰمًا﴾[(٦)].

أما إذا قال: زرعت، وأراد منه المعنى المجازي، أي: ألقيت البذر، فإنه جائز، ولهذا روى مسلم عن جابر بن عبد الله أن النبي ﷺ قال: «**لا يغرس المسلم غرسًا ولا يزرع زرعًا فيأكل منه إنسان ولا دابة ولا شيء إلا كانت له صدقة**»[(٧)]، فهذا صريح في جواز نسبة الزرع إلى الإنسان، إلا أن الواقع أن عمل الإنسان هو شق الأرض وإلقاء البذر وتعهدها بالوسائل العادية، أما الإنبات فليس له فيه عمل ما»[(٨)].

---

(١) أخرجه: أحمد (٢/ ٢٥٩)، والبخاري (١٠/ ٦٩١/ ٦١٨٢)، ومسلم (٤/ ١٧٦٣/ ٢٢٤٧)، وأبو داود (٥/ ٢٢٥-٢٥٦/ ٤٩٧٤)، والنسائي في الكبرى (٦/ ٥٠٦/ ١١٦٤٤) من طرق عن أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) (٣/ ١٥٧٣/ ١٩٨٥) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٣) أخرجه: أحمد (٢/ ١٠٨)، والبخاري (٤/ ٤٧٤/ ٢١٧١)، ومسلم (٣/ ١١٧١/ ١٥٤٢)، والنسائي (٧/ ٣٠٧/ ٤٥٤٨) من حديث ابن عمر رضي الله عنهما.

(٤) (٤/ ٣٨٥-٣٨٦).

(٥) السلسلة الصحيحة (٦/ ٧١٦-٧١٧).

(٦) الواقعة: الآية (٦٥).

(٧) أخرجه: أحمد (٣/ ٣٩١)، ومسلم (٣/ ١١٨٨/ ١٥٥٢).

(٨) الفقه على المذاهب الأربعة (٣/ ١-٢).

قال القرطبي: «**فهو نهي إرشاد وأدب لا نهي حظر وإيجاب، ومنه قوله ﷺ: «لا يقولن أحدكم: عبدي وأمتي، وليقل: غلامي وجاريتي وفتاي وفتاتي»**[(١)]»[(٢)].

* عن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**ما من مسلم يغرس غرسًا، أو يزرع زرعًا، فيأكل منه طير أو إنسان أو بهيمة، إلا كان له به صدقة**»[(٣)].

★ فوائد الحديث:

قوله: «**مسلم**»:

قال الطيبي: «نكّر «**مسلمًا**» وأوقعه في سياق النفي وزاد (مِن) الاستغراقية، وخص الغرس والزرع، وعم الحيوان؛ ليدل على سبيل الكناية الإيمائية على أن أي مسلم كان سواء حرًّا أو عبدًا، مطيعًا أو عاصيًا يعمل أي عمل من المباح، ينتفع بما عمله أيّ حيوان كان يرجع نفعه إليه؛ يثاب عليه»[(٤)].

قال القرطبي: «وإنما خص المسلم بالذكر؛ لأنه ينوي عند الغرس غالبًا أن يتقوّى بثمرة ذلك الغرس المسلمون على عبادة الله تعالى، ولأن المسلم هو الذي يحصل له ثواب. وأما الكافر فلا يحصل له بما يفعله من الخيرات ثواب، وغايته أن يخفّف العذاب عنه، وقد يطعم في الدنيا ويعطى بذلك»[(٥)].

قال العيني: «وفيه أن المرأة تدخل في «**ما من مسلم**»؛ لأن هذا اللفظ من الجنس الذي إذا كان الخطاب به يدخل فيه المرأة؛ لأنه ﷺ لم يرد بهذا اللفظ أن المسلمة إذا فعلت هذا الفعل لم يكن لها هذا الثواب، بل المسلمة في هذا الفعل في استحقاق الثواب مثل المسلم سواء»[(٦)].

وقال أيضًا: «فإن قلت: قوله ﷺ في بعض طرق الحديث: «**ما من عبد**»، وهو

---

(١) أخرجه: أحمد (٢/ ٤٦٣)، والبخاري (٥/ ٢٢٢/ ٢٥٥٢)، ومسلم (٤/ ١٧٦٤/ ٢٢٤٩)، وأبو داود (٥/ ٢٥٦-٢٥٧/ ٤٩٧٥)، والنسائي في الكبرى (٦/ ٦٩/ ١٠٠٧٢) من طرق عن أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) الجامع لأحكام القرآن (١٧/ ٢١٨).

(٣) أخرجه: أحمد (٣/ ٢٢٨-٢٢٩)، والبخاري (٥/ ٣/ ٢٣٢٠)، ومسلم (٣/ ١١٨٩/ ١٥٥٣)، والترمذي (٣/ ٦٦٦/ ١٣٨٢) وقال: «حسن صحيح».

(٤) الكاشف (٥/ ١٥٤٧-١٥٤٨).

(٥) المفهم (٤/ ٤٢١).

(٦) عمدة القاري (٩/ ٦).

يتناول المسلم والكافر؛ قلت: يحمل المطلق على المقيد»[١].

قال النووي: «في هذه الأحاديث فضيلة الغرس وفضيلة الزرع، وأن أجر فاعلي ذلك مستمرّ ما دام الغراس والزرع وما تولد منه إلى يوم القيامة، وقد اختلف العلماء في أطيب المكاسب وأفضلها، فقيل: التجارة، وقيل: الصنعة باليد، وقيل: الزراعة، وهو الصحيح»[٢].

قال العيني: «وأكثر الأحاديث تدل على أفضلية الكسب باليد. وقد يقال: هذا أطيب من حيث الحِلّ، وذاك أفضل من حيث الانتفاع العام؛ فهو نفع متعدّ إلى غيره. وإذا كان كذلك، فينبغي أن يختلف الحال في ذلك باختلاف حاجة الناس؛ فحيث كان الناس محتاجين إلى الأقوات أكثر، كانت الزراعة أفضل للتوسعة على الناس، وحيث كانوا محتاجين إلى المتجر لانقطاع الطرق، كانت التجارة أفضل، وحيث كانوا محتاجين إلى الصنائع أشد، كانت الصنعة أفضل، وهذا حسن»[٣].

قال القاضي عياض: «فيه الحض على الغرس واقتناء الضياع، كما فعله كثير من السلف، خلافًا لمن منع ذلك. واختصاص الثواب على الأعمال بالمسلمين دون الكفار. وفيه أن المسبب للخير أجرٌ بما تنفع به، كان من أعمال البرّ أو مصالح الدين. وقيل: وفيه حجة أن من زرع في أرض غيره أن الزرع له، وعليه كراء الأرض لما عم الزرع وخصه بذلك. وفيما قال نظر، وليس فيه بيان»[٤].

قال ابن بطال: «وفيه الحض على عمارة الأرض لتعيش نفسه أو من يأتي بعده ممن يؤجر فيه، وذلك يدل على جواز اتخاذ الضياع، وأن اللَّه تعالى أباح ذلك لعباده المؤمنين لأقواتهم وأقوات أهليهم طلبًا للغنى بها عن الناس، وفساد قول من أنكر ذلك، ولو كان كما زعموا، ما كان لمن زرع زرعًا وأكل منه إنسان أو بهيمة أجر؛ لأنه لا يؤجر أحد فيما لا يجوز فعله»[٥].

---

(١) المصدر نفسه.

(٢) شرح صحيح مسلم (١٠/ ١٨١).

(٣) عمدة القاري (٩/ ٥).

(٤) الإكمال (٥/ ٢١٤).

(٥) شرح صحيح البخاري (٦/ ٤٥٦).

قال القرطبي: «وفيه دليل على أن الغراس واتخاذ الضياع مباحٌ، وغير قادح في الزهد. وقد فعله كثير من الصحابة. وقد ذهب قوم من المتزهّدة إلى أن ذلك مكروه وقادح. ولعلّهم تمسّكوا في ذلك بما قد خرّجه الترمذي من قوله ﷺ: «**لا تتّخذوا الضيعة، فتركنوا إلى الدنيا**» من حديث ابن مسعود[١]. وقال فيه: حديث حسن.

والجواب: أن هذا النهي محمول على الاستكثار من الضياع والانصراف إليها بالقلب الذي يفضي بصاحبه إلى الركون للدنيا. فأما إذا اتّخذها غير مستكثر، وقلّل منها، وكانت له كفافًا وعفافًا فهي مباحة، غير قادحة في الزهد، وسبيلها كسبيل المال الذي استثناه النبي ﷺ بقوله: «**إلا من أخذه بحقّه، ووضعه في حقّه**»[٢]، فأما لو غرس، واتّخذ الضيعة ناويًا بذلك معونة المسلمين، وثواب ما يؤكل ويتلف له منها، ويفعل بذلك معروفًا، فذلك من أفضل الأعمال، وأكرم الأحوال، ولا بُعد في أن يقال: إن أجر ذلك يعود عليه أبدًا دائمًا، وإن مات وانتقلت إلى غيره. ولولا الإكثار لذكرنا فيمن اتّخذ الضياع من الفضلاء والصحابة جملة من صحيح الأخبار»[٣].

قال الحافظ: «وظاهر الحديث أن الأجر يحصل لمتعاطي الزرع أو الغرس ولو كان ملكه غيره؛ لأنه أضافه إلى أمّ مُبشر[٤] ثم سألها عمن غرسه»[٥].

* * *

---

(١) أخرجه: أحمد (١/ ٣٧٧)، والترمذي (٤/ ٤٨٨-٤٨٩/ ٢٣٢٨)، وصححه الحاكم (٤/ ٢٢٢).

(٢) أخرجه مسلم (٢/ ٧٢٨/ ١٠٥٢[١٢٢]) من حديث أبي سعيد الخدري ﷺ.

(٣) المفهم (٤/ ٤٢١-٤٢٢).

(٤) يشير إلى الحديث الذي رواه مسلم (٣/ ١١٨٨/ ١٥٥٢[٨]) عن جابر أن النبي ﷺ دخل على أم مبشر الأنصارية في نخل لها، فقال لها النبي ﷺ: «من غرس هذا النخل أمسلم أم كافر؟»، فقالت: بل مسلم، فقال: «لا يغرس مسلم غرسًا، ولا يزرع زرعًا، فيأكل منه إنسان ولا دابة ولا شيء، إلا كانت له صدقة».

(٥) فتح الباري (٥/ ٤).

قوله تعالى: ﴿لَوْ نَشَآءُ لَجَعَلْنَـٰهُ حُطَـٰمًا فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ ﴿٦٥﴾ إِنَّا لَمُغْرَمُونَ ﴿٦٦﴾ بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ ﴿٦٧﴾﴾

★ **غريب الآية:**

لمغرمون: أي: لخاسرون لم يحصل لنا من زرعنا ما أَمَّلْنَا. وأصل الغرام ما يصيب المرء من شدة ومصيبة. وبابه اللزوم. قال الأعشى:

إن يعاقب يكن غرامًا وإن يعـ ـط جـزيـلا فـإنـه لا يـبـالـي

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: يقول -تعالى ذكره-: لو نشاء جعلنا ذلك الزرع الذي زرعناه حطامًا، يعني هشيمًا لا ينتفع به في مطعم وغذاء.

وقوله: ﴿فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ﴾ اختلف أهل التأويل في تأويل ذلك، فقال بعضهم: معنى ذلك: فظلتم تتعجبون مما نزل بكم في زرعكم من المصيبة باحتراقه وهلاكه..

وقال آخرون: معنى ذلك: فظلتم تلاومون بينكم في تفريطكم في طاعة ربكم -جل ثناؤه-، حتى نالكم بما نالكم من إهلاك زرعكم..

وقال آخرون: بل معنى ذلك: فظلتم تندمون على ما سلف منكم في معصية اللَّه التي أوجب لكم عقوبته، حتى نالكم في زرعكم ما نالكم..

وقال آخرون: بل معنى ذلك: فظلتم تعجبون..

وأولى الأقوال في ذلك بالصواب قول من قال: معنى ﴿فَظَلْتُمْ﴾: فأقمتم تعجبون مما نزل بزرعكم، وأصله من التفكه بالحديث: إذا حدّث الرجلُ الرجلَ بالحديث يعجب منه، ويلهى به، فكذلك ذلك. وكأن معنى الكلام: فأقمتم تتعجبون يُعَجِّب بعضكم بعضًا مما نزل بكم.

وقوله: ﴿إِنَّا لَمُغْرَمُونَ ﴿٦٦﴾﴾ اختلف أهل التأويل في معناه، فقال بعضهم: إنا لمولع بنا.. وقال آخرون: بل معنى ذلك: إنا لمعذبون.. وقال آخرون: بل معنى

ذلك: إنا لملقون للشر..

وأولى الأقوال في ذلك بالصواب قول من قال: معناه: إنا لمعذّبون، وذلك أن الغرام عند العرب: العذاب؛ ومنه قول الأعشى:

إن يعاقِبْ يكن غرامًا وإن يُعْطِ جزيلًا فإنّه لا يبالي

يعني بقوله: يكن غرامًا: يكن عذابًا. وفي الكلام متروك اكتفي بدلالة الكلام عليه، وهو: فظلتم تفكّهون (تقولون) إنا لمغرمون، فترك (تقولون) من الكلام لما وصفنا.

وقوله: ﴿بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ ﴿٦٧﴾﴾ يعني بذلك -تعالى ذكره- أنهم يقولون: ما هلك زرعنا وأصبنا به من أجل ﴿إِنَّا لَمُغْرَمُونَ ﴿٦٦﴾﴾ ولكنا قوم محرومون، يقول: إنهم غير مجدودين، ليس لهم جدّ»[1].

* * *

(١) جامع البيان (٢٧/ ١٩٨-٢٠٠).

قوله تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱلْمَآءَ ٱلَّذِى تَشْرَبُونَ ۝٦٨ ءَأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ ٱلْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنزِلُونَ ۝٦٩ لَوْ نَشَآءُ جَعَلْنَٰهُ أُجَاجًا فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ ۝٧٠﴾

★ غريب الآية:

المزن: السحاب، جمع مزنة.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال البقاعي: «ولما وقفهم على قدرته في الزرع مع وجود أسبابه، وقدمهم بشدة إليه، وكان ربما ألبس نوع لبس؛ لأن لهم فيه سببًا في الجملة، أتبعه التوقيف على قدرته على التصرف في سببه الذي هو الماء الذي لا سبب لهم في شيء من أمره أصلًا، فقال مسببًا عما أفادهم هذا التنبيه مذكرًا بنعمة الشرب الذي يحوج إليه الغذاء»[1].

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره-: أفرأيتم أيها الناس الماء الذي تشربون، أأنتم أنزلتموه من السحاب فوقكم إلى قرار الأرض، أم نحن منزلوه لكم..

وقوله: ﴿لَوْ نَشَآءُ جَعَلْنَٰهُ أُجَاجًا فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ ۝٧٠﴾ يقول -تعالى ذكره-: لو نشاء جعلنا ذلك الماء الذي أنزلناه لكم من المزن ملحًا، وهو الأجاج، والأجاج من الماء: ما اشتدّت ملوحته، يقول: لو نشاء فعلنا ذلك به فلم تنتفعوا به في شرب ولا غرس ولا زرع.

وقوله: ﴿فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ﴾ يقول -تعالى ذكره-: فهلاّ تشكرون ربكم على إعطائه ما أعطاكم من الماء العذب لشربكم ومنافعكم، وصلاح معايشكم، وتركه أن يجعله أُجاجًا لا تنتفعون به»[2].

قال الشنقيطي: «تضمنت هذه الآية الكريمة امتنانًا عظيمًا على خلقه بالماء الذي

---

(١) نظم الدرر (١٩/ ٢٢٦).

(٢) جامع البيان (٢٧/ ٢٠٠-٢٠١).

يشربونه، وذلك أيضًا آية من آياته الدالة على عظمته وكمال قدرته وشدة حاجة خلقه إليه، والمعنى: أفرأيتم الماء الذي تشربون، الذي لا غنى لكم عنه لحظة، ولو أعدمناه لهلكتم جميعًا في أقرب وقت، ﴿ءَأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ ٱلْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنزِلُونَ ﴿٦٩﴾﴾.

والجواب الذي لا جواب غيره هو: أنت يا ربنا هو منزله من المزن، ونحن لا قدرة لنا على ذلك. فيقال لهم: إذا كنتم في هذا القدر من شدة الحاجة إليه تعالى، فلم تكفرون به وتشربون ماءه وتأكلون رزقه وتعبدون غيره؟ وما تضمنته هذه الآية الكريمة من الامتنان على الخلق بالماء، وأنهم يلزمهم الإيمان باللَّه وطاعته شكرًا لنعمة هذا الماء، كما أشار له هنا بقوله: ﴿فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ﴾ جاء في آيات أخر من كتاب اللَّه كقوله تعالى: ﴿فَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَسْقَيْنَٰكُمُوهُ وَمَآ أَنتُمْ لَهُۥ بِخَٰزِنِينَ﴾[1]، وقوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً لَّكُم مِّنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ ﴿١٠﴾﴾[2]، وقوله تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً طَهُورًا ﴿٤٨﴾ لِّنُحْـِۧىَ بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا وَنُسْقِيَهُۥ مِمَّا خَلَقْنَآ أَنْعَٰمًا وَأَنَاسِىَّ كَثِيرًا﴾[3]، وقوله تعالى: ﴿وَأَسْقَيْنَٰكُم مَّآءً فُرَاتًا﴾[4] إلى غير ذلك من الآيات، وقوله هنا: ﴿لَوْ نَشَآءُ جَعَلْنَٰهُ أُجَاجًا﴾ أي: لو نشاء جَعْلَهُ أجاجًا لفعلنا، ولكن جعلناه عذبًا فراتًا سائغًا شرابه، وقد قدمنا في سورة (الفرقان) أن الماء الأجاج هو الجامع بين الملوحة والمرارة الشديدتين.

وما تضمنته هذه الآية الكريمة من كونه تعالى: لو شاء لجعل الماء غير صالح للشراب، جاء معناه في آيات أخر كقوله تعالى: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَآؤُكُمْ غَوْرًا فَمَن يَأْتِيكُم بِمَآءٍ مَّعِينٍ ﴿٣٠﴾﴾[5]، وقوله تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّٰهُ فِى ٱلْأَرْضِ وَإِنَّا عَلَىٰ ذَهَابٍۭ بِهِۦ لَقَٰدِرُونَ ﴿١٨﴾﴾[6]؛ لأن الذهاب بالماء وجعله غورًا لم يصل إليه وجعله أجاجًا، كل ذلك في المعنى سواء بجامع عدم تأتّي شرب الماء، وهذه الآيات المذكورة تدل على شدة حاجة الخلق إلى خالقهم كما ترى. وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة: ﴿ءَأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ ٱلْمُزْنِ﴾ يدل على أن جميع الماء الساكن في الأرض النابع من العيون والآبار ونحو ذلك، أن أصله كله نازل من المزن، وأن

---

(١) الحجر: الآية (٢٢).
(٢) النحل: الآية (١٠).
(٣) الفرقان: الآيتان (٤٨و٤٩).
(٤) المرسلات: الآية (٢٧).
(٥) الملك: الآية (٣٠).
(٦) المؤمنون: الآية (١٨).

اللَّه أسكنه في الأرض وخزنه فيها لخلقه.

وهذا المعنى الذي دلت عليه هذه الآية جاء موضحًا في آيات أخر كقوله تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّاهُ فِي الْأَرْضِ﴾ وقوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَلَكَهُ يَنَابِيعَ فِي الْأَرْضِ﴾[1]، وقد قدمنا هذا في سورة (الحجر) في الكلام على قوله تعالى: ﴿فَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَسْقَيْنَاكُمُوهُ وَمَا أَنتُمْ لَهُ بِخَازِنِينَ﴾[2]، وفي سورة (سبأ) في الكلام على قوله تعالى: ﴿يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا﴾[3] الآية، وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة: ﴿فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ﴾ فـ(لولا) بمعنى (هلاّ)، وهي حرف تحضيض، وهو الطلب بحث وحض، والمعنى أنهم يطلب منهم شكر هذا المنعم العظيم بحث وحض.

واعلم أن الشكر يطلق من العبد لربه ومن الرب لعبده.

فشكر العبد لربه، ينحصر معناه في استعماله جميع نعمه فيما يرضيه تعالى، فشكر نعمة العين ألا ينظر بها إلا ما يرضي مَن خلقها، وهكذا في جميع الجوارح، وشكر نعمة المال أن يقيم فيه أوامر ربه، ويكون مع ذلك شاكر القلب واللسان، وشكر العبد لربه جاء في آيات كثيرة كقوله تعالى هنا: ﴿فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ﴾، وقوله تعالى: ﴿وَاشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونِ﴾[4]، والآيات بمثل ذلك كثيرة معلومة.

وأما شكر الرب لعبده فهو أن يثيبه الثواب الجزيل من عمله القليل، ومنه قوله تعالى: ﴿وَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَإِنَّ اللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ﴾[5]، وقوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ﴾[6] إلى غير ذلك من الآيات»[7].

* * *

(١) الزمر: الآية (٢١).

(٢) الحجر: الآية (٢٢).

(٣) سبأ: الآية (٢).

(٤) البقرة: الآية (١٥٢).

(٥) البقرة: الآية (١٥٨).

(٦) فاطر: الآية (٣٤).

(٧) أضواء البيان (٧/ ٧٩٢-٧٩٤).

قوله تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱلنَّارَ ٱلَّتِى تُورُونَ ﴿٧١﴾ ءَأَنتُمْ أَنشَأْتُمْ شَجَرَتَهَآ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنشِـُٔونَ ﴿٧٢﴾ نَحْنُ جَعَلْنَٰهَا تَذْكِرَةً وَمَتَٰعًا لِّلْمُقْوِينَ ﴿٧٣﴾﴾

★ **غريب الآية:**

تورون: توقدون. والإيراء: إظهار النار بالقدح.

للمقوين: أي: للمسافرين. يقال: أقوى الرجل: إذا دخل القواء، وهو القفر ليس به أحد. وأقوت الدار: خلت من أهلها، قال عنترة:

حييت من طلل تقادم عهده أقوى وأقفر بعد أم الهيثم

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره-: أفرأيتم أيها الناس النار التي تستخرجون من زندكم ﴿ءَأَنتُمْ أَنشَأْتُمْ شَجَرَتَهَآ﴾ يقول: أأنتم أحدثتم شجرتها واخترعتم أصلها، ﴿أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنشِـُٔونَ﴾؟ يقول: أم نحن اخترعنا ذلك وأحدثناه؟

وقوله: ﴿نَحْنُ جَعَلْنَٰهَا تَذْكِرَةً﴾ يقول: نحن جعلنا النار تذكرة لكم تذكرون بها نار جهنم، فتعتبرون وتتعظون بها..

وقوله: ﴿وَمَتَٰعًا لِّلْمُقْوِينَ﴾ اختلف أهل التأويل في معنى (المقوين) فقال بعضهم: هم المسافرون..

وقال آخرون: عني بـ(المقوين): المستمتعون بها..

وقال آخرون: بل عني بذلك: الجائعون..

وأولى الأقوال في ذلك بالصواب عندي قول من قال: عُني بذلك: للمسافر الذي لا زاد معه، ولا شيء له، وأصله من قولهم: أقوت الدار: إذا خلت من أهلها وسكّانها»[١].

---

(١) جامع البيان (٢٧/ ٢٠١-٢٠٢).

وقال ابن كثير: «وقال ابن أبي نجيح عن مجاهد: قوله: ﴿لِّلْمُقْوِينَ﴾: المستمتعين من الناس أجمعين، وكذا ذكره عن عكرمة. وهذا التفسير أعمّ من غيره؛ فإن الحاضر والبادي من غني وفقير؛ الكل محتاجون إلى الطبخ والاصطلاء والإضاءة وغير ذلك من المنافع، ثم من لطف اللَّه تعالى أن أودعها في الأحجار وخالص الحديد بحيث يتمكن المسافر من حمل ذلك في متاعه وبين ثيابه، فإذا احتاج إلى ذلك في منزله أخرج زنده، وأورى وأوقد ناره، فاطبخ بها واصطلى بها واشتوى، واستأنس بها، وانتفع بها سائر الانتفاعات، فلهذا أفرد المسافرون وإن كان ذلك عامًّا في حق الناس كلهم»[1].

قال ابن القيم: «﴿نَحْنُ جَعَلْنَـٰهَا تَذْكِرَةً وَمَتَـٰعًا لِّلْمُقْوِينَ ۝٧٣﴾ تذكرة تذكر بها الآخرة، ومنفعة للنازلين بالقَواء وهم المسافرون، يقال: أقوى الرجل: إذا نزل بالقِيّ والقوى، وهي الأرض الخالية، وخصّ المقوين بالذكر وإن كانت منفعتها عامة للمسافرين والمقيمين تنبيهًا لعباده -واللَّه أعلم بمراده من كلامه- على أنهم كلهم مسافرون، وأنهم في هذه الدار على جناح سفر ليسوا هم مقيمين ولا مستوطنين، وأنهم عابرو سبيل وأبناء سفر»[2].

قال الشنقيطي: «قوله تعالى: ﴿ٱلَّتِى تُورُونَ﴾ أي: توقدونها؛ من قولهم: أورى النارَ: إذا قدحها وأوقدها، والمعنى: أفرأيتم النار التي توقدونها من الشجر، أأنتم أنشأتم شجرتها التي توقد منها، أي: أوجدتموها من العدم؟

والجواب الذي لا جواب غيره: أنت يا ربنا هو الذي أنشأت شجرتها، ونحن لا قدرة لنا بذلك، فيقال: كيف تنكرون البعث وأنتم تعلمون أن من أنشأ شجرة النار وأخرجها منها قادر على كل شيء؟ وما تضمنته هذه الآية الكريمة من كون خلق النار من أدلة البعث، جاء موضحًا في (يس) في قوله تعالى: ﴿قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ۝٧٩ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلشَّجَرِ ٱلْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَآ أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ ۝٨٠﴾[3]، فقوله في آخر (يس): ﴿تُوقِدُونَ﴾ هو معنى قوله في (الواقعة): ﴿تُورُونَ﴾، وقوله في آية (يس): ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلشَّجَرِ ٱلْأَخْضَرِ نَارًا﴾ بعد

---

(١) تفسير القرآن العظيم (٨/ ١٩-٢٠).

(٢) طريق الهجرتين (ص: ١٤١-١٤٢).

(٣) يس: الآيتان (٧٩و٨٠).

قوله: ﴿يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ دليل واضح على أن خلق النار من أدلة البعث، وقوله هنا: ﴿ءَأَنتُمْ أَنشَأْتُمْ شَجَرَتَهَآ﴾، أي الشجرة التي توقد منها كالمرخ والعفار، ومن أمثال العرب: في كل شجر نار، واستنجد المرخ والعفار؛ لأن المرخ والعفار هما أكثر الشجر نصيبًا في استخراج النار منهما، يأخذون قضيبًا من المرخ ويحكون به عودًا من العفار فتخرج من بينهما النار، ويقال: كل شجر فيه نار إلا العِناب»[(١)].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في صفة نار جهنم

* عن أبي هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: **«ناركم جزء من سبعين جزءًا من نار جهنم، قيل: يا رسول الله! إن كانت لكافية، قال: فُضّلت عليهن بتسعة وستين جزءًا، كلهن مثل حرّها»**[(٢)].

★ **فوائد الحديث:**

قال الشنقيطي مبيّنًا وجه تطابق الآية مع الحديث: «قوله: ﴿نَحْنُ جَعَلْنَٰهَا تَذْكِرَةً﴾أي: نذكر الناس بها في دار الدنيا -إذا أحسّوا شدة حرارتها- نار الآخرة التي هي أشد منها حرًّا لينزجروا عن الأعمال المقتضية لدخول النار، وقد صح عنه ﷺ: أن حرارة نار الآخرة مضاعفة على حرارة نار الدنيا سبعين مرة، فهي تفوقها بتسع وستين ضعفًا، كل واحد منها مثل حرارة نار الدنيا»[(٣)].

وقال الرازي: «تذكرة لنار القيامة، فيجب على العاقل أن يخشى الله تعالى وعذابه إذا رأى النار الموقدة»[(٤)].

قال القسطلاني: «**«ناركم» هذه التي توقدونها في جميع الدنيا «جزء»** واحد «**من سبعين جزءًا من نار جهنم**»، «قيل: يا رسول الله!» لم أعرف القائل، «إن كانت» هذه النار «**لكافية**» في إحراق الكفار وتعذيب الفجار فهلا اكتفي بها؟ «قال» عليه الصلاة

---

(١) أضواء البيان (٧/ ٧٩٥-٧٩٦).

(٢) أخرجه: أحمد (٢/ ٣١٣-٢٤٤-٤٦٧)، والبخاري (٦/ ٤٠٧/ ٣٢٦٥) واللفظ له، ومسلم (٤/ ٢١٨٤/ ٢٨٤٣)، والترمذي (٤/ ٦١١/ ٢٥٨٩) وقال: «حسن صحيح».

(٣) أضواء البيان (٧/ ٧٩٦).

(٤) مفاتيح الغيب (٢٩/ ١٨٤).

والسلام مجيبًا له: إنها «**فُضّلت عليهن**» بضم الفاء وتشديد الضاد المعجمة، أي: على نيران الدنيا «**بتسعة وستين جزءًا، كلهن مثل حرّها**» أعاد ﷺ حكاية تفضيل نار جهنم؛ ليتميز عذاب اللَّه من عذاب الخلق.

وقال حجة الإسلام: نار الدنيا لا تناسب نار جهنم، ولكن لما كان أشد عذاب في الدنيا عذاب هذه النار عرّف عذاب نار جهنم بها؛ وهيهات لو وجد أهل الجحيم مثل هذه النار لخاضوها هربًا مما هم فيه، وفي رواية أحمد[١]: «**جزء من مائة جزء**» **والحكم للزائد**»[٢].

قوله: «**جزء من سبعين جزءًا**» **قال الحافظ**: «والجمع بأن المراد المبالغة في الكثرة، لا العدد الخاص، أو الحكم للزائد»[٣].

قال العيني: «ومعنى قوله: «**جزء من سبعين جزءًا**» أنه لو جمع كل ما في الوجود من النار التي يوقدها الآدميون لكانت جزءًا من أجزاء نار جهنم المذكورة، بيانه: لو جمع حطب الدنيا وأوقد كله حتى صارت نارًا لكان الجزء الواحد من أجزاء نار جهنم الذي هو من سبعين جزءًا أشد منه..

«**فضلت عليها**» أي: على نار الدنيا، ويروى: «**عليهن**» كما فضلت عليها في المقدار والعدد بتسعة وستين جزءًا، فضلت عليها في الحر بتسعة وستين جزءًا»[٤].

وقال أبو عمر: «ليس في هذا الحديث ما يحتاج إلى القول، وفيه إباحة الخبر عن القيامة والآخرة وحال النار، أجارنا اللَّه منها وزحزحنا عنها، وفيما نطق به القرآن من الخبر عن الآخرة والجنة والنار ما فيه معتبر لأولي الأبصار»[٥].

* عن أبي هريرة أن رسول اللَّه ﷺ قال: «**ثلاث لا يمنعن: الماء والكلأ والنار**»[٦].

---

(١) أخرجه أحمد (٢/ ٣٧٨).
(٢) إرشاد الساري (٧/ ٢٠٥).
(٣) فتح الباري (٦/ ٤١١).
(٤) عمدة القاري (١٠/ ٦١٩).
(٥) فتح البر (٢/ ١٢٨).
(٦) أخرجه: ابن ماجه (٢/ ٨٢٦/ ٢٤٧٣)، قال البوصيري في الزوائد: «هذا إسناد صحيح، رجاله موثقون؛ لأن محمد بن عبد اللَّه بن يزيد، أبا يحيى المكي، وثقه النسائي وابن أبي حاتم وغيرهما. وباقي رجال الإسناد على شرط الشيخين». وقال الحافظ ابن حجر في التلخيص (٣/ ٦٥): «إسناده صحيح».

* عن أبي خداش عن رجل من المهاجرين من أصحاب النبي ﷺ، قال: غزوت مع النبي ﷺ ثلاثًا أسمعه يقول: «**المسلمون شركاء في ثلاث: في الكلأ، والماء، والنار**»[1].

★ فوائد الحديثين:

قال الخطابي: «الكلأ ينبت في موات الأرض يرعاه الناس، ليس لأحد أن يختصّ به دون أحد ويحجزه عن غيره، وكان أهل الجاهلية إذا غزا الرجل منهم حمى بقعة من الأرض لماشيته ترعاها يذود الناس عنها، فأبطل النبي ﷺ ذلك وجعل الناس فيها شرعا يتعاورونه بينهم، فأما الكلأ إذا نبت في أرض مملوكة لمالك بعينه فهو مال له ليس لأحد أن يشركه فيه إلا بإذنه.

وأما قوله: «**والنار**»، فقد فسره بعض العلماء، وذهب إلى أنه أراد به الحجارة التي توري النار، يقول: لا يمنع أحد أن يأخذ منها حجرًا يقتدح به النار، فأما التي يوقدها الإنسان فله أن يمنع غيره من أخذها. وقال بعضهم: ليس له أن يمنع من يريد أن يأخذ منها جذوة من الحطب التي قد احترق فصار جمرًا، وليس له أن يمنع من أراد أن يستصبح منها مصباحًا أو أدنى منها ضغثًا يشتعل بها؛ لأن ذلك لا ينقص من عينها شيئًا، والله أعلم»[2].

قال البنا: «وأما «**النار**» فالمراد بها الحطب الذي يحتطبه الناس من الشجر المباح فيوقدونه، والحجارة التي توري النار ويقدح بها إذا كانت مواتًا أو هو على ظاهره، قال البيضاوي: المراد بالاشتراك في النار أن لا يمنع الاستصباح منها والاستضاءة بضوئها، لكن للموقد أن يمنع أخذ جذوة منها؛ لأنه ينقصها ويؤدي إلى إطفائها»[3].

* * *

(١) أخرجه: أحمد (٥/ ٣٦٤)، وأبو داود (٣/ ٧٥٠-٧٥١/ ٣٤٧٧) واللفظ له، والبيهقي (٦/ ١٥٠)، وصححه الألباني في صحيح أبي داود وفي الإرواء (٦/ ٧).

(٢) معالم السنن (٣/ ١١٠-١١١).

(٣) الفتح الرباني (١٥/ ١٣٢).

قوله تعالى: ﴿فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ ﴿٧٤﴾﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال البقاعي: «ولما دل سبحانه في هذه الآيات على عجائب القدرة، وغرائب الصنع، فبدأ بالزرع، وختم بالنار والشجر، وأوجب ما نبّه عليه من التذكر لأمرها والتبصر في شأنها أنها من أسباب ما قبلها.. وكان ذلك من جميع وجوهه أمرًا باهرًا، أشار إلى زيادة عظمته بالأمر بالتنزيه مسببًا عما أفاد ذلك، فقال معرضًا عمّن قد يلمّ به الإنكار، مقبلًا على أشرف خلقه، إشارة إلى أنه لا يفهم هذا المقام حق فهمه سواه، ولا يعمل به حق عمله غيره: ﴿فَسَبِّحْ﴾»[1].

قال أبو السعود: «و(الفاء) في قوله تعالى: ﴿فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ ﴿٧٤﴾﴾ لترتيب ما بعدها على ما عدد من بدائع صنعه تعالى، وروائع نعمه الموجبة لتسبيحه تعالى، إما تنزيهًا له تعالى عما يقوله الجاحدون بوحدانيته، الكافرون بنعمته مع عظمها وكثرتها، أو تعجبًا من أمرهم في غمط تلك النعم الباهرة مع جلالة قدرها وظهور أمرها، أو شكرًا على تلك النعم السابقة، أي: فأحدث التسبيح بذكر اسمه تعالى أو بذكره؛ فإن إطلاق الاسم للشيء ذكر له، و(العظيم) صفة للاسم أو الرَّبّ»[2].

* * *

(١) نظم الدرر (١٩/ ٢٣١).
(٢) إرشاد العقل السليم (٨/ ١٩٩).

قوله تعالى: ﴿۞ فَلَآ أُقۡسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ ۝٧٥ وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٞ لَّوۡ تَعۡلَمُونَ عَظِيمٌ ۝٧٦﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن القيم: «قوله تعالى: ﴿۞ فَلَآ أُقۡسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ ۝٧٥﴾ ففيها قولان:

أحدهما: أنها النجوم المعروفة، وعلى هذا ففي مواقعها أقوال:

أحدها: أنها انكدارها وانتشارها يوم القيامة، وهذا قول الحسن، والمنجّمون يكذّبون بها ولا يقرّون به.

الثاني: مواقعها: منازلها، قاله عطاء وقتادة.

والثالث: أنه مغاربها.

الرابع: أنه مواقعها عند طلوعها وغروبها، حكاه ابن عطية عن مجاهد وأبي عبيدة.

الخامس: أن مواقعها مواضعها من السماء، وهذا الذي حكاه ابن الجوزي عن قتادة حكاه ابن عطية عنه، فيحتمل أن يكونا واحدًا وأن يكونا قولين.

السادس: أن مواقعها انقضاضها أثرَ العفريت وقتَ الرُّجوم، حكاه ابن عطية أيضًا ولم يذكر أبو الفرج ابن الجوزي سوى الثلاثة الأولى.

والقول الثاني: أن مواقع النجوم هي منازل القرآن ونجومه، التي نزلت على النبي ﷺ في مدة ثلاث وعشرين سنة، قال ابن عطية: ويؤيد هذا القول عود الضمير على القرآن في قوله: ﴿إِنَّهُۥ لَقُرۡءَانٞ كَرِيمٞ ۝٧٧ فِي كِتَٰبٖ مَّكۡنُونٖ ۝٧٨﴾[1]، وذلك أن ذكره لم يتقدّم إلا على هذا التأويل.

---

(١) الواقعة: الآيتان (٧٧و٧٨).

ومن لا يتأوّل هذا التأويل يقول: إن الضمير يعود على القرآن وإن لم يتقدّم ذكره لشهرة الأمر ووضوح المعنى، كقوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ تَوَارَتْ بِٱلْحِجَابِ﴾[1]، و﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴿٢٦﴾﴾[2]، وغير ذلك.

قلت: ويؤيد القول الأول أنه أعاد الضمير بلفظ الإفراد والتذكير، و(مواقع النجوم) جمع، فلو كان الضمير عائدًا عليها لقال: إنها لقرآن كريم، إلا أن يُقال: (مواقع النجوم) دل على القرآن، فأعاد الضمير عليه؛ لأن مفسّر الضمير يُكتفى فيه بذلك، وهو من أنواع البلاغة والإيجاز.

فإن كان المراد من القَسَم نجومَ القرآن بطل استدلاله بالآية، وإن كان المراد الكواكبَ، وهو قول الأكثرين، فلِما فيها من الآيات الدالة على ربوبية اللَّه تعالى وانفراده بالخَلق والإبداع؛ فإنه لا ينبغي أن تكون الإلهية إلا له وحده، كما أنه وحده المتفرِّد بخَلقها وإبداعها، وما تضمّنته من الآيات والعجائب، فالإقسام بها أوضح دليل على تكذيب المشركين والمنجّمين والدهرية ونوعي المعطلة»[3].

وقال أيضًا: «وأظهر القولين أنه قسم بمواقع هذه النجوم التي في السماء؛ فإن اسم النجوم عند الإطلاق إنما ينصرف إليها.

وأيضًا؛ فإنه لم تجرِ عادته سبحانه باستعمال النجوم في آيات القرآن ولا في موضع واحد من كتابه حتى تُحمَل عليه هذه الآية، وجرت عادته سبحانه باستعمال النجوم في الكواكب في جميع القرآن.

وأيضًا؛ فإن نظير الإقسام بمواقعها هنا إقسامه بهوى النجم في قوله: ﴿وَٱلنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ ﴿١﴾﴾[4].

وأيضًا؛ فإن هذا قول جمهور أهل التفسير.

وأيضًا؛ فإنه سبحانه يُقسم بالقرآن نفسه، لا بوصوله إلى عباده، هذه طريقة القرآن؛ قال اللَّه تعالى: ﴿صٓ وَٱلْقُرْءَانِ ذِى ٱلذِّكْرِ﴾[5]، ﴿يسٓ ﴿١﴾ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْحَكِيمِ﴾[6]،

---

(١) ص: الآية (٣٢).
(٢) الرحمن: الآية (٢٦).
(٣) مفتاح دار السعادة (٣/ ١٨٠-١٨٢).
(٤) النجم: الآية (١).
(٥) ص: الآية (١).
(٦) يس: الآيتان (١و٢).

﴿قٓۚ وَٱلۡقُرۡءَانِ ٱلۡمَجِيدِ﴾(١)، ﴿حمٓ ۝١ وَٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُبِينِ﴾(٢)، ونظائره.

والمقصود أنه سبحانه إنما يقسم من مخلوقاته بما هو من آياته الدالة على ربوبيته ووحدانيته»(٣).

وقال أيضًا: «وعلى هذا فتكون المناسبة بين ذكر النجوم في القسم، وبين المقسم عليه وهو القرآن من وجوه: أحدها: أن النجوم جعلها اللَّه يهتدى بها في ظلمات البر والبحر، وآيات القرآن يهتدى بها في ظلمات الجهل والغي. فتلك هداية في الظلمات الحسية، وآيات القرآن في الظلمات المعنوية، فجمع بين الهدايتين، مع ما في النجوم من الرجوم للشياطين، وفي آيات القرآن من رجوم شياطين الإنس والجن، والنجوم آياته المشهودة المعاينة، والقرآن آياته المتلوة السمعية، مع ما في مواقعها عند الغروب من العبرة والدلالة على آياته القرآنية ومواقعها عند النزول»(٤).

قال ابن عطية: «وقوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٌ﴾ تأكيد للأمر، وتنبيه من المقسم به، وليس هذا باعتراض بين الكلامين، بل هذا معنى قصد التهمم به، وإنما الاعتراض قوله: ﴿لَّوۡ تَعۡلَمُونَ﴾، وقد قال قوم: إن قوله: ﴿وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٌ﴾ اعتراض، وإن ﴿لَّوۡ تَعۡلَمُونَ﴾ اعتراض في اعتراض، والتحرير هو الذي ذكرناه»(٥).

قال ابن جرير: «وقوله: ﴿وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٌ لَّوۡ تَعۡلَمُونَ عَظِيمٌ﴾ يقول -تعالى ذكره-: وإن هذا القسم الذي أقسمت ﴿لَقَسَمٌ لَّوۡ تَعۡلَمُونَ﴾ ما هو، وما قدره، قسم ﴿عَظِيمٌ﴾؛ من المؤخر الذي معناه التقديم، وإنما هو: وإنه لقسم عظيم لو تعلمون عظمه»(٦).

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في الاستسقاء بالأنواء

* عن ابن عباس قال: مطر الناس على عهد النبي ﷺ فقال النبي ﷺ: «**أصبح**

---

(١) ق: الآية (١).
(٢) الزخرف: الآيتان (١و٢).
(٣) مفتاح دار السعادة (٢/ ٢٥).
(٤) التبيان في أقسام القرآن (ص: ١٣٢).
(٥) المحرر الوجيز (٥/ ٢٥١).
(٦) جامع البيان (٢٧/ ٢٠٤).

من الناس شاكر ومنهم كافر، قالوا: هذه رحمة اللَّه، وقال بعضهم: لقد صدق نوء كذا وكذا»، قال: فنزلت هذه الآية: ﴿فَلَآ أُقۡسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ ٧٥﴾ حتى بلغ: ﴿وَتَجۡعَلُونَ رِزۡقَكُمۡ أَنَّكُمۡ تُكَذِّبُونَ ٨٢﴾[1].

* عن أبي هريرة قال: قال رسول اللَّه ﷺ: **«ألم تروا إلى ما قال ربكم؟ قال: ما أنعمت على عبادي من نعمة إلا أصبح فريق منهم بها كافرين يقولون: الكواكب وبالكواكب»**[2].

* عن زيد بن خالد الجهني أنه قال: صلى لنا رسول اللَّه ﷺ الصبح بالحديبية على أثر سماء كانت من الليلة، فلما انصرف أقبل على الناس فقال: **هل تدرون ماذا قال ربكم؟** قالوا: اللَّه ورسوله أعلم، قال: **«أصبح من عبادي مؤمن بي وكافر: فأما من قال: مطرنا بفضل اللَّه ورحمته، فذلك مؤمن بي وكافر بالكوكب، وأما من قال: بنوء كذا وكذا، فذلك كافر بي ومؤمن بالكوكب»**[3].

★ غريب الحديث:

نوء: «النوء في كلام العرب: واحد أنواء النجوم، يقال: ناء النجم ينوء، أي: نهض ينهض للطلوع، وقد يكون أن يميل للمغيب، ومما قيل: ناوأت فلانًا بالعداوة، أي: ناهضته، ومنه قولهم: الحِمل ينوء بالدابة، أي: يميل بها، وكل ناهض بثقل وإبطاء فقد ناء.

والأنواء على الحقيقة: النجوم التي هي منازل القمر، وهي ثمان وعشرون منزلة يبدو لعين الناظر منها أربعة عشر منزلًا ويخفى أربعة عشر، فكلما غاب بالمغرب طلع رقيبه من المشرق، فليس يعدم منها أبدًا أربعة عشر للناظرين في السماء، وإذا لم ينزل مع النوء ماء قيل: خوى النجم وأخوى، وخوى النوء وأخلف»[4].

---

(١) أخرجه مسلم (١/ ٨٤/ ٧٣).

(٢) أخرجه: أحمد (٢/ ٣٦٢و٣٦٨و٤٢١)، ومسلم (١/ ٨٤/ ٧٢)، والنسائي (٣/ ١٨٣/ ١٥٢٣).

(٣) أخرجه: أحمد (٤/ ١١٧)، والبخاري (٢/ ٤٢٤/ ٨٤٦)، ومسلم (١/ ٨٣/ ٧١)، وأبو داود (٤/ ٢٢٧/ ٣٩٠٦)، والنسائي (٣/ ١٨٣-١٨٤/ ١٥٢٤).

(٤) فتح البر (١/ ٣٥٣).

إثر سماء كانت من الليل: إثر الشيء بعده وعقبه، ويقال فيه: أَثَر. والسماء هنا: المطر؛ سمي بذلك لأنه من السماء ينزل. وحقيقة السماء: كل ما علاك فأظلك.

★ فوائد الحديث:

قال القرطبي: «وكانت العرب إذا طلع نجم من المشرق وسقط آخر من المغرب فحدث عند ذلك مطر أو ريح فمنهم من ينسبه إلى الطالع، ومنهم من ينسبه إلى الغارب الساقط، نسبة إيجاد واختراع، ويطلقون ذلك القول المذكور في الحديث؛ فنهى الشرع عن إطلاق ذلك؛ لئلاّ يعتقد أحد اعتقادهم، ولا يتشبه بهم في نطقهم»[١].

قال ابن عبد البر: «وأما العرب فكانت تضيف المطر إلى النوء، وهذا عندهم معروف مشهور في أخبارهم وأشعارهم، فلما جاء الإسلام نهاهم رسول اللَّه ﷺ عن ذلك، وأدّبهم، وعرّفهم ما يقولون عند نزول الماء، وذلك أن يقولوا: «**مُطرنا بفضل اللَّه ورحمته**»، ونحو هذا من الإيمان والتسليم لما نطق به القرآن»[٢].

قال القرطبي: «قوله: «**أصبح من الناس شاكر ومنهم كافر**» أصل الشكر: الظهور، ومنه قولهم: دابّة شَكور، إذا ظهر عليها من السمن فوق ما تأكله من العلف، والشاكر: هو الذي يثني بالنعمة ويظهرها، ويعترف بها للمنعم. وجحدها: كفرانها، فمن نسب المطر إلى اللَّه تعالى، وعرف منّته فيه، فقد شكر اللَّه تعالى، ومن نسبَه إلى غيره فقد جحد نعمة اللَّه تعالى في ذلك، وظلم بنسبتها لغير المنعم بها، فإن كان ذلك عن اعتقاد كان كافرًا ظالمًا حقيقة، وإن كان عن غير معتقد فقد تشبّه بأهل الكفر والظلم الحقيقي، كما قلناه آنفًا، وقد قابل في هذا الحديث بين الشكر والكفر، فدلّ ظاهره على أن المراد بالكفر ههنا كفران النعم، لا الكفر باللَّه تعالى، ويحتمل أن يكون المراد به الكفر الحقيقي، ويؤيِّد ذلك استدلال النبي ﷺ بقوله تعالى: ﴿وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ ۝٨٢﴾[٣]، أي: تجعلون شكر رزقكم التكذيب، على حذف المضاف، قاله المفسرون»[٤].

---

(١) المفهم (١/ ٢٦٠).
(٢) فتح البر (١/ ٣٥٣).
(٣) الواقعة: الآية (٨٢).
(٤) المفهم (١/ ٢٦٠).

قال أبو عمر: «وأما قوله حاكيًا عن اللَّه ﷻ: «**أصبح من عبادي مؤمن بي وكافر**» فمعناه عندي على وجهين: أما أحدهما: فإن المعتقد أن النوء هو الموجب لنزول الماء، وهو المنشئ للسحاب دون اللَّه ﷻ، فذلك كافر كفرًا صريحًا يجب استتابته عليه وقتله لنبذه الإسلام وردّه القرآن. والوجه الآخر: أن يعتقد أن النوء ينزل اللَّه به الماء، وأنه سبب الماء على ما قدره اللَّه وسبق في علمه، فهذا وإن كان وجهًا مباحًا، فإن فيه أيضًا كفرًا بنعمة اللَّه ﷻ، وجهلًا بلطيف حكمته؛ لأنه ينزل الماء متى شاء مرة بنوء كذا ومرة دون النوء، وكثيرًا ما يخوى النوء فلا ينزل معه شيء من الماء، وذلك من اللَّه لا من النوء، وكذلك كان أبو هريرة يقول إذا أصبح وقد مطر: «**مطرنا بنوء الفتح**» ثم يتلو: ﴿مَّا يَفْتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا﴾[1]. وهذا عندي نحو قول رسول اللَّه ﷺ: «**مطرنا بفضل اللَّه وبرحمته**»»[2].

وقال أيضًا: «قال الشافعي: لا أحب لأحد أن يقول: مطرنا بنوء كذا، وإن كان النوء عندنا الوقت، والوقت مخلوق لا يضر ولا ينفع ولا يمطر ولا يحبس شيئًا من المطر، والذي أحب أن يقول: مُطرنا وقت كذا، كما يقول: مُطرنا شهر كذا؛ ومن قال: مُطرنا بنوء كذا، وهو يريد أن النوء أنزل الماء، كما كان بعض أهل الشرك من أهل الجاهلية يقول، فهو كافر حلالٌ دمه إن لم يتب هذا من قوله»[3].

وجملة القول فيمن يجعل الأنواء سببًا مع اعتقاده أن اللَّه هو المنزل للمطر أنه مشرك شركًا أصغر؛ لأنه جعل سببًا للمطر لم يجعله اللَّه سببًا لا شرعًا ولا كونًا. أفاده الشيخ ابن عثيمين[4].

قال الشيخ العثيمين: «وقوله: «**وأما من قال: مطرنا بنوء كذا وكذا**»، الباء للسببية؛ «**فذلك كافر بي مؤمن بالكوكب**»، وصار كافرًا بالله؛ لأنه أنكر نعمة اللَّه ونسبها إلى سبب لم يجعله اللَّه سببًا، وتعلقت نفسه بهذا السبب، ونسي نعمة اللَّه، وهذا الكفر لا يخرج من الملة؛ لأن المراد نسبة المطر إلى النوء على أنه سبب،

---

(١) فاطر: الآية (٢).

(٢) فتح البر (١/ ٣٥٢).

(٣) المصدر السابق (١/ ٣٥١).

(٤) مجموع رسائل وفتاوى العثيمين (١٠/ ٥٩٨).

وليس إلى النوء على أنه فاعل.

لأنه قال: «**مطرنا بنوء كذا**» ولم يقل: أنزل علينا المطر نوءُ كذا؛ لأنه لو قال ذلك؛ لكان نسبة المطر إلى النوء نسبة إيجاد، وبه نعرف خطأ من قال: إن المراد بقوله: «**مطرنا بنوء كذا**» نسبة المطر إلى النوء نسبة إيجاد؛ لأنه لو كان هذا هو المراد؛ لقال: أنزل علينا المطر نوءُ كذا، ولم يقل: مطرنا به.

فعلم أن المراد أن من أقرّ بأن الذي خلق المطر وأنزله هو اللَّه، لكن النوء هو السبب؛ فهو كافر، وعليه يكون من باب الكفر الأصغر الذي لا يخرج من الملة.

والمراد بالكوكب النجم، وكانوا ينسبون المطر إليه، ويقولون: إذا سقط النجم الفلاني جاء المطر، وإذا طلع النجم الفلاني جاء المطر، وليسوا ينسبونه إلى هذا نسبة وقت، وإنما نسبة سبب؛ فنسبة المطر إلى النوء تنقسم إلى ثلاثة أقسام:

١- نسبة إيجاد، وهذه شرك أكبر.

٢- نسبة سبب، وهذه شرك أصغر.

٣- نسبة وقت، وهذه جائزة بأن يريد بقوله: مُطرنا بنوء كذا؛ أي: جاءنا المطر في هذا النوء، أي: في وقته.

ولهذا قال العلماء: يحرم أن يقول: مطرنا بنوء كذا، ويجوز: مطرنا في نوء كذا، وفرّقوا بينهما أن (الباء) للسببية، و(في) للظرفية، ومن ثم قال أهل العلم: إنه إذا قال: مطرنا بنوء كذا، وجعل (الباء) للظرفية، فهذا جائز، وهذا وإن كان له وجه من حيث المعنى، لكن لا وجه له من حيث اللفظ؛ لأن لفظ الحديث: «**من قال: مطرنا بنوء كذا**»، والباء للسببية أظهر منها للظرفية، وهي وإن جاءت للظرفية كما في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ ۝ وَبِالَّيْلِ﴾[1]، لكن كونها للسببية أظهر، والعكس بالعكس، فـ(في) للظرفية أظهر منها للسببية وإن جاءت للسببية؛ كما في قوله ﷺ: «**دخلت امرأة النار في هرّة**»[2].

والحاصل أن الأقرب المنع ولو قصد الظرفية، لكن إذا كان المتكلم لا يعرف

---

(١) الصافات: الآيتان (١٣٧و١٣٨).

(٢) الحديث أخرجه: أحمد (٢/ ١١٦)، والبخاري (٦/ ٤٣٨/ ٣٣١٨)، ومسلم (٤/ ١٧٦٠/ ٢٢٤٢) من حديث ابن عمر رضي الله عنهما.

من الباء إلا الظرفية مطلقًا، ولا يظن أنها تأتي سببية؛ فهذا جائز، ومع ذلك؛ فالأولى أن يقال لهم: قولوا: في نوء كذا»[١].

* عن أبي مالك الأشعري أن النبي ﷺ قال: **«أربع في أمتي من أمر الجاهلية لا يتركونهن: الفخر في الأحساب، والطعن في الأنساب، والاستسقاء بالنجوم، والنياحة»**. وقال: **«النائحة إذا لم تتب قبل موتها تقام يوم القيامة وعليها سربال من قطران ودرع من جرب»**[٢].

★ غريب الحديث:

الفخر بالأحساب: التعالي والتعاظم، والباء للسببية، أي: يفخر بسبب الحسب الذي هو عليه. والحَسب: ما يَحتسبه الإنسان من شرف وسؤدد، كأن يكون من بني هاشم فيفتخر بذلك، أو من آباء وأجداد مشهورين بالشجاعة فيفتخر بذلك.

الطعن في الأنساب: الطعن: العيب؛ لأنه وخز معنوي كوخز الطاعون في الجسد، ولهذا سمّي العيب طعنًا. والأنساب: جمع نسب، وهو أصل الإنسان وقرابته، فيطعن في نسبه[٣].

★ فوائد الحديث:

قال الشيخ سليمان بن عبد اللّه آل الشيخ: «قوله: **«أربع في أمتي من أمر الجاهلية، لا يتركونهن»**، أي: من أفعال أهلها، بمعنى أنها معاصي ستفعلها هذه الأمة؛ إما مع العلم بتحريمها، وإما مع الجهل بذلك كما كان أهل الجاهلية يفعلونها. والمراد بالجاهلية هنا ما قبل المبعث؛ سموا بذلك لفرط جهلهم، وكل ما يخالف ما جاءت به الأنبياء والمرسلون فهو جاهلية منسوبة إلى الجاهل؛ فإن ما كانوا عليه من الأقوال والأعمال إنما أحدثه لهم جاهل، وإنما يفعله جاهل. قال شيخ الإسلام: أخبر أن بعض أمر الجاهلية لا يتركه الناس كلهم ذمًّا لمن لم يتركه، وهذا يقتضي أن ما كان من أمر الجاهلية وفعلهم فهو مذموم في دين الإسلام،

---

(١) مجموع رسائل وفتاوى العثيمين (١٠/ ٦٠٩-٦١١).

(٢) أخرجه: أحمد (٥/ ٣٤٢)، مسلم (٢/ ٦٤٤/ ٩٣٤) واللفظ له، وابن ماجه (١/ ٥٠٣-٥٠٤/ ١٥٨١).

(٣) انظر الغريب في مجموع فتاوى ورسائل الشيخ ابن عثيمين (١٠/ ٦٠٢-٦٠٣).

وإلا لم يكن في إضافة هذه المنكرات إلى الجاهلية ذمّ لها . ومعلوم أن إضافتها إلى الجاهلية خرج مخرج الذم، وهذا كقوله تعالى: ﴿وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ ٱلْأُولَىٰ﴾[1] ؛ فإن في ذلك ذمًّا للتبرج وذمًّا لحال الجاهلية الأولى، وذلك يقتضي المنع من مشابهتهم في الجملة. .

قوله: **«والاستسقاء بالنجوم»**، أي: نسبة السقيا ومجيء المطر إلى النجوم والأنواء. .

فالاستسقاء بالنجوم نوعان:

أحدهما: أن يعتقد أن المنزل للمطر هو النجم؛ فهذا كفر ظاهر؛ إذ لا خالق إلا اللَّه، وما كان المشركون هكذا، بل كانوا يعلمون أن اللَّه هو المنزل للمطر، كما قال تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّن نَّزَّلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾[2]، وليس هذا معنى الحديث؛ فالنبي ﷺ أخبر أن هذا لا يزال في أمته، ومن اعتقد أن النجم ينزل المطر فهو كافر.

الثاني: أن ينسب إنزال المطر إلى النجم مع اعتقاده أن اللَّه تعالى هو الفاعل لذلك المنزل له، لكن معنى أن اللَّه وتعالى أجرى العادة بوجود المطر عند ظهور ذلك النجم، فحكى ابن مفلح خلافًا في مذهب أحمد في تحريمه وكراهته، وصرح أصحاب الشافعي بجوازه، والصحيح أنه محرم؛ لأنه من الشرك الخفي، وهو الذي أراده النبي ﷺ، وأخبر أنه من أمر الجاهلية، ونفاه، وأبطله، وهو الذي كان يزعم المشركون، ولم يزل موجودًا في هذه الأمة إلى اليوم، وأيضًا، فإن هذا من النبي ﷺ حماية لجناب التوحيد، وسدّ لذرائع الشرك ولو بالعبادات الموهمة التي لا يقصدها الإنسان؛ كما قال لرجل قال له: ما شاء اللَّه وشئت، قال: **«أجعلتني لله ندًّا؟ بل ما شاء اللَّه وحده»**[3].

وفيه التنبيه على ما هو أولى بالمنع من نسبة السقيا إلى الأنواء؛ كدعاء

(١) الأحزاب: الآية (٣٣).

(٢) العنكبوت: الآية (٦٣).

(٣) الحديث أخرجه: أحمد (١/ ٢١٤)، والبخاري في الأدب المفرد (رقم: ٧٨٣)، والنسائي في عمل اليوم والليلة (رقم: ٩٨٨)، وابن ماجه (١/ ٦٨٤/ ٢١١٧) من حديث ابن عباس ﵄.

الأموات، وسؤالهم الرزق والنصر والعافية، ونحو ذلك من المطالب؛ فإن هذا من الشرك الأكبر، سواء قالوا: إنهم شفعاؤنا إلى اللَّه، كما قال المشركون: ﴿هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ﴾[1]، أو اعتقدوا أنهم يخلقون، ويرزقون، وينصرون، استقلالًا على سبيل الكرامة، كما ذكره بعض عباد القبور في رسالة صنفها في ذلك؛ لأنه إذا منع من إطلاق نسبة السقيا إلى الأنواء مع عدم القصد والاعتقاد، فلأن يمنع من دعاء الأموات والتوجّه إليهم في الملمات مع اعتقاد أن لهم أنواع التصرفات أولى وأحرى»[2].

* * *

(١) يونس: الآية (١٨).

(٢) تيسير العزيز الحميد (ص: ٣٩٧-٤٠٠).

قوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَقُرۡءَانٞ كَرِيمٞ ٧٧﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال القنوجي: «ذكر سبحانه المقسم عليه فقال: ﴿إِنَّهُۥ لَقُرۡءَانٞ كَرِيمٞ ٧٧﴾، أي: كرمه اللَّه وأعزه، ورفع قدره على جميع الكتب، وكرمه عن أن يكون سحرًا وكهانة أو كذبًا»[1].

قال ابن القيم: «فوصفه بما يقتضي حسنه، وكثرة خيره، ومنافعه وجلالته؛ فإن الكريم هو البهي الكثير الخير، العظيم النفع، وهو من كل شيء أحسنه وأفضله، واللَّه سبحانه وصف نفسه بالكرم، ووصف به كلامه، ووصف به عرشه، ووصف به ما كثر خيره، وحسن منظره من النبات وغيره، ولذلك فسر السلف (الكريم) بالحسن. قال الكلبي: ﴿إِنَّهُۥ لَقُرۡءَانٞ كَرِيمٞ ٧٧﴾ أي: حسن كريم على اللَّه، وقال مقاتل: كرمه اللَّه وأعزّه؛ لأنه كلامه. وقال الأزهري: الكريم: اسم جامع لما يحمد. واللَّه كريم جميل الفعال، وإنه لقرآن كريم يُحمد؛ لما فيه من الهدى والبيان والعلم والحكمة. وبالجملة فالكريم الذي من شأنه أن يعطي الخير الكثير بسهولة ويسر. وضده اللئيم الذي لا يخرج خيره النزر إلا بعسر وصعوبة. وكذلك الكريم في الناس واللئيم»[2].

* * *

---

(١) فتح البيان (١٣/ ٣٨٢).

(٢) التبيان في أقسام القرآن (ص: ١٣٥).

قوله تعالى: ﴿فِي كِتَابٍ مَّكْنُونٍ ۝٧٨ لَا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ ۝٧٩﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن القيم: «﴿فِي كِتَابٍ مَّكْنُونٍ ۝٧٨﴾ اختلف المفسرون في هذا، فقيل: هو اللوح المحفوظ. والصحيح أنه الكتاب الذي بأيدي الملائكة، وهو المذكور في قوله: ﴿فِي صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ ۝١٣ مَّرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍ ۝١٤ بِأَيْدِي سَفَرَةٍ ۝١٥ كِرَامٍ بَرَرَةٍ ۝١٦﴾[1]، ويدل على أنه الكتاب الذي بأيدي الملائكة قوله: ﴿لَّا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ ۝٧٩﴾، فهذا يدل على أنه بأيديهم يمسونه. وهذا هو الصحيح في معنى الآية، ومن المفسرين من قال: إن المراد به أن المصحف لا يمسه إلا طاهر.

والأول أرجح لوجوه:

أحدها: أن الآية سيقت تنزيهًا للقرآن أن تنزل به الشياطين، وأن محله لا يصل إليه فيمسه إلا المطهرون، فيستحيل على أخابث خلق اللَّه وأنجسهم أن يصلوا إليه أو يمسوه، كما قال تعالى: ﴿وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ الشَّيَاطِينُ ۝٢١٠ وَمَا يَنبَغِي لَهُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ ۝٢١١﴾[2]، فنفى الفعل وتأتّيه منهم وقدرتهم عليه، فما فعلوا ذلك ولا يليق بهم، ولا يقدرون عليه. فإن الفعل قد ينتفي عمن يحسن منه، وقد يليق بمن لا يقدر عليه، فنفى عنهم الأمور الثلاثة، وكذلك قوله في سورة (عبس): ﴿فِي صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ ۝١٣ مَّرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍ ۝١٤ بِأَيْدِي سَفَرَةٍ ۝١٥ كِرَامٍ بَرَرَةٍ ۝١٦﴾[3]، فوصف محله بهذه الصفات بيانًا أن الشيطان لا يمكنه أن يتنزل به. وتقرير هذا المعنى أهم وأجل وأنفع من بيان كون المصحف لا يمسه إلا طاهر.

الوجه الثاني: أن السورة مكية، والاعتناء في السور المكية إنما هو بأصول الدين، من تقرير التوحيد والمعاد والنبوة. وأما تقرير الأحكام والشرائع فمظنة

---

(١) عبس: الآيات (١٣-١٦).

(٢) الشعراء: الآيتان (٢١٠و٢١١).

(٣) عبس: الآيات (١٣-١٦).

السور المدنية.

الثالث: إن القرآن لم يكن في مصحف عند نزول هذه الآية، ولا في حياة رسول الله ﷺ. وإنما جمع في المصحف في خلافة أبي بكر. وهذا وإن جاز أن يكون باعتبار ما يأتي، فالظاهر أنه إخبار بالواقع حال الإخبار، يوضحه:

الوجه الرابع: وهو قوله: ﴿فِي كِتَٰبٖ مَّكۡنُونٖ ٧٨﴾ والمكنون المصون المستور عن الأعين، الذي لا تناله أيدي البشر، كما قال تعالى: ﴿كَأَنَّهُنَّ بَيۡضٞ مَّكۡنُونٞ ٤٩﴾[1] وهكذا قال السلف. قال الكلبي: مكنون من الشياطين، وقال مقاتل: مستور، وقال مجاهد: لا يصيبه تراب ولا غبار، وقال أبو إسحق: مصون في السماء، يوضحه:

الوجه الخامس: أن وصفه بكونه مكنونًا نظير وصفه بكونه محفوظًا؛ فقوله: (قرآن كريم في كتاب مكنون) كقوله: ﴿بَلۡ هُوَ قُرۡءَانٞ مَّجِيدٞ ٢١ فِي لَوۡحٖ مَّحۡفُوظِۭ ٢٢﴾[2].

الوجه السادس: أن هذا أبلغ في الرد على المكذّبين، وأبلغ في تعظيم القرآن من كون المصحف لا يمسه محدث.

الوجه السابع: قوله: ﴿لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلۡمُطَهَّرُونَ ٧٩﴾ بالرفع، فهذا خبر لفظًا ومعنىً. ولو كان نهيًا لكان مفتوحًا. ومن حمل الآية على النهي احتاج إلى صرف الخبر عن ظاهره، إلى معنى النهي. والأصل في الخبر والنهي حمل كل منهما على حقيقته. وليس ههنا موجب يوجب صرف الكلام عن الخبر إلى النهي.

الوجه الثامن: أنه قال: ﴿إِلَّا ٱلۡمُطَهَّرُونَ﴾، ولم يقل: (إلا المتطهرون). ولو أراد به منع المحدث من مسه لقال: إلا المتطهرون. كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلۡمُتَطَهِّرِينَ﴾[3] وفي الحديث: «**اللهم اجعلني من التوابين واجعلني من المتطهرين**»[4] فالمتطهر فاعل التطهير، والمطهر الذي طهره غيره، فالمتوضئ

---

(١) الصافات: الآية (٤٩).

(٢) البروج: الآيتان (٢١و٢٢).

(٣) البقرة: الآية (٢٢٢).

(٤) أخرجه الترمذي (١/ ٧٨-٧٩/ ٥٥) من حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه، والحديث صححه الشيخ الألباني في الإرواء (٩٦)، وفي صحيح سنن أبي داود (١٦٢).

متطهر، والملائكة مطهرون.

الوجه التاسع: أنه لو أريد به المصحف الذي بأيدينا، لم يكن في الإخبار عن كونه مكنونًا كبير فائدة؛ إذ مجرد كون الكلام مكنونًا في كتاب، لا يستلزم ثبوته، فكيف يمدح القرآن بكونه مكنونًا في كتاب، وهذا أمر مشترك؟ والآية إنما سيقت لبيان مدحه وتشريفه، وما اختص به من الخصائص، التي تدل على أنه منزل من عند اللَّه، وأنه محفوظ مصون، لا يصل إليه شيطان بوجه ما، ولا يمس محله إلا المطهرون، وهم السفرة الكرام البررة.

الوجه العاشر: ما رواه سعيد بن منصور في سننه حدثنا أبو الأحوص حدثنا عاصم الأحول عن أنس بن مالك في قوله: ﴿لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُطَهَّرُونَ ﴿٧٩﴾﴾ قال: المطهرون: الملائكة. وهذا عند طائفة من أهل الحديث في حكم المرفوع. وقال الحاكم: تفسير الصحابة عندنا في حكم المرفوع، ومن لم يجعله مرفوعًا فلا ريب أنه عنده أصح من تفسير مَن بعد الصحابة، والصحابة أعلم الأمة بتفسير القرآن. ويجب الرجوع إلى تفسيرهم. وقال حرب في مسائله: سمعت إسحق في قوله: ﴿لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُطَهَّرُونَ ﴿٧٩﴾﴾ قال: النسخة التي في السماء لا يمسها إلا المطهرون. قال: الملائكة.

وسمعت شيخ الإسلام يقرر الاستدلال بالآية على أن المصحف لا يمسه المحدث بوجه آخر، فقال: هذا من باب التنبيه والإشارة، إذا كانت الصحف التي في السماء لا يمسها إلا المطهرون، فكذلك الصحف التي بأيدينا من القرآن لا ينبغي أن يمسها إلا طاهر. والحديث مشتق من هذه الآية»[1].

وقال أيضًا: «دلّت الآية بإشارتها وإيمائها على أنه لا يدرك معانيه ولا يفهمه إلا القلوب الطاهرة، وحرام على القلب المتلوث بنجاسة البدع والمخالفات أن ينال معانيه وأن يفهمه كما ينبغي، قال البخاري في صحيحه في هذه الآية: لا يجد طعمه إلا من آمن به. وهذا أيضًا من إشارة الآية وتنبيهها، وهو أنه لا يلتذ به، وبقراءته، وفهمه، وتدبره، إلا من شهد أنه كلام اللَّه، تكلم به حقًّا، وأنزله على رسوله وحيًا، ولا ينال معانيه إلا من لم يكن في قلبه حرج منه بوجه من الوجوه.

---

(١) التبيان في أقسام القرآن (ص: ١٣٥-١٣٧).

فمن لم يؤمن بأنه حق من عند اللَّه ففي قلبه منه حرج، ومن لم يؤمن بأن اللَّه سبحانه تكلم به وحيًا وليس مخلوقًا من جملة مخلوقاته، ففي قلبه منه حرج. ومن قال: إن له باطنًا يخالف ظاهره، وإن له تأويلًا يخالف ما يفهم منه، ففي قلبه منه حرج. ومن قال: إن له تأويلًا لا نفهمه ولا نعلمه، وإنما نتلوه متعبدين بألفاظه، ففي قلبه منه حرج. ومن سلط عليه آل الآرائيين، وهذيان المتكلمين، وسفسطة المسفسطين، وخيالات المتصوفين، ففي قلبه منه حرج. ومن جعله تابعًا لنحلته ومذهبه وقول من قلده دينه، ينزل على أقواله، ويتكلف حمله عليها، ففي قلبه منه حرج. ومن لم يحكمه ظاهرًا وباطنًا في أصول الدين وفروعه، ويسلم وينقاد لحكمه أين كان، ففي قلبه منه حرج، ومن لم يأتمر بأوامره، وينزجر عن زواجره، ويصدق جميع أخباره، ويحكم أمره ونهيه وخبره، ويرد له كل أمر ونهي وخبر خالفه، ففي قلبه منه حرج. وكل هؤلاء لم تمس قلوبهم معانيه، ولا يفهمونه كما ينبغي أن يفهم، ولا يجدون من لذة حلاوته وطعمه ما وجده الصحابة ومن تبعهم.

وأنت إذا تأملت قوله: ﴿لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُطَهَّرُونَ ﴿٧٩﴾﴾ وأعطيت الآية حقها من دلالة اللفظ وإيمائه وإشارته وتنبيهه، وقياس الشيء على نظيره، واعتباره بمشاكله، وتأملت المشابهة التي عقدها اللَّه سبحانه وربطها بين الظاهر والباطن، فهمت هذه المعاني كلها من الآية. وباللَّه التوفيق»[1].

وقال أيضًا: «وأنت إذا تأملت قوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَقُرْءَانٌ كَرِيمٌ ﴿٧٧﴾ فِى كِتَٰبٍ مَّكْنُونٍ ﴿٧٨﴾ لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُطَهَّرُونَ ﴿٧٩﴾﴾ وجدت الآية من أظهر الأدلة على نبوة النبي ﷺ، وأن هذا القرآن جاء من عند اللَّه، وأن الذي جاء به روح مطهر، فما للأرواح الخبيثة عليه سبيل، ووجدت الآية أخت قوله: ﴿وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ ٱلشَّيَٰطِينُ ﴿٢١٠﴾ وَمَا يَنۢبَغِى لَهُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٢١١﴾﴾[2]، ووجدتها دالة بأحسن الدلالة على أنه لا يمس المصحف إلا طاهر، ووجدتها دالة أيضًا بألطف الدلالة على أنه لا يجد حلاوته وطعمه إلا من آمن به وعمل به، كما فهمه البخاري من الآية فقال في صحيحه في باب: ﴿قُلْ فَأْتُوا۟ بِٱلتَّوْرَىٰةِ فَٱتْلُوهَآ﴾[3]: ﴿لَّا يَمَسُّهُۥٓ﴾ لا يجد طعمه ونفعه إلا من آمن بالقرآن،

---

(١) المصدر السابق (ص: ١٣٩).

(٢) الشعراء: الآيتان (٢١٠و٢١١).

(٣) آل عمران: الآية (٩٣).

ولا يحمله بحقه إلا المؤمن، لقوله تعالى: ﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ حُمِّلُواْ ٱلتَّوْرَىٰةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ ٱلْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا﴾[١]، وتجد تحته أيضًا أنه لا ينال معانيه ويفهمه كما ينبغي إلا القلوب الطاهرة، وأن القلوب النجسة ممنوعة من فهمه مصروفة عنه، فتأمل هذا النسب القريب وعقد هذه الأخوة بين هذه المعاني وبين المعنى الظاهر من الآية واستنباط هذه المعاني كلها من الآية بأحسن وجه وأبينه، فهذا من الفهم الذي أشار إليه علي ﷺ»[٢].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في مس المصحف

* عن أبي بكر بن محمد بن عمرو بن حزم عن أبيه عن جده: أن رسول اللَّه ﷺ كتب إلى أهل اليمن كتابًا، فكان فيه: «**لا يمس القرآن إلا طاهرًا**»[٣].

★ فوائد الحديث:

قال الشوكاني: «الحديث يدل على أنه لا يجوز مس المصحف إلا لمن كان طاهرًا، ولكن الطاهر يطلق بالاشتراك على المؤمن، والطاهر من الحدث الأكبر والأصغر، ومن ليس على بدنه نجاسة. ويدل لإطلاقه على الأول قول اللَّه تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ﴾[٤] وقوله ﷺ لأبي هريرة: «**المؤمن لا ينجُس**»[٥]، وعلى الثاني: ﴿وَإِن كُنتُمْ جُنُبًا فَٱطَّهَّرُواْ﴾[٦]، وعلى الثالث قوله ﷺ في المسح على الخفين: «**دعهما فإني أدخلتهما طاهرتين**»[٧]، وعلى الرابع الإجماع على أن الشيء

---

(١) الجمعة: الآية (٥).

(٢) إعلام الموقعين (١/ ٢٢٥-٢٢٦).

(٣) أخرجه: الطبراني (٣/ ٢٢٩-٢٣٠)، والدارقطني (١/ ١٢٢)، والحاكم (٣/ ٤٧٥)، وقال: «هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه» ووافقه الذهبي، وابن حبان (١٤/ ٥٠١)، وقال الهيثمي في المجمع (١/ ٢٨١-٢٨٢): «رواه الطبراني في الكبير والأوسط، وفيه سويد أبو حاتم، ضعفه النسائي وابن معين في رواية، ووثقه في رواية».

(٤) التوبة: الآية (٢٨).

(٥) أخرجه: أحمد (٢/ ٢٣٥)، والبخاري (١/ ٥١٥/ ٢٨٥)، ومسلم (١/ ٢٨٢/ ٣٧١)، وأبو داود (١/ ١٥٦/ ٢٣١)، والنسائي (١/ ١٥٩/ ٢٦٩)، وابن ماجه (١/ ١٧٨/ ٥٣٤).

(٦) المائدة: الآية (٦).

(٧) أخرجه: أحمد (٤/ ٢٥١)، والبخاري (١/ ٤٠٩/ ٢٠٦)، ومسلم (١/ ٢٢٨-٢٢٩/ ٢٤٧) من حديث المغيرة ابن شعبة ﷺ.

الذي ليس عليه نجاسة حسية ولا حكمية يسمى طاهرًا، وقد ورد إطلاق ذلك في كثير، فمن أجاز حمل المشترك على جميع معانيه حمله عليها هنا . والمسألة مدونة في الأصول وفيها مذاهب. والذي يترجح أن المشترك مجمل فيها، فلا يعمل به حتى يبين، وقد وقع الإجماع على أنه لا يجوز للمحدث حدثًا أكبر أن يمس المصحف، وخالف في ذلك داود.

استدل المانعون للجنب بقوله تعالى: ﴿لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُطَهَّرُونَ ﴿٧٩﴾﴾، وهو لا يتم إلا بعد جعل الضمير راجعًا إلى القرآن، والظاهر رجوعه إلى الكتاب، وهو اللوح المحفوظ؛ لأنه الأقرب، والمطهرون: الملائكة، ولو سلم عدم الظهور فلا أقل من الاحتمال، فيمتنع العمل بأحد الأمرين، ويتوجه الرجوع إلى البراءة الأصلية، ولو سلم رجوعه إلى القرآن على التعيين لكانت دلالته على المطلوب وهو منع الجنب من مسه- غير مسلمة؛ لأن المطهر من ليس بنجس، والمؤمن ليس بنجس دائمًا لحديث: «**المؤمن لا ينجس**» وهو متفق عليه، فلا يصح حمل المطهر على من ليس بجنب أو حائض أو محدث أو متنجس بنجاسة عينية، بل يتعين حمله على من ليس بمشرك كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ﴾ لهذا الحديث، ولحديث النهي عن السفر بالقرآن إلى أرض العدو، ولو سلم صدق اسم الطاهر على من ليس بمحدث حدثًا أكبر أو أصغر، فقد عرفت أن الراجح كون المشترك مجملًا في معانيه، فلا يعين حتى يبين. وقد دل الدليل ههنا أن المراد به غيره لحديث: «**المؤمن لا ينجس**»، ولو سلم عدم وجود دليل يمنع من إرادته، لكان تعيينه لمحل النزاع ترجيحًا بلا مرجح، وتعيينه لجميعها استعمالًا للمشترك في جميع معانيه وفيه الخلاف، ولو سلم رجحان القول بجواز الاستعمال للمشترك في جميع معانيه لما صح لوجود المانع وهو حديث: «**المؤمن لا ينجس**». . قال السيد العلامة محمد بن إبراهيم الوزير: إن إطلاق اسم النجس على المؤمن الذي ليس بطاهر من الجنابة أو الحيض أو الحدث الأصغر لا يصح لا حقيقة ولا مجازًا ولا لغة، صرح بذلك في جواب سؤال ورد عليه، فإن ثبت هذا فالمؤمن طاهر دائمًا فلا يتناوله الحديث، سواء كان جنبًا أو حائضًا أو محدثًا أو على بدنه نجاسة.

فإن قلت: إذا تم ما تريد من حمل الطاهر على من ليس بمشرك، فما جوابك فيما ثبت في المتفق عليه من حديث ابن عباس: «أنه ﷺ كتب إلى هرقل عظيم الروم:

أسلم تسلم، وأسلم يؤتك اللَّه أجرك مرتين، فإن توليت فإن عليك إثم الأريسيين، و﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ تَعَالَوۡاْ إِلَىٰ كَلِمَةٖ﴾ إلى قوله: ﴿مُسۡلِمُونَ﴾[1]»[2]، مع كونهم جامعين بين نجاستي الشرك والاجتناب، ووقوع اللمس منهم له معلوم؟

قلت: اجعله خاصًّا بمثل الآية والآيتين، فإنه يجوز تمكين المشرك من مس ذلك المقدار لمصلحة، كدعائه إلى الإسلام. ويمكن أن يجاب عن ذلك بأنه قد صار باختلاطه بغيره لا يحرم لمسه ككتب التفسير، فلا تخصص به الآية والحديث.

إذا تقرر لك هذا، عرفت عدم انتهاض الدليل على منع من عدا المشرك، وقد عرفت الخلاف في الجنب. وأما المحدث حدثًا أصغر فذهب ابن عباس والشعبي والضحاك وزيد بن علي والمؤيد باللَّه والهادوية وقاضي القضاة وداود إلى أنه يجوز له مس المصحف. وقال القاسم وأكثر الفقهاء والإمام يحيى: لا يجوز، واستدلوا بما سلف، وقد سلف ما فيه»[3].

* * *

(١) آل عمران: الآية (٦٤).

(٢) أخرجه: أحمد (١/ ٢٦٢-٢٦٣)، والبخاري (٨/ ٢٧٠-٢٧٢/ ٤٥٥٣)، ومسلم (٣/ ١٣٩٣/ ١٧٧٣)، وأبو داود (٥/ ٣٤٨/ ٥١٣٦)، والترمذي (٥/ ٦٥/ ٢٧١٧)، والنسائي في الكبرى (٦/ ٣٠٩/ ١١٠٦٤).

(٣) نيل الأوطار (١/ ٢٤٨).

قوله تعالى: ﴿تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٠﴾﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن كثير: «قوله تعالى: ﴿تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٠﴾﴾ أي: هذا القرآن منزل من رب العالمين، وليس هو كما يقولون: إنه سحر أو كهانة أو شعر، بل هو الحق الذي لا مرية فيه، وليس وراءه حق نافع»[(١)].

قال ابن القيم: «أفاد كونه تنزيلًا من رب العالمين مطلوبين عظيمين من أجل مطالب الدين:

أحدهما: أنه المتكلم، وأنه منه نزل، ومنه بدأ، وهو الذي تكلم به. ومن هنا قال السلف: منه بدأ، ونظيره: ﴿وَلَٰكِنْ حَقَّ ٱلْقَوْلُ مِنِّى﴾[(٢)]، وقوله: ﴿قُلْ نَزَّلَهُۥ رُوحُ ٱلْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ﴾[(٣)].

والثاني: علو اللَّه سبحانه فوق خلقه، فإن النزول والتنزيل الذي تعقله العقول، وتعرفه الفطر، هو وصول الشيء من أعلى إلى أسفل. والرب تعالى إنما يخاطب عباده بما تعرفه فطرهم، وتشهد به عقولهم. وذكر التنزيل مضافًا إلى ربوبيته للعالمين المستلزمة تملكه لهم، وتصرفه فيهم، وحكمه عليهم، وإحسانه وإنعامه عليهم، وأن من هذا شأنه مع الخلق كيف يليق به مع ربوبيته التامة أن يتركهم سدىً، ويدعهم هملًا، ويخلقهم عبثًا، لا يأمرهم ولا ينهاهم، ولا يثيبهم ولا يعاقبهم. فمن أقر بأنه رب العالمين أقر بأن القرآن تنزيله على رسوله، واستدل بكونه رب العالمين على ثبوت رسالة رسوله، وصحة ما جاء به. وهذا الاستدلال أقوى وأشرف من الاستدلال بالمعجزات والخوارق، وإن كانت دلالتها أقرب إلى أذهان عموم الناس، وتلك إنما تكون لخواص العقلاء.

---

(١) تفسير القرآن العظيم (٨/ ٢٢).

(٢) السجدة: الآية (١٣).

(٣) النحل: الآية (١٠٢).

وقد أشار سبحانه إلى الطريقين في غير موضع من كتابه، كقوله: ﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ﴾[١] فهذا استدلال بالآيات المعاينة المخلوقة، ثم قال: ﴿أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ﴾ فهذا استدلال بكمال ربوبيته، وكمال أوصافه على صدق رسوله فيما جاء به. وهذه الطريق أخص وأقوى وأكمل وأعلى. والأول أعم وأشمل. وقد تقدم بيانها عند قوله تعالى: ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ ٱلْأَقَاوِيلِ ۝٤٤﴾[٢] وأين الاستدلال بأوصاف الرب تعالى وكماله المقدس على ثبوت النبي وبعثه، من الاستدلال عليه ببعض مخلوقاته؟

وتأمل فرق ما بين استدلال سيدة نساء العالمين خديجة رضي الله عنها بصفات الرب تعالى وصفات محمد ﷺ، واستنتاجها من بين هذين الأمرين صحة نبوته، وأنه رسول الله حقًّا. وأن من كانت هذه صفات ربه وخالقه تأبى أن يخزيه، وأنه يؤيده، ويعليه، ويتم نعمته عليه.

وأنت إذا تأملت هذه الطريقة وهذا الاستدلال وجدت بينها وبين طريقة المتكلمين من الفرق ما لا يخفى. وإذا حصل للعبد الفقه في الأسماء والصفات انتفع به في باب معرفة الحق والباطل من الأقوال، والطرائق، والمذاهب، والعقائد، أعظم انتفاع وأتمه، وقد بينا في كتابنا 'المعالم' بطلان التحيل وغيره من الحيل الربوية من أسماء الرب وصفاته، وأنه يستحيل على الحكيم أن يحرم الشيء ويتوعد على فعله بأعظم أنواع العقوبات، ثم يبيح التوصل إليه بنفسه بأنواع التحيلات، فأين ذلك الوعد الشديد، وجواز التوصل إليه بالطريق البعيد؛ إذ ليست حكمة الرب تعالى وكمال علمه وأسمائه وصفاته، تنتقض بإحالة ذلك وامتناعه عليه. فهذا استدلال بالفقه الأكبر في الأسماء والصفات على الفقه العملي في باب الأمر والنهي. وهذا باب حرام على الجهمي المعطل أن يلجه إلى الجنة، حرام عليه ريحها، وإن ريحها ليوجد من مسيرة خمسين ألف سنة. والله العزيز الوهاب، لا مانع لما أعطى، ولا معطي لما منع، وبه التوفيق»[٣].

* * *

(١) فصلت: الآية (٥٣). (٢) الحاقة: الآية (٤٤).

(٣) التبيان في أقسام القرآن (ص: ١٣٩-١٤١).

قوله تعالى: ﴿أَفَبِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ أَنتُم مُّدْهِنُونَ ﴿٨١﴾﴾

★ **غريب الآية:**

مدهنون: المدهن: المنافق الذي باطنه يخالف ظاهره.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره-: أفبهذا القرآن الذي أنبأتكم خبره، وقصصت عليكم أمره أيها الناس أنتم تلينون القول للمكذّبين به، ممالأة منكم لهم على التكذيب به والكفر.

واختلف أهل التأويل في تأويله، فقال بعضهم في ذلك نحو قولنا فيه..

وقال آخرون: بل معناه: أفبهذا الحديث أنتم مكذّبون»[1].

قال ابن القيم: «وبّخهم سبحانه على وضعهم الإدهان في غير موضعه، وأنهم يداهنون بما حقه أن يصدع به، ويفرق به، ويعض عليه بالنواجذ، وتثنى عليه الخناصر، وتعقد عليه القلوب والأفئدة، ويحارب ويسالم لأجله، ولا يلتوي عنه لا يمنة ولا يسرة، ولا يكون للقلب التفات إلى غيره، ولا محاكمة إلا إليه، ولا مخاصمة إلا به، ولا اهتداء في طرق المطالب العالية إلا بنوره، ولا شفاء إلا به، فهو روح الوجود، وحياة العالم، ومدار السعادة، وقائد الفلاح، وطريق النجاة، وسبيل الرشاد، ونور البصائر، فكيف تطلب المداهنة بما هذا شأنه، ولم ينزل للمداهنة؟ وإنما أنزل بالحق وللحق. والمداهنة إنما تكون في باطل قوي لا يمكن إزالته، أو في حق ضعيف لا يمكن إقامته، فيحتاج المداهن إلى أنه يترك بعض الحق ويلتزم بعض الباطل. فأما الحق الذي قام به كل حق، فكيف يدهن به؟!»[2].

---

(١) جامع البيان (٢٧/ ٢٠٧).

(٢) التبيان في أقسام القرآن (ص: ١٤١).

قوله تعالى: ﴿وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ ۝٨٢﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال السعدي: «وقوله: ﴿وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ ۝٨٢﴾ أي: تجعلون مقابلة منّة اللَّه عليكم بالرزق التكذيب والكفر لنعمة اللَّه، فتقولون: مُطرنا بنوء كذا وكذا، وتضيفون النعمة لغير مسديها ومواليها، فهلاّ شكرتم اللَّه تعالى على إحسانه؛ إذ أنزله اللَّه إليكم ليزيدكم من فضله، فإن التكذيب والكفر داعٍ لرفع النعم وحلول النقم»[١].

قال ابن القيم: «قال سبحانه: ﴿وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ ۝٨٢﴾ لما كان قوام كل واحد من البدن والقلب إنما هو بالرزق، فرزق البدن الطعامُ والشراب، ورزق القلب الإيمانُ والمعرفة بربه وفاطره، ومحبته، والشوق إليه، والأنس بقربه والابتهاج بذكره، وكان لا حياة له إلا بذلك، كما أن البدن لا حياة له إلا بالطعام والشراب، أنعم سبحانه على عباده بهذين النوعين من الرزق، وجعل قيام أبدانهم وقلوبهم بهما. ثم فاوت سبحانه بينهم في قسمة هذين الرزقين، بحسب ما اقتضاه علمه وحكمته، فمنهم من وفر حظه من الرزقين ووسع عليه فيهما. ومنهم من قتر عليه في الرزقين. ومنهم من وسع عليه رزق البدن وقتر عليه رزق القلب، وبالعكس. وهذا الرزق إنما يتم ويكمل بالشكر. والشكر مادة زيادته وسبب حفظه وبقائه، وترك الشكر سبب زواله وانقطاعه عن العبد؛ فإن اللَّه تعالى تأذن أنه لا بد أن يزيد الشكور من نعمه، ولا بد أن يسلبها من لم يشكرها، فلما وضعوا الكفر والتكذيب موضع الشكر والإيمان، جعلوا رزقهم نفسه تكذيبًا، فإن التصديق والشكر لما كانا سبب زيادة الرزق، وهما رزق القلب حقيقة، فهؤلاء جعلوا مكان هذا الرزق التكذيب والكفر، فجعلوا رزقهم التكذيب، وهذا المعنى هو الذي حام

---

(١) تيسير الكريم الرحمن (ص: ٨٣٦).

حوله من قال: التقدير: وتجعلون شكر رزقكم أنكم تكذبون. وقال آخرون: التقدير: وتجعلون بدل شكر رزقكم أنكم تكذبون، فحذف مضافين معًا. وهؤلاء أطالوا اللفظ وقصروا بالمعنى. ومن بعض معنى الآية قوله: مُطرنا بنوء كذا وكذا، فهذا لا يصح أن تدل عليه الآية ويراد بها، وإلا فمعناها أوسع منه وأعمّ وأعلى، واللَّه أعلم»[١].

* * *

(١) التبيان في أقسام القرآن (ص: ١٤١-١٤٢).

قوله تعالى: ﴿فَلَوْلَآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلْحُلْقُومَ ﴿٨٣﴾ وَأَنتُمْ حِينَئِذٍ تَنظُرُونَ ﴿٨٤﴾ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُبْصِرُونَ ﴿٨٥﴾ فَلَوْلَآ إِن كُنتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ ﴿٨٦﴾ تَرْجِعُونَهَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٨٧﴾﴾

★ غريب الآية:

مدينين: مجزيين ومحاسبين، من الدِّين، بمعنى الجزاء.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال السعدي: «أي: فهلاّ إذا بلغت الروح الحلقوم، وأنتم تنظرون المحتضر في هذه الحالة، والحال أنا نحن أقرب إليه منكم، بعلمنا وملائكتنا، ولكن لا تبصرون. ﴿فَلَوْلَآ إِن كُنتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ ﴿٨٦﴾﴾ أي: فهلاّ إذا كنتم تزعمون، أنكم غير مبعوثين ولا محاسبين ومجازين، ترجعون الروح إلى بدنها ﴿إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ وأنتم تقرون أنكم عاجزون عن ردها إلى موضعها، فحينئذ إما أن تقروا بالحق الذي جاءكم به محمد ﷺ، وإما أن تعاندوا وتعلموا حالكم وسوء مآلكم»[١].

قال ابن القيم: «ختم السورة بأحوالهم عند القيامة الصغرى، كما ذكر في أولها أحوالهم في القيامة الكبرى، وقسمهم إلى ثلاثة أقسام كما قسمهم هناك إلى ثلاثة. وذكر بين يدي هذا التقسيم الاستدلال على صحته وثبوته، بأنهم مربوبون مدبرون مملوكون، فوقهم رب قاهر مالك يتصرف فيهم بحسب مشيئته وإرادته، وقررهم على ذلك بما لا سبيل لهم إلى دفعه ولا إنكاره، فقال: ﴿فَلَوْلَآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلْحُلْقُومَ ﴿٨٣﴾﴾ أي: وصلت الروح إلى هذا الموضع، بحيث فارقت ولم تفارق، فهي برزخ بين الموت والحياة، كما أنها إذا فارقت صارت في برزخ بين الدنيا والآخرة، ملائكة الرب تعالى أقرب إلى المحتضر من حاضريه من الإنس، ولكنهم لا يبصرون بهم، فلولا تردونها إلى مكانها من البدن أيها الحاضرون، إن كان الأمر كما تزعمون

---

(١) تيسير الكريم الرحمن (ص: ٨٣٦).

أنكم غير مجزيين ولا مدينين، ولا مستوعبين ليوم الحساب.

فإن قيل: أي ارتباط بين هذين الأمرين حتى يلازم بينهما؟

قيل: هذا من أحسن الاستدلال وأبلغه، فإنهم إما أن يقروا بأنهم مربوبون مملوكون، عبيد لمالك قادر متصرف فيهم، قاهر آمر ناهٍ، أو لا يقرون بذلك: فإن أقروا به لزمهم القيام بحقه عليهم وشكره وتعظيمه وإجلاله، وأن لا يجعلوا له ندًّا، ولا شريكًا، وهذا هو الذي جاءهم به رسوله، ونزل عليه به كتابه. وإن أنكروا ذلك وقالوا: إنهم ليسوا بعبيد ولا مملوكين، ولا مربوبين، وإن الأمر إليهم يردون الأرواح إلى مقارها إذا بلغت الحلقوم. فإن المتصرف في نفسه الحاكم على روحه لا يمتنع منه ذلك، بخلاف المحكوم عليه المنصرف فيه غير المدبر له، سواء الذي هو عبد مملوك من جميع الجهات، وهذا الاستدلال لا محيد عنه ولا مدفع له.
ومن أعطاه حقه من التقرير والبيان انتفع به غاية النفع، وانقاد لأجله للعبودية وأذعن، ولم يسعه غير التسليم للربوبية والإلهية والإقرار بالعبودية، ولله ما أحسن جزالة هذه الألفاظ وفصاحتها، وبلوغها أقصى مراتب البلاغة والفصاحة.
والاختصار التام، وندائها إلى معناها من أقرب مكان، واشتمالها على التوبيخ والتقرير والإلزام، ودلائل الربوبية والتوحيد والبعث، وفصل النزاع في معرفة الروح، وأنها تصعد وتنزل وتنتقل من مكان إلى مكان، وما أحسن إعادة (لولا) ثانيًا قبل ذلك الفعل الذي يقتضيه الأول، وجعل الحرفين يقتضيانه اقتضاءً واحدًا. وذكر الشرطين بين (لولا) الأولى والثانية وما تقتضيه من الفعل ثم الموالاة بين الشرط الأول والثاني، مع الفصل بينهما بكلمة واحدة هي الرابط بين (لولا) الأولى والثانية، والشرط الأول والثاني، وهذا تركيب يستحد العقل والسمع لمعناه ولفظه.

فتضمنت الآيتان تقريرًا وتوبيخًا، واستدلالًا على أصول الإيمان: من وجود الخالق سبحانه، وكمال قدرته، ونفوذ مشيئته، وربوبيته، وتصرفه في أرواح عباده، حيث لا يقدرون على التصرف فيها بشيء، وأن أرواحهم بيده، يذهب بها إذا شاء، ويردها إليهم إذا شاء، ويخلي أبدانهم منها تارة، ويجمع بينها وبينهما تارة، وإثبات المعاد، وصدق رسوله فيما أخبر به عنه، وإثبات ملائكته، وتقرير عبودية الخلق، وأتى بهذا في صورة تحضيضين، وتوبيخين، وتقريرين، وجوابين، وشرطين، وجزاءين، منتظمة أحسن انتظام، ومتداخلة أحسن التداخل متعلقًا بعضها ببعض.

وهذا كلام لا يقدر البشر على مثل نظمه ومعناه، قال الفراء: وأجيبت ﴿فَلَوْلَآ إِذَا بَلَغَتِ﴾ و﴿فَلَوْلَآ إِن كُنتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ ﴿٨٦﴾﴾ بجواب واحد وهو: ﴿تَرْجِعُونَهَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٨٧﴾﴾ قال: ومثله قوله تعالى: ﴿فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَاىَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾[1] أجيبا بجواب واحد وهما شرطان. قال الجرجاني: قوله: ﴿تَرْجِعُونَهَآ﴾ جواب قوله: ﴿فَلَوْلَآ﴾ المتقدمة والمتأخرة، على تأويل: فلولا إذا بلغت النفس الحلقوم تردونها إلى موضعها، إن كنتم غير محاسبين ولا مجزيين، كما تزعمون؟ يقول تعالى: إن كان الأمر كما تزعمون أنه لا بعث، ولا حساب ولا جزاء، ولا إله، ولا رب يقوم بذلك، فهلاّ تردّون نفس من يعزّ عليكم إذا بلغت الحلقوم؟ فإذا لم يمكنكم في ذلك حيلة بوجه من الوجوه، فهل دلّكم ذلك على أن الأمر إلى مليك قادر قاهر، متصرف فيكم، وهو اللّه الذي لا إله إلا هو؟ وقال أبو إسحاق: معناه: فهلا ترجعون الروح، إن كنتم غير مملوكين مدبرين؟ فهلاّ إن كان الأمر كما تزعمون فيّ كما يقول قائلكم: ﴿لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا۟﴾[2]، و﴿لَّوْ كَانُوا۟ عِندَنَا مَا مَاتُوا۟ وَمَا قُتِلُوا۟﴾[3] أي: إن كنتم تقدرون أن تؤخروا أجلًا فهلاّ ترجعون الروح إذا بلغت الحلقوم؟ وهلاّ تردون عن أنفسكم الموت.

قلت: وكأن هذا يلتفت إلى قوله تعالى: ﴿۞ قُلْ كُونُوا۟ حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا ﴿٥٠﴾ أَوْ خَلْقًا مِّمَّا يَكْبُرُ فِى صُدُورِكُمْ﴾[4] أي: إن كنتم كما تزعمون لا تبعثون بعد الموت خلقًا جديدًا، فكونوا خلقًا لا يفنى ولا يبلى، إما من حجارة أو من حديد أو أكبر من ذلك. ووجه الملازمة ما تقدم ذكره، وهو إما أن تقرّوا بأن لكم ربًّا متصرّفًا فيكم، ومالكًا لكم، تنفذ فيكم مشيئته وقدرته، يميتكم إذا شاء، ويحييكم إذا شاء، فكيف تنكرون قدرته على إعادتكم خلقًا جديدًا بعدما أماتكم. وإما أن تنكروا أن يكون لكم رب قادر قاهر مالك، نافذ المشيئة فيكم والقدرة فيكم، فكونوا خلقًا لا يقبل الفناء والموت، فإذا لم تستطيعوا أن تكونوا كذلك؛ فما تنكرون من قدرة من جعلكم خلقًا يموت ويحيا، أن يحييكم بعدما أماتكم؟ فهذا استدلال يعجزهم عن

---

(١) البقرة: الآية (٣٨).

(٢) آل عمران: الآية (١٦٨).

(٣) آل عمران: الآية (١٥٦).

(٤) الإسراء: الآيتان (٥٠و٥١).

كونهم خلقًا لا يموت. والذي في (الواقعة) استدلال يعجزهم عن رد الروح إلى مكانها إذا قارب الموت. وليس بعد هذا الاستدلال إلا الإذعان والانقياد أو الكفر والعناد»[١].

وقال أيضًا: «وهذه الآية تحتاج إلى تفسير؛ فإنها سيقت للاحتجاج عليهم في إنكارهم البعث والحساب، ولا بد أن يكون الدليل مستلزمًا لمدلوله، بحيث ينتقل الذهن منه إلى المدلول، لما بينهما من التلازم، فكل ملزوم دليل على لازمه، ولا يجب العكس.

ووجه الاستدلال: أنهم إذا أنكروا البعث والجزاء فقد كفروا بربهم، وأنكروا قدرته وربوبيته وحكمته، فإما أن يقرّوا بأن لهم ربًّا قاهرًا لهم متصرفًا فيهم كما سيميتهم إذا يشاء، ويحييهم إذا شاء، ويأمرهم وينهاهم، ويثيب محسنهم ويعاقب مسيئهم، وإما أن لا يقرّوا بربٍّ هذا شأنه، فإن أقروا به آمنوا بالبعث والنشور، والدين الأمري والجزائي، وإن أنكروه وكفروا به، فقد زعموا أنهم غير مربوبين ولا محكوم عليهم، ولا لهم رب يتصرف فيهم كما أراد، فهلاّ يقدرون على دفع الموت عنهم إذا جاءهم، وعلى رد الروح إلى مستقرها إذا بلغت الحلقوم؟!

وهذا خطاب للحاضرين عند المحتضَر، وهم يعاينون موته؛ أي: فهلاّ تردّون روحها إلى مكانها إن كان لكم قدرة وتصرّف، ولستم مربوبين ولا مقهورين لقاهر قادر، تمضي عليكم أحكامه، وتنفذ فيكم أوامره، وهذا غاية التعجيز لهم؛ إذ تبيّن عجزهم عن رد نفس واحدة من مكان إلى مكان، ولو اجتمع على ذلك الثقلان.

فيا لها من آية دالّة على ربوبيته سبحانه، ووحدانيته، وتصرفه في عباده، ونفوذ أحكامه فيهم، وجريانها عليهم!»[٢].

* * *

---

(١) التبيان في أقسام القرآن (ص: ١٤٢-١٤٤).

(٢) الداء والدواء (ص: ٣١٥-٣١٦).

قوله تعالى: ﴿فَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿٨٨﴾ فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّتُ نَعِيمٍ ﴿٨٩﴾ وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ ﴿٩٠﴾ فَسَلَٰمٌ لَّكَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ ﴿٩١﴾ وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُكَذِّبِينَ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٩٢﴾ فَنُزُلٌ مِّنْ حَمِيمٍ ﴿٩٣﴾ وَتَصْلِيَةُ جَحِيمٍ ﴿٩٤﴾ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ حَقُّ ٱلْيَقِينِ ﴿٩٥﴾﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن القيم: «فلما قام الدليل، ووضح السبيل، وتمّ البرهان على أنهم مملوكون مربوبون، مجزيون محاسبون، ذكر طبقاتهم عند الحشر الأول، والقيامة الصغرى، وهي ثلاث طبقات: طبقة المقربين، وطبقة أصحاب اليمين، وطبقة المكذبين، فجعل تحية المقربين عند الوفاة الروح والريحان والجنة. وهذه الكرامات الثلاثة التي يعطونها بعد الموت نظير الثلاث التي يعطونها يوم القيامة. فالرَّوح الفرح والسرور، والابتهاج ولذة الروح، فهي كلمة جامعة لنعيم الروح ولذتها، وذلك قوتها وغذاؤها، والريحان الرزق، وهو الأكل والشرب، والجنة المسكن الجامع لذلك كله. فيعطون هذه الثلاث في البرزخ، وفي المعاد الثاني.

ثم ذكر الطبقة الثانية، وهي طبقة أصحاب اليمين. ولما كانوا دون المقربين في المرتبة جعل تحيتهم عند القدوم عليه السلامة من الآفات والشرور التي تحصل للمكذبين الضالين، فقال: ﴿وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ ﴿٩٠﴾ فَسَلَٰمٌ لَّكَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ ﴿٩١﴾﴾»[1].

وقال أيضًا: «فليس هذا سلام تحية، ولو كان تحية لقال: فسلام عليه، كما قال: ﴿سَلَٰمٌ عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ﴿١٠٩﴾﴾[2]، ﴿سَلَٰمٌ عَلَىٰ نُوحٍ فِى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧٩﴾﴾[3]؛ ولكن الآية

---

(١) التبيان في أقسام القرآن (ص: ١٤٤-١٤٥).

(٢) الصافات: الآية (١٠٩).

(٣) الصافات: الآية (٧٩).

تضمنت ذكر مراتب الناس وأقسامهم عند القيامة الصغرى حال القدوم على اللَّه، فذكر أنهم ثلاثة أقسام:

مقرَّب، له الروح والريحان وجنة النعيم.

ومقتصد من أصحاب اليمين، له السلامة، فوعده بالسلامة، ووعد المقرب بالغنيمة والفوز وإن كان كل منهما سالمًا غانمًا.

وظالم بتكذيبه وضلاله، فأوعده بنزل من حميم، وتصلية جحيم.

فلما لم يكن المقام مقام تحية، وإنما هو مقام إخبار عن حاله، ذكر ما يحصل له من السلامة.

فإن قيل: فهذا فرق صحيح، لكن ما معنى (اللام) في قوله: ﴿لَّكَ﴾؟ ومن هو المخاطب بهذا الخطاب؟ وما معنى حرف (مِن) في قوله: ﴿مِنْ أَصْحَـٰبِ ٱلْيَمِينِ﴾؟ فهذه ثلاثة أسئلة في الآية.

قيل: قد وفينا بحمد اللَّه بذكر الفرق بين هذا السلام في الآية وبين سلام التحية، وهو الذي كان المقصود، وهذه الأسئلة وإن كانت متعلقة بالآية فهي خارجة عن مقصودنا، ولكن نجيب عنها إكمالًا للفائدة بحول اللَّه وقوته وإن كنّا لم نر أحدًا من المفسرين شفى في هذا الموضع الغليل، ولا كشف حقيقة المعنى واللفظ؛ بل منهم من يقول: المعنى: فمسلم لك إنك من أصحاب اليمين، ومنهم من يقول غير ذلك مما هو حوم على معناها من غير ورود، فاعلم أن المدعو به من الخير والشر مضاف إلى صاحبه بـ(لام) الإضافة الدالة على حصوله له. ومن ذلك قوله تعالى: ﴿أُولَـٰٓئِكَ لَهُمُ ٱللَّعْنَةُ﴾[1]، ولم يقل: عليهم اللعنة؛ إيذانًا بحصول معناها وثبوته لهم، وكذلك قوله: ﴿وَلَكُمُ ٱلْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ﴾[2] ويقول في ضد هذا: لك الرحمة، ولك التحية، ولك السلام، ومنه هذه الآية: ﴿فَسَلَـٰمٌ لَّكَ﴾ أي: ثبت لك السلام وحصل لك. وعلى هذا فالخطاب لكل من هو من هذا الضرب فهو خطاب للجنس، أي: فسلام لك يا من هو من أصحاب اليمين كما تقول: هنيئًا لك يا من هو منهم، ولهذا واللَّه أعلم أتى بحرف (من) في قوله: ﴿مِنْ أَصْحَـٰبِ ٱلْيَمِينِ﴾، والجار والمجرور في موضع

(١) الرعد: الآية (٢٥).

(٢) الأنبياء: الآية (١٨).

حال، أي: سلام لك كائنًا من أصحاب اليمين، كما تقول: هنيئًا لك من أتباع رسول اللَّه وحزبه، أي: كائنًا منهم، والجار والمجرور بعد المعرفة ينتصب على الحال كما تقول: أحببتك من أهل الدين والعلم، أي: كائنًا منهم، فهذا معنى هذه الآية، وهو وإن خلت عنه كتب أهل التفسير فقد حام عليه منهم من حام وما ورد، ولا كشف المعنى، ولا أوضحه، فراجع ما قالوه، واللَّه الموفق المانّ بفضله»[(١)].

وقال: «ثم ذكر الطبقة الثالثة، وهي طبقة الضال في نفسه، المكذب لأهل الحق، وإن له عند الموافاة نزل الحميم، وسكنى الجحيم. ثم أكد هذا الجزاء بما جعله كأنه رأي العين لمن آمن باللَّه ورسوله فقال: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ حَقُّ ٱلْيَقِينِ ۝٩٥﴾[(٢)]، فرفع شأنه عن درجة الظن والعلم إلى اليقين، وعن درجة اليقين إلى حقّه»[(٣)].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في أن الميت إما مستريح أو مستراح منه وما يعاينه عند حضور أجله

* عن أبي قتادة بن ربعي الأنصاري أنه كان يحدث أن رسول اللَّه ﷺ مُرّ عليه بجنازة فقال: «**مستريح ومستراح منه**». قالوا: يا رسول الله! ما المستريح والمستراح منه؟ قال: «**العبد المؤمن يستريح من نصب الدنيا وأذاها إلى رحمة اللَّه عز وجل، والعبد الفاجر يستريح منه العباد والبلاد والشجر والدواب**»[(٤)].

★ **فوائد الحديث:**

قال الباجي: «قوله ﷺ لمّا رأى الجنازة: «**مستريح ومستراح منه**» يريد أن من توفي من الناس على ضربين: ضرب يستريح؛ وضرب يستراح منه، فسألوه: عن تفسير مراده بذلك، فأخبر أن المستريح هو العبد المؤمن يصير إلى رحمة اللَّه وما أعدّ له من الجنة والنعمة، ويستريح من نصب الدنيا وتعبها وأذاها، والمستراح منه

---

(١) بدائع الفوائد (٢/ ١٤٦-١٤٧).

(٢) الواقعة: الآية (٩٥).

(٣) التبيان في أقسام القرآن (ص: ١٤٥).

(٤) أخرجه: أحمد (٥/ ٢٩٦و٣٠٤)، والبخاري (١١/ ٤٤٠/ ٦٥١٢) واللفظ له، ومسلم (٢/ ٦٥٦/ ٩٥٠)، والنسائي (٤/ ٣٥٠-٣٥١/ ١٩٢٩).

هو العبد الفاجر ؛ فإنه يستريح منه العباد والبلاد والشجر والدواب، ويحتمل أن يكون أذاه للعباد بظلمهم، وأذاه للأرض والشجر بغصبها من حقها، وصرفها إلى غير وجهها، وإتعاب الدواب بما لا يجوز له من ذلك؛ فهذا مستراح منه. وقال الداودي: معنى يستريح منه العباد: أنهم يستريحون مما يأتي به من المنكر؛ فإن أنكروا عليه نالهم أذاه، وإن تركوه أثموا، واستراحة البلاد منه أنه بما يأتي من المعاصي تخرب الأرضُ؛ فيهلك لذلك الحرث والنسل. وهذا الذي ذكره فيه نظر؛ لأن من ناله الأذى من أهل المنكر لا يأثم بترك الإنكار عليهم، ويكفيه أن ينكره بقلبه أو بوجه لا يناله به أذاه»[(١)].

قال الحافظ ابن حجر: «مناسبة دخول هذا الحديث في الترجمة: أن الميت لا يعدو أحد القسمين: إما مستريح وإما مستراح منه، وكل منهما يجوز أن يشدد عليه عند الموت وأن يخفف، والأول هو الذي يحصل له سكرات الموت، ولا يتعلق ذلك بتقواه ولا بفجوره، بل إن كان من أهل التقوى ازداد ثوابًا، وإلا فيكفر عنه بقدر ذلك، ثم يستريح من أذى الدنيا الذي هذا خاتمته»[(٢)].

قال الطيبي: «لا يخلو ابن آدم من هذين المعنيين، فلا يختص بصاحب الجنازة. . قال في «شرح السنة»: وأما استراحة البلاد والأشجار، فإن اللَّه تعالى بقدره يرسل السماء عليكم مدرارًا، ويحيي به الأرض والشجر والدواب، بعد ما حبس بشؤم ذنوبه الأمطار»[(٣)].

قال ابن التين: «يحتمل أن يراد بالمؤمن المتقي خاصة، ويحتمل كل مؤمن، والفاجر يحتمل أن يراد به الكافر، ويحتمل أن يدخل فيه العاصي»[(٤)].

* عن عبادة بن الصامت عن النبي ﷺ قال: «**من أحب لقاء اللَّه أحب اللَّه لقاءه، ومن كره لقاء اللَّه كره اللَّه لقاءه**». قالت عائشة أو بعض أزواجه: إنّا لنكره الموت. قال: «**ليس ذلك؛ ولكن المؤمن إذا حضره الموت بُشّر برضوان اللَّه وكرامته، فليس**

---

(١) المنتقى (٢/ ٣٤).

(٢) فتح الباري (١١/ ٤٤٤).

(٣) الكاشف (٤/ ١٣٦٤).

(٤) عمدة القاري (١٥/ ٥٨٦).

شيء أحب إليه مما أمامه، فأحب لقاء اللَّه، وأحب اللَّه لقاءه، وإن الكافر إذا حضر بُشر بعذاب اللَّه وعقوبته، فليس شيء أكره إليه مما أمامه، فكره لقاء اللَّه، وكره اللَّه لقاءه»[1].

★ فوائد الحديث:

قال أبو عمر: «هذا الحديث معناه عند أهل العلم فيما يعاينه المرء عند حضور أجله، فإذا رأى ما يكره لم يحب الخروج من الدنيا ولا لقاء اللَّه لسوء ما عاين مما يصير إليه، وإذا رأى ما يحب أحب لقاء اللَّه والإسراع إلى رحمته لحسن ما عاين وبُشر به. وليس حبُّ الموت ولا كراهيته -والمرء في صحته- من هذا المعنى في شيء، واللَّه أعلم.

وقال أبو عبيد في معنى قوله ﷺ: «من أحب لقاء اللَّه أحب اللَّه لقاءه»، قال: ليس وجهه عندي أن يكون يكره علز الموت وشدته؛ لأن هذا لا يكاد يخلو منه أحد؛ نبي ولا غيره، ولكن المكروه من ذلك إيثار الدنيا والركون إليها، والكراهة أن يصير إلى اللَّه والدار الآخرة ويؤثر المقام في الدنيا. قال: ومما يبين ذلك أن اللَّه قد عاب قومًا في كتابه بحب الحياة فقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا وَرَضُوا۟ بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَٱطْمَأَنُّوا۟ بِهَا﴾[2]، وقال: ﴿وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ ٱلنَّاسِ عَلَىٰ حَيَوٰةٍ وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ﴾[3]، وقال: ﴿وَلَا يَتَمَنَّوْنَهُۥٓ أَبَدًۢا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ﴾[4]، قال: فهذا يدل على أن الكراهية للقاء اللَّه ليست بكراهية الموت، وإنما هو الكراهية للنقلة من الدنيا إلى الآخرة»[5].

قال شيخ الإسلام: «وفساد قول الذين يجعلون المراد لقاء الجزاء دون لقاء اللَّه معلوم بالاضطرار بعد تدبر الكتاب والسنة، يظهر فساده من وجوه:

---

(١) أخرجه: أحمد (٥/ ٣٢١)، والبخاري (١١/ ٤٣٤/ ٦٥٠٧) واللفظ له، ومسلم (٤/ ٢٠٦٥/ ٢٦٨٣)، والترمذي (٣/ ٣٧٩/ ١٠٦٦)، والنسائي (٤/ ٣٠٨/ ١٨٣٥).

(٢) يونس: الآية (٧).

(٣) البقرة: الآية (٩٦).

(٤) الجمعة: الآية (٧).

(٥) فتح البر (٦/ ٣٦٠).

أحدها: أنه خلاف التفاسير المأثورة عن الصحابة والتابعين.

الثاني: أن حذف المضاف إليه يقارنه قرائن، فلا بد أن يكون مع الكلام قرينة تبين ذلك، كما قيل في قوله: ﴿وَسْـَٔلِ ٱلْقَرْيَةَ ٱلَّتِى كُنَّا فِيهَا﴾[1]، ولو قال قائل: رأيت زيدًا أو لقيته مطلقًا، وأراد بذلك لقاء أبيه أو غلامه، لم يجز ذلك في لغة العرب بلا نزاع، ولقاء اللَّه قد ذكر في كتاب اللَّه وسنة رسوله في مواضع كثيرة مطلقًا غير مقترن بما يدل على أنه أريد بلقاء اللَّه لقاء بعض مخلوقاته من جزاء أو غيره.

الثالث: أن اللفظ إذا تكرر ذكره في الكتاب ودار مرّة بعد مرة على وجه واحد، وكان المراد به غير مفهومه ومقتضاه عند الإطلاق، ولم يبين ذلك، كان تدليسًا وتلبيسًا يجب أن يصان كلام اللَّه عنه الذي أخبر أنه شفاء لما في الصدور وهدى ورحمة للمؤمنين، وأنه بيان للناس، وأخبر أن الرسول قد بلغه البلاغ المبين، وأنه بين للناس ما نزل إليهم، وأخبر أن عليه بيانه، ولا يجوز أن يقال ما في العقل دلالة على امتناع إرادة هذا المعنى هو القرينة التي دل المخاطبين على الفهم بها؛ لوجهين: أحدهما: أن يقال: ليس في العقل ما ينافي ذلك، بل الضرورة العقلية والبراهين العقلية توافق ما دل عليه القرآن، كما قال: ﴿وَيَرَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ ٱلْحَقَّ﴾[2]، وما يذكر من الحجج العقلية المخالفة لمدلول القرآن فهو شبهات فاسدة عند من له خبرة جيدة بالمعقولات دون من يقلد فيها بغير نظر تام. الثاني: أنه لو فرض أن هناك دليلًا عقليًا ينافي مدلول القرآن، لكان خفيًّا دقيقًا ذا مقدمات طويلة مشكلة متنازع فيها، ليس فيها مقدمة متفق عليها بين العقلاء؛ إذ ما يذكر من الأدلة العقلية المخالفة لمدلول القرآن هي شبهات فاسدة كلها ليست من هذا الباب، ومعلوم أن المخاطب الذي أخبر أنه بين للناس، وأن كلامه بلاغ مبين، وهدى للناس، إذا أراد بكلامه ما لا يدل عليه ولا يفهم منه إلا بمثل هذه القرينة، لم يكن قد بين وهدى، بل قد كان لبّس وأضلّ، وهذا مما اتفق المسلمون على وجوب تنزيه اللَّه ورسوله، بل وعامة الصحابة والأئمة من ذلك.

---

(١) يوسف: الآية (٨٢).

(٢) سبأ: الآية (٦).

الرابع: أن قول النبي ﷺ في الحديث المتفق عليه: «**اللهم لك الحمد أنت رب السموات والأرض ومن فيهنّ، ولك الحمد أنت قيّوم السموات والأرض ومن فيهنّ، ولك الحمد أنت نور السموات والأرض ومن فيهنّ، أنت الحق، وقولك الحق، ولقاؤك حق، والجنة حق، والنار حق، والنبيّون حق، ومحمد حق، اللهم لك أسلمت، وبك آمنت، وعليك توكلت، وإليك أنبت، وإليك حاكمت، وبك خاصمت، اللهم اغفر لي ما قدمت، وما أخرت، وما أسررت، وما أعلنت، وما أنت أعلم به مني، أنت إلهي، لا اله إلا أنت**»[1]، وفي لفظ: «**أعوذ بك أن تضلني، أنت الحي الذي لا تموت، والجن والإنس يموتون**»[2]، ففي الحديث فرق بين لقائه، وبين الجنة والنار. والجنة والنار تتضمن جزاء المطيعين والعصاة، فعُلم أن لقاءه ليس هو لقاء الجنة والنار.

الخامس: أن النبي ﷺ ذكر في غير حديث ما يبين لقاء العبد ربه؛ كما في الصحيحين عن عدي بن حاتم عن النبي ﷺ أنه قال: «**ما منكم من أحد إلا سيكلمه الله؛ ليس بينه وبينه حاجب ولا ترجمان، فينظر أيمن منه فلا يرى إلا شيئًا قدّمه، وينظر أشأم منه فلا يرى إلا شيئًا قدّمه، فتستقبله النار، فمن استطاع أن يتقي النار ولو بشق تمرة فليفعل، فإن لم يستطع فبكلمة طيبة**»[3]، إلى أمثال ذلك من الأحاديث.

السادس: أنه لو أريد بلقاء اللَّه بعض المخلوقات إما جزاء وإما غير جزاء، لكان ذلك واقعًا في الدنيا والآخرة، فكان العبد لا يزال ملاقيًا لربه. ولما علم المسلمون بالاضطرار من دين الإسلام أن لقاء اللَّه لا يكون إلا بعد الموت، عُلم بطلان أن اللقاء لقاء بعض المخلوقات، ومعلوم أن اللَّه قد جازى خلقًا على أعمالهم في الدنيا بخير وشر كما جازى قوم نوح وعاد وثمود وفرعون، وكما جازى الأنبياء

---

(١) أخرجه: أحمد (١/ ٣٠٨)، والبخاري (٣/ ٣/ ١١٢٠)، ومسلم (١/ ٥٣٢-٥٣٣/ ٧٦٩)، والنسائي (٣/ ٢٣١-٢٣٢/ ١٦١٨)، وابن ماجه (١/ ٤٣٠-٤٣١/ ١٣٥٥) من حديث ابن عباس ﵄.

(٢) أخرجه: أحمد (١/ ٣٠٢)، والبخاري (١٣/ ٤٥٦/ ٧٣٨٣)، ومسلم (٤/ ٢٠٨٦/ ٢٧١٧)، والنسائي في الكبرى (٤/ ٣٩٩/ ٧٦٨٤).

(٣) أخرجه: أحمد (٤/ ٢٥٦)، والبخاري (١١/ ٤٨٨/ ٦٥٣٩)، ومسلم (٢/ ٧٠٣-٧٠٤/ ١٠١٦[٦٧])، والترمذي (٤/ ٥٢٨/ ٢٤١٥) وقال: «هذا حديث حسن صحيح»، وابن ماجه (١/ ٦٦/ ١٨٥).

وأتباعهم، ولم يقل مسلم: إن لقاء هذه الأمور في الدنيا لقاء اللَّه، ولو قال قائل: إن لقاء اللَّه جزاء مخصوص وهو الجنة مثلًا أو النار، لقيل له: ليس في لفظ هذا لقاء مخصوص، ولا دليل عليه، وليس هو بأولى من أن يقال: لقاء اللَّه تعالى لقاء بعض ملائكته أو بعض الشياطين، وأمثال ذلك من التحكمات الموجودة في الدنيا والآخرة؛ إذ ليس دلالة اللفظ على تعيين هذا بأولى من دلالته على تعيين هذا، فبطل ذلك.

الوجه السابع: أن لقاء اللَّه لم يستعمل في لقاء غيره، لا حقيقة ولا مجازًا، ولا استعمل لقاء زيد في لقاء غيره أصلًا، بل حيث ذكر هذا اللفظ فإنما يراد به لقاء المذكور؛ إذ ما سواه لا يشعر اللفظ به، فلا يدل عليه.

الوجه الثامن: أن قوله: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُصَلِّى عَلَيْكُمْ وَمَلَٰٓئِكَتُهُۥ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۚ وَكَانَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا ﴿٤٣﴾ تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُۥ سَلَٰمٌ ۚ وَأَعَدَّ لَهُمْ أَجْرًا كَرِيمًا ﴿٤٤﴾﴾[1]، فلو كان اللقاء هو لقاء جزائه لكان هو لقاء الأجر الكريم الذي أعد لهم، وإذا أخبر بأنهم يلقون ذلك لم يحسن بعد ذلك الإخبار بإعداده؛ إذ الإعداد مقصوده الوصول، فكيف يخبر بالوسيلة بعد حصول المقصود، هذا نزاع بين العي الذي يصان عنه كلام أوسط الناس، فضلًا عن كلام رب العالمين، لا سيما وقد قرن اللقاء بالتحية، وذلك لا يكون إلا في اللقاء المعروف، لا في حصول شيء من النعيم المخلوق.

الوجه التاسع: أن قول النبي ﷺ في الحديث الصحيح: «**من أحب لقاء اللَّه أحب اللَّه لقاءه، ومن كره لقاء اللَّه كره اللَّه لقاءه**» أخبر فيه أن اللَّه يحب لقاء عبد ويكره لقاء عبد، وهذا يمتنع حمله على الجزاء؛ لأن اللَّه لا يكره جزاء أحد، ولأن الجزاء لا يلقاه اللَّه، ولأنه إن جاز أن يلقى بعض المخلوق كالجزاء أو غيره جاز أن يلقى العبد، فالمحذور الذي يذكر في لقاء العبد موجود في لقائه سائر المخلوقات، فهذا تعطيل النص، وإما أن يقال: بل هو لاقٍ لبعضها، فيتناقض قول الجهمي ويبطل، ودلائل بطلان هذا القول لا تكاد تحصى يضيق هذا الاستفتاء عن ذكر كثير منها فضلًا عن أكثرها»[2].

---

(١) الأحزاب: الآيتان (٤٣و٤٤).

(٢) مجموع الفتاوى (٦/ ٤٧١-٤٧٥).

قال الحافظ: «وفيه أن المجازاة من جنس العمل؛ فإنه قابل المحبة بالمحبة والكراهة بالكراهة»[١].

قال شيخ الإسلام: «أما قول السائل قد يعترض على هذا السؤال وهو: إذا كان حب اللقاء لما رآه من النعيم، فالمحبة حينئذ للنعيم العائد عليه لا لمجرد لقاء اللَّه. فيقال له: ليس كذلك، ولكن لقاء اللَّه على نوعين: لقاء محبوب ولقاء مكروه، كما قال سليمان بن عبد الملك لأبي حازم سلمة بن دينار الأعرج: كيف القدوم على اللَّه تعالى؟ فقال: (المحسِن كالغائب يقدم على مولاه، وأما المسيء كالآبق يُقدم به على مولاه). فلما كان اللقاء نوعين، وإنما يميز أحدهما عن الآخر في الإخبار بما يوصف به هذا اللقاء وهذا اللقاء، وصف النبي ﷺ اللقاء المحبوب بما تتقدمه البشرى بالخير، وما يقترن به من الإكرام، واللقاء المكروه بما يتقدمه من البشرى بالسوء، وما يقترن به من الإهانة، فصار المؤمن مخبرًا بأن لقاءه لله لقاء محبوب، والكافر مخبرًا بأن لقاءه لله مكروه، فصار المؤمن يحب لقاء اللَّه، وصار الكافر يكره لقاء اللَّه، فأحب اللَّه لقاء هذا، وكره لقاء هذا، جزاءً وفاقًا؛ فإن الجزاء بذلك من جنس العمل»[٢].

* * *

---

(١) فتح الباري (١١/ ٤٣٨).

(٢) مجموع الفتاوى (٦/ ٤٨٢).

قوله تعالى: ﴿فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ ۝٩٦﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن القيم: «أمره أن ينزّه اسمه -تبارك وتعالى- عمّا لا يليق به. وتنزيه الاسم متضمن لتنزيه المسمّى عمّا يقوله الكاذبون والجاحدون»(١).

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في فضل التسبيح

* عن جابر بن عبد اللَّه عن النبي ﷺ قال: «**من قال: سبحان اللَّه العظيم وبحمده، غرست له نخلة في الجنة**»(٢).

★ **فوائد الحديث:**

قال المباركفوري: «قوله: «**سبحان اللَّه العظيم وبحمده**» قيل: الواو زائدة، أي: تسبيحًا مقرونًا بحمده، «**غرست له**» بصيغة المجهول؛ يقال: غرست الشجرة غرسًا وغِراسًا: إذا نصبتها في الأرض، «**نخلةٌ**» أي غرست له بكل مرة نخلة في الجنة، أي المعدّة لقائلها، خُصّت لكثرة منفعتها وطيب ثمرتها، ولذلك ضرب اللَّه تعالى مثل المؤمن وإيمانه بها وثمرتها في قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً﴾(٣) وهي كلمة التوحيد، ﴿كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ﴾ وهي النخلة»(٤).

* عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال النبي ﷺ: «**كلمتان حبيبتان إلى الرحمن،**

---

(١) التبيان في أقسام القرآن (ص: ١٤٥).

(٢) أخرجه: ابن أبي شيبة (٦/ ٥٤/ ٢٩٤١٦)، والترمذي (٥/ ٤٧٧/ ٣٤٦٤)، وقال: «حديث حسن صحيح غريب لا نعرفه إلا من حديث أبي الزبير عن جابر»، والنسائي في الكبرى (٦/ ٢٠٧/ ١٠٦٦٢)، وأبو يعلى (٤/ ١٦٥/ ٢٢٣٣)، والحاكم (١/ ٥٠١-٥٠٢) وقال: «صحيح على شرط مسلم» وقال الذهبي: «على شرط البخاري»، وابن حبان (الإحسان ٣/ ١٠٩/ ٨٢٦). وللحديث شواهد أوردها الشيخ الألباني في 'السلسلة الصحيحة'.

(٣) إبراهيم: الآية (٢٤).

(٤) تحفة الأحوذي (٩/ ٣٠٤).

خفيفتان على اللسان، ثقيلتان في الميزان: سبحان اللَّه وبحمده، سبحان اللَّه العظيم»[١].

★ فوائد الحديث:

قوله: «حبيبتان إلى الرحمن»:

قال الغنيمان: «فيه أن اللَّه تعالى يحبّ بعض الكلام وبعض العمل أكثر من غيره، ومحبّة اللَّه من صفاته التي يجب أن تثبت له على ما يليق بعظمته، ولا يجوز تأويل محبّته، وتحريف الكلم فيها عن مواضعه كفعل أهل البدع»[٢].

قوله: «خفيفتان على اللسان»:

«فيه إشارة إلى قلة كلامهما وأحرفهما ورشاقتهما»[٣].

قال القسطلاني: «لِلين حروفهما وسهولة خروجهما، فالنطق بهما سريع؛ وذلك لأنه ليس فيهما من حروف الشدة المعروفة عند أهل العربية، وهي الهمزة، والباء الموحدة، والتاء المثناة الفوقية، والجيم، والدال والطاء المهملتان، والقاف، والكاف، ولا من حروف الاستعلاء أيضًا وهي: الخاء المعجمة، والصاد، والضاد، والطاء، والظاء، والغين المعجمة، والقاف، سوى حرفين: الباء الموحدة والظاء المعجمة، ومما يستثقل أيضًا من الحروف: الثاء المثلثة، والشين المعجمة، وليستا فيهما، ثم إن الأفعال أثقل من الأسماء، وليس فيهما فعل، وفي الأسماء أيضًا ما يستثقل كالذي لا ينصرف، وليس فيهما شيء من ذلك، وقد اجتمعت فيهما حروف اللين الثلاثة الألف والواو والياء. وبالجملة فالحروف السهلة الخفيفة فيهما أكثر من العكس»[٤].

قال الطيبي: «الخفة مستعارة للسهولة، شبّه سهولة جريان الكلمتين على اللسان

---

(١) أخرجه: أحمد (٢/ ٢٣٢)، والبخاري (١٣/ ٦٥٧/ ٧٥٦٣) واللفظ له، ومسلم (٤/ ٢٠٧٢/ ٢٦٩٤)، والترمذي (٥/ ٤٧٨/ ٣٤٦٧)، والنسائي في الكبرى (٦/ ٢٠٧-٢٠٨/ ١٠٦٦٦)، وابن ماجه (٢/ ١٢٥١/ ٣٨٠٦).

(٢) شرح كتاب التوحيد من صحيح البخاري (٢/ ٥٩٣).

(٣) فتح الباري (١٣/ ٦٦١).

(٤) إرشاد الساري (١٥/ ٦٣٢).

بما يخفّ على الحامل من بعض الأمتعة، فلا يتعبه كالشيء الثقيل، فذكر المشبَّه به وأراد المشبَّه»[١].

قال الغنيمان: «عند النطق بهما لا تثقلان اللسان ولا تكلفه لسهولة حروفهما؛ وخفتهما على اللسان»[٢].

«ثقيلتان في الميزان»:

قال القسطلاني: «حقيقةً لكثرة الأجور المدّخرة لقائلهما، والحسنات المضاعفة للذاكر بهما»[٣].

قال ابن بطال: «أجمع أهل السنة على الإيمان بالميزان، وأن أعمال العباد توزن يوم القيامة، وأن الميزان له لسان وكفتان، وتمثل الأعمال بما يوزن، وخالف ذلك المعتزلة وأنكروا الميزان، وقالوا: الميزان عبارة عن العدل، وهو خلاف لنصّ كتاب اللَّه، وقول رسول اللَّه ﷺ.

قال المهلب: فأخبر اللَّه تعالى أنه يضع الموازين لتوزن أعمال العباد بها، فيريهم أعمالهم ممثلة في الميزان لأعين العاملين؛ ليكونوا على أنفسهم شاهدين قطعًا لحججهم، وإبلاغًا في إنصافهم عن أعمالهم الحسنة، وتبكيتًا لمن قال: إن اللَّه لا يعلم كثيرًا مما يعملون، وتقصّيًا عليهم لأعمالهم المخالفة لما شرع لهم، وبرهانًا على عدله على جميعهم، وأنه لا يظلم مثقال حبّة من خردل حتى يعرف كل بما قد نسيه من عمله، ويميز ما عساه قد احتقره من فعله. ويقال له عند اعترافه: ﴿كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا﴾[٤].

وقوله: «**ثقيلتان في الميزان**» يدل أن تسبيح اللَّه وتقديسه من أفضل النوافل، وأعظم الذخائر عنده تعالى، ألا ترى قوله ﷺ: «**حبيبتان إلى الرحمن**»»[٥].

قال المباركفوري: «وخص (الرحمن) من الأسماء الحسنى للتنبيه على سعة رحمة اللَّه حيث يجازي على العمل القليل بالثواب الجزيل»[٦].

---

(١) الكاشف (٦/ ١٨٢٠-١٨٢١).

(٢) شرح كتاب التوحيد من صحيح البخاري (٢/ ٥٩٣).

(٣) إرشاد الساري (١٥/ ٦٣٢).

(٤) الإسراء: الآية (١٤).

(٥) شرح صحيح البخاري (١٠/ ٥٥٩).

(٦) تحفة الأحوذي (٩/ ٣٠٦).

قال الطيبي: «وفيه حث على المواظبة عليها، وتحريض على ملازمتها، وتعريض بأن سائر التكاليف صعبة شاقة على النفس ثقيلة، وهذه خفيفة سهلة عليها، مع أنها تثقل في الميزان ثقل غيرها من التكاليف، فلا يتركوها إذًا»[(١)].

قوله: «**سبحان اللَّه وبحمده**»:

قال ابن بطال: «معنى قولهم في لغة العرب: (سبحان الله): تنزيه اللَّه من الأولاد والصاحبة والشركاء»[(٢)].

«قال الأزهري: قال الليث: سبحان اللَّه، تنزيه لله، عن كل ما لا ينبغي له أن يوصف به ونصب على المصدر. تقول: سبحت اللَّه تسبيحًا، أي: نزهته تنزيهًا، وكذلك روي عن النبي ﷺ.

قال الزجاج: (سبحان) في اللغة: تنزيه اللَّه ﷻ عن السوء.

قلت: وهذا قول سيبويه. يقال: سبحت اللَّه تسبيحًا وسبحانًا، بمعنى واحد، فالمصدر: تسبيح، والاسم: سبحان؛ يقوم مقام المصدر.

قلت: ومعنى تنزيه اللَّه من السوء: تبعيده منه، وكذلك تسبيحه: تبعيده، من قولك: سبحت في الأرض: إذا أبعدت فيها. ومنه قوله جل وعز: ﴿كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾[(٣)]، وكذلك قوله: ﴿وَالسَّابِحَاتِ سَبْحًا ۝٣﴾[(٤)] هي النجوم تسبح في الفلك، أي: تذهب فيه بسطًا، كما يسبح السابح في الماء.

وكذلك السابح من الخيل، يمد يديه في الجري سبحًا، كما يسبح السابح في الماء. وجماع معناه: بعده -تبارك وتعالى- عن أن يكون له مثل أو شريك أو ضد، أو ندّ»[(٥)].

قال الحافظ: «قوله: «**وبحمده**»، قيل: (الواو) للحال، والتقدير: أسبّح اللَّه متلبّسًا بحمدي له من أجل توفيقه. وقيل: عاطفة، والتقدير: أسبّح اللَّه وأتلبّس بحمده.

ويحتمل أن يكون الحمد مضافًا للفاعل، والمراد من الحمد لازمه، أو ما

---

(١) الكاشف (٦/ ١٨٢١).

(٢) شرح صحيح البخاري (١٠/ ١٣٣).

(٣) الأنبياء: الآية (٣٣).

(٤) النازعات: الآية (٣).

(٥) شرح كتاب التوحيد للغنيمان (٢/ ٥٩٤-٥٩٥).

يوجب الحمد من التوفيق ونحوه. ويحتمل أن تكون (الباء) متعلقة بمحذوف متقدم، والتقدير: وأثني عليه بحمده، فيكون (سبحان الله) جملة مستقلة، و(بحمده) جملة أخرى»[١].

قال الكرماني: «فإن قلت: ما الحمد؟ قلت: له تعريفان، والمختار أنه هو الثناء على الجميل الاختياري على وجه التعظيم»[٢].

قوله: **«سبحان اللَّه العظيم»:**

قال القسطلاني: «وختم بقوله: «سبحان اللَّه العظيم» ليجمع بين مقامي الرجاء والخوف؛ إذ معنى (الرحمن) يرجع إلى الإنعام والإحسان، ومعنى (العظيم) يرجع إلى الخوف من هيبته تعالى، وقوله: (سبحان) إلى آخره، مبتدأ وما بينه وبين الخبر صفة له بعد صفة»[٣].

قال الكرماني: «وفيه نكتة أخرى، وهي أنه ذكر أولًا لفظ (الله) الذي هو اسم للذات الجامعة لجميع الصفات العليا والأسماء الحسنى، ثم وصفه بـ(العظيم) الذي هو شامل لسلب ما لا يليق به وإثبات ما يليق؛ إذ العظمة المطلقة الكاملة مستلزمة لعدم الشريك والتجسيم ونحوه، وللعلم بكل المعلومات، والقدرة بكل المقدورات، إلى غير ذلك، وإلا لم يكن عظيمًا مطلقًا، وأما تكرار التسبيح فللإشعار بتنزيهه على الإطلاق، وبأن التسبيح ليس إلا ملتبّسًا بالحمد؛ ليعلم أن الكمال له نفيًا وإثباتًا معًا جميعًا، أو لأن الاعتناء بشأن التنزيه أكثر من الاعتناء بالتحميد؛ لكثرة المخالفين فيه، قال تعالى: ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِاللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ ﴿١٠٦﴾﴾[٤]، ولهذا ورد في القرآن بعبارات مختلفة جاء بلفظ المصدر: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ﴾[٥]، وبالماضي: ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ﴾[٦]، وبالمضارع: ﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ﴾[٧]، وبالأمر: ﴿سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى ﴿١﴾﴾[٨]»[٩].

---

(١) فتح الباري (١٣/ ٦٦١-٦٦٢).
(٢) شرح الكرماني (٢٥/ ٢٥٠).
(٣) إرشاد الساري (١٥/ ٦٣٤).
(٤) يوسف: الآية (١٠٦).
(٥) الإسراء: الآية (١).
(٦) الحديد: الآية (١).
(٧) الجمعة: الآية (١).
(٨) الأعلى: الآية (١).
(٩) شرح الكرماني (٢٥/ ٢٥٠-٢٥١).

قال الحافظ: «وقال شيخنا شيخ الإسلام سراج الدين البلقيني في كلامه على مناسبة أبواب صحيح البخاري الذي نقلته عنه في أواخر المقدمة.. وفي الحديث الذي ذكره ترغيب وتخفيف، وحث على الذكر المذكور لمحبة الرحمن له، والخفة بالنسبة لما يتعلق بالعمل، والثقل بالنسبة لإظهار الثواب، وجاء ترتيب هذا الحديث على أسلوب عظيم، وهو أن حب الرب سابق، وذكر العبد وخفة الذكر على لسانه تال، ثم بين ما فيهما من الثواب العظيم النافع يوم القيامة، انتهى ملخّصًا»(١).

قال ابن بطال: «قال بعض الناس: هذه الفضائل التي جاءت عن النبي ﷺ: «من قال: **سبحان اللَّه وبحمده، مائة مرة، غفر له..**»(٢) وما شاكلها، إنما هي لأهل الشرف في الدين والكمال والطهارة من الجرائم العظام. ولا يظن أن من فعل هذا وأصر على ما شاء من شهواته، وانتهك دين اللَّه وحرماته، أنه يلحق بالسابقين المطهرين، وينال منزلتهم في ذلك بحكاية أحرف ليس معها تقىً ولا إخلاص ولا عمل، ما أظلمه لنفسه من يتأول دين اللَّه على هواه»(٣).

* * *

---

(١) فتح الباري (١٣/ ٦٦٢-٦٦٣).

(٢) أخرجه: أحمد (٢/ ٣٠٢)، والبخاري (١١/ ٢٤٦/ ٦٤٠٥)، ومسلم (٤/ ٢٠٧١/ ٢٦٩١)، والترمذي (٥/ ٤٧٨/ ٣٤٦٦)، وابن ماجه (٢/ ١٢٥٣/ ٣٨١٢)، والنسائي في الكبرى (٦/ ٢٠٧/ ١٠٦٦٢) من حديث أبي هريرة ﷺ.

(٣) شرح صحيح البخاري (١٠/ ١٣٤).

فهرس الموضوعات

سورة الطور

سورة النجم

سورة القمر

سورة الرحمن

سورة الواقعة

* * *